

النَّسِيرُ فِي النَّفْسِيرِ

الجزء الرابع

الرَّحْمَةُ - اللَّهُ نَبِيَّاءُ

تَأْلِيفُ

العالم الرباني الكبير فقيه القرآن

السيد / بدر الدين بن أمير الدين الحوثي الحسيني

رضوان الله عليه

تحقيق

محمد بدر الدين الحوثي

عبد الله بن محمد القزويني



مؤسسة المصطفى عليه السلام الثقافية

التيسير في التفسير

تأليف العالم الرباني الكبير فقيه القرآن السيد/ بدر الدين بن أمير الدين الحوثي رضوان الله عليه
تحقيق: السيد/ عبدالله بن حمود العزي ، السيد/ محمد بدر الدين الحوثي

الطبعة: الأولى ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م

جميع الحقوق محفوظة ©

قياس القطع: (٢٤×١٦,٥)

عدد المجلدات: (٧)

الصف والإخراج: مؤسسة المصطفى ﷺ الثقافية

إخراج وتنسيق/ علي بن حمود العزي

رقم الإيداع بدار الكتب اليمنية: (٢٠١٣/٣٢٥م)



مؤسسة المصطفى ﷺ الثقافية

جميع الحقوق محفوظة

مؤسسة المصطفى ﷺ الثقافية

اليمن — صعدة

جوال: (٠٠٩٦٧-٧١١٦٦٤٧٥٩) - (٠٠٩٦٧-٣٣٦٩١٢٧٧) - (٠٠٩٦٧-١١٣٧٧٧٢٢)

بريد: hbbhhd@gmail.com - almostafa.ve@gmail.com



التَّيْسِيرُ فِي التَّفْسِيرِ



سُورَةُ الرَّعْدِ



سُورَةُ الرَّعْدِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْمَرْ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ ۖ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ

تفسير (سورة الرعد)

اختلف فيها؛ أهي (مكية) إلا آيتين؟ أم (مدنية) كلها؟ أم (مدنية) سوى قوله تعالى:

﴿وَلَوْ أَنْ قُرْآنًا..﴾ الآية؟ والمعاني فيها أشبه بالمعاني المكية . والله أعلم.

﴿١﴾ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الْمَرْ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ ۖ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ﴿المر﴾ سبق الكلام في الحروف في أول (سورة المص).

وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ﴾ إشارة إلى الحروف كلها الذي يتركب منها القول، فمعناه: أن الله أنزل القرآن كلاماً مؤلفاً من الحروف التي يستعملها العرب في تأليف كلامهم، فهو تحقيق لإنزال الكتاب بكلماته وحروفه لا مجرد المعنى يلهمه الرسول ﷺ ولعل فيه إشارة إلى تعجيز العرب أن يأتوا بمثله إن كان كفارهم صادقين وقد مر تفصيل هذا.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ﴾ كالدليل على أن الكتاب حق بأنه أنزل إلى رسول الله ﷺ من ربه وكلما أنزل إليه من ربه فهو الحق؛ لأن الله حكيم حميد ليس في كلماته باطل، وتسميته كتاباً مع أنه حين نزل به جبريل لم يكن قد كتب في الأرض ولكنه جعله كتاباً؛ لأن الله أنزله ليكون كتاباً يحفظ وتتوارثه الأجيال.

قال الشرفي في (المصابيح): «وفي (البرهان): الكتاب: هو القرآن أي أنها آيات الكتاب الذي وعد الله ﷻ أن ينزله عليه ويجعله باقياً على وجه الدهر» انتهى المراد.

أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدِيرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٦﴾ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ

وقوله ﷻ: ويجعله باقياً، كنت فسرت به تسميته كتاباً نظراً، فإذا قد سبقني إليه (صاحب البرهان) الإمام الناصر أبو الفتح الديلمي، والحمد لله. وقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي ليست عاداتهم الإيمان بالحق بدلائله فأي آية تأتيهم يعرضون عنها ولا يؤمنون بما دلت عليه لاشتغالهم بالدنيا وإهمالهم لعقولهم في شأن الآخرة فتركهم للإيمان بالقرآن ليس سببه إلا أنهم لا يؤمنون.

﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدِيرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ هذا من دلائل قدرته تعالى، حيث فصل بين الأرض والسموات بمسافات وحفظها من سقوط الأعلى على الأسفل فحفظها من التصادم ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾ أي بغير أعمدة، والعَمَد: جمع عمود وهو في الأصل عود يعتمد عليه سقف الخيمة، وقوله تعالى ﴿تَرَوْنَهَا﴾ أي رفع السموات بغير عمد من جنس الأعمدة المرئية، وهذا دليل على القدرة الخارقة التي لا تقاس بقدرة المخلوقين وعلمه الذي لا يقاس بعلمهم فهو قادر على إحياء الموتى.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ تعبير عن ملكه وابتداء تدبيره لشؤون عباده المخلوقين كخلق الملائكة وأمره لهم بما شاء من أمره ثم خلق الجن وتعبد لهم، ثم خلق البشر وأمر الملائكة بالسجود لآدم ثم تدبير شؤون البشر بإرسال الرسل وإنزال الكتب وإهلاك الكاذبين لهم القائمين ضدهم المكذبين بآيات ربهم، فهذه التصرفات وأشباهها في العالم التابعة للملكوت الله جل جلاله هي من دلائله على ملكه [بضم الميم] المعبر عنه بالإستواء على العرش.

فالمعنى: إن له تعالى مُلْكَ السموات والأرض وما فيهما منذُ رفع السموات على الأرض؛ ولذلك فله الحكم وحده في الدنيا والآخرة وله الملك في الدنيا والآخرة فهو يتصرف في عبادته تصرف المَلِك في الدنيا والآخرة بالأمر والنهي والابتلاء والإختبار في الدنيا وبالجِزاء في الآخرة للمطيع والعاصي لكل بما يستحق، والإنصاف بين عبادته والحكم بينهم في الآخرة.

قال الراغب في تفسيره لـ (مفردات القرآن): «وسمي مجلس السلطان عرشاً اعتباراً بعلوه، قال: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [يوسف: ١٠٠] ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِي يَعْرَشُهَا﴾ [النمل: ٣٨] ﴿أَهَكَذَا عَرْشُكَ﴾ [النمل: ٤٢] وَكُنِيَ بِهِ عَنِ الْعَرْشِ وَالسُّلْطَانِ وَالْمَمْلَكَةِ، قيل: فلانٌ ثُلٌّ عرشه» انتهى المراد.

وفي (الصحيح): «العرش: سرير الملك، وعرشُ البيت سقفه، وقولهم: ثُلٌّ عرشه أي وهى أمره وذهب عِزُّه، قال زهير:

تداركتما عبساً وقد ثُلَّ عرشها وذيان قد زلت بأقدامها النعلُ»

انتهى.

وفي (لسان العرب): «والعرش: المُلْك، وثُلٌّ عرشه: هُدم ما هو عليه من قوام أمره، وقيل: وهى أمره، قال زهير:

تداركتما عبساً وقد ثُلَّ عرشها ذيان قد زَلَّتْ بأقدامها النعلُ»

انتهى المراد.

وقد ذكر غيره من أشعار العرب قول الشاعر:

ولقد بنت لي عميتي في مأربٍ عرشاً على كرسي ملك متلِّدٍ

وقول الشاعر:

إن يقتلوك فقد ثلثت عروشهم بعثية بن الحارث بن شهاب
وفي (لسان العرب) في معاني (استوى): «استوى أي استولى وظهر،
وقال:

قد استوى بشر على العراق من غير سيف ودم مہراق»

انتهى.

وقد ذكر معاني أخر، ولكن العقل هو الفارق بين ما يصح تفسير القرآن به وما لا يصح؛ لأنه الفارق بين المحكم والمتشابه وبين المعاني المحتملة لتعيين المراد منها.

فأما تفسير ﴿أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ بمعنى مجهول جملة وتفصيلاً، فلا يصح؛ لأنه ورد في القرآن على وجه المدح والإحتجاج، فلا يصح تفسيره بالمجهول؛ لأنه يبطل فهم معنى المدح فيه، ويبطل فهم الحجة فيه، وذلك خلاف ما ورد لأجله فهو يبطل المراد فلا يصح، والتفسير بالمجهول جملة وتفصيلاً يخرج عن معناه في لغة العرب كما قدمت في نظيره؛ لأن المعنى في العربية إما الحقيقي إن لم تصرف عنه قرينة، أو المجازي، أو الكناية التي يراد منها المعنيان، والمعنى المجهول جملة وتفصيلاً خارج عن ذلك كله.

ومن أمثلة الإحتجاج على المشركين والمدح ما في (سورة الأعراف) و(سورة يونس) ويمكن أن كل ما في القرآن من قوله تعالى: ﴿أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ ونحوه كله للإحتجاج على المشركين والمدح، فليتأمل المنصف الذي لم يُغْمِ التعصُّبُ بصيرته.

وقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ عطف على ﴿أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ ليدل على قدرته تعالى وعلمه ونعمته على عباده، وتسخيرُهُما جعلهُما يجريان على نظام محكم محدود كتحديد الساعة التي هي الآلة لمعرفة الوقت.

وقوله تعالى ﴿لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ إما بمعنى في أجل مسمى هو وقت سيرهما، ف(اللام) مثلها في ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ﴾ [الإسراء: ٧٨] وعلى هذا: فهو يبين الآية في تحديد سيرهما على نظام لا يتخلف، وإما بمعنى يجري لأجل مسمى، أي ليلبلغ أجلاً مسمى هو أجله عند خراب العالم وقيام القيامة؛ لأنه في جريه لا يزال يقترب من نهاية مدة سيرته فكأنه يسير لينتهي مدته، والإحتمال الأول أظهر.

وقوله تعالى ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ الراجع: أن معناه: يدبر أمر العالم ومن فيه بخلق السموات والأرض واستوائه على العرش وتسخير الشمس والقمر؛ لأنه يترتب على ذلك خلق المكلفين، وأمرهم بعبادته، وإرسال الرسل، وإنزال الكتب، ويترتب عليه: رزق المكلفين، ويترتب عليه توابع التكليف من الثواب والعقاب، والتمييز بين المحسن والمسيء، والبعث والحساب، والجنة والنار، فهذا ونحوه هو الأمر، والتدبير له: هو فعل مقدماته التي يترتب عليها من رفع السماء فوق الأرض بغير عمد، والإستواء على العرش الذي هو ابتداء تدبير أمر الملكوت، وتسخير الشمس والقمر، الذي يترتب عليه منافع للناس وللأرض والشجر والحيوان.

وقوله تعالى: ﴿يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بَلِقَاءَ رَبِّكُمْ تُوفَّقُونَ﴾ فالراجع أنه خبر ثان لاسم الله، وتفصيلُ الآيات جعلُها مُفَصَّلَةً متميزة لتكون بينةً للناظرين المفكرين فيها، والآياتُ يعم الكونية ويعم القرآن الحكيم.

الْأَرْضِ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا رَوَاجِينَ
أَثْنَيْنِ يُغِشِّي أَلِيلَ النَّهَارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَفِي

وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ كالتعليل لتفصيل الآيات؛ لأنها تدل على الحياة بعد الموت والجزاء للمحسن والمسيء بدلالة نصوص القرآن، وبدلالة أن الله تعالى ما خلق السموات والأرض والعباد عبثاً.

وقوله تعالى: ﴿تُوقِنُونَ﴾ أي تعلمون علماً يقيناً وقوفكم في الآخرة ليسألکم عما أسلفتم في الدنيا في موقف العرض على الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَعَرِّضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًا﴾ [الكهف: ٤٨] وكما قال في المنافقين ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمٍ يَلْقَوْنَهُ﴾ [التوبة: ٧٧].

﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا رَوَاجِينَ أَثْنَيْنِ يُغِشِّي أَلِيلَ النَّهَارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ﴿مَدَّ الْأَرْضَ﴾: أي بسطها البسط المشاهد الذي لأجله صلحت للإنسان.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ أي جعل في الأرض جبلاً ثقالاً راسيات في أماكن ثابتات، وقوله تعالى: ﴿وَأَنْهَارًا﴾ أي جعل فيها مجاري للماء يجري فيها لينتفع به الإنسان وينفع الحيوان والشجر، وهذه المجاري بعضها في بطن الأرض يصل ماؤه إلى الآبار والعيون وبعضها على ظهر الأرض في الأودية وغيرها.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا رَوَاجِينَ أَثْنَيْنِ﴾ وقوله تعالى: ﴿جَعَلَ فِيهَا رَوَاجِينَ أَثْنَيْنِ﴾ أي من كل الثمرات فالحبوب أنواع مختلفة، والفواكه كذلك تختلف ألوانها وصفاتها في الطعم وغيره.

وقوله تعالى: ﴿يُغِشِّي أَلِيلَ النَّهَارِ﴾ إما يجعل النهار غاشياً لليل؛ لأن ضوءه يباشر سواد الليل فيدفعه، وإما يجعل الليل غاشياً للنهار؛ لأنه يباشر

الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَبَّرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزُرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضَلُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١١﴾ وَإِنْ تَعَجَّبْتَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا

ضوء النهار في آخره كأنه يدفعه مقبلاً على الناس ليناموا فيه ويسكنوا فيه ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ المذكور من مد الأرض وما جعل فيها وإغشاء الليل النهار إن فيه كله ﴿لَآيَاتٍ﴾ تدل على قدرة الله التي لا تقاس بقدرة المخلوقين وعلمه كذلك ونعمته الشاملة لعباده.

وقوله تعالى ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي يتفكرون وينظرون في الدلائل والآيات، فهم الذين يعرفون دلالة الآيات، ويعرفون الله تعالى بآياته المذكورة من قوله: ﴿الَّذِي رَفَعَهُ﴾ فهي دليل عليه كما أن دلائله وآياته لا نحصيها عدداً.

﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَبَّرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزُرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضَلُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ﴿قِطْعٌ مُتَجَبَّرَاتٌ﴾ من الأرض نفسها ﴿مُتَجَبَّرَاتٌ﴾ بعضها مجاور لبعض، وفيها شجر يثمر أو شيء من البقول.

وقوله تعالى: ﴿وَجَنَّاتٌ﴾ أي شجر ملتف يغطي مجموعة أرضه لنموه وصلاحه، وقوله تعالى: ﴿مِّنْ أَعْنَابٍ﴾ جمع إشارة إلى أنواع العنب الكثيرة، وقوله تعالى: ﴿وَزُرْعٌ﴾ أي جنات من زرع، وقوله تعالى: ﴿وَنَخِيلٌ﴾ أي وجنات من نخيل جمع نخل وكأنه جمع إشارة إلى تعدد أنواعه في الأرض.

وقوله تعالى: ﴿صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ﴾ إذا كان أصل النخلة واحداً وطلع من ذلك الأصل ساقان فهما (صنوان) تشبيه (صنو) وكل واحد منهما صنو للآخر،

فإذا كانوا ثلاثة فهم صنوان جمع صنو، والذي في الآية جمع صنو، وقوله تعالى: ﴿وَعَبْرٌ صِنَوَانٍ﴾ أي نخيل أصل كل واحدة واحد وساقها واحد.

وقوله تعالى: ﴿يُسْقَى﴾ راجع إلى الكل من قوله تعالى: ﴿قَطْعٌ مُتَجَوِّرَاتٌ...﴾ إلى قوله تعالى: ﴿...يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ﴾ تسقى بماء المطر مثلاً أرضان متجاورتان يسقيهما ماء المطر، أو ماء بئر واحدة أو غيل واحد فيكون أكلهما مختلفاً في الجودة إحداهما أكلها أجود من أكل الآخر، والأكل ما يؤكل من ثمرهما أو بقلهما أو غير ذلك، وهكذا في جنتين من العنب متجاورتين يكون عنب أحدهما أجود بل قد يكون عنب الكرمة الواحدة من الجنة الواحدة أجود من غيره يعرفه صاحب الأرض، وهكذا في النخل المتجاور يكون تمر أحدها أجود من تمر الأخرى مع أنهما متجاورتان، أو يكون تمر بستان أجود من تمر البستان المجاور له مع أن ماءهما واحد.

وهذا معنى قوله تعالى ﴿وَتُفْضِلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ﴾ أي بقدرة الله تعالى؛ لأنه يفعل ما يشاء، فتلك الأراضي المتجاورة والجنات والأعقاب فضل بعضها على بعض فيما تفيده من المأكول دليل على قدرته وعلمه وسعة فضله وأنه يفعل ما يشاء سواء فضل بعضها على بعض بصنعه ابتداءً، أو بصنعه لما ركب فيها من الطبائع المختلفة؛ لأن الطبائع لم تختلف إلا لأنها صنع الله الذي يفعل ما يشاء، فيخلق الشيء مخالفاً لغيره من خلقه، وما شأن الطبائع المختلفة إلا كشأن الورشات المختلفة لم يكن لها بد من أن يكون وجودها أصله صنع الفاعل المختار، وهذا تمثيل للتقريب من الفهم؛ لأن الطبيعة إنما هي صفة تكون سبباً بإذن الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي آيات متعددة ودلائل كثيرة ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ لأن الذين يتفكرون في الآيات المحسوسة

تُرَابًا أَعْيُنًا لِّفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ۖ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ الْأَغْلَلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٣﴾ وَدَسْتَعْجِلُونَكَ

أو المعلومة بالوجدان أو بدلائلها وعلاماتها في أي ذلك المذكور من أول قوله: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ﴾ يتفكرون في اختلاف أكله، فهم الذين يعلمون أنها آيات ويعلمون ما تدل عليه، فأما المعرضون فلا حجة لهم في الجهل؛ لأنهم معرضون، سواء منهم من أنكر البعث بعد الموت، أو جعل الله نداً لا يخلق شيئاً، أو جحد الخالق ونسب الحوادث إلى الطبع.

﴿وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَعْيُنًا لِّفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ ﴿وَإِنْ تَعَجَّبَ﴾ عطف على ذكر الآيات في الآيات الماضية من قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ﴾ كأنه تعالى يقول ومع هذه الآيات البينات الدالة على قدرة الله تعالى الفائقة التي لا تقاربها قدرة المخلوق فضلاً عن أن تقاس بها ﴿فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾ أي فهو يستحق أن تعجب منه؛ لأنهم يعترفون بأن الله خلقهم وخلق السموات والأرض وسائر ما عدده من الآيات، ومع هذا كله، ومع ما قد شاهدوا من دلائل قدرته يقولون: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَعْيُنًا لِّفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ إنكاراً منهم لوعده الله أنه يخلقهم بعد ما تبلى أجسادهم خلقاً جديداً ونفياً للحياة بعد الموت.

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ الْأَغْلَلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ﴿أُولَٰئِكَ﴾ القائلون: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا﴾ المنكرون للنشأة الآخرة ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾ لأنهم جحدوا قدرته على تجديد خلقهم بعد البلى ونفوا قدرته على إحيائهم بعد أن صاروا في قبورهم تراباً فكفروهم بقدرته كفراً به.

بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ
لِّلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٦﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا

وقوله تعالى: ﴿وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾ الأغلال: جمع غُلٍّ - بضم
الغين المعجمة - وهو قيد يُجعل في العنق واليدين يجمعها وهو إما حقيقة
وهي الأصل إذا لم تكن مع القول قرينة فالمراد في الآخرة، كقوله تعالى:
﴿وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ وهذا وإن كان حقيقة بالنظر إلى كلمة الأغلال،
فهو مجاز من حيث أن معناها مستقبل عبر عنه بعبارة الموجود في الحال، وإما
أن كلمة (الأغلال) مجاز عن منع الألطاف كالحتم، والأول هو الراجح،
وقوله تعالى: ﴿وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ أي أهلها الذين يعذبون فيها وبها،
وقوله تعالى: ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي باقون لا يموتون.

﴿١٦﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَتُ
وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ
﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ﴾ عطف على ما في الآية التي قبل هذه الآية، كأنه قيل
يقولون: ﴿أَمْئدًا كُنَّا تَرَابًا﴾ الآية ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ﴾ أي يطلبونك
تعجيل السيئة، والسيئة هنا: هي العذاب العاجل الذي يسوء، كقوله تعالى:
﴿وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ [النساء: ٧٨] فهم يطلبون تعجيل العذاب تعتأ أي: إن
كنت صادقاً فعجل علينا العذاب الذي تعدنا على الكفر.

وقوله تعالى: ﴿قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ أي قبل رحمة الله ومغفرته وهداه إلى الفوز بالجنة
والنجاة من النار التي كان ينبغي لهم أن يطلبوها كما لا يخفى على من استعمل
عقله ولو نزل بهم العذاب العاجل لحال بينهم وبين الحسنة وفوتها عليهم؛ لأنه
يحول بينهم وبين الإيمان في المستقبل من أعمارهم فتفوتهم رحمة الله ومغفرته.

ونظير هذا التركيب قول أمير المؤمنين عليه السلام في آخر خطبته الغراء: «الآن عباد الله والخناق مهمل والروح مرسل...» إلى قوله عليه السلام: «قبل الضنك والمضيق والروع والزهوق، وقبل قدوم الغائب المنتظر، وأخذة العزيز المقتدر» انتهى.

فهو عليه السلام يقول: توبوا وأنتم في الدنيا قبل أن يأخذكم العزيز المقتدر وقبل الضنك والمضيق والروع أي الفزع، وأوضح منه في المعنى الذي نحن بصدده قول الله تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الزمر: ٥٥] فقال: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ﴾ أي لتنجوا من العذاب ويحول بينكم وبينه اتباع أحسن ما أنزل الله إلى عباده.

وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ حَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِمْ أَلَمْثَلْتُ﴾ أي يستعجلونك بالعذاب وقد مضى من قبلهم من عذاب المكذبين للرسول ما هو عبرة لهؤلاء وما كان ينبغي لهم إلا أن يعتبروا بهم فيحذروا أن ينزل بهم العذاب كما نزل على المكذبين الماضين.

قال في (الصحيح): «والمثلة [بفتح الميم وضم الثاء]: العقوبة، والجمع المثلاث» انتهى، ومثله في (لسان العرب).

وقال الشرفي في (المصابيح): «عن الحسين بن القاسم عليه السلام: معناه: مضت وقعات المثل بأشكالهم، واحد المثلاث مثلة وهي الواقعة التي تمثل فيها بالمعذنين، والمثل هو التعذيب في الضرب والقتل» انتهى.

فاستعجالهم بالسيئة سفاهة رأي وجهالة، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ﴾ فهذه المغفرة ترك المعاجلة بالعقاب عند وقوع الظلم، فهو سبحانه حلیم لا يعجل وكانت مغفرة بالنسبة للمدة التي لا يعاقبون فيها.

لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ^ط إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ

فقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ أي مع ظلمهم واستحقاقهم لتعجيل العقاب، ونظيره قول الله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلْ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَّنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْثِقًا﴾ [الكهف: ٥٨].

قال الشريفي في (المصابيح): «قال الحسين بن القاسم عليه السلام: معناه مع ظلمهم يغفر ويتجاوز في هذه الدنيا عنهم بفضلهم ورحمته لهم، ولكن قامت [على] مقام [مع]، انتهى المراد.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أي حين يريد أن يعاقب في الدنيا والآخرة كما عجل عذاب الأمم الخالية بعد إمهاها فهو يُمهِّل ولا يهمل: ﴿بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَّنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْثِقًا﴾ [الكهف: ٥٨].

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ^ط إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ﴾ أي على محمد ﴿آيَةٌ﴾ أي علامة تدل على صدقه، أي هلاً أنزل عليه، وهذا من كفرهم بآيات الله يزعمون أنه لم ينزل عليه شيء من آيات الله فيقولون: ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ أي إن كان رسولاً ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ﴾ فيكفي من الآيات ﴿أَنَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥١] فهو دليل على أنك رسول من الله ولم نرسلك لإكراه الناس وإلجائهم إنما أنت نذير لهم.

﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ لمن يريد الهدى فانت الهادي لهم إن قبلوا منك الهدى وإن لم يقبلوا فانت الهادي لمن اهتدى.

وقوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ يفيد: أن لكل قوم من يهدي حتى في القرون المستقبلية، فلا بد من وجود العلماء الهداة ليلبغوا الناس حجج الله عليهم وآياته ولو قلّوا كما قال أمير المؤمنين عليه السلام: «اللهم بلى لا تخلو الأرض من قائم لله بحجة».

ولعل هذا معنى الحديث الذي يروى عن رسول الله ﷺ في معنى هذه الآية: «أنا المنذر، والهادي رجل من بني هاشم» انتهى.

قال السيوطي في (الدر المنثور): «وأخرج عبد الله بن أحمد في (زوائد المسند) وابن أبي حاتم، والطبراني في (الأوسط) والحاكم وصححه، وابن مردويه، وابن عساكر عن علي رضي الله عنه في قوله: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ قال: «رسول الله ﷺ المنذر، وأنا الهادي» وفي لفظ: «والهادي رجل من بني هاشم» يعني نفسه، انتهى.

وذكر السيوطي قبل هذا: عن قتادة: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ لكل قوم داع يدعوهم إلى الله، ذكر السيوطي أنه أخرجه: ابن جرير، وأبو الشيخ. قال: وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ: عن ابن عباس رضي الله عنه: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ قال: داع.

وفي (الدر المنثور) أيضاً: «وأخرج ابن جرير، وابن مردويه، وأبو نعيم في (المعرفة) والديلمي، وابن عساكر، وابن النجار، قال: لما نزلت: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ وضع رسول الله ﷺ يده على صدره فقال: «أنا المنذر» وأوماً بيده إلى منكب علي رضي الله عنه فقال: «أنت الهادي يا علي، بك يهتدي المهتدون من بعدي».

وأخرج ابن مردويه، عن أبي ברزة الأسلمي رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ» - ووضع يده على صدر نفسه، ثم وضعها على صدر علي، ويقول -: «لِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ».

وأخرج ابن مردويه، والضياء في (المختارة): عن ابن عباس رضي الله عنه في الآية قال رسول الله ﷺ المنذر، والهادي علي بن أبي طالب» انتهى. وفي (الغارة السريفة) زيادة على ما هنا انظر صفحة [١٧٧-١٧٨] وما بعدها.

وروى الإمام أبو طالب عليه السلام في (الأمالي) وهو في [الباب الثامن: ص ٩٢] بإسناده عن علي عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنْ عِنْدَ كُلِّ بَدْعَةٍ تَكُونُ بَعْدِي يَكَادُ بِهَا الْإِيمَانُ، وَلِيًّا مِنْ أَهْلِ بَيْتِي مُوَكَّلًا يَذُبُّ عَنْهُ، يَعلنُ الْحَقَّ وَيُنَوِّرُهُ، وَيَرُدُّ كَيْدَ الْكَائِدِينَ، فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ، وَتَوَكَّلُوا عَلَى اللَّهِ».

وروى أبو طالب عليه السلام - أيضاً - في [الباب الثامن ص ١٠٠] بإسناده: عن نصر ابن حماد قال: سمعت شعبة يقول - حين ظهر إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بن الحسن عليه السلام: قال رسول الله ﷺ: «مِثْلُ أَهْلِ بَيْتِي فِي أُمَّتِي مِثْلُ النُّجُومِ كُلِّهَا أَفَلْ نَجْمٌ طَلَعَ نَجْمٌ» انتهى.

وأخرج المرشد بالله عليه السلام في (الأمالي الخميسية) بسنده: عن علي عليه السلام قال: «مِثْلُ أَهْلِ بَيْتِي مِثْلُ النُّجُومِ كُلِّهَا مَرَّ نَجْمٌ طَلَعَ نَجْمٌ» انتهى.

وسقط رفعه، والنسخة المطبوعة كثيرة الغلط، فينظر إن شاء الله في نسخة صحيحة. وإن كان موقوفاً، فله حكم الرفع؛ لأنه خبر عن غيب لا يعلمه إلا من رسول الله ﷺ، وعلي عليه السلام عندنا حجة في كلامه لما فيه من الروايات المفيدة أنه على الحق ولو لم يكن إلا قوله ﷺ: «أَنَا مَدِينَةُ الْعِلْمِ وَعَلِيٌّ بَابُهَا، فَمَنْ أَرَادَ الْمَدِينَةَ فَلْيَأْتِ الْبَابَ» أو كما قال، وقد بسطت في (تحرير الأفكار) و(الغارة السريفة) في الرد على المخالفين في صحة هذا الحديث.

عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿١٨﴾ عَلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴿١٩﴾ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخَفٌّ بِآلِيلٍ وَسَارِبٌ

ومن أراد الزيادة في تفسير قول الله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ بعلي عليه السلام، فليطالع (ترجمة الإمام علي عليه السلام) من (تاريخ ابن عساكر) و (شواهد التنزيل) للحاكم الحسكاني، وغيرهما من كتب فضائل علي عليه السلام، وهو لا ينافي أنه لا بد لكل عصر من حملة لعلم الدين، كما أنه لا ينافي أن رسول الله ﷺ الهادي لأُمَّته لمن في عصره السامعين له بالسماع ولغيرهم بالتبليغ لمن لم يسمع ولمن بعده.

وقد روى الإمام زيد بن علي عليه السلام في (مجموعه): عن أبيه، عن جده، عن علي عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: «يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين» انتهى، فحملة العلم في كل عصر هداة لمن يبلغونه العلم والمحمول عنهم هداة من نبي أو وصي أو إمام أو عالم.

﴿٢٠﴾ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿٢١﴾ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ يَعْلَمُهُ ذَكَرًا أَمْ أُنْثَىٰ تَامًا أَمْ نَاقِصًا، ويعلم صورته وحجمه وغير ذلك من أحواله المغيبة ﴿٢٢﴾ تَغِيضُ الْأَرْحَامُ أَيُّ مَا تَغِيضُهُ الْأَرْحَامُ وَهُوَ الْمَنِي عِنْدَ الْعُلُوقِ فَهُوَ يَعْلَمُ الْعُلُوقَ، مع أن المرأة نفسها قد لا تعلم أنها قد علقَتْ، قال تعالى: ﴿وَغِيضَ الْمَاءِ﴾ [هود: ٤٤] أي شربته الأرض ونزل في بطنها.

وقوله تعالى ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾ أي ويعلم ما تزداده الأرحام، والإزدياد: أن تأخذ الرحم بعد العلوق زيادة على ما قد أخذته مع العلوق، إما لحمل توأم

تحمله مع الأول، وإما لسقي الأول فهو لا يخفى على الله تعالى مع خفائه على الناس ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ يخلقه على ما تقتضيه الحكمة، فالعبد بمقدار وأعضاؤه كل عضو بمقدار وعمره بمقدار ورزقه بمقدار وغير ذلك من أحواله، وكذلك جزاؤه بمقدار، وكذلك الأرض بمقدار والكواكب بمقادير والشمس والقمر والسموات وما بين ذلك من المسافات كل شيء بمقدار محدود عنده في حكمته وعلمه وصنعه.

﴿عَلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾ ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ﴾ المعدوم مثل المستقبلات من الحوادث ﴿وَالشَّهَادَةِ﴾ الموجود، ولعل من الغيب مكاييل البحار وموازين الجبال والهواء وسائر المقادير الكثيرة المغيية والنسب والأحكام التي تخفى على العباد، أو الغيب: ما غاب عنا وما جهلناه، والشهادة: ما نشاهده وكل ذلك يفيد إحاطة علمه تعالى وأنه لا يخفى عليه شيء، وقوله تعالى ﴿الْكَبِيرُ﴾ أي العظيم الجليل بصفاته التي تدل عليها أسماؤه الحسنى فهو كبير بعظمته وجلاله، وليس معنى كبره ضخامة حسيّة؛ لأنه لا يشبه المخلوقين.

وقوله تعالى: ﴿الْمُتَعَالِ﴾ أي المتعالي عما يقول فيه الظالمون مما لا يليق بعظمته وجلاله كاتخاذ صاحبة أو الولد أو الشريك في ملكه وعن كل نقص وعيب كظلم العباد وخلف الوعد والوعد والتسوية بين المطيع والعاصي والمحسن والمسيء وما لا يليق بحكمته وفضله ورحمته وكرمه ونحو ذلك، قال تعالى: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٤٣] وقال تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٢] وقال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ [الجن: ٣].

بِالنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُ مُعَقَّبَتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ۚ
إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ۚ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ

فمعنى نسبة التعالي إلىه تعالى هي التسبيح له والتقديس والتعظيم، وهو أعم وأبلغ من عبارة التنزيه عن العيب؛ لأنه يدل على تنزيهه عما لا يليق إلا بال مخلوق وإن لم يكن في المخلوق عيباً كاتخاذ الصاحبة والولد تعالى عنه لأنه الغني الذي لا يحتاج.

﴿١١﴾ سَوَاءٌ مِّنْكُمْ مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ ۚ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخَفٌّ بِآلِيلٍ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴿١٢﴾ السياق في ذكر علم الله سبحانه بالغيب والشهادة فالمعنى سواء في علمه من أسر القول ومن جهر به، وقوله تعالى: ﴿مِّنْكُمْ﴾ تذكير بأنه يسمع ما نقوله من حق أو باطل وما نثاب عليه أو نعاقب، ولعله يشير إلى ما يقوله المشركون ليعلموا أنه لا يخفى على الله.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخَفٌّ بِآلِيلٍ﴾ محاول أن يخفى بأن يكمن في مكان لا يرى فيه ولا يسمع وهو مع ذلك بالليل يخفيه سواد الليل، وقوله تعالى: ﴿وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): ﴿وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾: «سالك في سره: معناه في مذهبه» انتهى.

وقال في (الصحيح): «السارب: الذاهب على وجهه في الأرض، قال الشاعر:

أَتَى سَرَبْتٍ وَكُنْتُ غَيْرَ سَرُوبٍ وَتَقَرَّبُ الْأَحْلَامُ غَيْرَ قَرِيبٍ

وسَرَبَ الفحل يَسْرُبُ سَرُوباً، إذا توجه للرعي، قال الأخنس التغلبي:

وكل أناس قاربوا قيد فحلهم ونحن خلعتنا قيده فهو سارب

سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ^١ وَمَا لَهُمْ مِّنْ دُونِهِ^٢ مِّنْ وَالٍ^٣ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ
الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ^٤ وَدَسَّحُ الرَّعْدُ

وقال الشرفي في (المصاييح): «قال في (البرهان): والسارب: هو المنصرف
الذاهب مأخوذ من السروب في المرعى وهو بالعشي، وهو مثل السروح
بالغداة، يعني أنه يعلم من استخفى عمله في ظلمة الليل ومن أظهره بضوء
النهار، والثاني يعلم ما أخفى ظلمة الليل كما يرى ما أظهر ضوء النهار
بخلاف المخلوقين الذين يخفى عليهم أحوال أهلهم» انتهى المراد.

وقوله تعالى: ﴿وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ أي ومن هو سارب بالنهار، فهما سواء
في علمه تعالى، وقد اكتفي لهما بموصول واحد، كقوله تعالى: ﴿وَقُولُوا آمَنَّا
بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ [العنكبوت: ٤٦] أي والذي أنزل إليكم، وقول
حسان بن ثابت:

أَمَّنْ يَهْجُو رَسُولَ اللَّهِ مِنْكُمْ ويمدحه وينصره سواء

أي ومن يمدحه.

والشواهد تشير إلى أن السارب: الذاهب حيث يهوى، لا يتقيد عنه
بخوف أو غيره، ولعله مراد (صاحب الصحاح) [الذاهب على وجهه] ولعل
هذا سبب اختيار هذه الكلمة في الآية - والله أعلم.

﴿لَهُ مُعَقِّبَتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ
اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا
مَرَدَّ لَهُ^١ وَمَا لَهُمْ مِّنْ دُونِهِ^٢ مِّنْ وَالٍ﴾ في (تفسير الإمام زيد عليه السلام)
«﴿مُعَقِّبَتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ يريد به: الحفظة من الملائكة، حفظة
الليل وحفظة النهار، ويقال: حرسٌ دون حرسٍ» انتهى.

فقوله: ﴿مُعَقَّبَاتٌ﴾ الراجح: أن المراد معقبات على العبد على حفظه، فمعناه معتقبات أي مثلاً جماعات من الملائكة بالليل يعقبهم ملائكة النهار، ثم يعقب ملائكة النهار ملائكة الليل فهم يتعاقبون لحفظ الإنسان.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ أي من أمامه، وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ من ورائه يحفظونه أي المعقبات ذكرهم على المعنى، وقوله تعالى: ﴿مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ أي المعقبات هي من أمر الله؛ لأنه هو جعلهم وأمرهم أن يحفظوا العبد.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ﴾ أي كما جعل للإنسان الحفظة، فهو يحفظ للقوم نعمته لا يغيرها حتى يغيروا ما بأنفسهم من الخير مثل النيات الصالحة والسلامة من التحاسد وسوء الظن، والمهم ما بهم من الخير فإذا غيروا ما بهم فقد عرضوا نعمتهم للزوال، وفسر هذه الآية قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ يَأْنِ لِلَّهِ أَنْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الأنفال: ٥٣].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ﴾ أي أنه تعالى هو الغالب على أمره، وإرادته تعالى إرادة حكمة وحق وعلم فلا مرد لما أَرَادَهُ؛ لأنه الغالب على أمره والقاهر فوق عباده، وقوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ أي من والي من دونه بينهم وبين الله يحول عن تنفيذ إرادة الله ويتولى رعايتهم ونصرهم و﴿مِنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنْ وَالٍ﴾ لتأكيد النفي.

﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾ ﴿الْبَرْقَ﴾ هو الذي يلمع ويرى شعاعه في السحاب، فالله هو الذي يأتي به.

يَحْمَدُهُ وَالْمَلٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ وَهُمْ يُجٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْحٰلِ ﴿١٣﴾ لَهُ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ

وقوله تعالى: ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أما خوفاً: فالبرق خوف؛ لأنه قد تأتي معه الصاعقة فتهلك أو تدمر حتى أن بعض من قد أفرغته قد يصير بعدها يفزع إذا رأى أمارات المطر خوفاً من الصواعق، فالبرق خوف لأنه يحدث معه الخوف؛ ولأنه مصدر سبب الخوف أي الصاعقة، وأما طمعاً: فلأن البرق يُطمع عند لمعانه في المطر لأنه يأتي عنده المطر في كثير من المرات، ونسبته إلى الله لا ينافي نسبته إلى سببه؛ لأن السبب صنع الله فهو خالق الطبائع وما تولد منها.

وقوله تعالى: ﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾ أي هو الذي ينشئ السحاب الثقيل وهي التي فيها ماء ينزله رزقاً لعباده وسميت ثقلاً لوجود الماء فيها، وإن كان أجزاء يحملها الهواء والريح فهو تعبير عن وجوده في السحاب، ولا شك أن السحاب التي فيها الماء تكون أثقل من السحاب التي لا ماء فيها، ويمكن وصفها بالثقل لعظم قدرها لما فيها من الماء النافع للناس كما وصف القرآن، والعرة بالثقل.

وقال تعالى: ﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ﴾ لأن فائدتها في إنشائها ومائها هي الأصل، أما البرق فقال تعالى فيه: ﴿يُرِيكُمْ ٱلْبَرْقَ﴾ لأن فائدته في رؤيته؛ لأنه يدعو إلى الإستعداد لنزول المطر بالدخول في البيوت والأكنان ورفع ما في مجرى السيول من المواشي وغيرها، وإرجاع المواشي من مراتعها، وكذلك يدعو البدو إلى نقل أنعامهم من محل الجذب إلى جهة البرق إذا سألوا عنها فأخبروا بنزول المطر فيها، وغير ذلك من الفوائد التي لا نعلمها.

﴿وَدُسِّحَ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ وَهُمْ يُجٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْحٰلِ﴾ ﴿وَدُسِّحَ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِ﴾ أي بحمد الله أي تسييحاً مصحوباً بحمده.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال في (البرهان): والرعد: الصوت المسموع، وقد روينا عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الرعد وعيد الله - عز وجل - إذا سمعتموه فأمسكوا عن الذنوب» والناس يسبحون له إذا سمعوه، فنسبُ التسبيح إلى الرعد مجازاً انتهى.

هكذا في (المصابيح) ولعل الأصل: وعد الله، أي أنه كالوعد بالمطر، ولذلك يشبه به الوعد، فيقال:

الوعد كالرعد والإيفاء كالمطر

وقوله: «فأمسكوا عن الذنوب» أي لئلا تسبب منع المطر، وقوله: فنسب التسبيح - كَتَبَةُ (نَسَب) غير واضحة وهي تحتمل (فنسبة التسبيح) ولعله الأصل لرفع كلمة (مجاز) - وتسبيح الرعد بحمد الله تذكيره للسامعين بقدرة الله وبنعمة الله سبحانه وتعالى، من حيث أن الله أنشأ مبشراً بالمطر، وفيه فائدة للإستعداد لنزول المطر كالبرق، وأما التسبيح بالقول فالله أعلم، والسياق سياق تعديد آيات الله الدالة على قدرته وعلمه الرادة على الكفار كفرهم المار ذكره.

وقوله تعالى: ﴿وَالْمَلَكُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾ أي ﴿وَالْمَلَكُ﴾ يسبحون بحمده ﴿مِنْ خِيفَتِهِ﴾ أي من خيفتهم لله وخوفهم منه؛ وذلك لكمال معرفتهم بالله وكمال إيمانهم بالله وذكرهم هنا لبيان الفرق بينهم وبين الكفار الجاهلين بقدرة الله تعالى على خلقهم بعد الموت خلقاً جديداً فهو مناسب لذكره في الرد على الكفار.

وقوله تعالى: ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ﴾ فهو من الدلائل العجيبة خلقها ناراً شديدة سريعة الإحراق قوية النفوذ سريعة المرور تتوجه

يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَسِطَ كَفِّهِ إِلَى أَلْمَاءٍ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَلِّغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿١٠﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ

إلى جهة معينة من الأرض من جبالها أو سهولها، فيصيب الله بها من يشاء إصابته إما في نفسه فيموت أو في بيته فتدمره أو في ماله فيخسر، وإذا لم يشأ الإصابة بها لم تضر ومن علمه الله طريق السلامة منها فلأن الله لم يشأ إصابته ولذلك علمه.

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ﴾ أي في قدرته لجدهم في قدرته على إعادتهم خلقاً جديداً بعد أن قد صاروا تراباً؛ ولعله أيضاً من الجدال في علمه؛ لأنهم يريدون أنهم قد ضلوا في الأرض، كما حكى الله تعالى في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [السجدة: ١٠] وعطف ذكر جداهم في الله على ذكر دلائل قدرته وعلمه؛ ليبين أنهم ضلوا وأن إنكارهم لقدرته مع الدلائل الواضحة شيء عجيب.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ شَدِيدُ الْحَالِ﴾ يبين أن ضلالهم وكفرهم ضره على أنفسهم وأنه تعالى يجازيهم جزاء وفاقاً، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام) ﴿وَهُوَ شَدِيدُ الْحَالِ﴾ معناه: العقوبة والمكر انتهى، وفي (مفردات الراغب الأصفهاني) في قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ شَدِيدُ الْحَالِ﴾: أي الأخذ بالعقوبة، انتهى.

وفي (الكشاف): المحال الماحلة وهي: شدة المماكرة والمكايدة ومنه: تَمَحَّلَ لكذا إذا تكلف استعمال الحيلة واجتهد فيه، ومَحَلَّ بفلان إذا كاده وسعى به إلى السلطان، ومنه الحديث: «ولا تجعله علينا ماحلاً مصدقاً» انتهى المراد، ومثله في (الصحيح).

﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَسِطَ كَفِّهِ إِلَى أَلْمَاءٍ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَلِّغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾

﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾ أي له تعالى وحده دعاء الداعي الذي هو الدعاء الحق؛ لأنه الدعاء النافع؛ ولأنه من العبد لما لكه المستحق للعبادة بالدعاء وبغيره، فهو الحق والدعوة الواحدة من العبد لله هي الحق، ودعوة العبد لغير الله باطل والدعاء هنا بمعنى طلب الحاجة مثلاً بواسطة النداء، قال تعالى: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ﴾ [الدخان: ٥٥] ولذلك استعمل في طلب النفس للحاجة، قال:

دعاني إليها القلب إنني لأمره سميع فما أدري أرشد طلابها
فأما مجرد لفظ النداء بدون طلب، فليس من معنى الآية، بل وإن كان معه
صورة الطلب وليس المقصود الطلب، كقول الخنساء:
يا عين جودي بالدموع ع المستهلات السوافح
وقول الآخر:

أيا شجر الخابور مالك مورقا كأنك لم تجزع على ابن طريف
فأما دعاء الميت فما كان لطلب حاجة من المدعو لا يقدر عليها إلا الله
فهو شرك، ومثله دعاء المخلوق الغائب إذا كان الطلب جذاً لا هزلاً، وما
كان لطلب حاجة من جنس مقدور المخلوق فهو جهل وباطل وليس من
الشرك، ما لم يصحبه اعتقاد القدرة الخارقة، أو اعتقاد علم الغيب العام لكل
شيء.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ﴾
فالضمير في يدعون للذين كفروا، والمراد بالذين يدعونهم أصنامهم وأوثانهم
﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ﴾ دعاءهم ﴿بِشَيْءٍ﴾ مما يطلبون منهم كنصرهم على
أعدائهم وشفاء مرضاهم وغير ذلك مما يطلبون منهم.

مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَّلُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿١٩﴾
 قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا كَبَسِطَ كَفِّيهِ﴾ استثناء من ﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ﴾ منقطع أي لكن كاستجابة الماء لباسط كفيه إليه ﴿لِيَبْلُغَ فَاهُ﴾ بمجرد بسطه يديه إليه ﴿وَمَا هُوَ بِبَلِغِهِ﴾ أي وما الماء ببالغ فاه لذلك البسط، فمثله دعاء الكافرين لشركائهم في أنه طلب لا فائدة فيه ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ ضلال عن الحق والرشاد وغواية عن طريق الخير والصواب فهو في ضياع وبطلان لا يستفيدون به إلا العذاب ومعنى (من دون الله) أنهم اتخذوهم أقرب إليهم من الله لطلب حاجتهم منهم وسماعهم لدعائهم واستجابتهم لدعائهم جهلاً وضلالاً وشركاً بالله الذي هو ربهم الحق.

ويحتمل: أن معنى ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾: أي في ضياع؛ لأنه لا يستجاب وعلى هذا يكون عاماً لدعائهم لشركائهم ودعائهم لله في حال شركهم وكفرهم بالله ولا يستثنى من ذلك إلا دعوتهم لله عند الإضطرار؛ لأنهم عند ذلك مخلصون غير كافرين بقدرة الله وعلمه، وقد جاء في أهل النار ودعائهم لله ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ وذلك في آية [٥٠ من سورة غافر] وهو يُقَرَّبُ إلى أن دعاءهم في ضلال في الدنيا والآخرة وإن دعوا الله في غير حالة الإضطرار.

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَّلُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ﴾ العطف على ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾ أو ما بعده، والله وحده يسجد يخضع وينقاد لصنعه فيهم من في السموات والأرض ﴿طَوْعًا﴾ وهو خضوع الملائكة والصالحين من أهل الأرض بعبادتهم له تعالى.

يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ۚ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ ۚ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿١٦﴾ أَنْزَلَ مِنَ

﴿وَكَرِهًا﴾ وهو استسلام المخلوقين لقضائه وتصرفه فيهم؛ لأنه الغالب على أمره فله لذلك دعوة الحق؛ لأنه القادر على إجابة الدعاء وإعطاء المطلوب لا من يدعوهم المشركون.

وقوله تعالى: ﴿وَوَظَلَّلْنَاهُمْ﴾ لعل الضمير لمن في الأرض فهو المتصرف في الظلال ﴿بِالْغُدُوِّ﴾ أوائل النهار بعد شروق الشمس ﴿وَالْأَصَالِ﴾ أو آخر النهار قيل: من بعد العصر إلى الغروب، فيتصرفه تعالى في الأرض والشمس تكون الظلال أول النهار إلى جهة وآخر النهار إلى جهة، وأيضاً في الصيف إلى جهة وفي الشتاء إلى جهة أخرى فظلالهم منقاد لله يحوله كيف يشاء.

﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ قُلِ اللَّهُ ۚ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ۚ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ ۚ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ ﴿قُلْ﴾ للمشركين ﴿مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ المالك لهن؟ ﴿قُلْ﴾ يا رسول الله: الله هو رب السموات والأرض، وهذا لا ينكره المشركون من العرب الذين كانوا في وقت رسول الله ﷺ فإذا كانوا يقرّون بذلك فكيف اتخذوا من دونه شركاء لا يقدرّون على نفعهم ولا ضرهم؟ بل لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرراً فكيف يملكونه لغيرهم؟

وقوله: ﴿أَوْلِيَاءَ﴾ يحتمل معنى أرباباً مالكين لكم ويحتمل ولاة لشؤونكم ولرعايتكم مع أنهم لا يستطيعون ذلك وذلك ضلال بين حيث عدلوا عن

عبادة رب السموات والأرض القادر على كل شيء إلى عبادة من هو عاجز عن خلقهم ورزقهم وتولي رعايتهم.

﴿قُلْ﴾ يا رسول الله ﴿هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾ حيث رضيتم لأنفسكم بالعمى عن الهدى والحق ولم تبالوا بذلك مع وجود الرسول الداعي لكم إلى الهدى، كأنه لا فرق بين العمى والإبصار ﴿أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾ حيث اخترتم ظلمات الجهل على نور العلم بالله، ورساله، وملائكته، وكتبه، واليوم الآخر، والعلم بسبيل النجاة من عذاب الله، والفوز برحمته وفضله؛ وذلك لأنكم كفرتم بالله وبرسوله وكتابه ورضيتم لأنفسكم بالبقاء في ظلمات الجهل والباطل، كأنه لا فرق بين الظلمات والنور، وقوله: ﴿أَمْ هَلْ﴾ إضراب عن السؤال الأول للإنتقال عنه إلى السؤال الثاني كأنه قيل: بل هل تستوي الظلمات والنور.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ ﴿فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ فلم يدروا أين خلق الله وأين خلق شركائهم؟ وهذا انتقال إلى السؤال الثالث للاحتجاج عليهم فهم مقررون أن الله الذي خلق السموات والأرض وخلقهم وخلق رزقهم، وأنه لا خالق غير الله خلق كخلق الله، وحينئذ قررهم بقوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ وذلك يذكرهم أنه ليس من يخلق كمن لا يخلق وأنهم في اتخاذهم أولياء من دونه قد ضلوا ضلالاً مبيناً، وقوله ﴿الْوَحِدُ﴾ تنبيه على أنه لا يقاس به شركاءهم المتعددون.

وقوله: ﴿الْقَهَّارُ﴾ تنبيه على أن رحمته وعذابه لا يردهما شركاؤهم، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِيَ بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ﴾ [الزمر: ٢٨] تذكير لهم

السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿٤٧﴾ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ

بأن شركاءهم لا يستطيعون أن يردوا عن العابدين لهم عذاب الله كما لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا بل الله هو القاهر فوقهم وفوق شركائهم، وقوله: ﴿الْقَهَّارُ﴾ بصيغة المبالغة تذكير لهم بقهره تعالى للأمم الماضين وقصمه لجبابرة الأولين، ليحذروا قهره لهم.

﴿٤٧﴾ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿٤٧﴾ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴿٤٨﴾ وفي هذا تذكير بقدرته تعالى ونعمته على عباده مع كونه ابتداء للمثل الآتي في الآية، وقوله تعالى ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ﴾ والأودية هي مجاري الماء العظيمة يجتمع إليها من الصبابات ﴿بِقَدَرِهَا﴾ أي بقدر الأودية بما قدر لها من الماء باعتبار تقدير المطر في الغزارة والكثرة وفي خلاف ذلك، وباعتبار سعة الصبابات وضيقها، وباعتبار قوة مرور الماء لانحدار الوادي كثيراً أو خلاف ذلك، وباعتبار سعة الوادي وضيقه، فالأودية تختلف في ذلك كله بما قدر لها من الأسباب ﴿فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا﴾ لقوة مرور الماء وتلاطم أمواجه يعلوه الزبد الجافي الذي يتخلله الهواء ﴿رَابِيًا﴾ متفخاً بما يتخلله من الهواء ولتراكم بعضه على بعض وعلوه على الماء.

﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلَهُ﴾ ﴿ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ﴾ كالذهب والفضة ﴿أَوْ مَتَاعٍ﴾ ما ينتفع به من الآنية والآلات كالحديد والنحاس وغيرهما يوقد عليه لذلك الغرض وما ينتفع به من الماء والإدام فكل ذلك متاع إذا غلا كان منه الزبد مثل زبد الماء في قلة نفعه وكونه غير مطلوب ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ﴾ يجعل الله كذلك ويطبع الحق والباطل فيثبت الحق ويزهق الباطل، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١] فالمثل مأخوذ من كاف التشبيه لا من الضرب.

﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ﴾ ينعزل عن الماء أو يذهب يتلف ﴿جُفَاءً﴾ أي يذهب حال كونه جفاء مرمياً به متروكاً ﴿وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾ من ماء الوادي ﴿فَيَمَكُّهُ فِي الْأَرْضِ﴾ فيبقى في الأرض لينتفع به الناس للشرب وسقي الدواب ولصلاح الأشجار والزرع.

﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ كذلك التمثيل للحق والباطل بالماء والزبد الذي يذهب جفاء يضرب الله الأمثال في القرآن وغيره من وحيه لما في التمثيل من الفائدة لفهم المراد كما يأتي من تمثيل الكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة، فكذلك يطبع الحق يجعل طبعه الصلاح للثبات والاستمرار لمناسبته لطبع الكون وصلاح العالم ويجعل طبع الباطل الاستعداد للزهوق بتهيئة أسباب زهوقه ونفار الطباع السليمة منه، فهو بذلك كالمطبوع على الزهوق؛ ولأن معناه الفساد والإفساد.

هذا وقد فسّر الأكثر قوله تعالى: ﴿يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ﴾ أي يمثل الحق والباطل ولعله يتحصل معناه: كذلك يمثل الله الحق والباطل، فيخرج الكلام عن بيان كون الماء والزبد مثلاً للحق والباطل إلى بيان أن الله يمثل الحق والباطل بمثل الماء والزبد - والله أعلم.

الْحُسْنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُدْ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا
وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ ۖ أُولَٰئِكَ هُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَهُمْ جَهَنَّمُ
وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٨﴾ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ

﴿١٨﴾ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُدْ لَوْ
أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ ۖ أُولَٰئِكَ هُمْ سُوءُ
الْحِسَابِ وَمَأْوَهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٨﴾ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ ﴿١٨﴾ لدعوته لعباده
إلى عبادته وتقواه ﴿الْحُسْنَى﴾ أي لهم الفائدة الحسنی أو الحالة الحسنی،
فلهم في الدنيا حياة طيبة وذكر حسن ووصف جميل ولهم في الآخرة الأمن
والثواب العظيم، وكان هذا راجع إلى قوله تعالى ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى
وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾ كالتفسير للفرق بين المؤمن
والعاصي.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُدْ﴾ أي لم يستجيبوا لربهم بل
أعرضوا عن دعوته لهم وعصوا أمره سيندمون ندامة لا يعادلها ما نالوا في
الدنيا وآثروه على الآخرة، بل ﴿لَوْ أَنَّ لَهُمْ﴾ يوم القيامة ﴿مَا فِي الْأَرْضِ
جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ﴾ أي لطلبوا أن يقبل منهم فدية لهم من سوء
مصيرهم ﴿أُولَٰئِكَ هُمْ سُوءُ الْحِسَابِ﴾ لما فيه من ذكر فضائحهم وتخزياتهم
وتبكياتهم وكونه مقدمة للأمر بهم إلى النار ﴿وَمَاْوَهُمْ﴾ الذي يأوون إليه
ويصيرون ﴿جَهَنَّمُ﴾ التي هي الجزاء لهم بما فيها من العذاب الدائم فكيف لا
يتمنون أن يفتدوا من ذلك ﴿وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ أي مهاد ذميم على أهله وكان
تسميتها مهاداً لهم مشاكلة تقديرية؛ لأنها صارت لهم بدلاً من المهاد الذي
يمهد للإنسان للنوم عليه وللصبي ليحفظ فيه.

أَعْمَى ۖ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿١٦﴾ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ
الْمِيثَاقَ ﴿١٧﴾ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ

قال الراغب في (مفرداته): «والمهاد: المكان الممهّد الموطأ» انتهى. وقال في
قوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾ [طه: ٥٣] و﴿مِهْدًا﴾ [النبا: ٦]:
وذلك مثل قوله: ﴿الْأَرْضَ فِرَاشًا﴾ [البقرة: ٢٢] انتهى.

﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى ۖ إِنَّمَا
يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ ﴿أَفَمَنْ﴾ تفریع على بیان الفرق بين الذين استجابوا
لربهم والذين لم يستجيبوا، أي فإذا كان الفرق بينهما ما ذكر فهل يستوي
من يعلم أن ما أنزل الله على رسوله هو الحق ومن هو جاهل بذلك أعمى
البصيرة فهو لا يستجيب لربه؛ لأنه غير مؤمن بدعوته لعباده فيما أنزل على
رسوله من القرآن وسائر الوحي، وأكد هذا بجعل الكلام في صورة السؤال
بهزمة الإنكار في قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ﴾ لأن الفرق واضح لأهل العقول
معلوم عندهم إذا استعملوا عقولهم.

فكانه قيل: كيف يكون من يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو
أعمى البصيرة جاهل معرض متمرّد؟ فهو كالأعمى الذي لا يهتدي لطريق.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ أي الذين يستعملون البابهم،
واللب عبارة عن العقل كأن قلب الجاهل الذي لا يستعمل عقله فارغ لا
لب فيه، كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٩] ثم بيّن
تعالى المراد بـ(أولي الأبواب) فيما يلي من الآيات:

﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾ ﴿يُوفُونَ بِعَهْدِ
اللَّهِ﴾ أي بما عاهدوا الله عليه أو بعهد الله الذي أقسموا به وجعلوا على

وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿٦٠﴾ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ
وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ

أنفسهم الوفاء به بقول قائلهم عليّ عهد الله أو بأي قسم يقسم به لغيره بالله
ليثق به في صلح أو غيره، قال تعالى: ﴿وَأِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ﴾
[التوبة: ١٢] فإضافته إلى الله على هذا المعنى لأنه موثق منه جعله لعباده ولأن
المعاهد قد جعل الله كفيلاً عليه فكان الوفاء حقاً لله عليه يوجب عليه رعاية
العهد، قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنَقُّضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ
تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ [النحل: ٩١].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾ نقض الميثاق ترك الوفاء به وهو
النكث كأن الموثق عقدة بين المعاهد ومن أعطاه العهد فإذا ألغاه ورفضه كان
كأنه نقض العقدة، أو كالحبل المفتول القوي ونكثه كإرجاع الحبل إلى أصله
ونقض فتله. قال الراغب في (المفردات): «ومن نقض الحبل والعقد استعير
نقض العهد» انتهى.

﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِمْ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ
سُوءَ الْحِسَابِ﴾ وصل العلاقة تجديدها بالإحسان أو بالحضور لصاحبها أو
برعايتها بأي طريقة، والعلاقة تكون بالرحامة، وتكون بالمودّة، وتكون بالعهد
على الإخاء ونحوه وغير ذلك، وفي (معلقة لبيد) إحدى (المعلقات السبع):

أولم تكن تدري نوار بأني وصّال عقد حباثل جدّأمها

قال في (شرح الزوزني) عليها: «الحباثل: جمع الحبالّة، وهي مستعارة
للعهد والمودّة هنا، الجذم: القطع - ثم قال الشارح - : فقال: أولم تكن تعلم
نوار إني وصّال عقد العهود والمودّات وقطاعها، يريد أنه يصل من استحق
الصلة ويقطع من يستحق القطيعة» انتهى.

فظهر: أنهم جعلوا العلاقة بمنزلة الحبل، ورعايتها وصل، وإهمالها قطع، ومن العلاقة علاقة العبد بربه، ولذلك جاء في الحديث: «وصلوا الذي بينكم وبين ربكم بكثرة ذكره..» الحديث.

ومن العلاقة: علاقة الأمة برسولها فاتباعها إياه وطاعته وصل، ومعصيته قطع، ومن العلاقة: علاقة الأمة بإمامها الذي تجب عليها طاعته ونصرته، ومن العلاقة: علاقة المؤمن بالصادقين الذين وجب عليه الكون معهم، ومنها: علاقته بالمؤمنين الذين تجب عليه موالاتهم؛ ولذلك جاء في الحديث: «أفشوا السلام بينكم، وتواصلوا».

فأما ما أمر الله بوصله فيرجع فيه إلى الأدلة السمعية، كقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩] وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩] وقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ [النساء: ١] وقوله تعالى: ﴿وَيَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّا جَاءْنَاكُمْ بِإِلَهِينَ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ﴾ [النساء: ٣٦] وقوله تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ..﴾ الآية [حمد: ٢٢-٢٣] وقول رسول الله ﷺ: «اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه» وقوله ﷺ: «إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا: كتاب الله، وعترتي أهل بيتي..» الحديث.

قال الشريفي في (المصابيح): «قال في (البرهان): الذي أمر الله بوصله النبي ﷺ والأئمة من ولدهم [كذا] لأن قطعهم كفر وضلال» انتهى.

وقال الشريفي - أيضاً - : «قال الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة عليه السلام في (الشافى): «إن المراد بذلك ولاء آل محمد - عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام - وإنما قلنا ذلك؛ لأن السعادة تثبت بثبات ولائهم ﷺ وتزول بزواله..» إلخ كلامه.

هُمَّ عُقْبَى الدَّارِ ﴿١١﴾ جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿١٢﴾ سَلَامٌ

قلت: الراجح العموم لكل ما أمر الله بوصله.

وقوله تعالى: ﴿وَنَحْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ قال الراغب في (مفرداته): «الخشية: خوف يشوبه تعظيم، وأكثر ما يكون ذلك عن علم بما يخشى منه» انتهى المراد.

وقوله تعالى: ﴿وَنَحْأَفُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ أي ليتقوا أسباب سوء الحساب أي شدته وما فيه من المناقشة والتوبيخ والسؤال عن كل كبير وصغير وغير ذلك مما يسوء العبد المحاسبة لأجله.

﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرُءُونَ بِالْحَسَنَةِ أُولَٰئِكَ هُمُ عُقْبَى الدَّارِ﴾ ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا﴾ أي على ما تكره النفوس من الطاعة والبلاء ﴿ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ أي ابتغاء رضوانه؛ لأن الراضي يقبل بوجهه كما أن الساخط يعرض، وقال إخوة يوسف: ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ [يوسف: ٩].

وقوله تعالى: ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ جعلوها صلاة قيِّمة كاملة بإخلاصها وخشوعها مع تمام شروطها وأركانها وهذا من خواص المؤمنين، وقوله تعالى: ﴿وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ كذلك من شأن المؤمنين طلباً لرضوان الله وتثبيتاً من أنفسهم ينفقون من الحلال ﴿سِرًّا﴾ حيث ينبغي إخفاء الصدقة ﴿وَعَلَانِيَةً﴾ حيث ينبغي إعلانها للقدوة، والواجب من الإنفاق قد ينبغي إعلانه تجنباً للثمة.

ومن الإنفاق ما ذكره الله في (سورة البقرة) في قوله تعالى: ﴿وَأَتَى الْمَلَ عَلَىٰ حَبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿.. وَأَتَى الزُّكَّةَ﴾ [آية: ١٧٧] ومنه الإنفاق في سبيل الله لقوله تعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ..﴾ [البقرة: ١٩٥] والآية التي نحن في تفسيرها لم تعين المصارف، والتعيين في غيرها وما نزل بعدها من الزكاة والإنفاق في سبيل الله يصدق عليه إطلاقها، وهو من تطبيقها.

وقوله تعالى: ﴿وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ أي يدفعون بالحسنة وهي خصلة من خصال الإحسان ومكارم الأخلاق يدفعون بها السيئة، أي سيئة من سييء إليهم لو لم يحسنوا إليه، وقد تكرر في القرآن الكريم الحث على هذا لأهميته وعظم فائدته وكثرة ثوابه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يُلْقِهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [نفلت: ٣٥].

وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ ﴿أُولَئِكَ﴾ أهل الصفات المذكورة من قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولَئِكَ الْأَنْبَاءِ..﴾ ﴿لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ أي الدار الآخرة والدار الآخرة هي الجنة - وعقباها: عاقبتها وهي ما جعل الله لأولياؤه فيها من النعيم الدائم والملك الكبير الذي هو عاقبة المتقين، أو المراد العقبي التي هي الدار الآخرة، كما قال تعالى ﴿بَلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ ويحتمل ﴿عُقْبَى الدَّارِ﴾ العاقبة التي أدتهم إليها الدار الدنيا.

قال الشرفي رحمه الله في (المصاييح): ﴿عُقْبَى الدَّارِ﴾: أي عقبى دار الدنيا وهي الجنة؛ لأنها هي الدار التي أراد الله أن تكون عاقبة الدنيا» انتهى المراد، ومثله في (الكشاف) و(الميزان).

ودار الدنيا: دار الحياة الدنيا، وهي الأرض في حق البشر، والسماء في حق الملائكة، والراجح عندي الأول، سواء كانت الإضافة على معنى (في) أو على معنى (اللام) من إضافة الصفة إلى الموصوف.

عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿١٧﴾ وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ

﴿١٧﴾ جَنَّتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿١٨﴾ جَنَّتُ عَدْنٍ ﴿١٩﴾ بيان لعقبي الدار، ومعنى جنات عدن في (تفسير القاسم عليه السلام) لـ (سورة لم يكن) قال: «وتأويل ﴿جَنَّتُ عَدْنٍ﴾ هو جنات مستقر وأمن»، انتهى.

﴿وَمَنْ صَلَحَ﴾ والصالح: ضد الفاسد، فالصالح هو المؤمن المتقي لله؛ لأنه طيب غير خبيث وسليم من عيب المعاصي المهلكة، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ﴾ يعم الأجداد الصالحين مع الآباء الأقربين ﴿وَأَزْوَاجِهِمْ﴾ يدخل فيه الصالحات من الأمهات إذا كان أزواجهن من الصالحين، وقوله تعالى: ﴿وَذُرِّيَّتِهِمْ﴾ يعم الذرية ما تناسلوا، وهذا ترغيب باجتماعهم في الجنة، وفيه دلالة على بقاء اعتبار النسب في حق الصالحين كما تبقى الخلقة في حقهم، فهو مخصص لعموم قول الله تعالى: ﴿فَلَا أُنْسَبُ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ﴾ [المؤمنون: ١٠١].

وقوله تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾ أي لتكريمهم بزيارتهم وللسلام عليهم كما بينه قوله تعالى:

﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ أي يقول لهم الملائكة ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ وهي تحية لهم وتكريم، وقولهم: ﴿بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ أي نسلم عليكم بسبب صبركم في الدنيا على طاعة الله وبلائه ﴿فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ مدح لعاقبة الصبر التي صاروا إليها في الدار الآخرة التي هي عقبى الذين اتقوا، أو فنعم عاقبة الأرض التي كنتم فيها في الحياة الدنيا.

أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٦٥﴾ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ وَفَرَحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَعٌ ﴿٦٦﴾ وَيَقُولُ

﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِمْ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٦٧﴾ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ ﴿يَنْكُثُونَ أَيْمَانَهُمْ وَيَحْتَثُونَ فِيهَا﴾ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ ﴿مَنْ بَعْدَ أَنْ وَثَقُوا الْعَهْدَ وَأَحْكَمُوهُ وَقَوَّوْهُ، أَوْ مِنْ بَعْدَ أَنْ جَعَلُوا الْعَهْدَ مِيثَاقاً لِمَنْ عَاهَدُوهُ يَثِقُ بِمَا عَاهَدُوا عَلَيْهِ مِنْ أَجْلِ الْعَهْدِ وَيَرْكُنُ إِلَيْهِ فَبَعْدَ ذَلِكَ يَنْقُضُونَهُ غَدراً وَخِيَانَةً﴾ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِمْ أَنْ يُوصَلَ ﴿وَهِيَ الْعَلَائِقُ الَّتِي كَانَتْ بِسَبَبِ مِنَ الْأَسْبَابِ الَّتِي مَرَّ ذِكْرُهَا وَالَّتِي أَمَرَ اللَّهُ أَنْ تُوَصَلَ كَالْأَرْحَامِ وَالْوَالِدِينَ وَالصَّادِقِينَ.

قال الشريفي في (المصابيح): «قال الإمام أبو الفتح الديلمي - وهو مؤلف (البرهان) - عليه السلام: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِمْ أَنْ يُوصَلَ﴾: هم الذين لا يوجبون محبة آل محمد صلوات الله [عليه و] عليهم، وينكرون فضلهم» انتهى المراد.

والقطع يكون بالهجر ويكون بالمباينة والمعاداة، وقطع علاقة العبد بربه: معصيته، والإصرار، والتمرد، وقطع علاقته بالرسول: الكفر، والنفاق، وبالإمام: رفضه.

وقوله تعالى: ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ ينشرون الباطل في الأرض بالدعوة إليه والترغيب فيه، أو بالقوة والإرهاب، ومن ذلك مدارس أهل الباطل ومعاهدهم، ومن الفساد في الأرض: نشر الهلاك والدمار، كما فعلت التتار، وكما تفعل أمريكا وإسرائيل اليوم، ومن الفساد في الأرض: الجدل في آيات الله ونشر الشبه.

وقوله تعالى ﴿أُولَئِكَ﴾ أي أهل هذه الصفات ﴿لَهُمُ اللَّعَنَةُ﴾ الطرد من رحمة الله ﴿وَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ عذاب الدار التي هي دار الفاسقين وهي جهنم، أو سوء الدار سوء المستقر الذين سيكون لهم داراً وهو جهنم، فالفرق أن الدار في الأول مفهومها جهنم، وفي الثاني مفهومها مبهم ومصداقه جهنم، كما لو قيل: سوء المستقر.

﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ وَفَرَحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَعٌ﴾ ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ هذا إبطال لدعوى الكفار الذين بسط الله لهم الرزق حيث فرحوا بما أوتوا من الرزق وظنوا أن حظهم وما يسمى اليوم (بختهم) جيد وأنهم إن رجعوا إلى الله من بعد الموت، فسيكون لهم في الآخرة مثل ما نالوا في الدنيا لأن حظهم جيد في ظنهم، فجعلوا ما نالوا من الرزق كالأمر الطبيعي.

فبين الله أن الذي أوتوه من الرزق إنما هو من الله يبلوهم به، ولو شاء لقدّر عليهم الرزق لأن الله هو ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ﴾ ويقدر فقد اغتروا بنعمة الله عليهم، وبعض الكفار يظن أن الله يعطيه لأنه يحبه، فهو يعتقد أنه إن رجع إليه بعد الموت فله عنده الحسنی؛ لأن الله يحبه لغير عمل، وإنما يستدل على حبه إياه بتوسيع الرزق له، وبعضهم يعتقد أن سبب كثرة رزقه علمه بطرق الكسب وهذه الآية رد عليهم، وبيان أنه هو الذي يبسط الرزق لهم ولو قدر عليهم لأعيتهم الطرق إلى الرزق، كما قال الشاعر:

كم عالم عالم أعيت مذهبه وجاهل جاهل تلقاه مرزوقا

وقد يكون الرجل البصير في التجارة أو غيرها غنياً مدة من الزمان ثم يصير فقيراً، وهو ذلك البصير بعينه، فالله هو الذي جعل الأسباب أسباباً وهيئاً لمن أراد، وزواها عن أراد، وتقدير الرزق تقليله بقدر تقتضيه الحكمة.

الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ۖ قُلْ إِنَّا لَنُفِضُكَ اللَّهُ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن أُنَابَ ﴿٤٧﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا

وقوله تعالى: ﴿وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي الكفار سرّتهم هذه الحياة واطمأنوا إليها فجعلوها أكبر همهم ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ﴾ أي بالنسبة إلى الحياة الآخرة ﴿إِلَّا مَتَّعٌ﴾ إلا بُلغة قصيرة الأمد.

قال الشرفي في (المصاييح): «قال الحسين بن القاسم عليه السلام: «معنى ﴿إِلَّا مَتَّعٌ﴾ أي ما هي مع الآخرة إلا متاع إذا ذكرت معها، فقامت (في) مقام (مع) ومعنى ﴿مَتَّعٌ﴾ أي بُلغة ومتعة إلى حين الموت ولا سلامة لأحد فيها من الفوت، وكل شيء بَلَغَ المَحَلَّ قيل متع صاحبه إلى محل كذا وكذا» انتهى.

وهذا لأن الآخرة دائمة لا نهاية لها أبداً، والدنيا مؤقتة محدودة فانية، فالوقت المنتهى بالنسبة إلى الدائم قليل جداً؛ لأنها لو قوبلت كل ساعة من ساعات العمر بمليون سنة من مدة الآخرة لانتهت ساعات العمر ولم يقابل الخلود شيء منها بعد الملايين المذكورة، فالحياة الدنيا لا تستحق أن يفرح بها الإنسان بل تستحق أن يحذر من الإغترار بها.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ۖ قُلْ إِنَّا لَنُفِضُكَ اللَّهُ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن أُنَابَ﴾ ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ﴾ يريدون إن كان محمد رسولاً فلولا أنزل عليه ﴿آيَةٌ﴾ أي فهلاً أنزل عليه آية ﴿مِّن رَّبِّهِ﴾ وهذا منهم كفر برسالته وكفر بآيات الله يزعمون أنها ليست آيات وهم يسمعون هذا القرآن العظيم الخارق للعادة في حكمته وإحكامه، ومع ذلك يقولون: ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ﴾ وذلك التمرد والعناد والجدال في آيات الله استحقوا به أن يضلهم الله سبحانه بخذلانهم وإرسال الشياطين عليهم؛ فلذلك قال تعالى:

بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ ﴿٢٩﴾ كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا

﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ﴾ فتكذيبكم بآيات الله ضلال وسبب للإضلال عقوبة لكم ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ﴾ فلا تضلونه بكفركم وجدالكم في آيات الله، ومعنى ﴿مَنْ أُنَابَ﴾ مَنْ رجع إلى الله فالإنابة سبب للهدى، كما أن الجدال في آيات الله سبب للضلال.

﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ﴾ هذا تفسير لـ ﴿مَنْ أُنَابَ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَتَطْمَئِنُّ﴾ أي تسكن ويذهب عنها الإضطراب والقلق يذهب ﴿بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ أي ذكره بقلوبهم؛ لأنهم يذكرون أنه الرازق، وأنه الكافي لمن توكل عليه، وأنه مجيب دعوة الداعي، وأنه يشيهم على ما عملوا من خير ويعوضهم بما أصابهم من ضرر، وأنه لا يصيبهم إلا ما كتب الله لهم، وأنه الرحيم بعباده فما أصابهم من فقر أو مرض أو غير ذلك من البلاء فهو خير لهم في العقبى، ونحو ذلك من الإطمئنان الذي سببه معرفة الله وذكره بالقلوب.

وقوله تعالى ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ تنبيه لمن غفل عن ذكر الله أنها بذكر الله ﴿تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ إرشاداً إلى ذكر الله وحثاً عليه.

﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ﴾ ﴿طُوبَىٰ﴾ حياة طوبى، كقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧] و(طوبى): مؤنث أطيّب، مثل (حسنى) تأنيث أحسن.

أُمُّ لِّتَتْلُوا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٢٠﴾ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ

قال الشريفي في (المصابيح): «قال الحسين بن القاسم عليه السلام: معنى ﴿طُوبَى لَهُمْ﴾ أي سرور لهم، والطوبى: هو السرور، وطيب الحياة والحبور» انتهى المراد، وكأنه أرجع طوبى إلى طيب النفوس، كقوله تعالى: ﴿فَلِإِن طِيبَنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا﴾ [النساء: ٤٠].

والراجح: أنه وصف للحياة أو العيشة أو نحوهما، كما قال: ﴿حَيَّةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧] وكيف لا تطيب حياة من هو مطمئن القلب بذكر الله متوكل على الله راض بما كتبه الله قانع بما رزقه الله كما هو شأن المؤمن الكامل الإيمان؟ وقوله تعالى: ﴿وَحُسْنُ مَتَابٍ﴾ أي حسن مرجع يؤوب إليه يوم القيامة فاجتمع لهم خير الدنيا والآخرة.

قال في (الصحيح): «وطوبى: فُعِلَى من الطيب قلبوا الياء واواً للضممة قبلها، وتقول: طوبى لك، وطوباك بالإضافة - ثم قال - : وطوبى اسم شجرة في الجنة» انتهى.

قلت: شجرة طوبى داخلية في حسن المثاب، فإن صح عن النبي ﷺ تفسيرها في الآية بشجرة طوبى تعين، ولعل الأقرب: أنه بيان لبعض مصداق طوبى، فيكون مفيداً لطيب حياتهم في الدنيا والآخرة - والله أعلم.

﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ ﴿كَذَلِكَ﴾ الذي أرسلناك به من هذه السورة وتلوته عليهم وفيه البيان الكافي لآيات الله الدالة على قدرته، وعلى أن هذا القرآن من الله،

الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُفِّرَتْ بِهِ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَأْتِ الْيُسْرَى الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا تَخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾ وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ

وعلى صدقك في كل ما جئت به ﴿أَرْسَلْنَاكَ﴾ بما أوحينا إليك كله لتتلو عليهم القرآن وقد خلت من قبلهم أمم فيهم عبرة لهم وتذكير بعقوبة التكذيب بآيات الله ﴿وَهُمْ﴾ مع ذلك كله ﴿يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ الذي يدعوهم إلى رحمته والنجاة من عذابه فيزعمون أنه لا يقدر على تجديد خلقهم بعد أن يصيروا في القبور تراباً وعظاماً.

﴿قُلْ﴾ يا رسول الله ﴿هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ الرحمن ربي المالك لي؛ لأنه خلقني ورزقني ﴿عَلَيْهِ﴾ وحده ﴿تَوَكَّلْتُ﴾ لأنه المتولي لأمري وأنا أرضى بما كتب لي ﴿وَالَيْهِ مَتَابٌ﴾ في الآخرة أي مرجعي - والمآب والمتاب واحد في المعنى - فإنا أو من بتوحيده وصدق وعده بالبعث من القبور والرجوع إليه في الآخرة وحده، وأنا بريء مما أنتم عليه من الشرك والتكذيب بالآخرة والكفر بالرحمن وتكذيب رسله فقد جئتكم بهذا القرآن حجة عليكم ودليلاً على صدقي.

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُفِّرَتْ بِهِ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَأْتِ الْيُسْرَى الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا تَخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا﴾ عطف على قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ الآية، وهو في كفار مخصوصين قد تمردوا وبعثوا عن الإيمان وخذلوا

واستحوذ عليهم الشيطان، فقد كان يكفيهم آية هذا القرآن، لكنهم ضلوا فقالوا: ﴿لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ جحداً منهم لكون هذا القرآن آية. ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمٌ بِهِ الْمَوْتَى﴾ لقوته وعظمته وشدة خرقه للعادة لما آمنوا به، كقوله تعالى ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لَيُؤْمِنُوا﴾ [الأنعام: ١٠٩-١١٠] وذلك أنه لم يبقَ عندهم صلاحية للإيمان فالسببُ في كفرهم ضلالهم، لا عدم الآية، فقد جاءهم القرآن وهو يكفي للإيمان لو كان عندهم إنصاف.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ فهو الذي تركهم في ضلالهم يعمهون لأنه أراد بحكمته أن يتركهم وما اختاروا لأنفسهم ولم يُعصَ مغلوباً ولو شاء لهداهم أجمعين.

﴿أَفَلَمْ يَأْيَسِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): ﴿أَفَلَمْ يَأْيَسِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أفلم يعلم ويتبين، وهي لغة النَّخَع، انتهى المراد.

وقال الراغب في (تفسيره): «وقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَأْيَسِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ قيل: معناه: أفلم يعلموا، ولم يُرد أن اليأس موضوع في كلامهم للعلم، وإنما قصد أن يأس الذين آمنوا من ذلك يقتضي أن يحصل بعد العلم بانتفاء ذلك، فإذا ثبوت يأسهم يقتضي ثبوت حصول علمهم» انتهى.

وفي (الصحيح): «ويُس - أيضاً - بمعنى عِلِم في لغة النَّخَع، قال سحيم بن وثيل اليربوعي:

أقول لهم بالشَّعب إذ يأسروني ألم تياسوا أي ابن فارس زهدم

ومنه قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَأْيَسِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ انتهى.

ونحوه في (لسان العرب) إلا أنه في تفسير الآية، حكاه عن (صاحب الصحاح). وقال الشرفي في (المصابيح): «قال الحسين بن القاسم عليه السلام: ﴿أَفَلَمْ يَأْيَسِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ يريد تعالى التقرير لهم أي: ألم يوقن الذين آمنوا، واليأس هاهنا هو اليقين، قال الشاعر:

ألم يياس الأقوم أنني أنا ابنه وإن كنت عن دار العشيرة نائياً

أي [أ]لم يوقنوا، وقال آخر:

أقول لهم بالشعب إذ يأسروني ألم تياسوا أنني حرث بن جابر»

انتهى. قال في (لسان العرب): «ويروى: يأسروني من الأسر، وذكر للبيت رواية ثالثة:

أقول لأهل الشعب إذ ييسروني ألم تياسوا أنني ابن فارس لازم»

انتهى المراد.

وقد انفقت روايات هذا البيت في إثبات الشاهد منه، وقال في (لسان العرب): «في سحيم، وذكر بعض العلماء أنه لولده جابر بن سحيم، بدليل قوله: أنني ابن فارس زهدم، وزهدم فارس سحيم» انتهى.

قلت: فلعل حرث بن جابر ابنه المذكور في رواية الحسين بن القاسم عليه السلام، وذكر الطبري في تفسيره البيت:

ألم يياس الأقوم أنني أنا ابنه وإن كنت عن أرض العشيرة نائياً

فتحصل: أن المعنى: أفلم يتبين ويعلم الذين آمنوا سواء كان (يياس) مفهوماً يتبين ويعلم، أم كان كناية عن العلم كما قدّمت عن الراغب الأصبهاني أي: أفلم يعلم الذين آمنوا أن لو يشاء الله أن يهدي الناس جميعاً

على أي حال لهداهم، كقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَلَّغْتَ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ * إِنْ نَشَأْ نُثَوِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْقَابُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ [الشعراء: ٣-٤] ولكنه سبحانه أراد أن لا يلجأهم الجاء، بل يتركهم يختارون ما شاءوا من إيمان أو كفر.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ﴾ أي لا يزالون في الدنيا تصيبهم بجرائمهم مصيبة عقوبة لهم، وسميت قارعة تشبيهاً لها بما يضربهم ضرباً ليتنبهوا من غفلتهم عن الله والقارعة ما يصيبهم من مصائب الدنيا مثل الأمراض والخوف ونقص الثمرات وتسليط أعدائهم عليهم.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ تَحُلْ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾ أي أو تحل قارعة قريباً من دارهم أي: أو تنزل في مكان قريب من دار الذين كفروا بمن هو مثلهم في الكفر، فهو عبرة لهم، وربما لحقهم أثر تلك المصيبة كفوات بعض حاجاتهم التي كانوا من قبل ينالون من ذلك المكان ففاتهم بسبب هلاك أهله أو ذهاب ثمره أو شرد أهل ذلك المكان الخوف إلى هؤلاء الذين لم تلحقهم المصيبة فنقلوا عليهم وضيقوا حالهم بكثرتهم مع فقرهم كما هو معروف من كثرة اللاجئين.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ﴾ الموت أو البعث الذي جحدوه، ويحتمل: أن المراد بالذين كفروا هنا، هم الذين ذكرهم في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبْ قَوْلُهُمْ..﴾ الآية، الذين كذبوا رسول الله ﷺ وكذبوا بالآيات التي جاء بها و﴿وَعْدُ اللَّهِ﴾ وعده لرسوله ﷺ بالنصر عليهم وإظهار دينه وإزالة الشرك والكفر من دارهم بفتح بلادهم للمسلمين التي هي مكة وما حولها.

فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿١٢﴾ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ۖ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلُوبًا سَمُوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ ۚ أَمْ بَيِّظِرُونَ مِنَ الْقَوْلِ ۚ بَلْ زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ ۚ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿١٣﴾ هُمْ عَذَابٌ فِي

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ يعم الوعد بإظهار دينه والوعد بالآخرة والجزاء لكل نفس بما كسبت ووعدهم بأنها لا تزال تصبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريباً من دارهم، وهذا المعنى الأخير قريب يؤكد اتباع هذه الآية بقوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَسْتَهْزَأُ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ أي ولقد كذب رسل من قبلك واستهزأ بهم قومهم إفراطاً في تكذيبهم، والاستهزاء أن يقولوا كلاماً موافقاً وهم غير جادين فيه بل مستخفون بالرسول كلوا أوعدوه بالإيمان وهم مصرون على كفرهم، وكقول المنافقين: ﴿آمنّا﴾ وهم غير جادين.

وقوله تعالى: ﴿فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي أمهلتهم إلى أجل محدود ولم أعاجلهم بالعقاب على كفرهم ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ أهلكتهم بالعذاب، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [مود: ١٠٢].

وقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ أي فكيف كان عقابي لهم حين أخذتهم، فقد ظهر كيف كان بما بلغ الناس من خبر عقاب الله لقوم نوح، وقوم عاد، وثمود، وقوم لوط، وقوم شعيب، وفرعون وقومه.

﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ۖ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلُوبًا سَمُوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ ۚ أَمْ بَيِّظِرُونَ مِنَ الْقَوْلِ ۚ بَلْ زَيْنَ

لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ^٤ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٥﴾ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴿٦﴾ متولٌ عليها معامل لها بما هي أهله من الخير أو الشر بسبب ما كسبت من طاعة أو معصيته يعاملها في الدنيا والآخرة لإحاطة علمه بكل نفس وقدرته على معاملتها بما هي أهله وعلمه بكل صغيرة وكبيرة من عملها، فهو الذي ينبغي أن يتقيه عباده ويرجوا رحمته وثوابه ويخافوا عذابه ومع ذلك فهم يجعلون له أنداداً أحجاراً منصوبة وتماثيل مصنوعة لا تضر ولا تنفع ولا تبصر ولا تسمع، وتقدير الكلام على هذا: أقمن هو قائم على كل نفس بما كسبت جعلوا شركاءهم أنداداً له، مع أنهم لا يصلحون أن يجعلوا أنداداً للحيوان، فضلاً عن أن يجعلوا أنداداً للحي القيوم.

ويحتمل التقدير بعد قوله تعالى: ﴿قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ تجرأوا على الكفر به وجعل الأنداد له والتكذيب لرسله والجدل بآياته والجدال فيها مع أنهم أحوج إلى تقواه ومراقبته في كل أمورهم؛ لأنه قائم على كل نفس بما كسبت، وهذا عندي أقرب من الأول؛ لقوله تعالى ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾ أي تمردوا وتجرأوا عليه وجعلوا له شركاء وهو الله الذي له الأسماء الحسنى.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ أي: ﴿قُلْ﴾ لهم يا رسول الله ﴿سَمُّوهُمْ﴾ أي سموا شركاءكم، فإنهم يسمونهم تسمية الأنثى، فقد كان ينبغي لهم أن يستحيوا من جعلهم شركاء وهم إناث عندهم، كما قال تعالى: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا﴾ [النساء: ١١٧] وهم يكرهون البنات لأنفسهم ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [الزخرف: ١٧].

وقوله تعالى: ﴿أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ﴾ سؤال تقرير لهم وتوبيخ على قولهم إن أصنامهم شركاء لله وتجهيل لهم وإبطال لها بطريقة أنها لو كانت شركاء حقاً لعلمها الله شركاء له لكنه لا يعلم في الأرض شريكاً له، أفتعلمون ما لا يعلم وتخبرونه بما لا يعلم؟ وهذا إنكار عليهم وتوبيخ.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ تُنَبِّئُونَهُ﴾ بمعنى بل أننبئونه إضراباً عن قوله سموهم إلى ما هو أبلغ في الرد على المشركين للترقي في الجواب، وقوله تعالى: ﴿أَمْ بَظَهَرَ مِنْ الْقَوْلِ﴾ أي أم بسلطان من القول غالب وذلك لا يكون إلا كتاب منزل من الله أو معلوم علم اليقين من وحي الله جعله الله سلطاناً لكم غالباً لمن خالفكم، وهذا إضراب للترقي إلى ما هو واضح للمشركين لا يدعون، وإنما ﴿قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٣] وهذه الآية احتجاج مزعزع يحرك الضمائر ويوقض الغافل، لو كان بقي لهم ضمير وشيء من الإنصاف.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ زَيْنَ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ﴾ أي قد وضع السبيل القاصد الحق وتبين الصواب فلم يتركوه لخفاء الحجة عليهم بل زين لهم مكرهم ضد الحق واستحسنوه لأنهم كارهون للحق فأعجبهم ما تخيروه من الإحتيال لإبطاله.

مثال ذلك: مكرهم حين اجتمعوا للتشاور على ما هو الرأي أن يقولوا في حمد ليقولوا فيه كلاماً يتفقون عليه ولا تختلف أقوالهم، فتخبروا أن يقولوا: ﴿سَاحِرٌ﴾ [ص: ٤] فأعجبهم ذلك وزينه الشيطان لهم، والأولى: أنه عام لكل مكائدتهم ضد الحق كتكذيبهم بالقرآن، وقولهم: ﴿شَاعِرٌ﴾ [الأنبياء: ٥٥] وقولهم:

﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ

﴿مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ﴾ [الدخان: ١٤] وقولهم: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ [النحل: ١٠٣] واحتياهم لإبطال أمر الرسول بغير ذلك مثل شكواهم عند أبي طالب ليمنعه من الكلام في شركائهم وفي شركهم لأن قوله تعالى: ﴿مَكْرَهُمْ﴾ عام لمكرهم كله.

وقوله تعالى: ﴿وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ﴾ أما على قراءة [فتح الصاد] فالمعنى أنهم صدّوا غيرهم فخذلوا بسبب مكرهم وصدّهم لمن صدّوه من الناس؛ لأنهم بمكايدتهم للرسول وما جاء به استحقوا الخذلان فأصروا على شركهم ولم يقبلوا أي حجة، وأما على قراءة [ضم الصاد] فالمعنى أن الشيطان صدّهم عن السبيل بسبب أن الله خذلهم وأرسل عليهم الشياطين تؤزهم أزا؛ فلذلك لم يقبلوا الحق والهدى.

وأما قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ فهو يشير إلى أن الله أضلهم بخذلانهم الذي استحقوه بمكرهم حتى زين لهم كيدهم وحتى صدوا عن السبيل، فقوله تعالى: ﴿بَلْ زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ تعبير عن إضلالهم بالخذلان الذي ترتب عليه تزيين مكرهم لهم وصدّهم عن السبيل على قراءة [فتح الصاد]؛ لأن إمعانهم في الكفر حتى صدوا غيرهم هو بسبب الخذلان و[على قراءة ضمها] فهو الإضلال الذي هو نتيجة الخذلان زين لهم ﴿وَصُدُّوا﴾ [بضم الصاد] وذلك لاستحقاقهم الخذلان بمحاربتهم لدين الله، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ أي ماله هاد يهديه غير الله، والله لم يهده فلم يكن له من هادٍ لا الله تعالى ولا غيره.

﴿هُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾ ﴿هُمْ عَذَابٌ﴾ أي للذين كفروا المذكورين في الآية التي

وَزَلَّلْنَاهَا بِتِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴿٥٥﴾ وَالَّذِينَ
ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ

قبل هذه، وقوله تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ﴾ أي عذابهم في الآخرة إن لم يتوبوا في الدنيا أشق من عذاب الدنيا ﴿وَمَا هُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾ أي ما لهم من يقيهم من الله لأنه الغالب على أمره الفعال لما يريد فلا يستطيع أحد دفع عذاب الله عنهم.

﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ﴾ أي وصفها ﴿الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ﴾ التي وعدها الله المتقين الذين اتقوا ربهم بطاعته ولم يُصِرُّوا على ما فعلوا وهم يعلمون، وقوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ﴾ مبتدأ خبره إما ﴿تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ وما بعده إلى قوله تعالى: ﴿وَزَلَّلْنَاهَا﴾ وإما قوله ﴿أُكُلُهَا دَائِمٌ﴾ وما بعده إلى قوله: ﴿وَزَلَّلْنَاهَا﴾ وقوله تعالى: ﴿تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ جملة حالية، والأول أرجح.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال الحسين بن القاسم عليه السلام: يريد تعالى ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ﴾ أي صفة الجنة أن فيها الأنهار والأكل الدائم والظل، وإنما الأصل في الأمثال أنها صفات في المقال، قال الله - عز وجل - : ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ [النحل: ٦٠] وليس لله مثل، وإنما أراد وله الصفة العليا، فافهم أصل ضرب الأمثال، أو التوصل إلى الصفات بالمقال» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿أُكُلُهَا دَائِمٌ﴾ أي ثمرها المأكول دائم ﴿وَزَلَّلْنَاهَا﴾ أي دائم؛ لأن أوراقها لا تسقط في الشتاء كبعض أشجار الدنيا ولا يتخلف ثمرها في وقت من الأوقات كما يتخلف ثمر بعض أشجار الدنيا.

بَعْضُهُ^{٥٢} قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ^{٥٣} إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَعَابِ^{٥٤} وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنْ أَتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا

وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ﴾ أي الموصوفة بهذا الوصف ﴿عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ أي عاقبتهم أي عاقبة التقوى لأهلها، وقوله تعالى: ﴿وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ﴾ أي عاقبتهم ﴿النَّارُ﴾ أي نار جهنم نعوذ بالله منها.

﴿وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ^{٥٥} قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ^{٥٦} إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَعَابِ﴾ يترجح: أن هذه السورة مكية، فقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ﴾ يبين حالهم وموقفهم من القرآن يومئذ ولا ينافي أن بعضهم تغيروا بعد الهجرة إلى المدينة المنورة فلعل سبب ذلك كان بعد الهجرة كنسخ القبلية، ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ [القصص: ٥٢] وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَآئِيلَ﴾ [الشعراء: ١٩٧] وهذا أرجح من تأويل ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ بالذين فهموه تماماً واهتدوا بهداه الذي سبق لي في تفسير (سورة المائدة)؛ لأن نسبة الإيمان بالقرآن إليهم خاص بالسور المكية، وعلى هذا فهم كانوا يفرحون بما أنزل على محمد حين كان في مكة قبل هجرته إلى المدينة كما كانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ^{٥٧}﴾ أي ينكر بعض ما أنزل الله على رسوله من المعاني كنفي الشريك لله، وإسناد الإنكار إلى بعض الأحزاب من حيث هم بعض الأحزاب يشعر بسبب الإنكار وأنه تعصبهم لمبادئهم التي تحزبوا عليها، كقوله تعالى في عيسى - صلى الله عليه - : ﴿فَلَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ [مريم: ٣٧].

جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٧٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِغَايَةٍ إِلَّا

ويحتمل: أن قوله تعالى ﴿وَمِنْ الْأَحْزَابِ﴾ أراد به أحزاب الذين أوتوا الكتاب فيكون مخصصاً لعموم قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ﴾ وهذا قريب لأن أحزاب أهل مكة ومن حولهم حالهم معروف لهم لا موجب لإخبارهم به.

فالراجح: أن المراد بالأحزاب أحزاب أهل الكتاب ذكروا لتخصيص أول الآية وإن شمل بعمومه غيرهم ومثله يتعين فيه المخصص بالترجيح لأنه عموماً بينهما عموم وخصوص من وجهين: عموم الذين أوتوا الكتاب للأحزاب منهم وغير الأحزاب، وعموم الأحزاب لأحزاب الذين أوتوا الكتاب وغيرهم.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ﴾ أي قل للذين ينكرون بعضه إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به، فهذا ديني فليس فيه ما يستحق أن تنكروه؛ لأن عبادة الله الخالق الرازق حق لا ينكره العقل واجتناب الشرك حق؛ لأن الله لم يأمر بعبادة غيره ولا برهان لكم بالشرك، فاجتنابه طريق الأمن ولا موجب لإنكاره.

وقوله ﴿إِلَيْهِ أَدْعُوا﴾ كذلك لا ينكر العقل الدعوة إلى الله وحده، وقوله ﴿وَإِلَيْهِ مَوَابٍ﴾ أي وإليه وحده مآب أي مرجعي في الآخرة، فهو الذي يسألني عن عملي ويجزيني عليه فليس إنكار اتقائي له وحده إلا جهل منكم. ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ ﴿وَكَذَلِكَ﴾ كما أنزلنا ما في

هذه السورة من الهدى والحكم الحق ﴿أُنزِلَتْهُ﴾ أي القرآن كله ﴿حُكْمًا﴾ بالحق وأنزلناه ﴿عَرَبِيًّا﴾ أي بلسان عربي مبين يفهمه العرب حين تتلوه عليهم، فقوله تعالى: ﴿عَرَبِيًّا﴾ حال بعد حال.

وقوله تعالى: ﴿وَلِينَ اتَّبَعَتْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي شركهم وما هم عليه من الباطل الذي لم يتبعوا فيه حجة إنما اتبعوا أهواءهم، وقوله تعالى ﴿بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ أي من الوحي والبرهان المفيد للعلم بأنك أنت على الحق وأنهم على الباطل، فقد قامت الحجة بذلك عليك، فإن اتبعت باطلهم ﴿مَا لَكَ﴾ حيثند ﴿مِنْ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ﴾ يتولى رعايتك وإصلاح أمرك ويرسل لك من الخير ما يمسك الله عنك ﴿وَلَا وَاقٍ﴾ يقيق عذابه إن اتبعت أهواءهم وحاشاه ﷺ فهو أطوع لله ربه من أن يكون كذلك.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال الحسين بن القاسم عليه السلام: هذا خطاب للنبي ﷺ والمراد سواه من الأنام، فقس على هذا ما أشبهه من الكلام فيما لا يليق برسول ذي الجلال والإكرام» انتهى.

قلت: إن الله تعالى تعبده كما تعبد غيره من عباده ولو عصاه لعذبه فالكلام فيه حق وصدق وإن كان الغرض به زجر غيره فليس معنى ذلك أن الرسول المخاطب بهذا الكلام لم ينه ولم يشمل الوعيد الذي خوطب به؛ لأنه وإن كان لا يحتاج في ترك أهواء الكفار إلى هذا الوعيد فهو يصلح له من حيث هو عبد تعبده الله كما تعبد غيره ولو عصاه لعذبه فلا يُصرف خطابه هذا عن ظاهره، ولكن يقال: قد تعبد الله بهذا وزجر رسوله عن مخالفته وهو أطوع الناس له فغيره أولى أن يكون مثله متوعداً إن خالف ربه، نظير ذلك قوله تعالى: ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٌ﴾ [الاسراء: ٢٣] هو زجر عما هو أشد مع أنه باق على معناه الأصلي في النهي عن قوله: ﴿أُفٌ﴾.

بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٢٦﴾ يَمْحُوهُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ
الْكِتَابِ ﴿٢٧﴾ وَإِنْ مَا تُرِيدُكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا

﴿٢٦﴾ ﴿٢٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ
لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٢٨﴾ كَانَ الْكُفَّارُ كَمَا أَنْكَرُوا
بَعْضُ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ أَنْكَرُوا أَنْ يَكُونَ لِلرَّسُولِ ﷺ أَزْوَاجٌ، كَمَا قَالُوا: ﴿مَلِ هَذَا
الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ﴾ [الفرقان: ٧] وكما أَنْكَرُوا أَنْ يَكُونَ الرَّسُولُ بَشَرًا مِثْلَهُمْ، فَرَدَّ
اللَّهُ عَلَيْهِمْ أَنَّهُ قَدْ أَرْسَلَ مِنْ قَبْلِهِ رُسُلًا وَجَعَلَ لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً؛ لِأَنَّهُمْ إِنَّمَا
أَرْسَلَهُمْ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ، فَلَا مَانِعَ مَعَ ذَلِكَ مِنْ أَنْ يَنْكِحُوا النِّسَاءَ عَلَى سُنَّةِ اللَّهِ
لِلْبَشَرِ، بِحَيْثُ يَكُونُ لَهُمْ ذُرِّيَّةٌ كَمَا كَانَ لَنُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ، وَقَدْ كَانَ لِبْرَاهِيمَ - صَلَّى
اللَّهُ عَلَيْهِ - مِنَ الْأَزْوَاجِ اثْنَتَانِ، وَرَوَى أَنَّهُ كَانَ لِسُلَيْمَانَ كَثِيرٌ مِنَ النِّسَاءِ.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ رد على
قولهم: ﴿لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ فالآيات عند الله ينزلها على ما تقتضيه
الحكمة، وهو غني عن إيمانهم ولا يريد أن يجعل لهم آية تضطرهم، وإذا أنزل
آية غير ما قد أنزل ولم ينزل ما يضطرهم إلى الإيمان فهم لا يؤمنون لأنهم
قد خذلوا بعنادهم وجدالهم في آيات الله، فإذا نزلت آية يجحدونها ﴿وَيَقُولُوا
سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ [القمر: ٢٠].

وقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ فلعل المراد به: آجال أمم الرسل
المكذبين، لكل أمة أجل، ولكل أجل منها كتاب يحّد الأجل، فإذا جاء
أجلهم نزل بهم العذاب لا يتأخر ولا يتقدم ويدخل في عمومها سائر
الآجال فهي تدفع توهم المكذبين أنهم لو كانوا مبطلين لعذبهم الله
واغترارهم بالإمهال.

﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ^ط وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ من كتاب الآجال وغير الآجال ﴿وَيُثَبِّتُ﴾ ما يشاء يجعله كتاباً ثابتاً لا يمحي ولا ينسخ، فله الحكم يحكم ما يريد ويفعل ما يشاء، وكتاب الآجال الذي صح محوه هو ما كان مشروطاً فإذا تخلف شرطه محي، وفائدة ذلك للملائكة: بمشاهدة الكتاب، ولنا: بمعرفة الكتاب بالخبر النبوي ومعرفة أسباب محوه كذلك بالخبر النبوي.

مثل: ما رواه المرشد بالله عليه السلام في (الأمالى الخمسية) في هذه الآية [ج ١٢٤/٢] بسنده: عن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام، قال: أخبرني أبي، عن جدي، عن علي عليه السلام، أنه سأل النبي ﷺ فقال: «لأبشرنك يا علي تبشر بها أمتي من بعدي، وهي الصدقة على وجهها، وبر الوالدين، واصطناع المعروف، وصلة الرحم، تحوّل الشقاء سعادة، وتزيد في العمر، وتقي مصارع السوء» انتهى.

ومثل: ما رواه الإمام المرشد بالله عليه السلام في (الأمالى الخمسية) أيضاً [ج ١٢٩/٢] بإسناده: عن جعفر بن محمد بن محمد بن علي عليه السلام - في قصة ذكرها - حدثني أبي محمد بن علي، عن أبيه علي بن الحسين، عن جده الحسين بن علي، عن علي بن أبي طالب عليه السلام، قال: «إن الرجل ليصل رحمه وقد بقي من عمره ثلاث سنين فيمدها الله - عز وجل - إلى ثلاث وثلاثين سنة، وإن الرجل ليقطع رحمه وقد بقي من عمره ثلاث وثلاثون سنة فيبترها الله عز وجل إلى ثلاث سنين» انتهى.

ومثل: ما رواه في [ج ١٢٧/٢] من (الأمالى الخمسية) أيضاً بإسناده: عن محمد بن علي بن الحسين بن فاطمة عليها السلام، قال: سمعت أبي، عن جدي

عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴿١٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ تَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ۖ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١١﴾ وَقَدْ مَكَرَ

علي بن أبي طالب عليه السلام، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول في قول الله تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ﴾ تفسيرها: «الصدقة على وجهها - أي يريد بها ما عند الله - وصلة الرحم، واصطناع المعروف، يحول الشقاء سعادة، ويزيد في العمر، وبقي مصارع السوء» انتهى، وبهذا تظهر فائدة الكتاب ومحوه.

وقوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ أصل الكتاب كله المثبت والممحو والناسخ والمنسوخ، وهو كناية عن علمه تعالى المحيط بكل ما كان وما يكون فهو منزلة عن البداء.

﴿وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعْدُهُمْ أَوْ نتَوْفِينَاكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ أي إنما عليك البلاغ وعلينا الحساب سواء أريناك في هذه الدنيا بعض ما نعد هؤلاء المكذبين، أم توفيناك فلم تره.

قال بعض المفسرين: «وفي الآية إيضاح لما للنبي ﷺ من الوظيفة وهو الإشتغال بأمر الإنذار والتبليغ فحسب، فلا ينبغي له أن يتبع أهواءهم في نزول آية عليه كما اقترحوا حتى أنه لا ينبغي له أن ينتظر نتيجة بلاغه أو حلول ما أوعدهم الله من العذاب بهم» انتهى، وهذا جيد.

ومعنى ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ﴾ أن تبلغ ما أرسلت به إليهم وإلى غيرهم ﴿وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ أن نحاسبهم على ما عملوه من تكذيب ومن كل أعمالهم.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَنْحَكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ۖ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ الراجح عندي في معناها: أنهم قد رأوا وشاهدوا أمر الله الغالب على أمره حين يأتي الأرض بمصائب تنقص الأرض، بأخذ بعض ما يكون من ثمارها وبعض زروعها وفروع أشجارها، كالبرد إذا أصاب أشجار العنب وغيرها، والبرد من الريح الشديدة البرد الذي يحرق الأشجار وربما شقق بعض أعواد الشجر، وكإرسال الجراد تأكل الثمر والورق، فقد شاهدوا هذه المصائب التي يأتي بها الله، ومع ذلك لا يستطيعون دفعها، وهي تأخذ أموالهم وتتلغ ثمارهم، ففيها عبرة لهم تذكّرهم بقدرة الله عليهم، كما كان في أخذ ثمر جنة أصحاب الجنة المذكورة في (سورة نون) عبرة لهم حتى قالوا: ﴿يَاوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ﴾ [آية: ٣١].

فأما إسناد المصيبة إلى الأرض فهو صحيح؛ لأن ما عليها زينة لها، وقد أسندت إليها في قول الله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازْبَيَّتْ وَطُنُّهُ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَلِيلُونَ عَلَيْهَا أَمْرُتَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنِ بِالْأَمْسِ﴾ [يونس: ٢٤] فقد جعل إصابتها فيما أنبت وما تزينت به من نباتها إصابة لها.

وأفاد بقوله تعالى: ﴿نَأْتِي الْأَرْضَ﴾ أن أخذها كان عقوبة لأهلها أو تأديباً بعزته وحكمته وقهره لأهلها وقدرته، وقوله: ﴿مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ ظاهر في أخذ أطراف أشجارها وما فيها من ثمارها، وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَنْحَكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ﴾ إنذار للكافرين بأنه حين يحكم عليهم بالشقاء الدائم في عذاب جهنم لا يكون لهم من يبدل حكمه ويبطله وإن زعموا أن شركاءهم شفعاؤهم عند الله.

الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۚ وَسَيَعْلَمُ
الْكُفْرُ لِمَنْ عُقِيَ الدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ
كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴿٤٣﴾

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ دليل أنه لا يؤخر حكمه لطلب تحقيق الإستحقاق بطول مدة حساب الجرائم وتذكرها للإحاطة بها كلها، ومعرفة جملتها، ثم الحكم بما يناسب الجملة.

﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۚ وَسَيَعْلَمُ الْكُفْرُ لِمَنْ عُقِيَ الدَّارِ﴾ ﴿الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ الكفار كاليهود مكروا بعبسى، وقوم إبراهيم مكروا به فاتى الله بنيانهم من القواعد ﴿فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ لأنه الغالب على أمره، فمكر هؤلاء الكفار الذين قالوا: ﴿لَوْ لَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ وقالوا: ﴿أَيْنَا كُنَّا تَرَابًا أَفَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ مكروهم باطل، ومكر الله بهم هو المكر؛ لأنه أعد لهم عذاباً أليماً، ومهلّهم في هذه الدنيا وأنعم عليهم، فله المكر كله مجتمعاً.

وقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ يفيد بطلان مكر كل نفس تمكر على دين الله لإبطاله؛ لأن المكر لا يتم إلا ضد من يجهل احتيال الماكر به وتدبيره عليه ما لا يعلم، فأما مَنْ يعلم ما تكسب كل نفس فلا يتم المكر لإبطال أمره ودفع ما أراد من إظهار دينه.

وقوله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ الْمَكْرُ﴾ تفريع على مكروهم كأنه قيل فمكر بهم المكر الذي هو المكر هذا، ومكروهم بهم هم سببه؛ لأنهم عرضوا عن النذير وكذبوا الرسل وكذبوا بالآيات فكان إعدادهم لعذابهم العاجل والآجل مكرّاً بسبب إعراضهم عن النذير وإهمالهم لعقولهم وأسماعهم وأبصارهم، ولم يكن مكرّاً مثل مكر الكافرين وغيرهم ممن يمكر بتدبير الحيلة وهو يكتنم ما يريد.

وقوله تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ الْكَافِرُ لِمَنْ عُقِبِيَ الدَّارِ﴾ أهى لهم أم للذين آمنوا، وهذه الآية تبين أن عقبي الدار نعيم الجنة التي هي الدار الآخرة، فالإضافة هنا مثلها في قوله تعالى: ﴿فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [النساء: ١٣٤] وهذا لأن عقبي الدار الأولى أكثرها كانت عذاب الأكثرين من أهلها الذين اغتروا بها، كما قال تعالى: ﴿وَعَرَّثَهُمُ الْحَيَّةُ الدُّنْيَا﴾ [الأنعام: ٧٠] فمن البعيد إطلاق عقبي الدنيا على نعيم الآخرة، وقوله تعالى ﴿وَسَيَعْلَمُ الْكَافِرُ لِمَنْ عُقِبِيَ الدَّارِ﴾ وعيد للكفار.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بنعمة الله وكفروا بآياته وكفروا باليوم الآخر وما فيه من الجزاء على الأعمال يقولون لجرأتهم على الباطل وأمنهم من عذاب الآخرة ﴿لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ أي لم يرسلك الله، أي فانت كاذب في دعواك الرسالة.

﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ شهيداً على أنني مرسل منه قد بلغتكم آياته وقامت عليكم الحجة بها، وشهيداً على أنكم كذبتُموني بعد بيان الحق ووضوح الدليل على أنني صادق وأني رسول الله، ومرجعي ومرجعكم إليه يحكم بيننا فكفى به شهيداً بيني وبينكم؛ لأن الشاهد هو الحاكم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ فهو أيضاً شهيد بيني وبينكم، لأنه يعلم أنني مرسل من الله لعلمه بالكتاب الدال على أنني رسول الله فالكتاب أكبر دليل على أنني رسول الله لما فيه من تعجيزكم بأن تأتوا بسورة من مثله، فلم تأتوا بشيء؛ لأنه كلام خارق للعادة في حكمته وإحكامه،

فَمَنْ عنده علمه وعلم ما فيه من التعجيز المتكرر في سور وعلم ما فيه من الحكمة والإحكام، فهو شهيد بيني وبينكم لعلمه بأني قد بلغتكم وقامت به الحجة عليكم، وعلمه بأنكم كذبتُموني، والشهيد الذي عنده علم الكتاب الذي انطبق عليه هذا الوصف: هو علي بن أبي طالب عليه السلام، ومن شاركه في هذا الوصف بمكة، فهو - أيضاً - شهيد إن كان أحد شاركه يومئذ.

فأما علي عليه السلام فلا إشكال في أن عنده علم الكتاب لتوفر أسباب ذلك في حقه وقد قال بهذا فيما روي ابنُ عباس ومحمدُ بن الحنفية، وفي (التعليق الوافي) تأليف عمي الحسن بن الحسين الحوثي رحمته [ص ٢٦] قال رحمته: «(روي الحاكم - أبو القاسم الحسكاني - بإسناده إلى أبي سعيد الخدري في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ قال: قال رسول الله ﷺ: «هو علي بن أبي طالب» ورواه عن ابن عباس، وعن محمد بن الحنفية، وعن أبي صالح من طريقين، وعن أبي جعفر الصادق، وقال أبو صالح: قال ابن عباس: والله هو علي بن أبي طالب» انتهى.

وأفاد عمي رحمته أنه في (مناقب الإمام علي عليه السلام) تأليف ابن المغازلي عن أبي جعفر عليه السلام، وقال: ورواه الثعلبي في تفسيره عن محمد بن الحنفية، وهذا في [صفحة/ ١٦٠] من (التعليق الوافي على الشافي) و(الشافي) تأليف الإمام عبد الله بن حمزة عليه السلام، و(التعليق) ما زال مخطوطاً إلا قليل من أوله، وهو مخطوط مستقلاً عن (الشافي) - وبالله التوفيق.



التَّيْسِيرُ فِي التَّفْسِيرِ



سُورَةُ اِبْرَاهِيمَ



سُورَةُ إِبْرَاهِيمَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّ كِتَبٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿١﴾ اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا

تفسير (سورة إبراهيم) عليه السلام

يظهر من مواضعها أنها (مكية) ولكن الشريفي حكى عن (صاحب البرهان): أنه قال فيها: مكية إلا آيتين، قيل: هما قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا﴾ والتي بعدها - والله أعلم.

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الرَّ كِتَبٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ ﴿الرَّ كِتَبٌ﴾ أي هو كتاب أي القرآن المؤلف من الأحرف التي ينطق بها العرب هو كتاب ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾ أي جعلناه كتاباً تتوارثه الأجيال محفوظاً.

وقوله تعالى: ﴿لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أي أنزلناه عليك يا محمد لتخرج الناس من ظلمات الجهل والعقائد الباطلة وسائر الباطل إلى نور الهدى، فالناس في أشد الحاجة إليه لعموم الجهل، وانتشار الشرك بأنواعه المختلفة في الأرض، وضلالات الجاهلية، وضلالات أكثر أهل الكتاب كما هو مفصل في القرآن، ولم يكونوا منفكين عن ذلك إلا برسول ووحى جديد يعلن الحق وينوره.

وقوله تعالى: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ لأنهم يأبون الخروج من الظلمات إلى النور لتعصبهم لما ألفوه واعتادوه من التمسك بباطلهم إلا من أذن الله له أن يهتدي وهو من لا يدافع الحق وينصر الباطل ويجادل في آيات الله

ويحارب الدين بصد الناس عنه، فلم يستحق الخذلان، وكل الناس لو سلموا أسباب الخذلان لأخرجهم من الظلمات إلى النور بإذن ربهم، فالهدى معدّ لهم كلهم ولكن أكثرهم أبوا الاهتداء.

وقوله تعالى: ﴿إِلَى صِرَاطٍ آلْعَزِيزِ آلْحَمِيدِ﴾ تفسير للنور المذكور بأنه صراط الله؛ لأنه دينه الذي ارتضاه لعباده، وقوله تعالى: ﴿آلْعَزِيزِ آلْحَمِيدِ﴾ أما قوله: ﴿آلْعَزِيزِ﴾ ففيها فائدتان:

الأولى: أن الله لعزته لا يهمل العصاة يفسدون في أرضه ويضلون عباده دون أن يقيم عليهم الحجة ويمجزي من تمرد عليه بالعذاب الشديد الذي يستلزم تقديم إرسال الرسول لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل.

الفائدة الثانية: الدلالة على أنهم لا يضرونه بكونهم في الظلمات المذكورة أو امتناعهم من الخروج منها بل هو غني عن العالمين عزيز لا ينال. وأما قوله: ﴿آلْحَمِيدِ﴾ ففيه فائدتان:

الأولى: أنه بكرمه وفضله ورحمته أنزل الكتاب وأرسل الرسول ليخرج الناس من الظلمات إلى النور إنعاماً على عباده؛ لأنه الحميد المستحق للحمد على إنعامه.

الثانية: الدلالة على أنه الحميد المستحق للحمد سواء أطاعه الناس فخرجوا من الظلمات إلى النور أم أبوا؛ لأنه أنعم عليهم بإرسال الرسول وإنزال الكتاب ودعوتهم إلى ما فيه هداهم وسعادتهم وتمكينهم من ذلك بالعقول والقدرة، وإن أبوا وكفروا باختيارهم فالله هو الحميد على كلا الحالتين إن أجابوا وأطاعوا، وإن أبوا وعصوا.

فِي الْأَرْضِ ۖ وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ ۖ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٦٩﴾ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۖ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٧٠﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ

﴿٦٩﴾ اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ ۖ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٧٠﴾ ﴿اللَّهُ﴾ أما على قراءة الجرّ فهو بيان للعزیز الحمید، وأما على قراءة الرفع: فهو مبتدأ خبره الموصول، وقوله تعالى: ﴿الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ يذكرُ بأنه أنزل الكتاب وأرسل الرسول إلى الناس؛ لأنه مالکهم له الأمر بما شاء والحکم بما شاء، فعليهم أن يطيعوه ويذكرُ بأنه مالکهم المستحق لأن يعبدوه وحده لا شریک له فلذلك أنزل الكتاب إلى رسوله محمد ﷺ ليخرج الناس من الظلمات إلى النور؛ لأن عبادته هي الحق والرشد والخير والصلاح للدنيا والدين.

وقوله تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ﴾ أي الذين كفروا بالكتاب والرسول وجحدوا بآيات الله ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ﴾ في تفسير الهادي عليه السلام، يحيى بن الحسين؛ لقول الله تعالى: ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ﴾ [القم: ٣١] والويل فهو الغم والطويل من الهم انتهى.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ بيان لسبب الويل ومصدره، و﴿مِنْ﴾ للابتداء أو السببية.

﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۖ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ في هذه الآية بيان بعض مفسد الكفر:

فالأولى: بينها قوله: ﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ﴾ فإنهم لما كفروا بالآخرة اختاروا الدنيا وآثروها على الآخرة؛ لأنهم لا يؤمنون بخير غير ما في الدنيا ولا يخافون العذاب بسبب إيثار الدنيا وترك السعي للآخرة وكانت الدنيا أحب إليهم من كل شيء.

الثانية: بينها قوله تعالى: ﴿وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فإنهم لما كفروا لم يخشوا ربهم في صدهم عن دين الله الذي اصطفاه لعباده بل صدوا عنه بإعراضهم عنه وتركه وصدوا غيرهم بالتضليل والتغريز اتباعاً لهواهم، ولو أنصفوا لعلموا أن ذلك فساد كبير.

والثالثة: قوله تعالى: ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ فهم يطلبون لسبيل الله العوج الذي هو خلاف الاستقامة، أي خلاف الصواب ليصدوا الناس عنها بحجة أن فيها عوجاً، وهذا إذا كان المقصود يطلبون لها العوج بما يدعون فيها كما يصنع بعض الكفار من القدح في الإسلام بأنه يوجب قطع يد السارق وهذا تشويه للسارق وضر شديد، ويعرضون عما في ذلك من الفائدة للمجتمع وللسارق إن انزجر عن معاودة السرقة.

فإن كان المقصود ييغون في سبيل الله العوج، ييغون أن يجعلوا العوج الذي هو القانون الفاسد سبيل الله، فمعناه: أنهم يرغّبون في غير سبيل الله بدعوى أنها سبيل الله، وهذا عندي تفسير ضعيف؛ لأن العوج صفة للأعوج والمبغى الأعوج الذي هو القانون، ويمكن أن يراد وييغون سبيل الله العوج بأن يجعل الله ما ليس بحق من الدين بأن يشرع ما هو باطل مما يهوونه، كما طلبوا رسول الله ﷺ أن يطرد بعض المؤمنين من عنده.

لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلَّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِيَ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٠٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَىٰ

وكما روي أن رهطاً من قريش قالوا: يا محمد هلم فاتبع ديننا ونتبع دينك، تعبد آلهتنا سنةً ونعبد إلهك سنة، فقال: «معاذ الله أن أشرك بالله غيره» فقالوا: فاستلم بعض آلهتنا نصدقك ونعبد إلهك.. اه، أو نحو هذا من باطلهم، أرادوا أن يجعله من الدين فيكون عيباً في الدين وعوجاً.

وقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ أي أهل هذه الصفات في ضلال أي غواية عن طريق الصواب كمن تاه في غير طريق وخفيت عليه الطريق، وقوله: ﴿بَعِيدٍ﴾ أي بعيد عن الصواب كمن ضل عن الطريق وصار بينه وبينها مسافة بعيدة لا يؤمل فيه لبعده عنها أن يهتدي لها.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلَّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِيَ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا﴾ كأنه عطف على قوله تعالى: ﴿يَكْتُبُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ﴾ الآية ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ﴾ أي بلغتهم، أي بلغة قومه ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ أي ليبين لقومه ما أرسل به إليهم وقومه الذين هو منهم خالطهم وعرفهم وعرفوه وعرف لسانهم معرفة أصيلة لا مجرد ترجمة للغة أخرى، سواء كانوا قرابته من النسب لأبيه أم قرابته من النسب لأمه، ويدل على ذلك ما تكرر في (سورة الشعراء) من قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ﴾ [آية: ١٠٦] قاله في نوح، وهود، وصالح، ولوط. فأما قوله تعالى: ﴿فَلَمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ [النكبت: ٢٦] فالراجح: أن الضمير لإبراهيم؛ لأن السياق في إبراهيم، وإنما عرض فيه ذكر لوط.

ويحتمل - إن كان الضمير للوط - إما أنها هجرته لقومه عند نزول العذاب عليهم، وإما أنه هاجر إليهم قبل فسادهم، وأن فسادهم إنما طرأ بعد كونه فيهم، فأرسله الله إليهم حين فسدوا، وعلى هذا تكون هجرته إليهم من بلد آخر كان فيه، إما بلد قوم إبراهيم وإما غيره.

وقال تعالى في شعيب في (سورة هود): ﴿وَأَلَىٰ مَذِينَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [هود: ٨٤] وكذا في (الأعراف) فأما (أصحاب الأيكة) فيحتمل أنهم (مدين) ويحتمل أنهم أحوال شعيب خالطهم وعارفهم حتى صار فيهم كأحدهم، فأرسل إليهم كما أرسل عيسى إلى (بني إسرائيل) وأما إرسال موسى وهارون إلى فرعون وملئه فقد كان موسى فيهم هو وقومه، وذلك يدل على أن لغة قوم موسى هي لغة فرعون وملئه، فأرسل موسى بلسان قومه هي بلسان فرعون وملائه؛ لأنه نشأ فيهم وتربى حتى هاجر إلى مدين.

وأرسل الله محمداً - ﷺ - وعلى سائر الأنبياء والمرسلين - ﴿بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾ الذين هم قريش أو كنانة كلهم، وهو لسان عربي تفهمه العرب، فبين لهم ما أرسل به وفهمه من سمعه منهم، وقد كفى شيوعه في العرب وفهمهم له في تبينه لسائر الناس الذين هم خارج بلاد العرب، لتيسر فهمه بواسطة تعلم العربية، ولذلك كان منهم كبار المفسرين الذين تعلموا العربية وهم من بلاد العجم كالزخشري، كما أمكن فهمه بواسطة تراجم الذين تعلموا العربية وهم من العجم، أو تعلموا غيرها وهم من العرب.

وعلى هذا: فالراجح في معنى ﴿قَوْمِهِ﴾: أنهم الذين هو قريب لهم من جهة أبيه أو من جهة أمه على المعنى الذي ذكرت فقد أرسل الله محمداً ﷺ إلى الناس جميعاً بلسان قومه، ولا يصح تفسير قومه بالذين أرسل إليهم كلهم؛ لأنه أرسل ﴿بِلِسَانِ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٥] كما هو مبين في القرآن الكريم في (سورة الشعراء) و(سورة النحل).

وقوله تعالى: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ أي ليعين لهم ما أرسل به إليهم فيدل على أن رسول الله ﷺ بين لقومه ولم يخص أحداً ببيان ما أرسل به إليهم وكتمه عن غيره، بل بينه لهم فهو مفهوم لهم كلهم من سمعه منه ومن بلغه عنه منهم ولم يكتم منه شيئاً عن أحد ليخص به غيره، وأما ما خص به الإمام علي عليه السلام من العلوم فهو إخبار عما يكون لم يكلف الناس بعلمها أو تكليف خاص لعلي عليه السلام فهو أرسل به إليه وحده.

وأما قوله تعالى: ﴿فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ﴾ فهو الإضلال الذي سببه التكذيب بآيات الله ومحاولة إبطال دينه ولذلك ترتب على إرسال الرسول وبيانه لقومه، وقد تكرر بيان معنى هذا الإضلال وأنه عقوبة وهو واضح؛ لأنه لو كان الله يريد إضلالهم على غير هذا الوجه لما غضب عليهم ولعنهم لحصول ما أوقعه بهم وأراده فيهم كما تزعم المجبرة، فالتحقيق أن هذا الإضلال هو الخذلان الذي ترتب عليه ضلالهم الزائد على ضلالهم الأول.

وقوله تعالى: ﴿وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ فهو الهدى للإيمان بسبب النية الصالحة والنظر في دليل صدق الرسول أو هو ومن لا تقتضي الحكمة إضلاله، وكذلك إضلال الله لمن يشاء فيحتمل: أن يعم من ذكرت وغيرهم من الظالمين.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ يشير إلى أنه يجازي من كذب رسله وكذب بآياته كما هو شأنه تعالى في عزته وحكمته، فإرسال الرسل إنما هو مقدمة لجزاء المحسن بإحسانه وجزاء المسيء بإساءته، ولم يخبرهم الله بتمكينهم من الإيمان والكفر إلا لأنه يجزي كلاً بما يستحق.

النُّورِ وَذَكَرَهُمْ بِأَيِّنِمْ اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٦٠﴾

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكَرَهُمْ بِأَيِّنِمْ اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ كما أنزلنا إليك الكتاب لتخرج الناس من الظلمات إلى النور أرسلنا قبلك موسى بآياتنا الدالة على صدقه ﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ فالدعوة واحدة إلى صلاح البشر وصلاح شأنهم وتخليصهم من ظلمات الشرك والكفر والجهل والظلم إلى نور الإيمان بالله والإخلاص له والعلم والعدل، وقوله تعالى: ﴿أَنْ أَخْرِجْ﴾ تفسير للرسالة التي أرسل بها موسى.

وقوله تعالى: ﴿وَذَكَرَهُمْ﴾ أي ذكر قومك بني إسرائيل ﴿بِأَيِّنِمْ اللَّهُ﴾ ليحذروا من أن يحل بهم العذاب كما حل بالأمم قبلهم، و(الأيام) هنا: أوقات العذاب النازل بالأمم، والعرب تسمي بأيام الحروب أوقاتها، أو الحروب نفسها وإن كان وقت الحرب أياماً مثل يوم صفين، ومن ذلك قول عمرو بن كلثوم في (معلقته):

أبا هند فلا تعجل علينا وأنظِرنا نخبرك اليقيناً
بأننا نورد الرايات بيضاً ونصدرهن حمراً قد روينا
وأيام لنا غرطوال عصينا الملك فيها أن ندينا

وفي شرح الزوزني على (المعلقات السبع) يقول: «نخبرك بوقائع لنا مشاهير كالغر من الخيل...» إلى قوله: «..الأيام: الوقائع» انتهى المراد.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾ الإشارة إما إلى الكلام نفسه من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ﴾ ففيه آية تدل على صدق محمد ﷺ حيث جاء بهذا الخبر عن رسالة موسى وتفسيرها ولم يقرأ كتاباً ولا خطه يمينه، بل نشأ بعيداً عن معرفة ذلك لولا أن الله تعالى أوحاه إليه.

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ
فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ
نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِّنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ

وفيه آية تدل على أن محمداً ﷺ ليس بدعاً من الرسل، فهي ترد على
من أنكر رسالة البشر، وفيه آية تدل على تشابه دعوة موسى ومحمد ﷺ في
فائدتها وتشابه الإنذار، وفيه آية تدل على رحمة الله ولطفه بعباده من حيث
إرسال رسله ليخرجوهم من الظلمات إلى النور.

وهذا الاحتمال لمرجع الإشارة أرجح عندي، وإما إلى (أيام الله) ففيها
آيات، فهي تدل على قدرة الله تعالى، وعلمه بأحوال المكذبين للرسول
واستحقاقهم للعذاب، وتدل على صدق الرسل، وعلى أن الله تعالى يجازي
المجرمين ولا يهملهم، بل يهمل ولا يهمل.

وأما قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ فالصبار: كثير الصبر، والشكور:
كثير الشكر، فالصبار الشكور يطلب معرفة الحق من الله المنعم على عباده
ليتبعه، ولا يصده عن ذلك خوف من أعداء الدين، أو من الفقر أو نحو
ذلك؛ لأنه يخاف الوعيد فالآيات أنفع له من غيره فلذلك خص بالذكر مع
أن الآيات دلائل لكل من فكر واستعمل عقله.

﴿١﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ
آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ
نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِّنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١﴾ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ
عَلَيْكُمْ ﴿٢﴾ تذكروها لتشكروها بطاعة الله واجتناب معصيته.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ أَجْنَكُمُ﴾ ظرف للنعمة يفسرها ما أضيف إليه وهي إنجائهم لهم من آل فرعون الجبارين الذين كانوا يستضعفون بني إسرائيل فيظلمونهم الظلم الشنيع.

وقوله تعالى ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ حال من ﴿أَجْنَكُمُ﴾ أي أنجاكم منهم في حال سؤمهم لكم سوء العذاب؛ لأنهم اتبعوكم بجنودهم ليأخذوكم فيرجعوكم إلى تعذيبكم سوء العذاب معاقبة لكم على اتباع موسى وفي حال أنهم مصرون على ذبح أبنائكم واستحياء نسائكم، كما قال فرعون: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾ [الأعراف: ١٢٧] فهم مستمرون في عادتهم الممقوتة فإنجاء الله لكم منهم نعمة عظيمة يجب عليكم شكرها.

قال الشرفي في (المصاييح): «قال الحسين بن القاسم عليه السلام: معنى ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ يعرضون عليكم أشد العذاب، قال الشاعر:

فسامه خطئاً خسف وقال له اختر وما فيهما حظ لمختار

أي عرض عليه خطتين من الذل» انتهى.

وفي (معلقة عمرو بن كلثوم):

إذا ما الملك سام الناس خسفاً أينما أن نُقِرَّ الدُّلُ فينا

قال (شارح المعلقات): «الخسف والخسف - بفتح الخاء وضمها -: الدُّل، السوم أن تجشّم إنساناً مشقة وشرأ، يقال: سامه خسفاً، أي حمله وكلفه ما فيه ذله» انتهى.

فإن قيل: كيف قال هنا: ﴿وَيُذَبِّحُونَ﴾ وفي (سورة البقرة): ﴿يُذَبِّحُونَ﴾ [آية: ٤٩] بدون عطف؟

لَيْنِ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَيْنِ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧٧﴾ وَقَالَ

قلت: هنا يذكرهم موسى نعمة النجاة من آل فرعون في حال سومهم لهم ليأخذوهم فيعذبوهم لأجل اتباعهم لموسى، وهذه حالة يعظم فيها قدر النجاة ويعرف فيها قدر نعمة النجاة.

أما في (سورة البقرة) فاختصر الكلام، وذكر فيها الأمر العظيم العذاب المستمر الذي كانوا فيه الذي هو ذبح الأبناء، واستحياء النساء مستمراً عليهم زمناً طويلاً، فإنهم كانوا فيه يوم ولد موسى ولا أدري كم كانوا فيه قبله فهو زمان طويل والإنقاذ منه نعمة كبرى مع أن النجاة لأنفسهم من فرعون وقومه ذكرت في (سورة البقرة) في آية مستقلة: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بَيْنَكُمْ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٠] وهذه معطوفة على آية الإنجاء من ذبح أبنائهم عقيبتها، فأفادت هذه نعمتين والتي قبلها نعمتين.

وأما قوله تعالى ﴿وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ فالبلاء يحتمل النعمة هنا كما مر في تفسير (سورة الأنفال) قوله تعالى: ﴿وَلِيْلِي الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا﴾ [آية: ١٧] ويحتمل الاختبار لهم أيشكرون نعمة الله عليهم أم يكفرون، والأول أرجح لقوله: ﴿عَظِيمٌ﴾.

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ﴾ واذكروا إذ تأذن أي أذن وأعلن.

قال الشرفي في (المصابيح): قال الحسين بن القاسم عليه السلام: «معنى ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾ أي تضمن ربكم وحكم بوعده ووعيده عليكم وأعلمكم بذلك وبينه لكم وأذنكم ولم يخفِ عنكم، وفي ﴿تَأَذَّنَ﴾ زيادة ليست في أذن كما أن توعده أبلغ من أوعد، كأنه قيل: وإذ تأذن ربكم إيذاناً بليغاً تتفي

مُوسَىٰ إِنَّ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨٨﴾ أَلَمْ

عنده الشكوك وتنزاح الشبهة، فقال: ﴿لَيْنَ شَكَرْتُمْ﴾ نعمة الإنجاء وغيرها بالإيمان والعمل الخالصين ﴿لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ نعمة إلى نعمة ولأضاعفن لكم ما آتيتكم، ثم أوعد بالعذاب على الكفر فقال: ﴿وَلَيْنَ كَفَرْتُمْ﴾ يعني وجحدتموها ﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ لمن كفر نعمتي» انتهى.

قلت: في هذا كفاية في تفسير الآية إلا قوله: يعني وجحدتموها فإن كفر النعمة ليس مفهومه جحدها بل هو ضد الشكر فهو إما إخفاؤها بترك الشكر بأن يجعلها بترك الشكر كأن لم تكن، وإما إخفاؤها بالإساءة إلى المنعم فتعمد المعاصي أو ترك الطاعة كفر للنعمة وإن لم يحجدها العبد؛ لأنه بسلوكه جعل النعمة كأن لم تكن، وهذا هو المقصود بإخفائها لا جعلها خفية فهو غير ممكن، ولذلك قال عنتره:

نبئت عمراً غير شاكر نعمتي والكفر مخبئة لنفس المنعم

فجعل ترك عمرو للشكر كفراً، وليس معناه: أنه جحد النعمة.

وفي (تفسير الإمام القاسم بن إبراهيم عليه السلام) لـ (سورة البينة): «وتأويل كفروا فهو لم يشكروا؛ لأن من لم يشكر الله تبارك اسمه بترك عصيانه فكافر وإن كان مقراً ومعتقداً لمعرفة الله واتقائه كما إبليس الذي ذكر الله سبحانه معرفته به وذكر كفره لما ارتكب من الكبائر بربه، وكذلك كل من ارتكب كبائر تسخط من أنعم عليه فقد كفره، ومن أتى ما يرضاه وتولى أوليائه وعادى أعداءه فقد شكره» انتهى.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنَّ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ ﴿إِنَّ تَكْفُرُوا﴾ نعم الله عليكم ﴿أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ مجتمعين على كفرها ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ﴾ عنكم وعن شكركم وعن كل شيء ﴿حَمِيدٌ﴾ مستحق للحمد فما تضرون بالكفر إلا أنفسكم.

يَاۡتِكُمْ نَبَەؤُا الَّذِيۡنَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوۡحٍ وَعَادٍ وَثَمُوۡدَ ۖ وَالَّذِيۡنَ مِنْۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ اِلَّا اللّٰهُ ۚ جَاۡءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنٰتِ فَرَدُّوۡا اَيْدِيَهُمْ فِىۡ اَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوۡا اِنَّا كَفَرْنَا بِمَاۤ اُرْسِلْتُمْ بِهٖ ۚ وَاِنَّا لَفِىۡ شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُوۡنَا اِلَيْهٖ مُّرِیۡۢ ۝۱۱ ۚ قَالَتْ رُسُلُهُمْ اَفِىۡ اللّٰهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ يَدْعُوۡكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِّنۡ ذُنُوۡبِكُمْ وَيُوۡخِّرَ كُمْ اِلٰىۡ ۚ اَجَلٍ مُّسَمًّی ۚ قَالُوۡا اِنْ اَنْتُمْ اِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِیۡدُوۡنَ اَنْ تَصُدُّوۡنَا عَمَّا كَانَ یَعْبُدُۢا اَبَاۡؤُنَا فَاتُّوۡنَا بِسُلْطٰنٍ مُّبِیۡنٍ ۝۱۲ ۚ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ اِنْ خُنُّۤنْ اِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلٰكِنَّ اللّٰهَ

۝۱۱ ﴿اَلَمْ يَاۡتِكُمْ نَبَەؤُا الَّذِيۡنَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوۡحٍ وَعَادٍ وَثَمُوۡدَ وَالَّذِيۡنَ مِنْۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ اِلَّا اللّٰهُ ۚ جَاۡءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنٰتِ فَرَدُّوۡا اَيْدِيَهُمْ فِىۡ اَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوۡا اِنَّا كَفَرْنَا بِمَاۤ اُرْسِلْتُمْ بِهٖ ۚ وَاِنَّا لَفِىۡ شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُوۡنَا اِلَيْهٖ مُّرِیۡۢ﴾ ۝۱۲ ﴿اَلَمْ يَاۡتِكُمْ﴾ يترجح انه خطاب لقريش ومن حولهم ليعتبروا بمن كفر من قبلهم؛ لأن قوم موسى كانوا قد صدقوا به أعني بني إسرائيل الذين كانوا معه فقد انتهى كلام موسى في آخر الآية التي قبل هذه، وقوله تعالى: ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ أي علم إحاطة بهم كلهم.

وقوله تعالى: ﴿فَرَدُّوۡا اَيْدِيَهُمْ فِىۡ اَفْوَاهِهِمْ﴾ فيه تفاسير راجعة إلى النظر والترجيح، والراجح عندي أن ردهم أيديهم في أفواههم إنكار لكلام الرسل ومنع لألسنة الكفار أن تنطق بمثله أو تصدق به وبعد ذلك أعلنوا كفرهم بقولهم: ﴿اِنَّا كَفَرْنَا بِمَاۤ اُرْسِلْتُمْ بِهٖ ۚ وَاِنَّا لَفِىۡ شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُوۡنَا اِلَيْهٖ﴾ الذي هو عبادة الله وحده والإيمان به وبرسله وبالיום الآخر، وقولهم: ﴿مُرِیۡۢ﴾ أي مقلق كما قدمت، وكذبوا بل قلقهم من التعصب لشركائهم.

۝۱۲ ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ اَفِىۡ اللّٰهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ يَدْعُوۡكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِّنۡ ذُنُوۡبِكُمْ وَيُوۡخِّرَ كُمْ اِلٰىۡ ۚ اَجَلٍ مُّسَمًّی ۚ قَالُوۡا اِنْ اَنْتُمْ اِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا

تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَآتَوْنَا بِسُلْطَنٍ مُبِينٍ ﴿١٧﴾ ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ﴾ اعلم أن المشركين وإن أقروا باستحقاق الله تعالى للعبادة، فإنهم لم يقرؤا بذلك عن نظر في وجه الاستحقاق، وإنما أقروا به لأنه الله الخالق، هذا في الأولين منهم، فأما الآخرون فهم مقلدون في عبادة الله وعبادة شركائهم ولذلك فقد أجروا إثبات استحقاق الله للعبادة مجرى الخرافات التي قالوها بلا حجة، ولذلك ساغ عندهم إثبات أن عبادة الله حق ودعوى أن عبادة غيره حق.

فلما لم يثبتوا استحقاق الله تعالى للعبادة بناء على معرفته بل سوا بينه وبين شركائهم كان شكهم في انفراد الله باستحقاق الله للعبادة معناه الشك فيه؛ لأن من عرف الله تعالى لا يشك في أنه ينفرد باستحقاق العبادة؛ لأن آلهتهم لم تخلقهم ولم ترزقهم فلم يعبدوها اعتماداً على حجة تثبت استحقاقها للعبادة، بل هم يعلمون أنها لم تشارك الله تعالى في خلقهم ورزقهم، ولذلك رد الله عليهم بقوله: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٧].

تأمل كيف قال: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ﴾ ولم يقل: أفمن لا يخلق كمن يخلق، وهنا قالت لهم رسلهم: ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ﴾؟ حيث ارتبتم في انفراده باستحقاق العبادة، مع أنه الخالق للسموات والأرض لم تخلق شركاؤكم شيئاً منها ولا من غيرها، وأنتم لا تشكون في أنها لم تخلقكم ولم ترزقكم من السماء والأرض، فإن شككتم في الله فقد أهملتم عقولكم وقبح جهلكم.

فقول رسلهم: ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ﴾ إنكار للشك في الله تعالى ودلالة على أنه ليس من شأنه أن يشك فيه لوضوح آياته الدالة عليه منها: أنه ﴿فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أو هذا السؤال من رسلهم معناه نفي الشك في الله؛ لأن آياته قد دلت عليه والسامعون لا يجحدون أنه فاطر السموات والأرض وهذا أقرب.

وهو احتجاج عليهم في شكهم الذي سببه غفلتهم لا شكهم في الله، فرسلهم يذكرونهم أن شكهم في أن المستحق للعبادة هو الله تبطله المعرفة لله فاطر السموات والأرض، فإذا كانوا لا يشكّون في الله فعليهم أن لا يشكّوا في أنه المتفرد باستحقاق العبادة.

ثم كيف يكون في الله ﴿فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ شك وهو ﴿يَدْعُوكُمْ﴾ بإرسال رسله إليكم فيبلغونكم دعوته إليه ﴿لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ فقد تعرضتم لعذابه العاجل بإصراركم على الشرك وعبادة غيره بلا برهان من ربكم، فإن أجبتكم رسله غفر لكم من ذنوبكم بكف العذاب العاجل عنكم، وأخركم إلى أجل مسمى حتى يحسن إسلامكم وتحقق توبتكم وتموتوا على ذلك فيغفر ذنوبكم كلها ويدخلكم الجنة إن متم على ذلك، أو تموتوا على غير ذلك فيجزىكم بما أسلفتم.

وأحاصل: أن دعوة رسلهم لهم إلى ترك الشرك لم يمكن أن يعدوهم فيها بمغفرة ذنوبهم كلها وذلك إما لأنه يوهم الجاهلين أنهم إن أسلموا غفرت ذنوبهم كلها الماضي والمستقبل وهذا غير صحيح، بل هم بعد الإسلام إن أحسنوا وماتوا على التقوى غفرت ذنوبهم كلها وإلا فلا، وإما لأن وعدهم بغفران ذنوبهم كلها يحتاج إلى شرط صدق التوبة، وبيان أن الذي يغفر بها هو الماضي، وأن المستقبل لا يغفر إلا بالتوبة، والمقام لا يناسبه مثل هذا التفصيل بل المهم فيه بيان نجاتهم من العذاب العاجل الذي قد تعرضوا له وتأخيرهم إلى أجل مسمى، وذلك بمغفرة مؤقتة لما قد استحقوا به العذاب العاجل، فهذا هو الراجح عندي في فائدة الإتيان بـ ﴿مِّنْ﴾ التي للتبعيض هنا وفي (سورة نوح).

يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَنٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا إِن أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ أي ما أنتم إلا بشر مثلنا، وهذا كفر منهم برسالة رسلهم، ودعوى أنه لا يصلح للرسالة إلا الملائكة، وقولهم: ﴿تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ جعلوا عبادتهم لشركائهم سبباً أن آباءهم كانوا يعبدونها فتمسكوا بالتعصب لأبائهم لا بحجة، ولما لم تكن لهم حجة قالوا: ﴿فَأَتُونَا بِسُلْطَنٍ مُبِينٍ﴾ أي بحجة قاهرة غالبة لنا بينة، وهم يقترحون بذلك أن يأتوا بما لا تقتضي الحكمة جعله دليلاً على صدق الرسل؛ لأن الدليل يؤتى به للدلالة على الصدق ليؤمنوا به اختياراً لا ليضطروا إلى التصديق لهم اضطراراً لأن المقصود الاختبار لا الإكراه والاضطرار.

﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَنٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ﴿إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ لا ندعي أنا ملائكة ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ﴾ ينعم ﴿عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ يختصه بنعمته ﴿مِنْ عِبَادِهِ﴾ من البشر أو غيرهم، فليس لكم أن تشرطوا على الله أن لا يمن على بشر أو تعترضوا عليه في إرساله لبشر ﴿وَمَا كَانَ لَنَا﴾ وليس من شأننا ﴿أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَنٍ﴾ بآية ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ فما أذن لنا أن نأتي به أتينا به وما لم يأذن به فليس من شأننا، فالأمر في هذا لله لا لنا.

﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ وعلى الله وحده فليتوكل المؤمنون، فعليكم أن تؤمنوا ومن آمن منكم فليتوكل على الله، فليكل أمره إلى الله

اللَّهُ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنْصَبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ

إن شاء حفظه ووقاه شر الكافرين، وإن شاء رزقه الشهادة وما عند الله خير للأبرار، وليس لأحد أن يترك الإيمان خوفاً من الكافرين، وهذا يشعر بأنهم قد عرفوا تمرد قومهم فعرفوا قومهم أنهم متوكلون على الله لئلا يطمعوا في صرفهم عن إبلاغ رسالتهم بالوعيد والتهديد كما عرفوا من يريد الإيمان أن عليه إذا آمن أن يتوكل ليثبت على إيمانه.

﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنْصَبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ﴾ وليس لنا أن لا نتوكل على الله ﴿وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا﴾ وقد عرفنا سبلنا التي هي سبل نجاتنا من عذابه وفوزنا بالسعادة الدائمة سبل الله التي ارتضاها لنا لتوصلنا إلى رحمته وكرامته، فحق علينا ووجب أن نسلكها واكلين أمرنا إليه فهو يختار لنا حيثنذ ما هو خير لنا.

﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ فهو الذي ينبغي لمن أراد التوكل أن يتوكل عليه؛ لأنه بفضلله ورحمته وكرمه لا يضيع من آمن وتوكل عليه ولا ينسى من توكل عليه ولا يغفل عن توكل عليه ولا يهمل من توكل عليه بل يتولاه بحسن رعايته ويوصله إلى ما سعى له من رحمته وكرامته، أما من توكل على غيره، فقد يهمله عجزاً أو غفلة وسهواً أو بخلاً أو غدراً ولا سيما من توكل على صنم لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنه شيئاً بل على الله وحده فليتوكل المتوكلون، فهو القدير على كل شيء، وهو العليم بكل شيء، وهو الكريم الرحيم ذو الفضل العظيم، وبعد أجوبة رسلهم المفيدة لجأ قومهم إلى الوعيد والتهديد:

لَتَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَأَسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّنْ وَرَآيِهِ جَهَنَّمُ

﴿١٣﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ ﴿لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا﴾ وعيد بطردهم من أوطانهم وفراق الوطن شديد على النفس متى كان باسم فراق الأبد ولو سهل في أوله فإن النفس لا بد تحن إلى الوطن مدة الحياة، ولذلك أخذ الله الميثاق على بني إسرائيل لا يخرجون بعضهم من ديارهم.

وقولهم: ﴿أَوْ لَتَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ يتضمن كذباً منهم على رسلهم يرمونهم بأنهم كانوا على ملتهم مشركين كافرين وحاشاهم ﴿فَأَوْحَىٰ﴾ إلى الرسل ﴿رَبُّهُمْ﴾ الذي أرسلهم وكلفهم تبليغ الرسالة فأطاعوه وتوكلوا عليه أوحى إليهم ﴿لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ المكذبين بآياتي المكذبين لرسلي فإنهم بذلك ظالمون مع ظلمهم بتهديد الرسل وظلمهم السابق بالشرك وسائر الجرائم، فالمعاصي كلها يجمعها اسم الظلم، والمراد لنهلكن قومكم المكذبين لأجل أنهم ظالمون وهذا هو الهلاك العاجل قبل بلوغ كل واحد أجله الذي كان يبلغه لو آمن واتفق.

﴿١٤﴾ وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ ﴿وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ﴾ نورثكم ﴿الْأَرْضَ﴾ فتسكنونها بعد هلاكهم وتعيشون فيها منصورين.

قال الشرفي - ونعم ما قال - : «ونظيره قوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا﴾ [الأعراف: ١٣٧] انتهى.

وَيُسْقَىٰ مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ

فليس المعنى: أنهم يسكنون نفس أرض الكافرين ولكن يرثونها ويسكنون حيث شاءوا من الأرض، وقوله: ﴿ذَلِكَ﴾ أي النصر على العدو والاستخلاف في الأرض ﴿لِمَنْ خَافَ مَقَامِي﴾ أي المقام لي يوم يقوم الناس لرب العالمين وهو موقف الحساب.

قال الشريفي في (المصابيح): «قال في (البرهان): يعني المقام بين يدي فأضاف إليه لاختصاصه به» انتهى.

والمراد لمن خاف فحمله الخوف على التقوى، ولا يبعد أن قوله تعالى: ﴿لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدٍ﴾ كناية عمن اتقى الله، وقوله تعالى: ﴿وَعِيدٍ﴾ أي وعيدي، وخوف الوعيد خوف الموعود به في الوعيد بسبب الوعيد لإيمانه بالوعيد وبصدقه.

﴿وَأَسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ ﴿وَأَسْتَفْتَحُوا﴾ الراجع: أنه عطف على: ﴿وَقَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ...﴾ أي تواعدوا قومهم واستفتحوا أي طلبوا أن يفتح الله بينهم وبين الرسل وذلك ليوهموا أتباعهم أنهم واثقون بأنهم على الحق ولغفلتهم عن الله وظنهم أنه لا يستجيب لهم ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ﴾ غلبهم الرسل وخاب أمل الكافرين أنهم سيخرجونهم من ديارهم، قال في (الصحيح): «والجبار: الذي يقتل على الغضب» انتهى، وقوله: ﴿عَنِيدٍ﴾ أي معاند يخالف الحق وهو يعرفه.

﴿مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ﴾ ﴿فَسُورُوا﴾ ﴿مِنْ وَرَائِهِ﴾ من أمامه وقبله؛ لأن جهنم مستقبلة، واعتقد - والله أعلم - أن العرب إنما استعملته في المستقبل بعد تخيله طالباً؛ لأن الطالب في العادة يكون وراء الهارب، ولهذا لا يكاد يستعمل إلا في المكروه قد يعترض بقول الشاعر:

يكون وراءه فرج قريب

...

وهذا سهو؛ لأن وقوع الفرج بعد وقوع الكرب حقيقة فهو وراءه أي بعده.

فالمراد بقوله تعالى: ﴿مَنْ وَرَّآيَهُ جَهَنَّمَ﴾ الدلالة على أنها مأواه ومصيره يعذب فيها لا مجرد الإخبار أنها من قبله، وقوله تعالى: ﴿وَيُسْقَى مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ﴾ أي ويسقى في جهنم من ماء صديد أي قيح، وعطف عليه قوله تعالى: ﴿وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ لأن المراد أنه صائر فيها، فكأنه قيل: يصير في جهنم ويسقى، أو عطف على فعل أفاده قوله: ﴿مَنْ وَرَّآيَهُ جَهَنَّمَ﴾ أي يعذب بها ﴿وَيُسْقَى مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ﴾.

قال في (الكشاف): «فإن قلت: ما وجه قوله تعالى ﴿مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ﴾؟ قلت: صديد عطف بيان لماء، قال ﴿وَيُسْقَى مِنْ مَّاءٍ﴾ فأبهمه إبهاماً ثم بينه بقوله: ﴿صَدِيدٍ﴾ وهو ما يسيل من جلود أهل النار» انتهى.

وعدّ بن هشام هذا من الوهم؛ لأن عطف البيان عند البصريين خاص بالمعارف، ثم قال: «وهذا إنما هو معترض على قول البصريين ومن وافقهم فيجب عندهم في ذلك أن يكون بدلاً، وأما الكوفيون فيرون أن عطف البيان في الجوامد كالنعت في المشتقات فيكون في المعارف والنكرات» انتهى.

وأظنه قد مضى ذكر كلام للرضي في هذا المعنى يرجح مذهب الكوفيين، قلت: وإن جعلناه بدلاً فهو بدل البيان، وبهذا يقول الإمام أبو الفتح في (البرهان) والإمام أحمد بن سليمان في (حقائق المعرفة) أعني إثبات بدل البيان وهو البديل الذي أريد به بيان المبدل.

كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَآئِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿٤٧﴾ مَثَلُ

﴿يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَآئِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ ﴿يَتَجَرَّعُهُ﴾ يشربه جرعة جرعة بشدة لكرهته وحره لا يستمر في شرب الصديد كما يشرب الماء البارد ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ﴾ إن كان معنى يسيغه يزدرده وينزله من حلقه بسهولة فالمعنى لا يقارب أن يسيغه، وكيف يكون ذلك مع أنه صديد شديد الحر، فقوله تعالى: ﴿لَا يَكَادُ﴾ كقوله تعالى: ﴿لَمْ يَكْذِبْ رَاهَا﴾ [التور: ٤٠] واستعمال السائغ فيما ينزل بسهولة ظاهر، قال الشاعر:

فساغ لي الشراب وكنت قبلاً أكاد أغص بالماء الفرات

وعلى هذا: بنى الحسين بن القاسم عليه السلام فيما رواه الشريفي في (المصاييح) حيث قال: «معناه: لا يقارب ولا يداني أن يستلذه ولا يجده طيباً ولا يودّه» انتهى. وقال الراغب في (المفردات): «ساغ الشراب في الحلق: سهل انخداره، وأساعه [كذا]» انتهى، ومثله في (الصحاح) وإن كان معنى يسيغه ينزله من حلقه ولو بعد شدة وعناء - وهو الراجح - فقوله تعالى: ﴿لَا يَكَادُ يُسِيغُهُ﴾ كقوله تعالى: ﴿فَذَبْحُومًا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة: ٧١] أي كادوا أن لا يفعلوا، وهذا في معنى الإساعة قد حكى في (الصحاح) مثله عن العرب فقال: «يقال: أسغ لي غصتي: أي أمهلني ولا تُعجلني، قال تعالى: ﴿يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ﴾ والسَّوَاغُ [بكسر السين] ما أسغت به غصتك، يقال: الماء سِوَاغُ الغُصَصِ، ومنه قول الكميث: وكانت سِوَاغًا أن جازتُ بَقْصَةً»

انتهى، أي أن غصصت، وهذا عندي أرجح من الأول؛ لأنه أنسب للسياق، وأن بين ساغ وأساع فرقاً.

الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أََعْمَلُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ
لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ أَلَمْ

وقوله تعالى: ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ أي أن أسباب الموت واقعة عليه من كل مكان إما بمعنى من كل مكان من بدنه لوجود الألم المميت في العادة في كل جزء من جسمه، وإما بمعنى من كل جهة لتضاعف الشدة التي من شأن كل واحدة منها أن تميته في العادة، وإتيان الموت له إيقاع شدة الموت عليه من الكرب الشديد وعدم تحمل الألم والنزع من دون أن يموت، ولذلك قال تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾.

قال الشريفي في (المصابيح): قال في (البرهان): «يعني من كل مكان من جسده، ويجوز ويأتيه الموت من كل جهة عن يمينه وشماله ومن فوقه وتحتة ومن قدامه وخلفه، ويحتمل: ويأتيه شدائد الموت وامتداد سكراته، ليكون ذلك زيادة في عذابه» انتهى.

قلت: الراجح: أن هذا الأخير هو معنى إتيان الموت سواء كان من كل مكان أي من جسده أم من كل جهة - والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ أي من وراء هذا الجبار العنيد عذاب غليظ فهو لا يزال في عذاب غليظ أي شديد، ولعله سمي غليظاً لأنه لا رفق فيه ولا رحمة ولا إبقاء؛ لأنه عذاب استحقاق، وبعزة الله عز وجل وحكمته جعله غضباً على أعدائه الجبابرة.

﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أََعْمَلُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾
﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وصفهم باعتبار خسرانهم الذين كفروا بربههم

لجحدهم قدرته على البعث بعد الموت وجزاء الآخرة ﴿أَعْمَلُكُمْ﴾ التي يرجى في مثلها النفع لعاملها ﴿كَرَمَادٍ أَشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ﴾ والرماد ما خلفته النار من حراقة الحطب أدق من التراب وأخف منه ﴿أَشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ﴾ وقعت فيه الرياح بشدة وعصف شديد فاحتملته في الهواء وطيرته فتبدد وتفرق في الهواء.

﴿فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ فعصفه عام يطير ما طار في الهواء ويضيعه إذ ليست شدة الرياح خاصة بمكان الرماد ولا بساعة اشتداد الرياح به بل عصف شامل لنواحي البلد الذي فيه الرماد مستمر طوال اليوم فكيف يبقى من الرماد شيء يقدر صاحبه على إمساكه؟ فكذلك عمل الذين كفروا يصير هباءً منثوراً.

قال الشرفي في (المصاييح): «قال في (البرهان): وهذا مثل ضربه الله تعالى لأعمال الكافر في أنه لا يحصل على شيء منها بالرماد الذي هو بقية النار الذاهبة إذا اشتدت [به] الريح العاصف وهي الشديدة، فأطارته فلم يقدر على جمعه كذلك الكافر في عمله» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَقْدِرُونَ﴾ أي الذين كفروا ﴿مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ لا يقدرُونَ على أن ينالوه أو يحفظوه ليتفعوا به؛ لأنه ذهب ضائعاً، وقوله تعالى ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي حبوط أعمالهم وخسرانهم لها ﴿هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ ضلال العاملين البعيد عن طريق الرشاد والصواب والخير؛ لأنهم بكفرهم معاقبون على سيئاتهم وخاسرون لحسناتهم، فبان بذلك غوايتهم البعيدة عن الرشاد والصواب وما فيه الخير لهم، ويحتمل ذلك أي ضياع عملهم بالشكل المذكور في المثل هو الضياع البعيد الذي يبعد على صاحبه وجدانه ويتحقق فقدانه، والأول أرجح لأن أصل الكلام في الذين كفروا والمقصود بيان خسرانهم.

تَرَأَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۚ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ۚ قَالُوا لَوْ هَدَّيْنَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ ﴿١٨﴾ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۚ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ * وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ألم تعلم يا رسول الله ﴿أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ بالحكمة لم يخلق ذلك لعباً ولا عبثاً ولا باطلاً، بل خلقهما حق وصواب ليجزي الله كل نفس بما كسبت، كما قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الحاقة: ٢٢] فلا بد من البعث والجزاء.

﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ يُعِدِّمُكُمْ ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ لأنه قادر على كل شيء ﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ وما إذهابكم والإتيان بخلق جديد ما ذلك على الله بصعب؛ لأنه القادر الذي لا يصعب عليه شيء الغني الذي لا يصعب عليه هلاك الناس لو أهلكهم؛ لأنه غني عنهم وعن أعمالهم فلم يخلقهم لحاجة إليهم ولا ليتفع بعبادتهم، فلا بد من جزاء المحسن بإحسانه والجزاء للمسيء على إساءته، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧] ففي هذه الآية تذكير بقدرة الله تعالى وحكمته وغناه وعلى معرفة ذلك يترتب الإيمان بالبعث والجزاء وعلى الجهل به يترتب الكفر بالله واليوم الآخر.

﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ۚ قَالُوا لَوْ هَدَّيْنَا اللَّهُ

هَدَيْنَكُمْ سَوَاءً عَلَيْنَا اَجْرَعْنَا اَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ ﴿١٠٠﴾ وَبَرَزُوا عَلَىٰ ظُهُورِهَا وَعَلَىٰ وَجْهِ الْمَوْقِفِ ﴿١٠١﴾ لِيَسْلُبْهُمْ مِمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ وَيَحَاسِبُهُمْ جَمِيعًا ﴿١٠٢﴾ مَجْمُوعِينَ كُلُّهُمْ كِبْرَاءُ هُمْ وَضِعْفَاءُ هُمْ وَغَيْرُهُمْ ﴿١٠٣﴾ فَقَالَ الضُّعَفَاءُ الَّذِينَ كَانُوا فِي الدُّنْيَا ضِعْفَاءُ مَأْمُورِينَ يَنْقَادُونَ لِكِبْرَائِهِمْ الْمُسْتَكْبِرِينَ قَالُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا ﴿١٠٤﴾ فِي الدُّنْيَا: ﴿١٠٥﴾ اِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا ﴿١٠٦﴾ اِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَابِعِينَ فِي الْكُفْرِ وَنَحْوُهُ فَانْتُمْ اَضَلَلْتُمُونَا وَسَيِّئَ لِعَذَابِنَا.

﴿١٠٧﴾ اَنْتُمْ مُّغْنُونَ عَنَّا ﴿١٠٨﴾ كَافُونَ لَنَا اَي شَيْءٍ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ تَكْفُونَا اِيَا هَٰذَا عِوَضًا عَنْ اِضْلَالِكُمْ لَنَا ﴿١٠٩﴾ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ هَدَيْنَاكُمْ ﴿١١٠﴾ لَمْ تَضِلُّوا اِلَّا لَانَا ضَلَلْنَا اَي بِحُكْمِ اتِّبَاعِكُمْ لَنَا لَا اَنَا اَرَدْنَا اِضْلَالَكُمْ دُونَ اَنْفُسِنَا، فَلَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ تَبَعًا لَهْدَانَا لَانَا مَا اَرَدْنَا اِلَّا اَنْ تَتَّبِعُونَا فِيمَا نَحْنُ عَلَيْهِ، وَلَمْ يَكُنْ ضَلَالَتُكُمْ مِنْ حَيْثُ هُوَ ضَلَالٌ غَرَضًا لَنَا.

وقولهم: ﴿لَوْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ كَذَبَ مِنْهُمْ قَدْ رَدَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿اَوْ تَقُولَ لَوْ اَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿.. بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [الزمر: ٥٧-٥٩] فَالْكَفَارُ لَمْ يَتَّبِعُوا ذَلِكَ هَدًى، وَلَعَلَّهُمْ يَرِيدُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ اَنْ اُهْدَى رُدُّهُمْ عَنْ غَوَايَتِهِمْ إِلَى الصَّوَابِ بِالْقَسْرِ وَالْاِكْرَاهِ حِينَ لَمْ يَقْبَلُوا الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ، وَلَكِنَّهَا هِيَ اُهْدَى وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ حَقٌّ فِي الْقَسْرِ وَالْاِلْجَاءِ، فَكَانُوا كَاذِبِينَ فِي نَفْسِ هَدًى اللَّهِ لَهُمُ الَّذِي يَفْهَمُ مِنْ قَوْلِهِمْ: ﴿لَوْ هَدَانَا اللَّهُ هَدَيْنَاكُمْ﴾.

هَذَا وَأَمَّا مَنْ قَالَ: إِنَّهُ لَا يَقَعُ كَذِبٌ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْكَفَارِ، فَكَلَامُهُ مُرَدُّدٌ بِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ * بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْشَوْنَ مِنْ قَبْلِ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١١﴾ [الأنعام: ٢٧-٢٨].

إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَأَدْخَلَ

ثم قال الذين استكبروا في الجواب على الضعفاء: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ﴾ سواء علينا أي على الفريقين التابعين والمتبوعين أجزعنا من عذاب الله والجزع ضد الصبر فهو إظهار الضعف على احتمال المصيبة والقلق منها بالصياح والولولة ونحو ذلك كعض اليد من الندم، والصبر ضد ذلك وكان الذين استكبروا يقولون للضعفاء: كلامكم لنا إنما هو جزع من العذاب ولا يفيد الجزع اليوم؛ لأنه لا محيص من العذاب أي لا مفر. قال في (الصحيح): «يقال: ما عنه محيص: أي محيد ومهرب» انتهى.

﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ أي لما قضى الأمر صرح الشيطان أتباعه، والراجع: أنه في موقف الحساب بعد أن حكم الله بين العباد وقضى على أتباع الشيطان بالعذاب، وهذا لأجل العطف بقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ﴾ في الدنيا ﴿وَعَدَ الْحَقُّ﴾ حين أنذركم العذاب وأرسل الرسل مبشرين ومنذرين وكان وعد الله هو الحق الذي لا خلف له ﴿وَوَعَدْتُكُمْ﴾ في الدنيا بأنواع من الغرور، قال تعالى: ﴿يَعْلَنُ وَيُخَبِّرُهُمْ وَمَا يَعْلَمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١٢٠].

قال الشرفي في (المصابيح): «﴿وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ أي كذبتكم، والخلف هو الكذب قال الشاعر:

لعمرك ما يوافقني خليلي إذا ما كان ذا خلف كنودا»

انتهى، يعني: أن المراد بهذا الوعد مثل المراد بالوعد في قوله تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ﴾ [البقرة: ٢٦٨] فهو وعد الشيطان بالمغفرة من الله وإدراك أغراضهم النفسية بسبب الكفر كالعز والثروة وغلبة المسلمين، والمراد بقوله ﴿فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ على هذا المعنى: كذبتكم الوعد حين قلته، وقد قال في (لسان العرب): «الخلف في المستقبل كالكذب في الماضي، وهو موافق للبيت المذكور، وعلى هذا يصح اشتقاق الإخلاف من الخلف بهذا المعنى» والله أعلم.

﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطٰنٍ﴾ يعني لم يكن لي عليكم قوة وقهر أجبركم على طاعتي فتطيعوني بالقهر والغلبة لأن له سلطاناً على الذين يتولونه والذين هم به مشركون لكنه ليس سلطاناً غلبة وقهر لو سلمت نفوسهم وبقيت على فطرتها وإنما سلطانه عليهم سلطان إغراء بالمعصية وتزيين وتخويف من الطاعة كالتخويف من الفقر والتخويف للمجاهد من القتل والتخويف للمسلم من غلبة الكفار، فإذا ضعفت النفس لأن صاحبها لا يريد أن يصبر على طاعة الله ولا أن يحتمل مشقة وعناء في سبيل الله فضعفت عزيمته وقويت شهوته بالتربية لها، كما تقوى سائر الغرايز بالتربية.

فمن هنا كان للشيطان عليه سلطان التغيرير والتزيين والتخويف لا سلطان القسر والإلجاء، فقلوه: ﴿إِلَّا أَن دَعَوْتُمْ فَأَسْتَجِبْتُمْ لِي﴾ استثناء منقطع أي دعوتكم إلى معصية الله فاستجبتم لي بالمطاوعة ﴿فَلَا تَلُومُونِي﴾

الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴿١٢﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً

على التسبب لدخولكم النار ﴿وَلَوْ مُوْءَا أَنْفُسَكُمْ﴾ لأنكم إنما استجبتم لي اتباعاً لهوى أنفسكم ﴿مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ﴾ بمنقذكم حين تصرخون من العذاب ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِي﴾ بمنقذين لي حين أصرخ منه.

قال الشرفي في (المصابيح): «﴿مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ﴾ أي بمغيثكم والإصراخ: الإغاثة ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِي﴾ أي بمغيثي، قال ابن الأعرابي: الصارخ: المستغيث، والمصرخ: المغيث» انتهى المراد.

وفي (الصحيح) مثل ما حكى عن ابن الأعرابي لـ (صاحب الصحيح) وقال: «الصارخ: الصوت» انتهى.

وقوله: ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «يعني: برئت منكم» انتهى، وهو تفسير بالغرض من الكلام؛ لأنه تبرأ مما أشركوه ليتبرأ منهم وإشراكهم له إما طاعته في الشرك بالله وإما طاعته أعم من الطاعة في الشرك وفي غيره، وقوله: ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ أي في الدنيا. وقوله: ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي لا بد منه كقول المستكبرين: ﴿مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ﴾ وهذا عذاب لأعداء الله بالغیظ من كلام إبليس، والعذاب أنواع منها نفسي ومنها جسدي نعوذ بالله منه.

﴿وَأَدْخَلَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ لما تم ذكر الوعيد لأعداء الله ذكر الله بعده الوعد لأوليائه بإدخالهم الجنات.

طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۖ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾

وقوله تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي باقين فيها لا يموتون، وقوله: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ دفع لما يستبعد بالقياس على الحياة الدنيا التي تنتهي، ودلالة على أن خلودهم يكون لأن الله أذن به وهياه لهم بقدرته، واقتصر الكلام على ذكر الإذن دلالة على أنه لا يصعب على الله، فالتعبير بالإذن كالتعبير بقوله: ﴿كُنْ﴾.

وقوله تعالى: ﴿تَحْيِيَّتُهُمْ﴾ أي يُحْيَوْنَ بقول القائل: ﴿سَلَامٌ﴾ أي سلام عليكم، كقوله تعالى: ﴿تَحْيِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٤] وقوله تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ * سَلَامٌ عَلَيْكُمْ يَمَّا صَبَرْتُمْ﴾ [الرعد: ٢٣-٢٤] فهي بشرى عظيمة، وليست مجرد تحييتهم لبعضهم، بل يحييهم الله بالسلام والملائكة.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ * تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۖ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يترجح أن هذه الآية تابعة لما سبق من ذكر أحوال الكفار والمؤمنين، وأن الله تعالى ضرب ﴿مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ هي كلمة التوحيد الصادرة عن إيمان ويقين.

وفي تفسير (الغريب) للإمام زيد بن علي عليه السلام: «هي (لا إله إلا الله) أصلها ثابت في قلب المؤمن» انتهى.

وهي تفيد: فضل الكلام الطيب وعظم نفعه وثباته في الأرض بإذن الله وهو ذكر الله كله، وشهادة أن محمداً رسول الله، ونحو ذلك مما هو أصل في دين الله، فالكلمة الأصل التي هي (شهادة أن لا إله إلا الله) مثل له يقاس عليها ويلحق بها.

وقوله تعالى: ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ طيب الشجرة يكون بنفعها ومن أطيب الشجر الموصوفة هنا النخل؛ لأن ثمرها الذي هو التمر يقتاتة أهل بلده وهو فاكهة لغيرهم، وفيه منافع كثيرة في التغذية، ونواه يبيل ويدق طعاماً للغنم، كما أن سائر أجزاء النخلة ينتفع به يصنع الحصير من ورقها ويستعمل في سقف البيوت وغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ أي في الأرض فهي ثابتة بثبات أصلها لا يقلعها عاصف أو نحوه ﴿وَفَرَعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ أي مرتفع في الهواء وذلك أكمل لها وأطيب لثمرها وأحصن له من تناول الدواب والسراق.

وقوله تعالى: ﴿تُؤْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ وهذا يدل على أن ليس المراد شجرة مما نعرف معينة لأن (النخلة) تؤتي أكلها في الخريف وكذا (التين) فإن كان هناك شجرة مما نجعل تؤتي أكلها كل حين إما (الزيتون) وإما غيره ينطبق عليها هذه الصفات صح التفسير بها، وإلا فهي شجرة مفروضة كما في المثل في (سورة النور) ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ﴾ الآية [آية: ٣٥] وهذا صحيح لأن المقصود بالتمثيل إيضاح المعنى وتقريره في ذهن السامع بكمال فهمه.

وقوله تعالى: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ قد يشير إلى أنها غير موجودة وأن ذلك خارق لعادة الشجر ولكنه ممكن إذا أذن الله به؛ لأنه على كل شيء قدير.

وقوله تعالى: ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ فهو يبين المراد بضرب الأمثال في القرآن وغيره من كلام الله تعالى، فالمراد بها أن يتذكر الناس الصواب ويتبعوه، فالكلمة الطيبة ثابتة في الأرض بنصر الله وإعزازها وإن كانت للباطل صولات فهي لا تذهب من الأرض الكلمة الطيبة وثبات الكلمة الطيبة بثبات الإيمان في قلوب المؤمنين الذين يقولونها

وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴿٢١﴾ يَثْبُتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴿٢٢﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى

عن إيمان و يقين لأن أصلها الحق اليقين، وقد قال تعالى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾ [الزخرف: ٢٨] وهي كلمة (التوحيد) باقية في عقب إبراهيم عليه السلام، وتشبيهها بشجرة ﴿تُؤْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾ يفيد أن فائدة كلمة التوحيد وثمرتها تبقى وتكرر لصاحبها كل حين في الدنيا والآخرة، فالآية الأولى تفيد بقاءها في الأرض، والآية الثانية تفيد استمرار فائدتها.

﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ ﴿كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ كلمة الشرك ﴿كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ تضر الأرض بامتصاص عروقها لفائدة التربة، وبذلك تضر ما جاورها من الشجر الطيب مع أنها خبيثة كشجرة الدفلى التي هي سم أو غيرها مما يضر، ولذلك ﴿اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ أي بقاء في مكانها، وقوله تعالى: ﴿اجْتُثَّتْ﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «معناه: استؤصلت» انتهى.

أي أخذت من فوق الأرض بقلع أصلها لئلا تعود، فالباطل كذلك، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ * وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١].

﴿يَثْبُتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ ﴿يَثْبُتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بأن يجعلهم ثابتين على الحق لا تزل أقدامهم بعد ثبوتها، وذلك بسبب

الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَيَبْسُ الْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا

القول الثابت الذي قالوه عن إيمان و يقين، والذي أفادت آية التشبيه بالشجرة الطيبة أن له البقاء في الأرض فهو سبحانه وبمحمده يشبههم ﴿فِي الْحَيَاةِ﴾ مدة تكليفهم، ولعل هذا يفيد: أن الكلمة الطيبة والقول الثابت سبب لثبوتهم، وليس معناه: نفي المانع من ذلك إن حدث من أحدهم من المعاصي والإصرار ما يوجب الخذلان، أو أن الله يشبههم ما داموا على القول الثابت فإذا تحولوا عنه أو عن بعضه لم يشبههم، وهذا أظهر على معنى أن من التحول الإصرار على المعاصي؛ لأنها ضد معنى القول الثابت، أو ضد ما يلزم من معنى القول الثابت.

وقوله تعالى: ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ يدل على سلامتهم من الزلل عند السؤال وعند جسر جهنم على القول به، وقوله تعالى: ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ﴾ أي عقوبة لهم على الظلم وقد مضى تفسيره، وقوله تعالى: ﴿وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ دليل على أنه الغالب على أمره القاهر فوق عباده، وفيه تخويف للكفار من تعذيبهم وخيبتهم.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ تعجيب للسامع من هؤلاء الذين عدلوا عن مقتضى الفطرة و عما يدعو إليه العقل السليم من مقابلة النعمة بالشكر إلى تبديلها بالكفر، وعن النصيح لأنفسهم وقومهم إلى إدخالهم النار بما أسسوا لهم من الشرك والكفر.

وقوله تعالى: ﴿بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا﴾ فمن نعم الله: أن جعل الإنسان حراً لا يحق لغير الله أن يستعبده فجعلوا أنفسهم عباداً لشركائهم، ومن نعم الله: الأنعام التي أحلها للإنسان ليأكل منها ويتنفع بها، فحرموا من الأنعام

فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴿٦٦﴾ قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ

ما ذكره الله في (سورة الأنعام) و(المائدة) فبدلوا بالتحريم الذي هو كفر من حيث جعل الحكم لغير الله من حيث هو تشريع على عباد الله لم يأذن الله به، ومن حيث هو جحد لنعمة الله فيما أحل؛ لأنهم حرموه فهو كفر نعمة جعلوه بدل النعمة.

وقوله تعالى ﴿وَأَحْلَوْا قَوْمَهُمْ﴾ أي أتباعهم من قومهم ﴿دَارَ الْبَوَارِ﴾ أي دار الهلاك، وفسرها قوله تعالى: ﴿جَهَنَّمَ يَصَلَوْنَهَا وَيَبْسُ الْقَرَارُ﴾ وقوله تعالى ﴿وَأَحْلَوْا قَوْمَهُمْ﴾ من الحلول في الحل الذي هو الإستقرار فيه، قال عنتره:

حَلَّتْ بَارِضُ الزَّائِرِينَ فَاصْبَحَتْ عَسِراً عَلَى طَلَبِهَا ابْنَةُ مَخْرَمٍ

وقوله تعالى: ﴿وَيَبْسُ الْقَرَارُ﴾ أي جهنم، كقوله تعالى: ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٦٦].

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ﴾ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴿وَجَعَلُوا﴾ أي هؤلاء الذي أحلوا قومهم دار البوار جعلوا ﴿لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾ وأسَّسوا الشرك؛ ليضلوا أتباعهم عن سبيل الله، وهكذا أهل الأهواء المحتالون للرئاسة يقررون الباطل في أنفس أتباعهم حتى يعتقدوه ويتعصبوا له فينصرفوا بذلك عن الحق وأهله، فالإضلال لأتباعهم غرض لهم، لأنها تتوقف عليه رئاستهم وكونهم متبوعين.

﴿قُلْ﴾ يا رسول الله لهم: ﴿تَمَتَّعُوا﴾ بأغراضكم الدنيوية ورئاستكم الباطلة ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ فقلوه: ﴿تَمَتَّعُوا﴾ تهديد لهم، وبيان لحقارته من حيث أنه سبب لمصيرهم المحتوم جهنم.

وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ ﴿١٠٠﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً

﴿قُلْ لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ﴾ ﴿قُلْ لِّعِبَادِيَ﴾ أمر بما فيه كرامة عباد الرحمن ورفع درجاتهم وسلامتهم من الخسران ﴿يُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ قال الشريفي في (المصابيح) - ونعم ما قال - : «يقيموا مقول القول أي ليقيموا، قيل: وجاز حذف اللام منه، لأن الأمر الذي هو ﴿قُلْ﴾ عوض منه» انتهى المراد.

قلت: الأقرب أنه مجزوم؛ لأنه في معنى الأمر فهو قسم من المجزوم وإن لم تقدر فيه (لام الأمر) كما جزم ما دخلت عليه (لام الأمر) وليس مما جزم في جواب الأمر، ألا ترى أنه أكد أمرهم بقوله تعالى: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ﴾ أي ليغتنموا مهلة الأجل لصالح العمل المذكور من قبل أن يفوت الأوان في ذلك اليوم الذي هو يوم حساب ولا عمل، ولو كان المعنى: إن تقل لهم يقيموا وينفقوا، لكان زيادة قوله: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ﴾ في غير محلها، وخص الأمرين بالذكر إقامة الصلاة والإنفاق من الحلال لعظم فائدهما في إصلاح الضمير والتسبيب لحسن الخاتمة ولعظم ثوابهما وغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ لم يخص السر بالذكر وإن كان أفضل لمن يكثر الصدقة أو هو الواجب إذا خاف المتصدق على نفسه الرياء، وذلك لأن العلانية يدعو إلى الإقتداء بالمنفق فيكون له أجر صدقته وأجر التسبيب للصدقة من غيره ويكون ذلك أنفع للفقراء أو أنفع في نصرة الإسلام إذا كان الإنفاق في سبيل الله.

فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ۚ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴿٣٠﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ

وقوله تعالى: ﴿لَا يَبِيعُ فِيهِ وَلَا خِلَلٌ﴾ أي ليس كالدنيا تستفيد ما تحتاجه بالبيع لك، وتستعين على بعض الأمر بالخليل الصالح، ذلك يوم لا ينفع فيه إلا العمل الصالح، وما يحصل من فضل الله إنما هو تابع للعمل الصالح، كما قال تعالى: ﴿لِيُؤْفِقَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [فاطر: ٣٠].

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ۚ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ﴾ في الآية الكريمة ردُّ على المشركين الذين جعلوا الله أنداداً وعلى من اتبعهم في شركهم فهم غافلون عن الله جاهلون بعظمته وجلاله وكمال قدرته وعلمه ولذلك جعلوا له أنداداً قرنوا بين عبادتهم وعبادة الله جل جلاله فسوّوا بين الحق والباطل بين الصدق والخرافة، فهذه الآية تذكر بالله تعالى وقدرته على كل شيء، وأنه الخالق الرازق.

فقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ يذكرهم بعظيم قدرته وعلمه وفضله على عباده من حيث أنهما أساس خلق من فيهما وما فيهما من نعمه، وقوله تعالى ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ يذكر بنعمة الماء وذكر من فوائده إخراج الثمرات التي هي رزق للإنسان يعيش بها ويتمتع في هذه الحياة، وجمع الثمرات يشير إلى الحبوب والفواكه على كثرة أنواعها واختلافها في الفائدة واللذة، كما أن ذلك يذكر بقدرته وعلمه وتدبيره لأمر عباده ومنافعهم مما يدل على سفاهة من جعل له أنداداً.

وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿١٠٢﴾ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا

وقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ وهي السفائن التي يسافر بها في البحر، وقوله: ﴿لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾ يذكر فائدتها التي هي صلاحيتها للسفر عليها، فهو سبحانه جعل الخشب الذي منه ألواحها والحديد الذي به تنسق ألواحها حتى تكون على شكل صالح لحمل ما عليها، وسخر لها الريح لتسوقها، وعلم الإنسان صنعها وصنعة ما تدخله الريح لتسوقها فصلحت للسفر للتجارة ونقل حاجات الإنسان من أرض إلى أرض كما فصل ذلك الله تعالى في آيات من القرآن في (سورة النحل) و(سورة الشورى) وغيرهما.

وقوله تعالى: ﴿بِأَمْرِهِ﴾ جعلها مأمورة بالسير؛ لأنه سخر لها الريح تسوقها، فكانها مأمورة مطيعة، وكذلك الريح كالأمورة المطيعة، لأنه الذي سخرها فانقادت لتسخيره.

وقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ فهو الذي يسوقها في بطون الأرض والجبال من مسالكها الباطنة حتى تخرج من منابعها فتجري في مجاريها الظاهرة ويتنفع الناس بالماء منافعه المعروفة، وربهم هو الذي جعل مسالك الماء الباطنة ومجاريها الظاهرة ليتنفعوا به لأنفسهم وأنعامهم وحرثهم وغير ذلك.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآبِّينَ﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿١٠٣﴾ أما منافع الشمس فتدفئة الناس والمواشي، وإصلاح الأشجار والتربة للزرع والضياء، وقتل بعض الجراثيم الضارة، كما يحكى عن أهل الطب العصري وتوليد فيتامين (د) في أجساد الناس كما يقولون ولا نحصي فوائدها.

وأما فوائد القمر: فالنور لمن يحتاج السري ومن لا يجد المصباح، وهو يقتل الدُّبَّ إذا جاء عليه في نصف الشهر إما غالباً وإما مستمراً، ومن فوائده: الشهور العربية فإنها محدودة بالهلال، ولولا هو ما كانت الشهور العربية، كما قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩].

وفي الشمس والقمر آيتان عظيمتان واضحتان تدلان على قدرة الله تعالى وعلمه؛ لأن سيرهما بمقدار محدود كتحديد الساعة المصنوعة فالشمس تقطع البروج في سنة والقمر تقطعها في شهر ﴿ذَٰلِيبَيْنِ﴾ على ذلك السير المحدود في عادة مستمرة.

قال في (الصحيح): «دأب فلان في عمله: أي جدّ وتعب» انتهى المراد.

وقال (شارح المعلقات السبع) في شرح قول امرئ القيس:

كدأبك من أم الحويرث قبلها

«الدأب والدأب [بتسكين الهمزة وفتحها] العادة، وأصلها متابعة العمل والجد في السعي» انتهى.

وقال الراغب: «الدأب: إدامة السير، دأب في السير دأباً، قال تعالى ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ذَٰلِيبَيْنِ﴾ والدأب: العادة المستمرة دائماً على حالة، قال تعالى: ﴿كَذَٰبِ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ [آل عمران: ١١] أي كعادتهم التي يستمرون عليها» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ فيهما نعمتان، فالنهار للعمل وكسب الرزق، والليل للسكون وترك عمل الدنيا والراحة منه لتعود القوة ويذهب التعب، ويخلو أولياء الله في بعضه للعبادة والاستغفار في الأسحار.

نِعَمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصَوها إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ

وفي الليل والنهار آيتان حيث جعلنا لمنافع الناس بتحديد مناسب لحالهم مستمر دقيق، كتحديد الساعة، وطول أحدهما وقصر الآخر بنظام محدود متقن دقيق، فهما دليل على الخالق المدبر لمصالح عباده، ذلك تقدير العزيز العليم الذي سخر هذه الأشياء بقدرته وعلمه. قال الراغب في (المفردات): «التسخير سيطرة إلى الغرض المختص قسراً» انتهى المراد.

﴿وَأَتَيْنَكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعَمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصَوها إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ ﴿وَأَتَيْنَكُم﴾ نعماً كثيرة ﴿مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ فأنتم تسألون الله حاجاتكم فيعطيك، وفي هذا إشارة إلى نعم يحتاجها الإنسان فيسأل ربه فيعطيه، فالإنسان يعلم في قرارة نفسه أن الخير بيد ربه الذي خلقه ورزقه، ولذلك يسأله كلما احتاج أو اضطر.

وقوله تعالى: ﴿مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ أي بعض ما سألتموه وهي نعمة كثيرة وإن لم نعط كل ما سألنا؛ لأن الحكمة في بعض المطلوب أن لا نؤتاه بعينه، وقد نسأل شيئاً وهو شر لنا ولكن لا نعلم، ومن ذلك بسط الرزق، فقد قال تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ الآية [الشورى: ٢٧].

وقوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعَمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصَوها﴾ لعلنا لا نستطيع إحصاء أنواع النعم فضلاً عن أفرادها، وهذا في النعم الظاهرة غير الباطنة، والنعم الظاهرة التي يخفى على الإنسان كونها نعمة عليه إلا إذا فكر أو درس التشريح والطب.

رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ ءَامِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴿١٠﴾ رَبِّ

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ قرار بعد تعديد النعم على الإنسان تدل على كثرة النعم وسوء تصرف الإنسان حيث يقابل نعم الله بالإساءة والعصيان، فالإنسان ظلوم لأن إساءته إلى مالكة المنعم عليه حيف وجور لأن مقتضى العدالة أن يشكر ربه ويطيعه فهو لهذا ظلوم، والإنسان كفار كثير الكفر لنعم الله تعالى، فأما كفر المشركين والكفار لنعم الله فظاهر، وأما غيرهم فأكثرهم أهل الغفلة والجرأة على الظلم وغيره الذين لا يبالون ما فعلوا، وكثير من الناس إلا النادر لا يخلو أحدهم عن المعصية إلا أن الأخيار يحاسبون أنفسهم ولا يصرون على ما تعمدوه أو انكشف لهم أنه ذنب.

وقد روى الإمام أبو طالب عليه السلام في (أماليه) وهو في (الباب السابع والأربعين بإسناده: عن علي عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله - عز وجل - : يا بن آدم ما تنصفي أتحب إليك بالنعم وتتمقت إلي بالمعاصي، خيري عليك منزّل وشرك إلي صاعد، ولا يزال ملك كريم يأتيك عنك في كل يوم وليلة بعمل قبيح، يا بن آدم لو سمعت وصفك من غيرك وأنت لا تدري من الموصوف لسارعت إلى مقتته» انتهى، وهو في (صحيفة الإمام الرضا).

فظهر بما بين الله من نعمه ظلم الإنسان وأنه كثير الظلم كثير الكفران لنعم الله تعالى، هذا وقد كان بعض أهل مكة ومن حولها يعبدون الأصنام وذلك أقبح الكفر وكانوا كلهم أو بعضهم يدعون أنهم على دين إبراهيم عليه السلام، فبين تعالى دين إبراهيم عليه السلام، وما أوتوا من النعمة بسبب دعائه عليه السلام.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ ءَامِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ ﴿هَذَا الْبَلَدُ﴾ أي ما حول الكعبة وهو الحرم المحرم،

إِنَّهُمْ أَضَلُّوا كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ ۖ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي ۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ

والبلد يفسره المفسرون بمكة، ولعل مكة اليوم قد تجاوزت حد الحرم، والمقصود بالدعاء هو مكة التي في الحرم، فهي البلد الآمن بحكم الله عز وجل، وقد ذكرهم الله بنعمة الأمن في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجَبَّى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [القصاص: ٥٧] وبالأمن فيه يتهاى الحج والعمرة والتجارة في مكة، فهو نعمة عامة لأهل مكة وغيرهم.

وقوله: ﴿وَأَجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ آلَ أَصْنَامٍ﴾ أي اصرفنا بلطفك عن أن نعبد الأصنام، قال في (الصحيح): «وَجَنَّبَهُ الشَّيْءُ وَجَنَّبْتُهُ: بمعنى نَحَيْتُهُ عَنْهُ» انتهى، ومثله في (لسان العرب) ولا يبعد أن فيه معنى باعدني، والمراد بينه أول درجة من ذريته أي بنيه من صلبه، فهو فيهم أظهر، ولأنه حين دعا لذريته قال هو وابنه إسماعيل: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةٌ مُّسْلِمَةٌ لَّكَ﴾ [البقرة: ١٢٨] فجاء بـ ﴿مِنْ﴾ التي للتبعيض، فظهر: أنه هنا دعا لبنيه لصلبه، أن يعصمهم الله بلطفه من عبادة الأصنام.

﴿رَبِّ إِيَّاهُ أَضَلُّوا كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ ۖ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي ۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): «واتفق كل الفرق على أن قوله: ﴿أَضَلُّوا﴾ مجاز، لأنها جمادات لا تفعل شيئاً البتة» انتهى.

قلت: يعني اتفقوا على أن المراد ضلوا بسببها، لا أنها فاعلة لإضلالهم، ونظيره قوله تعالى: ﴿فَلَا تَغُرُّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ [لقمان: ٣٣] إلا أن هذا نهى وكلام إبراهيم عليه السلام، إثبات.

الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْعَدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ
وَأَرْزُقْهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿١٧﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا

وقوله ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ أي كالبعض مني له ما لي وعليه ما علي وهو في الإختصاص بي كبعضي، وهذا نهاية العطف عليه والحب له، وقوله: ﴿وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فأرجو له من المغفرة والرحمة ما لا ينافي العزة ولا الحكمة وذلك المغفرة بترك المؤاخذه العاجلة والرحمة بذلك من حيث هو نعمة وتعرض على التوبة المؤدية إلى الرحمة في الآخرة والمغفرة المطلقة، وقد قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلْ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَّنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْثِقًا﴾ [الكهف: ٥٨].

﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْعَدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَأَرْزُقْهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ ﴿مِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ بعضهم وهو إسماعيل، ولعله كان وجد له ولد في عهد إبراهيم عليه السلام، فيكون داخلاً في قوله: ﴿إِنِّي أَسْكَنْتُ﴾ أي جعلتهم ساكنين ﴿بُوَادٍ﴾ وهو مكة شرفها الله ﴿غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ فalcوت منها معدوم فدعا لهم وقدم وسيلة الدعاء بقوله: ﴿عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ و(البيت المحرم): هو الكعبة شرفها الله أضافها إلى الله؛ لأنها قبله عبادته، وإليها الحج والعمرة، فأسكنهم عنده ليقوموا الصلاة في جوار بيت الله حيث لا زرع ولا حرث يشغلهم عن إقامة الصلاة في أوقاتها أو يشغل ضمائرهم بالوسوسة حال الصلاة، فدعا لهم بالرزق ليتم لهم هذا الغرض الديني كما أسكنهم لهذا الغرض نفسه عند البيت.

نُعْلِنُ وَمَا نَخْفِي عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٨﴾ الْحَمْدُ

وقوله: ﴿فَجَعَلَ أَفْعِدَةً مِنَ النَّاسِ يَهْوَى إِلَيْهِمْ﴾ الأفعدة القلوب أو باطنها وذلك مركز العقل والحب وغيره نسب الهوى إليها، لأن شوقها إلى بيت الله وأوليائه هو يبعث أهلها على هبوط مكة وذلك سبب لنشر العلم والدعوة إلى دين الله، ولولا ذلك لصاروا معزولين عن الناس لأن مكانهم ليس فيه مرغّب دنيوي إلا إذا أهوى إليه الناس من كل بلد فإنه يصير موضع تجارة.

وقوله: ﴿وَأَرْزُقُهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ فجعل الدعاء لهم بالرزق ليذكروا فهو لغرض ديني من حيث هو إقامة الصلاة، ومن حيث هو الشكر أعم من الصلاة، فإسكانهم لغرض ديني يكمل ويتم بهوي الناس إليهم وبالرزق الذي لا يعيش الإنسان بدونه، وبذلك صلاح دينهم ودنياهم، وحياة مكة بعبادة الله وحده لا شريك له، ولكن المتأخرين غيروا بمكة فجعلوها مركزاً لبعض الأصنام وأشركوا بالله فكان من الضروري تجديد دعوة إبراهيم بإرسال الرسول من ذريته ودعوته إلى ما دعا إليه أبوه إبراهيم (عليه السلام) وهو محمد (عليه السلام).

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نَخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا نَخْفِي عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ ﴿مَا نَخْفِي﴾ أنا ومن أسكنت من ذريتي فأنت تعلم نياتنا وإخلاصنا لك وعقائدنا في توحيدك وكل ما نخفي ﴿وَمَا نُعْلِنُ﴾ وما نظهره من صلاتنا ومناسكنا وغير ذلك ومن كل عملنا فاستجب دعاء ﴿وَمَا نَخْفِي عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ لا من الأعمال ولا غيرها لا ﴿فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ لأنه علام الغيوب وبكل شيء علیم، فلذلك ندعوك ونرجوك ونعبدك ونخشاك.

لِلّٰهِ الَّذِیْ وَهَبَ لِیْ عَلَی الْکِبَرِ اِسْمَاعِیْلَ وَاِسْحٰقَ ۚ اِنَّ رَبِّیْ لَسَمِیْعُ الدُّعَآءِ ﴿١٠٩﴾ رَبِّ اَجْعَلْنِیْ مُقِیْمَ الصَّلٰوةِ وَمِنْ ذُرِّیَّتِیْ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿١١٠﴾ رَبَّنَا

﴿١٠٩﴾ اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِیْ وَهَبَ لِیْ عَلَی الْکِبَرِ اِسْمَاعِیْلَ وَاِسْحٰقَ ۚ اِنَّ رَبِّیْ لَسَمِیْعُ الدُّعَآءِ ﴿١٠٩﴾ اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ ﴿١٠٩﴾ شُکْرًا لِاَنَّهُ ﴿الَّذِیْ وَهَبَ لِیْ عَلَی الْکِبَرِ اِسْمَاعِیْلَ وَاِسْحٰقَ﴾ لیرثا دینی و یبلغا رسالتی إلى أهل عصرهما، وقوله: ﴿عَلَى الْکِبَرِ﴾ أي على تقدم سنّی وبلوغی حدّ الشیخوخة، ولس من العادة أن یولد لمثلی فی الشیخوخة ﴿اِنَّ رَبِّیْ لَسَمِیْعُ الدُّعَآءِ﴾ فقد سمع دعائی حین قلت: ﴿رَبُّ هَبْ لِیْ مِنَ الصّٰلِحِیْنَ﴾ [الصافات: ١٠٠] فوهب لی إسماعیل ثم إسحاق.

﴿١١٠﴾ رَبِّ اَجْعَلْنِیْ مُقِیْمَ الصَّلٰوةِ وَمِنْ ذُرِّیَّتِیْ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿١١٠﴾ رَبِّ اَجْعَلْنِیْ ﴿١١٠﴾ فی المستقبل ﴿مُقِیْمَ الصَّلٰوةِ﴾ بأن تحببها إلی فی بقية عمري وتيسر لی إقامتها بأركانها وخشوعها ﴿وَمِنْ ذُرِّیَّتِیْ﴾ اجعل مقیمی الصلاة؛ لأنها عظيمة فی العبادة ومصلحة للضمیر ولذلك تنهى عن الفحشاء والمنکر، وعنايته ﷺ بإقامة الصلاة ینبغي لذریته أن يجعلوها سبباً لإقامتها اقتداء بأبيهم إبراهيم ﷺ بل ینبغي للناس كافة لأنه ﷺ إمامهم.

وقوله: ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ﴾ یحتمل: استجب دعائی فاعطني وذریتی ما سألت، ویحتمل: تقبل منی دعائی لتكتب لی ثوابه، فاجعله من حیث هو عبادة اجعله مقبولاً أي عبادة متقبلة یكتب لی ثوابها، وهذا أقرب ولذلك یكرر ذکر الربوبية الذي یفید إقراره بأنه وذریته عباد الله، وبأن العبادة لا تحق إلا لله؛ لأنها اعتراف بالعبودية، فهو یكرر ذلك الاعتراف والإقرار بتکریر لازمه، فلیکن لنا قدوة فی عبادة الله بالدعاء.

أَغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿١١﴾ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهُ غَفِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ مُهْطِعِينَ ﴿١٢﴾ مُقْنَعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴿١٣﴾

﴿١١﴾ رَبَّنَا أَغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿١٢﴾ رَبَّنَا أَغْفِرْ لِي ذُنُوبِي ﴿١٣﴾ ذُنُوبِي ﴿١٤﴾ ذُنُوبَهُمَا، وكأنه عليه السلام استمر على استغفاره لأبيه وفاء بالوعد، مع أنه قد تبرأ منه في آخر الأمر، فلا تنافي ما دام ذلك مأذوناً له من الله تعالى، ولجورد الوفاء بموعده كما جاز مصاحبة الوالدين المشركين معروفاً في الدنيا.

وقوله: ﴿وَالْمُؤْمِنِينَ﴾ عطف عليهم؛ لقوله: ﴿فَمَنْ تَعْنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ وحباً لهم في الله، وقوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ طلب لهم بالمغفرة يوم يقوم الحساب أي يوم الحساب، وهي أفضل من المغفرة المؤقتة في الدنيا فمغفرة يوم الحساب لازمة دخول الجنة والنجاة من النار، بخلاف مغفرة الدنيا التي معناها ترك تعجيل المؤاخظة، كما مر في تفسير قوله: ﴿وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

وقوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ قيام الحساب قوته وكثرته وظهوره مثل قيام السوق إذا تحرك البيع والشراء، وهو يشير إلى ذلك الموقف الرهيب الذي يحتاج فيه إلى المغفرة أشد من الحاجة إلى المغفرة بترك تعجيل المؤاخظة.

﴿١٢﴾ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهُ غَفِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿١٣﴾ عَطْفٌ كَمَا أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾ عطف.

والراجع: أن ذلك راجع إلى ما في سياق قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَى إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا﴾ من وعيد قومهم، فذكر الله كلام إبراهيم عليه السلام ردًّا عليهم، ثم ذكر ما في هذه الآية وعيداً لهم على ما يعملون ضد الإسلام من المكر والمعاداة الخفية، وبين حالهم يوم القيامة وذلّتهم بعد تكبرهم في الدنيا وعنادهم عند دعوة الرسول لهم إلى الله تعالى.

وقوله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفْلًا﴾ الخطاب إما للرسول ﷺ وهو تقدمة لذكر وعيدهم، وليس من شأن الرسول ﷺ أن يحسب الله غافلاً فليس نهيهِ لذلك، بل لئلا يحسبوا هم أو غيرهم، لكن وجه الخطاب إليه لأنه العالم بأن كفرهم باطل، فهو الذي يصلح خطابه في جزائهم لماذا لا يعجل، وإما للسامع كائناً من كان.

وقوله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفْلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ أي لم يترك اليوم عذابهم على ما يعملون غفلة عما يعملون من أنواع الظلم ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ﴾ أي ليوم القيامة فعذابهم كاف في العدل والحكمة إن لم يرد لهم العذاب في الدنيا بعد حين، وقوله: ﴿تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ كما يشخص بصر المحتضر عند الموت.

قال في (الصحيح): «يقال: شخص بصره، فهو شاخص: إذا فتح عينيه وجعل لا يَطرِف» انتهى، ومثله في (لسان العرب) وزاد: «شخص البصر: ارتفاع الأَجْفَانِ إلى فوق وتحديد النظر وانزعاجه» انتهى.

﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾
﴿مُهْطِعِينَ﴾ مهطعين إلى الداعي أي مسرعين إليه استسلاماً وانقياداً وخضوعاً وذلة ﴿مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾ فسروا إقناعهم رؤوسهم برفعها ولكن الإشكال فيه أن الخوف والذلة وانحلال القوى من شدة الخوف يستدعي إمالة الرؤوس إلى أسفل.

وقد قال في (الصحيح): «وأقنع البعير: إذا مدَّ رأسه إلى الحوض ليشرب، وأقنعت الإناء إذا أملتته لتصب ما فيه واستقبلت به جريرة الماء ليمتلي، قال الراجز - يصف ناقته - : تُقْنَعُ لِلجَدُولِ منها جَدُولًا.. شَبَّهَ فَاها وحلقها بالجدول تستقبل به جدولاً إذا شربت» انتهى.

قال الشيرفي في (المصابيح) في قول الله تعالى: ﴿مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾: «أو معناه: ناكسي رؤوسهم بلغة قريش، قال الحسين بن القاسم عليه السلام: يريد خاضعين مرخين لرؤوسهم - قال - : وقد قيل إن المهطع: هو الرافع، وهذا خلاف قول السلف صلوات الله عليهم، والإقناع مأخوذ من القناع وتقنيع الرأس إنما يراد به ستره لا رفعه، وإنما يقنع رأسه من يريد التغطي والتذلل، وكذلك إقناعهم رؤوسهم: هو تغطية وجوههم بنكس رؤوسهم إلى الأرض» انتهى.

وفي (المصابيح) أيضاً في تفسير (سورة اقتربت الساعة): «عن الهادي عليه السلام: ﴿خُشَعًا أَبْصَارُهُمْ﴾ [آية: ٧] أي يوم يدع الداع تراهم خشعاً، معنى خشعاً: فهي مغضوضة لا يرفعون رؤوسهم، ولا يمدُّون أبصارهم أمامهم من الفزع والخوف والإيقان بالبلاء العظيم» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ أي أن أعينهم لا يغمضونها بل لا تزال مفتوحة لشخصها، والطرف غطاء العين الذي يغطيها عند النوم وعند غمض العين، قال الراغب: «وطرف العين: جفنه» انتهى من تفسيره لـ (مفردات القرآن).

وقوله تعالى: ﴿إِلَيْهِمْ﴾ كأن انفتاح الجفون بسبب أن الرعب والفزع قد غلب عليها وخرجت عن اختيار صاحبها فكانها مأخوذة عليهم لأنه قد اضطرها الفزع إلى الانفتاح.

وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نَّحِبَّ دَعْوَتِكَ وَتَتَّبِعِ الرَّسُولَ ۖ أَوْلَمَ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِّنْ قَبْلُ مَا لَكُم مِّنْ زَوَالٍ ﴿١١﴾ وَسَكَنتُمْ فِي مَسْكِنٍ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ

وقوله تعالى: ﴿وَأَفْعِدْتُهُمْ هَوَاءً﴾ أي خالية من الألباب، كقوله تعالى: ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ﴾ [الحج: ٢] وكقوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارَغًا﴾ [القصاص: ١٠] شبه اللب بالجسم مثل لب الحبة، فاعتبر ذهاب اللب فراغاً للـفؤاد، فلذلك جعلت هواء مع أنها مملوءة بالرعب والخوف.

﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نَّحِبَّ دَعْوَتِكَ وَتَتَّبِعِ الرَّسُولَ ۖ أَوْلَمَ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِّنْ قَبْلُ مَا لَكُم مِّنْ زَوَالٍ﴾ ذكر في الآية الأولى هول يوم القيامة وفزع الظالمين ولم يذكر فيها العذاب وإن أفادته.

ففي هذه الآية ذكر إتيان العذاب ففيل: المراد به عذاب عاجل عام ينجو منه المؤمنون، والدليل على ذلك: قول الظالمين: ﴿رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ فهذا يناسب أنهم ما زالوا في الدنيا؛ لأن أهل الآخرة إنما يطلبون الرد لا التأخير، قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَالَيْتَنَا نُرَدُّ﴾ [الأنعام: ٢٧] وقال تعالى: ﴿يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ..﴾ إلى قوله: ﴿.. أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ﴾ [الأعراف: ٥٣].

أما من كان في الحياة الدنيا فإنه يطلب التأخير، قال تعالى: ﴿مِن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولُ رَبُّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ [المنافقون: ١٠] ويشكل على هذا التفسير آخر الآية التي ترد عليهم طلب التأخير ﴿أَوْلَمَ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِّنْ قَبْلُ مَا لَكُم مِّنْ زَوَالٍ﴾ لأن هذا العذاب لم ينزل في عهد الرسول ﷺ في وقت نزول الوحي فيقال لهم ذلك الجواب، وبعد وفاة الرسول ﷺ قد انقطع الوحي.

وظاهر الآيتين: أن الله تعالى يجيب عليهم بما ذكر في الآيتين، أما في الآخرة فذلك واقع الاحتجاج عليهم، كقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِّخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ [فاطر: ٣٧] ويشكل عليه - أيضاً - قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ فإنه إما أن يراد به ما لكم من زوال من الدنيا، أو ما لكم من زوال من بطن الأرض بعد الموت، والأول لا نعلمهم أقسموا أنهم لا يزولون من الحياة الدنيا، وكيف يقسمون وهم مقرون بالموت؟

قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتْ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ [مريم: ٦٦] فبقي أنهم أقسموا ما لهم من زوال من بطن الأرض، وهذا قد حكاه الله عنهم في قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ [النحل: ٣٨] ولو قال: أقسمتم ما لقوتكم من زوال لساغ تفسيره بأنهم أقسموا لا يزالون في قوة وأنهم لن يغلبوا.

فأما تفسير قوله تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ بنفي ذهاب القوة والعزة فخلافاً للظاهر؛ لأن ذلك لا يسمى زوالاً للأشخاص وإنما يقال: زالت قوتهم، فظهر أن قسمهم معناه أنهم لا يبعثون فكأنه قيل لهم ذلك لأنه تكذيب للنذير الذي جاءهم مصحوباً بالبينة، فهو يذكر جريمتهم العظيمة.

فأما قولهم: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ فيمكن أن يطلبوا تأخيرهم في الآخرة ليعملوا، ومعناه: إنظارهم بتأخير العذاب الذي قد أتاهاهم، وقد نفاه الله بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ [النحل: ٨٥].

لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ ﴿١٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا مَكَرَهُمْ

قال الشرفي في (المصاييح): «قال في (البرهان): وهذه فيمن ظهر له الحق في الآخرة فأراد أن يستدرك فارط ذنوبه، وليست الآخرة دار توبة فتقبل توبتهم، كما ليست دار تكليف فيستأنف تكليفهم» انتهى المراد.

وعلى هذا: يكونون طلبوا الإمهال في الآخرة ليعملوا فيها يجيئوا دعوة ربهم ويتبعوا رسله كلهم بدلاً من تكذيبهم كلهم أو بدلاً من تكذيب بعضهم.

﴿١٥﴾ وَسَكَنْتُمْ فِي مَسْكَنَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ ﴿١٦﴾ وهذا خطاب لمن في عهد رسول الله ﷺ أولهم ولمن بعدهم يذكر لهم ما شاهدوا من آثار الأمم الظالمة التي نزل بها العذاب مثل قوم لوط فمساكنهم تذكر بهم وبما نزل بهم، وفي ذلك عبرة لهم أي لمن في حياة الرسول ﷺ ولمن بعدهم تدلهم على أن الله لم يهمل عباده وأنه يعاقب المجرمين، كما قال تعالى في سياق إثبات يوم الفصل ﴿أَلَمْ تُهْلِكِ الْأُولِينَ * ثُمَّ نَتَّبِعُهُمُ الْآخَرِينَ * كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ [المرسلات: ١٦-١٨].

وقوله تعالى: ﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ أي كيف عذبناهم، وقوله تعالى: ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ﴾ أي في القرآن وعلى لسان الرسول ﷺ فقد بين لهم ما يوجب إجابة دعوته واتباع الرسل في الدنيا ولم يقبلوا، وجاءت الأمثال زيادة في إيضاح الحق، مثل قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ [العنكبوت: ٤١] ومثل قوله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ﴾ إلى قوله: ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ [يس: ١٣-٢٩] ومثل قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ﴾ [الزمر: ٢٩] وقوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا﴾ الآية [النحل: ٧٥] وقوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ﴾ الآية [النحل: ٧٦].

وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴿١٧﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴿١٨﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ

﴿١٧﴾ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ أفادت الآيات الماضية أنهم يعملون ما يوجب عليهم العذاب في قوله تعالى: ﴿عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ وعطف في هذه الآية بيان بعض ما يعملون، فقال ﴿وَقَدْ مَكَرُوا﴾ أي احتالوا لإبطال أمر الرسول ﷺ ودبروا إما قتله وإما غير ذلك من كيدهم.

﴿وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾ لا ينساه ولا يضيع جزاءه ولا يهمله بل هو محفوظ في كتاب وفي علمه تعالى ﴿وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ﴾ لشناعته وقبحه وكونه ضد الحق جملة وضد رسالة الرسول جملة يحق له أن تزول منه الجبال إنكاراً له وضعفاً عن تحمله، فقوله تعالى ﴿لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ كأنه قيل: وإن مكرهم كان لتزول منه الجبال أي أنه سبب لزوالها لولا حفظ الله لها؛ لأن ذلك هو الذي يليق به لشناعته، كقوله تعالى: ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًا * أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾ [مريم: ٩٠-٩١].

﴿١٨﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ ﴿١٧﴾ ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ﴾ هي مثل ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ﴾ وقد مرت ﴿مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ﴾ فهو يتقدس عن ذلك، وكيف يخلف وعده بنصره رسله على أعدائه الماكرين ضد أمره، وهو عزيز لا ينال، وإهمالهم وترك جزائهم ينافي عزته لأنهم سعوا في أرضه فساداً وحاربوه فلم يتركهم يعملون جرائمهم ويمكرون برسوله إلا على شرط أنه ينتقم منهم ويجزيهم بما قدموا جزاء وفاقاً، ولولا ذلك الجزاء ما جاز في عزته وحكمته.

الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ ۖ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١١٧﴾ وَتَرَى

فقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ تعليل لقوله: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ﴾ أي لا تحسبه مخلف وعده؛ لأنه عزيز ﴿ذُو أَنْتِقَامٍ﴾ ينتقم من أعدائه أي يعاقبهم.

﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ ۖ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ ظاهر قوله تعالى ﴿تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ﴾ تبديل الأرض وجعل مكانها غيرها، وحمله على تبديل الأرض بجعل غيرها قراراً لأهلها قريب من ناحية صحة التعبير، ومن ناحية الواقع فأولياء الله يبدلون بها أرض الجنة، وأعداء الله يبدلون بالأرض جهنم، فكانت دار القرار بدل هذه الدار.

وقوله تعالى: ﴿وَالسَّمَوَاتُ﴾ أي تبدل، ومن الجائز أن تبدل بقرار للملائكة غيرها؛ وهذا لأن معنى التبديل جعل شيء بدل غيره، كقوله تعالى: ﴿فَأُولَٰئِكَ يَبْدَلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ [الفرقان: ٧٠] فقد كان جزاؤهم السيئات لو لم يتوبوا فلما تابوا صار جزاؤهم الحسنات، فكانت الحسنات بدل السيئات لأنها صارت مكان السيئات، ولا ينافي هذا بقاؤهم على الأرض في موقف الحساب؛ لأنهم يساقون منه إلى الدارين ويحكم في موقف الحساب لكل فريق بدار غير الأرض، وهذا على فرض أن الحساب يكون على هذه الأرض.

يوضح هذا: أن السموات يومئذ تمزق وتكشط، فليس التبديل في موقف العرض للحساب وتبديل السموات بسموات أخرى لا بد منه، ويحتمل أنه المراد وذلك بسموات الجنة والنار أو الجنة وحدها، أما مفهومه في الآية فهو محتمل؛ لأن تبديل السموات في الآية إن أريد به تبديلها من حيث هي مقر للملائكة فتبديلها بخلق مقر للملائكة غيرها.

وإن أريد بها تبديلها من حيث هي سماوات بالنسبة إلى الأرض، فتبديلها بسماوات للجنة، أو لها وللنار، أو لهما وللمحشر بعد تشققها وتنزيل الملائكة منها، أو للجنة والمحشر أعني الموقف وحدهما فالله أعلم أي ذلك يكون، ولا مانع أن السماوات تبدل تبديلاً جامعاً للمعنيين فيكون البدل سماوات مقرأً للملائكة دار ثواب لهم يصيرون إليها بعد نزولهم إلى الموقف وقيامهم بأعمالهم التي يؤمرون بها في الموقف.

وحاصل هذا الكلام في تبديل الأرض: أنها تبدل بأرض الجنة ودركات جهنم، والأولى أن تبديلها يكون بذلك وبموقف الحساب.

قال القاسم عليه السلام في تفسير (إذا زلزلت): «تأويل إخراج الأرض لأثقالها فهو طرحها لما كان عليها من أحمالها - ثم قال - : وكيف لا تكون مخرجة لهم منها وكلهم فمنتقل إلى دار القرار عنها، وأرض الحياة الدنيا فأرض بائدة فانية، وأرض دار القرار خالدة باقية، ومن أثقال الأرض من في قبورها ومن كان من الموتى على ظهورها فمن كل ذلك طائفة تتخلى من قبل أن تببد وتبلى» انتهى المراد.

وحاصل الكلام: أن الأرض تتخلى من أهلها بإخراجهم عن ظهورها إلى دار القرار، وفسر عليه السلام بهذا المعنى قول الله تعالى: ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ [الإنشاق: ٤] قال عليه السلام: «تأويل ذلك: أوحشت الأرض من أهلها وأخلت، فنشر موتاهم نشرأ، وحشر الموتى إلى الموقف حشرأ» انتهى المراد، فظهر: أن تبديل هذه الأرض يكون بأرض الموقف وأرض الجنة ودركات النار.

وقوله تعالى: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ﴾ أي ظهوروا في موقف العرض على الله والحساب، برزوا لله ليسألهم ويحاسبهم، ويحكم فيهم بما شاء.

الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿١١﴾ سَرَابِيلُهُمْ مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ

فإن كان الضمير للناس كلهم أي لأهل هذه الأرض الفانية فهو بيان لحالهم عند تبديل الأرض، باعتبار أولها وخروجهم من هذه الأرض، وإن كان الضمير خاصاً بالظالمين لأن السياق فيهم فهو ابتداء للكلام في إنجاز وعد الله لرسله فيهم.

وقوله تعالى: ﴿الْوَّاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ يبين أنه تعالى هو الذي يسألهم ويحكم فيهم وحده، وأنه واحد غير متعدد، وهو رد على من جعله ثلاثة وتوهم أن عيسى يومئذ يشفع له وأنه شريك لله تعالى في إلهيته، فالآية هذه تقطع طمعهم وتنفي دعواهم التثليث.

وقوله ﴿الْقَهَّارِ﴾ فيه دلالة على كثرة قهره وهو غلبته وإذلاله لأعدائه، وقد تكرر منه القهر لهم في الدنيا ويكون في الآخرة أشد وهو القاهر فوق عباده عموماً قهراً مستمراً، فأما المتكرر الذي عبر عنه بمثال المبالغة فالظاهر أنه قهره لأعدائه بتعذيبهم - والله أعلم.

﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾ ﴿الْمُجْرِمِينَ﴾ الذين أجزموا في الدنيا أي فعلوا الجرائم وهم الظالمون كلهم، وقوله تعالى: ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾ أي يقرن بعضهم إلى بعض في صفد واحد.

قال في (الصحيح): «وقرنت الشيء بالشيء: وصلته به، وقرنت الأسارى في الحبال شدد للكثرة، قال الله تعالى: ﴿مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾» انتهى. وفي (تفسير الإمام زيد بن عليه عليه السلام) للأصفاد: «السلاسل والأغلال» انتهى. وفي (مفردات الراغب): «الصفد والصفاد: الغل، وجمعه: أصفاد، والأصفاد: الأغلال، قال تعالى: ﴿مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾» انتهى.

﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ هَذَا بَلَّغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذِرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ

فأما (صاحب الصحاح) فجعل الأصفاد القيود سواء كانت أغلالاً أم غير الأغلال، وكأنه يجعل الغل خاصاً بقيد العنق، فإنه قال: «والصفاد: ما يوثق به الأسير من قَدٍّ وقيد وغُلٍّ، والأصفاد: القيود» انتهى.

﴿سَرَابِيلُهُمْ مِّنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهُهُمُ النَّارُ﴾ ﴿سَرَابِيلُهُمْ﴾ جمع سربال وهو القميص، والراجع عندي - والله أعلم - : أن هذا القطران عصارة تخرج من أجسادهم عند احتراقها تسود من النار، فتكون كالقطران الذي يؤخذ من الشجر بواسطة إحراقها، وقد قال تعالى: ﴿قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّنْ نَّارٍ﴾ [الحج: ١٩] وفي (معلقة عنتره) يذكر إقدامه بفرسه:

ما زلت أرميهم بشجرة نحره ولبانه حتى تسربل بالدم

وقوله تعالى: ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهُهُمُ النَّارُ﴾ إشارة إلى أن أيديهم مقيدة لا يتقون بها عن وجوههم النار مع أنها تغشاهم كلهم، قال تعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُونُ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ﴾ الآية [الأنبياء: ٣٩].

﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ أي يعذب المجرمين ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ ولا يخص بالجزاء بعض الأنفس؛ لأن الحكمة تقتضي جزاء المسيء بإساءته كما تقتضي جزاء المحسن بإحسانه ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ فلا يغفل عن سيئة ولا ينساها ولا يقصر جزاؤه لأحد على بعض ذنوبه دون بعض ولا يحتاج في علمه بجملة المعاصي ومقدار المستحق عليها إلى نظر وتفكير بل يعلم الجملة كما يعلم كل واحدة من السيئات وحدها وكذلك الحسنات لأنه علام الغيوب.

﴿٤٢﴾ هَذَا بَلَّغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَلِيَذْكُرُوا
أُولَئِذَا الْأَلْبَابِ ﴿٤٣﴾ هَذَا الْقُرْآنُ ﴿٤٤﴾ بَلَّغٌ لِلنَّاسِ يُلْغِيهِمْ بِهِ الْإِنذَارَ وَالتَّبْشِيرَ
والتَّحْذِيرَ مِنَ الشَّرِّ وَالضَّلَالَاتِ الَّتِي هُمْ فِيهَا لَتَقُومَ بِهِ الْحُجَّةُ عَلَيْهِمْ
وَيُخْرِجُوا مِنَ الْغَفْلَةِ الَّتِي لَا يَعَذِّبُ اللَّهُ أَهْلَهَا إِلَّا بَعْدَ الْبَلَاغِ، وَدَلِيلَ عَلَى
الرَّسُولِ مِنَ اللَّهِ وَكُلِّ الْهُدَى ﴿٤٥﴾ وَلِيُنذَرُوا بِهِ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ؛ لِأَنَّ الْإِنذَارَ
بِهِ قَاطِعٌ لِلْعَلَّةِ مِنْ حَيْثُ أَنَّهُ مُعْجَزٌ يَتَّبِعُ بِإِعْجَازِهِ أَنَّهُ كَلَامُ اللَّهِ ﴿٤٦﴾ وَلِيَعْلَمُوا
بِهَذَا الْقُرْآنِ ﴿٤٧﴾ أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ ﴿٤٨﴾ كَذَلِكَ لِأَنَّهُ مُعْجَزٌ يَتَّبِعُ بِإِعْجَازِهِ أَنَّهُ كَلَامُ
اللَّهِ أَصْدَقُ الْقَائِلِينَ، وَهُوَ مُبْطِلٌ لَزَعْمِهِمْ أَنَّ اللَّهَ يَشَاءُ مِنْهُمْ الشَّرَّ وَيَرْضَاهُ،
وَفِيهِ الْإِحْتِجَاجُ الْكَامِلُ لِإِبْطَالِ شُرُكِهِمْ.

وقوله تعالى: ﴿وَلْيَذْكُرُوا الْأَلْبَابَ﴾ ليتذكر أهل العقول ما نسوه مما
يهم العقلاء من أمر دينهم وغفلوا عنه من معرفة ربهم وعبادته، فقوله تعالى
﴿وَلِيَعْلَمُوا﴾ ﴿وَلْيَذْكُرُوا﴾ بيان لمقاصد قصدت بهذا القرآن وأنزله الله لأجلها
لشدة حاجة الناس إليها فهو رحمة من الله وفضل على عباده وحجة
﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢].

والحمد لله رب العالمين



التيسير في التفسير



سورة الحجر



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْءَانٍ مُبِينٍ ﴿١﴾ رَبُّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمْلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ

تفسير (سورة الحجر)

قال الشرفي: «مكية باتفاق القراء»

﴿١﴾ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الرَّ ذكر كلام في هذه الأحرف التي في أوائل بعض السور في تفسير (سورة المص).

﴿تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْءَانٍ مُبِينٍ﴾ إذا كانت الإشارة إلى الأحرف فمعناه فيما أرى والله أعلم أنها أصل آيات الكتاب أوحاه الله إلى نبيه بحروفه ليس مجرد المعنى، أو أوحاه الله بالحروف التي تستعملها العرب في كلامها فليأت الكفار بمثله إن كانوا صادقين والله أعلم، وكذلك مرّ تفسير الكتاب.

أما قوله تعالى: ﴿وَقُرْءَانٍ﴾ فهو عطف صفة على صفة والموصوف واحد كقول الشاعر:

هو الملك القرم وابن الهمام وليث الكتيبة في المزدحم

فالقرآن باعتبار أنه يقرأ ويتلى والكتاب باعتبار أنه يكتب ويحفظ بالكتابة. وقوله تعالى: ﴿مُبِينٍ﴾ أي بين الدلالة واضح لا لبس فيه، فهو مفهوم للعرب الذين نزل بلسانهم، وبه تقوم الحجة عليهم في إعجازه وفي إنذاره، وتبشيره بالآخرة والعقاب والثواب.

﴿رَبُّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ قال الراغب: «رُبَّ لاستقلال الشيء ولما يكون وقتاً بعد وقت». وقال في (لسان العرب): «رُبَّ وضعت للتقليل» انتهى.

﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرِيَةٍ إِلَّا وَهِيَ كِتَابٌ مَعْلُومٌ﴾ ﴿١﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا
وَمَا يَسْتَخِرُونَ ﴿٢﴾ وَقَالُوا يَتَأْتِيهَا الَّذِي نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٣﴾

﴿يُودُ﴾ أي يحب ويتمنى في نفسه ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالرسول والقرآن
المبين الذي علموا أنه معجز يودون في بعض الحالات ﴿لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾
لأنهم علموا أن الإسلام الحق ورأوا تتابع النصر للرسول ﷺ وإظهار الله
لدينه، ولكن هذا خاطر يخطر ببال الواحد منهم ويمنعه حب الدنيا
والتعصب للأباء، وهذا التفسير قريب مما حكاه الشرفي في (المصابيح) عن
محمد بن القاسم بن إبراهيم (عليه السلام)، وقد تركت نقله لأن فيه غلطاً من
الناسخ، فأما في الآخرة فإنهم يتمنون أن يُردُّوا ويكونوا مؤمنين محسنين،
وودهم لو كانوا مؤمنين كثير غير قليل.

﴿ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْمَلُونَ﴾ ﴿٤﴾ ذَرَهُمْ
مثل دعهم واتركهم ﴿يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ﴾ ولعل هذا قبل
الأمر بقتال المشركين والمراد أن لا يتعب نفسه في مطالبتهم بالإسلام،
وتكرار الاحتجاج والتفكير في وسيلة تحملهم على الإسلام.

وقوله تعالى: ﴿يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ﴾ يبين أنهم ليسوا بأهل
للنظر الصحيح وتدبر قول الناصح واستعمال العقول؛ لأن همهم الشهوات
والأغراض الدنيوية، وليس همهم النظر لأنفسهم إذ قد جاءهم النذير، فهم
في الأكل والشرب والإلتهاة بطول الأمل في الحياة وأغراضها واغترار بذلك
حتى يموتوا ﴿فَسَوْفَ يَعْمَلُونَ﴾ ضلالهم وسوء تدبيرهم لأنفسهم حين يرون
العذاب، أو فسوف يعلمون حين يرون العذاب العاجل.

﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ﴾ ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ﴾ من القرى التي أهلكهم الله من قوم نوح وعاد وثمود ومن بعدهم ﴿إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ﴾ أي كتاب لأجلها ﴿مَّعْلُومٌ﴾ حده وقدر مدته أي أن الله لم يهلك قرية قبل أن يجعل لها أجلاً فيه تقام الحجة عليهم وينذرون بالعذاب ويوعظون ويمهلون عرضاً لهم على النظر في النذير وما جاء به من الآيات فذلك هؤلاء المكذبون المعاندون لم نؤخر إهلاكهم إلا لأجلهم، لا لأننا نهملهم يكذبون بآيات الله ويحاربون دين الله ويعاندون الحق.

﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَخِرُونَ﴾ ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا﴾ ما تسبق أي أمة صغيرة أم كبيرة ضعيفة أم قوية ما تسبق أجلها المكتوب لها والأجل هنا موعد هلاكها، فهي لا تسبق إلى الهلاك قبله ونسبة السبق إليها؛ لأنها هي سببت له بأعمالها، ويحتمل ما تسبقه ما تفوته، كقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَلَا مَا يَحْكُمُونَ﴾ [المنكوت: ٤٤] وعلى هذا فالمعنى: لا تنجو أمة عند إتيان أجلها ﴿وَمَا يَسْتَخِرُونَ﴾ بأن يتأخر هلاكهم عن وقت أجلهم إلى وقت بعده بقوة لهم أو حيلة أو أي وسيلة.

﴿وَقَالُوا يَتَّبِعُنَا الَّذِي نَزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ ﴿يَتَّبِعُنَا﴾ نداء مؤكد بالتنبيه مناسب لدعواهم أنه مجنون، وقولهم: ﴿الَّذِي نَزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ﴾ أي القرآن تهكم بالرسول، كقول فرعون: ﴿إِنْ رَسُولُكُمْ أَلَيْسَ أَرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء: ٢٧] تشابهت قلوبهم.

وقولهم: ﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ دعوى مؤكد بـ(إن) واللام وجعلها جملة اسمية وهي عناد واضح وجهل فاضح؛ لأنهم في كفرهم واستهزائهم متعرضون لأخذة العزيز المقتدر ومزادون عذاباً في النار، وكلامهم واضح البطلان؛ لأنهم تكلموا به في أرجح الناس عقلاً وأكملهم حِلماً، ونطقه بالحق والحكمة يبين كذبهم وعنادهم.

لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَكَةِ إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنْزِلُ الْمَلَكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾

﴿٧﴾ لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَكَةِ إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧﴾ ﴿لَوْ مَا﴾ بمعنى هلاً ﴿تَأْتِينَا﴾ فهو حث على أن يأتيهم ﴿بِالْمَلَكَةِ﴾ إن كان صادقاً في دعواه نزول القراءان عليه وكلامهم مجرد اقتراح بلا حجة؛ لأن صدقه لا يتوقف على أن يأتيهم بالملائكة إنما يتوقف العلم بصدقه على الإتيان بالحجة، وقد أتى بها ولكنهم جحدوا الحق الواضح.

﴿٨﴾ مَا نُنْزِلُ الْمَلَكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ ﴿٨﴾ ﴿بِالْحَقِّ﴾ بأمر الله، قال تعالى حاكياً عنهم: ﴿وَمَا نُنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ﴾ [مريم: ٦٤] وأمر الله لا يكون إلا بما فيه الحكمة، ولم يكن من الحكمة إنزالهم لمجرد اقتراح الكفار الذين ليس لهم حق في نزولهم؛ لأنها تكفيهم الآيات الدالة على أنه صادق ﴿وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ﴾ لو نزلت الملائكة لما أنظرهم الله بل لعاجلهم بالعذاب.

﴿٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ ﴿إِنَّا نَحْنُ﴾ إن الله بعظمته وجلاله وحكمته ورحمته أنزل ﴿الذِّكْرَ﴾ على محمد، فهو دليل على أن محمداً من الصادقين، وأنه غير مجنون لأن الله الحكيم أعلم حيث يجعل رسالاته ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ فهو باق لأنه حجة الله على عباده تولى سبحانه وتعالى حفظه ليكون نذيراً للأولين والآخرين ﴿هَلْئِلْ لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُلَى﴾ [البقرة: ١٨٥] ولأن الله حفظه فلا يزيد ولا ينقص ولا تبديل لشيء منه ولا تحريف.

ولم يتمكن أعداء الإسلام من تغيير شيء منه بحيث يخفى على المسلمين ويبقى فيه؛ ولذلك لما كتب اليهود (ومن يبتغ الإسلام ديناً) افتضحوا بسرعة

﴿كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ ﴿نَسْلُكُهُ﴾ ندخله أي ندخل
الذكر الذي هو القرآن ﴿فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ الذين قابلوه بالإجرام
والعناد فكما أرسلنا ﴿فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ﴾ لإقامة الحجة عليهم وكذبوا رسلهم
أنزلنا القرآن ونسلكه في قلوب المجرمين لتقوم به الحجة عليهم بمعرفة قلوبهم له.

وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾

﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ نسلكه في قلوب المجرمين حال كونهم لا يؤمنون لأن كونهم لا يؤمنون به لا يمنع إقامة الحجة عليهم، كما قال تعالى في (سورة الزخرف): ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ * وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ * وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ * فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴾ [آية: ٥-٨].

قال الشرفي في (المصابيح): «وفي هذه الآية يقول الهادي عليه السلام: معنى ﴿نَسْلُكُهُ﴾ فهو ندخله ونثبت في قلوبهم حتى يوقنوا به - وتثبته له في قلوبهم فهو الحجة النيرة البالغة نزلها مع نبيه عليه السلام حتى يثبت بها الحق عليهم وتشهد عقولهم أنه حق، فإذا كابرُوا بعد إثبات الحق نزل بهم العذاب، وذلك قوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾».

وأما قوله: ﴿وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ فهو منهاجهم وسبيلهم، والمعنى الذي هلكوا به فهو التكذيب بآيات الله» انتهى.

وقوله: (فهو) لعل الأصل (وهو) التكذيب بآيات الله يعني أنه سنة الأولين، والأرجح: أن سنة الأولين سنة الله في الأولين؛ لأنه تعالى قد ذكر استهزاءهم برسلمهم ولم يذكر هلاكهم، ولو كان المراد بستهم طريقتهم في التكذيب لكفى قوله تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ وإذا كان المراد بسنة الأولين سنة الله فيهم كانت فيه فائدة جديدة، وهذا المعنى حكاه الشرفي عن (البرهان) أحد احتمالين: الأول: هذا، والثاني: «لا يؤمنون برسلمهم» انتهى.

وعلى كون سنة الأولين إهلاكهم قرناً بعد قرن وأمة بعد أمة، تكون هذه الآيات مثل الآيات من (سورة الزخرف) ففيها تسليّة لرسول الله محمد ﷺ وتخويف للمكذّبين به.

﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ أي أنهم معاندون مستمرّون فلو فتح الله باباً من السماء فوقهم يقابل جهتهم ومكانهم ليصعدوا فيه ﴿فَظَلُّوا﴾ الظلول في النهار فهم فيه يصعدون في ضياء النهار حين يرون السماء وآياتها التي لم يكونوا يرونها من الأرض، و(العروج): الصعود إلى جهة فوق.

﴿لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ أي لحدوا طلوعهم في باب السماء ونفوا الرؤية له، وقالوا: ﴿إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَرُنَا﴾ وخيّل لها ما يخيّل للسكران.

قال في (الصحيح): «والمسكر: المخمور» انتهى.

هذا المعنى هو المناسب للسياق، وقد حكى الشرفي في (المصابيح) عن الحسين بن القاسم عليه السلام أنه قال: «أراد - عز وجل - بهذا القول أنهم كابروا عقولهم، فهم لا يوقنون حتى لو أطلعهم إلى السماء لقالوا: ما طلّعنا، ولكن سكرنا حتى عميت من السكر أبصارنا، ولكن قد خدعنا وسحرنا حتى أعمينا وسكرنا» انتهى.

وتفسير السكر: بأنه أدى إلى تخيّل غير الواقع أولى من تفسيره بأنه أدى إلى عمى البصر ونفى الرؤية بالكلية، وهو المناسب لقوله: ﴿بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ فإن السحر يؤدي إلى تخيّل خلاف الواقع، قال تعالى: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾ [طه: ٦٦] وكذلك السكر.

وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴿١١﴾ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴿١٢﴾ إِلَّا مِنْ أَسْفَرِ السَّمْعِ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ ﴿١٣﴾

قال الشاعر يصف السكر:

كأن الديك ديك بني غير أمير المؤمنين على السرير

﴿١١﴾ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٢﴾ ﴿بُرُوجًا﴾ منازل الشمس والقمر، وفيها دلالة على الخالق القادر العالم؛ لأن الشمس تنزل فيها بتوقيت وتحديد محكم لا يتغير كما تتغير الساعة المصنوعة بل هو باق على إحكامه ونظامه لفصول السنة على طول الزمان، تنزل الشمس في البروج فتقطع كل برج في شهر، وتقطع البروج الإثني عشر في سنة، والقمر يقطعها في شهر.

وقوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾ أي وزينا السماء للناظرين إليها فهم إذا نظروا إلى السماء فوقهم رأوا زينتها التي هي الكواكب، وفي هذا دليل على قدرة الله وعلمه؛ لأن صنع الكواكب فيه آيات منها كثرتها وكونها مشرقة وكونها مسخرة في سيرها على نظام محدد ولا تتصادم ولا تتغير أشكالها التي بها تعرف وتسمى بأسمائها حتى تعرف بها الأوقات كما تعرف بالساعة المصنوعة ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [الأنعام: ٩٦].

﴿١٢﴾ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴿١٣﴾ أي وحفظنا السماء ﴿مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ يرجم بالكواكب إذا طلع لاستماع ما تقول الملائكة ليبلغه إلى الكاهن ليدعي علم الغيب ويعتقد فيه ذلك فحفظ الله السماء منهم برجمهم بالشهب.

﴿١١﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوْسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ
﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا

﴿١٤﴾ إِلَّا مَنْ أَسْتَرَقَ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ﴾ الإستراق: الأخذ
بخفيه لما يخطفه الشيطان، وهذا بتمكين الله لهم ولو شاء ما غفل الحرس
عنهم لحظة واحدة، وفي آية: ﴿إِلَّا مَنْ خَطَفَ الْخُطْفَةَ فَاتَّبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾
[الصفات: ١٠] فهي خطفة يخطفها بسرعة فيطرده الشهاب وهو شعلة من نار.

وقوله: ﴿مُبِينٌ﴾ يراه الناس في الليل حين ينزل بسرعة، ولعل الكواكب
لا تزال مشتعلة كالشمس فتؤخذ الشعلة منها من نارها أو هي تنقذ
وتؤخذ منها بالقدح والله أعلم، وفي نزول الشهاب آية تدل على فاعل
الرمي بها من فوق إلى أسفل، ولولا ذلك لكان من شأنها أن تصعد كما
نرى النار تصعد، ونسب الإستراق إلى السمع، لأن غرض الشيطان سمع
كلام الملائكة، وحرس السماء تمنع الشياطين من دخولها ومن الحصول بحيث
يسمعون الملائكة، لكن يسترق الشيطان السمع خلسة فينتبهون له ويرمونه
بالشهاب بعد أن قد خطف الخطفة.

﴿١٥﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوْسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ
مَّوْزُونٍ﴾ ﴿مَدَدْنَاهَا﴾ أوسعنا ساحتها وأطولنا مسافاتهما وكأنه تشبيه بمد
البساط وفرشه تعبيراً عن سهولة ذلك في قدرته، أي جعلها عظيمة واسعة،
كما قال تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوْسِيَ﴾ والرواسي: هي الجبال الراسيات كأنه
تعالى ألقاها في الأرض إلقاء؛ لأنها متخللة للأرض راسبة أسافلها في
الأرض، وإلقاء الشيء طرحه بلا إمساك له حتى يقع، فقوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا
فِيهَا رَوْسِيَ﴾ تمثيل بطرحها مع ثقلها بحيث ترسخ في الأرض.

عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٦٨﴾ وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاحٍ فَأَنْزَلْنَا مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴿٦٩﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾ أي أنبتنا في الأرض من كل زوج كريم بمقدار محدود، فذكر سبحانه دلائل قدرته وعلمه بخلق السماء وبالبروج وتزيينها بالكواكب وبخلق الأرض ومدّها وإلقاء الجبال الرواسي فيها وإنبات نباتها الذي هو نعمة للإنسان وغيره وجعله بمقادير محدودة في علمه وحكمته.

﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ﴾ ﴿مَعِيشَ﴾ ما به تعيشون وتبقون في الحياة حتى تموتوا أو تقتلوا، وذلك الطعام والشراب واللباس والفراش والمساكن والهواء الذي يحيى فيه الإنسان بالتنفس والأدوية وغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ﴾ جعلنا لكم في الأرض من لستم له برازقين والأقرب أنهم الحفظة فهم يحفظوننا ولا نرزقهم، وقد فسر بالخدم من العبيد والأولاد، ويشكل عليه قوله تعالى: ﴿فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ﴾ [النساء: ٨] فالإنفاق عليهم رزق في اللغة ونفيه مجاز.

﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ لما ذكر سبحانه المعاش في الأرض وهي مقدرة يتلى فيها الإنسان بالسعي وبالإقلال في بعض الحالات بين تعالى أن عنده خزائنها فلم يقدّرها لقلتها في خزائنه إنما قدرها لحكمة في التقدير، وقد قال تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٢٧] فقال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ﴾ وهذا عام لكل شيء من مخلوقاته تعالى فهو في خزائنه لا ينفد، والراجح أنه تمثيل وأن المراد أن في قدرته الزيادة على ما خلق بلا حد بدون أي مشقة حتى كأنه موجود ينزله متى شاء.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ أي بتقدير أو مقدار معلوم على ما تقتضيه الحكمة، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ يَنْزِلُ يُقَدِّرُ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ يَعْلَمُ خَيْرٌ بِصِيرٍ﴾ [الشورى: ٢٧].

﴿١٣﴾ وَأَرْسَلْنَا الرِّيْحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴿لَوَاقِحَ﴾ تثير التراب فيبلغ الجو فيصير سحابا يتولد فيه الماء الذي ينزله الله من السماء، أي من الجو الذي هو في جهة فوق، قال في (شرح المعلقات السبع) في شرح قول زهير يحذر من الحرب:

فتعركم عرك الرحي بثفالها وتلقح كشافاً ثم تُتَجَّ فتُثَمَّ

اللقح، واللقاح: حمل الولد، ثم قال (الكشاف): «أن تلقح النعجة في السنة مرتين» انتهى.

وفي (مفردات الراغب): «يقال: لِقَحَتِ الناقة، تُلْقِحُ لِقْحاً وَلِقَاحاً، وكذلك الشجرة، وألقح الفحل الناقة، والريح السحاب، قال: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيْحَ لَوَاقِحَ﴾ أي ذوات لِقَاح وألقح فلان النخل ولقحها» انتهى المراد.

وقال في (الصاح): «ألقح الفحل الناقة، والريح السحاب، ورياح لواقح، ولا يقال: ملاقح وهو من النوادر، وقد قيل: الأصل فيه ملقحة ولكنها لا تُلْقِحُ إلا وهي في نفسها لاقح، كأن الرياح لقحت بخير فلماذا أنشأت السحاب وفيها خير وصل ذلك [الخير] إليه» انتهى.

قلت: هذا تفسير لـ ﴿لَوَاقِحَ﴾ جيد لا تكلف فيه، والريح اللاقح بالخير تقابل الريح العقيم، وقوله تعالى ﴿لَوَاقِحَ﴾ مطلق يصلح تفسيره بكل ما فيها من الخير أصل المطر ولقاح الشجر أوهما وغيرهما.

تُحْيِي ۖ وَتُؤْمِتُ وَتَحْنُ الْوَارِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلَّمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلَّمْنَا الْمُسْتَغْرِبِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ تَحْشُرُهُمْ ۚ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ

وقوله تعالى: ﴿فَأَسْقَيْنَكُمُوهُ﴾ بين نعمة المطر المهمة فهو عذب يشرب منه الناس وأنعامهم وأشجارهم ومراعيهم ففيه يعيشون من حيث أن شرب الماء ضروري للإنسان، ومن حيث أن الماء ينبت الزرع وغيره مما فيه طعام الإنسان الضروري أيضا للإنسان.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَنتُمَّ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ إما معناه: أن الله أنزله من خزائنه وما لكم خزائن تنزلوه منها متى شئتم فالنفي متوجه إلى ما قبل إنزال المطر، وإما ما أنتم له بخازنين بعد نزوله لأن الله هو الذي يخزنه لكم في بطن الأرض ويخرجه لكم ينابيع من الآبار وغيره، وهو الذي هيأ لكم آلات خزنه في الخزانات سواء منها ما بني كالسدود أو حفر في الأرض وجعل له ما يحفظ فيه الماء من الإسمنت وغيره، فهو الذي خلق المواد لحفظ الماء وهي الأصل في حفظه.

والأقرب عندي الوجه الأول لأن النفي في الثاني مجاز؛ لأنه في اللغة العربية ينسب إلى صاحب الخزان حقيقة إذا جعل الماء فيه ليدخره وهذه الآيات المذكورة قد أفادت دلائل تدل على قدرة الله تعالى وعلمه وفضله على عباده من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾ فهي تدل على أن الله تعالى قادر على البعث والنشأة الآخرة وما فيها.

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي ۖ وَتُؤْمِتُ وَتَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾ وهذه من دلائل قدرته تعالى على الحياة الآخرة أيضا، وقوله تعالى: ﴿وَتَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾ أي لما خلقنا من السموات والأرض وغيرهما أي أن الناس سيهلكون ويبقى الله مالك العالم كله، فهو المالك للعالمين المتصرف فيهم كيف شاء لا شريك له.

خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢١﴾ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ
مِنْ نَّارِ السَّمُومِ ﴿٢٢﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِّنْ صَلْصَلٍ

﴿٢١﴾ ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمُ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَخْرِينَ﴾ ﴿مِنْكُمْ﴾
خطاب للأحياء فالمستقدمون منهم السابقون، والمستأخرون التابعون،
والسين تناسب حمله على التقدم الاختياري والتأخر الاختياري كأن
المستقدم طلب التقدم والمستأخر طلب التأخر، وهو صالح لكل متقدم في
أي أمر اختياري، وكل متأخر في أي أمر اختياري، ولكن يناسب السياق
المتقدم في العمل الصالح، والمتأخر فيه ليشير إلى أنه تعالى لا يضيع عمل
متقدم ولا متأخر؛ ولذلك فهو يحشرهم ويجزي كلًا بقدر عمله.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ تَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿هُوَ تَحْشُرُهُمْ﴾ وحده
لا يشاركه شركاء المشركين ﴿إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ فمن حكمته أن يحشرهم:
﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١]
ولعلمه بالمحسن والمسيء وعلمه كيف يعيدهم وعلمه بالحكمة في جزائهم
وعلمه بمقادير ما يستحقون من الجزاء وغير ذلك.

والضمير في ﴿تَحْشُرُهُمْ﴾ للناس كلهم، وبهذا تم الاحتجاج على قدرته
تعالى على البعث وتقرير أنه سيكون، وبعد هذا قصة خلق آدم ومعصية
إبليس ووعيد من اتبعه بجهنم وهي أيضاً من دلائل الآخرة؛ لأن الله تعالى لا
يترك إبليس ليغوي الناس وهو لا يجازيه ولا يجازي من اتبعه؛ لأنه حكيم
فلا بد من الجزاء كما قرره تعالى في آخر القصة.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ ﴿خَلَقْنَا
الْإِنْسَانَ﴾ أي بدأنا خلق الإنسان من طين، فالإنسان في الجملة خلق من طين؛

لأنه أصله كله والصلصال قال فيه في (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام):
«فالصلصال: اليابس الذي لم تصبه نار، فإذا نُقِرَ صَلَّ أي صَوَّت والـ ﴿حَمَلًا﴾
الطين الأسود المتغير» انتهى.

ويدل على صحة ما فسر به الصلصال قول الله تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ﴾ [الرحمن: ١٤] فأصل الإنسان طين قد ييس، وهذا الطين من حمأ، والحمأ يكون في أسفل الماء يتغير لطول مكثه في الماء، ولعل سنّه إجالته من جهة إلى جهة كأنه صب من جهة إلى جهة ليصير لازباً متيناً صالحاً لبناء جسد آدم منه كما يسن الحديد بإمراره على المسن، أو صبه بإجالته وهو رقيق من جهة إلى جهة.
قال في (شرح الشيخ محمد عبده) على قول الإمام علي عليه السلام في (صفة خلق الإنسان): «تربة سنّها بالماء حتى خلصت، ولاطها بالبلّة حتى لزبت» قال في شرحه: «سنّ الماء: صبّه، والمراد صبّ عليها أو سنّها هنا بمعنى ملّسها، كما قال:

ثم خاصرتها إلى القبة الخضراء تمشي في مَرَمَرٍ مسنونٍ

انتهى.

والراجح: أن علياً عليه السلام أراد سنّها، أي التربة أسالها بالماء من بين الحصى ونحوه، وذلك أن الماء امتزج بها فسالت معه خالصة من الحصى ونحوه، ثم صفا الماء برسوب التراب من بينه في أسفله وصار حمأ، وهذا هو المناسب لترتيب الكلام.

فأما تفسيره: بالمتغير المنتن، فلعله تفسير قوله تعالى: ﴿مِنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ أي تفسير الحمأ المسنون لا المسنون وحده، فظن بعض المفسرين أنه تفسير المسنون وحده، وأنا أستبعده؛ لأن المسنون (اسم مفعول) والمتغير المنتن (اسم فاعل) فكان مظنة أن يقال: متسنن أو متسنّه، أي متغير بمر السنين تغير وبتن بمرور السنين عليه.

فالحاصل: أن الراجح: أنه مسنون بمعنى ممتن بإجلاله من جانب إلى جانب، كما قال الإمام علي عليه السلام: «ولا طها بالبلّة حتى لزبت» وكقوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَّازِبٍ﴾ [الصفات: ١١] في لوط الجدار [أي تليوسه] بالإسمنت - والله أعلم.

فأما فائدة قوله تعالى: ﴿مَسْنُونٍ﴾ فعلى الوجه الأول: ظاهر لأنه يصير متيناً بإجلاله، وعلى الثاني تعبير عن ضعفه بكونه سائلاً لم يكن يستمسك قبل العمل فيه، وأما على ما روي عن أمير المؤمنين عليه السلام، فقائده: بيان أنه طين خالص لا يشوبه حصى ولا غيره، ويحتمل: أنه كان يجال الحمأ وهو رقيق حتى يصير متيناً، ثم يصب في مكان نظيف لا يعلق به شيء منه، فيجعل صورة إنسان يحفظ مكانه عن أن يسيل بحيث تتغير الصورة، فإذا صلب صب الحمأ عليه مرة أخرى حتى صار ذا حجم كامل مجوف، ثم ترك حتى صار صلصالاً قوياً يرنّ رنيناً إذا نقر وأعد لنفخ الروح بالتسوية المناسبة ثم نفخ فيه الروح - والله أعلم.

﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ﴾ الجانّ: مقابل الإنسان اسم للجن إلا أن الفارق أن الجن اسم جمع والجان مفرد كالإنسان، ولذلك قال: ﴿خَلَقْنَاهُ﴾ بالإنفراد للضمير، وقوله تعالى: ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ أي من قبل خلق الإنسان.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ نَارِ السَّمُومِ﴾ هي نار شديدة الحر يكون منها سموم حر شديد في الهواء المجاور لها يدخل في المسام للطافته، وذكروا أن ﴿السَّمُومِ﴾ هو الريح الحارة وهو يفيد: حر الهواء الحار أعم من أن يكون ريحاً أولاً؛ لأن السبب شدة حر النار بل حر الهواء الساكن أشد من حر الريح؛ لأن الساكن أطول مجاورة للنار الشديدة الحر، والنار المذكورة في الآية هي اللهب، كما قال تعالى: ﴿مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ﴾ [الرحمن: ١٥].

مِّنْ حَمَلٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ

﴿٢٨﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِّنْ صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَلٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أخبر الله تعالى الملائكة بأنه سيخلق إنساناً من الأصل المذكور، قال الراغب في (مفرداته): «وعبر عن الإنسان بالبشر اعتباراً بظهور جلده من الشعر... إلخ.

﴿٣٠﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٣١﴾ سَوَّيْتُهُ ﴿٣٢﴾ جعلته سوياً صالحاً لنفخ الروح فيه وبقائه حياً، ولعل معنى ذلك تصوير القلب والدماغ وسائر ما يعيش به كالعروق والدم والعصب ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُّوحِي﴾ جعلت فيه الروح، والتعبير بالنفخ دلالة على سهولة جعله كأنه مجرد نفخ، أو أن نفخه بسطه ونشره في جسد آدم بعد بلوغه القلب، كما تنفخ النار لتنتشر في الوقود ﴿قُلْ أَنْفُخُوا﴾ وإضافة الروح إلى الله لشرفه من حيث يحصل به العقل والحواس، ويحصل فيه العلم والقدرة والإرادة وقدرة الكلام وآلة الكمال؛ ولأن الله تعالى هو المالك للروح المعطى له وإذا شاء أخذه.

وقوله تعالى: ﴿فَقَعُوا﴾ (الفاء) رابطة جواب (إذا) وقوله: (قعوا) أمر من الوقوع في المكان بعد الطيران أو السير، ويقال: وقع إذا سقط فوق على الأرض، وللوقوع معنى الحصول في غير هذا السياق.

وقوله تعالى ﴿سَاجِدِينَ﴾ خاضعين تكريماً لآدم عليه السلام من حيث هو آية الله بكمال خلقه وعلمه؛ ولذلك أنف إبليس نعوذ بالله منه، وقال: ﴿هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾ [الإسراء: ٦٢] وهو غير سجد العباد لآدم بل هو سجد تكريماً لآدم وطاعة لله تعالى، ومن حيث هو طاعة لله تعالى هو عبادة لله، وقد مر كلام في السجود ليوסף عليه السلام.

يَكُونُ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَتَّبِعُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ
 ﴿٦١﴾ قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴿٦٢﴾

﴿٦٠﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٦١﴾ أَي سَجَدُوا لِأَدَمَ لَعَلَّهُمْ أَنْ
 اللَّهُ حَكِيمٌ وَأَنْ ذَلِكَ حَقٌّ وَصَوَابٌ لِأَمْرِ الْحَكِيمِ بِهِ.
 ﴿٦٢﴾ ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ ﴿أَبَى﴾ امْتَنَعَ بِشِدَّةٍ،
 قَالَ الرَّاعِبُ: «الْإِبَاءُ: شِدَّةُ الْامْتِنَاعِ» انْتَهَى.

ولشدة امتناعه من السجود امتنع وأنف من أن يكون مع الساجدين،
 وذلك كان أهون عليه مما لو كان مأموراً بالسجود فسجد وحده، بل كأنه
 خطأ الملائكة في سجودهم لآدم، ولذلك أبى أن يكون معهم سواء تخطئة
 عقلية يزعمها أو تخطئة نفسية، فالآية تبين ما في نفسه من الإباء والأنفة من
 السجود لآدم والرفض له.

﴿٦٠﴾ قَالَ يَتَّبِعُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٦١﴾ قَالَ أَي قَالَ
 اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَتَّبِعُ مَا لَكَ﴾ مَا شَأْنُكَ وَمَا حَالُكَ فِي أَنْ لَا تَكُونَ مَعَ
 السَّاجِدِينَ أَي مَا مَنَعَكَ مِنْ أَنْ تَكُونَ مَعَهُمْ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَلَّا تَكُونَ مَعَ
 السَّاجِدِينَ﴾ حَالٌ، أَي مَالِكَ فِي حَالِ كَوْنِكَ لَسْتَ مَعَهُمْ وَهُوَ سُؤَالٌ يَسْتَتِيرُ
 كَامِنُهُ الْمَنَاعُ مِنَ السَّجُودِ.

﴿٦١﴾ قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴿٦٢﴾
 ﴿لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ﴾ لَيْسَ ذَلِكَ يَلِيقُ بِشَأْنِي أَي أَنِّي أَكْبَرُ مِنْ أَنْ أَسْجُدَ لَهُ
 وَأَرْفَعُ قَدْرًا، وَعَلِقَ ذَلِكَ عَلَى كَوْنِ آدَمَ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ،
 فَنَظَرَ إِلَى أَصْلِ آدَمَ وَتَنَاسَى أَنَّهُ قَدْ شَرَفَ بِخَلْقِهِ وَنَفَخَ الرُّوحَ فِيهِ، وَمَا صَارَ لَهُ
 مِنَ الْعِلْمِ وَأَنَّهُ بِذَلِكَ قَدْ صَارَ خَلْقًا آخَرَ، فَقَدْ صَرَحَ بِاسْتِكْبَارِهِ وَمَعْصِيَتِهِ لِرَبِّهِ
 وَاعْتَرَاظَهُ عَلَى حُكْمِهِ.

قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَاجِعٌ ﴿١٦﴾ وَإِنْ عَلَيْكَ اللَّعْنَةُ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿١٧﴾
قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٨﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿١٩﴾ إِلَى

﴿١٦﴾ قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَاجِعٌ﴾ أخرج منها فهي مسجد الملائكة:
﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ [الأعراف: ١٣] والراجح: أنه كان في السماء فطرد
منها ﴿فَإِنَّكَ رَاجِعٌ﴾ ترجم بالشهب كلما حاولت البقاء أو الرجوع فيها.

﴿١٧﴾ وَإِنْ عَلَيْكَ اللَّعْنَةُ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ اللعنة هنا: الطرد من الرحمة
بسلب التوفيق للتوبة، كقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ
يَكْفُرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٨٨] فهو يبقى في كبره وإصراره إلى يوم الدين
يوم الجزاء الذي هو يوم حساب ولا عمل، فلا تقبل فيه توبة ولا تنال رجعة
إلى التكليف بالتوبة ولا إنظار للتوبة والعمل.

وأحاصل: أنه يوم الدين لا يكون إلا للدين الذي هو الجزاء، ومعنى
ذلك: أنه يصير في يوم الدين وهو ما زال في معصيته مستحقاً لجزائها
الأوفى، وقد مر بيان: أن إبليس قد كان صار من الملائكة، وإن كان أصله
من الجن وأنه لا تعارض بين ذلك.

﴿١٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ ﴿فَأَنْظِرْنِي﴾ تفريع على اللعنة
إلى يوم الدين، فيترجح به قول القاسم بن علي العياني عليه السلام: إنه طلب
الإنظار بمعنى تأخير العذاب عنه إلى يوم الدين.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال الإمام القاسم بن علي العياني عليه السلام:
وإنما سأل إبليس بالنظرة بالعذاب الذي علم أنه قد استحقه فأنظره الله جل
اسمه إلى يوم البعث ولم يكن استنظاراً للعين من موت؛ لأن الجن معمرين
خلقهم جميعاً ويميتهم إذا شاء جميعاً» انتهى.

يَوْمَ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٢٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَا أُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٣٠﴾ قَالَ هَذَا

﴿٢٨-٢٩﴾ ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ ﴿قَالَ﴾ اللهُ لإبليس: ﴿فإِنَّكَ﴾ تفريع على سؤال لا إجابة له إلى ما طلب بسبب دعائه ولكن تفريع لإخباره بأنه ﴿مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ وفي (سورة الأعراف): ﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ [آية: ١٥].

وقوله تعالى: ﴿إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ أي أنه يوم مؤجل يكون في وقت معين في علمه تعالى لا يتأخر عنه وليس مؤجلاً بدون حد معين ولذلك فأجله تنقصه الأيام والليالي بمرورها، كما قال طرفة:

أرى العيش كترأ ناقصاً كل ليلة وما تنقص الأيام والدهر ينفد

وقد قال بعض المفسرين إن المراد بالوقت المعلوم وقت ظهور الحق في الأرض وامتلائها عدلاً كما ملئت جوراً، فهو عنده في ذلك الوقت قد انتهى إنظاره وأطاع الناس كلهم، وهذا عندي بعيد؛ لأن الظاهر أن اليهودية والنصرانية باقيتان إلى يوم القيامة، لقول الله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ [المائدة: ٦٤] وقوله تعالى: ﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [المائدة: ١٤] وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ تُلَذِّنُ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ [الأعراف: ١٦٧] ولا موجب للتأويل؛ لأن الظاهر من العدل العدل بين العباد، كما أن الظاهر من الجور الجور بينهم، مع أن الظاهر في الحديث من الضمير في «بملاها عدلاً» غير محقق؛ لاحتمال أن المراد بلاد الإسلام أو بلاد العرب أو المسكونة في وقت الرسول ﷺ ولو سلم أنها الأرض كلها، فظهور الحق بغلبة أهله وقهر أعدائه، وتسليم أهل الكتاب للجزية، وحكم الإمام بينهم بما أنزل الله - والله أعلم.

وعلى هذا: فإنظار إبليس إن كان تأخير عذابه إلى يوم القيامة، وإن كان تأخير موته فالיום المعلوم يوم هلاك العالم أول القيامة أو بعده قبل إحياء الموتى - والله أعلم.

﴿قَالَ رَبِّ إِنَّمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَا أَغْوِيَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾
 ﴿قَالَ﴾ إبليس يا ﴿رَبِّ﴾ بسبب أن ﴿أَغْوَيْتَنِي﴾ أقسم ﴿لَأُزَيِّنَنَّ﴾ في قوله: ﴿أَغْوَيْتَنِي﴾ احتمال: أنه يعني أن الله أغواه لأنه كلفه السجود وهو يعلم أنه لا يسجد فكأنه يقول حملتني على الغواية حين أمرتني بما لا أستطيع لأن نفسي تأباه ولا تطاوعني عليه فهو قريب من المستحيل وكذب عدو الله فهو لو عرف ربه وأذعن لحكمته وأذعن لربوبيته لسهل عليه الأمر ولكنه استكبر واعترض على حكمة الله فغوي هو، ولو كان أمره بما لا يستطيع لما استطاع الملائكة السجود لآدم.

فقوله: ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ...﴾ إلى آخره، كالوعيد بالانتقام من آدم وذريته؛ لأنهم بزعمه كانوا سبب غوايته أو كالوعيد بصرفهم عن عبادة الله التي خلقهم لها وعن شكرهم لنعمة الله الذي يريد الله منهم كأنه يقول: بما أغويتني لأفسدن عليك عبادك، ولأصرفنهم عن عبادتك وشكرك، كأن عدو الله يتخيل أنه بذلك يفوت على ربه حاجة فيهم، وذلك غاية المحادة لله والعناد الذي يستطيعه، وهو بذلك يحقق اللعنة عليه، واحتمال أنه يعني الإغواء بلعنته إلى يوم الدين أو بمجموع ذلك؛ لأن غوايته استمرت من حين استكبر عن السجود لآدم وعزم على الإباء منه، فهي غواية مستمرة دخل في أولها ويبقى فيها إلى يوم الدين.

وقوله: ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ الأولى حمله على ظاهره فلإن بني آدم يقتتلون تارة على الأرض الحرث، وتارة على الأرض التي هي مرتع للأنعام، وتارة على الحاجر التي فيها حطب أو غيره، وذلك تابع لحبهم للأراضي،

صِرَاطٌ عَلَى مُسْتَقِيمٍ ﴿١٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٣﴾ هَآ سَبْعَةُ أَبْوَابٍ

وهو تابع لتزيين الشيطان لهم، وقد حملت على الظاهر قول الله تعالى في (سورة الأعراف): ﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٧٦] بل قد قال الله تعالى: ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ..﴾ إلى قوله: ﴿.. وَالْحَرْثُ﴾ [آل عمران: ١٤٤] فظهر: أن تفسيره بالظاهر أرجح.

وقوله: ﴿وَلَا غَوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي لأغوين آدم وذريته أجمعين. ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ﴾ استثناهم لأنه يعرف عجزه عن إغوائهم، والمخلصون: هم الصالحون الثابتون في الإيمان والتوكل، بدليل قول الله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: ٩٩] أخلصهم الله بهدأيته، فذهبت عنهم أسباب المعاصي التي هي العيوب الباطنة، كالحسد الشديد، والكبر، والبخل، وسائر العيوب التي يدخل بها الشيطان على الإنسان، فإبليس يقسم ليغوينهم إلا المخلصين الذين هم عباد الرحمن الذين عبدوا أنفسهم لله وأذعنوا بالعبودية وعلى زعمه لا يكاد ينجو منه إلا المعصومون.

﴿قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَى مُسْتَقِيمٍ * إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ ظن أن له سلطاناً عليهم كلهم إلا المخلصين، فردّ الله عليه أولاً بأن عجزه عن إغواء المخلصين طريق حكم الله بها وكتبها على نفسه؛ لأنهم بصرهم وإيمانهم وإحسانهم استحقوا من ربهم الألفاف، والتوفيق، وزيادة الهدى، فلا سبيل عليهم لإبليس، وثانياً ردّ الله عليه توهمه أن له سلطاناً على سائرهم، فقال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ أي كلهم المخلصين وغيرهم.

لِكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿١٤﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾
أَدْخُلُوها بِسَلَامٍ ءَامِنِينَ ﴿١٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ

﴿إِلَّا مَن اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ فالناس ثلاثة أقسام ذكر الله له قسمين: قسم المخلصين أفاده بقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي﴾ وقسم المتبعين لإبليس من الغاوين فله سلطان عليهم، وطوى القسم الثالث الذين ليس لإبليس عليهم سلطان ولا هم من المخلصين، وهم الذين ﴿لَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ وهذا خلاف قول إبليس؛ لأنه جعلهم قسمين: المخلصين، وغير المخلصين، فأقسم ليغوين غير المخلصين، وكأنه توهم أن له سلطاناً على غير المخلصين كلهم، وهو إن أغوى بعضهم فتابوا ليس له سلطان إلا على المتبعين له الذين لا يتوبون، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ * وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوْنَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿الأعراف: ٢٠١-٢٠٢﴾ فجعل إخوان الشياطين هذا القسم الأخير.

﴿وَأَنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ موعدهم الغاوين المتبعين لإبليس أي المكان الذي وعدهم الله أن يجعلهم فيه، وقوله: ﴿أَجْمَعِينَ﴾ يشير إلى كثرتهم وتنوعهم في اتباع إبليس.

﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ لجهنم ﴿سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾ ويمزى الله أهلها أجزاء ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ بقسمة الله تعالى ويدخله من باب معين له وذلك يشعر باختلاف شدة العذاب في جهنم وأنه تابع لاختلاف الأبواب.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ ﴿جَنَّاتٍ﴾ في الجنة وهي البساتين التي أشجارها تغطي أرضها وعيون ماء يسقي الجنات فهي خضراء أبداً، ويجتمع جمال الجنات وجمال الماء الجاري تحتها، ويحتمل عيون ماء وغيره.

سُرُّرٍ مُّتَقَبِّلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمْسُهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ *
نَبِّئْ عِبَادِيَ أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ

﴿٤٧﴾ ﴿أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ءَامِينَ﴾ ﴿أَدْخُلُوهَا﴾ كأنه يقال: لهم ادخلوها، أي الجنات ﴿بِسَلَامٍ﴾ مصحوبين بسلام، أي سالمين من كل شر وكل منغص و﴿ءَامِينَ﴾ لكل شر وكل منغص.

﴿٤٨﴾ ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَبِّلِينَ﴾
﴿وَنَزَعْنَا﴾ حاصل معناه: أخرجنا وأذهبنا، وعبارة (النزع) تشعر بتمكن ما في صدورهم حين كانوا في الدنيا من غل. في (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «معناه: من عداوة» انتهى، وهي: الحقد، والبغض الشديد الباعث على ضرر المبغوض. وفي (الصحيح): «والغل - بالكسر - الغش والحقد - أيضاً - وقد غلَّ صدره يغل بالكسر غلا، إذا كان ذا غش أو ضغن وحقد» انتهى.

قلت: والراجع: هو المعنى الثاني؛ لأن المؤمنين لا يغشون أما الحقد فيمكن أن يقع وهو يؤذي صاحبه فصدور أهل الجنة سليمة منه ليستريحوا منه، وهو يحتمل الحقد على الظلمة أهل النار. ﴿إِخْوَانًا﴾ متآلفين لا متنافرين ولا متقاطعين، ولعلها الأخوة في الله ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَبِّلِينَ﴾ على سرر متكئين على سرر متقابلين يواجه بعضهم بعضاً، وهذا مرغوب بين المتحابين ليرى بعضهم بعضاً.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال الحسين بن القاسم عليه السلام: يتقابلون الدهر جميعاً، وإنما هذا عند زيارتهم لإخوانهم ومجالستهم لأصحابهم» انتهى.

قلت: الراجع: أن لهم سرراً معدة للتقابل، فأما التحول عن السرر، فلا مانع منه لغرض آخر، ويمكن أن لهم سرراً للتقابل، وسرراً لغيره من أغراضهم، فالآية لا تمنع من ذلك؛ لأن سرراً نكرة لا تعم السرر، وكذلك يتحولون إذا مشوا أو ركبوا أو نحو ذلك.

﴿وَنَبِّهَهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾ ٥١ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ

﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ ٥٤ ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا﴾ أي في الجنات ﴿نَصَبٌ﴾ أي تعب من العناء، وهذا بخلاف جنات الدنيا فأهلها قد يصيبهم تعب من العمل فيها لإثارة الأرض مثلاً؛ لأنهم إذا لم يعملوا فيها فقد تضعف ويقل ثمرها وفي الأخير لا تثمر.

وقوله: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ﴾ أبلغ من: لا يصيبهم فهي تنفي أدنى تعب يلحقهم ﴿وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ أي باقون فيها أبداً وهذا النفي مؤكد بـ(ما) و(الباء).

﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٥﴾ أمر الله رسوله ﷺ أن ينبي عباده بهذا النبا العظيم، قال الراغب في تفسيره لـ(مفردات القرآن): «النبأ: خبر ذو فائدة عظيمة يحصل به علم أو غلبة ظن...» الخ.

فتحصل: أن النبأ: هو الخبر المهم، ومنه قول امرئ القيس:

تطاول ليلك بالإثمـد وبات الخلي ولم ترقد

إلى قوله:

وذلك من نبأ جاءني وخبرته عن بني الأسود

وقوله تعالى: ﴿عِبَادِي﴾ يعم الجن والإنس، والمراد أن يبلغهم أن الله تعالى يرحم أوليائه ويقبل التوبة عن عباده ليتوبوا ولا يقنط من قد أسرف في العصيان، وأن يبلغهم أن عذاب الله ﴿هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ ليتقوه وليعلموا أن رحمته لا تنافي عذابه؛ لأن رحمته لها أهل وعذابه له أهل وهم المجرمون الذين ماتوا مصرين.

أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٦﴾ قَالُوا بِبَشْرَتِكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ ﴿٥٧﴾ قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا

﴿٥٦﴾ وَنَبِّئُهُم عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴿٥٧﴾ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴿٥٨﴾ أَضْيَافُهُ الَّذِينَ هُمُ الْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ قَرَّبَ لَهُمُ الْعَجَلُ الْحَنِيدَ.

﴿٥٦﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٧﴾ هُنَا اخْتَصَرَ الْكَلَامَ، وَقَدْ مَرَّ فِي (سُورَةِ هُودٍ) تَفْصِيلُ الْقِصَّةِ، وَأَنَّهُ أَجَابَ سَلَامَهُمْ، وَأَنَّهُ نَكَرَهُمْ لَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَى الْعَجَلِ، فَيُؤْخَذُ مِنْ هَذَا أَنَّ الشَّيْءَ قَدْ لَا يَذْكُرُ وَهُوَ وَاقِعٌ فَلَا يَدُلُّ عَدَمُ ذِكْرِهِ عَلَى عَدَمِهِ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَجِلُونَ﴾ أَيُّ خَائِفُونَ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ قَدْ عَرَفَ أَنَّهُمْ مَلَائِكَةٌ، وَأَنْكَرَ تَرْكَهُمُ لِلْأَكْلِ مِنْ ضِيَافَتِهِ.

﴿٥٧﴾ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَظِيمٍ ﴿٥٨﴾ لَا تَوْجَلْ ﴿٥٩﴾ لَا تَخَفْ ﴿٦٠﴾ إِنَّا نُبَشِّرُكَ ﴿٦١﴾ أَيُّ رَسَلٍ مِنَ اللَّهِ ﴿٦٢﴾ نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ ﴿٦٣﴾ يُولَدُ لَكَ ﴿٦٤﴾ عَظِيمٍ ﴿٦٥﴾ يَبْلُغُ دَرَجَةَ الْعِلْمِ وَهُوَ غُلَامٌ وَعَلِيمٌ يَفِيدُ كَثْرَةَ عِلْمِهِ؛ لِأَنَّ صِيغَتَهُ مِنَ الْمَثَالِ.

قَالَ الشَّرْفِيُّ فِي (الْمَصَابِيحِ): «إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَظِيمٍ الْعِلْمِ» انْتَهَى، هُوَ يَفِيدُ: أَنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَعِيشُ حَتَّى يَبْلُغَ ابْنُهُ أَنْ يَكُونَ غُلَامًا، قَالَ الرَّاعِبِيُّ فِي (الْمَفْرَدَاتِ): «الْغُلَامُ: الطَّارِ الشَّارِبُ» انْتَهَى، يَعْنِي الَّذِي قَدْ نَبَتَ شَارِبُهُ.

﴿٥٦﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٧﴾ أَبَشَّرْتُمُونِي ﴿٥٨﴾ سَوَّالٌ عَنْ تَبَشِيرِهِمْ لَهُ بِغُلَامٍ فَهَلْ هَذِهِ الْبَشَارَةُ عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ مِنْ تَبَشِيرِهِ مَعَ كِبَرِهِ؟ أَوْ هُمْ يَبْشِرُونَهُ بِالتَّحَوُّلِ عَنْ هَذِهِ الْحَالِ الَّتِي جَرَتْ عَادَةُ الْإِنْسَانِ أَنْ لَا يُلِدَ وَقَدْ صَارَ فِيهَا ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾؟ مَعَ تَبَشِيرِي بِالْغُلَامِ، أَتَبْشِرُونِي بِرَجُوعِ الْقُوَّةِ؟ أَمْ بِمَاذَا تَبْشِرُونِي حَتَّى أَصْلَحَ لِأَنْ يَكُونَ لِي غُلَامٌ؟

الضَّالُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا

فحاصل سؤاله عليه السلام عن البشرية: أهي على حاله هذه مجردة؟ أم يضاف إليها بشارة أخرى تصيره صالحاً لأن يكون منه ولد؟ ومعنى هذا: استبعاد أن يكون له ولد وهو على حالته هذه، فأجابوه: بدفع الاستبعاد، وهو قرينة أنهم أرادوا أنه يكون له ابن وهو على حالته هذه من الضعف بسبب الكبر.

﴿٥٩﴾ قَالُوا بَشَرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَنِيطِينَ ﴿٦٠﴾ فهو الحق أنه يلد لك وأنت على هذه الحال رحمة من ربك، فلا تقنط من رحمته.

﴿٦١﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿٦٢﴾ فلا أقنط لأنني قد عرفت الله وعلمت أنه على كل شيء قدير، وأنه الرحيم ولا يقنط من رحمة ربه إلا الضالون عن طريق الحق.

﴿٦٣﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٦٤﴾ قَالَ ﴿إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ﴾ ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ﴾ وما مهمتكم التي أرسلتم بها.

قال الراغب في تفسيره (للمفردات): «والخطب: الأمر العظيم الذي يكثر فيه التخاطب» انتهى.

قد عرف إبراهيم عليه السلام أنهم جاءوا لمهمة عظيمة لا لمجرد البشرى، فسألهم عن ذلك الأمر العظيم ما هو؟

﴿٦٥﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ الْمَلَائِكَةُ ﴿قُلُوبُهُمْ﴾: ﴿إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ يفعلون الجرائم لنعذبهم، أي إلى قوم لوط.

﴿٦٧﴾ إِلَّا ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٦٨﴾ ﴿إِلَّا لُوطَ﴾ لوط وأهله.

﴿٦﴾ أَمْرَاتُهُ قَدَرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٦﴾ فَلَمَّا جَاءَ ءَالَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ﴿٦﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٦﴾ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ

﴿٦﴾ ﴿إِلَّا أَمْرَاتُهُ قَدَرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ﴾ ﴿قَدَرْنَآ﴾ قدر الله أي كتب وحكم عليها بالهلاك مع الهالكين والغابرين هنا بمعنى الماضين في الهلاك، والإتيان بضميره تعالى في ﴿قَدَرْنَآ﴾ مثل قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَخَرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ تَحْتِ شَجَرَتَيْنِ﴾ [طه: ٥٣] ولعل سببه أن كلام الملائكة (عليهم السلام) عن الله تعالى، فناسب أن يأتي الله بالضمير؛ لأن الحاكي هنا يحكي حكايتهم عنه.

وأما (صاحب الكشاف) فجعل الضمير في ﴿قَدَرْنَآ﴾ للملائكة قال: فإن قلت: فلم أسند الملائكة فعل التقدير وهو لله وحده إلى أنفسهم ولم يقولوا: قدر الله؟ قلت: لما لهم من القرب والاختصاص بالله الذي ليس لأحد غيرهم، كما يقول خاصة الملك دبرنا كذا أو أمرنا بكذا، والمدير والأمر هو الملك لا هم، وإنما يظهرون بذلك اختصاصهم، وأنهم لا يتميزون عنه» انتهى.

والسراجح عندي: هو الأول، وأن الأصل قدر الله إلا أن الله حكاه، فناسب أن يقول: ﴿قَدَرْنَآ﴾ بضميره تعالى؛ لأن المثال الذي ذكره يبعد تطبيقه على الملائكة (عليهم السلام)؛ لأن شأنهم التعبد لله، لا رفع أنفسهم إلى درجة الوزراء له تعالى.

﴿٦﴾ ﴿فَلَمَّا جَاءَ ءَالَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ﴾ * قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٦﴾ ﴿الْمُرْسَلُونَ﴾ الملائكة المرسلون لتعذيب قوم لوط، قال لوط لهم ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ وكانوا في صورة بشر، ومعنى ﴿مُنْكَرُونَ﴾ ضد المعروفين والإنكار نفار قريب من الوحشة.

﴿وَأَتَيْنَكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ ﴿٦٦﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ ﴿٦٧﴾ وَقَضَيْنَا

ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ﴾ [هود: ٧٠] وهو قد يتفرع على عدم المعرفة، كقوله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٩] فجعل انتفاء المعرفة سبباً للإنكار، أما لوط عليه السلام، فلعل سبب إنكاره لهم أنه رأى في وجوههم علامة الغضب بسبب أنهم مرسلون لتعذيب قومه وعازمون عليه؛ ولعلهم - أيضاً - لم يأكلوا عنده كما لم يأكلوا عند إبراهيم عليه السلام.

﴿قَالُوا بَلْ جِئْتَنَا بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ فسبب الإنكار أنا أرسلنا هلاك قومك الذي ﴿كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ أي يشكون وجئناك به لنبشرك به ونعدك له بإخراجك وأهلك من بينهم.

﴿وَأَتَيْنَكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ بالحق إما تعذيبهم أي أنه الحق من الله تعالى؛ لأنه حكم به عليهم وإتيانه به إتيانه مصحوبين به أو إتيانه بخبره ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ فيما نقول لك وفي غيره.

﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ قال في (الصحاح): «والقِطْع - بالكسر - ظلمة آخر الليل، ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ﴾ قال الأخفش: بسواد من الليل، قال الشاعر:

افتحي الباب وانظري في النجوم كم علينا من قطع ليل بهيم

انتهى. قلت: الأول هو الراجح، فهو قطعة باقية من الليل، كما قال تعالى: ﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ﴾ [القمر: ٣٤].

إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرُ أَنْ دَابِرَ هَتُولَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ ﴿٣٦﴾ وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ إِنَّ هَتُولَاءِ ضِيفَى فَلَا تَفْضَحُونَ ﴿٣٨﴾ وَاتَّقُوا

﴿وَاتَّبِعْ أَذْبَنَهُمْ﴾ أي قدمهم أمامك في سيركم، وسر بعدهم قريباً منهم لا تفارقهم ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾ لعله يُسرعوا في السير إن كانوا مشاة. وقال الشرفي في (المصاييح): «عن القاسم بن إبراهيم عليه السلام قال: وتأويل ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾ لا يُعْرِجْ مِنْكُمْ أَحَدُكُمْ تليثاً، وسيروا كلكم سيراً حثيثاً، وليس تأويل ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ﴾ ما يظن الغمر الميت من الالتفات في النظر إلى وراء الظهر أو إلى ما على الميامن والمياسر، ولكنه استحثاث واستعجال كما يقول الرجل المستحث المعجال إذا أبدر الرجل أحداً وأرسله فاستحثه واستعجله: لا تلتفت إلى شيء ولا تعرج عليه» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿وَأَمْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ أي انفذوا في سيركم، واذهبوا ﴿حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ فسوف تؤمرون أين تذهبون، وإلى أي جهة تتوجهون؛ لأن الملائكة تدلكم وتأمركم في سيركم.

﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنْ دَابِرَ هَتُولَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ﴾ ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ﴾ أبلغناه أي أبلغنا لوطاً عليه السلام أن قومك هالكون كلهم في الصباح، فقلوه ﴿دَابِرَ هَتُولَاءِ﴾ كناية عن عموم العذاب لهم كلهم صغيرهم وكبيرهم فلا يبقى لهم دابر أي خالف يخلفهم بل هو ﴿مَقْطُوعٌ﴾ بإهلاكه و﴿مُصْبِحِينَ﴾ داخلين في الصباح أي وقت الشروق كما يأتي إن شاء الله.

﴿وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ ﴿أَهْلُ الْمَدِينَةِ﴾ قوم لوط ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾ جاء أهل المدينة لوطاً يستبشرون بوجود الأضياف عنده، وما تمنىهم أنفسهم من غلبتهم لبيهم على أضيافه، وذلك لسكرتهم في سفاهتهم كأنهم قد بلغوا حد الجنون.

اللَّهُ وَلَا تُحْزُونِ ﴿١١﴾ قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿١٢﴾ قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿١٣﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٤﴾ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿١٥﴾ فَجَعَلْنَا عَلَيْهِمَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ

﴿١١-١٥﴾ ﴿قَالَ إِنْ هَؤُلَاءِ ضَيِّفَى فَلَا تَفْضَحُونِ * وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُحْزُونِ﴾
 كَانَ هَذَا عِنْد وَصُول الْمَلَائِكَةِ عِنْدَهُ بِصُورَةِ آدَمِيِّينَ قَبْلَ مَعْرِفَتِهِ أَنَّهُمْ مَلَائِكَةٌ؛
 وَذَلِكَ لِيَعْظُمَ أَجْرُهُ عَلَى مَا يَنَالُ مِنَ الْغَمِّ بِسَبَبِهِمْ ﴿فَلَا تَفْضَحُونِ﴾ لَا
 تَفْضَحُونِي فِي أَضْيَافِي، وَارْعَوْا حَرَمِي ﴿وَاتَّقُوا﴾ وَاتَّقُوا عَذَابَ ﴿اللَّهِ﴾ فَاتْرَكُوا الْجَرَائِمَ، وَتَوَبُوا وَآمَنُوا ﴿وَلَا تُحْزُونِ﴾ لَا تَهِينُونِي بِإِهَانَةِ أَضْيَافِي.
 ﴿قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿قَالُوا﴾ أَيُّ قَوْمٍ لَوَطَ لِنَبِيِّهِمْ
 ﴿أَوَلَمْ نَنْهَكَ﴾ أَيُّ قَدْ نَهَيْتَكَ سَابِقًا عَنْ ضِيَاةٍ أَيُّ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ فَانْتَ لَمْ
 تَنْتَهَ وَأَضَفْتَ هَؤُلَاءِ.

﴿١٦﴾ ﴿قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ ﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتِي﴾ فِدَاءٌ لِأَضْيَافِي
 ﴿إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ النِّكَاحُ لهنَّ، قَالَ هَذَا وَقَدْ عَلِمَ أَنَّهُمْ لَا يَقْبَلُونَ بَنَاتَهُ لِيَبِينَ
 لَهُمْ إِفْرَاطُهُمْ فِي أَذْيَتِهِ وَشِدَّةُ اهْتِمَامِهِ بِدَفْعِهِمْ عَنْ أَضْيَافِهِ لِيَرْجِعُوا عَنْ مَطَالِبَتِهِ
 بِتَسْلِيمِ أَضْيَافِهِ.

﴿١٧﴾ ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ ﴿لَعَمْرُكَ﴾ قَسَمٌ لِتَأْكِيدِ مَا
 بَعْدَهُ لِأَنَّهُ مُسْتَبْعَدٌ أَنْ لَا يُوْثِرَ فِيهِمْ مَا قَالَهُ نَبِيُّهُمْ، إِمَّا لَخَوْفِ عَقُوبَةِ عَاجِلَةٍ،
 وَإِمَّا لِمُرُوءَةٍ، وَإِمَّا لِرَحْمَةٍ وَعُطْفٍ ﴿إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ﴾ إِهْمَالُهُمْ لِعُقُوبَتِهِمْ
 وَإِصْرَارُهُمْ عَلَى جَرَائِمِهِمْ كَأَنَّهُمْ سَكَارَى لَا يَفْهَمُونَ مَا يَقَالُ لَهُمْ
 ﴿يَعْمَهُونَ﴾ يَتَرَدَّدُونَ لَا يَتَخَلَّصُونَ مِنْ حَيْرَتِهِمْ.

﴿١٨﴾ ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾ ﴿الصَّيْحَةُ﴾ إِمَّا صِيْحَةُ مُلْكٍ، وَإِمَّا بِمَعْنَى
 الْعَذَابِ الْمُهْلِكِ أَوْ الْفَزَعِ، أَخَذَتْهُمْ: أَهْلَكَتْهُمْ، وَفِي (الصَّحَاحِ): «وَالصَّيْحَةُ: الْعَذَابُ،
 وَأَصْلُهُ مِنَ الْأَوَّلِ» انْتَهَى، أَيُّ مِنَ الصَّوْتِ، وَفِي التَّعْبِيرِ بِالْأَخْذِ تَحْقِيرٌ لَهُمْ.

سَجِيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّمَتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ﴿٧٨﴾

وقوله تعالى: ﴿مُشْرِقِينَ﴾ أي حين طلعت عليهم الشمس، قال الشرفي في (المصابيح): «﴿مُشْرِقِينَ﴾ أي داخلين في الشروق، وهو بزوغ الشمس» وفي (مفردات الراغب): «شرقت الشمس شروقاً: طلعت» انتهى.

﴿فَجَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سَجِيلٍ﴾ ﴿فَجَعَلْنَا﴾ تفريع على الصيحة، فيظهر: أنها صيحة حقيقية أي صوت شديد رجفت منه أرضهم، وتساقطت رؤوس قريتهم في أسافلها ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً﴾ أرسلناها عليهم كأنها مطر في غزارتها وسرعتها، وقوله ﴿عَلَيْهِمْ﴾ يفيد أنهم خرجوا من البيوت عند الصيحة فأمطر الله عليهم الحجارة، وقوله ﴿مِّن سَجِيلٍ﴾ بيان لنوع الحجارة، ولعل معناه من مسجل بالخطوط، كقوله: ﴿مُسَوَّمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ [هود: ٨٣].

وفي (مفردات الراغب): «والسجيل: حجر وطين مختلط، وأصله فيما قيل فارسي معرب، والسجل: قيل حجر كان يكتب فيه ثم سمي كل ما يكتب فيه سجلاً، قال تعالى: ﴿كَطَبِيَ السَّجِلُ لِلْكَتِّبِ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] أي كطيه لما كتب فيه حفظاً له» انتهى.

وقوله: حجر وطين، صوابه: حجر أصله طين، كما قال تعالى: ﴿حِجَارَةٌ مِّنْ طِينٍ﴾ [الذاريات: ٣٣] قال الشرفي رحمه الله: «واعلم أن هذه الآية تدل على أنه تعالى عذبهم بثلاثة أنواع من العذاب:

أحدها: الصيحة الهائلة المنكرة، وثانيها: أنه جعل عاليها سافلها، وثالثها: أنه أمطر عليهم حجارة من سجيل» انتهى.

وقد ذكرت فيما مضى أن الراجح عدم صحة الرواية في حمل سبع قرى إلى حول السماء وقلبها؛ لأنه يفوت به وقوع الحجارة عليهم، والمذكور في القرآن قرية واحدة لا سبع، ولو كانت سبعاً لذكرت لما فيها من العبرة ولما ذكرت واحدة وأخفيت ست.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّمُتَوَسِّمِينَ﴾ قال في (الصحيح): «وقد توسمت فيه الخير: أي تفرست» انتهى. وقال في الفراسة: «والفراسة وهو يتفرس: أي يتثبت وينظر» انتهى.

فالتفرس: التعرف بالعلامات بالنظر فيها والتفكير؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لَآيَاتٍ لِّمُتَوَسِّمِينَ﴾ فالمتوسم يعرف بالآيات، وليس معنى التوسم علم الغيب بغير استدلال بما يدل على الأمر المغيب أي في إهلاك قوم لوط بما وقع عليهم آيات للناظرين الذين يعرفون بالنظر في الآيات ما تدل عليه، فقصة قوم لوط تدل على الخالق القادر العالم، وتدل على أنه لم يهمل عباده بل يرسل إليهم رسلاً، وأنه لم يهمل العصاة بل ينتقم.

﴿وَإِنَّا لَبَسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ ﴿وَإِنَّا﴾ أي بقايا قرية قوم لوط للاصقة بسبيل أو في سبيل أي بطريق ﴿مُقيمٍ﴾ باق مسلك لم يهجره الناس.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿فِي ذَلِكَ﴾ في جعل آثارهم بسبيل مقيم آية من حيث أنها على عمر المسافرين في الليل وفي الصباح تذكر المؤمنين، وتدل على أن الله يجعل لعباده العبر ليحذروا مثل ما نزل بمن قبلهم، وأنه تعالى جعلها بالسبيل ليراها الناس ويعتبروا.

﴿وَإِنْ كَانَ أَصْحَبُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ﴾ ﴿أَصْحَبُ الْأَيْكَةِ﴾ أرسل الله إليهم شعبياً، وكأنهم غير مدين أو بعض منهم ساكنون في غير قريتهم، قال في (الصحيح): «الأيك: الشجر الكثير الملتف، الواحدة: أيكة» انتهى.

فَأَنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمْ لِبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحَجَرِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٢﴾ وَءَاتَيْنَاهُمْ ءَايَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٧٣﴾ وَكَانُوا يُنَجِّتُونَ

ولعل محلّتهم سميت (الأيكة)؛ لأنها كانت شجراً كثيراً ملتفّاً فصارت بلداً لهم وبقي اسمها، وقوله تعالى: ﴿لَظَلِمِينَ﴾ أي بتكذيب الرسل وغيره، وقصّتهم في (سورة الشعراء).

﴿٧١﴾ ﴿فَأَنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمْ لِبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ قوم لوط وأصحاب الأيكة أو آثارهما، قال الشرفي في (المصابيح): «وأما الهادي عليه السلام، فقال: هما قريتان هلكتا ودمرتا لما طغتا وعصتا، فكانتا على طريق قريش في الرحلتين، في رحلة الشتاء ورحلة الصيف، والإمام: فهو الطريق الواضح والأعلام التي يستدل بها على مسالكها ومياها...» إلخ، ونحو هذا يروى عن ابن عباس رضي الله عنهما.

والراجح عندي - والله أعلم - : أن المعنى ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ أي قوم لوط وأصحاب الأيكة ﴿لِبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ أي في كتاب مبين لا يُنسى منهم أحد ولا يضيع ليعتثوا يوم القيامة ويعذبوا في الآخرة، وهو كقوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢] وقول موسى صلى الله عليه: ﴿عَلِمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾ [طه: ٥٢] ولو كان الإمام هنا الطريق إحداهما في طريق الشتاء والأخرى في طريق الصيف لقل: لبإمامين، مع أنه قد كفى في قوم لوط قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَيْسَبِيلٌ مُّقِيمٌ﴾ فإعادة ذكرها مع قرب العهد بعيد، فكان يكفي أن يقول: وإنهم لبإمام، أو وإنها - أي الأيكة - لبإمام، والله أعلم.

﴿٧٢﴾ ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحَجَرِ الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿الْحَجَرِ﴾ سد بُني بالحجارة لحفظ الماء، ولعل أصحاب الحجر بنّوه ليحفظ لهم ماء أو ماشية أو غير ذلك أو كانوا يمشون عليه إذا كان في الوادي ماء يجري.

مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٢٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٢٩﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا

قال الشرفي في (المصاييح): «قال في (البرهان): وهو بين الحجاز والشام على مرحلة من وادي القرى، روي أن آثارهم فيه وبيوتهم» انتهى المراد، وذكر الشرفي أن ﴿الْحَجَرِ﴾: وادٍ كان يسكنه ثمود، ويناسب هذا قول الله تعالى: ﴿وَتُمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ﴾ [الفجر: ٩].

﴿وَأَتَيْنَهُمُ ءَايَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ ﴿وَأَتَيْنَهُمُ﴾ أعطيناهم ﴿ءَايَاتِنَا﴾ نعماً لأنها بها يهتدون فهي نعم من الله آتاهم، ومثله قوله تعالى: ﴿وَأَتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: ٥٩] ﴿فَكَانُوا عَنْهَا﴾ عن آيات الله ﴿مُعْرِضِينَ﴾ لا يتفكرون فيها ليهتدوا بها.

﴿وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ﴾ ينحتون الجبال، بحيث يجعلون لهم فيها تجاويف واسعة بيوتاً يسكنونها، وقوله: ﴿ءَامِنِينَ﴾ أي آمنين في البيوت لقوتها. قال الشرفي في (المصاييح): «﴿ءَامِنِينَ﴾ من تهدمها، أو من نقب اللصوص، أو من حوادث الدهر، أو من عذاب الله يحسبون أنها تحميهم» انتهى.

قلت: قوله: أو من عذاب الله هو الأقرب؛ لأن قوم عاد قبلهم دمرتهم الرياح، فكان ثمود يرون مساكنهم تحميهم من الرياح إن جاءتهم كما جاءت عاداً.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾ الراجح: أنها صيحة ملك رجفت منها أماكنهم بشدة فأنقذت فاهلكتهم ﴿مُصْبِحِينَ﴾ داخلين في الصباح.

﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ فما دفع عنهم وكفاهم العذاب ﴿مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من أسباب القوة والسلامة كالبيوت في الجبال.

بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأَتِيَةٌ ۖ فَاصْفَحَ الْجَمِيلُ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلْقُ الْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْءَانَ

﴿٨٥﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأَتِيَةٌ ۖ فَاصْفَحَ الْجَمِيلُ ﴿٨٦﴾ ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ بالحكمة والصواب فلذلك أرسلنا الرسل مبشرين ومنذرين ودعاة إلى الله ومبلغين عنه لأمره ونهيه وهداه كله من تعليمهم لعبادته وغيرها، فالمكذبون للرسل معارضون لهذا المبدأ الكريم.

﴿وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأَتِيَةٌ﴾ وفيها جزاء المكذبين الأوفى ﴿فَاصْفَحَ الْجَمِيلُ﴾ أعرض عن قومك المكذبين لك الإعراض الجميل. قال الشرفي في (المصابيح): «قال الحسين بن القاسم عليه السلام: ومعنى ﴿الْصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ العفو عن المجرمين عفواً جميلاً حسناً، والصفح: هو العفو، قال الشاعر: صفوح عن الإجرام حتى كأنه من العفو لم يعرف من الناس مجرماً» انتهى.

قلت: الراجع: أن ﴿الْصَّفْحَ﴾ هو الإعراض تكرماً، إما لعفو، وإما لحلم، وإما لغير ذلك، والدليل على تغاير العفو والصفح، قول الله تعالى ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِكُمُ الْيَقِينِ﴾ [البقرة: ١٠٩] وقوله تعالى: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ١٣] ولعله عليه السلام أراد أن الصفح كناية عن العفو، كما قال الراغب: «الصفح: ترك التريب وهو أبلغ من العفو» انتهى.

قال في (الكشاف): «فاصفح: أعرض عنهم واحتمل ما تلقى منهم إعراضاً جميلاً بحلم وإغضاء» انتهى، وقال في (الصحيح): «وصفحتُ عن فلان إذا أعرضت عن ذنبه، وقد ضربت عنه صفحاً إذا أعرضت عنه وتركتَه» انتهى. و﴿الْجَمِيلُ﴾: ما ليس معه شكاية.

﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَآخُفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ

﴿٨٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلْقُ الْعَلِيمُ ﴿٨٨﴾ فلا يعجز عن الإتيان بالساعة التي فيها إثابة الرسول ﷺ على تبليغه وصبره وصفحه وعقاب الكفار على تكذبه وسائر جرائمهم.

﴿٨٧﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَكَ ﴿٨٩﴾ برهاناً يدل على صدقك ونعمة عظمى ﴿سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي﴾ إما سبع آيات كما روي أنها فاتحة الكتاب، وإما سبع سور.

﴿الْمَثَانِي﴾ الذي يثنى ويكرر لحكمة في ذلك وزيادة في البيان وإيقاظ للغافلين مثل ما في (سورة الرحمن) و(سورة المرسلات) وغيرهما ﴿وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ إما كل القرآن وإما الفاتحة أيضاً إن صحت الرواية.

﴿٨٨﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَآخُفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٩﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ ﴿٩٠﴾ لا تنظر نظر تأمل وتحقق، كما هو شأن المعجب بالشيء المستحسن له؛ لأن النظرة قد تزرع الشهوة؛ ولأن زهرة الحياة الدنيا حقيرة فشأن الصالحين الإعراض عنها.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال الحسين بن القاسم عليه السلام: هذا تأديب للناس والمخاطب رسول الله ﷺ والمعنى سواء، وإنما هذا نهى من الله للعباد أن يمدوا أعيانهم طول الدهر وأنفسهم إلى متاع الناس وخطامهم ويكثرُوا و[ي]أشتغلُوا بالتمني عن ذكر الله وسؤاله، ولعل الله لو رزقهم ذلك أن يكون سبب هلاكهم وسلاماً إلى ذهابهم، والله أبصر بعباده وبما ينفعهم، وهو أولى بالخيرة لهم.

﴿٨٩﴾ كَمَا أُنزِلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ

وأما قوله: ﴿أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ﴾ فمعناه أصنافاً من الكفار، والزوج في اللغة الصنف، والحاصل قوله: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ﴾ نهي له عن الالتفات إليهم وأن يحصل لهم في قلبه قدر ووزن - ثم قال -: ولا تحزن عليهم حيث لم يؤمنوا فيقوى بهم الإسلام ويتعش بهم المؤمنون» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿مَتَّعْنَا بِهِ﴾ تقليل لما عند الكفار من حاجات الدنيا وأغراضها من حيث التنبيه على أنه متاع لا يبقى، وأنه مع ذلك شاغل عما يبقى من الثواب.

وقوله: ﴿أَزْوَاجًا﴾ يحتمل اعتبارهم أصنافاً يكون بعضهم تاجراً وبعضهم صاحب أنعام وبعضهم صاحب حرفة مفيدة له وبعضهم حارث، فمتاعهم قليل بالنظر إلى نعمة الدين والهدى بالقرآن وغيره وبالنظر إلى أنه فتنة لأهله.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ يحتمل النهي عن الحزن بسبب هلاكهم ومصيرهم إلى عذاب الله، وقوله تعالى: ﴿وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي تواضع لهم ولبن لهم.

﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّي - أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴾ وأذن الكفار مع إعراضك عما متعوا به، وقل للناس ﴿إِنِّي - أَنَا النَّذِيرُ﴾ بالعذاب الشديد ﴿الْمُبِينُ﴾ البين في إنذاره لتبليغه وتبيينه وإيضاحه بالحجة الدالة على صدقه.

﴿٨٧﴾ كَمَا أُنزِلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ * الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴿٨٨﴾ كَمَا أُنزِلْنَا﴾ أي أنذرهم مثل ما أنزل الله ﴿عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ﴾ وفسر

المقتسمين بأنهم ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ فهم من الكفار نزل بهم العذاب العاجل، ولعلمهم الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ فأنذر الباقون مثل ما نزل بهم وكلهم من الكفار بالقرآن، فأما سبب تسمية المقتسمين - فالله أعلم.

والذي أفهم: أنه إذا كان المعنى: أنذرهم كما أنزلنا على المقتسمين كما يرشد إليه كون السورة (مكية) فالذي أفهم: أن هذا الإقسام كان جريمة هي سبب تعجيل العذاب عليهم، فإما أنهم اقتسموا القرآن فجعل كل منهم لقسمه تكذيباً بدعوى مثلاً جعل أحدهم قسمه سحراً، والآخر شعراً، والآخر تعلمه من بشر ونحو ذلك مما حكاه الله في القرآن من أقوال الكفار، وإما أنهم اقتسموا طرق مكة وجعلوا لكل طريق واحداً منهم يقف عليها ويحذر المارة من تصديق محمد ﷺ أو غير ذلك مما كان معروفاً معهوداً عند نزول هذه الآية.

وحكى الشريفي في (المصابيح): «عن الهادي عليه السلام: أنهم الذين اقتسموا بالأزلام وهو قريب إذا كان المقتسمون جعلوا ذلك تكذيباً للرسول وعناداً وصدأً عنه، مثل أن يكونوا اقتسموا جزوراً بالأزلام وتصدق بها الذي غلب في القمار تصدق بها على الفقراء، ليدعي أن دينهم خير من دين محمد ﷺ».

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ ففيه تفاسير أقربها عندي وأوفقها للسياق أنهم جعلوه أعضاء موزعة بين سحر وبهتان وأساطير، وأما قول بعضهم: إنهم جعلوه أعضاء، أي أجناساً مختلفة فجعلوا بعضه سحراً، وبعضه شعراً، وبعضه كهانة، وبعضه أساطير الأولين، فهو جيد إن صح أنهم فعلوا ذلك.

وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦﴾ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ تَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ

فأما قول الكفار: تارة (سحر) أي القرن جملة، وتارة (شعر) ونحو ذلك، فهو كلام مختلف فيه كله وليس تفريقاً للقرآن، بل كلامهم فيه هو المفترق - والله أعلم. ومعنى ﴿جَعَلُوا الْقُرْآنَ﴾ ادَّعُوا وقالوا فيه: هو (عضون) كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ﴾ [الأنعام: ١٠٠].

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ لنسأل الناس أجمعين، أو لنسأل هؤلاء الكفار الذين فيهم السياق، لنسأل الماضين منهم المهلكين والباقيين، لنجزئهم بما عملوا في الدنيا.

﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ أصل الصدع الشق وهو هنا بمعنى إبلاغ الكفار ما أرسل به ﷺ وإن شق عليهم وكرهوه امتثالاً لأمر الله الذي أمره أن يبلغه، وكذلك ما يشق عليهم من توحيد الله وإخلاص العبادة له، فهو ﷺ مأمور بإخلاص العبادة والدعوة إلى قول لا إله إلا الله، ومأمور بتبليغ ما أرسل به ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ فلا تشتغل بجدها ولا تجالسهم ولكن بلغهم ما أمرت بتبليغه ثم ذرهم واحتج عليهم بآيات الله ثم اتركهم.

﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ قال في تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام: (غريب القرآن): «وهم سبعة نفر من قريش: الوليد بن المغيرة بن خالد المخزومي، والعاص بن وائل السهمي، وأبو زمعة الأسود ابن المطلب، والأسود بن [عبد يغوث] الزهري، والحارث بن قيس السهمي وهو الحارث بن عيطلة وهي أمه، وهبار بن الأسود الأسدي، وعبد يغوث بن وهب الزهري» انتهى.

صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿١٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿١٨﴾
وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿١٩﴾

وقيل: هم خمسة أهلكهم الله جميعاً قبل يوم بدر لاستهزائهم، كل منهم أصيب بمصيبة أهلكته، ذكر هذا الشرفي في (المصاييح) وتفصيل القصة في (حاشية الكشف) تخريج أحاديثه.

﴿الَّذِينَ سَجَعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ فاهلكهم الله لجمعهم بين الشرك والاستهزاء إما بالرسول ﷺ وإما بما أرسل به أو بعضه وفي إهلاكهم تقوية لرسول الله ﷺ على الصدع بما أمر به، وقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ أي حين يرون العذاب يوم القيامة.

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ لأنهم يكذبون بما أنزل الله وبالرسول وبالיום الآخر وذلك منكر عظيم يضيق به صدره ﷺ أي يضيق بسببه لشدة الغم منه ومن مبالغتهم في التكذيب باستهزائهم. ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾ ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ إما نزهه وبعده عن كل نقص تنزيهاً وتبعيداً مصحوباً بحمده، وإما سبحه بنفس الحمد فحمده تسبيح له؛ لأنه يدل عليه باللزوم.

قال الشرفي في (المصاييح): «أي قل: سبحان الله وبحمده» انتهى.

﴿وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾ أي الذين يكثرون السجود، ويتكرر منهم على الدوام، والسجود يكون في الصلاة، ويكون في غيرها كسجود الشكر.

﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ﴾ بالصلاة وبكل ما أمرت به فكله عبادة ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ في (تفسير الإمام زيد عليه السلام): «معناه: الموت» انتهى.

فالمعنى: اعبد ربك ما دمت حياً، وربط الأمر بالتسييح وما بعده بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ﴾ لأن ذلك من الصبر على ما يقولون؛ أو لأنه يعين على تحمل مشقة الرسالة، كقوله تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: ٤٥] أو بمعنى: قابل ما يقولون بذكر ربك، وعبادتك له، اشتغالاً به عما يقولون، وإعراضاً عنهم، واشتغالاً بمهمتك - والله أعلم.

وبهذا تم تفسير (سورة الحجر) والحمد لله رب العالمين



التيسير في التفسير



سورة النحل



سُورَةُ النَّحْلِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴿٢﴾ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا

تفسير (سورة النحل)

وأكثر مواضعها يظهر بها أنها (مكية) وفيها آيات يظهر أنها (مدنية) وقيل: «كلها مكية»

﴿١﴾ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ ﴿أَتَى﴾ قرب حتى كأن قد أتى مثل قد قامت الصلاة و﴿أَمْرُ اللَّهِ﴾ القيامة فهي الأمر العظيم الذي يأتي به الله ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ لأنه أمر عظيم قريب ليس لكم فيه إلا الجزاء الأوفى، وليس فيه مرغّب للمجرمين فيستعجلوه من أجله ماذا يستعجل منه المجرمون وهو آتٍ لا محالة ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ تكديماً، كقولكم: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس: ٤٨].

﴿سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى﴾ تنزهه وارتفع شأنه ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ فشركاؤهم عاجزون لا يستطيعون موتاً ولا حياة ولا نشوراً، أما الله فسبحانه عن أن يقاس بهم، وتعالى عن أن يُقرن بهم؛ لأنه على كل شيء قدير وبكل شيء عليم فوعده بالقيامة حق وصدق.

﴿٢﴾ يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴿٢﴾ يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ تشير هذه الآية إلى إثبات الرسالة وعلى القيامة وإلى التوحيد، فقوله تعالى: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ﴾ تثبت رسالة الملائكة ينزلهم الله إلى الرسل من الناس ينزل الله إليهم الملائكة فنزلت ﴿بِالرُّوحِ﴾ بحياة القلوب وحياة الدنيا والدين ﴿مِنْ أَمْرِهِ﴾ من وحيه بيان للروح، كقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

يُشْرِكُونَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴿٣﴾
وَالْأَنْعَمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٤﴾ وَلَكُمْ

﴿عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ فهو الذي يختار للرسالة من الناس من يشاء
وكلهم عباده يختار منهم من يشاء ﴿أَنْ أَنْذِرُوا﴾ تفسير للروح لأنه يتضمن
الإنذار ﴿أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ أي فاتقوني أي اتقوا عذابي فسيبحانه
وتعالى عما يشركون، فالله يهدي للحق ويدعو إلى دار السلام ويرسل
الرسل وينذر ويحزي كل نفس بما تسعى وشركاؤهم لا يكون منهم شيء.
وقوله تعالى: ﴿أَنْ أَنْذِرُوا﴾ أي أعلموا وأخبروا وبلغوا أيها الرسل الناس
أنه لا إله إلا أنا فاتقون، وفيه وجوه: إما أن الإنذار هنا بمعنى الإخبار، كما
قال (صاحب الكشاف).

وإما أنه إنذار حقيقي ليحذروا الشرك، ويعلموا أن الله يعذبهم عليه، ولا
ينفعهم شركاؤهم بشفاعه ولا غيرها، فقلوه: ﴿أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾ يبين
للمشركين أنهم على خطر، وإما أنه إنذار مضمن للأخبار؛ لأنه خبر بأنه لا
إله إلا الله ليتقوه أي ليتقوا عذابه كما أمر، ونظيره قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ
وَاحِدٌ فَلْيَلِيهِ فَارْهَبُونِ﴾ واتقوا: بعبادته التي هي طاعته فيما أمر وفيما نهى
عنه، وإخلاص العبادة له وترك الشرك، وذلك المنجي من عذابه، فهو إنذار
من حيث إفادته: أنه يعذبهم إن لم يتقوه.

﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ ﴿بِالْحَقِّ﴾ بالحكمة فليس
عبثاً ولا لعباً، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِينَ *
مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ الآية [الدخان: ٣٨-٣٩] وقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ
وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بِطِلَافٍ ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [ص: ٢٧].

فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تَرْتَحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَنْثَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرُءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَالْحَيْلُ

وقوله: ﴿تَعَلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ فشركاؤهم لم تخلق شيئاً وهي أضعف من ذلك، فالله تعالى عنها بجلاله وقدرته وعلمه، فالمشركون بها الذين جعلوها أنداداً لله تعالى قد ضلوا ضلالاً بعيداً.

﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ وهي آية عظيمة تدل على قدرته وعلمه وعلى أنه قادر على إحيائه بعد الموت ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ﴾ مخاصم مجادل في قدرة الله تعالى على إحيائه بعد الموت وهو نفسه حجة عليه فناسب ذلك الإتيان بـ(إذا) التي للمفاجأة، لأنه لا يحتاج في معرفة قدرة الله على إعادته إلا أن يتذكر أنه خلقه من نطفة كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ * وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قُلْ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٧-٧٨] فهو ﴿خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ بين الخصومة لخالقه، فقد كفر نعمة الله عليه بخلقه، وكفر نعمة الله عليه بما جعل له من النعم في السماء والأرض.

﴿وَالْأَنْعَمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ ﴿وَالْأَنْعَمَ﴾ آية ونعمة آية تدل على قدرته وعلمه ونعمة للإنسان ﴿لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «(الدفع: ما استدفع به من أوبارها) انتهى.

وليس الدفع خاصاً بأصوافها وأوبارها وأشعارها فإن الحليب يحصل به نفع من البرد وكذلك اللحم والمرق، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْفَعٌ﴾ يأتي في السورة هذه تفصيل لبعض منافعها ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ فهذه آيات ونعم.

﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تَرْتَحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ جمال في الرواح إذا أرجعوها من مراتعها لتبيت، فهي جمال لأهلها من حيث هي مال نافع

وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَايزٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ هُوَ الَّذِي

﴿مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ﴾ [المؤمنون: ٢١] ومنفعتها في حال الرواح أظهر لتوفر درّها وشبعها وربها وجمال في حال السرح حين تبرز ماشية إلى مراتعها.

﴿وَتَحْمِلُ أُنْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ﴾ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾ وهذا في الإبل يركبها الناس وتحمل لهم الأثقال من البضائع للتجارة وغيرها، وقوله تعالى: ﴿لَّمْ تَكُونُوا بَلِغِيهِ﴾ أي لولا الأنعام تحمل أثقالكم لما كنتم بالغيه بقوتكم إلا بمشقة الأنفس ولم يكن من شأنكم أن تبلغوها ﴿إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ﴾ وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «معناه: بمشقتها» انتهى.

﴿إِنَّ رَبَّكُمْ﴾ أيها الناس ﴿لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ ولذلك يسرّ لكم ما يحمل أثقالكم فذلك دليل مع كونه نعمة على أنه رءوف رحيم ومع كونه دليلاً على قدرته تعالى وعلمه، والجمع بين الوصف بالرأفة والرحمة لعله لاختلاف مواقعهما.

قال في (لسان العرب): «والرأفة: أخص من الرحمة وأرق» انتهى، والمراد: أنه يفعل للناس ما يفعله الرءوف الرحيم، فهو يدل على نعمته على الإنسان بذلك.

﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿وَالْخَيْلَ﴾ عطف، أي وخلق الخيل، وهي آية عظيمة ونفعها كبير في الجهاد ﴿وَالْبِغَالَ﴾ وهي أقوى من الحمير، فهذه الثلاثة الأنواع خلقها ﴿لِتَرْكَبُوهَا﴾ وهي نعمة عظيمة وتكريم للإنسان، وقوله تعالى: ﴿وَزِينَةً﴾

أي خلقها زينة وهي زينة المالكها عند ركوبها وهي في حال قوتها وسلامتها من تشويه خلقها بالجوع والإهمال فإنها في حال قوتها ونشاطها جمال لصاحبها.

وقوله تعالى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ قد كشف بعض المخلوقات التي لم تكن معلومة آلة حديثة تكبر الأشياء الصغيرة فيرى بها مخلوقات لم تكن معلومة، واكتشف الطب العصري أدوية ومواد لم تكن معروفة فقدرته تعالى واسعة لخلق ما نعلم وما لا نعلم وعلمه كذلك فكذاك يعيد الإنسان بعد الموت وإن لم يكن يعلم.

﴿١﴾ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَايِزٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَنَّاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٢﴾ ﴿قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «معناه: بيان الهدى» انتهى.

فالتقدير: وعلى الله بيان قصد السبيل، أي الطريق المستقيم الذي يوصل إلى السعادة الدائمة، والقصد: بيان الطريق القاصد بحيث يصل السائر فيه إلى المطلوب، ولذلك قابله بقوله تعالى: ﴿وَمِنْهَا جَايِزٌ﴾ ويحتمل ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ أن عليه إيجاد قصد السبيل أي أن يجعل للإنسان سبيلاً يوصله إذا سار فيه إلى سعادته والفرق دقيق.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْهَا جَايِزٌ﴾ أي ومن السبيل جائز غير قاصد وهي الطرائق التي أحدثها أهل الباطل فما كل طريق قاصداً، وعلى العاقل أن يعرف القاصد ليختاره لنفسه وينجو من السير في الجائر.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ لَهَدَنَّاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي هو قادر على ذلك لكنها اقتضت حكمته أن يمكن الإنسان ليختار لنفسه السبيل القاصد أو الجائر، هذا فأما تيسير الطرق في الأرض وجبالها فهو يهدي له البر والفاجر ويسلكاه كلاهما، ولعل ذلك غير مراد في هذه الآية، ويأتي قوله تعالى: ﴿وَسَبَّالًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

أَنْزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١﴾
يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَبَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ
إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ
وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً

﴿١﴾ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ
تُسِيمُونَ ﴿٢﴾ هو المنعم عليكم بإنزال الماء من السماء ولولا إنزاله ما لحقتموه
بعد وجوده في السحاب ﴿لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ﴾ لأنه عذب يروي معدة للشرب
والسقي، ومنه ينبت شجر من منافعه أنكم ﴿تُسِيمُونَ﴾ أي ترعون إبلكم
فيه وينبت منه المرعى للبقر والغنم.

﴿١﴾ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَبَ وَمِنْ كُلِّ
الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢﴾ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ ﴿١﴾ أي بالماء
المذكور ﴿الزَّرْعَ﴾ الذي يكون منه الحب الذي هو طعام الإنسان المهم
﴿وَالزَّيْتُونَ﴾ الذي يثمر فيؤكل من ثمره ويعتصر منه زيت الزيتون الدهن
الجيد والإدام.

﴿وَالنَّخِيلَ﴾ بأنواعها ﴿وَالْأَعْنَبَ﴾ بأنواعها كل ذلك نعم من ربكم
عليكم ودلائل على قدرته وعلمه ﴿وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ المختلفة منها:
المأكول فاكهة، ومنها فوائد آخر فيه كالجلجلان يعتصر منه السليط، ومنها
المأكول: كالجلجلان، والعدس، ومنها أدوية ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ
يَتَفَكَّرُونَ﴾ في آيات الله الدالة عليه وعلى قدرته وعلمه وسعة فضله
لعباده الدالة على أن الله ربهم المستحق لأن يعبدوه ولا يشركوا به.

لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا

﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٣﴾ قال في (الصحيح): «كلّفه عملاً بلا أجر، ثم قال: والتسخير: التذليل» انتهى باختصار، وفي (مفردات الراغب الأصبهاني): «التسخير: سياقة إلى الغرض المختص قهراً» انتهى.

ولعله جمع الحقيقة، والمجاز: أي هو الذي يأتي لكم بالليل لتسكنوا فيه والنهار لتبغوا من فضله وذلكهما لهذا كل يجري في وقته لا يتخلف وسخر الشمس لمنافع الناس تأتي بقدر ثم تغيب عنهم وعليها حساب السنين الشمسية، والقمر عليه حساب الشهور والسنين القمرية.

﴿وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ﴾ كأنه يأمرها أن تسير على نظامها المحدد وعلى قراءة (رفع) النجوم ومسخرات، قد عدل بها عن سياق ما قبلها ولعله للنص على أنها مسخرة مذلة بأمر الله خلاف ما يزعم عباد النجوم، أما على (النصب) لهما فزيادة مسخرات الدالة على أنها مذلة منقادة لأمر الله ترد على المنجمين والعطف على الليل والنهار وما بعدهما يفيد تسخير النجوم للإنسان، فكأنه تعالى يقول وسخر لكم النجوم في حال أنها مسخرات بأمره لا تمتنع من تسخيره لها بأمره؛ لأنه ربها المسخر لها.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ أي المذكور من تسخير الليل والنهار وما بعدهما للناس ﴿لَآيَاتٍ﴾ أي دلائل على أن الله رب العالمين المستحق للعبادة وعلى قدرته وعلمه وغير ذلك من صفاته وعلى فضله على الناس وعظم نعمه عليهم.

مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفَلَكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَالْقَىٰ فِي الْأَرْضِ

﴿١٣﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَنُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٤﴾ ففيه آية ونعمة، أما الآية فلأنه يدل على أنه صنع فاعل مختار جعل له ألواناً مختلفة كما يشاء، ولو كان أثر علة لكان سواء؛ لأن تأثير العلة تأثير إيجاب، وأما النعمة فلما في اختلاف الأنواع والألوان من زيادة النعمة ومطابقة الأغراض المختلفة لأن منافع الثمرات تختلف وكل ثمرة تمتاز بلونها.

والتذكر: الانتباه لما كان قد نسي فهي آية يعرف بها الخالق عند تذكر الإنسان لاختلافها، وأن الاختلاف أثر فاعل مختار، ويعرف بها نعمة الله على الإنسان وأن الله ربه لا ما أشرك به المشركون.

﴿١٥﴾ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفَلَكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٦﴾ ﴿سَخَّرَ الْبَحْرَ﴾ ذلله ليتمكن الانتفاع منه وبه ولو كان شديد التموج والاضطراب لما تهيأ الانتفاع به فلتسخيره يسبح السمك فيه فيمكن اصطیاده ليؤكل ﴿لَحْمًا طَرِيًّا﴾ لذيداً بطراوته، لأن الذي تقادم عهده يتغير ريحه ويكره وخصوصاً قبل وجود الثلجات التي تحفظ بعض خصائص الطري، وبتسخير يُمكن الغواصين استخراج أنواع الحلية البحرية وهي المرجان واللؤلؤ.

قال في (الصحيح): والدرّة: اللؤلؤة، فأفاد أنهما شيء واحد، والصدف كأنه من أخبية الدر والودع ولا أدري إن كان غير ذلك من حلية البحر.

وقوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْفَلَكَ﴾ أي السفائن ﴿مَوَاحِرَ فِيهِ﴾ أي في البحر وهي آية ونعمة لأن نفعها بتسخير البحر وإرسال الريح الطيبة تسوقها وتشق بها الموج على البحر، فإن كان المخر هو كما قال (صاحب الصحاح) «مخرت السفينة تمخرُ وتمخرُ مَخْرًا وَمُخْرًا: إذا جرت تشق الماء مع صوت، ومنه قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْفَلَكَ مَوَاحِرَ فِيهِ﴾ يعني جوارِي» انتهى، أو كان معنى ﴿مَوَاحِرَ﴾ خالية كما في كتاب (الدليل الكبير) للإمام القاسم [ص ٦٠/خ].

وحكاة الشرفي في (المصابيح) عن الحسين بن القاسم عن الإمام القاسم بن إبراهيم، ولفظ كتاب (الدليل الكبير): «وحمل سبحانه على ظهورها - أي البحار - مع خلافه بينها في أمورها الفلك المشحون السائر وردها بعد التفرغ فيه مواخر ليعلم من عجب تدبيرها وباختلاف الحال في مسيرها، إذ تسير شاحنة مالية كما تسير مآخرة خالية، وإذ تسير بحالهما جميعاً في أجاج البحار كما تسير بهما في فرات الأنهار إن لها لمسيراً لا تختلف في قوته الأشياء، ومدبراً قوياً لا تساويه الأقوياء...» الخ.

وهو كلام مفيد ويقرب له في تفسير المخر قول (صاحب لسان العرب): «ومخر البيت يمخره مخرًا: أخذ خيار متاعه فذهب به ومخر الغرّز - كذا - الناقة، إذا كانت غزيرة فأكثرت حلبها وجهدها ذلك وأهزلها» انتهى.

وعلى هذا يكون معنى ﴿مَوَاحِرَ﴾: ممخورات، كأنه على النسب أي ذوات مخر، والراجع الأول هنا وإن كان صحيحاً في اللغة، وذلك لأمرين:

الأول: أن الآية الظاهرة في جري الفلك؛ ولذلك قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِي فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ [الشورى: ٣٢].

رَوَّيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَرَ وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٦﴾ وَعَلَّمْتَ
وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ

الثاني: أن ذكر فراغها لا يفيد أنها تجري لأنها مع فراغها قد تقف
لا انتظار حمولة أو راكبين، ولو قال: وترى الفلك تجري مواخر لصح ذلك؛
ولأن الله تعالى قال: ﴿وَلَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ والإبتغاء من فضله يجري
الفلك في البحر، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «﴿وَتَرَى الْفُلَّكَ
مَوَاحِرَ فِيهِ﴾ وهي السفن التي تشق الماء شقاً ذاهبة وجائية» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿وَلَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ ابتغاء الحاجة: التوصل إليها
وهذا يفيد نعمة تيسير السفر لتحصيل الحاجات وهو يدل على شرعية
السفر لغير الثلاثة المساجد، وأن الحديث في شد الرحال إنما هو في السفر
للصلاة في المسجد الذي يسافر إليه فلا تشد الرحال لهذا الغرض إلا إلى
الثلاثة المساجد، فأما لغير الصلاة فلا مانع، وقوله تعالى: ﴿وَلَعَلَّكُمْ
تَشْكُرُونَ﴾ أي تشكرون هذه النعم فتعبدوا الله وحده، أو هذه النعم
وسائر نعم الله عليكم.

﴿وَالْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَّيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَرَ وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ
تَهْتَدُونَ * وَعَلَّمْتَ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ ﴿و﴾ هو الذي ﴿الْقَى فِي
الْأَرْضِ رَوَّيَ﴾ الإلقاء: الطرح بقوة، وفي هذا تمثيل لقدرة الله تعالى أي
بيان لعظمها، كأنه ألقي الجبال في الأرض وطرحها، وهو يناسب جعل
الجبال راسخة في خلال الأرض.

وقوله ﴿رَوَّيَ﴾ أي جبلاً رواسي ثابتات في أماكنها، وقوله: ﴿أَنْ
تَمِيدَ بِكُمْ﴾ أي لئلا تميد بكم، قال الراغب في (المفردات): «الميد:
اضطراب الشيء العظيم كاضطراب الأرض» انتهى.

﴿٧﴾ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٨﴾ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسْرُوبُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا

﴿وَأَنْهَرَا﴾ ألقى في الأرض أنهاراً مجاري للماء أو المراد الماء الجاري في الأنهار ﴿وَسُبُلًا﴾ طرقاً في الأرض ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ في تنقلكم في الأرض بواسطة السبل فتبلغوا ما قصدتم من النواحي وتسلموا التيه والضياع.

وقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْتَ﴾ من الجبال ونحوها يهتدي بها المسافرون، والعلامات يعرفها من قد سافر فيتخذها علامات لنفسه ويعرفها غيره بتعريفه. وقوله تعالى: ﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ فالنجم يتخذونه علامة في الليل يعرفون به الجهة، والنجم: إما مطلق يصدق بأي نجم، وإما خاص بالثريا لكثرة الاهتداء بها في الشتاء؛ لأنهم كانوا يسافرون في الشتاء إلى الحبشة فيركبون البحر الأحمر وفيه يحتاجون العلامات من النجوم، والثريا تكون أول الليل في جهة المشرق فيعرفون بها الجهات.

﴿٩﴾ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٠﴾ أَفَمَنْ يَخْلُقُ ۚ وَهُوَ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ مَا مَرَّ ذَكَرَهُ فِي السُّورَةِ وَغَيْرِهِ مِمَّا هُوَ آيَةٌ وَنِعْمَةٌ وَهَذَا إِنكَارٌ عَلَى الْمُشْرِكِينَ الْجَاهِلِينَ بِاللَّهِ الَّذِينَ جَعَلُوهُ كَشُرَكَائِهِمْ وَالْحَقُّوهُ بِخُرَافَاتِهِمْ، وَلِذَلِكَ نَزَّلُوهُ مِنْزِلَتَهَا وَجَعَلُوهُا أُنْدَاداً لَهُ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى ﴿١١﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٢﴾ مَنْ غَفَلْتُمْ عَنْ اللَّهِ فَتَفَكَّرُوا فِي آيَاتِهِ وَتَعْبُدُونَهُ وَحْدَهُ.

﴿١٣﴾ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤﴾ أَي نَعَمْ اللَّهُ كَثِيرَةٌ جَدًّا لَا نَسْتَطِيعُ احْصَاءَهَا بَعْدُ، وَهَذَا يُوجِبُ شُكْرَهُ وَإِخْلَاصَ الْعِبَادَةِ لَهُ ﴿١٥﴾ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٦﴾ لِأَنَّهُ يَنْعَمُ عَلَى عِبَادِهِ حَتَّى فِي حَالِ كُفْرِهِمْ لَأَنْعَمَهُ وَلَا يَعَاجِلُهُمْ بِالْهَلَاكِ أَوْ قَطْعِ الرِّزْقِ، وَذَلِكَ مَغْفِرَةٌ فِي الْعَاجِلَةِ وَرَحْمَةٌ.

يُخَلِّقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخَلِّقُونَ ﴿١٨٠﴾ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿١٨١﴾ إِلَهُكُمْ إِلَهٌُ وَاحِدٌ ۖ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ

﴿١٨١﴾ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسْرُوتُ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٨٢﴾ فهو الذي يرجى ويخشى؛ لأنه يسمع الدعاء ويقضي الحاجات ويعلم بكفر من كفر نعمته فهو الذي ينبغي أن يعبد خوفاً وطمعاً.

﴿١٨٢﴾ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخَلِّقُونَ ﴿١٨٣﴾ والذين يدعوهم المشركون أي يعبدونهم بالدعاء ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا﴾ فكيف رجوا منهم النفع أو دفع الضرر وليس لهم دليل على أنهم يقدرُونَ على نفع أو دفع ﴿وَهُمْ يُخَلِّقُونَ﴾ يُصْنَعُونَ تماثيل أو أنصاباً يُنَحْتُونَ منها حتى تصير مستوية.

والخلق هنا بمعنى التقدير، كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾ [المائدة: ١١٠] لأن قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يُخَلِّقُونَ﴾ الفعل فيه يفيد التجدد والتكرار ولو كان المعنى خلق الله لهم لكان التعبير عنه: وهم مخلوقون أو خلقهم الله، والتعبير عنهم بعبارة العقلاء لا يدل على ذلك، وإنما هو من لغة العرب، وليس معناها أنهم يعلمون؛ ولعل السبب اعتقادهم أنهم يعلمون فجعلوا لها ضمير من يعلم، وليس الضمير هذا معبراً عن العلم، ولكنه في الأصل - والله أعلم - خاص بمن يعلم ثم صار لمن يعلم ولأصنامهم التي لا تعلم.

﴿١٨٣﴾ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿١٨٤﴾ شركاؤهم أَمْوَاتٌ لأنها جمادات أحجار أو من المعادن أو نحوها ﴿غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾ فهي لا تسمع دعاءهم ولا تعلم ما يصنعون لها ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ﴾ أي متى

مُنْكَرَةً وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَّاذَا أُنْزِلَ رُبُّكُمْ

﴿يُعْتَشُونَ﴾ أي يبعث العابدون لها لأنها لا تعلم شيئاً فضلاً عن أن تعلم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله، قال الشرفي في (المصابيح): «وفيه تهكم بالمشركين».

﴿٢٢﴾ إِلَهُكُمْ إِلَهُ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٣﴾ إِلَهُكُمْ إِلَهُ وَاحِدٌ ﴿٢٤﴾ كَالْتِيْجَةِ الَّتِي أَفَادَهَا مَا سَبَقَ مِنَ الْاِحْتِجَاجِ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ وما بعدها من تعداد النعم وذكر الرزق وآيات قدرته، فأفاد أن الله رب الناس الخالق لهم الرازق لهم وأنه المستحق لأن يعبدوه، فأفاد أنه الإله وأن شركاءهم إنما هم عباد أمثالهم ليس لها فيهم شرك ولا تستحق عبادة، فتبين أن إلههم وإلهنا إله واحد هو الله ربنا.

وقوله تعالى: ﴿فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ﴾ تفريع على قوله: ﴿إِلَهُكُمْ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ أي أن قلوبهم منكرة هذا القول وهم مستكبرون من أن يقال هذا القول، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الصافات: ٣٥] والراجع في معنى الإنكار هنا: أنه إما انقباض من هذا الكلام، كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ﴾ [هود: ٧٠] وقوله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٩] وقول الشاعر:

وأنكرتني وما كان الذين نكرت من الحواث إلا الشيب والصلعا

قَالُوا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٨٢﴾ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿١٨٣﴾ قَدْ مَكَرَ

وإما ﴿مُنْكَرَةٌ﴾ تظنه منكراً فتكرهه، وفي كلام أمير المؤمنين علي عليه السلام في (نهج البلاغة): «أيها المؤمنون إنه من رأى عدواناً يعمل به ومنكراً يدعى إليه فأنكره بقلبه... الخ، وسبب جرأتهم على الباطل أنهم ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ فأعرضوا عن النذير واستكبروا.

﴿لَا جَرَمَ أَنْ اللَّهَ يَعْلَمَ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ إِنَّهُ لَا تُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿لَا جَرَمَ﴾ في (تفسير الإمام زيد عليه السلام): «أي حقاً» انتهى. ﴿أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ﴾ ما يسر المشركون من كراهة الحق وسوء العقائد والنيات وغير ذلك من المنكرات وغيرها ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ من الكفر والشرك وغيره، وهذا في معنى الوعيد بعقابهم، ولذلك علل بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا تُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ والمستكبر: المترفع عن الحق؛ لأجل الكبر الذي في نفسه.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَآذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي إذا سئلوا ﴿مَآذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا﴾ إنما هذا القرآن ﴿أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي لم ينزله الله تعالى ﴿أَسْطِيرُ﴾ جمع أسطورة، وإضافتها إلى ﴿الْأَوَّلِينَ﴾ لينسبها إليهم أي سطرها الأولون أي كتبها.

﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ ﴿لِيَحْمِلُوا﴾ اللام لام العاقبة فهم لا بد أن يحملوا ﴿أَوْزَارَهُمْ﴾ يوم القيامة، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «معناه: آثامهم» انتهى.

الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَنَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَنَّهُمْ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ

وأصل معنى الوزر: الثقل والذنب يشبه به، قال تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ﴾ [الأنعام: ٣١] وقوله: ﴿كَامِلَةً﴾ دليل على أنه لا يحمل عنهم بعضها أو يسقط عنهم بالعفو مثلاً.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ﴾ يحملها المضلون؛ لأنهم سببوا لها فكانت من آثارهم وهذا من غير أن ينقص شيء عن المضلين من إثمهم، وقوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي اتبعوا المضلين بغير علم بل تقليداً كما هو شأن الأتباع.

وقوله تعالى: ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ ﴿أَلَا﴾ حرف تنبيه لما بعدها و﴿سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ أي ﴿سَاءَ﴾ ما يحملون من الأثقال، وفيه إشارة إلى أن الأصل في الحمل أن يحمل لفائده للحامل، مثل: حب، أو فاكهة، أو بضاعة، أو أي متاع، كما مر في قوله تعالى: ﴿وَتَحْمِلُ أُنْقَالَكُمْ﴾ ولكن هؤلاء الكفار يحملون ثقلاً ضاراً لهم غير نافع، فما أسوأ ﴿مَا يَزِرُونَ﴾.

﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَنَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَنَّهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ احتالوا في الكيد ضد نبينهم ولعلمهم قوم إبراهيم عليه الصلاة والسلام مكروا حين القوه في النار.

وقوله: ﴿مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي من قبل هؤلاء الكفار ﴿فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَنَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ﴾ أي دمره الله ﴿مِنْ الْقَوَاعِدِ﴾ أي قواعد البنيان، وهي الأسس أي الموائر، وقوله: ﴿فَأَتَى اللَّهُ﴾ كقوله تعالى: ﴿فَأَنشَأَهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَلَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّغْبَ﴾ [الحشر: ٢] فإتيانه فعله.

الْقِيَمَةِ تُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشْتَقُونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالْسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿١٨٤﴾

وقوله تعالى: ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ أي فسقط فوقهم سقف بنيانهم ﴿وَأَتَتْهُمُ الْعَذَابُ﴾ العاجل ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ مفاجئاً لهم من حيث لا يعلمون لأنهم لم يكونوا يتوقعون سقوطه عليهم.

قال الشريفي في (المصابيح): «قال الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة عليه السلام: وكان غرود هذا معاصراً لإبراهيم عليه السلام وهو الذي حاج إبراهيم في ربه تعالى، فلما غير الله ما به وفارقه إبراهيم عليه السلام مهاجراً إلى ربه أتى الله عز وجل بنيانهم هذا العظيم من القواعد في يوم غيم ومطر وفي برد ورياح، جمعهم بذلك من كل ناحية تدبير الله تعالى إلى ملجأهم هذا الذي اتخذوه من دونه سبحانه عناداً، فخرّ عليهم السقف من فوقهم، التأكيد لكونهم تحته إذ قد تسقط - في الأم سقط - بنيان القوم فلا يكونون تحته، فيقال: انهدم عليهم بنيانهم، ولا يقال: من فوقهم حتى يكونوا تحته فتأمل!! انتهى.

﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشْتَقُونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالْسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ أي بعد عذابهم العاجل ﴿يُخْزِيهِمْ﴾ يهينهم ويفضحهم ويذلهم ﴿وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ﴾ بزعمكم ما لهم لا يدفعون عنكم ﴿الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشْتَقُونَ﴾ من الشقاق ﴿فِيهِمْ﴾ أي من أجلهم فلم يعرفوا لكم مشاقتي فيهم ولم يكافئوكم عليها وهذا توبيخ للمشركين شديد ﴿قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ في الدنيا فعملوا بعلمهم واستعدوا ليوم القيامة ﴿إِنَّ الْخِزْيَ﴾ الذلة والهوان والفضيحة ﴿الْيَوْمَ وَالْسُّوءَ﴾ العذاب ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾.

الَّذِينَ تَتَوَفَّيْهُمْ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوْا أَلْسَلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ
مِنْ سُوءٍ ۚ بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ
خَالِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَيْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾ ۖ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا

قال الشرفي في (المصابيح): «والمراد: أنهم يشمتون بهم؛ لأنهم كانوا
يدعونهم إلى الإيمان فلا يجيبون» انتهى.

﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّيْهُمْ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوْا أَلْسَلَمَ مَا كُنَّا
نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ ۚ بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّيْهُمْ
الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ أي قبض الملائكة أرواحهم وهم على كفرهم لم
يتوبوا فهم ظالمون لأنفسهم بذلك؛ لأنهم سبوا لعذابهم في الآخرة، وفي
هذا دلالة على أن كفرهم فعلهم واقع منهم لأنهم لو لم يكونوا هم أوقعوه
لما كانوا ظالمين لأنفسهم ﴿فَأَلْقَوْا أَلْسَلَمَ﴾ أي استسلموا وانقادوا لهم وذلوا
قالوا: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ﴾ لم يجدوا ملجأ إلا جحد ما عملوا، وهذا
عند التوفي كقول الآخرين لما قالت لهم الملائكة فيم كنتم قالوا كنا
مستضعفين في الأرض ﴿بَلَىٰ﴾ ردٌ لكلامهم أي بل عملتم سوءاً ﴿إِنَّ اللَّهَ
عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فلا يفيدكم جحده.

﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَيْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾
قالت لهم الملائكة ﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾ طويت مدة ما بين موتهم وبعثهم،
كانها لم تكن وكان كلامهم لهم في الآخرة متصل بكلامهم لهم عند الموت
وذلك لقصر المدة حيث لم يعلموا بعد موتهم بمرور السنين فلذلك وصل به
في السياق، ولعل ذكر ﴿أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾ لإفادة كثرة أهلها أو اختلاف عذابهم
في شدته على قدر اختلاف سببه ﴿فَلَيْسَ مَثْوًى﴾ أي مستقر

مَاذَا أُنْزِلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۖ
وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعَمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٠٦﴾ جَنَّتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى
مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ هُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ
﴿٢٠٧﴾ الَّذِينَ تَتَوَفَّيْهُمْ أَلْمَلِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ آدْخُلُوا

﴿الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ الذين ترفعوا في الدنيا عن عبادة ربهم وطاعة رسله، ولعل
التصريح بالخلود لئلا يتوهموا أنهم يموتون حين يلقون في النار كما هو شأن
من يلقى فيها في الدنيا.

﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أُنْزِلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي
هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعَمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ ﴿اتَّقُوا﴾ آمنوا
وأطاعوا ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون فبذلك اتقوا عذاب الله،
سئلوا ﴿مَاذَا أُنْزِلَ رَبُّكُمْ قَالُوا﴾ أنزل ﴿خَيْرًا﴾ وفسروا الخير بقولهم: للذين
أحسنوا آمنوا واتقوا لهم في هذه الدنيا حسنة، كما وعد الله تعالى في قوله:
﴿فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَّةً طَيِّبَةً﴾ فحياتهم طيبة في العاجل.

﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ﴾ وهي الجنة ﴿خَيْرٌ﴾ للذين اتقوا لأنها ماوهم ﴿وَلَنِعَمَ
دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ مدح لها، ثم فسر الدار المذكورة بقوله تعالى:
﴿جَنَّتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ هُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ
كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ﴾ فالدار المذكورة تشتمل على ﴿جَنَّتُ﴾
بساتين ﴿عَدْنٍ﴾ مستقر وأمن ﴿يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا﴾ من تحتها من تحت
أشجارها الأنهار، فهي كما قال تعالى: ﴿أَكْلُهَا قَائِمٌ وَظِلُّهَا﴾ [الرعد: ٣٥] ﴿هُمْ
فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾ ما تشتهي النفس وتلذ الأعين ولما كان الوعد المذكور
للذين آمنوا برسول الله محمد ﷺ وبالقرآن، قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ
الْمُتَّقِينَ﴾ كلهم في كل عصر من الأولين والآخرين.

الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٦﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٢٧﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ

﴿١٢٦﴾ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمْ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمْ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ ﴿١٢٨﴾ لَأَنَّهُمْ ثَبَتُوا عَلَى الْإِيمَانِ وَالتَّقْوَى حَتَّى خَتَمَ لَهُمْ بِذَلِكَ ﴿يَقُولُونَ﴾ أَيِ الْمَلَائِكَةِ لَهُمْ عِنْدَ قَبْضِ أَرْوَاحِهِمْ ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ تَبَشِيرٌ لَهُمْ بِرِضْوَانِ اللَّهِ تَعَالَى وَرَحْمَتِهِ ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يَقُولُونَ فِي الْآخِرَةِ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ وَكَأَنَّهُ كَلَامٌ وَاحِدٌ لِقَرَبِ الْمَدَّةِ لِأَنَّ مَا بَيْنَ مَوْتِهِمْ وَبَعْثِهِمْ كَلَامٌ مَدَّةٌ.

﴿١٢٦﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٢٧﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ ﴿١٢٨﴾ هَلْ يَنْتَظِرُ الْكَفَّارُ الْمَذْكُورُونَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أَيِ لَا يَنْتَظِرُونَ بِإِيمَانِهِمْ ﴿إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ فَتُخَبِّرُهُمْ بِصَدَقِ الرِّسُولِ وَأَنَّ الْقُرْآنَ مِنَ اللَّهِ ﴿أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ وَهُوَ الْعَذَابُ لِيُؤْمِنُوا حِينَ يَرُونَهُ.

﴿كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أَيِ الْكَفَّارِ مِنَ الْأُمَمِ الْمَاضِينَ الَّذِينَ عَذَّبَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ وَلَمْ يَنْفَعِهِمْ إِيمَانُهُمْ حِينَ رَأَوْا عَذَابَ اللَّهِ ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ﴾ بِتَعْذِيهِ لَهُمْ ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ لَأَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ سَبَبُوا لَأَنْفُسِهِمُ الْعَذَابَ بِكُفْرِهِمْ وَجَرَائِمِهِمْ فَاسْتَحَقُّوا الْعَذَابَ فَلَمْ يَكُنْ ظُلْمًا، بَلْ كَانُوا هُمُ الَّذِينَ كَانُوا يَظْلِمُونَ أَنْفُسَهُمْ بِفَعْلٍ مَا يَسْتَحِقُّونَ بِهِ الْعَذَابَ، وَهَذِهِ الْآيَةُ مِنْ أَوْضَحِ الدَّلَائِلِ عَلَى بَطْلَانِ قَوْلِ الْمَجْرِبَةِ كَمَا قَدِمَتْ فِي تَفْسِيرِ مِثْلِهَا مِنْ (سُورَةِ التَّوْبَةِ).

﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ ﴿١٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبْدَنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٧﴾

﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ ﴿فَأَصَابَهُمْ﴾ أي الكفار من الماضين ﴿سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ الإضافة في قوله تعالى: ﴿سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ إما بمعنى السيئات أي العقوبات التي ساءت لهم التي سبب لها ما عملوا من الكفر وغيره، وإما على معنى السيئات مما عملوا أي أصابتهم جرائمهم نسب العذاب إليها وجعلت موقعة له بهم لأنها سببه.

وقوله تعالى: ﴿وَحَاقَ بِهِمْ﴾ أي وقع بهم وأحاط بهم بحيث لم يجدوا سبيلاً للفرار منه والمراد غلبهم وقهرهم ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي الحق الذي كانوا يسخرون منه في الدنيا عذبوا اقتصاصاً وإنصافاً من أجله، فكانه هو أصابهم بالعذاب أو حاق بهم العذاب الذي كانوا به يستهزئون حين يكذبون به والاستهزاء بالحق الذي جاءهم في الدنيا أظهر ولا أذكر أو أعلم أنهم كانوا يستهزئون بالعذاب نفسه فينظر إن شاء الله.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبْدَنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ احتجاجاً على أن الله رضي منهم بالشرك قالوا: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبْدَنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ لأنه قادر على أن يمنعنا ولو قسراً حتى لا نشرك ﴿نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا﴾ فلما تركنا على الشرك دل ذلك على أنه لا يكرهه.

وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ
فَمِنْهُمْ مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي
الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَنِيبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ تَحْرِيصَ عَلَى

ومثل الشرك: تحريم البحيرة، والسائبة، والوصيلة، والحامي، فقالوا: لو
شاء الله ما ﴿حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ لأنه لو شاء ما تركنا نحرم ذلك
ولكان يمنعنا ويمنع آبائنا من الشرك والتحريم من دونه؛ لأنه يعلم ما نفعل.

والجواب: أن هذا الاحتجاج مبني على الكفر؛ لأنه مبني على دعوى أن
الله لم يمنعكم وقد منعكم بما بلغته الرسل ولكنكم كفرتم بهم وليس على
الرسل أن يمنعوك بالقسر وهم لا يستطيعون ما عليهم إلا أن يبلغوكم عن
الله آياته ونهيهِ عن الشرك وتحريم ما أحل الله.

﴿١٨٩﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا
الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي
الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَنِيبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩٠﴾ فَقَدْ نَهَى اللَّهُ عَنِ الشَّرْكِ
وَعَنِ اتِّبَاعِ الطَّاغُوتِ، فَبَطُلَ قَوْلُ الْمُشْرِكِينَ: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾
[الأنعام: ١٤٨] لأنه قد بين بالرسل وبما أرسلهم به أنه لا يرضى ذلك ﴿أَنِ
اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ أي يقول كل رسول عن الله: اعبدوا الله ﴿وَاجْتَنِبُوا
الطَّاغُوتَ﴾ والطاغوت كل داعي ضلالة وطغيان من شياطين الجن والإنس
واجتنابه أن لا يُقرب ولا يسمع كلامه ولا يتبع.

قال الشرفي في (المصابيح): «روي عن القاسم بن إبراهيم عليه السلام أنه قال:
الطاغوت: كل ما أطفئ وأضل عن الحق» انتهى.

هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٧٧﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعَدًّا عَلَيْهِ

فلو اجتنبوا الطاغوت ما أشركوا ولا حرموا من دون الله من شيء فما بقي حجة للمشركين ولا لأبائهم، وقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ حق عليه الخذلان؛ لتمرده وجداله في آيات الله فحق عليه أن يخذل حتى يضل.

﴿٧٧﴾ ﴿إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ ﴿إِنْ تَحَرَّصَ﴾ يا رسول الله على أن يهتدوا وتشتد رغبتك في ذلك ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ﴾ لأن الله لا يضل إلا من هو مستحق بفسقه، فإذا أضله الله بخذلانه تسلط عليه الشياطين وفي قلبه قابلية للضلال واستعداد فلم يبقَ عنده استعداد للهدى بالأسباب العادية فلا يستطيع الرسول ﷺ أن يهديه.

وبهذا تبين أن ﴿مَنْ يُضِلِّلِ اللَّهُ فَلَا هَلْجَى لَهُ﴾ [الأعراف: ١٨٦] هذا على قراءة ﴿يُهْتَى﴾ - بضم الياء، وفتح الدال - أما على قراءة ﴿يَهْدَى﴾ - بفتح الياء، وكسر الدال - فالمعنى: أن الله قد أضلهم فهداهم في حال إضلالهم خلاف الحكمة؛ لأنه تناقض، وكذلك هداهم وقد أضلهم الله برفع الضلال وجعل الهدى مكانه لا يصح؛ لأن الله إنما أضلهم لأن ذلك مقتضى الحكمة فلا يهديهم ما داموا تحق عليهم الضلالة وليس من الحكمة هداهم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ يهدونهم بالقوة أو ينقذونهم من عقاب ضلالهم، قال الشرفي في (المصابيح): «﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ دالٌّ على أن المراد بالإضلال: الخذلان، الذي هو نقيض النصر» انتهى.

حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَذِبِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٣٠﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا

﴿٢٨﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ وَأَقْسَمُوا ﴿٣٠﴾ حلف الكفار أيماناً ﴿٣١﴾ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ﴿٣٢﴾ بالغوا في أيمانهم وتغليظها بقدر طاقتهم ليضلوا من يصدقهم أو ليبطلوا بذلك خبر الله بذلك لجهلهم، فقال تعالى: ﴿بَلَىٰ﴾ وهذا إبطال لنفيهم أي بلى إن الله يبعث من يموت، وعد بذلك ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ﴾ أن يفي به وعداً ﴿حَقًّا﴾ صدقاً لا يتخلف وصواباً ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وعده الحق أو لا يعلمون أنه يبعث من يموت ولا يبطل الحق جهل الجاهلين به.

﴿٢٩﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَذِبِينَ ﴿٣٠﴾ لِيُبَيِّنَ ﴿٣١﴾ أي يبعثهم ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ﴾ في الآخرة ﴿الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ أي الحق بأن بينه وينصر أهله فيبين بذلك الحق أنه الحق، ويبين لهم به خبر الحق وفضله على الباطل ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ حين تكشف الحقائق ﴿أَنَّهُمْ كَانُوا كَذِبِينَ﴾ كاذبين في حلفهم لا يبعث الله من يموت، وكاذبين في تكذيب الرسل، وكاذبين في نفي إنزال الله الآيات، وكاذبين في غير ذلك فيعلموا أنهم كانوا مستمرين على الكذب.

﴿٣٠﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٣١﴾ فبعث من يموت سهل ليس فيه أي صعوبة على الله سبحانه إنما هو كأمرة أن يكون فإذا قال له: ﴿كُنْ﴾ فعند ذلك يكون - والله أعلم.

ظَلِمُوا لِنُبُوءَتِهِمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَا جُزْءَ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٩٢﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿١٩٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا

﴿١٩٣﴾ ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لِنُبُوءَتِهِمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَا جُزْءَ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿هَاجَرُوا فِي اللَّهِ﴾ أي من أجل الله لطاعته ونصرة دينه ﴿مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا﴾ في بلاد الكفر.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال في (البرهان): وهذه الآية نزلت في المهاجرين، الذين عذبوا بمكة، منهم: عمار بن ياسر رضي الله عنه، وصهيب، وخباب بن الارت، وبلال، وسمية أم عمار...» إلخ.

قلت: الأولى: أن لا تعد سمية، لأنه ذكر أنه قتلها أبو جهل، فلا تعد في المهاجرين وإن كانت من المعذبين في الله، وقد ذكر أنها أول شهيد استشهد في الإسلام.

وقوله تعالى: ﴿لِنُبُوءَتِهِمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ لنجعلن لهم في الدنيا مباءة حسنة أو تبوأة حسنة، وهي إما مسكنهم الذي يهاجرون إليه يجعله الله حسناً لهم، وإما حالتهم بعد الهجرة يجعلها حالة حسنة بعزة الإيمان والنصر على أعداء الله والرزق ﴿وَلَا جُزْءَ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ من المباءة الحسنة أو التبوأة الحسنة؛ لأنه نعيم الجنة وملكها الدائم.

وقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ الضمير إما للذين ظلموهم فيكون المعنى لعلمو أنهم سببوا لهم السعادة الدائمة، أو الضمير للذين هاجروا أي لو كانوا يعلمون أجر الآخرة على التفصيل لكان عليهم ما وقع عليهم من الظلم ومن مشقة الهجرة.

رَجَالًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ

﴿١٢٣﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ ﴿صَبَرُوا﴾ على التعذيب والظلم بأن ثبتوا على الإسلام، وصبروا على مشقة الثبات على الإسلام وعلى مشقة الهجرة ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ فيهاجرون لا يمنعهم خوف الجوع، ويثبتون على الدين لا يمنعهم خوف غلبة الكفار لأنهم على ربهم يتوكلون، فقد وكلوا أمورهم إليه ورضوا لأنفسهم في طاعة الله بما كتب لهم من فقر أو غنى أو أمن أو خوف أو حياة أو قتل.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجَالًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ لإرسال الرجال إلى الناس سنة الله في الذين خلوا، فمطالبة هؤلاء الكفار بإرسال الملائكة واستبعادهم لإرسال رجل منهم إنما هو جهل منهم ﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ﴾ العلم القراء للذكر عن هذا، هل كانت الرسل رجالاً أو ملائكة، فهي من أوضح وأظهر ما ينقل من التاريخ يعرفه الكفار من القراء ومن قد أسلم، وسؤالهم للكفار في هذا الذين يجيبون فيه بالحق وهو إقرار منهم بالصدق مع كفرهم بمحمد ﷺ لا مانع منه، وليس المراد بسؤالهم في غير هذا.

فأما تفسير أهل ﴿الذِّكْرِ﴾ بآل محمد ﷺ فهو من التطبيق، لا أنه المفهوم بل بطريق القياس، قال الشرفي في (المصابيح): «قال في (البرهان): وهذا خطاب لمشركي قريش أنه ما بعث رسولاً إلا من رجال الأمة، وأنه ما بعث إليهم ملكاً» انتهى.

يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٩﴾ أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلِبِهِمْ فَمَا

﴿١٩﴾ ﴿بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ﴾ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي ما أرسلنا إلا رجالاً بالبينات ﴿وَالزُّبُرِ﴾ أي الكتب، فالبينات الآيات الواضحات في دلالتها على صدقهم وعلى ما جعلها الله بينات له، والزبر يحفظ ما أراد الله حفظه بها من العلم والدين والحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ﴾ القرآن الدال على أنك رسول من الله ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ﴾ لتبلغهم بلاغاً بيناً ﴿مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ من القرآن وسائر الوحي ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ إذا سمعوا آيات الله فيعلمون أنه الحق من الله فيؤمنون.

﴿٢٠﴾ أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿أَفَأَمِنَ﴾ سؤال توبيخ للذين مكروا ضد الرسول ﷺ وضد الذكر الذي أنزله الله إليه أي أنزلناه إليك فأمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا المكرات ﴿السَّيِّئَاتِ﴾ كإقسامهم بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت احتجاجاً بذلك على كذب الرسول في دعوى الرسالة.

وكقولهم: ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُبْتَئِكُمُ إِذَا مَرْتُمْ كُلُّ مُمْزِقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَلِيدٍ﴾ أفترى على الله كذباً أم به حنثاً ﴿سبأ: ٧-٨﴾ وكمكرهم في (دار الندوة) المذكور في قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ [الأنفال: ٣٠] أفأمنوا بعد وضوح الحق بهذا القرآن الذي هو معجزة كبرى ﴿أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ﴾ عقاباً عاجلاً.

هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٦﴾ أَوْ يَأْخُذْهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧﴾
 أَوْلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلَّيْلُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ
 سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿١٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ

﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ﴾ من الله ﴿الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ من حيث لا يعلمون بإتيانه كما أتاهم يوم بدر وهم كثير وافروا العدة من الخيل والسلاح والمؤمنون قليل في عددهم مع قلة عدتهم من الخيل والسلاح فنصر الله رسوله وهزمهم وقتل بعضاً وأسر بعضاً ورد الله الذين كفروا بغيظهم وقمع كبرهم وخيب أملهم وأذلهم بعد أن كانوا يظنون أنه لا غالب لهم من الناس فكان ذلك عذاباً من حيث لا يشعرون.

﴿أَوْ يَأْخُذْهُمْ فِي تَقْلِبِهِمْ﴾ ﴿فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ * أَوْ يَأْخُذْهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿أَوْ يَأْخُذْهُمْ﴾ أَوْ آمَنُوا أَنْ يَأْخُذْهُمْ ﴿فِي تَقْلِبِهِمْ﴾ في البلاد في بعض أسفارهم ﴿فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ لله أَنْ يَأْخُذْهُمْ في أي حال من أحوالهم شاء فهو على كل شيء قدير لا يعجز سبحانه عن شيء ﴿أَوْ﴾ أَنْ ﴿يَأْخُذْهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾ وحذر من أخذه؛ لأن الله غالب على أمره لا يدفعه حذرهم إذا أتاهم عذابه ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ حيث أمهلكم وأنتم تمكرون برسوله وكتابه ولم يعاجلكم بالعذاب فوراً حين مكرتم وقد ارتكبتم منكراً عظيماً تستحقون به العذاب العاجل والآجل.

﴿أَوْلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلَّيْلُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ ﴿أَوْلَمْ يَرَوْا﴾ أمكروا السيئات ولم يروا ما يذلهم على قدرة الله وقهره لما خلق بل رأوا ذلك ولكنهم معرضون عن آيات الله وعن التفكير فيها فما أجهلهم لأنهم قد وقعوا في الخطر وهم في سكرتهم يعمهون.

مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَكَةِ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٩﴾ تَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ
وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٢٠﴾ * وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ

وقد ضمن ﴿يَرَوْنَ﴾ معنى ينظروا فعدي بـ ﴿إِلَى﴾ أي ينظروا إلى ذلك في
حال أن تلك المخلوقات ساجدة لله داخرة صاغرة ذليلة تحت قهره تعالى
وسلطانه وملكوته.

وقوله تعالى: ﴿يَتَفَيَّؤُا ظِلَّلُهُ﴾ التفيؤ: التردد من فاء إذا رجع لأن الظل
يأتي ويذهب ثم يرجع في اليوم الثاني حيث كان في اليوم الأول، أو حيث
كان وحوله فهو يرجع ويتكرر منه الرجوع.

وقوله تعالى: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَالْشَّمَائِلِ﴾ تذكير بالظل الذي يكون أول
اليوم والذي يكون في آخر اليوم، وظلاله: جمع ظل، والشمائيل: جمع شمال،
وإفراد اليمين مناسب لإفراد كلمة ما خلق الله من شيء، وكذا إفراد الضمير
في ظلاله، وأما جمع الشمائيل فعلى المعنى لتعدد الظلال، ولعل فائدة الإفراد
أن كل فرد آية كاملة، وفائدة الجمع: التذكير بتعدد الآيات.

و﴿سُجَّدًا﴾ أي خاضعات حالاً من شيء لتخصصه بالوصف بجملة يتفيؤ
ما بعده، ولعل ذكر الظلال لإفادة أنها تضربه الشمس أول اليوم وآخره
لإصلاح الأرض والشجر والجبال والحيوان تضربه الشمس عن يمينه وشماله،
فهو يتصرف فيها وهي خاضعة لتصرفه، وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ أي
أذلاء صاغرون، والجمع بالواو مناسب لنسبة السجود إليهم لله.

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَكَةِ
وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ ﴿وَلِلَّهِ﴾ وحده خضعت كل دابة، وذلك لأنه يتصرف
فيها كيف يشاء لا تمتنع من تصرفه فيها، كتصرفه بالمرض بعد الصحة،
والهرم بعد الشباب، والحياة بعد الموت.

وهذا السجود غير خاص بالدواب إلا أن الجماد قد أفادته الآية الماضية، وقوله: ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ﴾ لعله عبارة عن النيرات فهي خاضعة لتسخير الله لها وتصرفه فيها.

وقوله: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾ أي يسجدون لله وخضوعهم لله بعبادتهم لله ربهم وباستسلامهم لصنعه فيهم وتصريفه لأحوالهم ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ عن عبادة الله، كما قال تعالى: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء: ١٧٢] وفيه تعريض بالمستكبرين من الناس واحتجاج على الذين يعبدون الملائكة.

﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ ﴿مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ متعلق بـ ﴿يَخَافُونَ﴾ فمصدر خوفهم أنه من فوقهم بالقهر، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨] في إثبات الخشية وهي خشية منه أن يعصوه أي خوف من عذابه لأجل خوفهم من أن يعصوه كقول رسول الله ﷺ: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأنعام: ١٥] ولعل خوفهم من الله هو سبب عصمتهم من الذنوب، فلا يقال: كيف يخافون وهم معصومون؟

وذلك لأن العصمة ليست جبراً إنما هي تيسير أسباب التقوى، والخوف من أعظم أسبابها، فأما إسناد خوفهم إلى ربهم، فلأنهم يذكرونه كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢] وذكرهم لعزته وحكمته وقهره فوق عباده يسبب خوفهم من عقابه أن يقع عليهم لو عصوه فهو خوف من ربهم؛ لأنه يعذب فخوفهم من ربهم يبعثهم على اجتناب ما نهى عنه واجتناب دعوى ما ليس لهم بحق كدعوى الإلهية التي يدعيها بعض المشركين.

إِلَهُ وَاحِدٌ فَإِنِّي فَأَرْهَبُونَ ﴿٥١﴾ وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ
وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمْ

﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ وهذا يعم مثل ما أمر به ملك الموت من قبض
الأرواح وما يؤمر به خزنة جهنم من تعذيب أهل النار وغير ذلك ولعله زيد
قوله تعالى: ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ للتنبيه للمشركين على ذلك أو للتصريح
بطاعتهم لله في الأمر كما يطيعونه في النهي؛ لأن ذكر الخوف في الدلالة على
اجتناب المنهي أوضح - والله أعلم.

﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ فَإِنِّي فَأَرْهَبُونَ﴾
﴿وَقَالَ﴾ عطف، ولعله عطف على قوله تعالى: ﴿وَقُلْ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ وإن
طال الكلام؛ لأنه طال في الرد عليهم والاحتجاج على بطلان الشرك ونحو
ذلك ﴿إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ تحقيق للنهي عن الثنية ولا يتضمن النهي عن إثبات إله
واحد؛ لأن الحكم على المثني قد يتضمن تشريك الواحد في الحكم من حيث
أنه بعض المثني كما إذا قلت: أطعم الزيدين، فإنه يتضمن الأمر بإطعام زيد
بحيث لو وجد أحدهما دون الآخر لزمه إطعامه، بدلالة التضمن.

فقوله ﴿اثْنَيْنِ﴾ يدفع توهم النهي عن إثبات إلهين أو إله واحد، وعلى
أقل تقدير أن يكون التعبير حسناً من حيث وضوح المراد به كما لو قال
تعالى: لا تشركوا، ولعل ذكر الاثنين لزجر من اتخذ النور والظلمة، ومن اتخذ
يزدان وأهرمن، ومن اتخذ مع الله إلهاً واحداً، وبالأولى من اتخذ أكثر من
اثنين؛ لأنه قد تضمن الاثنين، وزاد ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ إنما الإله إله
واحد، أو الضمير مبهم يفسره إله واحد، مثل: ﴿فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾
[البقرة: ٢٩] ﴿فَإِنِّي﴾ التفات يبين أن المراد بالإله الواحد الله تعالى.

﴿فَإِنِّي فَأَرْهَبُونَ﴾ أي فارهبوني وحدي، وفيه دلالة على وجوب عبادته من حيث تقدير أنه الإله تعالى، وذكر الرهبة إما لأن عبادته عبادة رهبة من عذابه أي أن الرهبة تبعث على عبادته طلباً للنجاة من عذابه، والحصص؛ لأن غيره من شركائهم لا يضر ولا ينفع ولذلك فلا يُرهب.

فالحاصل: أن المعنى الأمر بإخلاص العبادة له، ويحتمل فيأي فارهبون فاتركوا الشرك حذراً من عذابي تفريع على إبطال الشرك، ويمكن حمل الجملة على المعنيين؛ لأنه لا تنافي بينهما والتفريع صحيح لكل منهما والرهبة معناها الخوف أو خوف مخصوص.

قال الراغب: «الرهبة والرهب: مخافة مع تحرز واضطراب» انتهى. ولعله يعني بالاضطراب القلق وفي الآية دلالة على أنه لا يجوز الخوف ممن يعتقد فيه أنه يضر من دون الله بما لا يقدر عليه إلا الله، وأن الواجب دفعه بالإيمان.

﴿وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ﴾ أي لله ما في السموات فالملائكة عباده والأرض، فكل من يعبدهم المشركون من دون الله هم عباد الله وهو ربهم، فالمشركون عبدوا من دون الله عبادة أمثالهم في العبودية ليس لهم شيء من الربوبية ﴿وَلَهُ﴾ أي والله ﴿الدِّينُ﴾ العبادة فهو الذي يستحقها، قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥] وهو الذي تنفع العابد عبادته بخلاف شركاء المشركين فلا تنفع عبادتهم بل تضر مع أنها باطل لا حق لهم فيها.

﴿وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «يعني دائماً» انتهى، وفي (مفردات الراغب الأصبهاني): «ومعنى الواصب: الدائم أي حق الإنسان أن يطيعه دائماً في جميع أحواله كما وصف به الملائكة، حيث قال: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم: ٦٠] انتهى.

الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْرُونَ ﴿٥٧﴾ ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٨﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَجْعَلُونَ

قال الشرفي في (المصابيح): «قال في (البرهان): و﴿الَّذِينَ﴾ الطاعة والإخلاص ﴿وَأَصْبًا﴾ أي واجباً خالصاً يدوم ولا يزول» انتهى.

﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ﴾ فتشركوا به اتقاء لضره، وهذا يشير إلى الحجة التي آتاها إبراهيم على قومه، حيث قال: ﴿وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ..﴾ إلى قوله: ﴿..وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَلِيُفَرِّقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٨٠-٨١].

﴿وَمَا بِكُمْ مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْرُونَ﴾ ﴿وَمَا بِكُمْ مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ أي وحده فهو المستحق للعبادة شكراً على نعمه التي لا يحصيها العبد ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ﴾ مثل المرض والجوع والخوف من غرق أو زلزلة أو نحو ذلك ﴿فَإِلَيْهِ تَجْرُونَ﴾ أي فإليه تلجئون بالدعاء أو نحوه بصوت رفيع، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «﴿فَإِلَيْهِ تَجْرُونَ﴾ ترفعون أصواتكم» انتهى، وفي (لسان العرب): «جَارَ يَجَارُ جَاراً وَجُؤَاراً: رفع صوته مع تضرع واستغاثة» انتهى المراد.

وقال في (الصحيح): «الجؤار مثل الخوار، يقال: جَارَ الثور يَجَارُ أي صاح وقرأ بعضهم عجلاً جسداً له جؤار - بالجيم - حكاة الأخفش، وجَارَ الرجل إلى الله - عز وجل - أي تَضَرَّع بالدعاء» انتهى.

قلت: ولعله عُدِّي بـ(إلى) لتضمنه معنى التضرع.

وقال في (الكشاف): «والجؤار: رفع الصوت بالدعاء والاستغاثة، قال الأعشى يصف راهباً:

يرأح من صلوات المليك طوراً سجوداً وطوراً جؤاراً» انتهى

لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَهُمْ ۖ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥١﴾
وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَنَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ

وقد شاهدت جوار الناس في بلادنا حين وقعت الرجفة الشديدة في يوم السبت خامس عيد الأضحى سنة (١٣٥٩) هجرية، فارتفعت الأصوات الكثيرة بالتهليل والتكبير وفي تلك الأيام رجع الناس إلى الله وشاع الصلاح وتلاوة القرآن.

﴿ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ الذي هو سبب اللجوء إلى الله فاجأ الشرك من بعض الناس ولم يكن من حقه أن يشرك بعد ما جاءته الآية المسببة للجوار ولا إشكال في نسبة الشرك إلى فريق إذا كان الخطاب عاماً للمكلفين من قول الله تعالى: ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ﴾.

﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿لِيَكْفُرُوا﴾ أي يشركون ليكفروا بما آتاهم الله من نعمه وآياته ويستمروا على طريقتهم في اتباع هواهم وما ألفوه من الإقبال على الدنيا والإعراض عن الشكر وعن التقيد بطاعة الله في أي شيء مما تهواه أنفسهم وما اعتادوه من باطلهم وكفرهم، ثم خاطب الله هؤلاء الكفار المشركين بقوله: ﴿فَتَمَتَّعُوا﴾ وهو تهديد، كقوله تعالى: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ [نصفت: ٤٠] وكذا قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أي تعلمون عاقبة ما اخترتم من الشرك والكفر والباطل كله.

﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَهُمْ ۖ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ ﴿لِمَا لَا يَعْلَمُونَ﴾ لشركائهم لأنهم يجعلون لألهتهم نصيباً كما ذكره الله تعالى في (سورة الأنعام) في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ

وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا... ﴿آية: ١٣٦﴾ فجعلوا لأهلهم ﴿نَصِيبًا﴾ بناءً منهم على أنهم آلهة وهم لا يعلمون أنهم آلهة وقد علموا أن الله الخالق لذلك الذي جعلوه لشركائهم أنعم الله به، فكفروا نعمته بجعله لشركائهم، وجمعهم بين الشرك ومعصية الله بنفس نعمته.

ثم توعدهم الله تعالى على ذلك بقوله تعالى: ﴿تَأَلَّه﴾ وهو قسم فيه تعجيب من حالهم وغفلتهم عن مصيرهم وجرأتهم على أسباب العذاب ﴿لَتَسْأَلُنَّ﴾ أي يوم القيامة ﴿عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتُرُونَ﴾ كله كافترائهم الشرك وافترائهم بإثبات نصيب من رزق الله لشركائهم، وهذا السؤال يترتب عليه الحكم عليهم والجزاء الأوفى.

﴿وَجَعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَنَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ ﴿وَجَعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ﴾ فكانوا مبطلين بإثبات الولد لله، ويجعل الملائكة إناثاً، ويجعل ما يكرهون لله، فجمعوا بين ثلاثة أقوال باطلة ﴿سُبْحَنَهُ﴾ تنزيه له تعالى عما جعلوا له لأنه سبحانه الغنى وكل المخلوقين عباده.

وقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ أي ولهم البنون نعمة من الله عليهم فقابلوا نعمته بكفرهم المذكور وهذا على فرض أن (الواو) للحال في قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ﴾ وهو أرجح من جعلها للعطف، وإدخال البنين في جعلهم لأن جعلهم البنين لأنفسهم هو صدق وحق، كما قال تعالى: ﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنِاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾ [الشورى: ٤٩] فمن البعيد أن يعد من جهالاتهم إثبات البنين لأنفسهم.

ويمكن أن يجاب عن هذا بأن حكاية جعلهم لأنفسهم ما يشتهون ليس على معنى تجهيلهم في هذا، وإنما هو على معنى الاحتجاج عليهم،

بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَبِهِٗٓ أَيَمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ

كأنه قيل: يجعلون لله البنات مع أنهم يجعلون لأنفسهم البنين؛ لأنهم يشتهون البنين، ونظيره: ﴿اتَّمُرُوا النَّاسَ بِالنِّيرِ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٤] ليس إنكاراً للأمر بالبر، وإنما هو احتجاج عليهم في نسيانهم لأنفسهم.

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ ﴿بُشِّرَ﴾ بالأنثى أخبر بها - أي بولادتها - وقيل له: ولدت لك أنثى ولعل سبب جعل إخبار الوالد بالمولود تبشيراً لأنه كان يُسرُّ به الوالد ثم صار عبارة عن إخباره بالمولود وإن كان لا يستبشر به.

وقال في (الصحيح): «والبشارة المطلقة لا تكون إلا بالخير، وإنما تكون بالشر إذا كانت مقيدة، كقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾» [آل عمران: ٢١] انتهى.

وقوله تعالى: ﴿ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا﴾ كناية عن غيظه أو غضبه أو كراهته الشديدة لما بشر به التي اسود وجهه من أجلها، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أي شديد الغيظ أو الحزن أو نحو ذلك كأن قلبه مملوء بذلك.

قال الشريفي في (المصابيح): «قال في (البرهان): الكظيم الحزين المغموم الذي يطبق فاه فلا يتكلم من الغم مأخوذ من الكظامه وهو سد فم القربة» انتهى، وعبارة (الراغب): «وكَظُمُ السقاء شدّه بعد ملئه مانعاً لنفسه» انتهى.

﴿يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَبِهِٗٓ أَيَمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ ﴿يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ﴾ يكون حيث لا يروونه،

الْحَكِيمُ ﴿٦﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَنْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا

ولعل ذلك يفعله فراراً من ضحكهم وسخريتهم بسبب البنت المولودة له، فهو توارى من القوم من سوئها في اعتقاده.

قال الراغب في (المفردات): «السُّوءُ: كل ما يَغْمُ الإنسان من الأمور الدنيوية والأخروية ومن الأحوال النفسية والبدنية والخارجة من فوات مال وجاه وفقد حميم» انتهى.

﴿أَيَمْسِكُهُ﴾ أي يفكر في حال تواريه أيمسكه ﴿عَلَى هَوًى﴾ على هوان وذلة لعله لخوف الفقر من زيادة النفقة؛ أو للخوف من كلام السفهاء وسخريتهم منه؛ أو للخوف من أن تنهب عليه في حرب فتسبى ويكون ذلك عاراً عليه؛ أو للخوف من أن يضطر إلى تزويجها من غير كفؤ أو نحو ذلك مما يخوفه الشيطان ليدسها في التراب أي يدفنها لتموت في التراب ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ ﴿أَلَا﴾ تنبيه للسامع ليصغي للقرار بعدها ﴿سَاءَ﴾ قبح ﴿مَا يَحْكُمُونَ﴾ حيث جعلوا لله ما يكرهون، أي جعلوا له البنات وهن عندهم سوء.

﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السُّوءِ﴾ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿لِلَّذِينَ﴾ أي لهؤلاء الذين جعلوا لله البنات لأنهم ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ فكان عدم إيمانهم بها سبباً لتجريمهم على الجرائم من الشرك وجعل البنات لله سبحانه وواد البنات وغير ذلك، فلو كانوا يؤمنون بالآخرة لردعهم الخوف من عذاب الله، فلهم ﴿مَثَلُ السُّوءِ﴾ فهم المستحقون له، أو هو عام لكل من لا يؤمن بالآخرة، والمثل هنا بمعنى قول الواصف الذي يضيف إلى من يقول فيه أمراً.

يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ ﴿٧﴾ تَاللَّهِ لَقَدْ

والسَّوْءُ: مصدر ساء ضد سرَّ، كما أفاده في (الصحيح) فمثل السوء: المثل الذي يسوء، فالذين لا يؤمنون بالآخرة هم المستحقون أن يقال فيهم القول الذي يسوءهم لاستحقاقهم الذم والإهانة.

﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ فهو الذي يستحق التحميد والتكبير والتسبيح والتهليل وكل ما تفيده أسماؤه الحسنى ينسب إليه في السموات والأرض، كما قال تعالى: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الروم: ٢٧] ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذي لا يُنال ﴿الْحَكِيمُ﴾ فلا يتخذ ولداً لا ذكراً ولا أنثى؛ لأنه الغني.

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَحْضِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ ﴿يُؤَاخِذُ﴾ فعل مضارع للحال، وقد يكون هذا الحال مدة طويلة؛ لأنه يعبر عن العادة المتكررة التي هي غير محدودة، مثل: «الحسد يأكل الحسنات» ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥] فقوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ﴾ أي لو كانت عادته في هذه الدنيا أن يؤاخذ الناس بظلمهم وظلمهم هو المعاصي كما حققته فيما مرَّ ﴿مَا تَرَكَ عَلَيْهَا﴾ أي على المسكونة ﴿مِنْ دَابَّةٍ﴾ فكان يهلك الناس أينما كانوا من الأرض ويهلك ما حولهم من الدواب، وهذا يشعر بعذاب يعم الناس والدواب كلها فهو عذاب شديد، كالغرق لقوم نوح أو غيره، والدواب لها أعواضها فيما لحقها من ذلك العذاب وكذلك الأطفال ولكن يؤخرهم هذا في العادة الغالبة، وقد يهلكهم في حالات نادرة إذا كذبوا الرسل وحاربوا الدين كما دل عليه في القرآن في سور متعددة ﴿وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ﴾ في العادة ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ﴾ وهو الموت أو العذاب الذي آخر عنهم وأمهلوا قبله ﴿لَا يَسْتَعْجِرُونَ سَاعَةً﴾ في الحياة ﴿وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ الموت قبل أجله لأن الله غالب على أمره؛ ولذلك يموت الأطباء الكبار والملوك الذين تجتمع الأطباء للتوصل إلى دفع المرض عنهم حرصاً على حياتهم.

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ﴾ ﴿مَا يَكْرَهُونَ﴾ إما البنات وأعيد ذكره ليرتب عليه ما بعده، وإما كل ما يكرهون مما حرموه على أنفسهم فلم يجعلوها لله إلا لأنهم يكرهونها وهذا من لؤمهم وبعدهم عن شكر نعمة الله ﴿و﴾ مع هذا ﴿تَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ﴾ الوصف ﴿الْكَذِبَ﴾ أي يقولون في أنفسهم الكذب الذي لا أصل له، إنما هو اختلاق ألسنتهم له وهو دعواهم أن لهم الحسنى أي أنهم يستحقون الحسنى وأنهم أهل لأن يؤتيهم الله الحسنى، كقوله: ﴿وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠] وقوله: ﴿وَلَئِنْ رُيِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٦].

﴿لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ﴾ حقاً أن لهم النار، فهي التي يستحقونها، قال الشرفي في (المصاييح): «﴿لَا جَرَمَ﴾ يعني قطعاً ﴿أَنَّ لَهُمُ النَّارَ﴾ وحقاً أنهم يعذبون بها، ثم قال: وقال الحسين بن القاسم عليه السلام: معناه - كذا - لا جرم أي لا شيء ألزم من أن لهم النار» انتهى المراد. وفي (تفسير الإمام زيد عليه السلام): «﴿لَا جَرَمَ﴾ أي حقاً» انتهى.

ومحل هذا التفسير ﴿لَا جَرَمَ﴾ الماضية في هذه السورة، والحاصل: أن لا جرم تفيد تأكيد ما بعدها ﴿وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ﴾ - بكسر الراء - مسرفون، - وافتح الراء - مقدمون إليها قبل أتباعهم، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَىٰ الرَّحْمَنِ عِتِيًّا﴾ [مریم: ٦٩] فالمعنى مع - فتح الراء - وأنهم مفرطون إليها أي إلى النار.

أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ
وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٧﴾ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي

قال الشريفي في (المصابيح): ومنه قول النبي ﷺ: «أنا فرطكم على
الحوض» أي متقدمكم، انتهى المراد.

﴿٢٧﴾ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَهُوَ
وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ أَعْمَلَهُمْ ﴿٢٩﴾ مخالفة الرسل ومعصية الله، وهو
أعم من الشرك ومن تكذيب الرسل ﴿فَهُوَ﴾ أي الشيطان ﴿وَلِيُّهُمُ﴾ قد
حرموا ولاية الله لهم وخذلوا فتولاهم الشيطان ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ
يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [الحج: ٤] فهو وليهم في حياتهم، واستمر
حكم الولاية بعد موت من قد مات منهم، لأنه لم يخرج من طاعة الشيطان
ولم يبدل بولاية الله ﴿ذَلِكَ يَأْنِي اللَّهُ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى
لَهُمْ﴾ [عمد: ١١] فلا ولي لهم إلا الشيطان وهو لا يفيدهم شيئاً، وإنما بقي
عليهم حكم ولايته هذا فيمن قد مات منهم، أما من لم يزل حياً من أهل
الكتاب وغيرهم فظاهر، فقوله تعالى: ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ﴾ معناه أنهم تحت
ولاية الشيطان حتى اليوم نعوذ بالله منه.

قال الشريفي في (المصابيح): «وهذا تسلية للرسول ﷺ فيما كان يناله من
الغم بسبب جهالات القوم» انتهى، قلت: وفيه تحذير من معصية
الرسول ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ بيان لنتيجة ولاية الشيطان وعصيان
الرسول ﷺ فهي عذاب جهنم، ففيهم عبرة لمن أرسل الله إليهم
محمدًا ﷺ.

أَخْتَلَفُوا فِيهِ^٧ وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا^٨ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ

﴿٦٤﴾ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٥﴾ هذا رد على المكذبين بالقرآن الذين قالوا أساطير الأولين فما أنزله الله إلا نعمة ورحمة وهدى لمن آمن، فما كان ينبغي لهم لو استعملوا عقولهم محاولة رده وإبطاله؛ لأن ذلك جهالة وحمالة إذ عَرَضَ عليهم الخير فلم يقبلوه واستبدلوا به طاعة الشيطان وولايته والذي اختلفوا فيه شيء معروف معهود عندهم؛ ولذلك جعل صلة الموصول قوله: ﴿أَخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ ولعله البعث، قالوا: كانت العرب مختلفة فيهم من يشبهه ومنهم من ينفيه، وبيانه فيه إنذار وتبشير، فهو مطابق لقول الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الإسراء: ١٠٥].

وقوله تعالى: ﴿وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ إما بمعنى: من شأنهم أن يؤمنوا؛ لأنهم منصفون طالبون لمعرفة الحق وما تبين لهم من الحق آمنوا به، وإما بمعنى: مؤمنين، كقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً﴾ [فصلت: ٤٤] والأول أقرب هنا - والله أعلم.

﴿٦٥﴾ وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا^٨ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٦﴾ وَاللَّهُ أَنْزَلَ ﴿٦٧﴾ المطر ففيه آية تدل على قدرته وعلمه وعلى أنه الرزاق لعباده، وعلى أن الحياة بعد الموت حق بقدرته الله تعالى وعلمه فكما أحى الأرض بعد موتها يحيى الأجساد بعد موتها وهذه الآية احتجاج على الكفار؛ لأنهم يقولون: ﴿أَيْنَمَا كُنَّا تَرَابًا وَأَبَاؤُنَا أَتَيْنَا لَمُخْرَجُونَ﴾ [النمل: ٦٧] وقوله تعالى: ﴿لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ يفيد: أن الآية هذه واضحة إذا أصغى لها الكفار أسماعهم كفتمهم ولكنهم يعرضون.

لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةٌ ^{عَلَيْكُمْ} نَسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ

﴿٢٦﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ^{عَلَيْكُمْ} نَسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ ﴿٢٧﴾ ﴿الْأَنْعَامِ﴾ الإبل والبقر والغنم ﴿لَعِبْرَةٌ﴾ آية تدل على قدرة الله تعالى على ما يستبعده الإنسان، وهذه العبرة فسرهما قوله تعالى: ﴿نَسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾ فاللبن يتكون من غذاء الأنعام سواء كان من الفَرث قبل أن يتكون منه الدم أم كان من الفَرث بعد أن يتكون منه الدم، ويتكون اللبن من الدم، فكل ذلك عبرة تدل على قدرة الله تعالى على ما يستبعده الإنسان؛ لأن اللبن خالص ليس فيه شائبة فرث ولا دم مع مرور أصل اللبن من بين الفَرث والدم، فإذا عرف الإنسان هذا وفكر فيه فليعرف قدرة الله على إحياء الموتى، وليعرف أن مجرد الاستبعاد لا ينافي قدرة الله القدير العليم لما شاهد من صنعه لما استبعده الإنسان.

﴿٢٧﴾ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ ﴿و﴾ نَسْقِيكُمْ ﴿مِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ﴾ كما نسقيكم اللبن الخالص نسقيكم عصير العنب ونبذه وكذلك لب الرطب ونبذه ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا﴾ مسكراً محرماً عليكم ﴿وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ حلالاً طيباً، ومنه الخل يجعل في الإدام، وروي فيه الحديث عن النبي ﷺ: «نعم الإدام الخل». وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «السُّكْر الحرام والحسن الرزق الحلال» انتهى.

إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿١٨﴾ ثُمَّ كُلِّي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا مَخْرُجٌ مِنْ بَطُونِهَا شَرَابٌ

وقال الشرفي في (المصابيح): «قال الهادي عليه السلام في تفسيره لهذه الآية ما لفظه: هذا إخبار من الله تبارك وتعالى بما رزقهم من ثمرات الأشجار التي يتخذون منها الأرزاق ويدخرونها من التمر والزبيب وغير ذلك من الحبوب التي هي معيشة لهم وحياة، ويتخذون - أيضاً - السكر الذي نهاهم الله عنه وحرمه عليهم فوقفهم هاهنا في هذه الآية على كفر من فعل ذلك لِنِعْمِهِ إِذْ صَرَفُوا رِزْقَهُ فِي السَّكْرِ الَّذِي حَرَّمَهُ.

ثم قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ فأخبر أن فيما فعل وفعلوا من حسن رزقه وجميل فعله بهم واتخاذهم له سكرًا وصرفهم عن الطاعة إلى المعصية ﴿لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ انتهى. آية لأهل العقول الذين يستعملون عقولهم تدلهم على قدرة الله تعالى وعلمه وكرمه وسعة فضله وحلمه.

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ ﴿وَأَوْحَىٰ﴾ علمها وهداها لاتخاذ بيوت كما هدى سائر الطير لاتخاذ بيوت، ولكن هدى النحل لاتخاذ بيوت تناسب إنتاجها للعسل فلو اتخذت بيوتها في الأرض كالنمل لاختلط العسل بالتراب عند التماسه، وكذلك لو صنعت لها أعشاشاً من جنس أعشاش الطير لكان يختلط بأعشاشها ويسيل خلالها، ويمتزج بالخيوط والريش والأعواد ونحوها، وهذا مع ما جعله تعالى لها من تدبير اجتماعها واتباعها ليعسوبها حتى تتعاون على إنتاج العسل في بيوتها.

مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٦﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ ۚ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ

وقوله تعالى: ﴿وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ أي خلايا النحل التي تجعل على العرش، وجعلها سبحانه مأمورة لأنه جعل لها رغبة لوظيفتها فهي تقبل عليها إقبال المأمور، وذلك لتحصل فائدتها للإنسان فتسخيرها لنفعه كالأم.

﴿ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ تَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ﴿ثُمَّ كُلِي﴾ أيها النحل ﴿مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ وهذا هو الأصل في طلبها لرزقها وبه يكون العسل جيداً، أما إذا جعل لها نوع مخصوص كانت جودة العسل ونقص جودته تبعاً لذلك ﴿فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ﴾ سبله إلى الثمرات وسبله إلى الخلايا وإلى الماء فهي ملهمة لأرزاقها ومائها ملهمة للعودة إلى بيوتها ﴿ذُلُلًا﴾ قد ذللها الله وسخرها لذلك، فهي في خدمة الإنسان عاملة مستمرة.

﴿تَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا﴾ اختلف السياق فلم يجعل هذا مما أمرت به؛ لأنه يخرج من بطونها اضطرارياً ﴿شَرَابٌ﴾ كما جعل من الثمرات شراباً ومن الأنعام شراباً ﴿مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ﴾ بعضه أبيض وبعضه أحمر وبعضه أسود وذلك بتدبير الخالق البصير ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ وهذا واضح بالتجربة.

قال بعض الأطباء: «العسل سيد الأدوية» وقد صنف بعضهم كتاباً في منافع العسل، فهو نعمة عظيمة للإنسان ولم يذكر لذته لأنها معروفة، ونعمة الشفاء به أهم. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ كله ﴿لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ آية تدل على الله الذي خلق النحل وعلمها وظيفتها وسخرها لنفع الإنسان وإنتاج ما فيه شفاء للناس فهي آية كالأيات التي سبق ذكرها يهتدي لها ويعرفها الذين يتفكرون في آيات الله ودلائله، والإشارة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ إلى ما ذكر في الآية من أولها وهو تهيئة أسباب حصول العسل للإنسان نعمة من الله عليه وآية له.

عَلِمَ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ

﴿٧٠﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّيْكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧١﴾ فخلقنا دليل على علم الخالق وقدرته، وقد نبه تعالى على ذلك بهذه الآية، وبقوله تعالى: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١] فقليل من تفكير الإنسان في خلقه يحصل له به العلم بقدره الخالق وعلمه، بل تفكره في عضو واحد من أعضائه يكفي.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَتَوَفَّيْكُمْ﴾ كذلك دليل على قدرته تعالى وعلمه؛ لأن الإنسان لا يستطيع أن يدفع عن نفسه الموت ولو كان ملكاً أو طبيباً ماهراً؛ ولأن الموت مقدّر بين الناس على ما تقتضيه الحكمة حيث يموت القرن من الناس في أوقات يموت فيها فرد منهم ثم في وقت آخر فرد آخر حتى يذهب القرن وقد خلفه قرن آخر من دون أن يهلك القرن كله في وقت واحد، كما قال تعالى: ﴿نَحْنُ قَدْزَنَّا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ﴾ [الواقعة: ٦٠] ولأن الموت يختلف آجاله فمن الناس من يموت طفلاً ومنهم من يموت في شبابه إلى غير ذلك وذلك بتقدير الله تعالى للحياة والموت.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ﴾ يرد إلى حالة الضعف الشديد في أرذل عمره وأدناه وأخسه لاجتماع الهرم وشدة ضعف البدن وذهاب العقل وكون أكثرهم مكروهاً ليس كالطفل يحبه أبواه وتنظفه أمه برغبة ليدل نكس خلقه على أن مراحل وجوده كانت بصنع الخالق الذي حدد نموه وجعل لنموه مقداراً مختلفاً كما أراد خالقه الفعال لما يريد العليم القدير.

سَوَاءٌ أَفْنِيعَمَةِ اللَّهِ تَجَحَّدُونَ ﴿٦﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا
وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَيْنَ وَحَفْدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ

﴿٦﴾ وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادَى
رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفْنِيعَمَةِ اللَّهِ تَجَحَّدُونَ ﴿٧﴾
﴿فُضِّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾ جعل لبعضكم من الرزق أكثر مما
رزق البعض الآخر لحكمة، فالرزق نعمة وآية، وعلى المفضل أن يشكر،
وعلى المفضل عليه أن يشكر على ما رزق ويرضى بقسمة الله تعالى، ويصبر
على الإقلال إن كان فقيراً، وهذا فيه رد على من قال بالإشترائية، وعلى
من ادعى أن الله تعالى ساوى بين عباده في الرزق.

وقوله تعالى: ﴿فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادَى رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ
فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ﴾ الراجح: أنه كقوله تعالى: في (سورة الروم): ﴿ضَرَبَ لَكُمْ
مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ
فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ [الروم: ٢٨] فهي رد على المشركين تبين
أن الله العزيز الحكيم لم يجعل لنفسه شركاء في عباده؛ لأنه نقص من العزة
منافٍ للحكمة، فبين تعالى في قوله: ﴿فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا﴾ أي في الرزق
﴿بِرَادَى رِزْقِهِمْ﴾ بجاعلين له لعبيدهم يملكونه كما تملكه ساداتهم فهم في
ملكه سواء؛ لأن هذا من سوء التدبير والتصرف الذي لا يرضاه لنفسه
عاقلاً، فظهر بهذا: أن الله تعالى عدد نعمه في هذه السورة ليشكره عباده
ويعبدوه وحده.

ألا ترى إلى الآيات في أوائل هذه السورة التي فيها تعداد كثير من نعم الله
كيف عقبها بقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٦﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٧﴾ فَلَا تَضْرِبُوا

واحتج كذلك في أثناء السورة هذه فقال تعالى: ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ..﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا يَكُم مِّن نِّعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ * ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ يَرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ فكذلك سياق الآيات التي نحن في سياق تفسيرها من قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً..﴾ إلى قوله فيما يأتي: ﴿..أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ * وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا..﴾ الآية، فبان بذلك صحة تفسير قوله تعالى: ﴿فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا..﴾ الآية، بأنه احتجاج على المشركين بأننا لا نرضى أن نجعل ممالئنا شركاء لنا في رزقنا بحيث نصير نحن وممالئنا سواء في ملكه وولاية التصرف فيه، فالله تعالى العزيز الحكيم لا يرضى أن يجعل لنفسه شركاء في عباده.

وقوله تعالى: ﴿أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ تَجْحَدُونَ﴾ ينكرون ما هو معلوم، يبين أن عليهم أن يشكروا، أفبنعمه يجحدون حين كفروا وعبدوا غيره؟ فإن كانوا يقرون بنعمة الله عليهم فكيف لا يشكروا فيعبودونه وحده.

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ بَيْنَ وَحَفْدَةٍ وَرَزَقَكُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ قال الشرفي رحمه الله في (المصابيح): «قال الحسين بن القاسم عليه السلام: ومعنى ﴿مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ يعني من بعضكم» انتهى المراد.

أي جعل للناس من جنسهم أزواجاً للذكور من الإناث وللإناث من الذكور وبذلك يسكن الزوج إلى زوجه ونعمة الزواج عظيمة للذكر والأنثى

﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ﴾ وهي نعمة، قال تعالى ﴿الْمَلَأُ وَابْنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٤٦] وإذا كانوا أبراراً فالنعمة بهم أعظم.

وقوله تعالى: ﴿وَحَفَدَةً﴾ هم أبناء الأبناء القائمين على خدمة أجدادهم، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «الحفدة الخدام والأعوان» انتهى، وفي (مفردات الراغب): «حفدة: جمع حافد، وهو المتحرك المتبرع بالخدمة أقارب كانوا أو أجنب» انتهى.

وهذه نعمة عظيمة، وقوله تعالى: ﴿وَرَزَقَكُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ لعل الضمير للآباء والأبناء والحفدة فهو سبحانه الرازق لهم كلهم، وكون الرزق من الطيبات نعمة عظيمة؛ لأن الإنسان لا يعيش إلا به فلو لم يكن من الطيبات لكان أكله شاقاً ومع ذلك ضرورياً فالحمد لله.

وقوله تعالى: ﴿أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ كإيمانهم بمن جعلوهم شركاء لله وبما جعلوا لهم من رزق الله كما مر في سورة الأنعام، وبتحريم البحيرة وغيرها كما مر في سورة المائدة، وقوله تعالى: ﴿وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ بمعصيته وتكذيب آياته وإيمانهم بالباطل.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ ﴿مَا لَا يَمْلِكُ﴾ ليس بيده شيء من رزق صادر من السموات والأرض كالمطر من السماء والنبات من الأرض فيرزقهم إياه ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ ملك شيء.

قال الشرفي رحمته في (المصاييح): «قال الأخفش: جعل قوله: ﴿شَيْئًا﴾ بدلاً من قوله: ﴿رِزْقًا﴾ والمعنى: لا يملكون رزقاً قليلاً ولا كثيراً» انتهى المراد.

لِلَّهِ الْأَمْثَالُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٦﴾ * ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّْا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ ۚ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ

﴿٧٦﴾ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٧﴾ ﴿فَلَا تَضْرِبُوا﴾ الفاء للتفريع على ما سبق من الاحتجاج على المشركين والخطاب لنهيهم عن ضربهم لله الأمثال، وضرب المثل تحصيله ولعلمهم احتجوا لبعض باطلهم، كما قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قُلْ مَنْ يُخَيِّرُ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨] فالمثل قوله: ﴿مَنْ يُخَيِّرُ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ وضربه: صياغته وتحصيله فرد الله عليهم بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ فقوله تعالى هو الحق، ومثلهم جهل وتضليل.

ولعل المثل الذي ضربه لتبرير شركهم قولهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٢٣] فهم مبطلون وعليهم أن يؤمنوا بالله وحده ويكفروا بشركائهم، ولا يفيدهم قولهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا﴾ لأن الله علام الغيوب فقوله الحق، وهم لا يعلمون فمثلهم الباطل.

﴿٧٧﴾ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّْا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ ۚ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ هذا المثل يبين ضلال المشركين في جعلهم شركاءهم أنداداً لله سبحانه فأصنامهم كالعبد المملوك؛ لأنها لله مملوكة لأنه خالقها وهي مع ذلك كالعبد العاجز الذي ﴿لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾ فلا يعمل ولا تحصل منه أي فائدة.

اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بَخِيرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٦٦﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ

والله تعالى هو المالك لكل شيء القادر على كل شيء وهو الذي يرزق عباده الخير كله، فكيف جعلوا شركاءهم أنداداً له - جلّ جلاله - مع أنهم يعلمون أنه لا يسوى بين العبد العاجز وبين من هو حرّ رزقه الله رزقاً حلالاً ﴿فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا﴾ لرغبته في فعل الخير وحبه للإحسان لا لأجل سمعة في الناس، وينفق - أيضاً - ﴿وَجَهْرًا﴾ كما ينفق سراً لكثرة إنفاقه، فالحمد لله الذي منه الخير كله، والذي هدى عباده إلى توحيدِهِ وإلى طريق مستقيم ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ﴾ أكثر المشركين ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ لإعراضهم عن الحق وكرهتهم له فليس عندهم استعداد لعلم بالصواب.

﴿٦٦﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بَخِيرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ فِي (الصَّحاح): «الأبكم: الأخرس» انتهى باختصار، وفي (مفردات الراغب): «أبكم وهو الذي يولد أخرس، فكل أبكم أخرس وليس كل أخرس أبكم» انتهى.

ومثله في (مصابيح الشرفي): «قال: الذي ولد أخرس فلا يفهم ولا يفهم لعدم السمع والنطق» انتهى.

فهذا مثل كالمثل الأول في إفادته، مثل شركاؤهم برجل جمع صفات:

الأولى: أنه ﴿أَبْكَمُ﴾.

الثانية: أنه ﴿لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾ فهو عاجز عن نفع نفسه فضلاً عن نفع غيره.

الثالثة: أنه ﴿كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ﴾.

إِلَّا كَلَمَحَ الْبَصَرُ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ

في تفسير (الإمام زيد بن علي عليه السلام): «معناه: عيال عليه» انتهى، وفي (الصحيح): «الكَل: العيال والثقل، قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ﴾» انتهى، وفي (الصحيح): «وعيال الرجل: من يعوله» انتهى فهو مع عجزه ثقل على مولاه.

الرابعة: أفادها قوله تعالى: ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّهُ لَا يَأْتِ بَخِيرٍ﴾ أينما يوجهه مولاه لتحصيل نفع لا يأت بخير؛ إما لعجزه، وإما لكسله عن تحصيل أي فائدة يتوصل لها بإشارة أو غيرها، وبذلك يثقل على مولاه ويأس من نفعه لنفسه أو لغيره.

وقوله تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ هل يستوي ذلك العاجز ومن هو كامل في عقله ونطقه وسلوكه، فهو لكماله يأمر بالعدل الذي هو ضد الجور والظلم وهو على صراط طريق واضح مستقيم حق لا عوج فيه، هذا سؤال لا شك في أن جوابه: (لا يستويان) فكيف جعل المشركون أصنامهم التي لا تفيدهم شيئاً، بل هم لها جند محضون حمايتها؟! يجعلونها أنداداً لله العزيز الحكيم هذا منهم ضلال مبين.

﴿وَاللَّهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمَحٍ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿غَيْبُ السَّمَوَاتِ﴾ ما غاب فيها فلا تعلمه الملائكة ولا غيرهم من الخلق ﴿وَالْأَرْضِ﴾ ما غاب في الأرض فلا يعلمه أهلها ولا غيرهم من الخلق، فالله يعلمه وحده؛ لأنه علام الغيوب فهو الرقيب على أهل السموات وأهل الأرض لأنه بكل شيء عليم.

﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ من لمح البصر في سهولته وسرعته، وأمرها إيجادها والأمر هنا، إما بمعنى الشأن وهو الراجح، وإما بمعنى قوله: كوني الذي هو تمثيل لإيجادها.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال الحسين ابن القاسم عليه السلام: يعني بذلك المثل بلمح العين، ويريد - تعالى - أن سهولة قيام الساعة كسهولة النظر بالعين عند المخلوقين» انتهى المراد.

وقال في (الصحيح): «لَمْحُهُ وَلَمْحُهُ، إذا أبصره بنظر خفيف، والاسم اللَمْحَةُ» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ أي أقرب من لمح البصر و(أو) هنا للترديد لا للشك؛ لأن الله علام الغيوب لا يجوز عليه الشك، وفائدتها: بيان السرعة والسهولة بالنسبة لأفهامنا وتصورنا، أي أنه في غاية السهولة وغاية السرعة؛ لأننا لا نتصور فرقاً بين لمح البصر وبين أقرب منه، وإنما نفهم غاية السرعة والسهولة وهو المراد منا.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ تعليل للسهولة أي عدم المشقة والقدرة على تحصيل الساعة في مثل لمح البصر أو هو أقرب؛ لأنه لا يصعب عليه شيء لأن كل شيء مقدور له من غير فرق بين ما هو سهل بالنظر إلى قدرتنا وما هو صعب، أو لا نستطيعه أصلاً، فلا فرق بين الممكنات في قدرته عليها بلا كلفة ولا عناء ولا مشقة لأنه قادر لذاته وقدرته غير محدودة فهو قادر على الممكنات على سواء لا فرق بينها في قدرته تعالى.

وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ ۖ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ

﴿٧٨﴾ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ ۖ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٩﴾ هذه آيات تدل على قدرته تعالى وعلمه وسعة فضله وعظم نعمه علينا وهذه نعم وهبها لنا تعريضاً لنا على شكره ليثبنا على شكره في دار كرامته ورحمته، والأفئدة محالّ العقول سواء كان الفؤاد باطن القلب أم هو القلب فالمراد أنه جعل لنا آلة الفهم والعلم.

قال الراغب في تفسيره (لمفردات القرآن): الفؤاد كالقلب لكن يقال له فؤاد إذا اعتبر فيه معنى التوفؤد أي التوقد... إلخ ونحوه في (لسان العرب).

﴿٧٩﴾ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٠﴾ بتسخير الله لها ولعله اعتبر تسخييراً من حيث جعلها الله تطير لتكون آية ودليلاً على قدرته، حيث يمسكها في الجو دون الدواب، والجو الهواء أو ما ارتفع من الهواء، وإضافته إلى السماء تدل على ارتفاعه في الهواء.

وقوله تعالى: ﴿مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ﴾ لأنه خالق الطير على صفة تصلح لذلك، فجعل له الريش الخفيف الذي يبسطه في الهواء وجعل رتتيه مخالفتين لرتات الدواب وكذا كليته وجعل الهواء صالحاً لحمل الطير سبحانه وتعالى.

﴿٨٠﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨١﴾ إما يؤمنون بالقوة أي من شأنهم أن يؤمنوا إذا رأوا آيات الله، وإما يؤمنون بالفعل لأنهم يتفكرون في آيات الله فيزدادون إيماناً.

الْأَنْعَمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَا وَمِثْعًا إِلَى حِينٍ ﴿٨﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ

ففي هذه الآيات حجة على المشركين في جعلهم أندادا لله ولم يفكروا فيعرفوا أن لا يستوي من يخلق ومن لا يخلق بل ومن هو عاجز عن كل نفع، وحجة عليهم في استبعادهم القدرة على إحياء الموتى.

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَا وَمِثْعًا إِلَى حِينٍ﴾ ﴿٨﴾ ﴿سَكَنًا﴾ تسكنون فيها لفوائد المساكن من ضر البرد والشمس وغيرهما، فهي نعمة عظيمة، ولم يمكن الحيوانات من بناء البيوت كما مكن الإنسان.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَمِ بُيُوتًا﴾ هي الجلود المدبوغة تجعل قباباً وخياماً للبدو والمسافرين ﴿تَسْتَخِفُّونَهَا﴾ تتفعلون بخفتها حين تعبرونها خفيفة لنقلها عند الظعن وهو الانتقال إلى ناحية أخرى كما يفعل البدو حين يطلبون لأنعامهم مواضع المرعى والماء، فينتقلون له من موضع إلى موضع فيسهل عليهم حمل بيوتهم على دوابهم، بخلاف البيوت التي تبنى من الطين أو من الأحجار، فهذه نعمة خفة البيوت التي من جلود الأنعام لنقلها معهم ولضربها حيث يقيمون بأن يضعوها فتحصل بسرعة بواسطة أعواد تحتها تنصب في الأرض وحبال في أطرافها تمد وتمسك بأوتاد في الأرض فيكتفون بها عن بناء بيوت بطين أو بأحجار.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا﴾ أي وجعل لكم من أصوافها، قال الشرفي في (المصاييح): «قال الحسين بن القاسم عليه السلام، الصوف:

ظِلَّلًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمْ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ ۚ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿١٦١﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ الْمُمِينُ ﴿١٦٢﴾ يَعْرِفُونَ

هو شعر الضأن، والوبر: هو شعر الإبل، والشعر: هو شعر المعز، وهذه عبارة مني وبيان، فأما العرب فلا تجيز أن يسمى الوبر والصوف شعراً... إلخ.

وقوله تعالى: ﴿أَنْثًا وَمَتْعًا﴾ أي جعل لكم من هذه الثلاث أثاثاً كالفراش واللباس والغرائر والحبال، وهذه نعم لحاجة الإنسان إلى ما يقيه البرد من هذه وإلى سائر منافعها، وفيها تكريم للإنسان حيث جعل له ذلك من الحيوان.

وقوله تعالى: ﴿وَمَتْعًا﴾ أي نفعاً محدوداً في هذه الدنيا ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ فهو ينتهي بالموت أو غيره كما أن الجلود والأصواف والأوبار والأشعار تبلى حتى يذهب نفعها ويحتاج الإنسان إلى تبديلها، فما أعظم نعم الله على الإنسان وأكثرها!!

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَّلًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمْ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ ۚ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ ﴿مِمَّا خَلَقَ ظِلَّلًا﴾ يظلكم من الشمس والمطر وذلك كالشجر التي تظل الإنسان والكهوف التي في الجبال وما يظل الإنسان من الجلود والأشعار والثياب.

﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَنًا﴾ كالكهوف والبيوت المنحوتة في الجبال، تُكِنُّ من المطر وفيها منافع أخرى كالوقاية من القنابل والصواريخ التي تكون في الحروب.

نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٢٢٤﴾ وَإِذَا

﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابًا﴾ لباساً من القطن وغيره ﴿تَقِيَكُمْ الْحَرَّ﴾ لأن جلد الإنسان إذا باشره شعاع الشمس ألمه وقد يضره؛ لأن الإنسان ليس له شعر كالذباب ولا ريش كالطيور فجعل له اللباس وفيه نفع من البرد إلا أن السورة مكية ومكة حارة فكان المناسب تذكيرهم بنعمة ما يقي من الحر.

وقوله تعالى: ﴿وَسَرَابًا تَقِيَكُمْ بِأَسْكُمْ﴾ هي ملابس من الحديد تصنع لتقي من سلاح كانوا يستعملونه في الحرب سيوف ورماح وسهام ترمى بالاقواس، وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ فهو يدل على نعم غير هذه النعم المذكورة مثلها يتم بها علينا نعمته وتفضله وإحسانه.

﴿لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ تعريضاً لكم على أن تسلموا وجوهكم لربكم شكراً على نعمه، فمن حق العاقل إذا عرف النعمة أن يشكرها ولا يكفرها، وإسلام الوجوه: إخلاص العبادة لله، واجتناب الشرك.

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ الْمُبِينُ﴾ * يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٢٢٤﴾ ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أبوا الإسلام بعد هذا الاحتجاج الكامل والتذكير بنعم الله والإنذار ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ الْمُبِينُ﴾ ليس عليك أن يهتدوا والمبين البلاغ الواضح المبين لما بلغه بحيث يُسمع تماماً ويفهم فهماً كاملاً ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ﴾ آياته التي هي نعمة لإنقاذها لمن آمن بها من الضلال وما يؤدي إليه من العذاب وإخراجها لمن آمن بها من الظلمات إلى النور، فقد سمعوا هذا القرآن العظيم، وعرفوا أنه

رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا تُخَفِّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿٢٢٠﴾ وَإِذَا رَأَى
الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا

معجز خارق لا يأتون بمثله ثم ينكرون هذه النعمة ويقولون: ما نزل الله من شيء ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ لنعم الله بعبادة غيره، وتحريم بعض ما أحل الله وجعله نعمة لهم من الأنعام وغيرها وغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾ قال فيه الشرفي في (المصابيح): «ومعنى ﴿ثُمَّ﴾ هاهنا الدلالة على [أن] إنكارهم أمر مستبعد بعد حصول المعرفة؛ لأن من حق من عرف النعمة أن يعترف بها فلا ينكرها» انتهى، وآخر الكلام ملتبس خطه إنما صححته أنا. قلت: ونظير هذا قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا﴾ [السجدة: ٢٢].

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ ﴿وَيَوْمَ﴾ واذكر ﴿يَوْمَ نَبْعَثُ﴾ بعد تعداد النعم والآيات الماضية اذكر لهم الموعدة ذكر يوم البعث وحالهم فيه ﴿مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ أي نبعث شهيداً عليهم منهم، وهو يكون النبي على من كان في عصره ورآه فعلم بإيمانه أو كفره، وأما بعد وفاة النبي فمن كل أمة خيرهم، كما قال تعالى: ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣] يشهد على من شاهده وعرف عمله، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ لا يؤذن لهم فيعتذرون ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾.

قال الشرفي في (المصابيح): «أي لا يقال لهم: ارضوا ربكم» انتهى، فالمعنى: لا يستتابون؛ لأنها لا تقبل منهم توبة.

﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا تُخَفِّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ إما الذين كفروا وأصل الكلام وإذا رأوا لتقدم ذكرهم إلا

نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ ۖ فَأَلْقُوا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَالْقَوْلُ إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ أَلْسَلَمَ ۖ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ الَّذِينَ كَفَرُوا

أنه ذكر الظلم؛ لأنه سبب العذاب؛ لأن الكفر ظلم وحيف وجور وكذا سائر المعاصي المتعمدة كلها ظلم، وإما الذين ظلموا عام لكل من ظلم سواء بالكفر أم بغيره، والعذاب: ما يعذبون به في الآخرة وهو النار فلا يخفف عنهم بتخفيف حرّها مثلاً.

﴿وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ أي لا يمهلون وإنما يحاسبون ويسألون فإذا انتهى السؤال والحساب وقضي عليهم بالعذاب لم يمهلوا، وهذا على فرض أنهم يسألون وهم يرون الجحيم، كما قال تعالى: ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿...ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ٦-٨] فاما إذا كانوا لا يرونها إلا بعد فصل القضاء فظاهر.

﴿وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ ۖ فَأَلْقُوا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ كأنهم يدعون الله بهذا ليجعل بعض عذابهم على شركائهم فيخفف عنهم، أو أرادوا أن يعذب شركاءهم بغضاً لهم منهم، وقولهم: ﴿الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا﴾ هو دعاءهم الذي لم يكن ينفعهم وكان عبادة لهم، كما قال تعالى: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ [فاطر: ١٤].

وقوله تعالى: ﴿فَالْقَوْلُ﴾ أي شركاؤهم ﴿إِلَيْهِمْ﴾ إلى المشركين ﴿إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أي ما كنا شركاء لله كما زعمتم أو ما كنا وحدنا شركاءكم لأن الشياطين أمروكم بعبادتنا فأطعتموهم فصاروا شركاء في إثم شرككم وفي عبادتكم لنا بالأمر والرضى، كقولهم: ﴿مَا كَانُوا إِلَّا نَا يَعْبُدُونَ﴾ [القصص: ٦٣].

وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ

﴿٨٧﴾ ﴿وَالْقَوَا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَامُ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ ﴿وَالْقَوَا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ﴾ يوم القيامة وقد رأوا أهوالها ألقوا ﴿السَّلَامُ﴾ إلى الله كأنه شيء كانوا يأبون أن يسلموه، فلما رأوا أهوال القيامة ألقوه لشدة الباعث عليه - والله أعلم.

قال الشرفي في (المصابيح): «﴿وَالْقَوَا﴾ يعني الذين ظلموا ﴿إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَامُ﴾ أي الاستسلام والالتقياد لأمره وحكمته، بعد الإباء والاستكبار في الدنيا» انتهى المراد.

وقوله تعالى: ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ﴾ أي ضاع عنهم فلم ينفعهم ولم يدفع عنهم ﴿مَا كَانُوا﴾ يفترونه من شفاعة شركائهم وغير ذلك من الأمانى التي كانوا يقولونها كاذبين مختلقين أمانيتهم بلا مستند، كقول بعضهم: ﴿وَلَكِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [نصحت: ٥٠] ونسبة الضلال إلى ما كانوا يفترون والمراد معناه كقوله تعالى: ﴿وَنَرَاهُ مَا يَقُولُ﴾ [مريم: ٨٠].

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ ﴿وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ صدوا غيرهم عن دين الله الذي شرعه لعباده، ومعنى صددهم لهم إغواؤهم لهم بأي أسباب الخواية ﴿زِدْنَهُمْ﴾ أي يوم القيامة ﴿عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ﴾ الذي استحقوه بكفرهم ومعاصيهم الأخرى ﴿بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ غيرهم فالإفساد سبب للعذاب مع السبب الأول.

وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ ۖ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيِينًا لِّكُلِّ شَيْءٍ
وَهُدًى وَرَحْمَةً وَنُذْرًا لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨١﴾ ۖ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ

﴿٨١﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا
عَلَى هَؤُلَاءِ ۖ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيِينًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهَدًى وَرَحْمَةً وَنُذْرًا
لِّلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٢﴾ وَيَوْمَ ۖ وَاذْكُرْ يَوْمَ ﴿نَبْعَثُ﴾ أَي يَوْمَ الْخُرُوجِ مِنَ الْقُبُورِ وَالسُّوقِ
لِلْحِسَابِ ﴿نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ﴾ أَي مَعَ كُلِّ أُمَّةٍ بَيْنَهُمْ ﴿شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِّنْ
أَنفُسِهِمْ﴾ قَدْ رَأَاهُمْ فِي الدُّنْيَا وَشَاهِدَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ فِي الْجُمْلَةِ
بِحَيْثُ مِيزَ الْمُطِيعِينَ مِنَ الْعَاصِينَ وَهِيَ كَالْأُولَى إِلَّا أَنَّ فِي هَذِهِ زِيَادَةَ تَحْقِيقٍ أَنَّهُ
يَبْعَثُ فِيهِمُ الشَّهِيدَ عَلَيْهِمْ، وَالتَّصْرِيحُ بِأَنَّهُ مِنْ أَنفُسِهِمْ.

فَقُولُهُ تَعَالَى: ﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ﴾ أَي جِئْنَا بِكَ يَا مُحَمَّدُ
شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ الْمَوْجُودِينَ حَوْلَكَ مِنْ قَرِيشٍ أَوْ مِنْهُمْ وَمِنْ كُنَانَةٍ وَلَمْ يَقُلْ
عَلَى أُمَّتِكَ لَا هُنَا وَلَا فِي (سُورَةِ النَّسَاءِ) وَهَذَا يُوَافِقُ قَوْلَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ:
﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا فَعَلْتُ فِيهِمْ..﴾ الْآيَةُ [المائدة: ١١٧].

وَقُولُهُ تَعَالَى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ أَي هَذَا الْقُرْآنُ ﴿تَبْيِينًا﴾ أَي
نَزَلْنَاهُ ﴿تَبْيِينًا﴾ إِمَّا مَنْصُوبٌ عَلَى الْحَالِ، وَإِمَّا مَفْعُولٌ مُّطْلَقٌ أَي لِنَبِيِّنَا كُلِّ
شَيْءٍ مِنَ الدِّينِ وَأَصُولِهِ وَالْإِنْذَارِ وَالتَّبَشِيرِ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهِ مِنَ الْقَصَصِ
وَالْحُجَجِ، وَنَحْوُ ذَلِكَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي (التَّوْرَةِ): ﴿وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾
[الأنعام: ١٥٤] فَالْعَمُومُ هُنَا مَا دَلَّ عَلَيْهِ السِّيَاقُ وَالْقُرْآنُ، كَمَا أَنَّ الْعَمُومَ فِي
قَوْلِهِ: ﴿وَأُوتِيتَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٢٣] الْمُرَادُ بِهِ: تَوَابِعُ الْمُلْكِ وَلُؤَازِمُهُ مِنَ
الثَّرْوَةِ وَالْأَلَاتِ وَالسَّلَاحِ وَنَحْوِ ذَلِكَ.

وحكى الشرفي في (المصاييح): «عن القاسم عليه السلام أنه قال بعد تفسيره لـ (سورة الفلق): فليعلم من قرأ تفسير هذه السور الثلاث وما بعدها من التفسير أن كلما فسرنا من ذلك كله فقليل من كثير، وأن كل سبب من كلمات الله فيه فموصول بأسباب عند من خصه الله بعلمها من أولي النهى والألباب لا ينتهي فيه إلى استقصائه ولا يوقف منه على إحصائه» انتهى المراد.

ونحو هذا في مقدمة تفسيره عليه السلام التي هي (مديح القرآن الصغير) ذكرها الشرفي في (المصاييح) قبيل تفسير (فاتحة الكتاب) وهذا أولى من تفسير تبيانها لكل شيء بإحالاته على سائر الأدلة لأنه لا يسمى تبياناً لكل شيء على طريق الوصف للكتاب وإلا لزم قولنا: الأدلة أربعة: الكتاب، والسنة، والإجماع، والقياس تبياناً لكل شيء، ويلزم أنه يصح أن تقول ألفت كتاباً بينت فيه كل شيء وأنت إنما كتبت الإحالة على الأدلة.

فإذا كان هذا لا يسمى تبياناً لكل شيء صح أنه لا يصح تفسير الآية الكريمة بذلك وأن الله وصف كتابه بهذا الوصف أي تبياناً لكل شيء مدحاً له ودلالة على عظم فائدته لمن تعلم منه الدين وتفهم ما فيه من الهدى، فلا مجال من إبقاء النص على ظاهره وحمل خفاء ما خفي علينا بأنه بسبب قصورنا عن بلوغ الغاية في فهمه، من حيث أن بعض الأحكام يتوصل إلى فهمه من القرآن بضم آية إلى آية أو إلى أكثر، كما حصل لنا أن أقل الحمل ستة أشهر من ضم الإمام علي عليه السلام آية إلى آية، وذلك يتوقف على عناية بالقرآن كاملة، وعلى كمال الاستعداد لفهمه بكمال معرفة اللغة العربية، وكمال الزهد في الدنيا والورع، وكمال اللجوء إلى تفهم القرآن عن شعور بشدة الحاجة إلى فهمه، كما هو المناسب لعزته أن لا يهتدي به من يرى أنه مستغن عنه بغيره.

والله تعالى يقول: ﴿وَلَئِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾ [فصلت: ٤١] فهو لا ينال بجرح أو تنقيص أو تحقير فكذلك لا ينال بتقليل فائدته؛ لأنه من التحقير المنافي لعزته وقد وصفه الله بالبركة في أربع آيات، وقال فيه: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩] وقال تعالى: ﴿وَيَالْحَقُّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء: ١٠٥] كل ذلك يفيد إحاطته بأحكام الله تعالى.

ويناسب هذا ما رواه الإمام أبو طالب عليه السلام في (الأمالي) وهي في (الباب الثالث عشر) وهو الحديث الخامس عشر، فيه حديث عن علي عليه السلام فيه بعض الطول قال فيه: قال رسول الله ﷺ: «دار بلاء وانقطاع، فإذا التبت عليكم الفتن كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن...» إلى قوله ﷺ: «وهو الدليل الذي يدل على خير سبيل، وكتاب تفصيل وبيان وتحصيل، والفصل ليس بالهزل، لا تحصي عجائبه، ولا تبلى غرائبها، فيه مصابيح الهدى، ومنارات الحكمة، والدليل على المعرفة لمن عرف الطريقة، فليولوج رجل بصره، وليبلغ الطريقة نظره، ينج من عطب، ويتخلص من أشب، فإن التفكير حياة قلب البصير كما يمشي المستنير في الظلمات بالنور بحسن تخلص وقلة تربص» انتهى.

وفيها في الباب المذكور وهو (الحديث التاسع) أسنده عن عبد الله - وهو ابن مسعود - قال: قال رسول الله ﷺ: «إن هذا القرآن مأدبة الله فتعلموا مأدبة الله ما استطعتم، إن هذا القرآن حبل الله المتين، وهو النور المستنير، والشافع، والدافع، عصمة من تمسك به، ونجاة من تبعه، لا يعوجّ فيقوم، ولا يزيف فيثبت، ولا تنقضي عجائبه...» الحديث.

وفي هذا الباب المذكور بإسناده: عن معاذ بن جبل قال: ذكر رسول الله ﷺ الفتنة فعظمها وشددها فقال علي بن أبي طالب عليه السلام: «فما المخرج منها؟» قال: «كتاب الله فيه حديث ما قبلكم، ونبأ ما بعدكم، وفصل ما بينكم...» إلى قوله: «...وهو جبل الله المتين، والذكر الحكيم، والصراط المستقيم...» الحديث.

وهذا الحديث موافق لقول الله تعالى: ﴿قَبَعَتِ اللَّهُ النَّبِيَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣] ويناسب قوله في الحديث: «وهو جبل الله المتين» قوله ﷺ في (حديث الثقلين): «كتاب الله جبل ممدود من السماء إلى الأرض، طرفه بيد الله وطرفه بأيديكم، فتمسكوا به لا تزلوا ولا تضلوا» و(حديث الثقلين) دليل واضح على ما نحن فيه؛ لأن قوله: «إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا كتاب الله وعترتي» يفيد: إحاطة القرآن بعلوم الدين فتأمل!

يؤكد ذلك ما رواه الإمام أبو طالب عليه السلام في (الأمالي) في (الباب السابع) في فضل الإمام زيد بن علي عليه السلام، بإسناده: عن أبي هاشم الرماني [رحمته] تعالى يقول: طلب زيد بن علي من أخيه عليه السلام، كتاباً فأعفل عن ذلك أبو جعفر عليه السلام، ثم ذكره فأخرج إليه الكتاب، فقال له زيد بن علي عليه السلام: قد وجدت ما أردت منه في القرآن، فقال له أبو جعفر عليه السلام: فأسألك؟ فقال له زيد عليه السلام: نعم سألني عما أحببت. فقال أبو هاشم: ففتح أبو جعفر الكتاب وجعل يسأله ويحييه زيد بجواب علي عليه السلام، كما في الكتاب، فقال له أبو جعفر عليه السلام: بأبي أنت وأمي يا أخي، أنت والله نسيج وحدك بركة الله على أم ولدتك، لقد أنجيت حين أنت بك شبيه آبائك (عليهم السلام) أجمعين» انتهى.

وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ عِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا

هذا والسنة هي الدليل الثاني، وقول أمير المؤمنين علي عليه السلام، وإجماع آل رسول الله ﷺ وبيان علة الحكم في أحد الأدلة، وإجماع الأمة كل ذلك من دلائل الدين عندنا، وبالله التوفيق.

وقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيِينًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَنُذْرًا لِّلْمُسْلِمِينَ﴾ يحتمل أن قوله: ﴿لِّلْمُسْلِمِينَ﴾ أي الذين أسلموا وجوههم لله وأخلصوا دينهم لله وتجنبوا الشرك راجع إلى قوله: ﴿تَبْيِينًا﴾ ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً وَنُذْرًا﴾ كلها وهو الراجح عندي، ويحتمل تعلقه بالآخر وحده.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ عِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ يحتمل أنه تعليل لقوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ وأنه ابتداء كلام، وكل ذلك صحيح، والعدل: ضد الجور والظلم، والإحسان ضد الإساءة، والأمر به لا ينافي كونه إحساناً غير مستحق كاستحقاق الدين، ولعل حده ما تقتضيه المروءة ويكون تركه نقصاً في التارك.

وقوله تعالى: ﴿وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ أي إعطاء القريب من النسب وحده بقدر حاجة القريب الضرورية وما تقتضيه المروءة وقد مر ترجيح وجوبه وأنه غير خاص بالوارث إلا أن الوارث يجب عليه قبل سائر القرابة فإن غاب وتعذر منه الإنفاق أو تمرد وتعذر إجباره فعلى غيره من القرابة أن ينفق ومع عدم الاضطرار يصله صلة.

وقوله تعالى: ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ﴾ هي الفعلة الفحشاء الزائدة في قبحها، وقد استعمل اسم (الفحش) في بعض القول، وفي قصيدة النابغة: لم تؤذ أهلاً ولم تفحش على جار

وفي (لسان العرب): وفي الحديث: «إن الله يبغض الفاحش المتفحش» فالفاحش: ذو الفحش والخنأ من قول وفعل، والمتفحش: الذي يتكلف سب الناس ويتعمده، وقد تكرر ذكر الفُحْش والفاحشة والفاحش في الحديث وهو كل ما يشتد قبحه من الذنوب والمعاصي، قال ابن الأثير: وكثيراً ما ترد الفاحشة بمعنى الزنا. انتهى من (لسان العرب).

قلت: وحيث ورد بمعنى الزنا فهو على حذف الموصوف كناية عن الزنا؛ لأن الله تعالى قال في (الزنا): ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الزَّوْجَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً﴾ [الإسراء: ٣٢] فليس مفهوم اسم الفاحشة وإنما اسم الفاحشة وصف له.

وقوله تعالى: ﴿وَالْمُنْكَرِ﴾ وهو ما تنكره العقول، قال الراغب في (تفسيره): «والمُنْكَر: كل فعل تحكم العقول الصحيحة بقبحه، أو تتوقف في استقباحه واستحسانه العقول فتحكم بقبحه الشريعة» انتهى المراد.

وقوله تعالى: ﴿وَالْبَغْيِ﴾ أي ينهى عنه، وهو التعدي على عباد الله، أو محاولة الظلم لهم، وقال الشرفي في (المصابيح): «والبغي: طلب التناول بالظلم» انتهى المراد. وفي (الصحاح): «البغي: التعدي، وبغى الرجل على الرجل: استطال» انتهى المراد.

وفي (أمالى المرشد بالله ﷺ، الخميسية) [١٥٣/١]: أن عمرو بن شعيب لما أسقط عمر بن عبد العزيز من الخطب على المنابر لعن أمير المؤمنين ﷺ

الْأَيِّمَنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١١﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَنَّا

قام إليه عمرو بن شعيب وقد بلغ إلى الموضع الذي كانت بنو أمية تلعن فيه علياً عليه السلام فقرأ مكانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ فقام إليه عمرو بن شعيب - لعنه الله فقال -: يا أمير المؤمنين السنة السنة، فقال عمر: أسكت قبْحك الله تلك البدعة تلك البدعة لا السنة، وتم خطبته» انتهى، وقد سقط من المطبوعة تكرار «تلك البدعة» وهو ثابت في (الأمالى) مصحح.

وفي أمالى أبي طالب عليه السلام رواية خطبة عن علي عليه السلام في آخرها: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ..﴾ إلى آخر الآية، وهي في الباب الرابع عشر من (تيسير المطالب).

وقوله تعالى: ﴿يَعْظُمُكُمْ﴾ أي بأمره ونهيه المذكورين أو بنهيه ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ تعريضاً لكم على التذكُّر وهو الانتباه من الغفلة المسبب لاجتناب ما نهى عنه؛ لأن تذكر نهى الله تعالى يصرف المؤمن عن المعصية. قال الشرفي في (المصابيح): «وقوله ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ ليس المراد منه الترجي والتمني فإن ذلك محال على الله تعالى فوجب أن يكون معناه أنه تعالى يعظكم لكي تذكروا طاعته، وذلك يدل على أنه تعالى يريد الإيمان من الكل خلاف ما افتراه المجبرة» انتهى.

﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ عهد الله: ما عاهد الله به المعاهد والعهد القول المؤثَّق المؤكد، ومثاله: أن يقول أعاهد الله على كذا، هذا مثال عهد الله المذكور هنا.

وكذا لو قال: أقسم بالله لأطيعن الله أو نحو هذا، فهو من عهد الله.

قال الشرفي في (المصاييح): «قال في (البرهان): وهذه الآية نزلت في بيعة رسول الله ﷺ الناس على الإسلام، وهي عامة في كل عقد عقده الإنسان في يمين على نفسه مختاراً فإنه يجب الوفاء به ما لم تدع ضرورة إلى حله» انتهى.

فجعل الآية تعم ما بين العبد وربّه وما بين الناس من بعضهم لبعض، ويمكن تخصيص عهد الله بما عاهد العبد ربّه عليه، كما في قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ﴾ [التوبة: ٧٥] وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُؤْلُونَ الْأَذْبَارَ﴾ [الأحزاب: ١٥] وغير ذلك، فأما ما بين الناس، فيشمّله قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ وقوله تعالى في (سورة الإسراء): ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ﴾ الآية [٣٤].

وقوله تعالى: ﴿بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ أي تقويتها ليوثق بها وتوكيدها بقصدها وتعمدها المخرج لها عن يمين اللغو التي تجري على اللسان بغير قصد الحلف، وتوكيدها مع القصد بكونها قسماً بالله يوجب لها حكم اليمين.

وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ أي حين حلفتم به ليكون ذلك عهداً جعلتم الله كفيلاً عليكم بالوفاء؛ لأنكم جعلتموه ملزماً لكم بالوفاء من أجل الحلف به كما يطلب الكفيل الغريم بالوفاء بل أشد منه؛ ولأنكم جعلتم اليمين بالله موثقاً لمن عاهدتموه، كما تجعلون الكفيل موثقاً له وذلك من جهة إيمان المعاهد والمعاهد بعزة الله وتعرض الناكث لليمين لعقوبته، فصار التوثيق بالعهد راجعاً إلى التوثيق بالتعرض لعقوبة الله إن نكث فبهذا يكون قد رضي على نفسه في العهد بعقوبة الله له إن نكث، ومعنى ذلك: أنه قد جعل الله عليه كفيلاً بالوفاء.

تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخْلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ
 إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ ۚ وَلِيُبَيِّنَ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ
 ﴿٢١﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ أي أوفوا بعهد الله ولا
 تنقضوا الأيمان إن الله يعلم ما تفعلون فهو يجزي بالوفاء ويعاقب على
 النكث.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَضَتْ غَزَلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَا تَتَّخِذُونَ
 أَيْمَانَكُمْ دَخْلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ
 بِهِ ۚ وَلِيُبَيِّنَ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي
 نَقَضَتْ غَزَلَهَا﴾ إما بالنكث للعهد والغائه، وإما بإحباط أعمالكم بسبب
 الغدر، والأول معناه التنفير من النكث بالتشبيه للناكث بالتي نقضت غزلها،
 ولا يصح هذا بمجرد، والأولى حمله على معنى: أن العهود يحتاج إليها
 الناس لتحصيل الثقة بينهم في الصلح حيث يعاهد عليه بعضهم بعضاً فيتم
 الصلح ويستمر الأمن في مدة الصلح، وفيه نفع لمعايشهم ولمن يضعف عن
 الحرب، فإذا نكثوا العهد بطلت الثقة وصار العهد قليل الفائدة وكذا العهد
 في سائر الأمور.

وبهذا المعنى يستقيم التشبيه على معنى إبطال المنفعة من العهد فيفيد
 التشبيه للناكث بالتي نقضت غزلها؛ لأنها أبطلت فائدة الغزل ﴿مِنْ بَعْدِ
 قُوَّةٍ﴾ في الخيوط حصلت بالغزل فحين نقضت غزلها الذي قتلته وحولته إلى
 أنكاث أي غير مغزول بعد غزله من الصوف أو غيره أبطلت فائدة غزله.

وفي (تفسير الإمام زيد عليه السلام): «فالقوة: الكُبة، والأنكاث: المنقوضة منها» انتهى. وأما تفسير التشبيه بالتي نقضت غزلها أنه لإحباط العمل فظاهر لكن لم أجد أحداً فسرهما به مع أنه مناسب للتحذير من نكث العهد - والله أعلم - ويمكن تفسيره بالمعنيين لعدم التنافي بينهما.

وقوله تعالى: ﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ﴾ فهو تفسير للمنهى عنه في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَضَتْ﴾ أي باتخاذ أيمانكم دخلاً بينكم، والدخل في (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «هو الفساد» انتهى، أي يتوصلون بها إلى الغدر.

وفسر (صاحب الصحاح) (الدخل): بالعيب والريبة، وقال: «وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخْلًا بَيْنَكُمْ﴾ أي مكرراً وخديعة» انتهى [وفي كتابة الآية في (الصحاح) غلط مطبعي] أما في (مفردات الراغب) فقال: «والدخل كناية عن الفساد والعداوة المستبطنة كالذغل» انتهى.

وقال الشرفي في (المصابيح): «﴿دَخْلًا بَيْنَكُمْ﴾ أي دغلاً ومفسدة، بمعنى: غشاً وخديعة» انتهى المراد.

وقوله تعالى: ﴿أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ﴾ الراجح فيه: أنه بمعنى (لثلا) كما في قوله تعالى: ﴿أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾ [البقرة: ٢٨٢] وقوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ أَنْ تَضِلُّوا﴾ [النساء: ١٧٦] فالمعنى لا تتخذوا أيمانكم دخلاً كراهة أن تكون أمة هي أربى من أمة، ولثلا تكون التي تغدرون بها أربى من أمة أخرى كثيرة العدد فتتكثوا عهدكم، رغبة في بقاء الأمة التي عاهدتموها قليلة العدد بالنسبة إلى الأمة الأخرى، فهذا لا يبرر نكث العهد، ويمكن في مثل هذه الحالة إبلاغ المعاهدين نهاية الصلح بغير غدر بهم كما نزلت براءة لإعلان حرب المشركين بعد أربعة أشهر من البلاغ.

يَشَاءُ ۖ وَلْتَسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾ وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَرِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا أَلْسُوَاءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ﴾ أي يحذر أن تكون أمة هي أربى من أمة أو خوف ذلك أو بمثله مما يرغب في نكث العهد فهو ابتلاء من الله واختبار يتميز به من يثبت على عهده ومن ينكث، وقوله تعالى: ﴿وَلْيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ كقوله تعالى: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ وقد مر، وبيانه يوم القيامة بالتمييز بين الحق والباطل والحق والمبطل فيما كانوا فيه يختلفون، وقوله: ﴿وَلْيُبَيِّنَنَّ﴾ أي أقسم ليبين.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ۖ وَلْتَسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ﴾ بالجبر أو القسر ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ غير مختلفين؛ لأنه على كل شيء قدير فلم يعص مغلوباً ولكن لم يشأ ذلك، ولكن أراد أن يجعل التكليف مع اختيار العبد، حتى يتميز الخبيث من الطيب، وتبع ذلك أن استحق الإضلال بعضهم بمحادثته لله وتمرده فأضله أي خذله وتركه للشياطين فأضلته، واستحق الهدى بعضهم بإجابته دعوة الله وصلاح نيته.

وقوله تعالى: ﴿وَلْتَسْأَلُنَّ﴾ أي يوم الحساب ﴿عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من حق أو باطل ليثيب الله أوليائه ويعاقب أعداءه ليجزي الله كل نفس ما كسبت.

وفائدة التعليق على المشيئة في قوله تعالى: ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ أو من فائدته: الدلالة على أنه القاهر فوق عباده الغالب على أمره الذي يفعل ما يريد لا ينازعه منازع ولا يعارضه أحد، وفي هذا ترغيب في اللجوء إليه للهداية وترهيب من إضلاله ليحذر العبد أسبابه.

وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ

﴿٩٤﴾ وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَرِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا أَلْسُوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٥﴾ وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا ﴿٩٦﴾ لَا تَتَّخِذُوا الْعَهْدَ خِدَاعًا لِمَنْ تَعَاهَدُونَهُ وَسِيلَةً إِلَى الدَّغْلِ وَالْفَسَادِ عَلَيْهِ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿بَيْنَكُمْ﴾ أَي فِي الْمَعَامَلَةِ بَيْنَكُمْ مِثْلَ الصَّلَحِ إِذَا عَاهَدْتُمْ عَلَى تَرْكِ الْقِتَالِ بَيْنَكُمْ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ.

وقوله تعالى: ﴿فَتَرِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ هذا مَثَلٌ لَخُرُوجِ فَاعِلٍ ذَلِكَ مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ إِلَى مَعْصِيَتِهِ وَمِنْ اسْتِحْقَاقِهِ الثَّوَابِ إِلَى اسْتِحْقَاقِهِ الْعَذَابِ، وَزَلُولِ الْقَدَمِ زَوَالُهَا مِنْ مَكَانِهَا لِأَجْلِ زَلْقٍ فِي الْمَكَانِ مِثْلًا أَوْ غَيْرِهِ مِمَّا يَسْبَبُ سَقُوطَ الْإِنْسَانِ الَّذِي زَلَّتْ قَدَمُهُ.

وقوله تعالى: ﴿بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ أَي بَعْدَ كَوْنِهِ عَلَى الْحَقِّ وَالصَّوَابِ وَسَبَبُ الْهَدْيِ وَالثَّوَابِ، وَتِلْكَ حَالَةٌ يَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ أَنْ يَكُونَ حَرِيصًا عَلَى أَنْ يَبْقَى عَلَيْهَا؛ لِأَنَّهَا سَبَبُ سَعَادَتِهِ الدَّائِمَةِ إِذَا بَقِيَ عَلَيْهَا حَتَّى يَمُوتَ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَتَذُوقُوا أَلْسُوءَ﴾ أَي الْعِقَابَ تَذُوقُونَهُ تَجِدُونَهُ أَلَمًا، وَالسُّوءَ الشَّرَّ.

قال الشَّرْفِيُّ فِي (المصَابِيح): «﴿وَتَذُوقُوا أَلْسُوءَ﴾ أَي الْعَذَابُ فِي الدُّنْيَا» انْتَهَى.

وقوله تعالى: ﴿بِمَا صَدَدْتُمْ﴾ إِنْ كَانَ مِنَ الصَّدُودِ أَي بِمَا أَعْرَضْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَي عَنْ دِينِهِ وَشَرِيعَتِهِ فَالْمَعْنَى أَنْ اتَّخَذْتُمْ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ هُوَ مِنَ الْإِعْرَاضِ ﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فَتَذُوقُوا السُّوءَ بِسَبَبِ الْإِعْرَاضِ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، وَإِنْ كَانَ صَدَدْتُمْ هُوَ الَّذِي مَصْدَرُهُ الصَّدُّ فَمَعْنَاهُ: بِصَدِّكُمْ غَيْرَكُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِمَا سَنَتُمْ لَهُمْ نَكْثَ الْعَهْدِ وَاتِّخَاذَهُ دَخَلًا، وَالْأَوَّلُ أَرْجَحُ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أَي فِي الْآخِرَةِ، أَوْ فِيهَا وَفِي غَيْرِهَا.

وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ مَن عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنْتَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً

﴿١٥﴾ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ وَلَا تَشْتَرُوا ﴿١٧﴾ وَلَا تَسْتَبَدُّوا ﴿١٨﴾ بِعَهْدِ اللَّهِ ﴿١٩﴾ عِوَضًا مِّنْ أَغْرَاضِ الدُّنْيَا تَجْعَلُونَهُ بَدَلًا مِّنْ حِفْظِ الْعَهْدِ وَالْوَفَاءِ سِوَاهُ كَانَ الْبَدَلُ رِشْوَةً تَنَالُونَهَا بِنَكَثِ الْعَهْدِ أَوْ غَلْبَةِ لَعْدُوكُمْ تَتَفَرَّغُونَ بِهَا أَوْ غَنَائِمٍ تَحْرِزُونَهَا أَوْ غَيْرِهِ، فَأَغْرَاضِ الدُّنْيَا كُلُّهَا قَلِيلٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَىٰ مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الْخَيْرِ لِمَن أُوْفِيَ بِعَهْدِ اللَّهِ.

وهذا الخير يعم فوائد كثيرة؛ لأنه قد ينال المتمسك بالميثاق نصراً من الله في حين يكون قتال العدو حقاً لا نكث فيه فينال غنائم وعزاً وإعلاءً للحق وأهله وإخماً للباطل وأهله، كما أن المتمسك بالميثاق قد يرزقه الله رزقاً حلالاً غير الغنائم التي يؤمل أن ينالها بنكث العهد وثواب الله خير من ذلك كله لمن يعلم وشأنه أن يعلم، فأما من أعمى حب الدنيا بصيرته وغفل عن الله ورجاء فضله فالأعمى عن ذلك غافلٌ عن العلم بذلك وبغيره من العلم النافع.

﴿١٦﴾ مَا عِندَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ مَا عِندَكُمْ ﴿١٨﴾ مِّنْ عَرْضِ الدُّنْيَا ﴿١٩﴾ يَنْفَدُ ﴿٢٠﴾ يَتَّبِعُهُ وَيَنْقُضِي فَلَا يَبْقَىٰ مِنْهُ شَيْءٌ ﴿٢١﴾ وَمَا عِندَ اللَّهِ ﴿٢٢﴾ مِّنْ الثَّوَابِ ﴿٢٣﴾ بَاقٍ ﴿٢٤﴾ لَا يَنْفَدُ؛ لِأَن نَّعِيمَ الْجَنَّةِ لَا يَنْقُطِعُ أَبَدًا.

وقوله تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ﴾ [بالنون أو بالياء المثناة من تحت] أي نثيبن ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ على الوفاء بالعهد وعلى مشاق التكاليف كلها من الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغير ذلك وصبروا على بلاء الله تعالى ﴿أَجْرَهُمْ﴾ وهو يعم أجر الصبر وأجر كل سبب للأجر، وهذا الجزاء هو خير وأبقى؛ لأن ما عند الله باق.

وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٨﴾ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى

وهذا مبني على أن قوله تعالى: ﴿بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ يعم الواجب وكل قرينة؛ لأن ذلك أحسن أعمالهم لأن بعض أعمالهم ليس واجباً ولا مستحباً، ويحتمل أن المراد بالأحسن أفضل أعمالهم الصالحة كالجهاد فيكون هذا الوعد نصّاً في الثواب عليه ويدخل ما دونه؛ لأنه دون أجره بمفهوم الأولى أو بدليل آخر، والأول أظهر، وتأكيد الوعد بالقسم في قوله تعالى: ﴿وَلَيَجْزِيَنَّهُمْ﴾ أي أقسم ليجزين زيادة في الترغيب في الصبر.

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا﴾ من واجب أو مستحب صالحاً غير فاسد ولا محبط بمخرج من التقوى؛ ولذلك قال تعالى: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ لأن الإيمان لا يجتمع مع اقتراف الكبائر وتعتمد المعاصي، وقوله تعالى: ﴿مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ﴾ لا فرق بينهما في ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ شرط في قبول العمل؛ لأن الفاجر يحبط عمله الفجور، وقد تكرر هذا الشرط فتقدم في (سورة النساء) في [آية: ١٢٤] ويأتي في (سورة الإسراء) في [آية: ١٩] وفي (سورة الأنبياء) في [آية: ٩٤] وذلك يدل على أنه لا ينفع العمل إلا مع الإيمان، كما قال تعالى في المجرمين: ﴿وَقَلِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِن عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ مَبْءُؤًا مَّتَّوْرًا﴾ [الفرقان: ٢٣] وقال تعالى في الذين كفروا: ﴿ذَلِكَ يَأْتُهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ٢٨] وقال تعالى حاكياً: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧] فعلى الإنسان أن يكون مؤمناً تواباً ليحفظ عمله الصالح.

الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢٤١﴾ إِنَّمَا سُلْطَنُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿٢٤٢﴾ وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَّكَانَ

وقوله تعالى: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَوةً طَيِّبَةً﴾ وعدٌ غير مقيّد فهو صالح للحياة الدنيا والآخرة، وطيب الحياة الدنيا القناعة والرضا بما كتب وكونها مزرعة للآخرة سليمة من رجس المعاصي، وطيب الآخرة السلامة من الفرع الأكبر ومن سوء الحساب ومن عذاب النار ومقدماته ومع ذلك رضوان الله والفوز بالجنة فهي تمام طيب الآخرة، وهذا يجمع طيب الحياة.

ويمكن اعتبار أبعاضه طيباً كالقناعة في الحياة الدنيا والسلامة في الآخرة من كل شر فتفسير الحياة الطيبة بالحياة الدنيا صحيح وتفسيرها بالآخرة صحيح، ولا بد من التفسير بهما؛ لأن الآية لم تعين أحدهما ولا ينافيه قوله تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ لأن الأجر أكثر من طيب الحياة الآخرة، وبه تطيب الحياة أكثر.

﴿٢٤٢﴾ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ * إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَنُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿٢٤٣﴾ فَإِذَا ﴿٢٤٤﴾ تفريع بـ(الفاء) على الوعد بالحياة الطيبة والجزاء بأحسن العمل؛ لأن القرآن يبين العمل الصالح ما هو فيقرن المعرفة بالعمل الصالح، فكان الحث على العمل الصالح حثاً على تعلمه، فكان حثاً على قراءة القرآن؛ ولأن قراءة القرآن هي من العمل الصالح، وفي الحديث الصحيح: «قراءة القرآن في صلاة أفضل من قراءة القرآن في غير صلاة، وقراءة القرآن في غير صلاة أفضل من الذكر، والذكر أفضل من الصدقة، والصدقة أفضل من الصيام، والصيام جنة من النار...» الحديث.

وقوله تعالى: ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ أمر بطلب الإعاذة من الشيطان بأسبابها ليس بمجرد قول القائل: أعوذ بالله من الشيطان، وأسبابها الإيمان والتوكل والدعاء، وذلك لأن قوله: ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ معناه توسل إلى أن يعيذك الله، كأنه قيل: اجعل الله معيذاً لك بفعل سبب ذلك؛ لأنه قال: ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ فأتى بـ (الباء) ولو قال: فاستعذ الله لكان معناه أطلبه أن يعيذك، ونظير (الباء) هنا في قوله تعالى: ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ﴾ في (سورة الأعراف) [آية: ١٢٨] وعلى هذا فالإستعاذة بالله هي معها في ظرفها كله غير مختصة بوقت ابتداء القراءة.

وقوله تعالى: ﴿مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ أي الذي يرمم بالشهب دفعاً عن سماع الملائكة الأعلى؛ لأنه شرير يستمع توصلاً إلى أن يفسد في الأرض؛ لأن الخير قد يستعمل وسيلة للتغريب والإفساد، كما قال تعالى: ﴿يَلْقَوْنَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٣] فهم يتوسلون به ليقبل كذبهم، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ﴾ أي ليس له قوة ﴿عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ فليس له قوة على إغوائهم.

وقوله تعالى: ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ بيان للوسيلة الثانية إلى دفع الشيطان، والإيمان الوسيلة الأولى، فالإيمان يسبب الانتفاع بالقرآن واتباع حكمه والإيمان بمتشابهه، ويسبب الإيمان عطف الهوى على القرآن لا عطف القرآن على الهوى؛ لأن التعلق بالمتشابه دون المحكم وعطف المحكم على الهوى هو شأن أهل الزيغ، فالمؤمن ينتفع بالقرآن لذلك.

والوسيلة الثانية: التوكل على الله، فهو يدفع الشيطان عند تخوفه من أوليائه وعند تخوفه من الفقر وعند تخوفه من مشاق التكليف، فالمؤمن

ءَايَةٌ ۖ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزَّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾
قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى

يتوكل على الله عند ذلك كله فيعزم على طاعة الله وامتنال أمره ونهيهِ
والعمل بالقرآن والتمسك به في العسر واليسر؛ فيقبل ما في القرآن بنية
صالحة ويذهب عنه وسواس الشيطان.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا سُلِّطْنَاهُ﴾ أي الشيطان ﴿عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ﴾
يتخذونه ولياً بأن يطيعوه ويتركوا الإيمان، كما قال تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا
يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا
يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٧] وقال تعالى: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ
اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [الأعراف: ٣٠].

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ أي مشركون بطاعته إما
في كل ما سؤل لهم من الباطل، وإما في الشرك، والأول أظهر، وهو قول
الناصر عليه السلام في (البساط).

﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا ءَايَةً مَّكَارًا ءَايَةً ۖ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزَّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ
مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿بَدَّلْنَا ءَايَةً﴾ جعلناها في التكليف بدل آية؛
ولذلك قال: ﴿مَّكَارًا ءَايَةً﴾ لأنه صار المشروع العمل بالآية الثانية بدلاً
من العمل بالأولى، فكانت مكانها في التكليف والتشريع، ولا يجب أن تكون
مكانها في التلاوة؛ لأن اعتراض الكفار إنما هو على تبديل الحكم لا على
تبديل التلاوة، كقوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَاهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمْ
الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾ [البقرة: ١٤٢]

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزَّلُ﴾ فهو أعلم بالحكمة في ذلك.

وَبَشِّرِ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ

وقول الكفار: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ﴾ أرادوا تفترى الكذب أي كاذب عمداً لاختلاف كلامك حيث دلّ أولاً على شيء ودلّ آخراً على خلافه، فرد الله عليهم بقوله سبحانه وتعالى: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فهم أهل جهل ليس من شأنهم أن يعلموا، ولذلك حملوا اختلاف التشريع على الافتراء ونسوا أن التشريع من الله لا مانع من اختلافه لاختلاف الحكمة فيه مع اختلاف الوقت والحال، ومن الواضح: أنه يجوز أن يأمر الله بإكرام زيد اليوم لأنه مؤمن ثم يأمر بإهانته غداً لأنه فاجر غير مؤمن، فهكذا تختلف الأحكام لاختلاف الأسباب.

﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ ﴿قُلْ﴾ يا رسول الله ﴿نَزَّلَهُ﴾ أي نزل القرآن الذي زعمتم أنه افتراء على الله أفتره أنا فقد كذبتهم إذ كذبتموني؛ لأنه نزل القرآن على قلبي روح القدس من الله، وروح القدس: روح الطهارة أو روح البركة وهو جبريل الأمين عليه السلام.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ رَبِّكَ﴾ أي هو الذي قاله فـ ﴿مِنْ﴾ للإبتداء كقوله تعالى: ﴿وَمَا يَكُمُ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللّٰهِ﴾ (من) الثانية للإبتداء، وقوله ﴿مِنْ رَبِّكَ﴾ إشارة إلى أنه اختارك لإنزاله عليك وخصك بهذه الكرامة العظمى.

وقوله تعالى: ﴿بِالْحَقِّ﴾ يحتمل معنى قوله تعالى: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ﴾ [الإسراء: ١٠٥] ومعنى قوله تعالى: ﴿وَبِالْحَقِّ نَزَّلَ﴾ [الإسراء: ١٠٥] أو كليهما فإنزاله الحق ومعانيه الحق.

﴿١٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِقَايَتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ
﴿١٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِقَايَتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ

وقوله تعالى: ﴿لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ إشارة إلى حكمة اختلاف التشريع فهو الثبوت للذين آمنوا على الهدى، فقد تكون الحكمة في التشريع الأول للتخفيف عليهم فيه لقلّة تحملهم لما هو أشقّ ففي ذلك تثبيتهم بالتخفيف حين كان سبباً لتثبيتهم.

وقوله تعالى: ﴿وَهُدَىٰ وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ هدى لهم يهتدون به إلى الحق، وبشرى لهم بالثواب وبنصر الله لدينه وغير ذلك، وقوله ﴿لِلْمُسْلِمِينَ﴾ يحتمل للذين أسلموا أنفسهم لله فدخلوا في السلم كافة انظر [آية: ٢٠٨] وتفسيرها، وهو أظهر ليوافق قوله تعالى: ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢] وغيرها، ويحتمل: للذين خرجوا من الشرك بالشهادتين، فهو هدى لهم إن اهتدوا به وبشرى لهم ان اتبعوه، والأول أظهر.

﴿١٣﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴿١٤﴾ أَنَّهُمْ أَيُّ الْكَفَّارِ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ أَيُّ مُحَمَّدًا ﴿بَشَرٌ﴾ وَأَرَادُوا بِهَذَا الْبَشَرِ مِنْ غَيْرِ الْأَمِينِ الَّذِينَ لَا يَحْسِنُونَ الْحِكْمَةَ وَتَعْلِيمَ الدِّينِ لِأَنَّهُمْ نَشَتُوا فِي جَاهِلِيَّةٍ جَهْلَاءَ فَأَرَادُوا رَجُلًا مُتَعَلِّمًا، ولكنه ﴿أَعْجَمِيٌّ﴾ اللسان قيل: هو (سلمان الفارسي). وأجيب عنه: بأن الآية (مكية) وسلمان لم يأت إلى رسول الله ﷺ إلا بعد هجرته فأمن به سلمان في المدينة والذي يلزم المفسر أن يبين أن الكفار أرادوا رجلاً أعجمي اللسان فأما تعيينه فلا يلزم؛ لأنه لا حاجة إليه في فهم معنى الآية الذي هو ذكر كذبهم والرد عليهم بالحجة الواضحة، وهي قوله تعالى: ﴿لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾.

الْكَاذِبُونَ ﴿١٥﴾ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيْمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ
وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيْمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ» معناه:
يعدلون إليه» انتهى، ونحوه في (مفردات الراغب).

وقوله تعالى: ﴿وَهَذَا﴾ أي القرآن ﴿لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ أي يبين
المعاني للعرب أو مبين بين العروبة لا يشتبه بأعجمي وإذا كان عربياً فلا
يستطيعه الأعجمي، فتبين بطلان دعوى الكفار أنه تلقن القرآن من بشر فقد
كذبوا.

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ
أَلِيمٌ﴾ ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ عادتهم أن لا يؤمنوا ومن خلقهم وشأنهم أن لا
يؤمنوا عناداً وتمرداً، فأي آية شاهدوها لم يؤمنوا بها ﴿لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ﴾ لأنهم
لا يستحقون إلا الإضلال، ولذلك قالوا: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ وقالوا: ﴿إِنَّمَا
أَنْتَ مُفْتَرٍ﴾.

﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ
الْكَاذِبُونَ﴾ ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ﴾ يتعمده ويختلقه ﴿الَّذِينَ لَا
يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ لأنه لا وازع لهم من الكذب يمنعه بالتخويف من
الله فهم الذين يفترون الكذب لا رسول الله ﷺ فهو معصوم.

فقولهم: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ﴾ باطل هم أهله وأولئك الذين لا يؤمنون بآيات
الله وبسبب عدم إيمانهم بآيات الله ﴿هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ كذباً مستمراً
لأنهم يكذبون ويصرون على الكذب فهم الكاذبون باستمرار.

مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٧﴾ أُولَٰئِكَ

﴿١٦﴾ ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ﴾ إما بالكفر بدينه أي برفضه والبراءة منه كقوله تعالى: حاكياً عن إبراهيم والذين معه ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ [الممتحنة: ٤] وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾ [المائدة: ٥] فجعل البراءة من دينه كفراً به تعالى وبراءة منه كما جعل محاربة دينه محاربة له، وإما بالجحد به ككفر الطباعية، أو الجحد بقدرته مثل كفر من جحد البعث استبعاداً لقدرة الله عليه من بعد إيمانه أي ارتد عنه إلى الكفر.

﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ﴾ على النطق بكلمة الكفر ﴿وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ﴾ غير متردد في الإيمان فهو ثابت عليه فلا ريب فيه ولا قلق فاطمئنان القلب سلامته من الريب، فذلك سكون القلب المعبر عنه بقوله تعالى: ﴿مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ وهذا الاستثناء يخرج المكره من عموم ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ﴾ لأنه أكرهه على النطق بالكفر فنطق به لينجو من تعذيب الكفار له أو قتله، فكان إكراهه مع سلامة قلبه عذراً له.

وقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا﴾ أي رضي بالكفر وطابت به نفسه فهو المراد بالوعيد ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ أي غاية الغضب وهي لعنة الله لهم وخذلانه لهم وحكمه عليهم بكلمة العذاب وقوله تعالى: ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ الراجح: أنه جواب الشرط المذكور في أول الآية.

قال بعض المفسرين: «وقوله: ﴿وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا﴾ أي بسط صدره للكفر فقبله قبول رضا ووعاه، والجملة استدراك من الاستثناء فيعود إلى معنى المستثنى منه، فإن المعنى: ما أريد بقولي من كفر بالله من بعد إيمانه من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن أريد به من شرح بالكفر صدرًا، وفي مجموع الاستثناء والاستدراك بيان كامل للشرط وهذه هي النكتة لاعتراض الاستثناء بين الشرط والجزاء وعدم تأخيره إلى أن تتم الشرطية» انتهى.

هذا هو الراجح في معنى الآية، وإذا كان حذف جواب الشرط ضعيفاً فيمكن جعل (مَنْ) الثانية موصولة أي: ولكن أعني من شرح، أو ولكن مَنْ شرح هو المعني - والله أعلم - وقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ مناسب لعظم الجريمة.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إما إلى غضب الله عليهم ووعدهم بالعذاب العظيم، وإما إلى سببه الذي هو شرح صدورهم بالكفر بعد إيمانهم وهو أرجح عندي، فهم إنما ارتدوا لإيثارهم الغرض الدنيوي وهو استبقاء الحياة والسلامة من مشقة الثبات على الإيمان والراحة من عنائه في ذلك الظرف، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ...﴾ إلى قوله تعالى: ﴿...وَأَن أَصَابَتْهُ مُتَّةٌ أُنْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ...﴾ الآية [الحج: ١١].

فهو قد آثر الحياة الدنيا والراحة ورضا قومه عنه وهما من أغراض الحياة الدنيا، وجبها هو الباعث على ترجيح جانب السلامة من الفتنة والمؤدي إلى ترجيح رضا قومهم الذين خافوهم، وكل نفس في الأصل تحب الحياة الدنيا، إلا أن المؤمن لا يكون حبها في نفسه أرجح من حب الآخرة وحب تقوى الله بل العكس.

وهؤلاء ﴿أَسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ﴾ أي جعلوا الحياة الدنيا أرجح في الحب من الآخرة، واختاروا ترجيح حب الحياة العاجلة على حب الآخرة. ف(السين) تفيد: أنهم اختاروا ذلك الحب ورضوه راجحاً على حب الآخرة وذلك لأن تصديقهم بالآخرة ضعيف فلم يكونوا مؤمنين عند أن رجحوا الردة ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي﴾ أي وبأن الله لا يهدي أي وبسبب أن الله لا يهدي ﴿الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ والكفر هنا على الوجه الثاني الذي رجحته هو كفر نعمة الدخول في الإسلام والإيمان وذلك بالمعاصي التي كانوا فعلوها قبل الردة، فقد كانوا فارقوا الإيمان الصحيح فلم يستحقوا من الله الهدى والتثبيت على الإيمان، ولو كانوا ثبتوا على الإيمان والصدق فيه ما رجحوا الحياة العاجلة على الآخرة، فظهر: أن قلوبهم قد كانت مريضة من قبل الردة، وأنهم كانوا كافرين لنعمة الله بترك التمسك بالدين وإيثار تقوى الله. قال الراغب في تفسيره لـ (مفردات القرآن): «الكفر في اللغة: ستر الشيء» انتهى.

قلت: التعبير بالتغطية أنسب؛ لأن الستر يستعمل لتغطية ما يعاب أو ما يعاب كشفه، ولعله السبب في ترجيح كلمة كَفَر على كلمة سَتَر، وكافر على كلمة ساتر مع اتفاقهما في الوزن، كما في قول لبيد:

في ليلة كفر النجوم غمامها

أما الكفر فهو ظاهر في تغطية النعمة وإخفائها بالمعاصي.

قال الراغب: «وَكُفِّرَ النعمة وكُفِّرَ عنها: سترها بترك أداء شكرها، قال تعالى: ﴿فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ﴾ [الأنبياء: ٩٤] وأعظم الكفر جحود الوجدانية أو الشريعة أو النبوة، والكفران في جحود النعمة أكثر استعمالاً» انتهى.

وصواب العبارة: في تغطية النعمة وإخفائها أكثر؛ لأن الواقع من كفر النعمة هو هذا لا النطق ببحود النعمة - ثم قال الراغب - : «والكفر في الدين أكثر» أي أكثر من الكفران.

ثم قال الراغب: «والكفور فيهما [أي في كفر الجحود للدين، وكفر الجحود للنعمة] جميعاً أي يستعمل هذا المصدر في كفر الجحود وكفر النعمة، ثم قال: ويقال منهما كفر فهو كافر...» إلخ، أي من كفر الجحود ومن كفر النعمة.

فالحاصل من هذا: أن المرتد ارتد واستحق بذلك غضب الله ووعيده بالعذاب العظيم لإيثاره الحياة الدنيا على الآخرة وكفره بنعمة الله بالمعاصي تجر العاصي إلى ما هو أكبر منهما، كما قال تعالى في أهل الكتاب: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَلَّوْا يُغْضَبُ مِنْ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّنَ يَغْيِرُ الْحَقُّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٦١] ولا يبعد أن إيثار الحياة الدنيا بالحب كان سبباً من حيث هو معصية أيضاً مع كونه سبباً مباشراً من حيث أن الباعث الكبير على الردة هو الخوف من الكفار.

أما إذا كانت الإشارة إلى غضب الله تعالى والعذاب العظيم فالمعنى ذلك الغضب والعذاب بأنهم استحبوا الحياة الدنيا فهو عقوبة عليه؛ وبأن الله لا يهدي القوم الكافرين فلم يهديهم للتوبة فاستحقوا الغضب والعذاب، ويمكن على هذا الوجه ذلك الغضب والعذاب بأنهم استحبوا الحياة فوقعوا في سبيهما، وعلى هذا يتحد المعنيان معنى ذلك الارتداد ومعنى ذلك الغضب والعذاب.

الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ
الْغَافِلُونَ ﴿١٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَسِرُونَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ
إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا

﴿١٨﴾ وَأُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ
وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ * لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَسِرُونَ ﴿١٩﴾
﴿أُولَئِكَ﴾ أي من شرح بالكفر صدراً هم ﴿الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى
قُلُوبِهِمْ﴾ فلا يدخلها الإيمان، وقد مر تفسير الطبع في تفسير أول (سورة
البقرة) ﴿وَسَمِعِهِمْ﴾ أي ختم عليه ﴿وَأَبْصَرِهِمْ﴾ أي سد عليها فلا يهتدون
لسمع الحق ولا لطريقه.

﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ لأن أسباب الانتباه مقطوعة عنهم لإقبالهم
على الدنيا ورفض ما يشغل عنها ورين المعاصي على قلوبهم وإظلامها بها
وعظم أسباب خذلانهم وإرسال الشياطين عليهم، فاهلدى عندهم والسعادة
تحصيلهم أغراض الدنيا، والشقاوة عندهم فوات بعض أغراض الدنيا بالفقر
أو بالمرض أو بالخوف ولا ينظرون إلى غير الأغراض الدنيوية، فهم
مستمرون على غفلتهم المطبقة عليهم.

﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَسِرُونَ﴾ حقاً إنهم في الآخرة هم
الآخسرون؛ لأنه فاتهم فيها كل خير ومع ذلك صاروا إلى عذاب عظيم دائم
وذلك الخسران الذي لا يقاس به ضعف حال المؤمنين في الدنيا حين كانوا
مستضعفين خائفين من الكفار مقهورين يؤذون في الله ويفتنون فذلك ليس
من الخسران بل هو في الحقيقة خير لهم؛ لأنه سبب للسعادة الدائمة بالنجاة
من النار وللثواب الدائم في جنات النعيم والملك الكبير الدائم.

إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١﴾ * يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٢﴾ وَضَرَبَ

﴿١١﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٢﴾ ثُمَّ ﴿١٣﴾ بعد هذا الوعيد الشديد أن باب التوبة ما زال مفتوحاً لمن أكره على الكفر فكفر فراراً من الفتنة لقلّة صبره لا لانسراح صدره بالكفر وكذا من فتن واتقى بكلمة الكفر وقلبه مطمئن بالإيمان فكلاهما، ربُّ رسول الله غفورٌ رحيم لهما، إذا هاجروا الكفار وجاهدوهم، وصبروا على مشاق الهجرة والجهاد، حتى ماتوا على ذلك ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ من بعد تكامل الشروط ﴿لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يغفر لهم ما سلف منهم بسبب الفتنة.

والراجح: أن هذه الآية هي فيمن كفر ولم ينتبه للتقية بكلمة الكفر بل حمّله التعذيب على الكفر مع أنه غير منشراح الصدر له ولكنه كفر تقية وغفل عن المحافظة على الإيمان بقلبه؛ لأنه ظن أنه قد كفر بمجرد النطق، والحاصل: أن المفتونين ثلاثة أقسام:

قسم: شرح بالكفر صدرأ وفيه الوعيد الشديد.

وقسم: أكره وقلبه مطمئن بالإيمان فهو باق على حكم السبق إلى الإيمان وفيه [آية ٤٠، وآية ٤١] من هذه السورة كمن صبر على الفتنة حتى قتل.

وقسم: كفر فراراً من الفتنة ثم تاب وهاجر وجاهد وصبر وفيه هذه الآية، فهذا هو الراجح.

أما دخول عمار في هذه الآية فهو لدخوله في عمومها؛ لأنه فتن وإن صبر واتقى ولم يكفر؛ ولأنه هاجر من بعد ما فتن ثم جاهد وصبر؛ فلذلك هو داخل في الوعد بالمغفرة والرحمة وذلك خير عظيم.

اللَّهُ مَثَلًا قَرِيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ

وقد دخل فيه بعمومها وفرق واضح بين عمار وبين من تغفل فكفر جاداً في الكفر، إلا إله غير منشرح الصدر بالكفر، فراجع في عمار [آية: ٤٠، وآية: ٤١].

﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوْفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ ﴿يَوْمَ تَأْتِي﴾ هو الآخرة الذي يخسر فيه الكافرون كلهم المرتدون منهم وغيرهم، ولعل ﴿يَوْمَ﴾ هنا بيان لقوله تعالى: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْآخَسَرُونَ﴾ [هود: ٢٢] ﴿تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ﴾ تأتي موقف السؤال والحساب وهي ﴿تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا﴾ لا تلتفت إلى النظر في حال غيرها أو إلى الجدال عن غيرها، وهو يشير إلى من ارتد من أجل أهله الذين أبوا أن يسلموا معه فغلبته العاطفة فارتد، ويشير إلى من لم يسلم لأن أهله لم يسلموا، وإلى أشباههم ممن أثر طاعة المخلوق على طاعة الله.

فلشدة الهول من عذاب الله المتوقع أن يحكم الله به عليهم ﴿تُجَادِلُ﴾ كل نفس ﴿عَنْ نَفْسِهَا﴾ خاصة لأنه موقف يود المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذ ببنية الآيات ﴿وَتُوْفَى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ فلا يظلم المجرمون بزيادة في العذاب ولا ينقص المتقون مثقال ذرة من الثواب فهو يوم يستحق أن يجعله العاقل أكبر همه في هذه الحياة الدنيا.

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرِيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ في هذه الآية تحذير من العقوبة العاجلة في الدنيا بعد التحذير

من سوء المصير يوم الحساب، فيبين: أن كفر النعمة بالكفر بالله ورسله أو بغيره يسبب تغير الحال، كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ يَأْنُ اللَّهُ لَمْ يَكْ مُغَيَّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الأنفال: ٥٣] فضرب الله مثلاً ليعتبر بها أهل القرى ﴿قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً لَا خَافَةَ وَلَا قَلَقَةَ، وَالسَّلَامَةَ مِنَ الْخَوْفِ وَالْقَلْقِ مِنْ أَهَمِّ مَطَالِبِ الْإِنْسَانِ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ.

ثم قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا﴾ واسعاً رافهاً ﴿مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ ولعل ذلك من أجل التجارة فيها فيجلب إليها رزقها من الأقطار الكثيرة ليباع فيها فهي نعمة الرزق مع نعمة الأمن ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ﴾ اتباعاً للهوى وانقياداً لأكابر مجرميها فانقلبت حالها عقوبة عاجلة ﴿فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ (أذاقها) جعلها تحس بآلم الجوع والخوف كما يحس من ذاق المأكول طعمه وجعلها بتأثرها من الجوع والخوف قد زال عنها أثر النعمة، وظهر على إبدائها أثر الجوع والخوف من صفرة الألوان وكدرها وهزال الأجساد فكان الجوع والخوف بظهور أثرهما عليهم كأنهما لباس على أجسامهم لاشتمال أثر الجوع والخوف على ظاهر أجسامهم كما يشتمل اللباس؛ ولعله قدم الجوع هنا لأنه في الواقع وقع عليهم قبل الخوف إما لأن عدوهم طمع فيهم لظهور ضعفهم بما أصابهم من الفقر فأغار عدوهم عليهم أو لغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ أي جزاء لهم بما كانوا يعملون؛ ولعله سماه صنعاً لأنه كان عملاً دبروه لمحاربة الدين وأهله وكادوا به أهل الحق فدبروا ذلك وحاولوا إتقانه كما يتقن الصانع صنعه ليؤدي إلى غرضهم الباطل.

وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١١٢﴾ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَلًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٣﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أَهْلٌ لِّغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا

﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١١٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ ﴿١﴾ أَرْسَلَهُ اللَّهُ إِلَيْهِمْ لِيُطِيعُوهُ فَتَنَبَّأَهُمْ لِنِعْمَتِهِمْ فَكَذَّبُوا رَسُولَهُمْ ﴿٢﴾ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ ﴿٣﴾ الْعَاجِلُ ﴿٤﴾ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿٥﴾ بِتَكْذِيبِ رَسُولِهِمْ وَغَيْرِ التَّكْذِيبِ مِنْ ظُلْمِهِمْ وَبَطْرِهِمْ.

﴿١١٤﴾ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَلًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١﴾ فَكُلُوا وَاشْكُرُوا، وَاحْذَرُوا مِثْلَ مَا حَلَّ بِالْقُرْبَةِ الَّتِي كَفَرَتْ بِأَنْعَمَ اللَّهُ ﴿٢﴾ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَلًا طَيِّبًا ﴿٣﴾ وَلَا تَحْرَمُوا مِنْهُ شَيْئًا افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ وَكُفْرًا لِّنِعْمَتِهِ ﴿٤﴾ وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ ﴿٥﴾ عَلَيْكُمْ بِمَا رَزَقَكُمْ مِنَ الْمَأْكُولِ الَّذِي كَانَتْ الْجَاهِلِيَّةُ تَحْرِمُهُ وَمِنْ غَيْرِهِ مِنَ الْمَأْكُولِ وَغَيْرِهِ.

﴿١﴾ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١﴾ إِنْ كُنْتُمْ تَعْبُدُونَهُ وَحْدَهُ لَا تَشْرِكُونَ بِعِبَادَتِهِ أَحَدًا فَإِنْ مِنْ عِبَادَتِهِ وَإِخْلَاصِهَا جَعَلَ الْحُكْمَ لَهُ وَحْدَهُ لَا يَحْرُمُ غَيْرُهُ حَلَالًا وَلَا يُحِلُّ حَرَامًا، لِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَالِكُ لِلنَّاسِ وَلِمَا رَزَقَهُمْ فَلَيْسَ لَغَيْرِ اللَّهِ حُكْمٌ فِيهِمْ وَلَا فِيَمَا رَزَقَهُمْ، وَجَعَلَ الْحُكْمَ لَغَيْرِ اللَّهِ شُرَكَاءَ فِي الْعِبَادَةِ.

﴿١١٥﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أَهْلٌ لِّغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ ﴿١﴾ الْحَصْرُ لِإِضْطِافِي أَيٍّ: لَا مَا حَرَّمَتْهُ الْجَاهِلِيَّةُ مِنَ الْأَنْعَامِ الَّتِي هِيَ حَلَالٌ كَالْوَصِيلَةِ، وَقَدْ مَرَّ تَفْسِيرُ هَذِهِ فِي تَفْسِيرِ (سُورَةِ الْبَقَرَةِ).

حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَّعٌ قَلِيلٌ وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى الَّذِينَ

﴿١١٦-١١٧﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ * مَتَّعٌ قَلِيلٌ وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ لا تقولوا الكذب لما تصفه ألسنتكم أي فيما تصفه ألسنتكم وتكلمون فيه بغير حجة لا تقولوا فيه الكذب ﴿هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ﴾ أي لا تقولوا القول الكذب الذي هو قولكم: هذا حلال وهذا حرام. فقوله: ﴿هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ﴾ بدل من الكذب أو بيان له، وقوله تعالى: ﴿لِّتَفْتَرُوا﴾ أي أنكم إذا حللتم الحرام وحرمتم الحلال كنتم قد افترىتم ﴿عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ لأن الحلال ما أحل الله والحرام ما حرم الله، فمعنى ﴿هَذَا حَلَلٌ﴾ أحله الله، ومعنى ﴿وَهَذَا حَرَامٌ﴾ حرمه الله فهو افتراء للكذب على الله. و(اللام) قال الزمخشري: «من التعليل الذي لا يتضمن معنى الغرض» انتهى.

وهي غير (لام العاقبة) أراد الزمخشري أن ما بعدها معلل بما قبلها؛ لأنه سبب له لا لأنه غرض فيه، أما (لام العاقبة) فالمراد فيها: إفادة العاقبة، والفرق بينهما دقيق، ولعل (لام العاقبة) داخله في عموم التعليل الذي لا يتضمن معنى الغرض.

وقوله تعالى: ﴿مَتَّعٌ قَلِيلٌ﴾ أي للذين يفترون متاع قليل في الدنيا ﴿وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ والعذاب يعجل بعضه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٢] فالمتاع القليل لا ينافي تعجيل الذلة في الحياة الدنيا، ولتعجيل الذلة لا يفلحون في الدنيا ولا في الآخرة.

هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا الشُّوْءَ بِجَهَلَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٩﴾ إِنَّ

﴿١١٨﴾ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٩﴾ وعلى اليهود ﴿١١٨﴾ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا ﴿١١٩﴾ تحريمه من قبل في (سورة الأنعام) في [آية: ١٤٦] وما أفاده في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ [آل عمران: ٩٣] ولعله لحوم الإبل، ولكن التحريم الذي هو عقوبة لهم تحريم ما ذكر في (سورة الأنعام) فهو المراد هنا بقرينة قوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ وقد يقال تحريم ذلك عليهم ليس ظلماً ولو لم يكن عقوبة؛ لأن الأنعام ملكه واليهود ملكه فله أن يحرم عليهم ما يشاء؛ لأن تحليل ما أحل لهم إنما هو نعمة وتفضل عليهم.

والجواب: هذا صحيح ولكن وقوع التحريم عقوبة لهم يستدعي استحقاقهم للعقوبة لما فيه من الإهانة لهم؛ ولذلك جحدوا كونه عقوبة، فرد الله عليهم بقوله تعالى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِّنَبِيِّ إِسْرَائِيلَ...﴾ إلى قوله تعالى: ﴿...قُلْ صَدَقَ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٩٣-٩٤] ويقول تعالى: ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَّادِقُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٦] فهم الذين ظلموا أنفسهم ببغيهم الذي كان سبباً للتحريم.

﴿١١٩﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا الشُّوْءَ بِجَهَلَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٢٠﴾ السوء القبيح، وقوله تعالى: ﴿عَمِلُوا الشُّوْءَ بِجَهَلَةٍ﴾ يبين أن عمل السوء الموجب للعقوبة هو جهالة وسفاهة؛ لأنه مخالفة لمقتضى عقولهم، فإذا تابوا من بعد ذلك وأصلحوا ما قد أفسدوا بعمل السوء، كبيان ما قد كتموا ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ﴾ بعد التوبة والإصلاح ﴿لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ورجع الضمير إلى التوبة؛ لأن الإصلاح هو جزء من التوبة.

إِبْرَاهِيمَ كَرَّمَ اللَّهُ قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا
لِلْأَنْعَمِ أَجْتَبَهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً
وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ

وقوله تعالى: ﴿لَغُفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وعد بالمغفرة والرحمة مؤكداً بالدلالة على أنه من صفة الله تعالى فمن تاب وأصلح من الذين هادوا وغيرهم غفر له ورحمه وأحل لهم ما كان حرمه عليهم.

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَرَّمَ اللَّهُ قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * شَاكِرًا لِلْأَنْعَمِ أَجْتَبَهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * وَءَاتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ قال الشريفي في (المصابيح): «قال في (البرهان): وسمي أمة لقيامه بأمر الأمة كلها» انتهى، أي أنه عمل عمل أمة في جهاده للمشركين وإرشاده لمن اتبعه.

وقوله تعالى: ﴿قَانِتًا لِلَّهِ﴾ أي مطيعاً حنيفاً خاشعاً ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وإن زعم بعض المشركين أنهم على دين إبراهيم ﴿شَاكِرًا لِلْأَنْعَمِ﴾ أي كان إبراهيم شاكراً لأنعم الله ﴿أَجْتَبَهُ﴾ اصطنعه لنفسه أو اختاره للرسالة ﴿وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ فثبت على دين الله حتى توفاه الله ﴿وَءَاتَيْنَاهُ﴾ التفات من الجلالة وضميرها إلى اسم القائل الذي يعبر به عن نفسه، ولعل الحسنة في الدنيا ذكره بالخير في الأولين والآخرين وهو لسان الصدق.

وكذلك أنه تعالى جعل في ذريته النبوة والكتاب والإمامة ﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ لا يفوته شيء من ثواب الصالحين بما نال في الدنيا فله الجنة والثواب العظيم ودرجته فيها بقدر سبقه إلى الخيرات وسبقه فيها.

إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٦﴾ إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٧﴾ أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ

﴿١٢٦﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٧﴾ ثُمَّ ﴿١٢٨﴾ فِي هَذَا الزَّمَانِ الْمَتَأَخَّرِ عَنْ زَمَانِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَبَعْدَ أَنْ اجْتَبَاهُ اللَّهُ وَهْدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ وَالْمِلَّةَ الشَّرِيعَةَ.

وفي الحديث: «لا يتوارث أهل ملتين» فالملة أصول الدين التي تمتاز فيها وبها الملل، وهي دين الأنبياء كلهم لا تختلف فيها أديانهم، قال تعالى: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠].

وقوله تعالى: ﴿حَنِيفًا﴾ حال يبين: أنه أمر محمداً باتباعه، لكونه ﴿حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ لا كما يدعي المشركون.

﴿١٢٦﴾ إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٧﴾ السَّبْتُ ما وجب على اليهود في يوم السبت تبعاً لذلك اليوم من تعظيمه واجتناب ما نهوا عنه فيه من الأفعال، فهو لم يجعل أي لم يشرع إلا ﴿عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ وهم اليهود فليس من ملة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ ولا من دين محمد ﷺ.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ كما ذكر في غير هذه الآية أنهم تفرقوا، وأنه تعالى سيحكم بينهم فيما كانوا فيه يختلفون، ولعل اختلافهم في السبت كان في أحكامه بين تشديد وترخيص، وفي عقوبة من تعدى فيه، ونحو ذلك مما يتعلق بالسبت.

وَجَدِلْهُمْ بِآلَتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٧٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ

وقيل: اختلافهم فيه ما ذكره الله عن القرية التي كانت حاضرة البحر، وفيه نظر لأن الذين اصطادوا الحوت اصطادوه جراً على التعدي فيه لا بناء على أنه لا إثم في التعدي، والذين اختلفوا في عظمتهم اختلفوا في فائدتها أو في وجوبها لا في السبب، فلم يظهر منهم اختلاف في السبب إلا أن يكون الاختلاف بالصيد فيه وتركه، ولكن فيه إشكال وهو أن السبب قد جعل عليهم وشرع لهم من قبل ذلك التعدي، فالأولى أن الخلاف فيه نوع مما حكاه الله عنهم في غير هذه، كقوله تعالى: ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ [الجاثية: ١٧].

ومحتل: أنهم اختلفوا في تشريع السبب عند نزول حكمه عليهم فمنهم من قبله، ومنهم من رده بعد ما جاءهم العلم بشرعه، وهذا أقرب لأجل الحصر بـ ﴿إِنَّمَا﴾ فيدخل فيه اليهود كلهم ولا يختص بأهل الخلاف العارض في أحكام السبب - والله أعلم.

﴿أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِآلَتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ ﴿أَدْعُ﴾ يا رسول الله ﴿إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ إلى دينه الذي هو الهدى، ادع إليه ﴿بِالْحُكْمَةِ﴾ بالعلم النافع الذي تفيده الحجة البينة التي تبينها لمن تدعوه إلى سبيل ربك أو المعنى ادع بالحكمة بموجب الحكمة وما تقتضيه الحكمة من حسن البيان للحجة وجعل الخطاب بقدر احتمال من تدعوه في الإيجاز والتطويل والإجمال والتدقيق، وباستعمال ما يدعو إلى إجابتك وهو أولاً

ما يلفت المدعو إلى الاستماع، ثم ما يدعوه إلى النظر والتفكير في الحجة، ثم ما يدعو إلى الإجابة من الترغيب، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِثْلَ مَا أَنزَلَ فِي الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِهِ﴾ [الحج: ٧٨].

وقوله تعالى: ﴿وَالْمَوْعِظَةُ﴾ وهي بالتحذير من عذاب الله، وقوله ﴿الْحَسَنَةُ﴾ وذلك بإحسان أسلوب التخويف، كما فعل (مؤمن آل ياسين) في قوله: ﴿أَتَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِي الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِي عَنْهُ شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُون﴾ [يس: ٢٣] أو كذكر الوعيد والوعد بصورة العموم، أو غير ذلك من حسن الحوار الذي لا يثير غضب المدعو.

وقوله تعالى: ﴿وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ فالجدال المغالبة بالحجج وإبطال الشبه ببيان الدليل على بطلانها، وقوله تعالى: ﴿بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ بالطريقة التي هي أحسن مثل أن تستمع لما يقول الخصم حتى ينهي كلامه ثم ترد عليه في كلامه بنقض أوله وأثنائه وآخره إذا كان يستدعي النقض، وتحسن الحوار بحيث لا تثير غضبه بل تستدعيه إلى تأمل ما تقول، وقد كفى في الموعظة أن تكون (حسنة) ولم يكف في الجدال إلا أن يكون ﴿بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ لأن الموعظة تدعو إلى غرض واحد هو حسن النية، أما الجدال فيدعو إلى طلب الاستماع مع حسن النية ثم التفكير فيما تقول مع حسن النية ثم القبول منك ودفع ما يمنع القبول من التعصب وغيره.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ الذي لا يقبل ولا يهتدي ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ الذين يقبلون الدعوة الحسنة فلعلمه سبحانه أمر باتخاذ أسباب قبول الدعوة ليهتدي من يقبل ويهلك من هلك عن بينة.

وَلَيْنَ صَبْرُكُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴿١٦٦﴾ وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٦٧﴾ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴿١٦٨﴾

﴿١٦٦﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ۚ وَلَيْنَ صَبْرُكُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴿١٦٦﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ مَنَ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ أَوْ ظَلَمَكُمْ ﴿١٦٦﴾ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ۚ أَيُّ مَا ظَلَمْتُمْ بِهِ، وعبر بالمعاقبة إما لوقوع المبادلة بالعدوان والإساءة كالنوبة في الركوب التي يقال لها عقبة، وإما للمناسبة للفظ (عاقبتهم) والمعنى: اقتصروا على الحق ولا تزيدوا عليه؛ لأن الزيادة باسم المعاقبة قبيحة ﴿وَلَيْنَ صَبْرُكُمْ﴾ عن المعاقبة ﴿لَهُوَ﴾ أي الصبر ﴿خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ أي خير لهم من المعاقبة وأفضل لما في الصبر من الثواب للصابرين.

﴿١٦٧﴾ وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٦٧﴾ وَأَصْبِرْ ۚ يَا رَسُولَ اللَّهِ عَلَى مَشَاقِّ الرِّسَالَةِ وَالْجِهَادِ لِلْأَعْدَاءِ وَسَائِرِ مَا كَلَفَتْ بِهِ وَمَا ابْتَلَيْتَ بِهِ ﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ بمعونة الله وتوقيفه، وهذه جملة معترضة ليستعين بالله على الصبر لمشقة الصبر لعظم ما كلف به وما يعرض له من البلاوي، فالأمر بالصبر هنا مطلق وقع في خواتم السورة لمناسبة ما مضى فيها من التكاليف وما حكي فيها من خلاف الكفار وفتنتهم لمن أسلم وغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ لا تحزن على الكفار حيث لم يؤمنوا برسالتك إما لاستحقاقهم العذاب العظيم الدائم فليسوا أهلاً لأن يحزن عليهم لأنهم أعداء الله ورسوله وهم الذين أوجبوه على نفوسهم، وإما لفوات كثرة المسلمين في الحال وحرصك على سرعة قوة الإسلام بكثرة أهله فالله معك وسينصرك ويظهر دينه على الدين كله.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْكُ فِي ضَيْقٍ﴾ أي ولا تكن في ضيق ﴿مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ الضيق ضد السعة أي لا تكن في حال ضيق أي لا تبال بما يمكرون بالإسلام وأهله وما يمكرون بك أي يكيدون بك وبمن معك؛ لأن الله معكم فهو ناصركم ومبطل لكيدهم.

﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ فالله معك ومع المؤمنين بك لأنكم اتقيتموه بطاعته، والله معكم لأنكم ﴿مُحْسِنُونَ﴾ وإذا كان الله معكم فلا يضركم مكر الماكرين؛ لأنكم المنصورون الغالبون، أو لأن الله يدبر لكم ما هو خير لكم، فتوكل عليه ولا تبال بمكر الماكرين.

تم تفسير (سورة النحل) والحمد لله رب العالمين



التَّيْسِيرُ فِي التَّفْسِيرِ



سُورَةُ الْاِنشِرَاءِ



سُورَةُ الْإِسْرَاءِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنَّا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾ وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن

تفسير (سورة الإسراء) وهي (سورة بني إسرائيل)

قال الشريفي في (المصاييح): «مكية إلا ثلاث آيات من قوله: ﴿وَأَن كَادُوا لَيَفْتِنُوكَ﴾ إلى قوله .. ﴿سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾ [٧٢-٨٠] قال: قال في (البرهان) وهو قول ابن عباس» انتهى.

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنَّا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾ ﴿سُبْحَنَ﴾ تسبيح وتنزيه للذي ﴿أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ وهو الله جل جلاله سبحانه عما يقول الظالمون كما يأتي في السورة، فالمشركون جعلوا له أنداداً لا تقدر على شيء والله منزّه عن ذلك؛ لأنه القادر على كل شيء؛ ولذلك أسرى بعبد محمد ﷺ الذي عبد نفسه لربه وأخلص له العبادة فكرّمه الله بهذا الإسراء وجعله عرضاً لآيات يطلع عليها في هذا الإسراء.

وإسراؤه به: نقله ﴿مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾ الأبعد، وهو مسجد بيت المقدس، فقوله تعالى: ﴿لَيْلًا﴾ يحقق أن قطع المسافة كلّها كان في الليل.

قال الشريفي في (المصاييح) عن الناصر أحمد بن الهادي إلى الحق ﷺ من كلام ذكره الشريفي: «وأما قوله ﴿لَيْلًا﴾ فإنه يعني: قدرته وتعجيل بلوغه إلى الشام من مكة، والمسجد [الحرام] مسجد مكة، والمسجد الأقصى مسجد بيت المقدس المبارك الذي بارك الله فيه وفيما حوله وأعظم النعمة على خلقه والإحسان إلى بريته، ويعني بقوله: ﴿لَيْلًا﴾ ليلة واحدة؛ لأن قريشاً لم تفقد رسول الله إلا ليلة واحدة» انتهى.

قلت: فكانت مشاهدتهم له في اليوم الثاني دليلاً على قطع المسافة كلها في ليلة واحدة.

وفي (المصابيح): عن الحسين بن القاسم من كلام ذكره الشرفي: «وروي أنه أتى إلى أهل مكة بأخبار من سافر منهم إلى الشام فلما وصل أصحابهم سألوهم عن ذلك فوجدوه حقاً» انتهى المراد.

وقوله تعالى: ﴿بَرَكْنَا حَوْلَهُ﴾ (البركة): الخير الخفي ولعل المراد بركات الرسالة والوحي في عهد إبراهيم وموسى وعيسى وبركات الأرض هناك لما فيها من الثمرات والماء، وقوله تعالى: ﴿لِثْرِيهِ مِنْ ءَايَتِنَا﴾ تعليل للإسراء به أي أنه أسرى به ليريه بعض آياته، فهو تثبت لقلبه وزيادة في إيمانه.

وهنا التفات لأن أول الكلام كان ذكر آية تدل على القادر على كل شيء بعبارة الإبهام الذي يفسره الواقع؛ لأنه لا يقدر على ذلك في ظرف إسراء رسول الله ﷺ إلا الله القادر على كل شيء، أما التعليل بقوله: ﴿لِثْرِيهِ﴾ فهو خبر لعل الإسراء بعد تمام ذكره من حيث هو آية، ففائدة الالتفات واضحة جلية؛ لأن الآية قد انتهى ذكرها من حيث هي آية ودليل على الله، وبعدها ذكر التعليل لتلك الآية.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ رجوع إلى أسلوب الآية لأنه تابع لها، من حيث أن الإسراء آية ترتبت على أن الله هو السميع البصير؛ ولعل ذلك يشير إلى ما كان قبل الإسراء من طغيان الكفار وتجبرهم على المسلمين واستضعافهم فقد سمع الله أقوالهم وأقوال رسوله لهم وذكره الله، ولعله أيضاً كان يدعو الله فأشار بذلك إلى أنه سمع دعاءه قبل الإسراء.

دُونِي وَكِيلًا ﴿٢٦﴾ ذُرِّيَّةً مِّنْ حَمَلِنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٢٧﴾ وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ

وكذلك قد رأى سبحانه ما لحق بالرسول ﷺ والمؤمنين من الأذى من الكفار وما هم فيه من الضعف، فكل ذلك كان سبباً للإسراء هذا، وسمعه تعالى أنه يتجلى له المسموع بغير حاسة، وبصره أنه يرى المبصر بغير حاسة، ولعل علم الغيب للمسموع سمع وللمبصر بصر؛ لقول الله تعالى: ﴿أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰ﴾ لأن إحاطة العلم بالمعلوم على أكمل وجه يكون مشاهدة للموجود.

وقد فسر السمع والرؤية: بالعلم، ولعل الأولى في التعبير أن العلم المحيط بكل شيء وبظرفه وكل أحواله هو رؤية وسمع للمرئي والمسموع فليس المراد أن مفهوم الرؤية والسمع هو العلم بل المراد أن العلم تحصل به الرؤية والسمع أعني أنه رؤية للمرئي وسمع للمسموع؛ لأنه يتجلى به المرئي والمسموع، ولذلك صح الجمع بين الوصف بالعلم والسمع في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [آية: ٤] في (سورة الأنبياء).

﴿وَأَتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ إِلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا﴾ ﴿وَأَتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ﴾ عطف على ﴿أَسْرَىٰ يَعْقُوبُ﴾ لأن الإسراء آية، وأراه الله فيه من آياته، و﴿الْكِتَابَ﴾ التوراة، أو هي وسائر صحف موسى ﴿إِلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا﴾ لا تشركوا بي غيري تكونون إليه أموركم أي تتوكلون عليه.

وقوله تعالى ﴿مِن دُونِي﴾ نهى عما يقع من المشركين من اتخاذ آلهة من دون الله كالوسائط بينهم وبين الله، أو يتوسلون بها لتقربهم إلى الله؛ لأن كلمة ﴿مِن دُونِي﴾ تفيد: اعتبارهم أن شركاءهم أقرب إليهم من الله، فهي عندهم بينهم وبين الله.

عُلُّوا كَبِيرًا ﴿١﴾ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَٰئِهِمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٢﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا

وجعل ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا﴾ مفسرة للكتاب؛ لأن حاصله الأمر بعبادتهم لله وحده وما هو راجع إلى الدعوة هذه من المواعظ والوعد والوعيد والأحكام في المعاملات والعبادات وغير ذلك؛ لأن اتباعها في ذلك كله عبادة، كقوله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ الآية [البينة: ٦].

﴿٢﴾ ﴿ذُرِّيَّةً مِّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ ﴿ذُرِّيَّةً﴾ منصوب على الاختصاص وهذا إما من تمام تفسير الكتاب فيكون هذا مذكوراً في التوراة، وإما راجعاً إلى قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُ نَفْسًا لِّبَنِي إِسْرَآئِيلَ﴾ وقد وعد الله تعالى نوحاً بالبركات عليه وعلى أمم ممن معه؛ فلعل ذكرهم تنبيه على أن الله أنزل البركات على بني إسرائيل كما وعد بذلك نوحاً - والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ يشير إلى أن شكره كان سبباً لحمله وحمل من آمن معه في السفينة لينجيهم من الغرق وإن كان سبب حملهم معه إيمانهم فلا تنافي إذا كان سبب إيمانهم رسالة نوح إليهم مع الآية من ربه، وسبب رسالته كونه عبداً شكوراً، كقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣]. وبعد هذه الآية بيان اختلاف حال بني إسرائيل في الصلاح والفساد وبيان أن الجزاء يتبع العمل.

﴿٣﴾ ﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَآئِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ ﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَآئِيلَ﴾ أنهينا إليهم وبلغناهم ﴿فِي الْكِتَابِ﴾ في التوراة ﴿لَتُفْسِدُنَّ﴾ أي بلغناهم هذا الخبر عما سيكون من الفساد والطغيان، والفساد في الأرض الفساد المنتشر في الأرض ﴿وَلَتَعْلُنَّ﴾ تكبرن ﴿وَتَجْبُرُنَّ﴾ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿تَكْبَرًا وَتَجْبَرًا عَظِيمًا﴾.

﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾ ﴿وَعْدُ أُولَاهُمَا﴾ موعود أولاهما أي المرة الأولى من المرتين الموعود بهما في التوراة، أي فسادهم في الأرض المرة الأولى وطغيانهم ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ﴾ أئرنأ أي سلطنا عليكم ﴿عِبَادًا لَّنَا أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ لعله سماهم عباداً له تعالى، لأنهم ذهبوا لما سلطهم عليه ذهاب العبد الممثل، أو لأنهم في حال قوتهم وقهرهم لبني إسرائيل تحت قدرة الله تعالى وقهره، وقوله تعالى: ﴿أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ أهل شر شديد وهو شر قتلهم وقتلهم لبني إسرائيل.

وقوله تعالى ﴿فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ﴾ أي خلال دياركم أي دخلوا بلدكم وتخللوا دياركم وجاسوا خلاها، قال في (الصحيح): «أي تخللوا فطلبوا ما فيها كما يجوس الرجل الأخبار أي يطلبها» انتهى.

وقال الشرفي في (المصابيح): «قال في (البرهان): يعني قتلهم بين الدور والمساكن» انتهى. وفي (الكشاف): «وأسند الجوس وهو التردد خلال الديار بالفساد إليهم» انتهى. وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «معناه: قتلوا و﴿خِلَلَ الدِّيَارِ﴾ معناه: بين الديار» انتهى.

والجمع بين المعاني: تخللوا الديار تخلل إفساد، فطلبوا بني إسرائيل ليقتلوهم وقتلوهم بين ديارهم.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾ أي كان ذلك الموعود بوقوعه في المرة الأولى وعداً مفعولاً أي موعوداً به مفعولاً فعله بنو إسرائيل وهو فسادهم وطغيانهم، وفعله المسلطون عليهم أي وقع من بني إسرائيل المرة الأولى الذي هو فسادهم وطغيانهم ووقع التسليط على بني إسرائيل كما وعدوا على ما هو مفصل في الوعد.

لَكُمْ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْتَكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿١﴾ إِنَّ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ

فقوله تعالى ﴿وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾ عطف على قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الإسراء: ٤] أي قضينا ووقع ما قضينا، أي أخبرناهم بما سيكون منهم وما سيعاقبون به في العاجل فوقع ذلك كما أخبرنا بأنه سيكون.

﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ يظهر أن هذا من حكاية ما قضاه الله إلى بني إسرائيل في الكتاب؛ لأنه خطاب لهم، فقوله تعالى: ﴿وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾ جملة معترضة والكرّة الرجوع بعد التأخر عن العدو أو بعد الإنهزام وهي من التكرار، وحاصل المعنى نصرناكم عليهم.

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «(معناه: أعقبنا لكم الدولة)، انتهى، وهذا بالنصر من الله لهم حين ذلوا فرجعوا إلى الله فأعاد لهم عزهم. وقوله تعالى: ﴿وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ﴾ يحتمل قبل النصر لترجع لهم شجاعتهم ويعزموا على القتال كما في (قصة طالوت) ولم يكن النصر فيها بكثرة المقاتلين انظر الآيات من (سورة البقرة) من قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَر إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى﴾ [البقرة: ٢٤٦].

ولعل هذا أي كون ردّ الكرة لبني إسرائيل لم يكن بكثرة المال ولا كثرة النفير قدّم في الذكر قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾ وعطف عليه قوله تعالى ﴿وَأَمْدَدْنَاكُمْ﴾ أما إذا كان المراد وأمددنا بعد رد الكرة عليهم فهو تقوية لهم للمستقبل واختبار لهم أيشكرون أم يطغون كما طغوا أول مرة، وقد كان ذلك مقدمة لقوتهم التي عندها وقعوا في المرة الثانية.

الْآخِرَةِ لِيَسْتَوُوا وَجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبَرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴿٥﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُمْ عُدتْنَا

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ أي أكثر جنداً ينفرون للقتال، وظاهره أكثر من العدو الذي سلب عليهم في الماضي.

﴿٥﴾ إِنَّ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لَأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسْتَوُوا وَجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبَرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴿٥﴾ إِنَّ أَحْسَنْتُمْ﴾ حين ترجع لكم قوتكم ﴿أَحْسَنْتُمْ لَأَنْفُسِكُمْ﴾ لأن النعمة تبقى مع الشكر كما أن عاقبة الإحسان ثواب الآخرة ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ فأفسدت في الأرض فلاأنفسكم تضرون أنفسكم ويكون العقاب الموعود به عليكم، هذا بالنظر إلى السياق والجملة صالحة لما قبل رجوع قوتهم ولما بعده ولكل حين ما دام التكليف، فهو داخل في عموم الجملة أعني في عموم قوله تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لَأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ والمعنى الأول الخاص بحال قوتهم المردودة داخل دخولاً أولياً.

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ﴾ أي الموعود به الذي هو المرة الآخرة من المرتين الموعود بهما في الكتاب، وقوله تعالى: ﴿لِيَسْتَوُوا وَجُوهَكُمْ﴾ يحتمل أنه متعلق بـ ﴿جَاءَ﴾ وأما جواب (إذا) فهو محذوف لدلالة المذكور عليه تقديره: وقع ذلك الجزاء أو نحوه، وهذا من التعليل بغير غرض بل لجرد التسيب. وقال في (الكشاف): «التقدير: بعثناهم ليسوءوا وجوهكم، حذف لدلالة ذكره أولاً عليه» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿لِيَسْتَوُوا وَجُوهَكُمْ﴾ أي يظهر على وجوهكم أثر هجومهم عليكم وتأثيره في قلوبكم الهم والغم والحزن، ومعنى (ساء) ضد معنى (سر).

وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ

﴿وَلْيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ﴾ أي الأقصى ﴿كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ ولعل الضمير لعباد الله سلطهم من غير تعيين العباد الأولين، كما قدمت عند قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ [الأنعام: ٦٠] وهذا هو الراجح، ولا نعلم أحداً قال إن المسلمين في المرة الثانية هم المسلمون في المرة الأولى. وقوله تعالى: ﴿وَلْيَتَبَرَّؤْا مَا عَلُوا تَبَرُّاً﴾ قال في (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «معناه: ليدمروا» انتهى.

قلت: ويستعمل في تدمير الناس أي إهلاكهم، قال تعالى: ﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأُمْتَلَّ وَكُلًّا مَبْنًى تَبَرُّاً تَبَرُّاً﴾ [الفرقان: ٢٩] وكذلك التدمير، والراجح في معنى ﴿مَا عَلُوا﴾ أنه ما داموا عالين عليكم لا يقتصر بأسهم على يوم دخولهم أرضكم واستيلائهم عليها فهي مصيبة طويلة الأمد على شدتها نعوذ بالله.

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ﴾ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٩﴾ ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ﴾ فيفرج عنكم بعد الشدة ويرفع عنكم دولة المسلمين، وهذا إطماع لهم ليرجعوا إلى الله ويتوبوا إليه ليفرج عنهم كربهم وقام هذا مقام الوعد الصريح، بدليل قوله تعالى ﴿وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا﴾ ولا يكون العود إلا وقد ذهب العذاب الأول وعادوا إلى الطغيان.

تنبيه: هذا الوعد لبني إسرائيل غير خاص لليهود لأن بني إسرائيل انقسموا في وقت عيسى عليه السلام، فأمنت به طائفة وكفرت طائفة وصاروا نصارى ويهوداً، والآيات في بني إسرائيل لم تخص اليهود منهم فإذا عادوا للفساد في الأرض والعلو الكبير أو كان ذلك قد وقع فلا بد من تحقق ما وعد الله به من بَعَثَ عبادٍ عليهم أولي بأس شديد.

وكذلك لا يؤمن أن يسלט الله على الإسلاميين إذا أفسدوا وعلوا، لأن الله تعالى قال: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٢] وقد سلت الله في المرة الأولى على الإسلاميين التتار ولا يؤمن أن يسלט الله عليهم مرة ثانية والعياذ بالله، ودفع ذلك إنما هو بتمسكهم بالدين وتحكيمه في كل شيء وترك الفساد.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ أي جعلناها لهم سجنًا يحصرهم ويحبسهم أبدًا وهذا لئلا يتوهموا أن العذاب العاجل بدل من العذاب الآجل بل لا بد للكافرين لنعمة الله من جهنم.

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ ﴿يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ يهدي للسبيل التي هي أقوم، وهي سبيل الله التي هي أقوم السبل، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣] وأقوم تفضيل يدل على أنه لو كان غيره قيما لكان ما يهدي إليه القرآن أقوم، وهذا يتصور في المنسوخ فالناسخ في وقته أقوم، فأما قوانين المخلوقين المخالفة للقرآن فهي غير قيمة أو أنها لو كانت قيمة باعتبار ففيها عوج أعظم يوجب طرحها فتعتبر غير قيمة، والتفضيل عليها ناظر إلى جهة المصلحة المرجوحة.

وقوله تعالى: ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ﴾ وهم الذين صدق إيمانهم فبعثهم على التقوى وامثال أمر الله فكانت أعمالهم صالحة، وقوله: ﴿الصَّالِحَاتِ﴾ إذا حمل على العموم فهو عموم الواجبات عليهم، وقوله تعالى: ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ أي ثواب الآخرة كما هو مفصل في غير هذه الآية.

الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٦﴾ وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا ﴿٧﴾ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ

﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ أي هم مستمرون على ترك الإيمان بالآخرة لاستمرارهم على الكفر بدلائلها ﴿أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ هو عذاب النار، فحصل من الآيتين أن القرآن يهدي للتي هي أقوم، ويبشر وينذر لتقوم به الحجة على الناس، ويتنفع بذلك المؤمنون، كما قال تعالى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥] وقوله تعالى: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢].

قال في (الكشاف): «فإن قلت: ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ علام عطف؟ قلت: على أن لهم أجراً كبيراً على معنى أنه بشر المؤمنين ببشارتين اثنتين: بشوابهم، وبعقاب أعدائهم» انتهى المراد.

﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ فالإنسان محتاج إلى ما يهديه للتي هي أقوم وإلا ساءت أحواله فقد يدعو بما يتوهمه مصلحة لنفسه أو للمجتمع وهو غلط، من ذلك: مطالبة بعض الجهال بالقوانين المخالفة للقرآن وهي في الواقع شر، وإنما زينها لهم شياطين الإنس والجن كمن يطالب بترك المرأة للحجاب، وبأن تبدي زينتها للأجانب وتخالطهم كمخالطة الرجل لهم.

﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ كثير العجلة التي معها يقل الثبوت في الأمور ويكثر الغلط، فالملتزم لهدي القرآن المتمسك به في كل حال هو الذي يهتدي للصواب ويوفق للخير.

ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَا ءَايَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا ءَايَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾

ومن الدعاء بالشر: دعاء العبد على نفسه أو أهله أو ولده أو نحو ذلك عند الغضب أو الضجر، وقد يكون ذلك شراً له، وهذا في دعائه لله تعالى، وكذلك قد يطلب من الله حاجة هي شر له وهو يظنها خيراً.

وقوله تعالى: ﴿دُعَاءُهُ بِالْخَيْرِ﴾ أي كدعائه بالخير فهو يجد في الطلب كما لو كان يطلب خيراً، وقد يعجل على قضائها ولو عجلت له لكانت شراً له، فهذا تذكير للإنسان لترك العجل على قضاء ما دعا الله به وليثبت في الأمور ويهتدي بهدى القرآن الذي يهدي للتي هي أقوم ولا يطاوع نفسه عند غضب أو هوى.

﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَا ءَايَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا ءَايَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا﴾ ﴿وَجَعَلْنَا﴾ الواو لعطف آية كونية على ما تقدم من ذكر الهداية بالتوراة والقرآن، ففي الوحي آيات سمعية وفيه ذكر آيات كونية، وهنا ذكر تعالى آيتين ﴿اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ تدلان على قدرة الله تعالى وعلى فضله وإنعامه على عباده، فالليل راحة للإنسان من الأعمال واستعادة بالنوم لقواه الفكرية والجسدية بعد تعب النهار، أما النهار فللابتغاء من فضل الله لطلب الحاجات الدينية والدنيوية كطلب العلم والحرف والتجارة وغير ذلك من الأعمال.

وقد جمع تعالى ما تفرق في آيتين في (سورة يونس) [آية: ٥، وآية: ٦] جمعه في هذه الآية، إلا أن هناك زيادة ما خلق الله في السموات والأرض.

وفي هذه الآية التي نحن في تفسيرها أوجز بذكر الليل والنهار وهناك زيادة ذكر اختلافهما وقد أفادته هذه الآية؛ لأنها تذكر الليل والنهار وهما معهودان بتحديدتهما اللازم لاختلافهما، والمراد بآية الليل الآية التي تظهر في الليل التي هي القمر ومحوها نقص نور القمر حتى لا يبقى إلا الهلال، كقوله تعالى: ﴿وَقَلَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابِ﴾ [يونس: ٥] وجعل السواد فيه، وآية النهار الشمس، فالليل والنهار آيتان، واتصل بذكرهما ذكر الآيتين اللتين فيهما.

ولعل هذا مراد الناصر بن الهادي عليه السلام فيما حكاه عنه الشرفي في (المصابيح) حيث قال: «يعني بذلك - عز وجل - ما خلق من الشمس والقمر وما جعل الله بينهما من الفرق الواضح، وما فضل به ضوء النهار على ظلمة الليل، وما أتقن به من الصنع والتدبير لعمارة الدنيا ومصالح الخليقة، وذلك قوله: ﴿لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ يعني تصرفهم في طلب المعاش وقوام الحياة.

﴿وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابِ﴾ فهذا ما لا يخفى على أحد من عدة الأيام والشهور والسنين نعمة منه - عز وجل - ورحمة ليعرفوا الأوقات والمدة والحساب والعدد والصيام في وقته والحج في وقته والآجال بينهم في معاملاتهم وأحكامهم وأعيادهم ونكاحهم وجمعهم وديونهم وأسفارهم ومزارعهم والأسباب التي لا غنى بهم عنها ولا قوام لهم إلا بها» انتهى.

وهو واضح حيث كان المراد بآية الليل القمر لقول الله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩] وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابِ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٥] راجع تفسيرها في أوائل (سورة يونس).

وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَبِيرَهُ فِي عُنُقِهِ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴿١٢﴾ أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٣﴾ مِّن

وقوله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا﴾ هو عام في كل المخلوقات وكلها آيات مفصلات أي مميزات بما يبين دلالتها على الله القدير العليم.

﴿١٢﴾ ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَبِيرَهُ فِي عُنُقِهِ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ ﴿وَكُلَّ﴾ هو عطف على ذكر هداية الناس بالقرآن وغيره وبالآيات الكونية يبين أن الإنسان إن اهتدى أو أبى فعمله لازم له لا يفارقه ما مات عليه حشر عليه ليس يفارقه وهو ﴿طَبِيرَهُ﴾ أي سعده أو نحسه؛ لأن عمله سبب سعده إن كان صالحاً أو نحسه إن كان سيئاً، قال تعالى: ﴿وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَّعَهُ﴾ [الأعراف: ١٣١] أي يتشاءموا، وكان بعض يتشاءم بالطير إذا طار إلى جهة اليسار ويتيامن بالطير إذا طار إلى جهة اليمين ثم صار التطير اسماً للتشاؤم أو للتفاؤل كله.

قال الراغب في تفسيره (مفردات القرآن): «أصله التفاؤل بالطير، ثم يستعمل في كل ما يُتفاءل به» انتهى، ونحو هذا في (مصباح الشرفي) وقال في (الصحاح): «وطائر الإنسان: عمله الذي قُلِّدَهُ» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿فِي عُنُقِهِ﴾ ترشيح لجعل عمله لازماً له لا يفارقه، قال في (الكشاف): «والمعنى: أن عمله لازم له لزوم القِلادة أو الغُل ومنه مثلُ العرب: تقلِّدها طوقُ الحمامة، وقولهم: الموت في الرقاب... إلخ.

وقوله تعالى: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ أي نحضره له ونظهره له ليقراه فيكون حجة عليه؛ لأنه يرى عمله فيه ويتذكره ويقرؤه كل إنسان سواء كان في الدنيا قد عرف الكتابة أم لا.

أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ

ولعله - والله أعلم - يكون كـ (السينما) و (التلفزيون) يرى نفسه ويسمع كلامه فيه ليكون حجة عليه كنطق جوارحه، وأما الله سبحانه فهو غني عن الكتاب لا يضل ربي ولا ينسى، وقوله تعالى: ﴿كَتَبْنَا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ والمنشور خلاف المطوي لأنه ينشر ليرى ما فيه ببسطه لقارئه.

﴿أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ خطاب موجّه يوم القيامة إلى الإنسان الذي لقي كتاب عمله ﴿أَقْرَأْ كِتَابَكَ﴾ لترى عملك فتحاسب نفسك وتقرر منه مالك أو ما عليك بعلمك بذلك، وقوله تعالى: ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ أي لا تحتاج لمحاسب غيرك بل أنت تكفي محاسباً لنفسك، وقوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ﴾ أي يوم القيامة؛ لأنه لو جحد الحق ما نفعه الجحدان ولأن المراد الإحتجاج عليه بما يعرف به عمله وما يستحقه من الجزاء فإذا عرف حصل المراد.

وقوله تعالى: ﴿عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ أي عليك محاسباً بذنوبك، فأما الحسيب بأعماله الصالحة فهو بالأولى أن يكفي لأنه لا يحتاج فيه إلى تقريره والإحتجاج عليه لإثباته.

﴿مَنْ أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ هذا تفصيل لما أجمله في الآيات الثلاث التي قبله ﴿مَنْ أَهْتَدَىٰ﴾ انتفع بالهدى فاتبع سبيل ربه ومن ضل أي غوي عن سبيل ربه فاتبع غيرها ﴿مَنْ أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾ نفع اهتدائه له لا لله ﴿وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ﴾ على نفسه لا على ربه فلا يضره شيئاً بل ضره على نفسه.

قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴿١١﴾
وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي لا تحمل حامله ذنب أخرى سمي الذنب وزراً لثقله على صاحبه، ورشح بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ﴾ كما في قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [الأنعام: ٣١] فدللت على أن ذنب الإنسان لا يعذب به غيره، فلا يعذب الطفل بذنب أبيه، وأما وقوع العذاب العاجل على الكفار ووقوعه على أولادهم فليس عقوبة للأولاد وإنما هو كالأعراض والموت الذي يلحق أولاد المؤمنين فما لحق أولاد الكفار فلهم عوضه يوم القيامة، ونظيره ما يلحق أولاد المؤمنين من الأمراض والمصائب فلا يضيع عليهم شيء من كل ضرر نالهم في الدنيا.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ أي نبعث رسولا لينذر أهل العقول ويبشر، كما قال تعالى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِقَلٍّ يُكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥] وقوله تعالى: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢].

﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً﴾ بجرم أهلها واستحقاقهم للهلاك العاجل لفسادهم ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ أمراً فيه اختبارهم وابتلاؤهم، فكان هذا الأمر سبباً لفسقهم؛ لأنهم يستكبرون عن طاعة هذا الأمر أو يغلبهم هواهم، والمترفون هم أبناء الدنيا المتنعمون المتبعون للشهوات ورفاهية العيش، قال الراغب في (المفردات): «الترفة: التوسع في النعمة، يقال: أترف فلان فهو مترف» انتهى.

وذلك أن المترفين لم يتعودوا الصبر على مشقة بل تعودوا الراحة والتلذذ فإذا أمروا بما يشق عليهم ثقل عليهم، وأيضاً المترفون يكونون أهل ثروة يعظمهم الضعفاء من أجل حاجتهم إليهم ولذلك إذا جاءهم الرسول أو الداعي إلى الله خافوا على مكانتهم في قومهم أن تذهب ويصيروا مثل ضعفائهم في قومهم فلذلك يكون المترفون هم أسرع إلى العصيان والفسق ويكون الضعفاء لهم تبعاً.

وقوله تعالى: ﴿فَفَسَقُوا﴾ أي أجرموا وخبثوا وأعلنوا معاندة الحق والفساد في الأرض وهذا الأمر لعله مثل أمر أصحاب القرية بواسطة الصالحين منهم بترك التعدي في السبت مع أن حيتانهم تأتيهم يوم سبتهم شرعاً ويوم لا يسبتون لا تأتيهم، فالأمر هذا ليس الأمر السابق عند دعوتهم وإقامة الحجة عليهم ولكنه أمر ابتلاء بسبب المعاصي السابقة، كما قال تعالى في (أصحاب السبت): ﴿كَذَلِكَ تَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٣] وكما أمر (قوم صالح) بترك ناقة الله تاكل في أرض الله: ﴿لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ [الشعراء: ١٥٥] وهذا أمر يغيظهم لأنها آية مبصرة لصدق نبينهم وهم لا يريدون أن تبقى له آية بينة مستمرة.

وكأمر فرعون بالإيمان بموسى حين بطل سحر السحرة بإلقاء موسى عصاه فغضب فرعون ولم يبق له حجة فعدل إلى تهديد المؤمنين وحشر قومه لإهلاك موسى وأصحابه، فهذا الفسق ظاهر زائد على فسقه الأول وكذلك فسق الذين عقروا الناقة، ومن أمثلة ذلك أمر لوط قومه بتقوى الله وأن لا يخزوه في أضيافه فازداد عنادهم وقالوا أولم تنهك عن العالمين، وأصروا على المطالبة بتسليم أضيافه حتى عاجلتهم عقوبة طمس أعينهم، فهذا هو الراجح في معنى الأمر المذكور هنا.

خَيْرًا بَصِيرًا ﴿١٧﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَن أَرَادَ الْآخِرَةَ

وقوله تعالى: ﴿فَفَسَقُوا فِيهَا﴾ فجروا فجورا زائداً وخبثوا خبثاً استحقوا به مع فسقهم السابق تعجيل العذاب لهم كعقر الناقة والعدوان في السبب ﴿فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ﴾ الوعيد السابق واستحقت تطبيقه واقتضت ذلك الحكمة، وقوله تعالى: ﴿فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ أي أهلكنا أهلها ودمرنا مساكنهم وما فيها وما في القرية تدميراً ساحقاً لا يبقى على أحد.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ﴾ وكفى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿١٩﴾ أي كثيراً من القرون أهلكنا، وقوله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ نُوحٍ﴾ يشير إلى كثرتهم وأنهم لم يعتبروا بمن قبلهم، وقد سمي الله تعالى في القرآن بعضهم وأفاد أنه لم يسمهم كلهم، قال تعالى: ﴿وَعَلَا وَنُحُودٌ وَأَصْحَابُ الرُّسُوقِ وَفِرْعَوْنُ بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٨] وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعِلَادِ وَنُحُودٍ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ [إبراهيم: ٩].

وقوله تعالى: ﴿وَكفى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ أي أنه العليم بها كلها ويخبر كل عمل ومقداره في القبح، وأنه البصير بها في المجازاة عليها بتعجيل أو تأجيل، وعلى كل ذنب بقدره فأى قرية استحقت الإهلاك فلن تخفى عليه، وفي هذا تحذير للكفار بنبيينا محمد ﷺ. قال في (الصحيح): «والذنب: الجرم» انتهى.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ يختارها ويؤثرها، والعاجلة الحياة العاجلة، كما قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ [هود: ١٥].

وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَّشْكُورًا ﴿١١﴾ كَلَّا نُمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿١٢﴾

وقوله تعالى: ﴿عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ﴾ أي من أغراض الحياة العاجلة ومطالبها، وقوله تعالى ﴿لِمَنْ نُرِيدُ﴾ بدل من قوله: ﴿لَهُ﴾ أي عجلنا لمن نريد أن نعجل له. وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ﴾ أي جزاء ﴿يَصْلَحُهَا﴾ يياشرها وقوله تعالى: ﴿يَصْلَحُهَا مَذْمُومًا مَذْهُورًا﴾ حالين حال بعد حال أي يصلها حال كونه مذموماً بعصيانه لربه وكفر نعمته عليه وحال كونه مدحوراً مبعداً ملعوناً لا يرحم.

﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَّشْكُورًا﴾ ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ﴾ أثر الحياة الآخرة وهي حياة الناجين من عذاب الله الفائزين برحمة الله ورضوانه، فإرادته لها أن تكون في نفسه أرجح من أغراض الدنيا، بل وأرجح من الحياة الدنيا بحيث إذا تعارضاً لم يرجح العاجلة بل يؤثر طاعة ربه وتقواه، فمتى وجب عليه الجهاد في سبيل الله بنفسه وماله جاهد في سبيل الله بنفسه وماله ولم يمنعه خوف القتل ولا خوف الفقر وهكذا كلما تعارض غرض دنيوي وطاعة الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾ أي وسعى للآخرة سعيها الذي هو التقوى والعمل الصالح، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ شرط في قبول السعي للآخرة فلا قربة لكافر ولا لفاسق مصر على فسقه؛ لأنه غير مؤمن ﴿فَأُولَٰئِكَ﴾: أهل الصفات الثلاث ﴿كَانَ سَعْيُهُمْ مَّشْكُورًا﴾ يشكره الله بكرمه، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٥٨] وهذا تعبير بليغ لإفادة نفع هذا السعي للساعي.

﴿٢٨٥﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا
لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا ﴿٢٨٦﴾ وَقَضَىٰ

﴿٢٨٦﴾ ﴿كُلًّا نُمِدُّ هَتُولًا وَهَتُولًا مِّنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ
مَحْظُورًا﴾ ﴿كُلًّا﴾ أي كل الفريقين من كان يريد العاجلة ومن أراد الآخرة
﴿نُمِدُّ﴾ نعطي العطاء بعد العطاء لا يمنع فضل الله عصيان العاصي ولا
اشتغال الساعي للآخرة بسعيها، وقوله: ﴿هَتُولًا وَهَتُولًا﴾ بيان لقوله
تعالى: ﴿كُلًّا﴾ أي للمضاف إليه المعوض بالتنوين، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ
عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ أي ما كان ممنوعاً لأنه لا مانع لما أعطى ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ
لِلنَّاسِ مِنْ رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ [فاطر: ٢].

﴿٢٨٧﴾ ﴿أَنْظِرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَتٍ وَأَكْبَرُ
تَفْضِيلًا﴾ ﴿أَنْظِرْ﴾ أيها الإنسان ﴿كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ﴾ بعض من أراد الدنيا
وبعض من أراد الآخرة فضلنا بعضهم ﴿عَلَى بَعْضٍ﴾ في الرزق لم يمنع من
التفضيل أحد لا حاسد ولا غيره؛ لأن الله غالب على أمره وهو ابتلاء للفريقين.

وقوله تعالى: ﴿وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ فهو واقع ما وعد
الله به أوليائه كما وقع التفضيل في الدنيا إلا أن التفضيل في الآخرة تابع
للعمل يخص من أراد الآخرة، ولعل سياق الآية - أيضاً - للترغيب في
درجات الآخرة وتفضيلها ببيان أن الناس يعظم في نفوسهم ما فضل الله به
بعضهم على بعض في الدنيا فليعرفوا بذلك عظم تفضيل درجات الآخرة
وتفضيلها فإنه أكبر، وقوله: ﴿دَرَجَتٍ﴾ هي منازل الثواب وهي تشریف
وتعظيم تابع للعمل، فأهلها مفضلون بها على قدر أعمالهم، وبقية النعيم في
الجنة فيه تفضيل تابع للدرجات ولما شاء الله من الأسباب.

﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ ﴿لَا تَجْعَلْ﴾

يا رسول الله ﴿مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ نهى له عن الشرك وهو نهى لكل أمته ﴿فَتَقْعُدَ﴾ لو أشركت ﴿مَذْمُومًا﴾ يذمك المؤمنون لارتكاب القبيح ويذمك الكافرون لتلوّنك وزعمهم أنك افتريت على الله قبل أن تشرك ثم رجعت إلى الشرك ولو كنت صادقاً ما رجعت عندهم عن دعواك وقوله تعالى: ﴿فَتَقْعُدَ﴾ في التعبير بالقعود إشارة إلى أنه يضعف لو أشرك.

وقوله تعالى: ﴿مَّخْذُولًا﴾ أي لا يبقى لك ناصر يخذلك الله وملائكته والمؤمنون، وقوله تعالى: ﴿فَتَقْعُدَ﴾ إما تامة بمعنى فتضعف وتذل ولا يبقى منك أمر ولا نهى ولا عمل في سبيل الله بل تبقى متخلياً عن العمل منقطع الأسباب، وعلى هذا يكون ﴿مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ حالين مترادفين، وإما ناقصة بمعنى فتصير، فيكون ﴿مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ خبرين لها.

وهذا الذي اختاره (صاحب الكشاف) في تفسير هذه الآية، واختاره الشرفي في تفسير قول الله تعالى: ﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّخْسُورًا﴾ ولم يذكر الأول والأول مجاز والثاني غريب، وقد قال بعض النحاة: لا يستعمل إلا في محل سماعه، وهو قول الأعرابي:

أرهف شفرته حتى قعدت كأنها حربة

وقال ابن الحاجب: «وإن قلنا بالطرد فإنما يطرد في مثل هذا الموضع، قال الرضي في شرحه: فلا يقال قعد كاتباً بمعنى صار، بل يقال: قعد كأنه سلطان، لكونه مثل: قعدت كأنها حربة» انتهى.

وقال الزمخشري في (المفصل): «وقد جاء جاء بمعنى صار في قول العرب: ما جاءت حاجتك، ونظيره: قعد في قول الأعرابي:

رَبُّكَ إِلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿١٢﴾ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿١٣﴾ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ

أرهف شفرته حتى قعدت كأنها حربة»

انتهى، قال شارحه ابن يعيش: ولا عهد لنا بـ(جاء) في معنى (صار) إلا في هذا المثل، يعني قول الخوارج لابن عباس: ما جاءت حاجتك، فقول صاحب الفصل: ونظيره قول الأعرابي يفيدُ غرابته، مثل: ما جاءت حاجتك أو قريباً منه.

ولذلك فالراجع في قول الله تعالى: ﴿فَتَقَعْدَ مَذْمُومًا﴾: هو التمام، كما بيته، وقد جاء في المدح: ﴿أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾ [آل عمران: ١١٣] والقيام ضد القعود فصح الذم أو نحو الذم بالقعود بل قد جاء الذم به في قول الشاعر:

دع المكارم لا تنهض لبغيها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ حَكَمَ عَلَيْكُمْ وَأَوْجَبَ ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ ولعله أعيد بعد قول الله تعالى: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ ليكون دافعاً لما يتوهم من قوة الحث على بر الوالدين أنه يجوز طاعتها في الشرك أو في معصية الله تعالى كطاعة أهل الكتاب لرهبانهم وأخبارهم.

وقوله تعالى: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا﴾ أي قضى أن تحسن أيها الإنسان بالوالدين إحساناً، وهذا عام لكبيرهم ومن دونه ولمسلمهم وكافرهم.

وأكد تعالى التوصية بالكبيرين، فقال تعالى ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ﴾ أي إن يبلغ ﴿عِنْدَكَ الْكِبَرَ﴾ أي إن يبلغ أن يكبر في السن ويصير في الضعف والشية ﴿أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفٍّ وَلَا تَنْهَرَّهُمَا﴾ وقول القائل: أف كلمة تضجر، كقول إبراهيم عليه السلام: ﴿أَفْ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [الأنبياء: ٦٧] وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْهَرَّهُمَا﴾ أي لا تزجرهما بمغالطة.

وقوله تعالى: ﴿وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ يوجب تكليمهما فيحرم السكوت، ويوجب قولاً طيباً كريماً والكرم ضد اللؤم، فهو قول يحمد عليه قائله لأنه إحسان إليهما من جنس إحسان أهل الكرم.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال الإمام أحمد الناصر - يعني ابن الهادي - هذه وصية من الله تعالى سبحانه في الوالدين أن لا يقطعاً ولا يحفَى بهما، وأن يحسن إليهما جزاء بما أحسنا، وأن يحفظا كما حفظا ويكرما كما أكرما، ويربياً كما ربياً، رحمة منه - عز وجل - وتاديباً لخلقها، وتنبهاً على الصواب، ليجزيهم على ذلك الجنة، ويوجب لهم الكرامة ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفٍّ﴾ والأف: فهو التأفيف في لغة العرب المعروفة، وهو: التأذي والإستثقال» انتهى المراد، وقوله: وهو التأذي والإستثقال، يعني: التعبير عن التأذي والإستثقال بقولهم: ﴿أَفٍّ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَاحْفَظْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ أي تواضع وتذل لهما من رحمتك لهما بسبب ضعفهما من الكبر، و﴿جَنَاحَ الذُّلِّ﴾ الجناح المعبر عن الذل لهما، كأنه قد جعل للذل أي للدلالة عليه والتعبير عنه وذلك بخفضه، والخفض ترشيح لإثبات الجناح، وقوله تعالى ﴿وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ أي ارحمهما جزاء عني ﴿كَمَا رَبَّيَانِي﴾ كما أحسنا إلي بربيتي ﴿صَغِيرًا﴾ أي حال كوني صغيراً في ضعف الصغر.

فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غُفُورًا ﴿٢٥﴾ وَءَاتِذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ

قال الشرفي في (المصاييح): «قال الحسين بن القاسم عليه السلام: معناه: كما غذواني طفلاً، والتربية: هي الغذاء، والكفالة، والحضانة في لغة أهل الحجاز، وهي البزاية في لغة أهل اليمن، والمراد: ادع لهما بالرحمة الباقية من الله جزاءً لرحمتها عليك في صغرك» انتهى.

﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ﴾ إن تكونوا صليحين فإنه كان للأوابين غفوراً ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ﴾ كله مما يتعلق بالوالدين مثل المعرفة بحقهما ونية برهما أو خلاف ذلك، ومن غير ذلك مما في نفس المكلف، فهو سبحانه أعلم، وهو الذي يحاسب ويجازي، فأما الوالدان فقد يخفى عليهما ما في نفس الولد، فيظنان من يحبانه برّاً بهما وليس كذلك، وقد يغضبان على ولد فيظنانه عاقاً وهو برّ بهما محسن إليهما خافض لهما جناح الذل من الرحمة، فالآية تدل على: أن حكم الولد عند ربه، وأنه إذا كان صالحاً فلا يضره سوء ظن والديه؛ لأن ربه أعلم بما في نفسه فضلاً عن أقواله وأفعاله.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غُفُورًا﴾ الأواب: هو التواب وهو مثال مبالغة يقال: آب بمعنى رجع والمعنى الأوابين إلى الله أو الأوابين إلى الله الرجاعين إلى الوالدين فهم لا يصرون على معصية لربهم لا في حق الوالدين ولا في حق الله تعالى.

﴿وَءَاتِذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ ﴿وَءَاتِذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ﴾ وهو ما أمر الله به، وقد أمر بإيتاء ذي القربى وقد مرّ القول في دلالة ذلك على وجوب الإنفاق عليه إلا أن الوجوب على الوارث قبل غيره.

وهذه الآية خطاب عام لأنها معطوفة على ما قبلها وهي عامة، بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَبْلُغُنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا﴾ فليست خاصة برسول الله ﷺ ولكنه داخل في عمومها.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال في (البرهان): روينا عن آبائنا عن علي بن الحسين عليه السلام أنه قال: الآية خاطب الله بها رسوله ﷺ أن يؤتي ذوي قرباه حقوقهم من الخمس، والغنيمة، والفبيء، والخطاب بعده يتوجه إلى الأئمة القائمين مقامه العاملين بسيرته» انتهى.

وفي (شواهد التنزيل) عند ذكره لهذه الآية من (سورة بني إسرائيل) بإسناده عن أبي سعيد الخدري قال: «لما نزلت ﴿وَأَتِذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ﴾ أعطى رسول الله ﷺ فاطمة فدكاً، رواه بعدة طرق عن أبي سعيد الخدري، وفيه: بإسناده عن جعفر ابن محمد عن أبيه عن علي بن الحسين عن أبيه عن علي بن الحسين قال: لما نزلت ﴿وَأَتِذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ﴾ دعا رسول الله ﷺ فاعطاها فدكاً» انتهى.

وأخرج الطبري في تفسيره هذه الآية بإسناده إلى علي بن الحسين عليه السلام: «أنه قال لرجل من أهل الشام: أقرأت القرآن؟ قال: نعم.

قال: أفما قرأت في بني إسرائيل: ﴿وَأَتِذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ﴾؟

قال: وإنكم للقرابة التي أمر الله - جل ثناؤه - أن يؤتى حقه؟

قال: قال: نعم» انتهى.

وفي (تفسير ابن كثير): «وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا عباد بن يعقوب، حدثنا أبو يحيى التميمي، حدثنا فضيل بن مرزوق، عن عطية،

عن أبي سعيدن قال: لما نزلت هذه الآية ﴿وَأَتِذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ﴾ دعا رسول الله ﷺ فاطمة فأعطها فذك، ثم قال [البزار]: لا نعلم حدث به عن فضيل بن مرزوق إلا أبو يحيى التميمي، وحيد بن حماد بن أبي الخوار، انتهى.

قلت: رواه الحسكاني في (شواهد التنزيل) بإسناده عن حسن بن حسين العرنى، قال: حدثنا أبو معمر سعيد بن خثيم، وعلي بن القاسم الكندي، ويحيى بن يعلى، وعلي بن مسهر، عن فضيل بن مرزوق، عن عطية، عن أبي سعيد، ورواه بإسناد عن علي بن هاشم، عن داود الطائي، عن فضيل بن مرزوق به، ورواه بإسناد: عن معاوية بن هشام القصار، عن فضيل بن مرزوق به، وغيرهم.

وفي تخريجه: أنه أخرجه: ابن عدي في (ترجمة علي بن عباس) من كتاب (الكامل) [١٨٣٥/٥] قال أخبرنا القاسم بن زكريا، حدثنا عباد بن يعقوب، حدثنا علي بن عباس، عن فضيل - يعني ابن مرزوق - .. إلخ، انتهى.

فهؤلاء المذكورون مع من ذكرهم ابن مردويه، وهذا كله يدل على أن هذه الآية الكريمة مدنية، ويبطل قول من زعم أنها (مكية) فإن السورة المكية يأتي بعض آياتها (مدنية) كما لا يخفى، وفي المصحف [طبعة عيسى البابي الحلبي وشركائه] عد آيات من هذه السورة أنها (مدنية) منها هذه الآية.

وقد روى الحديث في (فذك) في (شواهد التنزيل) عن غير من تقدم، وخرج الحمودي روايته في (حاشيته) تخريجاً كاملاً، فراجعه أو راجع (الغدير) [١٩٠/٧]، [ج٨/١٣٧-١٣٨] كما أفاد في تخريج (شواهد التنزيل).

هذا وقد قدمت أن رسول الله ﷺ داخل في عموم هذه الآية، فقد أمر أن يؤتي ذا القربى حقه، فالروايات موافقة في الجملة للقرآن.

وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمْ أَبْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا

وقوله تعالى: ﴿وَالْمَسْكِينُ﴾ فله حق في الزكاة وحق في الخمس وحق في الإنفاق من المؤمن، كما دل عليه قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَأَتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ [البقرة: ١٧٧] وقوله تعالى ﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ أي: المسافر المحتاج. قال الشرفي في (المصابيح): «وابن السبيل: فهو مارُّ الطريق المسافر المنقطع» انتهى.

قلت: ومثل المنقطع، من هو مظنة أن ينقطع إذا لم يُعطَ ما يبلغه. وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ فالتبذير قسمان: إتلاف المال في غير منفعة ولا فائدة كما يفعل بعض الأغنياء في الضيافات من إلقاء بقية الطعام في محل القمامة، والقسم الثاني: إنفاق المال في معصية الله كإنفاقه في الخمر أو الميسر أو الرشوة أو الربا أو غير ذلك كمعاونة الظلمة، وسواء أنفق المال بنفسه في أحد القسمين أو آتاه سفيهاً أو فاسقاً ينفقه في أحدهما أو كليهما فكل ذلك تبذير.

﴿٢٧﴾ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ ۖ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴿٢٨﴾ أما التبذير بإنفاق المال في معصية الله، فلأنه مع كونه معصية من حيث التسبب للمعصية أو المشاركة به فيها فهو معصية قبيحة من حيث أن المال نعمة من الله على عبده فاستعماله في معصية الله كفر للنعمة قبيحاً زائداً، مع أن كل المعاصي هي استعمال لنعمة الله في معصيته وذلك طاعة للشيطان ومؤاخاة له في معصية الله.

وأما إضاعة المال وإتلافه في غير فائدة فلأنه استخفاف بالنعمة وتحقير لها وذلك مطابق لغرض الشيطان؛ لأنه قال: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٧] فالشيطان يحب تحقير النعمة وإهانتها، والمتلف للمال في غير فائدة مطابق لغرض الشيطان، فهو مؤاخ للشيطان على كفر نعمة الله، ولذلك قال تعالى: ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ أي كفوراً لنعمة ربه والمبذر أخوه على كفران نعمة ربه، ألا ترى لو أن إنساناً أعطاك ثوباً جيداً لتلبسه فأحرقته، لكان ذلك استخفافاً بالثوب وتحقيراً له، وكفراً لإحسان الذي أعطاك، يغضب منه إذا كان حاضراً.

﴿وَأَمَّا تَعْرِضْنَ عَنْهُمْ أَبْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾ ﴿وَأَمَّا تَعْرِضْنَ﴾ أي وإن تعرض ﴿عَنْهُمْ﴾ أي عن ذي القربى، والمساكين، وابن السبيل ﴿أَبْتِغَاءَ﴾ أي لأجل ﴿أَبْتِغَاءَ رَحْمَةٍ﴾ والإعراض عنهم ابتغاء رحمة قسمان:

القسم الأول: إذا كانوا فجاراً، فهو يعرض عنهم تقرباً إلى الله.

القسم الثاني: إذا كنت مشغولاً بصلاة أو قراءة وأنت إذا أعطيتهم تفوت عليك الجماعة أو الدرس أو نحو ذلك ﴿فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾.

أما القسم الأول: فثلاً يكون الإعراض قطيعة ورفقاً بالمسكين وابن السبيل وهذا مع إعطائهم ما يحسن إعطاؤهم إياه أو مع منعهم لعذر، وهذا إذا لم يكن قوله: ﴿تَعْرِضْنَ﴾ كناية عن ترك إعطائهم، فإن كان كناية عن منعهم للعذر الديني كإيثار من هو أحق بالقول وحده.

والقول الميسور: هو الاعتذار والعدة لحال الفراغ من الشاغل إن أمكن ذلك أو نحوه، ومعنى ابتغاء الرحمة: طلبها، والتوصل إليها بالإعراض عنهم أو بلازم الإعراض، والميسور: ضد المعسور، فالميسور الذي جعل يسراً للمخاطب وتخفيفاً من عسر حاله.

تَبْسُطُهَا كُلَّ الْبَسِطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ

وفي (مصاييح الشرفي): «عن الإمام محمد بن القاسم بن إبراهيم (عليه السلام): والميسور هاهنا: اليسر من القول، وهو القول الحسن اللطيف المقبول» انتهى. وفي (المصاييح) أيضاً: «قال في (البرهان): إن الله أكد على نبيه في هذه الوصاية بذوي قرباه فقال: إن أعرضت عنهم ابتغاء رزق ونعمة ترجوها من عند الله، فعدهم خيراً ورد عليهم جيلاً» انتهى.

وهذا التفسير قد بين وجهه في (الكشاف) بما يفيد: أنه خلاف الظاهر، وعلى هذا: فلا يصار إليه إلا لقرينة صارقة، وقد فسر في (البرهان) الميسور بما ترى، وجعله صفة للقول صحيح، سواء كان مصدرأ أم صفة كما تقدم في جعله صفة؛ لأنه إذا كان مصدرأ كان معناه قولاً تيسيراً وقولاً يسراً، والمعنى واحد فيهما لأن المراد يسر للمخاطب أو تيسير له.

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسِطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ ﴿٢٤﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ أي لا تبخل تشبيهه للبخل بمن يده مغلولة فهو لا يستطيع أن يمدها بعتاء: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤] وكان ذلك مجاز عن البخل وزيادة ﴿إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ تأكيد وترشيح إن كان الغل اسماً للقيد مطلقاً، فإن كان خاصاً بالقيد إلى العنق فهو ترشيح فقط، وهو الراجح.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسِطِ﴾ لا تعط مالك كله، بل ابق نفسك وعيالك ما تحتاجونه، وقوله تعالى: ﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا﴾ يلومك الناس على إنفاق مالك كله لما يتبع ذلك من الحاجة والإعسار الذي يسبب اللوم، واللوم: ضد الحمد، إلا أنه خاص بخطاب الملوم باللوم، قال في (الصحيح): «اللوم: العذل» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿مَحْسُورًا﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): ﴿فَتَقَعْدَ مَلُومًا﴾ عند الناس ﴿مَحْسُورًا﴾ من المال: أي خالياً منه، وفي (مفردات الراغب): «والحاسر: المَعْيَى، ويقال للمَعْيَى: حاسر، ومحسور» انتهى.

فعلى هذا: جعل فاقد المال كفاقد القوة الذي أتعبه المشي، وهذا يناسب تفسير ﴿فَتَقَعْدَ﴾ بأنه مجاز عن ضعف حاله وانقطاع أسبابه الباعثة على القيام والتحرك للعمل والذهاب للحاجات.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ هذه الآية تعليل للنهي في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقَعْدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾ كأنه قيل لا تبخل ولا تنفق ما تحتاجه أنت أو عائلتك لأن رزقك ورزق غيرك محدود حده ربك بحكمته، فما كل ما أنفقته يأتيك خلفه فوراً حتى لا يكون رزقك محدوداً مثلاً رزق اليوم المحدود لليوم كله أو الأسبوع أو الشهر إذا أنفقته بقي معدماً في بقية يومه أو أسبوعه أو شهره، فأما الإيثار للمضطر مع تحمله وتحمل عائلته أي أنهم غير مضطرين فليس من هذا إذا كان لا يظن اضطرارهم في المستقبل بالنظر إلى العادة.

وقوله: ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ﴾ أي يكثره ﴿لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي يقلل قال تعالى: ﴿وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ﴾ [الطلاق: ٧] وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ تعليل للبسط والتقدير، فالمؤمن قد تكون مصلحته في البسط؛ لأنه يشكر النعمة ويفعل الخير ويقوم بواجب المال، وقد تكون مصلحته في التقدير لرزقه لينال ثواب الصبر على الإقلال ويفرغ لعبادة ربه وذكره؛ ولذلك أكرم الله نبيه ﷺ بالإقلال.

خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾ وَلَا تَقْرَبُوا الزَّوْجَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٦١﴾ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَ الَّتِي

وقوله تعالى: ﴿بِعِبَادِهِ خَيْرًا﴾ أي عليم بخبرهم ومستور أمرهم، وقوله تعالى: ﴿بَصِيرًا﴾ أي بصيراً بتدبير أمورهم في بسط الرزق أو تقديره وفي غير ذلك من الصحة والسقم وغيرهما، وكذا في ابتلائهم بأنواع الابتلاء، ومنها التكاليف العقلية والشرعية.

﴿٦٠﴾ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ﴿٦١﴾ ﴿أَوْلَادَكُمْ﴾ يعم الذكور والإناث، وكان أهل الجاهلية يقتل بعضهم بنته بدفنها وهي حية، ويحكى عن بعض النساء: أنها زنت فولدت فقتل المولود، ولعل ذلك من خوف الفضيحة والنفقة عليه.

وقوله تعالى: ﴿خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ﴾ يذكرُ باعثاً على قتلهم ليطله وهو خشية الإملاق، والخشية: خوف، والإملاق: الإقلال والفقر، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «(معناه: فقر وفاقة)».

وقوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ﴾ لدفع الخوف على الولد من أن يملق، وقوله تعالى: ﴿وَإِيَّاكُمْ﴾ لدفع الخوف من أن يملق الوالد فتثقل عليه كلفة الولد والإضرار إلى الإنفاق عليه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ قال الشريفي في (المصابيح): «والخطأ: العدول عن الصواب بعمد» انتهى، ومثله في (مفردات الراغب).

وقال في (الصباح): «الخطأ: نقيض الصواب - ثم قال - : والخطأ: الذنب في قوله تعالى: ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ أي إثمًا» انتهى.

وفي (لسان العرب): «وَحَطَى الرجل يَحْطِي حِطًّا وَخِطَاءً عَلَى فِعْلَةٍ، إِذَا أَذْنَبَ» انتهى، وهذا هو الراجح في الآية لوصفه فيها بالكِبَر، ولو كان مفهومه العدول عن الصواب لكان من شأنه أن يوصف بالبُعد - والله أعلم. ﴿٢١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا الزَّوْجَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ النهي عن قرب الزنا نهى عن مقدماته المؤدية إليه من الخلوة والتقبيل ونحو ذلك ومنها النظر لشهوة إذا أدى إليه.

وفي (الجامع الصغير): عن النبي ﷺ: «العينان تزنيان، واليدان تزنيان، والرَّجْلان تزنيان، والفرج يزني» أفاد أنه أخرجه أحمد في (مسنده) والطبراني في (الكبير) كلاهما عن ابن مسعود، وقال: «صحيح».

قلت: هو موافق للآية، ولا ينافي لإرادة النهي عن الزنا لأن الكناية يراد فيها المعنى المجازي والحقيقي معاً وهو الفارق بين الكناية والمجاز.

قال في (شرح التلخيص) للبرقوقي [ص ٣٣٨]: «قال الشيخ الإمام [علله يعني السكاكي يعني معنى الكناية في مصطلح النظار من علماء البيان] أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود فيومي به إليه ويجعله دليلاً عليه» انتهى.

فأما من قال في تفسير الكناية: لفظ أريد به لازم معناه مع جواز إرادة معناه حيثئذ فهو قول ضعيف؛ لأنه لا ينطق بالجواز ولا بد في النطق من أحد الجائزين، والأصل: إرادة المعنى الحقيقي مع عدم القرينة الصارفة عنه، فإن أراد اللازم والملزوم فهي الكناية بالإتفاق، وإن أراد اللازم وحده فهو المجاز الذي علاقته الملازمة، ولا فائدة لإخراجه من حقيقة المجاز بقولهم مع قرينة عدم إرادته.

وقد مثلوا للكناية بقول امرئ القيس:

وتضحى فتيت المسك فوق فراشها نؤوم الضحى لم تتطق عن تفضل

فكيف جاز أن امرأ القيس ما أراد إثبات الصفات الثلاث ليدل على ترفها إنما أراد إنها مترفة، فظهر أن المراد في الكناية هو اللازم والملزوم، وإنما الملزوم هو السبب في الكلام والمراد الأصلي وذكرُ اللازم تبعٌ له، هذا ولا إشكال أنه لا قرينة في الآية صارفة عن إرادة المعنى الحقيقي بل إرادته أبلغ في التهي عن الزنا، أما إرادة النهي عن الزنا فلا تدل على أن النهي عن المقدمات غير مراد.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً﴾ أي فعلة قبيحة عظيمة القبح، وقوله تعالى: ﴿وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ قُبْحُ الزنا سبيلاً أي بشس الطريق لقضاء الشهوة الزنا؛ لأن قضاء الشهوة بالزواج يغني عن الزنا الذي هو الفاحشة، ومن القبيح استبدال الحرام بالحلal، فإذا لم يكن مراد الزاني اتخاذ الزنا سبيلاً وعادة فعلية أن يصبر ويتنظر الحلal؛ لأن الزنا مرة مثلاً لا يكفيه لأن يقضي شهوته وإنما يقع في الفاحشة ثم تعاوده الشهوة فهو إما أن يتخذ الزنا سبيلاً وإما أن يتزوج، والحرام فيه مفسد مع كونه سبباً للنار ووجوب الحد على فاعله، منها: الإفتضاح إذا اطلع الناس على الزاني وقد يُقتل، ومنها: انتشار بعض الأسقام بسبب الزنا، ومنها: إتلاف المال في أجور البغايا إتلافاً متكرراً، بخلاف غرامة الزواج فهي مرة واحدة.

وفي (مصابيح الشرفي): «قال الإمام أحمد بن يحيى عليه السلام - يعني: الناصر بن الهادي - يعني سوء السبيل: إلى النار، وقد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «في الزنا ست خصال: ثلاث في الدنيا، وثلاث في الآخرة.

حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيَّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي

أما اللواتي في الدنيا: فإنه يذهب البهاء، ويورث الفقر، ويقطع العمر، وأما اللواتي في الآخرة: فيوجب سخط الرحمن، وسوء الحساب، والخلود في النار، انتهى، وهذا الحديث بإسناده في (أمالى أبي طالب عليه السلام) في (باب التحذير من الزنا).

﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيَّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ ﴿٣٤﴾ أَيُّ جَعَلَهَا حَرَامًا لَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يَسْتَحِلَّهَا وَلَا يَقْتُلَهَا، وقوله تعالى ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي قتلها بالحق كالقصاص.

قال الشرفي في (المصابيح): «يعني إلا من قتل بحق في جميع الأسباب التي يحل بها القتل من بين قودٍ أوحدٍ من حدود الله عز وجل مما - كذا - أوجب الله عز وجل قتله ممن عاند المسلمين من المشركين وغيرهم من الباغين والظالمين والمرتدين وأهل الكتابين، حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون، ذكره أحمد بن يحيى عليه السلام»، انتهى.

يعني بأحمد بن يحيى: الناصر بن الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين (عليه السلام)، وقد ذكر الهادي عليه السلام في (الأحكام) الأسباب التي يجوز بها قتل صاحبها عشرة أسباب، ومحلها أوائل (كتاب الديات).

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا﴾ أي مظلوماً بقتله ﴿فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيَّهِ﴾ وليه هو وارثه بالقوة ولو لم يرث بالفعل لاستغراق الدين للتركة، وقوله تعالى: ﴿سُلْطَانًا﴾ أي أحللنا له قتل القاتل وسلطاناه عليه بالحجة.

هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشَدَّهُ^ط وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا
 وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ^ع ذَلِكَ خَيْرٌ

وقوله تعالى: ﴿فَلَا يُسْرِفَ فِي الْقَتْلِ﴾ أي لا يسرف وليُّ الدم في القتل أخذاً بالثأر كما تفعل الجاهلية، فلا يقتل غير القاتل لا زيادة مع القاتل ولا بدلاً من القاتل، فكل ذلك إسراف في القتل؛ لأنه كله تجاوز للحق إلى الباطل، ومن الإسراف القتل بطريقة تعذيب بشرطين:
 الأول: أن لا يكون المقتول ظلماً قتل بطريقة تعذيب.

الثاني: أن يمكن القصاص بغير تعذيب.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾ الراجح: أن الضمير لـ ﴿لِوَلِيِّهِ﴾ فهو منصور على القاتل ظلماً فوليُّ الدم قوي جريء، والقاتل ضعيف مرعوب لا ينافي ذلك أن القاتل قد يكون له من الظالمين من يحميه، أو يقال: إن وليُّ الدم منصور في الدنيا أو في الآخرة، أو هذه الحالة مخصوصة بالعقل أي بالمشاهدة والتجربة المفيدة لعلم السامع للعموم أنها غير مرادة فيه.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشَدَّهُ^ط وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ﴾ كناية عن النهي عن أخذ مال اليتيم، والإستثناء راجع إلى المعنى لقوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا﴾ لمعناه الحقيقي؛ لأنه يعم قربه لأخذه لنفس الآخذ، وقربه لمصلحة اليتيم أو للواجب في ماله.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي بالإصلاح لأمر اليتيم أو إصلاح ماله أو تسليم الواجب فيه، وقوله تعالى: ﴿حَتَّى يَبْلُغَ أَشَدَّهُ﴾ حتى يبلغ مبالغ الرجال رشده، وهذه الغاية ترجع إلى قوله تعالى: ﴿بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ حيث أفادت تولي مال اليتيم لمصلحته وللواجب فيه، فالولاية على مال اليتيم تنتهي ببلوغه أَشَدَّهُ.

وقوله تعالى ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ﴾ يعم العهد الذي لله كبيعة إمام الحق والعهد بين الناس كعهد الصلح، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ ظاهره أن العهد يطلب من صاحبه؛ لأن (سأل) المتعدي إلى مفعولين معناه المطالبة بالشيء، ومنه قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ﴾ [النساء: ١٥٣] ومنه الحديث: «(سلوا الله السداد)» ولذا فسرهما في (الكشاف) بما لفظه: «(أي مطلوباً يطلب من المعاهد أن لا يضيعه ويفي به، ويجوز أن يكون تخيلاً كأنه يقال للعهد: لم نكثت وهلاً وفي بك تبكيثا للناكث، كما يقال للموءودة: ﴿يَأْيُ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير: ٩] ويجوز أن يراد أن صاحب العهد كان مسؤولاً» انتهى.

ومعنى الوجه الأول: ﴿مَسْئُولًا﴾ في الدنيا، ومعنى الوجه الثاني، والثالث: ﴿مَسْئُولًا﴾ في الآخرة، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): وقوله تعالى: «﴿إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ معناه: مطلوب» انتهى.

والراجح في تفسير هذه الآية - والله أعلم - : ﴿إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ يسأله الناس بعضهم من بعض كعهد البيعة وعهد الصلح وعهد الوصي؛ ولكون المجتمع يحتاج إلى العهد، فمن الواجب الوفاء به لئلا تبطل فائدته ويؤدي شيوع نكثه إلى عدم الثقة به وبالتالي ترك التعامل بالعهد وفوات وثيقة نافعة للناس يحتاجون إليها ما دامت وثيقة يوثق بها للسلم والأمن وغيرهما من الفوائد.

وعلى هذا: فالمعنى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ يسأله بعضكم من بعض وتحتاجون إليه في أمور كثيرة ولأغراض مهمة، ومن ذلك حاجة من خاف الموت وله ولد صغير يخشى عليه الضياع فإنه يوصي به وقد يطلب من الوصي العهد أنه لا يهمله ويتركه للضياع، ولعل هذا هو سبب عطف الأمر بالوفاء بالعهد على النهي عن قرب مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن - والله أعلم.

وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقَفْ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ
وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا

﴿٣٢﴾ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزَنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ
وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٣﴾ هذا تحذير من الغش في الكيل والغش في الوزن.

قال الشريفي في (المصابيح): «واعلم أن التفاوت الحاصل بسبب نقصان
الكيل والوزن قليل والوعيد الحاصل عليه شديد عظيم، فوجب على العاقل
الإحتراز منه، وإنما عظم الوعيد عليه لأن جميع الناس محتاجون إلى
المعاوضات والبيع والشراء، وقد يكون الإنسان غافلاً لا يهتدي إلى حفظ
ماله فالشارع بالغ في المنع من التطفيف والنقصان سعياً في إيفاء الأموال
على الملاك ومنعاً من تلطخ النفس بسرقة ذلك المقدار الحقير، والقسطاس
في معنى الميزان [أي آلة الوزن المعهود] إلا أنه في العرف أكبر منه؛ ولهذا
اشتهر في السنة العامة أنه القَبَّان وهو مأخوذ من القسط وهو الذي يحصل
فيه الإستقامة والإعتدال... إلخ، وقال الراغب في (المفردات):
«والقسطاس: الميزان» انتهى المراد.

وفي (لسان العرب): «القسطاس والقُسطاس أعدل الموازين وأقومها، ثم
قال: والقِسطاس هو ميزان العدل أي ميزان كان من موازين الدراهم
وغيرها وقول عدي:

في حديد القسطاس يرقبني الحا رسُ والمرؤ كل شيء يلاقي

قال الليث: أراه حديد القَبَّان» انتهى.

فظهر: أن القسطاس: الميزان الصحيح، والمستقيم: غير المائل.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ إشارة إلى إيفاء الكيل والوزن بالعدل خير من التطفيف وإن ظن الجاهل أن التطفيف خير؛ لأن الحلال مبارك والحرام محقوق؛ ولأن السلامة من ذنب التطفيف وعاره أفضل مما يأخذ المطفف؛ ولأن الأمانة تجلب الرزق والخيانة تجلب الفقر كما جاء في الحديث وكما هو مجرب، وقوله تعالى: ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ أحسن إعداداً للمآل وللرجوع إلى الله تعالى.

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ ﴿وَلَا تَقْفُ﴾ لا تتبع ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ أنه حق وصواب، وهو يدل على تحريم العمل بما لم يثبت عن الله ورسوله، فكيف يجوز العمل بأخبار الآحاد في العمليات الفرعية؟

والجواب: أنه إذا ثبت الدليل العملي على وجوب العمل بالخبر الأحادي في ذلك فقد صار مما للعامل به علم متى تكاملت شروطه.

فأما المعلوم من كتاب الله وسنة رسوله فيعمل بظاهره لوجوب اتباعه، بدليل قول الله تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ٣] ولأنه طريقة فهم في لغة العرب، فأما الاستدلال على وجوب العمل بالظن على الإطلاق في الظنيات بالدليل العقلي، وهو أن من ظن طعاماً مسموماً فأكله استحق الذم، وذلك دليل على أنه قد وجب عليه العمل بذلك الظن؛

فالجواب: أنه قياس غير صحيح؛ لأن هذه الآية وغيرها تدل على أن لا ضرر عليه بترك اتباع الظن وليس كذلك الطعام المذكور، فالقياس فاسد بوجود الفارق، وليس المراد ترك ما ثبت اتباعه شرعاً إنما المراد أن الظن ليس دليلاً شرعياً.

إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً ﴿٧٧﴾ كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٧٨﴾ ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا

فأما ما ثبت شرعاً وجوبُ العمل به مع أنه لا يفيد إلا الظن فيعمل به لدليل العمل به لا لأن الظن دليل، وذلك كتقويم جزاء الصيد وكالقبلة مع تعذر اليقين بدليل قوله تعالى: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ [البقرة: ١٤٤] وقس على هذا سائر ما ثبت العمل به، وعلى هذا فالعمل بخبر فاسق التأويل وكافره يحتاج إلى دليل غير مجرد إفادته للظن - والله أعلم. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ الفؤاد: القلب أو باطن القلب، والمراد آلة العلم، والسؤال عن هذه الثلاثة إذا أهملها العبد من حيث أنها حجة عليه، ويدخل السؤال عنها إذا استعملها في معصية الله وكفر نعمة الله بها عليه.

﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ۚ إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ قال في (الصحيح): «المرح: شدة الفرح والنشاط» انتهى المراد، وفي (لسان العرب): «المرح: شدة الفرح والنشاط حتى يجاوز قدره، ثم قال: وقيل المرح التبخر والإختيال، وفي التنزيل: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ أي متبخرًا مختالًا، وقيل: المرح الأشر والبطر، ومنه قوله تعالى: ﴿يَمَّا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ يَغْيِرُ الْحَقُّ يَمَّا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ [غافر: ٧٥] انتهى المراد.

قال الشرفي في (المصاييح): «والمراد من الآية: النهي عن أن يمشي الإنسان مشياً يدل على الكبر والعظمة» انتهى.

والذي يتحصل عندي: أنه نهى عن أن يمشي في الأرض مشياً معجباً بنفسه متكبر، يحركه الفرح بنفسه والنشاط لإعجابه بكماله الموهوم.

تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا ﴿٦﴾ أَفَأَصْفَكَ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنْسَانًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٧﴾

وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ﴾ أي بضرب الأرض بقدميك لأنك ضعيف، وقوله تعالى: ﴿وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ لأنك صغير، وهذه تذكير له بحقيقة نفسه ليمشي على الأرض هونا.

﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ ﴿كُلُّ ذَلِكَ﴾ الذي نهى الله عنه في الآيات الماضية في هذه السورة من قوله تعالى: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ أو ما بعد قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِلَهُ﴾ ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفُ وَلَا تَنْهَرُهُمَا﴾ ﴿وَلَا تُبْذِرْ﴾ ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَنكَ مَغْلُوبَةً﴾.. إلى آخر الآيات.

وقوله تعالى على قراءة ﴿سَيِّئُهُ﴾ أي سيئة مكروهاً عند ربك، وإذا كان عنده سبحانه سيئة مكروها فهو سيئة حقاً حقاً؛ لأن الله أحكم الحاكمين وهو العالم بكل شيء ولا يكره إلا الباطل والفساد.

وعلى قراءة ﴿سَيِّئُهُ﴾ فهو مكروه عند الله والإشارة إلى المذكور في الآيات الماضية إما بمعنى السيء منه لإخراج ما ذكر وليس نهياً، مثل: ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ﴾ وإما إضافة الصفة إلى الموصوف أي المذكور السيء كان عند ربك مكروهاً.

﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا﴾ الحكمة التي تفيد مصحلة الفرد والمجتمع وسداد الرأي وحسن التدبير والإنسانية الكاملة، وقوله تعالى ﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى﴾ الإشارة إلى الآيات الماضية في السورة.

ويحتمل: أنه من قوله تعالى: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ أو من قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ﴾ أو من أول السورة، وأعاد قوله تعالى: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ ليرتب عليه الوعيد بعذاب الآخرة؛ لأنه في المرة الأولى رتب عليه سوء الحالة في الدنيا.

وقوله تعالى: ﴿مَلُومًا﴾ مرّ تفسير الملووم، وأما المدحور، فقال الشرفي في (المصابيح): «(أي مطروداً من رحمة الله)» انتهى.

﴿أَفَأَصْفَنكُمْ رَبُّكُم بِالْبَيْنِ وَأَتَّخِذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ ﴿أَفَأَصْفَنكُمْ﴾؟ سؤال إنكار على المشركين الذين زعموا أن الملائكة بنات الله سبحانه وتعالى (أصفاكم) خصكم بالجيد وترك لنفسه من هو عندكم ولد مكروه بزعمكم، ينكر عليهم قولهم الشنيع المشتمل على باطل جعل الملائكة إنثاء رجماً بالغيب وباطل تشبيه الخالق بال مخلوق في عدم الغنى عن الولد وباطل نسبة الغلط في الاختيار لنفسه على رأي الكفار حيث اختار لنفسه الولد الدون عندهم فلزمهم أنهم جعلوه مخطئاً للصواب. وفي هذه الآية وأمثالها دلالة على الإلزام وإثبات الحكم باللائم، وقد منع بعض الناس التكفير باللائم، وهذه الآية ترد عليهم من حيث دلت على إثمهم؛ لأنها لا تنسب إلى المخاطبين أنهم جعلوا الله والداً للملائكة وإنما عندهم أنه تبناهم بخلاف قول بعض النصارى في عيسى عليه السلام.

ويدل على أن المخاطبين في هذه الآية لا ينفون أن الملائكة مخلوقون قول الله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنثًا أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ﴾ [الزخرف: ١٩] فلو كانوا يزعمون أنهم مولودون له لما ذكر خلقهم، وأنهم لم يشهدوه، ويقال: إنها وإن أثبتت الحكم هنا باللائم، فلم تثبت الكفر به لكن ترد على من لا يؤثم باللائم، وقوله سبحانه: ﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ أي شديد القبح إثمًا كبيراً لما فيه من الإفتاء على الله والجهالات.

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿١١﴾ قُلْ لَّوْ
كَانَ مَعَهُ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَا بَتَّغُوا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿١٢﴾

﴿١١﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿١٢﴾
﴿صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ﴾ حولناه في التذكير من نوع إلى نوع مثلاً من إنذار إلى
بيان الدلائل، ومن إنذار تعجيل العذاب إلى إنذار عذاب النار، ومن الترهيب
إلى الترغيب في الإيمان وذكر نعيم الجنة، ومن ذلك إلى ذكر أن الإيمان والتقوى
سبب للخير والبركات في الدنيا، ومن ذلك إلى ذكر فساد عقائد الجاهلية.

وقوله تعالى: ﴿لِيَذَّكَّرُوا﴾ أي ليعرفوا الحق ويتبعوه، وقوله تعالى: ﴿وَمَا
يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ أي ما يزيدهم التصريف المذكور إلا نفوراً وكراهة
للحق وابتعاداً منه.

وقال الشرفي في (المصابيح): «قال عليه السلام - يعني الناصر بن الهادي عليه السلام -
ولقد بينا لهم من كل شيء فيه منفعة وهدى ولهم فيه نجاة ورحمة فأعلمناهم
بما كان قبلهم وما هو كائن بعدهم فأبوا» انتهى.

﴿١٢﴾ قُلْ لَّوْ كَانَ مَعَهُ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَا بَتَّغُوا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ
سَبِيلًا ﴿١٣﴾ قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لِلْمُشْرِكِينَ فِي مَكَّةَ وَحَوْلَهَا ﴿لَوْ كَانَ مَعَهُ﴾ أي
لو كان مع الله تعالى ﴿ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ﴾ أي آلهة من دون الله يقربونكم إلى
الله وشفعاءكم عند الله والله مالك لهم ولما ملكوا كما تقولون في التلبية:
لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك ﴿إِذَا﴾ أعادة للشرط
للتأكيد ﴿لَا بَتَّغُوا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ﴾ إلى مالك الملك الذي بيده ملكوت كل
شيء لا بتغوا أي لطلبوا إليه ﴿سَبِيلًا﴾ للتقرب إليه وحده وطلب رحمته
ورضوانه، وهذا كقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ
أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [الإسراء: ٥٧] لأنهم عباد له مملوكون
لله تعالى وحده، فكيف تأبون أيها المشركون أن تعبدوا الله وحده؟

سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿١٧﴾ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ
وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ
تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿١٨﴾ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ

هذا الراجح في معناها، لأنهم لا يدعون آلهة قدماء قادرين قدرة ذاتية
حتى يحتاج عليهم بدليل التمانع، مع أن قوله تعالى: ﴿لَا تَبْتَغُوا إِلَىٰ ذِي
الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ نظير قوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ [المزمل: ١٩]
ومعناه: سبيلاً للتقرب منه وطلب رحمته ورضوانه، ولو كان المراد ابتغاء
المقاومة والمغالبة لكان التعبير: لا تبتغوا على ذي العرش سبيلاً، كقوله تعالى:
﴿فَلَا تَبْتَغُوا عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٣٤] والله أعلم.

مع أنه - جلّ جلاله - كان يأمرهم بعبادته كسائر عبادته فإن أبوا عذبهم؛
لأنه قادر على ذلك وخوفهم من عذابه، فكان يبعثهم على عبادته والتقرب
إليه كما تفيد الآية، وكما يفيد قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾
[الأنعام: ١٨] فلو كانوا آلهة لكان هو الأعلى عليهم، وبالله التوفيق.

﴿سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ ﴿سُبْحَنَهُ﴾ تنزيهاً له
تعالى وتبعيداً عما يقولون ﴿وَتَعَالَىٰ﴾ ترفع عن أن يجعل لنفسه شريكاً أو
يتخذ ولداً؛ لأنه عزيز حكيم، وليس من الحكمة أن يجعل لنفسه شريكاً من
عباده في عبادته؛ ولأنه غني عن اتخاذ الولد؛ ولأنه العلي العظيم الذي ليس له
ند، وكيف يكون لرب العالمين ند من عباده؟

﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا
يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ ﴿تُسَبِّحُ
لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ تسبيح له بلسان الحال بدلالاتها

وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٥٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوُاْ

على عظمته وجلاله وقدرته على كل شيء وعلمه بكل شيء وغناه عن كل شيء، فهي تنزهه تعالى وتبعده عن كل نقص وعن أن يكون له ندّ بدلالاتها العقلية، فلو نظر الجاهلون المشركون في خلق السموات والأرض ومن فيهن وتفكروا بعقولهم لعلموا ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ لأن المخلوقات كلها من الجبال والشجر والدواب التي لا تعقل وغيرها تدل على ذلك، وقوله تعالى: ﴿بِحَمْدِهِ﴾ أي تسبيحاً مصحوباً بحمده والثناء عليه لإنعامه الواسع المستمر على عباده بما سخر لهم في السموات والأرض وأسبغ عليهم نعمه، فالنعم كلها تسبّح بحمده، بمعنى: تدلُّ على ذلك دلالة بمنزلة النطق بالتسبيح والتحميد، هذا هو الراجح في معنى هذه الآية لتكون احتجاجاً على المشركين ودليلاً على أنهم يقولون قولاً عظيماً لأنكم لا تنظرون في الآيات الدالة على الله المسبحة بحمده ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ ولذلك لم يعاجل المشركين بالعقوبة على إعراضهم عن التفكير في آياته وإصرارهم على الجهل المذموم وزادهم الإحتجاج بالقرآن الحكيم وإرسال النذير المبين.

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ﴾ يا رسول الله ﴿الْقُرْآنَ﴾ ليهتدوا به أعرضوا عنه وكرهوا سماعه لإصرارهم على التكذيب بآيات الله وتمردهم لعدم إيمانهم بالآخرة فهم لا يخافون العقاب ولا يرجون بالإيمان والإستماع للقرآن الثواب فأصروا واستكبروا، ولذلك خذلناهم فجعلنا بخذلانهم ﴿حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾

عَلَىٰ أَذْبَرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ أَنْظِرْ

وهو كراحتهم أن يروك وإعراضهم عنك حتى كأن كراحتهم لرؤيتك في تلك الحالة حجاب بينك وبينهم، كما قال تعالى: ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ [هود: ٢٠] وكقولهم: ﴿وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت: ٥] وهذا من المتشابه.

والمعنى: أنهم عاندوا الحق فاستحقوا الخذلان وإرسال الشياطين عليهم حتى تزين لهم الباطل وكرهوا الحق، ووجه إسناد الحجاب إلى الله تعالى كالوجه في إسناد الختم على قلوبهم وقد مر.

﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوَّا عَلَىٰ أَذْبَرِهِمْ نُفُورًا﴾ ﴿٤٦﴾ أَكِنَّةٌ أَعْطِيَتْهَا مِنْ فَهْمٍ معنى القرآن، وهذا تمثيل لأن الله أنزل القرآن بلسانهم ليفهموه ولكن هؤلاء الكفار المعاندون كارهون له معرضون عن فهمه وعن استماعه ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ أي صمماً؛ لأنهم يكرهون سماعه فكانهم صم ولو كانوا صمّاً حقيقة ما احتاجت قلوبهم إلى أكنة، وقد حقق هذا قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوَّا عَلَىٰ أَذْبَرِهِمْ نُفُورًا﴾ نفروا من توحيد الله وتعظيمه دون شركائهم ولوا عن النبي ﷺ حين ذكر الله وحده انصرفوا.

وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ أَذْبَرِهِمْ﴾ يفيد: أنهم نكصوا على أعقابهم، أي رجعوا القهقري - والله أعلم. و﴿نُفُورًا﴾ مصدر مفعول من أجله أو مفعول مطلق أي قائم مقام المفعول المطلق، أي نفروا من سماعك نفوراً فراراً من سماعك وانزعاجاً من ذكر ربك.

كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿١٨﴾ وَقَالُوا أَءِذَا
كُنَّا عِظْمًا وَرُفْنًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿١٩﴾ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً

﴿٢٠﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ
الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴿٢١﴾ يَسْتَمِعُونَ بِهِ ﴿٢٢﴾ مِنْ كَرَاهَتِهِمْ لِلْحَقِّ
وَعَدَاوَتِهِمْ لَهُ فَإِذَا اسْتَمِعُوا إِلَى الرَّسُولِ ﷺ اسْتَمِعُوا بِذَلِكَ لِيَسْتَلْبِثُوا فِي الْقُرْآنِ
شَيْئًا يَعْيُونَهُ بِهِ مَثَلًا وَلَمْ يَسْتَمِعُوا لِيَعْرِفُوا الْحَقَّ ﴿٢٣﴾ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ﴿٢٤﴾ فِي حَالِ
اسْتِمَاعِهِمْ فِي حَالِ اجْتِمَاعِهِمْ ﴿٢٥﴾ إِذْ هُمْ نَجْوَى ﴿٢٦﴾ يَتَنَاجَوْنَ أَيُّ يَتَسَارَرُونَ يَخْفُونَ
كَلَامَهُمْ، فَهَمَّ فِي اسْتِمَاعِهِمْ عِنْدَ الْمُنَاجَاةِ بَيْنَهُمْ يَسْتَمِعُونَ بِرَغْبَةٍ وَإِصْغَاءٍ وَتَطَلُّبٍ
لَمَّا يَعْجَبُهُمْ مِنَ الْخَوْضِ فِي آيَاتِ اللَّهِ وَالتَّكْذِيبِ بِهَا.

﴿٢٧﴾ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٨﴾ أَيُّ إِذْ يَقُولُونَ لِأَنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنْ تَتَّبِعُونَ ﴿٣٠﴾ أَيُّ مَا
تَتَّبِعُونَ ﴿٣١﴾ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴿٣٢﴾ يَعْنُونَ مُحَمَّدًا ﷺ يَرِيدُونَ النِّهْيَ عَنْ اتِّبَاعِهِ
وَالْقَدْحَ فِيهِ بِضَعْفِ الذَّهْنِ، فَالْمَعْنَى إِنْ اتَّبَعْتُمُوهُ فَمَا تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا
تَغْيِيرَ ذَهْنِهِ فَلَا يَصِيبُ فِي كَلَامِهِ، وَكَذَّبُوا بِلِجَاءِ الْحَقِّ وَصَدَقَ الْمُرْسَلِينَ.

﴿٣٣﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾
﴿٣٥﴾ أَنْظِرْ ﴿٣٦﴾ يَا مُحَمَّدُ كَيْفَ قَالُوا فِيكَ الْأَقْوَالُ الْبَاطِلَةَ لِيَشِيعُوهَا دَفْعًا لِلْحَقِّ
﴿٣٧﴾ فَضَلُّوا ﴿٣٨﴾ بِسَبَبِ جِدَاهُمْ بِالْبَاطِلِ لِإِبْطَالِ الْحَقِّ ضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ
﴿٣٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٠﴾ تَحْصِيلَ سَبِيلِ حَقِّ بَلٍ لَا يَزَالُونَ فِي تِيهِ وَاضْطِرَابٍ لِعَمَى
بَصَائِرِهِمْ.

﴿٤١﴾ وَقَالُوا أَءِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرُفْنًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٢﴾
﴿٤٣﴾ أَءِذَا ﴿٤٤﴾ سَوَّالِ انْكَارٍ، وَقَوْلُهُمْ: ﴿٤٥﴾ أَءِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرُفْنًا ﴿٤٦﴾ أَرَادُوا إِذْ بَلِيتَ
أَجْسَادُنَا فِي التُّرَابِ حَتَّى لَمْ يَبْقَ إِلَّا عِظَامٌ وَرَفَاتٌ أَيُّ وَفَاتٌ عِظَامٌ بِأَلِيَّةٍ

أَوْ حَدِيدًا ﴿٣١٢﴾ أَوْ خَلَقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ ۖ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٣١٣﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ

قد حطّمها إليّ أنا حينئذ وبعد مصيرنا عظاماً ورفاتاً مبعوثون مخرجون أحياء بعد تلك الحالة ﴿خَلَقًا﴾ مخلوقين خلقاً ﴿جَدِيدًا﴾ بعد إليّ إنكاراً منهم للبعث وتكذيباً للرسول، وكأنهم اتخذوا ذلك القول حجة لتكذيب الرسول فيه وفي الرسالة جملة.

﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾ ردّ على قولهم: ﴿إِذَا كُنَّا﴾ أي لو كنتم حجارة أو حديداً لبعثكم الله خلقاً جديداً.

﴿أَوْ خَلَقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ ۖ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ ﴿أَوْ خَلَقًا﴾ أو كونوا خلقاً ﴿مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ وتستعظمونه كالجبال الشاخات فكذلك لو كنتم جبلاً أو نحوها لأعادكم خلقاً جديداً، فقله تعالى: ﴿كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾ يذكر الجنس الذي يستبعد إحياءه بالنظر إليه من غير نظر إلى صغره أو كبره.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ خَلَقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ يذكر ما يستبعد إحياءه لضخامته، وقوله تعالى: ﴿مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ يشير إلى صغر الإنسان، وإنه لصغره يستعظم من الخلق ما هو صغير في قدرة الله وإذا كان صغيراً، فلا يستبعد أن يعيده من هو قادر على إعادته ولو كان جبلاً.

وقوله تعالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا﴾ استبعاداً للإعادة، كقوله: ﴿مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ ﴿قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي أنشأكم أول مرة

يَحْمَدُهُ وَتَظُنُّونَ اِنْ لَّبِثْتُمْ اِلَّا قَلِيْلًا ﴿٥٦﴾ وَقُلْ لِّعِبَادِي يَقُولُوا اَلَّتِي هِيَ اَحْسَنُ اِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ اِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْاِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِيْنًا

فقد علمتم النشأة الأولى ﴿فَسَيُنْغِضُونَ اِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾ قال الراغب في (المفردات): «الإنغاض: تحريك الرأس نحو الغير كالمتعجب منه» انتهى.

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «معناه: يحركونها استهزاء منهم» انتهى. ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ﴾ استمراراً منهم في الجدل أي إن كنت تعلم أنه سيكون فأخبرنا متى هو؟ وليس بينهما تلازم لأنه يمكن أن يعلمه الله أن البعث سيكون ولا يعلمه متى هو؛ ولكون هذا الجواب واضحاً لأن الرسول ﷺ لا يدعي أنه يعلم الغيب إنما يدعي أن الله أرسله نذيراً وأوحى إليه القرآن، فهو يبلغ ما أرسل به أمره الله تعالى أن يقول لهم: ﴿عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيْبًا﴾ وسؤالهم هذا تكرر ذكره في القرآن الحكيم وذكر في كل موضع له جواب مفيد، وفي (سورة الملك): ﴿قُلْ اِنَّمَا اَلْعِلْمُ عِنْدَ اللّٰهِ وَاِنَّمَا اَنَا نَذِيْرٌ مُّبِيْنٌ﴾ [آية ٢٦] ولعله أول جواب.

﴿يَوْمَ يَدْعُوْكُمْ فَتَسْتَجِيْبُوْنَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ اِنْ لَّبِثْتُمْ اِلَّا قَلِيْلًا﴾ لحضور موقف السؤال والحساب وذلك حين تكون الصيحة، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوْجِ﴾ [ق: ٤٢] ولا مانع من أن الصيحة دعوة وإن كانت الإجابة اضطرارية، ومثل هذه الآية في إثبات الدعوة قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْاَرْضِ اِذَا اَنْتُمْ تَخْرُجُوْنَ﴾ [الروم: ٢٥].

وأما قوله تعالى: ﴿فَتَسْتَجِيْبُوْنَ بِحَمْدِهِ﴾ فيحتمل أن المراد أن الله الحمد على بعثهم فلا يكون المراد حامدين له، يؤكد هذه قوله تعالى: ﴿وَنَخْشَرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوْهِهِمْ عُمِيًّا وَنُكْمًا وَصُمًّا﴾ سواء حمل على الحقيقة أم على المجاز، والاحتمال الثاني: حامدين لله ذلةً وخضوعاً.

﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنَّ يَشَاءُ يَرْحَمَكُمُ أَوْ إِنْ يَشَاءُ يُعَذِّبِكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ ﴿١١٢﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا

وقوله تعالى: ﴿وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي في بطن الأرض أو فيه وفي الحياة الدنيا، قال تعالى: ﴿قَلَّ كَمَ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عِنْدَ سَيِّئِينَ * قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [المؤمنون: ١١٢-١١٣].

﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ﴾ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا ﴿يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ الكلمة أو الفعلة التي هي أحسن، يحتمل: أنه أمر للعباد الصالحين أن يقولوا التي هي أحسن في دعوة الناس إلى الله وفي جدال المخالفين ومحاورتهم ترغيباً لهم في الإجابة إلى الحق ودفعاً لنزغ الشيطان وإثارته للتعصب المؤدي إلى استمرار المخالفين على الخلاف وتشددهم فيه.

وهذه الآية مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْتُوا عَلَىٰ نُرْيَاكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَالُوا * ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٥-٩٦] وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ﴾ إلى قوله تعالى ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَلِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٣-٣٤] ويحتمل: أنها عامة للصالحين الدعاة إلى الله وغيرهم إلا أن الدعاة إلى الله داخلون فيها دخولاً أولاً ليكون الناس أقرب إلى إجابتهم.

وقوله تعالى: ﴿الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ اسم تفضيل يقتضي أنه لا يكفي الكلمة الحسنة التي ليست أحسن من غيرها، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ﴾ تعليل لإيجاب الكلمة التي هي أحسن، أي لدفع نزغات الشيطان.

بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ
مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشَفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُولَئِكَ

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «معناه: يُفسد ويُهيج» انتهى،
وفي (مفردات الراغب): «النزغ دخول في أمر لإفساده» انتهى المراد، وفي
(لسان العرب): «ونزغ بينهم ينزغ وينزغ نَزْغاً أغرى وأفسد وحمل بعضهم
على بعض» انتهى المراد.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَنِ عَدُوًّا مُبِينًا﴾ أي عداوة
الشیطان للإنسان قديمة فهو منذ عصى ربه ما زال عدواً للإنسان ﴿مُبِينًا﴾
أي بين العداوة كيف لا يكون بين العداوة، وهو إنما يدعو حزبه ليكونوا من
أصحاب السعير، وقد أضل من الناس أمماً كثيرة، فعلى عباد الله أن يحذروه
بأن يلزموا الكلمة التي هي أحسن ليدفعوا نزغاته وعليهم أن يحذروا نزغاته.

﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ إِنَّ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ
عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ يعلم المتقي والمطيع للشیطان وهو
القادر على جزاء المتقي والعاصي لا معقب لحكمه ولا رادّ لقضائه، فعليكم
أن تتقوه وتحذروا غرور الشيطان ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ﴾ يا محمد إلا نذيراً لم
نرسلك ﴿وَكِيلًا﴾ عليهم تتولى عقابهم وثوابهم أو تضطرهم إلى الطاعة.

﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ
عَلَى بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴿وَرَبُّكَ﴾ يا محمد ﴿أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ﴾ كلهم فهو أعلم بالأخيار ومن دونهم وبالملائكة وعبادتهم
وبالأشرار على اختلافهم في الفجور وهو أعلم بمن هو أهل للتفضيل ومن
يشكر النعم ولذلك فضلناك يا محمد وخصصناك بالرسالة لعلنا بك.

الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ وَإِنْ مِّن

﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ لعلمنا المحيط بكل صفاتهم وأسرارهم ومستقبلهم ﴿وَأَتَيْنَا دَاوُدَ زُبُورًا﴾ كتاباً عظيماً لعلمنا به أنه يتلوه حق تلاوته ويتنفع به وينفع ويشكر النعمة عليه به وبالنبوة.

﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ ﴿قُلْ﴾ للمشركين ﴿أَدْعُوا الَّذِينَ﴾ زعموهم من دون الله، أي زعمتموه آلهة ﴿مِّنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ﴾ إجابة دعائكم ولو دعوتموهم لكشف الضر ما استطاعوا كشفه ولا تحويله، أي صرفه من أحد إلى غيره، فلا خير لكم في دعائكم وقد جربتم أنهم لا ينفعون ولا يضررون.

فالمعنى: قل ادعوا الذين زعمتم إن كانوا يملكون كشف الضر عنكم أو أي تحويل أو جربوا دعاءهم إن شككتم في أنهم لا ينفعون ولا يكشفون الضر، أو هو تهديد مثل: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤٠] وهو خطاب لمن يزعم الملائكة آلهة، ومن يزعم عيسى ونحوه آلهة.

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ ﴿أُولَٰئِكَ﴾ أي الملائكة وعيسى ونحوه ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ الله ﴿يَبْتَغُونَ﴾ يطلبون الوسيلة إلى ربهم أي ما يقربهم منه ويوصلهم إلى رحمته ورضوانه ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ يتسابقون في التقرب إلى الله، وكل يسعى لأن يكون أقرب من غيره بالعمل الأفضل والنية والتعبد لله، فقوله تعالى: ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ كما لو قيل يتسابقون أيهم أسبق أي كل واحد يريد أن يكون أسبق - والله أعلم.

قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ
كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ
كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثُمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ
بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا

وقوله تعالى: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ رد على المشركين
لأن رجاءهم وخوفهم دليل على ضعفهم وأنهم لا يملكون لأنفسهم أن
يرحمهم أو أن ينجوا من عذابه كما يتوهم المشركون أنهم شفعاؤهم عند الله،
وأن لهم مكانة عند الله تخولهم أن يشفعوا لمن شاؤوا ويقربوا من الله زلفى
من شاؤوا، فهم لا يدعون لأنفسهم ذلك بل هم مقررون بأنهم عباد لله،
وقوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ أي إنه عذاب شديد يحذره
الملائكة وغيرهم.

﴿وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا
عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ ﴿قَرْيَةٍ﴾ كناية عن أهلها
﴿إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ لأنها تظلم فيهلكها كما قال تعالى:
﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ [الفصص: ٥٩] وقوله تعالى: ﴿أَوْ
مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا﴾ أي دون الإهلاك العام ﴿كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ
مَسْطُورًا﴾ مقدراً مكتوباً أو هو في علمه تعالى.

﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا
ثُمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾

قيل: اقترحوا أن يأتي رسول الله ﷺ بآيات كما كان للأولين من
الآيات العظيمة ويأتي في السورة: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ
الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾ الآيتين.

جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ

فالله تعالى يقول: ﴿وَمَا مَتَعْنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ﴾ أي نرسل محمداً بالآيات أي التي اقترحوها ﴿إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾ فكان تكذيب الأولين بها كافياً في الدلالة على أنها لا تفيد هؤلاء المتعنتين، وإنما تكون سبباً لهلاكهم كما أهلكنا من قبلهم؛ لأن هؤلاء مثل أولئك ﴿مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرِيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٠] وما كانت الحكمة تقتضي هلاك هؤلاء هلاكاً عاماً مثل هلاك أولئك.

قال الشرفي في (المصابيح): «وعن علي عليه السلام: أمهلوا لعلم الله سبحانه أن فيهم من يؤمن أو يلد مؤمناً» انتهى.

قلت: هذا قريب، لأن الله تعالى قال: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ [يونس: ٧٤].

وقوله تعالى: ﴿وَأَتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾ أي آية مبصرة أي منيرة بينة ﴿فَظَلَمُوا بِهَا﴾ أي كذبوا بها مع أنها آية عظيمة، وهذا مثال للآيات التي كذب بها الأولون ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ إما من العذاب العاجل فالمراد الآيات التي من مثل الناقة، وإما تخويفاً أي إنذاراً من العذاب في الآخرة، فهي كقوله تعالى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥] فالمعنى: وما نرسل بالآيات إلا إنذاراً لا تلاعباً بإجابة لاقتراحات المتعنتين، فالمعنى راجع إلى أن إرسال الرسل بالآيات ليس إلا لاقتضاء الحكمة لذلك.

وَنُحُوفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿٦﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٧﴾ قَالَ أَرَأَيْتَكَ

﴿٦﴾ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُحُوفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿٧﴾ واذكر ﴿إِذْ قُلْنَا لَكَ﴾ يارسول الله ﴿إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ فهم في قبضته وهو ناصرهم وعليهم ومظهر دينه ومجازيهم بأعمالهم، كما قال الله تعالى: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ * وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ﴾ [البروج: ١٩-٢٠] فإذا أحاط بالناس فانتظر منه أن ينصرهم عليهم، وهذا فيما يترجح عندي، كقوله تعالى في الغنائم: ﴿وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾ [الفتح: ٢١].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ الرؤيا: مفسرة بأنها رؤياه فتح مكة، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنِ شَاءَ اللَّهُ آمِينَ﴾ الآية [الفتح: ٢٧] فكانت فتنة للناس وعلى هذا: فالرؤيا كانت في المدينة مثلاً، والآية هذه (مدنية) وإن كانت السورة (مكية).

وحكى الشرفي في (المصابيح): «عن الهادي عليه السلام، أنه قال: ومعنى ﴿أَرَيْنَاكَ﴾ فهو التي أخبرناك بها وأعلمناك فهو [ما] وعده من فتح مكة» انتهى المراد.

ومعنى الفتنة: أن الرؤيا تقدمت قبل الفتح بمدة طالت على بعض من سمع الخبر بها وانتظر الفتح فتأخر حتى كانت فتنة للذين في إيمانهم ضعف وشك بعض الناس في صدقها.

وقوله تعالى: ﴿وَالشَّجَرَةُ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ﴾ أي جعلناها فتنة للناس؛ لأنها إن كانت شجرة الزقوم، فالفتنة بالنسبة إلى من لم يؤمن؛ لأنها ﴿شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ * طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ فمن لم يؤمن استبعد أن تكون شجرة تنبت في جهنم؛ لأن النار تحرق الشجر في العادة فضلاً عن أن تنبت فيها، والمؤمن يعلم أن الله على كل شيء قدير وإن كانت الشجرة الملعونة في القرآن بنوا أمية فالفتنة في تمكينهم من أخذ الملك وجعل المال بأيديهم فافتتن بهم من يميل إلى الدنيا.

والقول: بأن الشجرة الملعونة في القرآن هي (بنوا أمية) حكاه الشريفي في [المصابيح] عن الهادي عليه السلام، وعن ابنه الناصر عليه السلام، أما القول: بأن الشجرة الملعونة في القرآن هي (شجرة الزقوم) فهو في (تفسير غريب القرآن) للإمام زيد بن علي عليه السلام.

وحكى الشريفي في (المصابيح): «عن الناصر بن الهادي عليه السلام أنه قال: وقد اختلف الناس في الرؤيا وقالوا فيها بأقاويل، غير أن إجماعنا وإجماعهم في الرواية على أنه عليه السلام رأى رجلاً من قريش ترقا منبره يتداولونه بالظلم كما يتداول الصبيان الكرة، وهذا الخبر فقد رواه الجميع إلى قوله.. والشجرة الملعونة في القرآن فهم بنوا أمية لعنهم الله تعالى» انتهى.

وعلى هذا: تكون الشجرة مجازاً ولعنهم في القرآن لعن الظالمين وطردهم من رحمته كقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يس: ٨-١٠] أما على القول إن الشجرة الملعونة هي الزقوم فإسناد اللعن إليها مجاز وهو لمن يأكلها، ونظيره ﴿فِي عَيْشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٢١] والراضي صاحبها.

ففي كلا التفسيرين الحمل على المجاز لكن التجوز في إسناد اللعن الى الشجرة والمراد به صاحبها بعيد لانفصاله عنها بخلاف إسناد الرضى إلى العيشة؛ لأنها صفة لصاحبها والمجاز المرسل إنما يكون بين متلازمين، وقد يقال: شجرة الزقوم وأكلها متلازمان عند أكله لها ومصيرها في بطنه، فإسناد اللعنة على اعتبار حال أكله لها صحيح.

وهناك إشكال آخر وهو أن الذي في الآية الكريمة هو أن الله تعالى جعل الشجرة الملعونة فتنه للناس ولم يخص الظالمين، وشجرة الزقوم فتنه للظالمين فقط، قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ﴾ [الصافات: ٦٣] أي عذاباً لهم، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ * ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ..﴾ [الذاريات: ١٣-١٤] وعموم الفتنة في ذكر شجرة الزقوم في القرآن هو أمر آخر غير الذي في الآية؛ لأنه تعالى قال: ﴿وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ﴾ ولم يقل: وذكر الشجرة فهذا يضعف تفسير الشجرة الملعونة بالزقوم ويرجح أنها بنو أمية لعموم فتنتهم واحتياج من تركهم إلى الصبر على الفقر أو عليه وعلى الخوف على نفسه أو ماله أو عليهما لقوة سلطانهم وشدتهم وعموم دولتهم على بلاد الإسلام هذا حين جاءت دولتهم.

أما في وقت نزول القرآن فكانت الفتنة بهم؛ لأنهم عادوا رسول الله ﷺ وكانوا يعذبون المسلمين إن لم يكن لمن أسلم جوار فيهم، وبعد أن هاجر رسول الله ﷺ حاربوه حتى نصره الله عليهم وغلبهم يوم الفتح، وفي تفسير الشجرة الملعونة بهم مناسبة لتفسير الرؤيا برؤيا دخول المسجد الحرام، أما إذا كانت الرؤيا رؤياهم يتداولون منبر رسول الله ﷺ فهذا أوضح وتسميتهم فتنه مناسب أيضاً لقوله الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ [الفرقان: ٢٠].

هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَى لَيْنٍ أَخَّرْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لِأَحْتَنِكَ بِ ذُرِّيَّتِهِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٣٢﴾ قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً

أما قوله تعالى: ﴿وَحُوفُّهُمْ﴾ فالتخويف ضربان: تخويف بعذاب الآخرة وهو ظاهر في القرآن، وتخويف للكفار بنصر الله لرسوله وإظهاره لدينه وأنه سيفتح مكة، وكلا التخويفين ما ﴿يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ حيث استمروا على عنادهم وحاربوا رسول الله ﷺ في بدر وأحد وحنين وغزوة الأحزاب، وكذلك قالوا فيه الأقول الباطلة مثل مجنون شاعر مسحور ساحر.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتُ طِينًا﴾ ذكرت قصة إبليس بعد ذكر طغيان الكفار وتكذيبهم لآيات الله وشركهم ولعل ذلك ذكراً موعظة للناس وتحذيراً من هذا العدو الذي ﴿إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦] وقوله: ﴿ءَأَسْجُدُ﴾ سؤال إنكار أي كيف أسجد لمن خلقت طيناً؟ تعبير عن تكبره واستحقاره لآدم عليه السلام، لأن الله خلق آدم من طين تجاهلاً لنفخ الروح ومصيره بذلك خلقاً آخر كاملاً في العلم.

﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَى لَيْنٍ أَخَّرْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لِأَحْتَنِكَ بِ ذُرِّيَّتِهِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَى﴾ تحقير لآدم واعتراض على الله العزيز الحكيم في تكريمه على إبليس بأمر الملائكة وإبليس بالسجود له، وقوله: ﴿لَيْنٍ أَخَّرْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لِأَحْتَنِكَ بِ ذُرِّيَّتِهِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ تحقير لآدم ووصف له بالضعف؛ لأن طبعه وطبع ذريته متشابه، فإذا كانت ذريته موصوفة بالهلع فهو قريب منهم وتهديد لذريته بالإحتناك معناه التهديد بأنه يستحوذ عليهم ويصيرون في يده يقودهم كما يقود الإنسان بغيره ويستولى عليهم.

مَوْفُورًا ﴿٣٢﴾ وَأَسْتَفْزَزَ مَنْ أَسْتَطَعَتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلَبَ عَلَيْهِمْ نَحْيَكَ وَرَجَلَكَ وَشَارَكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدَّهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ

قال الراغب في تفسيره لـ (مفردات القرآن): «وقوله تعالى: ﴿لَأَحْتَنِكَ﴾ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا» يجوز أن يكون من قولهم حَنَكْتُ الدابة أصبت حنكها بالجام والرسن - ثم قال - : ويجوز أن يكون من قولهم احتنك الجراد الأرض، أي استولى بحنكه عليها فأكلها واستاصلها» انتهى المراد.

وقال الشرفي في (المصابيح): «قال في (البرهان): ﴿لَأَحْتَنِكَ﴾ ذُرِّيَّتَهُ» يعني لأقتطعهم، قال الشاعر:

شكوا إليك سنة قد أجحفت جهد إلى جهد بنا فأضعفت

واحتنكت أموالنا وجلفت

وقيل: معناه: لأقودنهم إلى المعصية كما تقاد الدابة بحنكها إذا شدَّ فيه حبل يجذبها» انتهى.

وقال (صاحب الصحاح): «حنكت الفرس أحنكه وأحنكه حنكاً إذا جعلت فيه الرسن، وكذلك احتنكته واحتنك الجراد الأرض أي أكل ما عليها، وأتى على نبتها، وقوله تعالى: ﴿لَأَحْتَنِكَ﴾ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا» قال الفراء: يريد لأستولين عليهم» انتهى.

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «معناها: لأستميلنهم، والإحتناك معناه الغلبة والقهر والإستيلاء» انتهى.

وقوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي إلا قليلاً منهم، وهم المؤمنون المتوكلون على ربهم. ﴿قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا﴾ ﴿قَالَ أَذْهَبَ﴾ أي قال الله تعالى لابليس لعنه الله ﴿أَذْهَبَ﴾ أي امض لشأنك، وهذا من التهديد، بدليل اقترانه بقوله تعالى: ﴿فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ﴾.

إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ
وَكَيْلًا ﴿٦٥﴾ رَبُّكُمْ الَّذِي يُزْجِي لَكُمْ الْفَلَكَ فِي الْبَحْرِ لِيَتَّبِعُوا مِنْ

وقوله تعالى: ﴿جَزَاءً مَّوْفُورًا﴾ أي الجزاء الأوفى، قال الشاعر:

لقد علم الأقسام لو أن حاتما أراد ثراء المال كان له وفر

قال في (الصحيح): «الوفر: المال الكثير - ثم قال - : والموفور الشيء التام» انتهى، وفي (لسان العرب): «الوفر المال الكثير وفي (التهذيب): المال الكبير الوافر الذي لم ينقص منه شيء وهو موفور، وقد وفرناه فِرَةً - ثم قال -: وفي الحديث: «الحمد لله الذي لا يفره المنع» أي لا يكثره من الوافر الكثير، يقال: وَفَرَهُ يَفِرُهُ، كوعده يعهده» انتهى.

فظهر منه: أن كلمة ﴿مَوْفُورًا﴾ تفيد إتمام الجزاء وكثرته - والله أعلم.

﴿وَاسْتَفْزَزَ مَنْ اسْتَطَعَتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلَبَ عَلَيْهِمْ يُحْيِيكَ وَرَجَّلِكَ
وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدَّهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ في
(تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «﴿وَاسْتَفْزَزَ مَنْ اسْتَطَعَتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ
وَأَجْلَبَ عَلَيْهِمْ يُحْيِيكَ وَرَجَّلِكَ﴾ واستفز: بمعنى استخف واستجهل، والصوت:
الغناء وشبهه، وخيله: كل دابة سارت في معصية الله تعالى» انتهى المراد.

وفي (لسان العرب): «ورجل فز أي خفيف، وفي (التنزيل العزيز):
﴿وَاسْتَفْزَزَ مَنْ اسْتَطَعَتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ﴾ قال الفراء: أي استخف بصوتك
ودعائك» انتهى، وفي (مفردات الراغب): «﴿وَاسْتَفْزَزَ مَنْ اسْتَطَعَتْ مِنْهُمْ
بِصَوْتِكَ﴾ أي ازعج - ثم قال - : والفز: ولد البقرة، وسمي بذلك لما تصور
فيه من الخفة كما سمي عجلاً لما نُصوِّر فيه من العجلة» انتهى.

فظهر: أن معنى الإستفزاز: الإستخفاف للإنسان والإستجهال، أي تحصيل الخفة فيه والجهالة سواء كان ذلك بطريقة الغضب أم الحمية أم الحسد أم الكبر أم الشهوة أم الخوف، وأنه غير خاص بالخوف.

وقوله تعالى: ﴿بِصَوْتِكَ﴾ يترجح: أن الغناء والملاهي المحرمة نسبت إلى إبليس لدعوته إليها وتسببه لوقوعها، وهذا أظهر من تفسيره بالقول الباطل؛ لأن ذم الصوت من حيث هو صوت لا يتوقف على تعبيره عن معنى باطل، ولو أريد القول الباطل لكان التعبير بقولك أوضح من التعبير بصوتك.

وقوله تعالى: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ مجاز بمعنى إجهد جهدك في التسلط عليهم ومحاولة السيطرة عليهم، والرَّجُل المشاة من الناس في السفر ونحوه وأصل أجلب عليهم بخيلك سقها أو نحوه بعنف. قال في (الصحيح): «وجلب على فرسه يجلب - بالضم - جلباً: إذا صاح به من خلفه واستحثه للسبق وأجلب عليه مثله» انتهى.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال الهادي عليه السلام: هذه أمثال كلها ضربها الله لا أن ثم خيلاً ولا ركاباً، والعرب يقول بعضها لبعض إذا اختصمت وتحاججت وتناظرت قالت لمن لا خيل له ولا رجال: اجلب علينا بخيلك ورجلك، يريد اجهد علينا بغاية طاقتك، فعلى هذا يخرج معنى قول الله تعالى: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ أي اجهد فيهم جهدك» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ فمشاركته لهم بتزيين جعلها في معصية الله مثل قتل المشركين لأولادهم ومثل خدمة الأصنام إذا جعلوا لها بعض أولادهم ومثل جعل بعض المال من الأنعام والحراث لأصنامهم، ومثل: تحريم البحيرة، والسائبة، ومثل: إنفاق المال في الخمر والغناء، أو الزنا، أو معاونة ظالم.

فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾

وقوله تعالى: ﴿وَعِدَّهُمْ﴾ من الوعد ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ لأنه لا يفي بوعده، بل يخلفه بعد اغترار الإنسان به، والوعد منه بالوسواس أو الوسوسة لأوليائه أن يعدوا من يريد خدعهم، مثل ما حكاه الله تعالى في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ﴾ [الحشر: ١١].

﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ هذا رد على قول إبليس المذكور آنفاً، فقوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ إما بمعنى ليس لك أن تقهرهم بقوة حتى يطيعوك كما سيترف به الشيطان يوم القيامة: ﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ﴾ [إبراهيم: ٢٢] فقول إبليس: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ﴾ غير صحيح، إلا على المجاز أنه يغر ويخادع ويزين ويمني حتى يطيعه الإنسان مختاراً.

وإما بمعنى: ﴿إِنَّ عِبَادِي﴾ المخلصين ﴿لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ لأنهم أقوياء بالإيمان والتوكل كما مر في (سورة النحل) ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ يكلون إليه أمورهم فيبطلون بذلك تخويف الشيطان إذا خوفهم من العدو أو خوفهم الفقر أو غير ذلك، فالله كافٍ لهم ونعم الوكيل.

﴿رَبُّكُمْ الَّذِي يُزْجِي لَكُمْ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ ﴿يُزْجِي لَكُمْ الْفُلْكَ﴾ يسوق لكم إلى الأمام السفائن بالريح الطيبة التي تسوق السفائن على البحر ليسافر عليها الإنسان لتبتغوا من فضله ﴿لِتَبْتَغُوا﴾ بالسفر على السفائن أي لتطلبوا بالأسباب

﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾ إما للتجارة بأن يسافروا بالبضاعة من أرض إلى أرض، وإما لغير ذلك من أسباب الرزق أو غيره كمن يسافر لقربة من حج أو عمرة أو صلة رحم أو طلب علم أو زيارة رسول الله ﷺ أو أحد أهل بيته فكل ذلك ابتغاء من فضل الله.

وما يروى عن رسول الله ﷺ: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد...» محمول على السفر للصلاة في بقعة من الأرض أو الإعتكاف أو الذكر أو التلاوة، فهذا لا يسافر له إلا إلى الثلاثة المساجد، فالحصر إضافي بالنسبة إلى المساجد أي ليس لمسجد فضل يصلح لأجله شد الرحل إليه إلا الثلاثة المساجد، فأما السفر للإبتغاء من فضل الله فالقرآن يقرر الناس عليه وما زالوا عليه من عهد الأنبياء والمرسلين - صلوات الله عليهم - إلى اليوم فلا يحظر من الإبتغاء من فضل الله إلا السفر إلى مسجد للصلاة فيه أو نحوها غير الثلاثة المساجد.

ألا ترى أن المسلمين يسافرون للتجارة والإجارة وطلب العلم وبر الوالدين وصلة الرحم واللذات النفسية التي يستعاد بها الصحة والقوة فلو كان ذلك كله محرماً أن يسافر إليه لما جرى عليه عمل الصحابة فمن بعدهم إلى اليوم أعني على السفر إلى غير الثلاثة المساجد على اختلاف أغراضهم وذلك كله من الدلائل القرآنية وعمل الأمة الإسلامية قرينة أن المراد في الحديث الحصر الإضافي لا الحصر العام.

والحصر الإضافي واقع في القرآن العربي المبين، قال تعالى: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾ [الأنعام: ١٦٤] أي لا على غيرها لأنها تكسب لنفسها بعض النفوس في الكسب الديني وكل النفوس في الكسب الدنيوي، وقال تعالى:

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾ [آل عمران: ١٤٤] أي يجوز عليه من الموت ما جاز على الرسل وليس في فضله فوق ذلك، وليس حصراً لوصفه في الرسالة حتى لا يوصف بسائر الفضائل فهو رسول وهو بالمؤمنين رؤوف رحيم، وغير ذلك من صفاته ﷺ وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ﴾ [هود: ١٢] والكلام فيه كالكلام في قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾ [آل عمران: ١٤٤] ومسألة الحصر والقصر واختلاف معانيهما في علم البيان.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً﴾ أي أن من رحمته تيسير الإبتغاء من فضله وأنه يسره لأنه كان بنا رحيماً وعادته الرحمة لنا.

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهَهُ فَلَمَّا خَجَكُمُ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُوراً﴾ هذا احتجاج على المشركين ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ﴾ مثل ربح عاصف رفع الأمواج حتى صارت تدخل السفينة وخافوا الغرق، ومثل سكون الريح ووقوف السفينة لذلك حتى خافوا الإنقطاع في مكانهم من البحر حتى يتضرروا من الجوع وحر الشمس وغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ﴾ أي ضاعوا في تلك المهمة وأنتم في أمس الحاجة إلى إنقاذ من ينقذك فلم ينفعوكم بأي نفع، فتبين لكم أنهم لا ينفعونكم، وإنما ينفعكم الله تعالى فيهدئ العاصف أو يرسل الرياح بعد سكونها.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا خَجَكُمُ إِلَى الْبَرِّ﴾ أي نجاكم من مخاطر البحر وصيركم إلى البر حيث أمتم بعد الخوف ﴿أَعْرَضْتُمْ﴾ عن الله فلم تعبدوه شكراً على نعمه التي لا تحصى ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُوراً﴾ كثير الكفران لنعم الله ينسى نعم الله عليه ويسئ إلى المنعم عليه باستعمال نعمه في معصيته.

أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ تَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٣٨﴾ أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيَغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ

﴿٣٨﴾ ﴿أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ تَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا﴾ هذا إنكار عليهم أمنهم من مكر الله بعد أن نجاهم من البحر؛ لأنهم آمنوا فأعرضوا مع أنهم على خطر بسبب إعراضهم لأنهم إن نجوا من البحر فيمكن هلاكهم بخسف الأرض من تحتهم بحيث تهوي بهم إلى باطنها بأمر الله تعالى، ويمكن أن يرسل الله عليهم ريحاً ﴿حَاصِبًا﴾ ترمي بالحصباء أي الحجارة تهلكهم كما أرسل على قوم لوط.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا﴾ أي لا تجدوا من تتكلمون عليه في إنقاذكم من العذاب لأن الله غالب على أمره.

﴿٣٩﴾ ﴿أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيَغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا﴾ ﴿أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ﴾ أي في البحر ﴿تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ مرة أخرى ﴿فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ﴾ ﴿قَاصِفًا﴾ ريحاً شديدة.

قال الراغب: «وهي التي تقصف ما مرت عليه من الشجر والبناء» انتهى ﴿فَيَغْرِقَكُمْ﴾ بالريح القاصف؛ لأنها ترفع الموج فيدخل السفينة فتتهوي لثقلها بالماء وذهاب الهواء منها ﴿بِمَا كَفَرْتُمْ﴾ بسبب كفركم لنعمة الله ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا﴾.

الطَّيِّبَتِ وَفَضَّلْنَهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴿٧﴾ يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمْئِهِمْ فَمَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ

قال الشريفي في (المصابيح): «قال عليه السلام» - يعني الناصر بن الهادي عليه السلام -: يقول: نصيراً، والعرب تسمي طالب الثار تبيعاً، انتهى، ويعني بالنصير: من يتنصر لهم بعد هلاكهم، وفي (الصحيح): «والتبعية: التابع، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا﴾ قال الفراء: أي ثائراً ولا طالباً، وهو بمعنى: تابع، انتهى».

﴿٧﴾ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَهُمْ فِي الْوَبَرِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَهُمْ مِنْ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴿٨﴾ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ﴿٩﴾ بالعقل والبنية التي استطاعوا بها من تحسين ما أذن الله به لهم من أحوالهم من نسج الثياب وتحصيل الفراش وبناء البيوت والأكل والشرب باليد والتطهر من الأوساخ والتنزه منها وغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَحَمَلْنَهُمْ فِي الْوَبَرِ وَالْبَحْرِ﴾ ﴿٨﴾ في الْوَبَرِ ﴿٩﴾ على الدواب، وفي هذا العصر على السيارات المصنوعة ﴿١٠﴾ في ﴿الْبَحْرِ﴾ على السفائن التي تدفعها الرياح وفي هذا العصر صارت تدفع بواسطة الوقود، وفي هذا العصر - أيضاً - نعمة الطائرات في الهواء المصنوعة فهي من نعم الله؛ لأن موادها من صنعه، وهو الذي ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٥] ويسر له تطوير علمه حتى استطاع صناعتها وصناعة الكهرباء وغيرها من الحاجات الدنيوية، ولعله لم يلتفت إليها الوحي بتبشير؛ لأنها دنيوية.

وقد أشار إلى إعداد قوة النصر لدينه والدفاع لأعدائه، وأطلق القول في قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠] حتى صدق على

كِتَبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي
الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي

كل مستطاع ولو الطائرات الحربية وغيرها من آلة الجهاد في سبيل الله، وهذا
كاف عن ذكرها في الوحي بالتفصيل، ولا يبعد أن قد أشار إليها قوله تعالى:
﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [النكبات: ٢٢] وقد فسر بعضهم
كثيراً من القرآن بما توصل إليه العلم الحديث من التطور الصناعي والعلمي،
وبعض ذلك التفسير ضعيف، وبعضه تكلف ودعوى مجردة، وبعضه قريب -
والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ واضح وفيه عمومٌ للبر والفاجر
والمؤمن والكافر، فهو رد على المطرفية النافين لرزق الكافر، وقوله تعالى:
﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ لعل هذا بحفظهم بالحفظة
وتمكينهم من إظهار ما خفي من آيات الله تعالى ونعمه في مثل ما توصلت إليه
العلوم الحديثة من الاختراعات لما فيه خدمة للإنسان - والله أعلم.

فأما تفضيل الإنسان على البهائم والسباع والأسماك ونحوها فظاهر،
ويمكن - والله أعلم - أن المراد: تفضيلهم على الجن؛ لأنه تعالى قال: ﴿مِمَّنْ
خَلَقْنَا﴾ ومن لمن يعقل، وقوله تعالى ﴿تَفْضِيلًا﴾ تحقيق التفضيل وتأكيده،
والمراد: تفضيلهم بما هو نعمة عليهم.

﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أَنَسٍ بِإِسْمِهِمُ ۖ فَمَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ
فَأُولَٰئِكَ يقرءون كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ اذكر ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ
أَنَسٍ﴾ وهو يوم القيامة ندعو كل أناس من البشر كلهم يُدعون إلى موقف
السؤال والحساب وفصل القضاء.

وقوله تعالى ﴿بِإِمَامِهِمْ﴾ أي بمتبوعهم مصحوبين به ليروا نتيجة اتباعهم له إن كان محققاً أو مبطلاً، كما قال تعالى في فرعون: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ [هود: ٩٨].

قال الشرفي في (المصابيح): «قال الإمام أحمد بن يحيى - يعني الناصر بن الهادي عليه السلام - : يريد بهذا جميع الخلق، فليس من أحد إلا وله إمام إماماً هدى وإماماً ضلالة.

قال الحسين بن القاسم عليه السلام: «معنى قوله: ﴿بِإِمَامِهِمْ﴾ أي مع إمامهم فمن كان مع إمام جائر حشر معه إلى العذاب، ومن كان مع إمام عادل حشر معه إلى الثواب وحضر معه في موقف الإمام عند الحساب، ثم جعل كل في منزله وراح إلى موضعه ومحلّه» انتهى المراد.

قوله: «ومن كان مع إمام عادل» يعني متبعاً له في الدين كله، هذا وقد زعم بعض المفسرين: أن الإمام اسم شرعي خاص بإمام الهدى، وهو معترف أن الإمام في عرف اللغة يصدق على الحق والمبطل، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ [القصص: ٤١] وقوله تعالى: ﴿فَقَاتِلُوا أئِمَّةَ الْكُفْرِ﴾ [التوبة: ١٢].

فقوله: إن الإمام في الشرع خاص بإمام الهدى غير مسلم؛ لأن مجرد الإستعمال لا يدل على النقل من المعنى اللغوي إلى معنى شرعي وقد استعمل في القرآن في إمام الباطل كما ترى، وفي الحديث استعمل بكثرة في إمام الصلاة؛ لأنه يقتدى به في الصلاة، واستعمل في أئمة الضلال مثل: «إنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين» أخرجه الدارمي في (سننه) [ج ١ ص ٧٠] وهو في (سنن أبي داود) [ج ٤ ص ٩٨] من حديث طويل.

وفي (الكافي) [ج ١ ص ٢١٥]: عن أبي جعفر قال: لما نزلت هذا الآية ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمْئِهِمْ﴾ قال المسلمون: يا رسول الله أأنت إمام الناس كلهم أجمعين؟ قال: فقال رسول الله ﷺ «أنا رسول الله إلى الناس أجمعين، ولكن سيكون من بعدي أئمة على الناس من الله من أهل بيتي يقومون في الناس فيكذبون، ويظلمهم أئمة الجور...» إلخ.

وفيه [ج ١ ص ٢١٦]: «عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن الإئمة في كتاب الله - عز وجل - إمامان، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ [الأنبياء: ٧٣] لا بأمر الناس يُقدِّمون أمر الله قبل أمرهم وحكم الله قبل حكمهم، قال: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ [القصص: ٤١] يقدمون أمرهم قبل أمر الله وحكمهم قبل حكم الله يأخذون بأهوائهم خلاف ما في كتاب الله - عز وجل -» انتهى.

وفي (مجموع الإمام زيد بن علي): عن أبيه، عن جده، عن علي (عليه السلام) من حديث: «وأيما إمام لم يحكم بما أنزل الله فلا طاعة له».

وفي (مسند أحمد بن حنبل) [ج ٣ ص ٢٢]: عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أحب الناس إلى الله - عز وجل - يوم القيامة وأقربهم منه مجلساً: إمام عادل، وإن أبغض الناس إلى الله يوم القيامة وأشدّه عذاباً: إمام جائر».

وفي (سنن الدارمي) [ج ١ ص ٧٠]: عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «(إن أخوف ما أخاف عليكم الأئمة المضلين)».

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَوْقَىٰ كَتَبَهُ بِيَمِينِهِ﴾ ﴿فَمَنْ أَوْتَىٰ مِنَ الْأُئِمَّةِ وَالْمَأْمُومِينَ كِتَابَهُ عَمَلَهُ بِيَمِينِهِ وَهِيَ بَشْرَىٰ بِالْإِيمَنِ وَالْخَيْرِ؛ لِأَنَّ كِتَابَهُ تَضُمْنَ مَا يَنْفَعُهُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَأُولَٰئِكَ يَقْرَأُونَ كِتَابَهُمْ﴾ يتذكرون به ما قدموا من الأعمال الصالحات فيفرحون به ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ أي لا ينقصون من ثوابهم فتيلاً أي قليلاً، والفتيل مثلٌ للقليل، كالنقير وكالقطمير.

قال الشريفي في (المصابيح): «قال الإمام أحمد بن يحيى - يعني: الناصر بن الهادي - عليه السلام: والفتيل في لغة العرب والمعروف عندها من كلامها وخطابها والنقير والقطمير، فكل ذلك في النواة موجود، والنواة: فهي العجمة التي تكون في جوف التمر، فالشق الطويل الذي يكون في بطن النواة اسمه عند العرب الفتيل، والنقير: فهو ذلك النقير الذي يكون في وسط ظهر النواة مثل الخردلة، ومنه يكون انتشار نباتها إذا نبتت، وأما القطمير: فهو الذي يكون على النواة غلافاً لها، وهي قشرة بيضاء رقيقة شديدة الرقة فذلك القطمير» انتهى المراد.

ولعل في الرواية عن الناصر عليه السلام سقطاً؛ لأن الفتيل هو الذي يكون في الشق الذي في بطن النواة مثل الخيط، قال في (الصحاح): «والفتيل ما يكون في شق النواة» انتهى، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام) في تفسير (سورة النساء): ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٤٩]: «معناه: لا ينقصون ولا يظلمون نقيراً، فالفتيل: الذي في شق النواة، والفتيل: ما يخرج بين الإصبعين إذا قتلتهما السبابة والإبهام» انتهى المراد.

وفي ترتيب كتاب الخليل بن أحمد المسمى (كتاب العين): «والفتيل: سحاة في شق النواة» انتهى، ومثله في (لسان العرب)، وقال الراغب الأصبهاني في (تفسيره) للمفردات: «والفتيل: المفتول، وسمي ما يكون في شق النواة فتيلاً لكونه على هيئته» انتهى المراد.

أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ^{٧٦} وَإِذَا لَا تَأْخُذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٧﴾ وَلَوْلَا أَنْ
تَبَيَّنَّاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٨﴾ إِذَا لَا أَذُقْنٰكَ ضِعْفَ

﴿٧٧﴾ وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٨﴾
قال الشرفي في (المصاييح): «قال الحسين بن القاسم عليه السلام: معناه: من كان
في هذه الدنيا أعمى عن الحق فهو في الآخرة أشد أعمى وأضل سبيلاً، ولهذا
الوجه أكرم الله الجنة عن الفاسقين وطهرها عن سبيل الظالمين، ولو أدخلهم
الجنة لما ازدادوا إلا بطراً، ولكن الله أحسن تدبيراً ونظراً» انتهى.

وحكى الشرفي عن الناصر بن الهادي عليه السلام، أنه قال مثل قول الحسين
بن القاسم هذا.

وقوله تعالى: ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ أي أضل منه حين كان في الدين، فهو أبعد
عن الحق إنما تهمته نفسه، وهو بعيد عن ذكر حق الله عليه بقلبه والإيمان به.
وفي (تفسير الحسين بن القاسم) أفاده صحة استعمال اسم التفضيل من
العمى مع القرينة؛ لأنه لا يلتبس بالوصف؛ ولأن معنى العمى الذي هو
عمى البصيرة متفاوت - والله أعلم.

﴿٧٧﴾ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا
غَيْرَهُ^{٧٦} وَإِذَا لَا تَأْخُذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٧﴾ وَإِنْ كَادُوا الضمير للكفار، فقد مر ذكر
المعرضين بعد أن نجاهم من خطر البحر وتخويفهم.

ويحتمل: أن الضمير لـ ﴿مَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى﴾ أي لمن حول الرسول
منهم، وأنهم قد كادوا أن يفتنوه أي يضلوه لشدة عنايتهم في محاولة صرفه
عليه السلام عما أوحى الله إليه من الدعوة إلى التوحيد وتقوى الله بضرب من

الْحَيَوَةُ وَضَعَفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْهَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خَلْفَكَ إِلَّا

خداعهم ووعودهم المرغبة في موافقتهم وحاشاه عليه السلام من أن يوافقهم على ذلك، ولكنه لا يمتنع عليه المقاربة، كما قال يوسف - صلى الله عليه - : ﴿وَلَا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣] للمقاربة من حيث هو بشر جائزة ولكن لا يكون موافقاً لهم؛ لأنه محفوظ بالطف الله تعالى وعصمته.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَا تَجِدُوكَ خَلِيلًا﴾ أي لو ضللت وافترت علينا غيره، أي غير الذي أوحينا إليك لا تجدوك خليلاً، والخليل المحبوب البليغ الصداقة، وقوله تعالى: ﴿لَا تَجِدُوكَ﴾ فيه زيادة تأكيد الخلقة من حيث دل على أنها كانت تصدر عن قرار منهم واختيار لا أنها عرضت لهم بغير قصد.

﴿وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ ثبتناك على التقوى والتمسك بما أوحينا إليك، والركون هو الميل اليسير، وقوله تعالى: ﴿شَيْئًا قَلِيلًا﴾ تقليل للتقليل، فهو تأكيد للدلالة على قلة الميل، وتقليل له قلة مضافة إلى قلة، وقوله: ﴿شَيْئًا﴾ تقليل مع ذلك.

﴿وَإِذَا لَا أَذَقْنَكَ ضِعْفَ الْحَيَوَةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْهَا نَصِيرًا﴾ أي لو ركنت إليهم شيئاً من الركون قليلاً لأذقناك عذاباً مضاعفاً في الحياة الدنيا أو الحياة الدنيا والآخرة ﴿وَضِعْفَ الْمَمَاتِ﴾ ضعف عذاب الممات وقد فسر بعذاب الآخرة، والأقرب عندي: أنه عذاب البرزخ الذي يلحق الروح بعد ممات الجسد، فهو أظهر أن يقال له: عذاب الممات.

قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ

﴿٧٦﴾ وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفْزُؤُونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبُثُونَ خِلْفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٧﴾ لَيَسْتَفْزُؤُونَكَ لِيُزْعِجُونَكَ لِيَنفُوكَ مِنَ الْأَرْضِ كَمَا يُنْفَى الْحَارِبُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﷺ وَلَا مُوجِبَ لَتَفْسِيرِ الْأَرْضِ بِمَكَةٍ وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ وَقَعَ؛ لَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ غَرَضُهُمْ مَجْرَدَ إِخْرَاجِهِ مِنْ مَكَةٍ، وَلَكِنَّهُ لَمَّا هَاجَرَ إِلَى طَيِّبَةِ عَجَزُوا عَنْ طَرْدِهِ مِنْهَا.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَلْبُثُونَ﴾ لا يبقون ﴿خِلْفَكَ﴾ أي بعد إخراجهم لك ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ من اللبث أو قليلا من المدة، أي إن استفزوك من الأرض ليخرجوك منها لم يلبثوا في الحياة بعدك إلا قليلا، والاستفزاز الإزعاج بالتخويف أو بأي وسيلة تضطره إلى الخروج.

﴿٧٧﴾ سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٨﴾ أَي عَادَةً ﴿مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا﴾ إِهْلَاكَ قَوْمِهِمْ مَتَى حَافِلُوا قَتْلَهُمْ أَوْ طَرْدَهُمْ ﴿وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ وَهِيَ سُنَّةُ اللَّهِ أَضِيغَتْ إِلَى الرِّسَالِ لِتَعْلُقَهَا بِهِمْ؛ وَلِذَلِكَ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ لَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا صَرَفًا عَنْ طَرِيقَتِهَا الْمَاضِيَةِ إِلَى طَرِيقَةِ خَالَفَةِهَا.

﴿٧٨﴾ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٩﴾ أَقِمِ الصَّلَاةَ ﴿وَقْتُ (ذُلُوكِ الشَّمْسِ) مُسْتَمِرًّا أَوْ مُكَرَّرًا﴾ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ ﴿وَذُلُوكُ الشَّمْسِ زَوَالُهَا عَنْ وَسْطِ السَّمَاءِ إِلَى جِهَةِ الْغَرْبِ وَهُوَ أَوَّلُ الظُّهْرِ، وَغَسَقُ اللَّيْلِ: إِظْلَامُهُ، وَإِظْلَامُهُ بَعْدَ دُخُولِهِ.

فأول الليل ابتداء الظلمة بحيث تمكن رؤية بعض كواكب الليل، وإظلامه قوة ظلمته، ولعلها أول وقت العشاء عند مغيب الشفق الأحمر، ولو كان المراد أول الليل لكفى أن يقول إلى الليل.

وفي (مجموع الإمام زيد بن علي عليه السلام): «سمعت الإمام الشهيد أبا الحسين زيد بن علي عليه السلام، وقد سئل عن قوله - عز وجل - : ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ فقال عليه السلام: دلوك الشمس: زوالها، وغسق الليل: ثلثه حيث يذهب البياض من أسفل السماء، ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ تشهد ملائكة الليل وملائكة النهار، انتهى.

وإقامة الصلوة إما من القيام بمعنى إحيائها بالجماعة في أوقاتها مثل قيام السوق وقيام الحرب، وإما بمعنى أن تكون قيمة لا عوج فيها بمعنى إخلاصها في أوقاتها بخشوعها وأذكارها وأركانها وشروطها وحضور الذهن وذلك داخل في قيامها، فالمعنيان متقاربان، وإقامة قرآن الفجر أي القراءة في صلاة الفجر سلامتها من الغلط وتأديتها تأدية مناسبة لمعانيها وحضور الذهن بحيث يعلم ما يقول، والجمهور المسمع للمؤمنين، وإكمال الواجب من القراءة.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ ترغيب في القرآن ودلالة على عظم شأنه حيث تحضره الملائكة لتسمه أو لترفعه أو لتكتبه لقارئه مع ذلك، ويحتمل أن من شهوده حضور الذهن في تلك الحال وحسن الفهم لمعانيه لكونه بعد راحة الذهن بالنوم أو بعد تنور القلب بعبادة آخر الليل وسلامته من تشويش حوادث النهار، فيكون هذا من شهود القارئ نفسه أي حضوره تشبيها للغافل بالغائب، ولعل منه قوله تعالى: ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧] والله أعلم.

يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٦﴾ وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا ﴿٧٧﴾ وَقُلْ جَاءَ

﴿٧٦﴾ وَمِنْ أَلِيلٍ فَتَهَجَّدَ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٧﴾ فَتَهَجَّدَ بِهِ ﴿٧٨﴾ تَبَّه بعد النوم متعبداً به أي بالقرآن ﴿نَافِلَةً لَكَ﴾ زائداً على الفرائض المأمور بها ﴿لَكَ﴾ أي فائدته لك.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال الإمام أحمد بن يحيى - يعني الناصر بن الهادي - عليه السلام: معنى قوله: ﴿نَافِلَةً لَكَ﴾ يقول: فضيلة لك، وقد قال غيرنا إن ذلك فريضة، وليس ذلك عندنا إلا نافلة فضله بها ودله على الرشد فيها» انتهى المراد.

قال الشرفي: عن الحسين بن القاسم عليه السلام: «ولمَّا خُصَّ عليه السلام بالترغيب فيها ليسبق إلى حيازة فضلها لاختصاصه بكرامته» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ تعليل للتهجد أو له وإقامة الفرائض وقرآن الفجر أي متوقفاً أن يبعثك ربك يوم القيمة ﴿مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ مقاماً قائم مقام المفعول المطلق ليعثك؛ لأن فيه معنى يُقيمك.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال في (البرهان): والمقام المحمود: فهو ما أعطاه الله - عز وجل - من الدرجات الرفيعة، والمنازل السنية، والشفاعة للمؤمنين» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ تحمده ويحمده المؤمنون من الأولين والآخرين لما يكون منك من الشفاعة لهم.

فأما ما يروى من الشفاعة لأهل الكبائر المصيرين عليها فهو غير صحيح؛ لأنه مخالف لقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ﴾ [البقرة: ٤٨] وقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ١٢٣] وهذا في الشفاعة المنجية من شر ذلك اليوم، فالرواية المخالفة لذلك مردودة.

فأما الشفاعة للمؤمنين فهي غير الشفاعة المنفية، لأنها شفاعة في زيادة نعيم إلى نعيم لا لدفع شر ذلك اليوم لأنهم آمنون بإيمانهم، لقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضَّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ﴾ [سبا: ٣٧] وقوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢].

﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مَدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مَخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾ قال الشريفي في (المصابيح): «قال الإمام أحمد بن يحيى - يعني الناصر بن الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين - عليه السلام: وقد جاء في الرواية أنه عني بـ (المدخل الصدق) مكة، يدخلها بالعز والفتح والقوة والقدرة والسلطان والحجة البالغة على جميع من عانده عليه السلام، ﴿وَأَخْرِجْنِي مَخْرَجَ صِدْقٍ﴾ من مكة، يقول: لا ألقى إلا مؤمناً ولا ألقى مشركاً ولا كافراً» انتهى.

وهذا يستقيم إذا كانت الآية مدنية ويناسبه الآية التي بعد هذه، بل وقوله: ﴿وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾ والراجع في السلطان: أنه التسليط على من عاداه، وقد قيل الحجة ولكن الحجة قد جاءت من أول الرسالة وهي القرآن المعجز.

الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٣٤١﴾ وَنُزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٤٢﴾ وَإِذَا أَنْعَمْنَا

﴿٣٤١﴾ ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ ﴿جَاءَ الْحَقُّ﴾ انتصر الحق وغلب دين الله وظهر أمر الله ﴿وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾ انهزم وذل أو اضمحل.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ أي كان كثير الزهوق لا يثبت ويدوم بل عاداته أن يزهد، وهذا تشجيع لأهل الحق ليصبروا عند مقاومة الباطل ويتوقعوا زهوقه.

﴿٣٤٢﴾ ﴿وَنُزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ ﴿وَنُزِّلُ﴾ في الحين بعد الحين ﴿مِنَ الْقُرْآنِ﴾ بعضاً من القرآن ﴿مَا هُوَ شِفَاءٌ﴾ أي كلاماً هو شفاء ورحمة، أو الكلام الذي هو شفاء ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ فالقرآن ينزل مفرقاً وفي كل وقت من أوقات نزوله أو في بعضها ينزل منه ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ﴿شِفَاءٌ﴾ من داء الجهل ومن كل أشكال المرض ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ زيادة هدى وصلاح وتقوى ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ خاصة، فهم الذين يكون لهم شفاء ورحمة، وهذا الوصف لأبعض من القرآن في كل واحد منها شفاء ورحمة، ولعله المحكمات من آياته.

ويحتمل: أن المراد كل بعض منه نزل فهذه صفته، ويشمل المحكم والمتشابه أما المحكم فظاهر، وأما المتشابه فهم يتفعلون به من جهة غير جهة التشابه ﴿يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧٠] فمثلاً قوله تعالى: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ [المدثر: ٣٠] يتفعلون به من حيث يتفكرون أنهم أي التسعة عشر يعدّون أهلها فيكون ذلك من موعظتهم، وإن تشابه عليهم ما هم قبل نزول البيان.

عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَتَنَّى بِجَانِبِهِ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا ﴿١٢٦﴾ قُلْ كُلُّ يَعْمَلْ عَلَى شَاكِلَتِهِ ۖ فَرِيكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا ﴿١٢٧﴾

وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠٠] فيتعظون به من حيث هو تأكيد لكونهم يبايعون الله بمبايعتهم لرسوله ﷺ وهكذا في سائره وفي بعض المتشابهه إذا كان بعضهم لا ينتفع به؛ لأنه لا يفهم المراد بذكره فهو يتتفع به من يفهمه من المؤمنين.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ أما الكفار والمنافقون فقد حقق الله زيادتهم خساراً في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤-١٢٥] وهذا كما تكون النعمة زيادة خير للمؤمنين؛ لأنهم يشكرون وسبباً لزيادة رجس الفجار؛ لأنهم يكفرون النعمة ويبطرون ويظلمون، فالشيء الواحد من الخير يكون خيراً للمؤمن وشرّاً للكافر والمنافق؛ لأنه يجعله سبباً لفساده فهو يفسد من حيث يصلح المؤمن، وفي هذه الآية التي نحن في ذكرها دلالة على ذلك بيّنة والحمد لله.

﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَتَنَّى بِجَانِبِهِ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا﴾ النعمة هنا هي المعهودة عند أكثر الناس فهي العافية والقوة والأمن وزيادة الرزق، أو هي زيادة الرزق وحدها، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٢٧] وأطلق الإنسان هنا لأنه الأغلب، كما قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ﴾ [سبا: ١٣] ولأن أصل الإنسان هكذا، وإنما يصلح من صلح فيخرج عن هذه الطبيعة بالمعرفة

واتباع العقل لأن أصل الإنسان الجهل والغفلة والهلح، وإنما يخرج من الجهل بالنظر والتعلم ويخرج من الغفلة بإجابة داعي العقل إلى التذكر، فلجهله وغفلته يعرض عن ذكر ربه عند النعمة ويشغل بها.

والنأي: البعد وهو تمثيل لزيادة إعراضه وبعده عن الهدى، وجانبه: شقه كأنه مال بشقه عن إقباله إلى ربه ميلاً إلى الإدبار عنه، كأنه استغنى عن ربه ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ﴾ مثل فقر ومرض وخوف ﴿كَانَ يَتُوسَّ﴾ من فرج ربه وإتيانه باليسر بعد العسر، واليأس: ضد الرجا، فلم يلجأ إلى ربه ليكشف عنه العسر، وهذا في غير حالة الإضطرار والخوف من الهلاك كما مر فيمن مسهم الضر في البحر فلأنهم يلجأون إلى الله اضطراراً.

﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا﴾ (لسان العرب): «والشاكلة: الناحية والطريقة والجديلة، ثم قال: وفي التنزيل العزيز: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾ أي على طريقته وجديلته ومذهبه» انتهى المراد. وقال في الجديلة: «والقوم على جديلة أمرهم أي على حالهم الأول، وما زال على جديلة واحدة أي على حال واحدة وطريقة واحدة وفي التنزيل العزيز: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾ قال الفراء: الشاكلة: الناحية والطريقة والجديلة، معناه: على جديلته، أي طريقته وناحيته» انتهى.

وعلى هذا يكون الراجح ﴿عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾ على طريقته التي ألفها وصار يهواها لإلفه لها، وليس ألفها من مفهوم الشاكلة ولكنه لازمه، قال الشرفي في (المصابيح): «قال الإمام أحمد بن يحيى عليه السلام: يقول: كل يعمل على طريقته وما يشتهي» انتهى المراد.

وَسَأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ

فحاصل المعنى: قل يا رسول الله: كل مكلف يعمل على طريقته التي اختارها لنفسه من حق أو باطل ﴿فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا﴾ وهو المُجازي بما عملوا، فهي من التهديد بالنسبة لأهل الباطل، كقوله تعالى: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [نص: ٤٠] وكقوله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا..﴾ الآية [الكهف: ٢٩].

وقوله تعالى: ﴿بِمَنْ هُوَ أَهْدَى﴾ يفيد: إحاطة علمه بالمهتدي وبالأهدي، والأهدي: رسول الله ﷺ، وأمير المؤمنين علي بن أبي طالب، وسائر أهل الكساء، ثم أئمة الهدى (عليهم السلام) أجمعين.

﴿وَسَأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ قال الشرفي في (المصابيح): «قال الإمام أحمد بن يحيى (عليه السلام): والروح عندنا على معنيين:

أحدهما: جبريل (عليه السلام)، وقد قال غيرنا: إنه ملك أعظم من جبريل، ونحن نقول: إنه جبريل (عليه السلام)، لقول الله - عز وجل - : ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٣-١٩٥] والذي كان ينزل عليه بالوحي فهو جبريل (عليه السلام) دون غيره.

والروح الآخر: فهو الروح الذي تقوم به الأبدان، وهو قوله تعالى: ﴿وَسَأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥] ولم يفسره» انتهى.

عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٢١﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٢٢﴾ قُلْ لِّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا

وهذا هو الراجح: أن اليهود سألوا رسول الله ﷺ عن الروح الذي يحيى به الناس وغيرهم من الحيوان ما هو؟ أي سألوه عن حقيقته، فقال تعالى لنبيته ﷺ: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ من شأن ربي، والأمر هنا واحد الأمور وأضافه إلى الله، لأنه هو الذي أنشأه وهو الذي يعلم حقيقته لا نحن.

﴿وَمَا أُوتِيتُمْ﴾ الخطاب إما لأهل الكتاب، وإما عام للناس كلهم، أي ما آتاكم الله ﴿مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ بالنسبة إلى ما لم يؤتكم، وهذا القليل خير كثير نحمد الله على ما آتانا منه فهو نعمة كبرى امتاز بها الإنسان وتفاضل فيها، وفضل على سائر الحيوان، واستطاع بها أن يدخل الجنة وينجو من النار.

﴿وَلِّينَ شِئْنَا لَنذَهِبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾ ﴿وَلِّينَ شِئْنَا﴾ لكن لا نشاء ﴿لَنذَهِبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ من القرآن وغيره لناخذنهن حتى لا يبقى عند أحد منكم لا قليل ولا كثير ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ﴾ أي بما أوحينا إليك أي بالمطالبة به واسترجاعه ﴿عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾ تكل إليه هذا المهمة فيقوم بها ويسترجع لك ما فات لوشئنا ذلك.

﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾ لكن رحمة من ربك حفظه لك ولم يذهب به ولن يذهب به ﴿إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾ إن فضله عليك بما أوحى إليك وبحفظه لك وبكل أنعمه عليك كان عليك كبيراً فضلاً كبيراً وإنعاماً عظيماً.

الْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْءَانِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا

﴿قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَيَّ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ هذا يبين عجز الناس عن أن يأتوا بمثل هذا القرآن، وأنهم لو اجتمعوا هم والجن ليأتوا بمثله ما أتوا بمثله ﴿وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ ولو تعاونوا على محاولة ذلك.

قال في (الكشاف): «﴿لَا يَأْتُونَ﴾ جوابُ قسم محذوف، ولولا (اللام) الموطئة لجاز أن يكون جواباً للشرط، كقوله: يقول لا غائب مالي ولا حَرَمُ

لأن الشرط وقع ماضياً» انتهى المراد.

وهو يعني: أن (اللام) في قوله تعالى: ﴿لِّئِنْ﴾ هي اللام الموطئة للقسم الدالة على إرادته، وقوله: لجاز أن يكون جواباً للشرط: الشرط (إن) وقوله: ﴿أَجْتَمَعَتِ﴾ فعل الشرط، وقوله تعالى: ﴿لَا يَأْتُونَ﴾ دليل جواب الشرط، ولولا (اللام) في قوله تعالى: ﴿لِّئِنْ﴾ التي لأجلها كان ﴿لَا يَأْتُونَ﴾ جواباً للقسم المحذوف، لجاز أن يكون جواباً للشرط وإن كان ﴿لَا يَأْتُونَ﴾ مرفوعاً، لأن فعل الشرط الذي هو ﴿أَجْتَمَعَتِ﴾ وَقَعَ فعلاً ماضياً، وإذا كان فعلاً ماضياً جاز رفع جواب الشرط، كقول الشاعر:

وإن أتاه خليل يوم مَسْغَبَةٍ يقول لا غائب مالي ولا حرم

والظهير: إما العون فهو صفة مشبهة، وإما المظهر أي المعاون، فلو ﴿أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَيَّ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْءَانِ﴾ لما أتوا بمثله، سواء تعاونوا أم لم يتعاونوا، وحاول كل فرد أن يأتي بمثله؛ لأنه في حكمته وإحكامه فوق ماتطيقه الإنس والجن.

﴿٨١﴾ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ﴿٨٢﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّحِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٨٣﴾ أَوْ

﴿٨٤﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٥﴾ ﴿صَرَّفْنَا﴾ مثل تصريف الرياح فهو جعل ما في آيات القرآن من الحكمة أنواعاً وأصنافاً ينتقل الفكر فيها من نوع إلى نوع مثل من وعد إلى وعيد إلى عبر الأولين إلى برهان إلى تعليم لطرق النجاة وهداية لأسبابها إلى تعليم لبعض التكاليف الشرعية، من النظر، والتفكير، والإسلام، والإيمان، وإقامة الصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، وأحكام في النكاح في الطلاق، وحلال وحرام في المعاملات، وغيرها أصنافاً بديعة فائقة في أحكامها وتفصيلها، فكانت جارية مجرى الأمثال، وسميت أمثالاً فما كان ينبغي لعاقل أن يتردد في الإيمان به واتباعه؛ لأنه هدى ونور وحكمة ﴿فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ امتنعوا أشد الامتناع من أن يؤمنوا به، ولم يرضوا إلا بأن يكفروا به.

﴿٨٦﴾ ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾ ﴿وَقَالُوا﴾ أي الذين أبوا إلا كفوراً، ولعل القائل بعضهم ورضي الآخرون، والله أعلم. ﴿لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ﴾ لن نصدقك ونقبل منك دعواك أنك رسول من الله بهذا القرآن ﴿حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا﴾ تخرج لنا ﴿مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾ ماء نابعا من العيون أو من عين واحدة، ولعل هذا قول كفار مكة ومن حولها.

﴿٨٧﴾ ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّحِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا﴾ ﴿أَوْ تَكُونَ﴾ عطف على قولهم: ﴿حَتَّىٰ تَفْجُرَ﴾ ومعنى ﴿خِلَالَهَا﴾ بينها متخللات لها، وهذا من تعنتهم وتعظيمهم لمطالب النفس الدنيوية، وقوله: ﴿تَفْجِيرًا﴾ تحقيق للشرط الذي تعنتوا به.

تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٣٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرَفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُؤْمِنَ بِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرُؤُهُ ۚ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴿٣٣﴾ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ

﴿٣٢﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٣٣﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ ﴿٣٣﴾ عَلَيْنَا تَعْجِيلًا لِعَقوبتنا ﴿٣٣﴾ كَمَا زَعَمْتَ ﴿٣٣﴾ لعلهم أرادوا قوله تعالى في (سورة سبأ): ﴿إِنْ نَشَأْ نُخَسِّفُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطُ عَلَيْهِم كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [سبأ: ٩] وقوله: ﴿كِسْفًا﴾ أي قطعاً، قال الراغب: «والكسفة: قطعة من السحاب والقطن، ونحو ذلك من الأجسام المتخلخلة الحائلة» انتهى، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «﴿كِسْفًا﴾ معناه: قطع» انتهى.

وقوله: ﴿أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا﴾ تأتي بهم إلينا حال كونهم قبيلًا أي مقابلين لنا نعينهم أماناً، مثل: ﴿لَوْلَا أَنْزَلْ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةَ أَوْ تَرَىٰ رَبَّنَا﴾ [الفرقان: ٢١].

﴿٣٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرَفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُؤْمِنَ بِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرُؤُهُ ۚ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴿٣٣﴾
الراجع: أن الزخرف هنا: هو الذهب؛ لأن الزينة جارية مجرى الصفة، فيبعد أن يقال: بيت من زينة، قال الراغب: «الزخرف: الزينة، ومنه قيل للذهب: زخرف» وفي (الصحيح): «الزخرف: الذهب، ثم يشبه به كل مُمَوِّه مَزُور والمزخرف المزين» انتهى.

قال الشرفي في (المصاييح): «قال مجاهد: كنا لا ندري ما الزخرف حتى رأينا في قراءة عبد الله ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن ذهب﴾» انتهى المراد.

بَشَرًا رَسُولًا ﴿١٦﴾ قُلْ لَوْ كَانَتْ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ﴿١٧﴾ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا

وقوله: ﴿أَوْ تَرَقَّى﴾ أي تصعد وتطلع ﴿فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ﴾ أي لطلوعك في السماء ﴿حَتَّى تَنْزَلَ﴾ منها ﴿عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ﴾ لأنه مخطوط في رق ﴿قُلْ﴾ يا رسول الله ﴿سُبْحَانَ رَبِّي﴾ تنزيهاً له وتبعيداً عما تقولون ﴿هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا﴾؟ فلا أقدر على ما تطلبون من المعجزات، إنما أقدر على ما يقدر عليه البشر وهل كنت إلا ﴿رَسُولًا﴾ ليس لي من الأمر ما شئت، وإنما أبلغ رسالات ربي.

﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ﴾ من ﴿أَنْ يُؤْمِنُوا﴾ عدم الآيات الدالة على صدق الرسول فلم يقترحوا تلك الخوارق لعدم الآيات إنما لم يؤمنوا وتعتوا لأنهم ﴿قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ أي لأنهم أنكروا ذلك وقالوا كيف يكون الرسول بشراً، أي أن ذلك غير معقول، والحصص والقصر هنا إضافي أي بالإضافة إلى آيات صدق الرسول ﷺ لأن من الموانع حب الرئاسة الدنيوية وحب الدنيا والحسد والكبر والتعصب للأباء ولدين الآباء ونحو ذلك، فلهذا قلت إن الحصص إضافي كما حققته وقد مرَّ الجواب عليهم في (سورة الأنعام) في [آية ٨ وآية ٩].

﴿قُلْ لَوْ كَانَتْ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾ قال الشريفي في (المصابيح): «﴿يَمْشُونَ﴾ على أقدامهم ﴿مُطْمَئِنِّينَ﴾ أي قارئين في الأرض كالإنس لا يطفرون بأجنحة إلى السماء فيعلموا ما يجب علمه ﴿لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾ يهديهم إلى الرشده؛ لأن من حق رسول الأمة أن يكون من جنسهم؛ لأنهم به آنس» انتهى المراد.

بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ^{١٦} إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا^{١٧} وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ^{١٨} وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمِيًّا وَنُكَمَا وَصُمًّا^{١٩} مَاؤُنْهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا^{٢٠} ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا

وقوله: فيعملوا ما يجب علمه، لعل الأصل: فيعلموا أي من السماء إذا طاروا إليها يعلموا هناك ما يجب علمه، فيغنيهم ذلك عن إرسال رسول إليهم إلى الأرض لو كانوا يطيطرون إلى السماء.

﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ^{١٦} إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا^{١٧}﴾ ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ فهو يعلم أنني قد بلغتكم وأقمت عليكم الحجة كما أمرني، والشهيد هو الحاكم بيني وبينكم يحكم بيننا يوم القيامة بالحق ﴿إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا﴾ عليماً بخبره كل واحد منهم ﴿بَصِيرًا﴾ بهم في الدنيا والآخرة، فهو يقضي فيهم بالحق والصواب ولا يعي عن شيء من ذلك.

﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ^{١٨} وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمِيًّا وَنُكَمَا وَصُمًّا^{١٩} مَاؤُنْهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا^{٢٠}﴾ أي قد تبين الحق بالآيات البينات فما بقي بعد ذلك إلا أن يختار لنفسه الإنسان طريق الهدى أو طريق الضلالة فمن اختار الهدى هداه الله، أو من كانت نيته اتباع الحق والصواب هداه الله، ومن عاند الحق وجادل فيه أضله الله بتركه للشياطين فأضلوه، وحينئذ ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾ للحق والصواب المؤمن بما جاء به الرسول ﷺ وبإيمانه يزيده الله هدى.

وَرَفَعْنَا أَعْيُنًا لَّمْ يَبْصُرُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿١٨﴾ * أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ

﴿وَمَنْ يُضِلِلْ﴾ يتولاه الشيطان ﴿فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ يهدونهم من دون
الله؛ لأنه فاتهم هدى الله ولا بديل له ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ ضللاً كما
كانوا في الدنيا ضللاً، فنحشرهم ﴿عَمِيًّا﴾ عن الحق ﴿بُكْمًا﴾ عن الإيمان
به الإيمان الاختياري ﴿صُمًّا﴾ عن قبول الحق اختياراً ﴿مَأْوَلُهُمْ جَهَنَّمُ﴾
مصيرهم الذي يأوون إليه ويرجعون جهنم ﴿كُلَّمَا حَبَتْ﴾ خمد وقودها
﴿زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ فعذابهم مستمر دائم.

حكى الشرفي في (المصاييح): «عن القاسم بن ابراهيم عليه السلام أنه قال: تأويل
قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ فهو على صورهم التي فارقوا الدنيا عليها
وهيئاتهم يحشرون وعلى ما كانوا عليه في الدنيا من الهدى والضلال يعيشون،
وليس تأويل ﴿عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ ما يذهب إليه أهل الجهالات من تبديل الله يوم
القيامة للخلق والهيئات التي كانوا عليها في الدنيا بدياً، انتهى المراد.

وقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا حَبَتْ زِدْنَاهُمْ﴾ محمول على سرعة الزيادة بحيث
لا يتخلل فتور حرها؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿لَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٧٥]
وقال: ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ﴾ [البقرة: ٨٦] ومع سرعة تجديد النار تكون كأنها لم
تخب، كما تجدد نار السيارة مع احتراق وقودها كلما احترق بطل، فهي
مستمرة لاستمرار إمدادها بالوقود فكذلك نار جهنم.

﴿ذَلِكَ جَزَاءُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرَفْنًا
أَعْيُنًا لَّمْ يَبْصُرُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ ﴿ذَلِكَ﴾ حشرهم على الحالة التي ذكرها
ولإيوائهم إلى جهنم في عذاب مستمر ﴿جَزَاءُهُمْ﴾ بأنهم كفروا بآيات الله

فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٣٣﴾ قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا ﴿٣٤﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ

الدالة على قدرته تعالى وعلمه وآياته الدالة على صدق رسوله ﷺ أو بآياتنا الدالة على صدق الرسول ﷺ وجحدوا قدرة الله تعالى على بعثهم خلقاً جديداً، وكذبوا الرسول في إنذاره لهم عذاب الآخرة، وجعلوا إنذاره بالآخرة وسيلة لتكذيبه في دعوى الرسالة.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾ هذا يبطل جدالهم في بعثهم خلقاً جديداً ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ على عظم خلقها وبعد مساحتها وتجهيز الأرض للإنسان ليعيش فيها ألم يعلموا أن الذي خلقها ﴿قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ﴾ أشخاصاً ﴿مِثْلَهُمْ﴾.

وهذا الاستدلال يشبه قوله تعالى: ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا...﴾ إلى قوله: ﴿...مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَعْلَامِكُمْ﴾ [النازعات: ٢٧-٣٣] وقوله تعالى: ﴿مِثْلَهُمْ﴾ يشير إلى صغر أجسامهم بالنظر إلى السموات والأرض، أي قادر على أن يخلق من كان في حجمه أصغر من السموات والأرض بكثير، فقوله تعالى: ﴿مِثْلَهُمْ﴾ كناية عنهم كقولهم: مثلك لا يبخل - والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ فهم يعلمون أن حياتهم الدنيا مؤقتة تنتهي لأجل لا ريب فيه، فلولا أن الله يعيدهم لكان الخلق الأول عبثاً؛ لأن الأمم تحيى ثم تموت أمة بعد أمة ولا توجد أمة لتبقى بل كلها تحيى لأجل لا ريب فيه، والله أحكم الحاكمين فلا بد من البعث والجزاء الذي به تظهر الحكمة.

تَسْعَ ءَايَاتٍ بَيَّنَّتْ فَسَّئِلَ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يُمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ

وقوله تعالى: ﴿فَأَبَىٰ الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾ أي جحداً بالبعث مع وضوح دليله ودليل قدرة الله تعالى عليه وذلك الكفور؛ لأنهم ظالمون لا يخرجون من الباطل وجحود الحق.

﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ ۚ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾ ﴿قُلْ﴾ هذه الرسالة رحمة من ربي الذي هو رب العالمين أرسلني رحمة لي ولهم؛ لأن بيده الخير ومنه الخير لا منكم، فأنتم في تحكمكم واشتراطكم لإيمانكم بي تلك الشروط لا تبطلون رحمة ربي؛ لأن رحمة ربي لا تملكون خزائنها الواسعة، وأنتم لو تملكونها ﴿لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ﴾ أن تنفذ ولا يبقى لكم منها شيء، وهذا لأن الشح قد سيطر على أنفسكم - والله أعلم.

﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): معناه: مقتر انتهى، ولعل ﴿قَتُورًا﴾ فيه دلالة على كثرة التقدير أي تضيق وإقلال النفقة؛ لأن فعولاً من أمثلة المبالغة مثل ضرُوب. ووصف الإنسان بالإقتار إما باعتبار الأكثر والغالب، وإما باعتبار الأصل في طبيعة الإنسان، لقوله تعالى: ﴿وَأُخْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ﴾ [النساء: ١٢٨] فالسخي إنما يطبع على قليل من السخاء لا يخرج عن الإقتار، ولكنه لميله إلى السخاء أو إلى الشرف يربي غريزة السخاء حتى تغلب غريزة الشح، وهذا نظير وصفه بالهلع ثم استثناء أهل الصفات التي لا يجمعها إلا المؤمن الذي يتخلص من الهلع بقوة إيمانه.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَاتٍ بَيَّنَّتْ فَسَّئِلَ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يُمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ فالتمرد على الرسول

محمد ﷺ غير عجيب، والتعنت من الكفار هو شأنهم، فقد أرسل الله موسى عليه السلام في ﴿تَسَعَ آيَاتٍ﴾ لعلها:

الأولى: سلطانه وهيئته العجيبة التي صرفت فرعون عن قتله وقتل أخيه، مع أنه جبار عنيد لا يتحرج من قتل نفس كيف وقد كان يذبح أبناءهم، وقد أشار موسى إلى هذه الآية بقوله: ﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُون﴾ [الدخان: ٢٠] ودل عليها قول الله تعالى: ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمْ سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمْ﴾ [القصص: ٣٥].

الثانية: ضمه إليه جناحه من الرهب فيذهب الرهب ولا يخاف سطوة فرعون، ويحتمل أنها من الأولى هيئته وأمنه وحفظه هو السلطان.

الثالثة: تحول العصى حين قال له فرعون: ﴿إِنْ كُنْتَ حِقَّتْ بِآيَةٍ فَاتِّبِعْهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ * فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ [الأعراف: ١٠٦-١٠٧].

الرابعة: نزعه ليده من جيبه فإذا هي بيضاء من غير سوء.

الخامسة: الطوفان.

السادسة: الجراد.

السابعة: القمل.

الثامنة: الضفادع.

والدم هو التاسعة، وقد مر تفسير هذه في تفسير (سورة الأعراف).

وتلقف عصى موسى لسحر السحرة آية، ولعل تلقف العصى لسحرهم هو التاسعة، والأولى هي السلطان المستلزم لحفظه وأمنه.

وقد فرق القرآن بين هذه الآية وبين انقلاب العصى ثعباناً، تأمل الآيتين في (سورة الشعراء) [آية ٣٢، وآية ٤٥] ففي العصى آيتان: آية انقلابها ثعباناً، وآية تلقفها لسحر السحرة، بحيث انكشف للناظرين جباهم وعصيتهم، وإنما ينشأ الغلط في حساب التسع من جعل آيتي العصى واحدة.

اَلْسَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ بِصَآئِرٍ وَّاِنِّىْ لَاطْنُكَ يَفْرِعَوْنُ مَثْبُوْرًا ﴿١٦﴾ فَاَرَادَ اَنْ يَّسْتَفِزَّهُمْ مِّنَ الْاَرْضِ فَاَغْرَقْنٰهُ وَمَنْ مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٧﴾ وَقُلْنَا مِّنْ بَعْدِهٖ لِبَنِيّ

وعلى هذا: فلا موجب لجعل فرق البحر آية من التسع، فقد كان فرقه عند هلاك فرعون وقومه، ولو كان من التسع لأمهلوا بعده كما هي العادة أن لا تقترن آية الرسول وهلاك قومه، وكذلك نتق الجبل فهو كان بعد هلاك فرعون وقومه وكان هو وقلق البحر آيتين لبني إسرائيل.

وقوله تعالى: ﴿فَسَعَلَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ معناه أن هذا معلوم عند بني إسرائيل، وقوله تعالى: ﴿إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ﴾ أي اذكر إذ جاء بني إسرائيل وهم تحت سطوة فرعون فقال له فرعون عناداً وكفراً بالآيات البينات ﴿إِنِّىْ لَاطْنُكَ يَمْوَسَىٰ مَسْحُوْرًا﴾ وقد ناقض الكافر حيث قال مرة مسحوراً ومرة: ﴿إِنَّهُ لَكَيْبُرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السُّحْرَ﴾ [طه: ٧١].

﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ بِصَآئِرٍ وَّاِنِّىْ لَاطْنُكَ يَفْرِعَوْنُ مَثْبُوْرًا﴾ ﴿مَا أَنْزَلَ هَٰؤُلَاءِ﴾ الآيات ﴿إِلَّا رَبُّ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ﴾ الذي خلقهن القادر على ما يعجز عنه العباد المالك للسموات والأرض ما أنزل هذه الآيات إلا هو ﴿بَصَآئِرٍ﴾ أي آيات بينات يبصر بها أهل العقول الحق ويعلموا أنني صادق فكأنه قال ما أنزلها إلا الله بصائر، فقلوه: ﴿بَصَآئِرٍ﴾ من جملة المستثنى بإلا ما أنزلها لعباً كما يكون من السحرة من السحر لعباً وباطلاً.

وقوله: ﴿وَأِنِّىْ لَاطْنُكَ يَفْرِعَوْنُ مَثْبُوْرًا﴾ مهلكاً لأنك تمردت على الله وكذبت بآياته وجادلت فيها بالباطل، فلذلك أنت مظنة أن تصير في عذاب جهنم في الويل والثبور؛ لأنه مصير المخذول الذي لا يتوب قبل نزول العذاب.

إِسْرَءِيلَ اَسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٤﴾
وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ ﴿١٥﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٦﴾ وَقُرْءَا أَنَا

﴿١٧﴾ فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا ﴿١٨﴾
يَسْتَفِزَّهُمْ ﴿١٩﴾ يزعجهم ليخرجهم من الأرض ﴿٢٠﴾ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا ﴿٢١﴾
مجتمعين، فهذه عبرة للكفار بمحمد ﷺ وبآياته المتعنتين عليه.

﴿٢٢﴾ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَءِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ
جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿٢٣﴾ مِنْ بَعْدِهِ ﴿٢٤﴾ من بعد فرعون، أي من بعد هلاكه مكنا
لبنى إسرائيل في الأرض أولاً حيث صاروا بعد فرارهم من فرعون ثم في
مصر وغيره ﴿٢٥﴾ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ ﴿٢٦﴾ ما وعد الله به من أمور الآخرة التي
عند البعث ﴿٢٧﴾ جِئْنَا بِكُمْ ﴿٢٨﴾ إلى موقف العرض على الله - عز وجل - والسؤال
والحساب ﴿٢٩﴾ لَفِيفًا ﴿٣٠﴾ جَمْعًا مُخْتَلَفًا، مثل: مؤمن وكافر، وعزيز وذليل، وغني
وفقر، وأمير ومأمور، وتابع ومتبوع، فتمكين بني إسرائيل في الأرض اختبار
لهم وتقدمة ليوم الحساب، كقول موسى: ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ
وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ [الأعراف: ١٢٩].

﴿٣٣﴾ وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ ﴿٣٤﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٣٥﴾ وَبِالْحَقِّ
أنزلنا هذا القرآن؛ لأن إنزاله حق وصواب اقتضته حكمة الله رحمة للعالمين
وهدى للناس، وإنذاراً لبأس شديد يكون منه للظالمين وتبشيراً للمؤمنين لئلا
يكون للناس على الله حجة بعد الرسل، وقد كانت العرب قبله في ضلال ميين.

وقوله تعالى: ﴿٣٦﴾ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ ﴿٣٧﴾ أي معانيه حق وصواب، كما قال تعالى:
﴿٣٨﴾ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴿٣٩﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا
وَنَذِيرًا ﴿٤٠﴾ تبشر المتقين وتنذر الظالمين لست عليهم بمسيطر وليس عليك أن
يهتدوا.

فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٨﴾

﴿١٦﴾ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا ﴿١٧﴾ ﴿فَرَقْنَاهُ﴾ بَيْنَاهُ بِتَفْصِيلٍ مَعَانِيهِ ﴿لِتَقْرَأَهُ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿عَلَى النَّاسِ﴾ مِنْ حَضَرٍ لَدَيْكَ مِنْ أُمَّةٍ كَانُوا ﴿عَلَى مُكْثٍ﴾ عَلَى تَأْنٍ فِي التَّلَاوَةِ وَتَرْتِيلٍ وَتَفْصِيلٍ، لِتُبَيِّنَهُ لِلْسَامِعِينَ ﴿وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾ مَفْرَقًا فِي أَوْقَاتٍ مُتَفَرِّقَةٍ ﴿تَنْزِيلًا﴾ مِنْ اللَّهِ إِلَيْكَ.

﴿١٧﴾ قُلْ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٨﴾ قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لِقَوْمِكَ الَّذِينَ تَعْتَوْنَ فِي شُرُوطِهِمْ لِيُؤْمِنُوا ﴿ءَامِنُوا﴾ بِهَذَا الْقُرْآنِ ﴿أَوْ لَا تُؤْمِنُوا﴾ فَإِنَّهُ الْحَقُّ الْوَاضِحُ الَّذِي آمَنَ بِهِ أَهْلُ الْعِلْمِ فَلَا تَضُرُّونَ بِتَرْكِ الْإِيمَانِ إِلَّا أَنْفُسَكُمْ، وَهَذَا تَحْقِيرٌ لِلْكَفَّارِ مِنْ قَرِيشٍ وَمِنْ حَوْلِهِمْ، وَدَلَالَةٌ عَلَى أَنَّهُ لَا يَعْتَدُ بِإِيمَانِهِمْ أَوْ كُفْرِهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ إِنَّمَا هُمْ جُهَالٌ مُعَانِدُونَ فَسَوَاءٌ آمَنُوا أَمْ لَمْ يُؤْمِنُوا لَا يَضُرُّونَ اللَّهَ وَلَا يَبْطُلُونَ كِتَابَهُ بِكُفْرِهِمْ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ أَيَّ آتَاهُمُ اللَّهُ الْعِلْمَ فِي قُلُوبِهِمْ ﴿مِنْ قَبْلِهِ﴾ مِنْ قَبْلِ أَنْزَالِ هَذَا الْقُرْآنِ، وَعَرَفُوا أَنَّ مُحَمَّدًا هُوَ الرَّسُولُ الْمُبَشِّرُ بِهِ مِنْ قَبْلِ، وَأَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ هُوَ مِنَ اللَّهِ أَنْزَلَهُ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ ﴿إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾ الْقُرْآنَ ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ اللَّهُ لَيُظْهِرُ هَذِهِ الْآيَةَ الْعَظِيمَةَ وَتُبَيِّنُ صِدْقَ وَعْدِ اللَّهِ بِهِ.

وقوله تعالى: ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ أَيَّ يَتَسَاقَطُونَ عَلَى أَذْقَانِهِمْ، وَالْأَذْقَانِ مَجْمَعُ اللَّحْيَيْنِ أَسْفَلَ الْوَجْهِ.

وَيَحْزِرُونَ لِلْأَذْقَانِ يَنْكُوبَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٨﴾ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا

وقوله تعالى: ﴿سُجَّدًا﴾ لعله بمعنى: خاشعين لله متذللين، كقوله تعالى: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ [البقرة: ٥٨] وقوله: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ﴾ [النحل: ٤٩] إلا أن سجود هؤلاء العلماء سجود إيمان وتذلل اختياري، وعلى هذا فلا إشكال في ذكر السجود على الذقن، فلو كان من دينهم السجود على الذقن صح حملة على السجود المعهود ولكن لم أجد ذلك فيما عندي من التفسير.

﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ أي الذين أوتوا العلم يسبحون الله ويتزهونه عن أن يخلف وعده حينما شاهدوا الرسول الموعد به وسمعوا القرآن الدال عليه.

﴿وَيَحْزِرُونَ لِلْأَذْقَانِ يَنْكُوبَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ ﴿يَنْكُوبَ﴾ جملة حالية، يخشعون للأذقان في حال بكائهم ﴿وَيَزِيدُهُمْ﴾ القرآن ﴿خُشُوعًا﴾ ذلة، وهذا من خشية الله والتأثر بآيات القرآن، ويعجبني هنا تعبير سيد قطب حيث قال: «وهو مشهد موحٍ يلمس الوجدان مشهد الذين أوتوا العلم من قبله وهم يسمعون القرآن فيخشعون، ويخرون للأذقان سجداً.. إنهم لا يتمالكون أنفسهم فهم لا يسجدون ولكن يخرون للأذقان سجداً ثم تنطق ألسنتهم بما خالج مشاعرهم من إحساس بعظمة الله وصدق وعده سبحانه ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا، ويغلبهم التأثر فلا تكفي الألفاظ في تصوير ما يعيش في صدورهم، فإذا الدموع تنطلق معبرة عن ذلك التأثر..»

تُخَافَتْ بِهَا وَابْتِغَ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١١﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ وَكِبَرُهُ تَكْبِيرًا ﴿١٢﴾

إلى قوله.. إنه مشهود مصور لحالة شعورية غامرة يرسم تأثير هذا القرآن في القلوب المفتوحة لاستقبال فيضه العارفة بطبيعته وقيمه بسبب ما أوتيت من العلم قبله، والعلم المقصود هو ما أنزله الله من الكتاب قبل القرآن فالعلم الحق هو ما جاء من عند الله» انتهى.

﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾.

﴿قُلِ﴾ يا رسول الله ﴿ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ﴾ أي سواء هذا الدعاء وهذا الدعاء؛ لأن الرحمن هو الله الأحد ﴿أَيًّا مَا﴾ أي الدعائين ﴿تَدْعُوا فَلَهُ﴾ أي فله وحده ﴿الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ هذان الإسمان وأسماء حسنى غيرهما والمسمى بها واحد ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ بقراءتك في الصلاة أي لا ترفع الصوت بها رفعا زائدا، والجهر: هو رفع الصوت قال الشاعر:

وداع دعيا من يجيب إلى النداء فلم يستجبه عند ذاك مجيب

فقلت ادع أخرى وارفع الصوت جهرة لعل أهب المغوار منك قريب

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ أي لا تخفها بحيث لا يسمع المصلون معك ﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ بين الجهر والمخافتة ﴿سَبِيلًا﴾ طريقاً وسطاً.

قال الشرفي في (المصابيح): «وقال الإمام أحمد بن يحيى - يعني بن الهادي عليه السلام - والسبيل: فهو الأوسط من الأمر الذي لا يعلى صوته ولا يسر، يكون بين ذلك وسطاً حسناً لا رفعا شديداً ولا خفضاً غامضاً، مثل قوله في

(سورة الأعراف): ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنْ الْقَوْلِ﴾ [آية: ٢٠٥] وأمره له [بالذكر الخفي وأمره في (سورة بني إسرائيل) بأن يتوسط بالصلاة بين الأمرين كما وصفنا] انتهى، وأما الهادي عليه السلام فجعلها صالحة لهذا المعنى وللإسرار في بعض الصلوات والجهر في بعضها، وكأنه حملها على المعنيين.

﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ وَكَبَرَهُ تَكْبِيرًا﴾ ﴿وَقُلْ عَظْفٌ عَلَى﴾ ﴿وَلَا تَجْهَرْ﴾ يظهر به أن هذه الآية لها علاقة بالصلاة فيحمل قوله تعالى: ﴿وَكَبَرَهُ﴾ على التكبير الواجب الذي هو أول الصلاة، وما تقدم قبله استعداد للصلاة.

وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ أي أن الملك لله وحده، فالحكم له وحده ومن ملكه - بتشديد اللام - فهو ملك للعبد لا يخرج به عن العبودية لله فلا مشاركة له في ملك الله؛ لأن العبد إنما يكون له ملك نسبي، والملك المطلق لله وحده، وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ﴾ أي أنه القاهر فوق عباده الغني عن الولي. وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «معناه: لم يكن له حليف ولا ناصر» انتهى.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وآله وسلم



التَّيْسِيرُ فِي التَّفْسِيرِ



سُورَةُ التَّحْفِ



سُورَةُ الْكَهْفِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ۖ قِيمًا
لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِمَّنْ لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ

تفسير (سورة الكهف)

حكى الشرفي في (المصاييح): «عن ابن عباس: أنها مكية إلا آيتين

وعن قتادة: أنها مكية» انتهى.

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ
أي القرآن، حكى الشرفي في (المصاييح): «عن المرتضى بن الهادي عليه السلام أنه
قال: معنى ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ فهو الحمد والثناء على الله بما أوى، ومعنى ﴿الَّذِي
أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ وعبده فهو محمد ﷺ والكتاب [فهو] الذي فيه
النور والشفاء والحق والهدى وجميع ما يحتاج إليه من حلال وحرام ونازلة
من نوازل الأيام» انتهى.

فله الحمد يستحقه لنعمته علينا بهذا الكتاب، فالكلام مسوق لبيان أن
الكتاب هذا نعمة من الله بذكر استحقاقه للحمد عليه ولذلك فعلينا أن
نستمعه ونتفهم معانيه ونتمسك به.

﴿وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾ فسروه: بأنه تعالى لم يجعل في القرآن عوجاً، وهو
مشكل؛ لأن التعبير فيما أرى لو أريد ذلك: لم يجعل فيه عوجاً كقوله تعالى:
﴿لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا﴾ [طه: ١٠٧].

فأما بـ(اللام) فقد استعمل في قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ
لَهُ﴾ [طه: ١٠٨] وليس معناه: نفي العوج عن الداعي بل عن المدعويين.

الصَّلِحَتِ أَنْ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ

وأيضاً لو كان المراد أنه لم يجعل فيه عوجاً لكان قوله تعالى: ﴿قِيَمًا﴾ كافياً إذا كان معنى ﴿قِيَمًا﴾ سليماً من العوج كما هو الراجح، فالراجح في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾ أنه تعالى لم يجعل له عوجاً في إنزاله بل أنزله بإرسال جبريل الأمين الذي بلغه كما هو من دون زيادة ولا نقصان ولا تبديل ولا تحريف ولو أنزله بإرسال الشياطين إلى الكهنة لكان في تبليغه تغيير منهم بسبب إنزاله بواسطتهم، فهو كقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ [الكهف: ٥١] والله أعلم.

﴿٢﴾ ﴿قِيَمًا لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ أنزل على عبده الكتاب ﴿قِيَمًا﴾ سليماً من العوج: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

حكى الشرفي في (المصابيح): «عن المرتضى عليه السلام: معنى ﴿قِيَمًا﴾ فهو الثابت المصيب الذي لا يأتیه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وكل ما فيه نور وحجة ولمن عقله أكبر الدلالة قيم جميع أحواله قاهر لمن ناظره...» إلخ.

﴿لِيُنذِرَ﴾ أنزله على عبده لينذر كل من لم يؤمن ويعمل الصالحات ﴿بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ﴾ فقوله تعالى: ﴿بَأْسًا شَدِيدًا﴾ أي شراً عظيماً وعذاباً أليماً يبين أهمية الإنذار ليحذر البأس من أراد السلامة وليكون الإنذار حجة على من أبى ﴿لِّئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾

كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ^٤ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾ فَلَعَلَّكَ بِنِخَعِ
نَفْسِكَ عَلَىٰ آثَرِهِمْ^٥ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا

وقوله تعالى: ﴿مَنْ لَدُنْهُ﴾ أي من عنده أي هو الذي يعذب المنذرين إذا أبوا وأصروا، وهذا بيان أهمية أن ينذرهم؛ لأن حكمته تقتضي أن لا يعذب قبل أن ينذر بخلاف البأس الذي ليس من لدنه فلا يجب أن ينذر الناس قبل وقوعه على كل حال، بل قد تقتضي الحكمة تسليط بعض الناس على بعض وترك المسلط عليهم غافلين عما يهجم عليهم بعينه وفي وقته وإن كان ينذرهم التسليط منه عقوبة على المعاصي في الجملة.

وقوله تعالى: ﴿أَجْرًا حَسَنًا﴾ هو الجنة وما فيها من الدرجات والنعيم بدليل ما بعد هذه.

﴿مَكِينٍ فِيهِ أَبَدًا﴾ باقين فيه أبداً لا يخرجون منه ولا يفارقونه ولا يموتون.

﴿وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ هذا إنذار خاص بهم لأجل شركهم، واتخاذ الولد غير الولادة، ولعلهم اليهود؛ لأجل قولهم: ﴿عُزَيْرُ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠] وبعض النصارى في عيسى صلوات الله عليه لا جاهلية قريش، فقد قال الله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إَفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ * وَلَدَ اللَّهُ﴾ [الصافات: ١٥١-١٥٢] ولعله قولهم في الملائكة.

﴿مَا هُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبِرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ^٤ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ ﴿مَا هُمْ بِهِ﴾ أي بقولهم: ﴿مِنْ عِلْمٍ﴾ فقد قالوا على الله ما لا يعلمون ﴿وَلَا لِآبَائِهِمْ﴾ الذين قلدهم الأبناء فهم لا يعلمون ذلك الباطل، بل هو قول عظيم.

وقوله تعالى ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً﴾ أي هذه الكلمة التي هي قولهم: ﴿اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ قال الشرفي في (المصابيح): «وفيه معنى التعجب كأنه قيل: ما أكبرها كلمة إعظاماً لتجاسرهم على النطق بها...» إلخ.

وقوله تعالى: ﴿تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ تشنيع وتقبيح للكلمة وتسجيل عليهم بخروجها من أفواههم وتحملهم مسؤوليتها وعارها بذلك، وقوله تعالى: ﴿إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ أي ما يقولون إلا كذباً؛ لأن الله جل جلاله ما اتخذ صاحبة ولا ولداً سبحانه هو الغني وكفى في بطلان قولهم أن الله قال فيه: ﴿إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ مع أن الدعوى يبطلها عدم الدليل عليها وكون المدعي لم يقلها إلا جزافاً بغير علم.

﴿٦﴾ ﴿فَلَعَلَّكَ بَنِيعٌ نَفْسَكَ عَلَىٰ ءَاثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ ﴿بَنِيعٌ نَفْسَكَ﴾ مهلك نفسك، قال في (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «معناه: قاتل نفسك ومهلكها، وقوله تعالى ﴿بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ معناه: ندم» انتهى.

وهذا إما تشبيه له ﷺ في فرط أسفه بمن يخشى عليه إهلاك نفسه بالأسف عليهم، ونظيره في التشبيه قوله تعالى: ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنشُورًا﴾ [الإنسان: ١٩] أو هو للمخاطب كأنه قيل: يتوقع أن تبخع نفسك، كقوله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه: ٤٤] وهذا أقرب وأظهر.

وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ ءَاثَرِهِمْ﴾ أي آثار أقدامهم في الأرض حين مشوا متولين عنك، وقوله تعالى: ﴿إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا﴾ شرط دليل جوابه قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَنِيعٌ نَفْسَكَ عَلَىٰ ءَاثَرِهِمْ﴾ أي إن لم يؤمنوا يتوقع أن تقتل نفسك على آثارهم أسفاً أو لعلك إن لم يؤمنوا تبخع نفسك وهذا أرجح.

عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ ءَايَتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا ءَاتِنَا مِنْ لَدُنْكَ

وهذا الأسف إما لحبه لله ورغبته في ظهور دينه وذهاب الشرك فهو يأسف لمن لم يؤمن لهذا السبب، وهذا أقرب بدليل ما بعد هذه، ولعله معنى ما حكاه الشرفي في (المصاييح) عن المرتضى بن الهادي عليه السلام، وإما إشفاقاً عليهم من عذاب الله، وإما للأميرين.

وقوله تعالى: ﴿عَلَى ءَاثَرِهِمْ﴾ دليل على شدة الأسف حيث جعل مظنة إهلاكه في ذلك الوقت بعد انصرافهم قبل أن تذهب آثار أقدامهم. ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ فلا يحزنك كفرهم، فإن الله - جلَّ جلاله - أراد أن يبلو أهل الأرض بزيبتها، ولم يرد أن يضطرهم إلى الإيمان، بل أراد أن يبلوهم أي يختبرهم، وذلك يلزم منه تمكينهم من اختيار ما شاءوا دون أن يضطرهم إلى الإيمان

﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ ﴿مَا عَلَيْهَا﴾ ما على الأرض كله مما جعله الله زينة لها ومن غيره ﴿صَعِيدًا﴾ تراباً على وجه الأرض ﴿جُرُزًا﴾ لا نبات فيه، فزينة الدنيا لم تخلق للبقاء بل هي ذاهبة كلها بعد انقضاء مدة اختبار الناس بها وقرب يوم الحساب أو ذلك كائن أول يوم البعث.

﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ ءَايَتِنَا عَجَبًا﴾ ﴿الْكَهْفِ﴾ تجويف في الجبل، يكن من المطر ويكون فيه ظل من الشمس وأصحاب الكهف هم الذي أووا فيه وناموا سنين عديدة كما يأتي في قصتهم.

ويروى أن سبب نزول قصتهم سؤال اليهود عنها، فارتباط قصتهم بما قبلها من حيث أن السائلين: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ ولم يؤمنوا برسول الله ﷺ ولا بالقرآن مع علمهم أنه من الله، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦].

وأما قوله تعالى: ﴿وَالرَّقِيمِ﴾ فالراجح أنه: ما رقم فيه أسماؤهم، أي المرقوم فعيل بمعنى مفعول، ولا يجب أن المرقوم أسماؤهم، بل يحتمل: أن يكونوا هم رقموه وأن يكون في الصخرة كلمة التوحيد وذكر الله جل جلاله أو غير ذلك فلا يتعين إلا أنه معهم مرقوم من غير تعيين، فحاصل معنى الآية: بل أحسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من بين آياتنا عجباً دون غيرهم، فإن عجائب آيات الله كثيرة.

قال الشرفي في (المصاييح): «قال المرتضى عليه السلام [أي محمد بن الهادي عليه السلام] معنى ﴿كَانُوا مِنْ ءَايَتِنَا عَجَبًا﴾ يقول سبحانه إنهم لم يكونوا من أعظم الآيات، بل كان في آياتنا ما هو أعجب وأعظم من هؤلاء، وإن كان فيهم العجب العجيب لمن فكر وعقل واعتبر وازدجر أن يكون ممن خلقهم الله كخلق آدميين، وركب فيهم من الأكل والشرب والروح ما ركب في جميع المخلوقين، ثم أقاموا بلا أكل ولا شرب ثلاثمائة سنة وتسع سنين، لم تتغير لمر السنين أمعاؤهم ولم تذهب بطول المدة لحومهم، ولم تؤثر الأرض في أبدانهم، فهذا من أوضح دلالة لمن أبصر وأبين حجة لمن تفكر وآمن بالله واعتبر، فكان الناس يتعجبون من بقائهم وسلامة أبدانهم مع طول هذه المدة، فأخبرهم الله أن من آياته التي ترون ما هو أعظم من ذلك» انتهى.

رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿٢﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴿٣﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ

﴿١﴾ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا ءَاتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿٢﴾ هذا أول موجز قصتهم، ويظهر أنهم صاروا إلى الكهف ليختفوا من قومهم ولما في الكهف من ظلال أو كنان أو دفي، فهو قائم مقام بيت لهم ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا ءَاتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً﴾ لأنهم يحتاجون إلى الأمن وإلى الطعام والشراب فطلبوا من ربهم حل مشكلتهم.

﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ التهيئة للشيء: إعداده وجعله صالحاً لما أعد له، وقولهم: ﴿مِنْ أَمْرِنَا﴾ الذي هو مفارقة قومهم ومساكنهم واعتزالهم في الغار أي اجعل لنا من ذلك ﴿رَشَدًا﴾ وهدى لما فيه لنا الخير فقد توكّلوا على ربهم وطلبوا منه أن ييسر لهم أمرهم ويصلح شأنهم.

﴿٣﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿٤﴾ فَضَرَبْنَا الْفَاءَ للتفريع أي أجبنا دعاءهم بالضرب على آذانهم سنين، و(في تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ﴾ معناه: بالنوم» انتهى، ومعنى الضرب على آذانهم: منعها أن تسمع، فهو كناية عن جعلهم نياماً، واستغنوا عن الطعام والشراب، وذهب عنهم الخوف ﴿سِنِينَ عَدَدًا﴾.

﴿٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴿٦﴾ بَعَثْنَاهُمْ ﴿٥﴾ أَيْقَظْنَاهُمْ وَأَقْمَنَاهُمْ أَوْ أَيْقَظْنَاهُمْ فَخَرَجُوا مِنَ الْكَهْفِ وَأَظْهَرْنَاهُمْ كَمَا يَأْتِي فِي تَفْصِيلِ قِصَّتِهِمْ، وَهَذَا أَظْهَرَ، لِأَنَّهُ تَعَالَىٰ عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ: ﴿لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾ أَي لِنَتْلِي بِقِصَّتِهِمْ، فَيُظْهِرُ مِنْ يَصِيبُ فِي ذِكْرِ مَدَّةِ لَبِثِهِمْ فِي الْكَهْفِ، وَهُوَ يُفِيدُ: أَنَّ النَّاسَ اخْتَلَفُوا فِي مَدَّةِ لَبِثِهِمْ وَصَارُوا فِي خِلَافِهِمْ حَزْبَيْنِ كَمَا اخْتَلَفُوا فِي عَدْدِهِمْ.

هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا

وقوله تعالى: ﴿أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾ أي أحصى أمداً للبتهم في الكهف،
أي كم لبثوا فيه، قال في (الصحيح): «قال: ما أمدك: أي منتهى عمرك» انتهى،
فالأمد: مدة طويلة إذا أضيفت أريد بها مقدارها باعتبار غايتها.

قال الراغب: «الأمد والأبد يتقاربان، لكن الأبد: عبارة عن مدة الزمان
التي ليس لها حد محدود ولا يتقيد، لا يقال: أبد كذا، والأمد: مدة لها حد
مجهول إذا أطلق وقد ينحصر نحو أن يقال: أمد كذا» انتهى المراد.

﴿١٣﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ
هُدًى ﴿١٤﴾ قال الشرفي في (المصابيح): «قال المرتضى عليه السلام [يعني محمد بن الهادي
عليه السلام] يقول: نخبك عن أمرهم على صحة لأن أهل الكتاب كانوا يكذبون
ويقولون ما لا يعلمون من أمرهم، فقال - عز وجل -: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ
نَبَأَهُم بِالْحَقِّ﴾ الذي لا شك يدخله ولا باطل يخالطه، ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّهُمْ
فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ فذكر سبحانه أنهم آمنوا بربههم فإطاعوه
فيما افترض عليهم فزادهم عند ذلك عوناً وتوفيقاً وهداية وتسديداً.

ثم قال: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ ومعنى (الربط) منه سبحانه فهو التقوية
والتسديد لهم والتوفيق حتى تثبت قلوبهم على الحق فارتبطت به فلم تزل
عنه؛ لأن العرب تسمي من ثبت قلبه مرتبط الجنان مرتبط القلب، فلما
وقفهم الله عز وجل ارتبطت قلوبهم وثبتت على الحق عزائمهم ولم ترغ مع
من زاغ من قومهم، فكان ذلك من الله - عز وجل - نوراً إلى نور وخيراً إلى
خير» انتهى.

﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا﴾ في (المصاييح) يقول الشرفي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾ [آية: ١١] من (سورة الأنفال): «قال الحسين بن القاسم عليه السلام: روي أن الله - عز وجل - نزل عليهم مطراً خفيفاً ليظهرهم به من نجاسة الشيطان ومقاربتهم وملابسة دخوله بينهم ورائحته وليربط على قلوبهم ويثبتهم ويخففوا بالماء المبارك من ثقلهم لما جعل الله فيه من الحكمة والرحمة لهم والثبات لقلوبهم وأقدامهم...» إلخ .

فالراجح: أن المعنى: قوينا قلوبهم حين قاموا بحضرة قومهم أو بعض قومهم فأعلنوا كلمة التوحيد وقومهم مشركون، فلم يمنعهم الخوف من القيام بالقسط. وقولهم: ﴿رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ احتجاج على إبطال دعوة إله من دون الله؛ لأن الله ربهم المالك لهم فعبادة غيره باطل؛ لأن العبادة اعتراف للمعبود من العابد بالعبودية، وهم إنما هم عبيد لله وحده لا شريك له، وقولهم: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ إشارة إلى أن الله رب كل شيء؛ لأن السموات والأرض فيما يظهر معظم العالم.

وقولهم: ﴿لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا﴾ أي لن نشرك بالله بعبادة شيء من دونه بالدعاء، وقولهم: ﴿لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا﴾ أي لو دعونا من دونه إلهاً لكننا قد قلنا شططاً أي بعيداً من الحق والصدق أي قولاً شططاً.

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «﴿لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا﴾ أي جور» انتهى. وفي (تفسير المرتضى محمد بن الهادي عليه السلام): الذي حكاه الشرفي في (المصاييح): «والشطط: فهو المحال من القول المهلك فعله الباطل في نفسه» انتهى.

وفي (تفسير الراغب الأصبهاني): «الشطط: الإفراط في البعد...» إلخ .

اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً ۖ لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ
مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿٥٠﴾ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ
فَافْوَدًا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرفَقًا
﴿٥١﴾ وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا

﴿٥٠﴾ هَتُولَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً ۖ لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ
بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ ينكرون على قومهم الشرك.

وقولهم: ﴿لَوْلَا يَأْتُونَ﴾ أي هلا يأتون أي قومهم ﴿عليهم﴾ أي على
أهنتهم ﴿بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ﴾ أي بحجة بينة تسلطهم على الشرك وتحملهم عليه،
وقولهم: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ سؤال في معنى النفي أي لا أظلم ممن افترى على
الله كذباً، وافتراء الكذب اختلاقه.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال المرتضى عليه السلام: والافتراء فهو الكذب
وقول ما لم يكن من ذلك أنهم كانوا يزعمون أنهم يعبدون الأصنام لتقريبهم
إلى الله سبحانه، ويقولون: إن ذلك له رضى سبحانه، وكان ذلك منهم
افتراء على الله وكذباً، فلذلك سأل الفتية البرهان إذ نسبوا ذلك إلى الله
سبحانه، فسألوهم تصديق قولهم؛ لأن الله - عز وجل - إذا أمر بأمر أو
تعبد به كانت معه شواهد تصدقه وعلامات تؤكد حجه تبهر عقول
الخلق وتبينه» انتهى.

﴿٥١﴾ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَاوْدًا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ
رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرفَقًا﴾ ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ﴾ أي
وحين اعتزلتم قومكم المشركين وما يعبدون واعتزلتم ما يعبدون مجتنبين
للشرك ﴿فاوْدًا إِلَى الْكَهْفِ﴾ أي فاذهبوا إلى الكهف وكونوا فيه؛ لأنكم

غَرَبَتْ تَقَرُّضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَٰلِكَ مِّنْ ءَايَاتِ اللَّهِ مَن يَّهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضِلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ

تحتاجون إلى مأوى وتحتاجون إلى مرتفق أي ما تنتفعون به من القوت وغيره ولعل الله أن ﴿يُهَيِّئَ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُمْ مَّرْفَقًا﴾ وجزموا بذلك فقالوا ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيئ لكم من أمركم مرفقاً لقوة رجائهم في الله؛ لأنهم مهاجرون إليه بدينهم فاعتقدوا أنه لا بد أن ينشر لهم من رحمته؛ لأنهم في طاعته لأن فراقهم لقومهم ولما عند قومهم من حاجاتهم ورزقهم كان ضرورياً لحفظ دينهم فتوكلوا عليه في هجرتهم إليه، واهتدوا لذلك بهدى الله المذكور في قوله تعالى: ﴿وَزِدْنَاهُمْ مَّتًى﴾.

ومعنى ﴿يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ﴾ يوسع لكم والنشر خلاف الطي كما أن البسط خلاف القبض، قال الراغب: «نشر الثوب، والصحيفة، والسحاب، والنعمة، والحديث: بسطها» انتهى.

فقولهم: ﴿مِّن رَّحْمَتِهِ﴾ أرادوا به تيسير أمرهم وحل مشكلتهم بحيث يأمنون ويثبتون على دينهم، وقولهم: ﴿وَيُهَيِّئَ لَكُم﴾ التهيئة لإعداد الشيء للغرض المطلوب منه، فالمعنى: يجعل لكم من شأنكم ما به يحصل لكم ما ترتفقون به، وأمرهم هو هجرتهم وذلك الذي أملوه أن يهيء لهم من هجرتهم سبباً لمعاشهم وإن كانوا لا يتصورون ما هو هذا السبب، وإنما ذلك توكل على الله وثقة به ومع ذلك دعوا الله تعالى كما مر فأجيبوا.

﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقَرُّضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَٰلِكَ مِّنْ ءَايَاتِ اللَّهِ مَن يَّهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضِلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ ﴿تَزَاوَرُ﴾ تتحرف،

وفي (معلقة عنتره) يذكر فرسه:

فأزور من وقع القنا بلبانه وشكى إلي بعبرة وتحمحم

يعني انحرف من وقع الرماح في صدره، قال شارحها: «الأزورار: الميل، والتحمحم من صهيل الفرس، ما كان فيه شبه الحنين ليرق صاحبه له» انتهى.

وما قيل: من أن الأزورار الإنقباض، فلا ينافي هذا؛ لأن المنقبض يعرض فينحرف، فلعل الإنقباض سمي أزوراراً بهذا المعنى كما يسمى المنقبض منحرفاً.

وقوله تعالى: ﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ﴾ أي يراها الرائي الموجود هناك عند طلوعها ووقوع شعاعها في الكهف تزاور عنه ذات يمين الكهف أي إلى جهة الجنوب كما هي عادتها، وهذا مبني على أن الكهف بجملته متجه إلى الشمال شرقاً، ذات يمينه شرق إلى الجنوب، وذات شماله شمال إلى الغرب، فذلك صنع الله تعالى في الكهف حيث صنعه على هذا الشكل يوم خلقه أو هيأه ليكون كهفاً يسكنون فيه لا تضرهم الشمس فيه ولا يحرم هواؤهم منها عند شروقها.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا غَرَبَتِ تَقَرَّضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ﴾ فقييل غروبها يبلغهم شعاعها ضعيف الحرارة كما هي عادتها عند الغروب فتقرضهم بغروبها عنهم أي تقطعهم، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «معناه تقطعهم وتجاوزهم» انتهى.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال المرتضى عليه السلام: فأخبر سبحانه بلطفه لهم في الشمس في طلوعها وغروبها؛ لأنها لو دخلت عليهم لأحرقت أجسادهم وغيّرت ألوانهم فكانت إذا طلعت تزاور عن كهفهم كما قال سبحانه: ﴿ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتِ تَقَرَّضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ﴾ أي تدخل [في] من الكهف دخولاً قليلاً، والقرض منها لهم: هو دخول يسير منها عليهم.

والعرب تقول: قرضنا بلد كذا وكذا، يريدون أنهم لم يتوسطوا فيها وأنهم ساروا في جانب يسير منها» انتهى المراد.

وفي (لسان العرب): «قال أبو عبيد: القرض في أشياء فمنها القطع ومنها قرض الفأر لأنه قطع، وكذلك السير في البلاد إذا قطعتها ومنه قوله: إلى ظعن يقرضن أجواز مشرف

ومنه: قوله - عز وجل - : ﴿وَإِذَا غَرَبَتِ تَقَرَّضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ﴾ وقوله: أجواز مشرف يروى أقواز مشرف، حكاها في (لسان العرب) [بالقاف والزاي]:

إلى ظعن يقرضن أقواز مشرف شمالاً وعن أيمانهن الفوارس

وفي (الصحيح): ((القَوَز [بالفتح]: الكتيب الصغير عن أبي عبيدة وجمعه: أقواز وقيزان، وأنشد لذي الرمة:

إلى ظعن يقرضن أقواز مشرف شمالاً وعن أيمانهن الفوارس»

انتهى.

قال في (لسان العرب): «حيث رواه بلفظ: أجواز ومشرف والفوارس موضعان، يقول: نظرت إلى ظعن يُجْزَن بين هذين الموضعين» انتهى.

قلت: وعلى ما حكاها عن أبي عبيدة يقطعن أجواز مشرف، وفي (لسان العرب) قال: «الأجواز: الأوساط، وجوز كل شيء: وسطه» انتهى، وإنما ذكرت كلام أبي عبيدة هنا لمقارنته كلام المرتضى عليه السلام.

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ﴾ أي فجوة من الجرف فهو كبير أعني الكهف، وفيه مكان متسع في جانب منه والراجح: أنه تجويف واسع.

قال في (الصحيح): «الفجوة: الفرجة والمتسع بين الشيئين» انتهى، وفي (لسان العرب): «الفجوة والفرجة: متسع بين الشيئين - ثم قال - : والفجوة في المكان فتح فيه» انتهى.

وعلى هذا: فالفجوة: متسع في جانب الكهف ذو فتحة إلى الخارج - والله أعلم - ويكفي أن نعرف: أن الله سبحانه تولى حفظهم وأحسن رعايتهم في كهفهم.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ أعتقد أن الإشارة إلى هدى الله لهم حيث وحدوه وفرّوا بدينهم وتوكلوا عليه فلجأوا إلى الكهف؛ لأن إيمانهم غلب وسواس الشيطان وتخويفه لهم من الجوع والضياع وتخويفه لهم من قومهم فهو إيمان قوي في سرعة عجيبة تطور ورسخ، وذلك دليل على أن هدى الله يبعث على ذلك وأمثاله، كما بعث السحرة على الإيمان بموسى وترك الحذر من خطر فرعون، فلتعرض لهدى الله بحسن النية والإخلاص ثم بالطاعة والتقوى.

وقوله تعالى: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾ كالتفسير لقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَضِلَّ فَلَنْ يُجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾ يبين أن الهدى ليس له مصدر غير الله فمن فاته هداة حتى ضل فلن يكون له هدى من غير الله يتولاه بحسن الرعاية، ويرشده إلى سواء السبيل.

نعم الهدى من الرسل والأئمة الهادين وغيرهم ليس إلا من هدى الله فمن لم يهده الله لم يهتد بالهداة، كما قال تعالى لرسول الله ﷺ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [الفصل: ٥٦].

أَيْقَاطًا وَهُمْ رُقُودٌ^١ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ^٢ وَكَلْبُهُمْ بَنَسْطُ^٣ ذِرَاعِيهِ بِالْوَصِيدِ^٤ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمَلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا^٥ وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ^٦ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ^٧

﴿وَتَحْسِبُهُمْ أَيْقَاطًا وَهُمْ رُقُودٌ^١ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ^٢ وَكَلْبُهُمْ بَنَسْطُ^٣ ذِرَاعِيهِ بِالْوَصِيدِ^٤ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمَلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا^٥﴾ وَتَحْسِبُهُمْ أَيْقَاطًا ﴿هُمْ كَالْأَيْقَاضِ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنثورًا﴾ [الإنسان: ١٩] فهم فاتحوا أعينهم في هيئة الأيقاض لو رأيتهم حسبتهم أيقاضاً.

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ رُقُودٌ﴾ معناه ظاهر وكان الله تعالى ألقى عليهم النوم حين استقروا في الكهف لتطمئن قلوبهم وتنحل مشكلتهم قبل أن يشتد عليهم جوع أو غيره من حالات الإنسان الداعية له إلى الطلب، فكان النوم فرجاً عاجلاً.

وقوله تعالى: ﴿وَكَلْبُهُمْ بَنَسْطُ ذِرَاعِيهِ بِالْوَصِيدِ﴾ من كمال ذكر قصتهم كقوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ﴾ ولعله من حفظهم ليدفع عنهم السباع مع الهيبة التي جعلها الله لهم، وليس في الآية أنه نام فلعله عاش على الصيد ولكن إلى متى - الله أعلم. و(الوصيد): خلف الباب من الداخل، ولعلمهم أغلقوه بصخرة.

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «(الوصيد: الفناء، والوصيد: الباب) انتهى، وفي (الصحيح): «(الوصيد: الفناء، وأوصدت الباب، وأصدته: أغلقته) انتهى.

وفي (لسان العرب): «(الوصيد فناء الدار والبيت، قال الله - عز وجل - : ﴿وَكَلْبُهُمْ بَنَسْطُ ذِرَاعِيهِ بِالْوَصِيدِ﴾ قال الفراء: الوصيد والأصيد لغتان، مثل: الوكاف والإكاف، وهما الفناء قال: قال ذلك يونس، والأخفش) انتهى.

قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٦﴾ إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ

فترجح: أنه الفناء، وهو المقدم في (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام) ولعلمهم سموه وصيداً لإغلاق الباب عليه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّاتَةٌ﴾ [الهمزة: ٨] لإغلاق أبوابها عليها - والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿لَوْ أَطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعبًا﴾ يفيد أن الله تعالى حفظهم برعب من اطلع عليهم، ويفيد: أنه رعب شديد غالب، ولو اطلع عليهم أشجع الناس لولى منهم فراراً وامتلأ منهم رعباً، وقد احتج بذلك بعض الناس لإبطال (حديث البساط) ونحن نرحب بالعرض على الكتاب إذا صح العرض، ولكن ليس في (حديث البساط): أن علياً عليه السلام اطلع عليهم لا هو ولا أصحابه، فإذا صح (حديث البساط) فيحمل على أن علياً عليه السلام ومن معه سلموا عليهم، وكلمهم علي عليه السلام من خارج الكهف من عند الباب.

قال في (الصحيح): «الرعب: الخوف» انتهى، وقال الشرفي: «أي خوفاً وفزعاً لما البسهم من الهيبة» انتهى.

﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ﴾ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ﴾ قال الشرفي: «أي كما أئمناهم كذلك بعثناهم» انتهى، أي فبعثهم بعد النوم الطويل المستمر ثلاثمائة وتسعاً من السنين آية تدل على قدرته تعالى.

وقوله تعالى: ﴿لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ﴾ أي ليسأل بعضهم بعضاً، وقوله تعالى: ﴿بَيْنَهُمْ﴾ يفيد: تأكيد أن السؤال وقع من بعضهم لبعض.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ﴾ تفسير لسؤال بعضهم لبعض أي كم لبثتم في هذا المكان نائمين؟ أو كم لبثتم في نومكم هذا؟ واللبث: هو البقاء في المكان أو نحو المكان عما يكون في المكان ﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ لم يشعروا بطول المدة؛ لأنهم كانوا نياماً لا يعلمون شيئاً وكانهم رأوا علامة أنهم قد لبثوا أكثر من ذلك ولا يدرون كم لبثوا، ف﴿قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ فأحالوا أمرهم ذلك إلى علمه تعالى.

وأرادوا القوت فانتقلوا إلى تدبيره فقالوا: ﴿فَابْتَغُوا أَحَدَكُمْ بَورِقَكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ﴾ أي اخرجوه إلى المدينة ﴿فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾ فليبحث عن المكان الذي فيه الطعام الذي هو أطيب طعاماً فهو حلال طيب ولظنهم أن أهلها ما زالوا قومهم المشركين خافوا أن يشتري رسولهم شيئاً مما يعرف المؤمن أنه خبيث؛ لأن المشرك لا يتجنبه كالخمر والخنزير والميتة والمغصوب، وهذا الشيء يعتبره المؤمن خبيثاً إذا عرف أنه مغصوب وعرف مفسد الخمر والخنزير، فذلك غير زكي أو على الأقل لا يثق أنه زكي فضلاً عن كونه أزكى، وهذا إن لم يكن عندهم بقايا دين سماوي فأما إن كان عندهم شيء من ذلك فظاهر، والورق الفضة أرادوا أن يشتروا بها طعاماً.

وقولهم: ﴿فَلْيَأْتِكُمْ بَرِزِقٍ مِّنْهُ﴾ أي فليأتكم بقوت تقتاتونه لأيام من رزق الله ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ يحاول إخفاء نفسه وأن يبقى غامضاً لا يعرف الناس أنه منّا ﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ﴾ ولا يُعْلِمَنَّ بكم ولا يطلع عليكم ﴿أَحَدًا﴾ كائناً من كان من قريب أو بعيد، لأن سرهم يجب أن لا يظهر.

يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدًا ﴿٦٠﴾ وَكَذَلِكَ
أَعَثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّهُ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ
يَتَنَزَّعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَأَيْتُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ
الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٦١﴾ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ

﴿٦٠﴾ إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ
تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدًا﴾ يقول أهل الكهف: ﴿لَيَتَلَطَّفْ﴾ رسول الطعام لثلا يعرفوا
مكانكم، إنهم أي قومهم المشركون ﴿إِنْ يَظْهَرُوا﴾ يطلعوا ﴿عَلَيْكُمْ﴾
يَرْجُمُوكُمْ ﴿لخروجكم من ملتهم وإسلامكم إن لم ترجعوا إلى دينهم﴾ أَوْ
يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ ﴿إِنْ أطعتموهم﴾ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا﴾ أي إن أعادوكم
في ملتهم ﴿أَبَدًا﴾ لأنكم إن كفرتم بعد الإسلام خوفاً منهم يغلبكم الخوف
فلن تخرجوا على الإسلام بعد ذلك أبداً.

﴿٦١﴾ وَكَذَلِكَ أَعَثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّهُ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا
رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَزَّعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَأَيْتُمْ أَعْلَمُ
بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾
﴿وَكَذَلِكَ﴾ كما أنماهم وأيقضناهم بعد المدة الطويلة ﴿أَعَثَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾
أطلعنا عليهم قوماً آخرين غير قومهم على طريق الصدفة؛ لأن قومهم قد
هلكوا وجاء دين آخر فلم يكن عليهم بأس من اطلاع المطلعين عليهم بل
ظهرت لهم آية الله في أصحاب الكهف وظهرت لأصحاب الكهف؛ لأنهم
ما كانوا يعلمون بطول مدتهم في نومهم، فقد علموا آية الله فيهم وأنه نجاهم
من قومهم وحفظ لهم دينهم وحفظهم في مدتهم الطويلة في الكهف وأحسن
رعايتهم لما آمنوا بالله.

وقوله تعالى: ﴿لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ وهو وعده بالحياة الآخرة بعد الموت؛ لأنهم عرفوا ذلك إما من دين عيسى الذي بعثوا بعده وفي ظهور دينه في بلدهم وكان بعثهم بعد نومهم المدة الطويلة آية لهم ليعلموا إمكان بعثهم بعد الموت ويعلموا صدق الخبر بالساعة من رسول الله عيسى عليه السلام، ويعلموا أن الساعة التي عندها البعث والحساب والجزاء لكل نفس بما تسعى آتية لا ريب فيها، فيكمل لهم الإيمان بالله ورسله واليوم الآخر ببعثهم من نومهم وبلوغهم رسالة عيسى عليه السلام، وما جاء به في الجملة من أسباب الإيمان بالرسول واليوم الآخر والجنة والنار لطف لهم ورحمة من الله، وبعد ذلك توفاهم الله تعالى مؤمنين مسلمين.

واختصر القرآن قصتهم لكفاية ذكر موضع العبرة من قصتهم، والدلالة على لطف الله بالمؤمن وحسن رعايته له، والدلالة على إمكان الحياة بعد الموت، وأنه مثل بعثهم بعد نومهم، وانتقل القصص إلى من بعدهم، فقال تعالى: ﴿إِذْ يَتَنَزَّعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾ أي يتنازع من بعد أصحاب الكهف أمرهم أي أمر أصحاب الكهف ﴿فَقَالُوا أَبْنُؤْا عَلَيْهِمُ بُنْيَانًا﴾ لحفظهم وليكون البنيان علامة لمحلهم لأجل قصتهم العجيبة ورغبة الناس في الإطلاع عليهم ﴿رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾ فالبنيان هذا يكفي لأننا لا نعلم هل كانوا مشركين على دين قومهم أو كانوا مسلمين على دين عصر بعثهم من نومهم ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ﴾: بل كانوا مسلمين فضلاء ﴿لَنَتَّخِذَنَّهُمْ عَلَيْكُمْ مَّسْجِدًا﴾ إكراماً لهم وحفظاً وعلماً لمحلهم وتبركاً بهم، وقوله: ﴿عَلَيْهِمْ﴾ يحتمل: فوق كهفهم، ويحتمل على باب الكهف، وهو الذي رواه الشريفي في (المصابيح) عن الحسين بن القاسم عليه السلام.

رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ
وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا
قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَهْرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿١٢﴾ وَلَا

﴿١٢﴾ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا
بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا
قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَهْرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿١٣﴾.

هذه الآية الكريمة تشير إلى أن أهل الكتاب سألوا رسول الله عن أهل
الكهف وليس عند اليهود حقيقة خبرهم لأنهم متأخرون عن نزول التوراة،
فقال تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ﴾ أي أصحاب الكهف ﴿ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ
وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾ لأنه قول بلا مستند، أما
القول الأول فلعله مبني على أنه قد اشتهر عنهم أنهم جماعة وأقل الجمع
ثلاثة فلم يكن قولهم: ﴿ثَلَاثَةٌ﴾ رجماً بالغيب؛ لأنهم قد أثبتوا أقل الجمع أي
المتحقق ولم يزدوا عليه؛ لأنهم لم يعلموا عددهم على التحقيق.

وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ ولعلمهم استندوا في
ذلك إلى رواية صحيحة فلم يكن قولهم رجماً بالغيب، وقوله تعالى: ﴿قُل رَّبِّي
أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ﴾ أي ليس لكم علم بعدتهم، فلا تخوضوا فيما لا تعلمون.
وقوله تعالى: ﴿مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ فهذا القليل يعلم عدتهم، والله
أعلم من هم ذلك القليل.

قال الشريفي في (المصابيح): «وأما الهادي عليه السلام، فقال: هذا أمر لم يُطْلِع الله
نبيه عليه؛ لأنه لم يحتاج [كذا] إلى علمه ولم يفترض الله على أحد من العباد
علمه، ولم يتعبد به فلسنا نحتاج لتكليف [كذا] ما كفيينا فيه، وقد تقحم في
ذلك غيرنا بغير معرفة، ولا نحب أن نتقحم فيما نذم فيه ولا نحمد - والله
أعلم بذلك وأحكم.

فأما القليل الذي ذكر الله أنهم يعلمونهم فإنما هم قليل ممن عرف
مخرجهم وعددهم وقت ما خرجوا من القرية هارين وأوا في ذلك اليوم إلى
الكهف منحاين وليس القليل العالم بعد استيقاظهم من رقتهم وإنما القليل
الذي علموهم قبل رقتهم وعند خروجهم من قريتهم وقد نهى الله سبحانه
نبيه عن المماراة في عدتهم والقول بما لم يطلع الله عليه، وما نهى عنه ﷺ
فنحن [عنه] منهئون وما أمر بتركه فيهم فالخلق بذلك مأمورون..» إلخ.

قلت: وما روي عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: أنا من ذلك القليل هم
سبعة وثامنهم كلبهم، رواية لا تفيد العلم والاستناد إلى أن زيادة (الواو) في
هذا القول دون القولين الأولين وإلى أنه لم يقل فيه رجماً بالغيب ليس اعتماداً
على دليل، ودعوى أن ذلك قرينة دعوى بلا دليل، أما أنه لم يقل فيه رجماً
بالغيب فلعل سببه أنه ليس رجماً بالغيب، بل استناداً إلى رواية وليس
خروجه عن كونه رجماً بالغيب يستلزم أنه صحيح؛ لأن من الممكن أنه ليس
رجماً بالغيب وليس صحيحاً؛ لأنه مستند إلى رواية يظنها صحيحة وهي غير
صحيحة في الواقع، وأما الواو فلا تدل على صحة ذلك القول؛ لأن الواو
لا تعبر عن صحته، وقد تكون لملاحظة أهل القول بأنهم سبعة كون الكلب
مغائراً لأهل الكهف كما زادت الواو في الشهادة الخامسة في اللعان
لمغائرتها للأربع في المعنى.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَهَرًا﴾ أي لا تجادل من تحدّثه في
الكهف إلا جدالاً ظاهراً بالحجة غالباً للخصم المنصف، وقوله تعالى: ﴿وَلَا
تَسْتَفْتِ فِيهِمْ﴾ أي في أهل الكهف ﴿مِنْهُمْ﴾ من أهل الكتاب ﴿أَحَدًا﴾
لأن الحقيقة عندك لا عندهم.

تَقُولَنَّ لِشَآئٍ إِيَّيَ فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿١٢﴾ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ۚ وَذَكَرَ رَبُّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿١٣﴾ وَلَبِثُوا فِي

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَآئٍ إِيَّيَ فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا * إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ۚ وَذَكَرَ رَبُّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾ ﴿وَلَا تَقُولَنَّ﴾ عطف على قوله تعالى: ﴿فَلَا تُمَارِ﴾ إلى آخر الآية، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَآئٍ﴾ أي: لا تقولن في شيء، مثل قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كُنَّا خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: ١١] وقوله تعالى: ﴿إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا﴾ هو القول المنهي عنه، وقوله تعالى: ﴿فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا﴾ كناية عن الفعل الذي يعد به مثل أن يقول: إني مسافر غداً فليس خاصاً بلفظ فاعل.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ إن كان الاستثناء من النهي فالمعنى إلا أن يشاء الله أن تقول بأن يوحى إليك أن تفعله وتعد بفعله، وعلى هذا لا يكون معناه الأمر بالشرط بأن يقول إن شاء الله، ولا يجب جعل الآية بمعنى الشرط، وفائدة ذلك: أن لا يعد الرسول بأمر وهو لا يعلم لعل الله يدله على ما هو أولى وهو في الرسالة مشغول بتكاليفها، وتكاليف الجهاد، وتكاليف إصلاح أمر المسلمين والحكم بين الناس، فلا يدري إذا وعد لعلها تعرض حالة ضيقة تمنعه مما وعد به، وهو لا يليق به خلف الوعد ولو لعذر حيث يكون فيه تشويه أو مطعن للكافرين.

فكان النهي عن الوعد الجازم المؤكد بـ(إن) والجملة الإسمية أو بأي تأكيد مثله هو الأولى في حقه ﷺ وهذا الوجه هو المتعين؛ لأن جعل الاستثناء من المنهي يستلزم النهي عن الاستثناء، وهو معنى غير صحيح.

كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةِ سِنِينَ ﴿١٥﴾ وَأَزْدَادُوا تِسْعًا قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَيْشُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمَعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ

فأما التقييد بالشرط فيؤخذ من الوجه الأول؛ لأنه حين يقول سأفعله إن شاء الله لم يحصل منه الوعد المنهي عنه؛ لأنه غير جازم بل هو متردد بين أن يشاء الله وبين أن لا يشاء الله.

وقوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا﴾ على مقتضى ما رجحت يكون المعنى: إذا وعدت قبل أن يأذن الله لك نسياناً منك ثم تذكرت فاذكر ربك واستغفره وارجع عن حتم الوعد بأن تقول لمن وعده، أو قلت له: عسى أن يهديني ربي لأقرب من هذا الذي وعدت به أو قلته لعله يهديني ويقرب أن يهديني لأقرب من هذا رشداً أي لما يكون رشده أقرب مما وعدت به أو قلته.

﴿وَلَيْشُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةِ سِنِينَ وَأَزْدَادُوا تِسْعًا﴾ هذه مدة بقائهم في الكهف من حين دخلوه حتى خرجوا منها، وهو يفيد أنهم بعد أن قاموا من النوم خرجوا منه، ولعل ذلك حين رجع أصحابهم من المدينة وأخبرهم باختلاف الحال وأنه لا خوف عليهم من قومهم أو في حال انتظارهم له، فهذه المدة ثلاثمائة سنة قمرية وتسع سنين.

وقوله: ﴿سِنِينَ﴾ بيان للثلاثمائة جار مجرى التمييز، ولا ينافي هذا الحساب زيادة أشهر أو أيام أو ساعات لأن الكلام في السنين فقط، وقوله تعالى: ﴿وَأَزْدَادُوا﴾ يظهر منه أنها كانت مصلحتهم في زيادة التسع كأنهم طلبوها بل كانت في الواقع من جملة ما طلبوه، حين قالوا: ﴿رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾.

وَلَا يُشْرِكْ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴿٦٦﴾ وَأَتْلُ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٦٧﴾ وَأَصْبِرْ

﴿٦٦﴾ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصَرَ بِهِ وَأَسْمَعَ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴿٦٧﴾ قُلِ يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذَا الْبَيَانُ لِمَدَّةٍ لِبَثْمِهِمْ هُوَ الْحَقُّ؛ لَأَنَّهُ مِنْ اللَّهِ وَهُوَ ﴿أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا﴾ فَلَا التَّفَاتِ إِلَى مَا خَالَفَهُ وَلَا سَمَاعٍ لَهُ؛ لَأَنَّهُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِمَا ﴿لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ لَأَنَّهُ خَالَقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِمَا مَا هُوَ مُشَاهِدٌ لَنَا وَمَا هُوَ غَيْبٌ عَنَّا فَهُوَ مُلْكُهُ، وَلِذَلِكَ فَهُوَ الْقَائِمُ عَلَيْهِ الْمُدَبِّرُ لَأُمُورِهِ، فَكَيْفَ يَغْفُلُ عَنْهُ وَهُوَ يَرَى وَيَسْمَعُ كُلَّ ذَلِكَ؟!

وقوله تعالى: ﴿أَبْصَرَ بِهِ وَأَسْمَعَ﴾ دلالة على إحاطة رؤيته بكل خفي وكل ظاهر وكل كبير وصغير لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، وإحاطة سمعه بكل صوت وكل سر.

وفي (مجموع الإمام القاسم عليه السلام) في كتاب (العدل والتوحيد ونفي التشبيه عن الله الواحد الحميد) [ص ٦١/خ]: ﴿وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [الحج: ٦١] فَمَعْنَى ذَلِكَ: أَنَّهَا لَا تَخْفَى عَلَيْهِ الْأَصْوَاتُ وَلَا اللَّهَوَاتُ وَلَا غَيْرَهَا مِنَ الْأَعْيَانِ، أَيْنَ كَانَتْ وَحَيْثُ كَانَتْ فِي ظِلْمَاتِ الْأَرْضِ وَالْبَرِّ وَالْبَحْرِ، لَيْسَ يَعْنِي: أَنَّهُ سَمِيعٌ بِجَوَارِحِ أَوْ شَيْءٍ سِوَاهُ» انتهى.

وفي كلام الإمام الهادي عليه السلام في كتاب (الديانة) وهي من (المجموعة الفاخرة) [ص ١٥٥]: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] لَيْسَ سَمْعُهُ غَيْرُهُ وَلَا بَصَرُ سِوَاهُ، وَلَا السَّمْعُ غَيْرُ الْبَصَرِ، وَلَا الْبَصَرُ غَيْرُ السَّمْعِ، وَلَا يُوصَفُ بِسَمْعٍ كَأَسْمَاعِ الْمَخْلُوقِينَ، وَلَا بِبَصَرٍ كَأَبْصَارِهِمْ - تَعَالَى اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ -

نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنِ

ولكنه سميع لا تخفى عليه الأصوات ولا الكلام ولا اللغات، بصير لا تخفى عليه الأشخاص ولا الصور ولا الهيئات، ولا مكان شيء من الأشياء وموضعه ولا يغيب عليه شيء من أمره وحاله لم يزل سميعاً بصيراً» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ﴾ ما لهم من دون الله من ولي يتولى رعايتهم في الدنيا وجزائهم في الآخرة، وقوله تعالى: ﴿مَنْ دُونِهِ﴾ رد على المشركين الذين يزعمون آلهتهم وسائط بينهم وبين الله تقربهم إليه وتشفع لهم عنده أو يتخيلونها أقرب إليهم من الله وأن الله تعالى بعيد عنهم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُشْرِكْ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ رد على المشركين الذين اتخذوا من دون الله شركاء وظنوا أن لمن شاء أن يتخذ من دونه إلهاً الخيار في ذلك يختار لنفسه ما شاء فيتخذه إلهاً كما أنه رد على كل من جعل لغير الله حكماً من اتباع القوانين المخترعة واتباع الظلمة واتباع الأحرار والرهبان.

﴿وَأَتْلُ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ﴾ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿وَأَتْلُ﴾ اقرأ كما ﴿أُوْحِيَ إِلَيْكَ﴾ يا محمد ما أوحاه الله إليك ﴿مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ﴾ وهو القرآن ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ لا مبطل لها وجاعلاً غيرها بدلاً منها بل هي الحق الثابت الذي لا مغير له والحكم الماضي لا معقب له ﴿وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ لو عصيته أي لن تجد ملجأ منه ولا مهرباً فاقراً ما أنزل إليك كما أنزل لتبلغه للناس وفي صلاتك وفي غير ذلك.

ذِكْرُنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرْطًا ﴿٦٨﴾ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفِرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا

﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرْطًا﴾ صبر النفس حبسها، فقله تعالى ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ معناه: اثبت معهم ولازمهم؛ لأنهم ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ﴾ وهي الصبح ﴿وَالْعَشِيِّ﴾ وهو من الظهر إلى المغرب، ودعائهم ربهم في الصلوات وبعدها وسائر الأوقات في طرفي النهار، وفي فضل الدعاء والذكر بعد صلاة الفجر إلى الشروق أحاديث كثيرة عن رسول الله ﷺ منها:

في (أمالى أبي طالب عليه السلام) في (الباب التاسع عشر): بإسناده عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن جده، عن علي عليه السلام، قال: قال رسول الله ﷺ «والذي نفس محمد بيده لدعاء الرجل بعد صلاة الفجر إلى طلوع الشمس أنجح في الحاجة من الضارب بماله في الأرض» انتهى، وفي الباب روايات كثيرة من مظانها (شرح مجموع الإمام زيد بن علي عليه السلام).

وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ أي تقرباً إلى الله تعالى وتعرضاً لرضاه؛ لأن الراضي في المخلوقين يقبل بوجهه على من هو راضٍ عنه كما أن الساخط يعرض عمن سخط عليه ولا ينظر إليه، ونظير ذلك في ضد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ﴾ [آل عمران: ١٧٧].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ لا تتجاوزهم عينك نبواً عنهم إلى غيرهم ﴿تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرْطًا﴾ فليس أهلاً أن يطاع، لأنه ضال عن طريق الحق.

وَأِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ
وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿١١﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ

قال الشريفي في (المصاييح): «وفي سبب نزول هذه الآية: يقول الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة عليه السلام: إن رسول الله ﷺ كان يجلس بين ضعفة أصحابه، يعلمهم معالم الدين، ويهديهم في الدنيا، ويصغر عندهم البلا، حتى قال عيينة بن حصن الفزاري: يا رسول الله إنك رسول الله وإن العرب أهل أنفة ورياسة، فإذا رأوك مع هؤلاء المساكين نفرت نفوسهم عن الدين فلم يقبلوه، فلو نحيت هؤلاء عن مجلسك، فإن كان لا بدّ منهم فاجعل لهم مجلساً ولنا مجلساً، فكاد كلامه يؤثر في رسول الله ﷺ في إثر المجلس من حيث زخرفه عدو الله بالتقرب إلى الدين لكبار الناس، فانتظر الوحي من الله تعالى فنزل قوله تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ..﴾ الآية إلى قوله ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ دِكْرِنَا﴾ وهو عيينة بن حصن و ﴿أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ﴾ عقوبة له إذ لا يجوز غير ذلك، وقد كان منافقاً في حياة النبي ﷺ أحق مطاع [كذا] انتهى.

قال الراغب في (المفردات): «﴿وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾: أي إسرافاً وتضييعاً» انتهى، وفي (مصاييح الشريفي) رحمه الله: «عن المرتضى عليه السلام: والفُرُط هو الإفراط في الشيء المجاوز للقدّر والإغراق فيه، بما لا يجوز وما يخرج من القصد إلى الإسراف والإغفال، فهو الخذلان بما استوجب عند المخالفة والعصيان مثل من كان من قریش وغيرها من أهل الكتاب» انتهى المراد.

﴿١١﴾ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ ط فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿١٢﴾ وَقُلِ عَظْفٌ عَلَى ﴿١٣﴾ لَا تُطِيعُ ﴿١٤﴾ وذلك إنذار لهؤلاء المستكبرين.

فكانه قيل: اصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم وإن أنف المستكبرون وتجنبوا مجلسك ﴿وَقُلْ﴾ لهم ﴿الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ المالك لكم فلا خيار لكم يخلصكم من المسؤولية، ولا حق لكم في اشتراط تجنب الفقراء، فإن شتمتكم مع هذا، وإن شتمتكم كفرتم فما تضرون إلا أنفسكم إن الله أعد لكم إن كفرتم ولكل ظالم ﴿نَارًا أَحَاطَ بِهِنَّ سُرَادِقُهَا﴾ وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «(السرادق: حجرة تطيف بالفسطاط، وهي سرادق من نار) انتهى».

ومثله في (الكشاف) ولعل هذا السرادق: ركام من الجمر الملتهب، يحيط بهم وهم في سواء الجحيم، قال تعالى: ﴿فَاطْلُغْ فَرَاهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٥٥].

وقوله تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا﴾ يطلبوا إغاثةهم من الحرِّ ومما يلزم الحرَّ ويلزم شدة الألم من العطش ﴿يُغَاثُوا بِمَاءٍ﴾ أي يجابوا فيما طلبوا بضده؛ لأنه ماء ﴿كَالْمُهْلِ يَشْوَى الْوُجُوهَ﴾ وقوله تعالى: ﴿كَالْمُهْلِ﴾ أي دردي الزيت أو نحوه الذي يكون في أسفل الزيت والسليط مادة سوداء غليظة.

وقوله تعالى: ﴿يَشْوَى الْوُجُوهَ﴾ خص الوجه هنا لأنه إغاثة من العطش يلزم من أجلها تقريبه من وجوههم ليشربوه فعند ذلك يشوي الوجوه، أما إذا شربوه فإنه يقطع الأمعاء ويذيب ما في البطون ﴿بِئْسَ الشَّرَابُ﴾ ذم لهذا الشراب ولعله سمي شراباً وإغاثة تهكماً بأعداء الله، وقال تعالى: ﴿وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ أي ساءت جهنم مرتفقاً، وهو تهكم بهم؛ لأن أصل المرتفق: ما ينتفع به، ومرتفقهم جهنم.

قال الشريفي في (المصاييح): «قال الحسين بن القاسم عليه السلام: ومعنى يغاثوا في هذا الموضع مجاز معروف عند العرب، وليس بغياث على الحقيقة، والعرب تقول ذلك على سبيل الذم والوعيد والتهديد والمجاز..»

أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٢٠﴾ أُولَٰئِكَ هُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعَمَ الثَّوَابِ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢١﴾

قال المرتضى عليه السلام: المهل فهو صفو القطران فيستعون [كذا] من ذلك عند عطشهم فيشوي وجوههم ويقطع أمعاءهم ويتضاعف عند ذلك بما هم فيه من شدة ألمه، ومعنى ﴿سَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ فهي جهنم فأخبر سبحانه أن جميع ما فيها من مائها وطعامها وأرفاقها كلها من شيء شديد متعب لا منفعة فيه لطالبه ولا راحة لمستنفع به عند حاجته» انتهى.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ﴾ أي لا نضيع ثوابه وهي جملة معترضة بين اسم (إن) وخبرها.

﴿أُولَٰئِكَ هُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعَمَ الثَّوَابِ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ ﴿أُولَٰئِكَ﴾ أي الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات ﴿تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ في هذه الآية، قال تعالى: ﴿مِنْ تَحْتِهِمْ﴾ فهو بين جمال المنظر باجتماع الخضرة والأنهار الجارية سواء كان المعنى من تحتهم وهم في القصور أو من تحتهم على الإطلاق، فهي من لذة أعينهم وأسباب سرورهم.

وقوله تعالى: ﴿هُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): في تفسير (سورة لم يكن): «عن القاسم بن إبراهيم عليه السلام: وتأويل ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ [آية: ٨] هو جنات مستقر وأمن» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿تُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ﴾ يملون من الحلية التي يلبسونها زينة لهم، والأساور جمع سوار وهو الذي يلبس في اليد وهو في الدنيا خاص بالنساء إلا أن يكون للملوك العجم وأمور الآخرة تخالف أمور الدنيا ففي الجنة رفاهة تناسبها الحلية.

وقوله تعالى: ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ الظاهر: أن السندس والإستبرق كلاهما من الحرير، لقوله تعالى: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [الحج: ٢٣] وهو عام يشمل السندس والإستبرق.

قال في (لسان العرب): «قال المفسرون في السندس: إنه رقيق الديباج ورفيعه، وفي تفسير الإستبرق: إنه غليظ الديباج ولم يختلفوا فيه» انتهى المراد. وقال في (الديباج): «وهي الثياب المتخذة من الإبريسم» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا﴾ أي في الجنات دلالة على راحتهم وسلامتهم من الكد، وقوله سبحانه: ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ اختلف علماء اللغة في تفسير الأرائك والراجح أنها من السرر أو من الفراش وحده تعد في البيوت أو الخيام للإتكاء عليها وللنوم عليها وإذا كانت من السرر فعليها الفراش وكلها من الحرير، كما ذكره الإمام الهادي عليه السلام في تفسير (سورة هل أتى) وهي في (المصابيح) تأليف الشرفي رحمه الله.

وقوله تعالى: ﴿نِعَمَ الْأَثْوَابُ﴾ مدح لذلك المذكور، وقوله تعالى: ﴿وَحَسُنَتْ﴾ أي الجنة أو الجنات ﴿مُرتَفَقًا﴾ موضعاً لما يتفعمون به من مساكنها ومآكلها ومشاربها وملابسها وفراشها وكل ما يتفعمون به فيها فهو شيء بالغ في حسنه مبلغاً عظيماً.

وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَبٍ وَخَفَفْنَاهُا
بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زُرْعًا ﴿١١﴾ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ
شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا ﴿١٢﴾ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ

﴿١١﴾ وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَبٍ
الراجح: أن الضمير في قوله تعالى: ﴿هُم﴾ للمتكبرين الذين ذكرهم الله
بقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِيع مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ﴾ الآية. ففي قصة الرجلين عبرة لهم
بل جعل الرجلين مثلاً لهم وأصلاً يقيسون عليه أهل الحق المؤمنين وأهل
الباطل المشركين ﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ﴾ جعلنا له رزقاً واسعاً من
جنتين شجرة العنب المتنوعة ومن النخل المحيط بالجنتين ومن الزرع الذي
بين الجنتين، فهو رزق واسع ومنظر جميل تطمئن به نفسه.

﴿١٢﴾ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا
نَهْرًا ﴿١٣﴾ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ ﴿١٤﴾ كل واحدة من الجنتين ﴿آتَتْ أُكُلَهَا﴾ أثمرت وأينع
ثمرها أو صلح لقطفه يوم حصاده.

﴿وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا﴾ لم تظلم من ثمرها المعتاد شيئاً بل آتته موفوراً
كاملاً، وسمي النقص ظلماً لأن المعتاد المألوف يكون عند صاحب المال
كالمستحق الواجب، ولذلك يكون النقص مصيبة عنده، قال تعالى: ﴿وَنَقْصٍ
مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ﴾ [البقرة: ١٥٥].

وقوله تعالى: ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا﴾ أي خلال الجنتين ﴿نَهْرًا﴾ يسقيهما،
ولذلك توفرت ثمراتهما بتوفر السقي السهل على صاحبهما حيث لا يكلفه
نزعاً بالدلى ولا مؤونة نقل إليهما.

مُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٧٦﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴿٧٧﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً

﴿٧٦﴾ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ مُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٧٧﴾ وكان في حالة من الحالات تنوعت الثمار وحضرت له على ما يرام فداخله الطغيان الذي يدعو إليه الغنى وثراء المال ﴿فَقَالَ لِصَاحِبِهِ﴾ المذكور معه في أول القصة ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا﴾ وكأنه يلومه على بعض تصرفاته ومخالفته له في الطريقة فيقول له: أنا أكثر منك مالاً، لأنك لم تعمل في كسب الرزق مثل عملي ﴿وَأَعَزُّ﴾ منك ﴿نَفَرًا﴾ لأنني ومن معي حصلت لنا بالغنى عزة في قومنا وبلدنا أما أنت فأنت ذليل من أجل فقرك، أو ليس لك من العز مثل مالي ولمن معي.

وهذا الكلام لا يعتبر دلالة على سعادة؛ لأنه إنما هو افتخار بعرض دنيوي قريب الزوال ولذلك فهو لا يهم صاحبه لأن صاحبه مؤمن ينظر إلى الدنيا بعين الإحتقار ولا يعظم في نفسه إلا الإيمان والتقوى والعمل الصالح.

﴿٧٦﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴿٧٧﴾ وَدَخَلَ ﴿٧٦﴾ هذا المغتر بالعاجلة دخل ﴿جَنَّتَهُ﴾ ينظر ما فيها من الثمر ويفتخر به ﴿وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ بالبطر.

ثم بالغ في افتخاره ﴿قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ﴾ أي تفنى ﴿هَذِهِ﴾ الجنة ﴿أَبَدًا﴾ بل هي باقية أبداً؛ لأن الماء يحفظها، لأنه لا يزال يروي عروقتها فتبقى خضرتها وحيوتها أبداً، ثم أضاف نفى ظنه لقيام الساعة التي عندها تهلك جنته وتتغير الأحوال ويفنى كل شيء تأكيداً منه لظنه أن جنته باقية أبداً فقال:

وَلَيْن رُدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لِأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا ﴿٣٩٥﴾ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ
تُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا
﴿٣٩٦﴾ لَّيَكُنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٣٩٧﴾ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ

﴿٣٩٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَيْن رُدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لِأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهُمَا
مُنْقَلَبًا ﴿٣٩٦﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً ﴿٣٩٧﴾ كَفَرًا مِنْهُ بوعْدِ اللَّهِ ﴿٣٩٨﴾ وَلَيْن رُدِدْتُ ﴿٣٩٩﴾ بعد
الموت ﴿إِلَىٰ رَبِّي﴾ الكريم الذي أنعم علي بالجنيتين ﴿لَأَجِدَنَّ﴾ في الآخرة
من ربي ﴿خَيْرًا مِّنْهُمَا﴾ أي من الجنيتين، أو منها أي من الجنة التي هو فيها
حين قال هذا الكفر، وقوله: ﴿مُنْقَلَبًا﴾ أي مرجعاً ومصبيراً أرجع إليه في
الآخرة وأصير إليه.

يحتمل أنه قال هذا الكلام، أعني قوله: ﴿وَلَيْن رُدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لِأَجِدَنَّ خَيْرًا
مِّنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ معاندة لصاحبه، ورداً لتحذيره له من سوء المنقلب في الآخرة،
ويحتمل أنه ظن أن الله إنما أعطاه في الدنيا لأنه يحبه وذلك يلزم منه أن يعطيه
في الآخرة مثله أو خيراً منه، ويحتمل: أنه ظن أن الجنيتين أعطاه الله لحسن
حظه فهو في الآخرة يعطى مثله أو خيراً منه لحسن حظه وكون الخير مقبلاً
إليه إقبالاً طبيعياً؛ لأنه من شأنه، وعلى كل حال فقد غرته الحياة الدنيا
وأطغاه الغنى، فكفر نعمة ربه واستحق تغيير حاله.

﴿٣٩٥﴾ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ
مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا ﴿٣٩٦﴾ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ ﴿٣٩٧﴾ حيث استبعدت قيام
الساعة أظننت أن الله لا يقدر على إحياء الموتى وإخراجهم من القبور
وظننت أن وعد الله بها غير صدق فكفرت بقدرته ربك الذي خلقك ﴿مِّن
تُرَابٍ﴾ فهو قادر على أن يخلقك من تراب تارة أخرى، خلقك من تراب

قُلْتُ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ۚ إِنَّ تَرَنٍ أَنَا أَقَلُّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٦٠﴾
 فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ
 فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٦١﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَأْوَهَا غُورًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴿٦٢﴾

﴿ثُمَّ﴾ خَلَقَكَ ﴿مِنْ نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّلَكَ﴾ بعد تطوير خلقك في بطن أمك
 سَوَّاكَ ﴿رَجُلًا﴾ ولو شاء جعلك أنثى ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ يَقَادِرُ عَلَىٰ أَن يُخَيِّ
 الْمَوْتَى﴾ ؟ [القيامة: ٤٠].

و(خلقه من تراب) يحتمل: أنه عنى به خلق أبيه آدم من التراب فهو دليل
 على قدرة الله تعالى، ويحتمل: أنه أراد أن أول خلق النطفة من التراب؛ لأنها
 من الغذاء والغذاء من الحبوب والشجر والحيوان الذي أصله من غذاء
 وأصل غذائه من الشجر وأصل الشجر ما تمتصه بعروقها من الأرض من
 الماء الممزوج بالتراب الذي يتحول إلى شجر يؤكل ثم إلى دم ثم إلى مني وهو
 النطفة، فكيف كفرت بالذي خلقك أليس من قدر على خلقك في المرة
 الأولى قادراً على أن يخلقك في المرة الثانية ؟.

﴿لَيْكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ ﴿لَيْكِنَّا﴾ أي لكن أنا
 ﴿هُوَ اللَّهُ رَبِّي﴾ مثل هو الله أحد أو من بربي فأنا عبده ﴿وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي﴾
 المالك لي ﴿أَحَدًا﴾ فانفصلت عنك وباينتك بديني وبرئت من دينك، وفي
 تكريره لكلمه ربي تذكير بقبح الكفر به وقبح الشرك به؛ لأننا عباده لا شرك
 لغيره فينا بل كل أحد عبد له.

﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتُ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ۚ إِنَّ تَرَنٍ أَنَا
 أَقَلُّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا * فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا
 حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ﴾ أي هلاً

حين ﴿دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ أي لولا قلت: ما شاء الله، أي هذه الجنة ما شاء الله، فلولا مشيئته ما كانت هذه الجنة لكنه شاءها نعمة وابتلاء لصاحبها أي شكر أم يكفر ولم تكن لصاحبها بمجرد الصدقة.

﴿لَا قُوَّةَ﴾ بما فيها من الرزق وما تأتي به من الثروة والغنى ﴿إِلَّا بِاللَّهِ﴾ إذا شاء أن يكون لصاحبها ومن معه قوة بها فيكون لهم بها عز بإذن الله، وإن شاء لم يكن لهم بها قوة ولا عز بل يسلط عليهم من يطمع في مالهم مثلاً وهو أقوى منهم فلا تبقى لهم قوة ولا عز، أو يسلط على صاحبها ومن معه الرعب والخوف من الظلمة الطامعين فيخضعون لهم ويذأرونهم ويذلون لهم أو غير ذلك مما تذهب به قوتهم وعزتهم ويخلفهما الذلة والضعف.

وقوله: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ..﴾ إلى آخره هذا توبيخ من المؤمن لصاحبه على تركه لهذا القول الذي هو اعتراف بأن النعمة من الله وبمشيئته لعبده، وأن القوة بالله، وأن عليه أن يشكر النعمة ويذكر ربه الذي قواه بها ثم ابتداء المؤمن بعد احتجاجه على صاحبه وتوبيخه له يُبين لصاحبه أن الإيمان والعمل الصالح هو الذي يؤمل به حسن العاقبة في الدنيا والآخرة، فقال: ﴿إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ فإني أرجو من ﴿رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ﴾ في الآخرة التي هي السعادة الدائمة للمؤمن وأرجو أن يرسل ربي على جنتك ﴿حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ شيئاً من السماء مقدراً لخراب جنتك محسوباً حساباً مناسباً لجرميتك.

قال الراغب الأصبهاني: قيل ناراً وعذاباً وإنما هو في الحقيقة ما يحاسب عليه فيجازى بحسبه، وفي الحديث أنه قال ﷺ في الريح: «اللهم لا تجعلها عذاباً ولا حُسباناً» وقال: ﴿فَحَاسِبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا﴾ [الطلاق: ٨] انتهى.

وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفِّهِ عَلَى مَا أُنْفِقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَلِيلَتِي لِمَ أَشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿١٢﴾ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿١٣﴾ هَذَا الَّذِي أَلْوَلِيَهُ اللَّهُ الْحَقُّ هُوَ

فالمؤمن قد عبر عن توقعه بقوله: ﴿فَعَسَى رَبِّي﴾ والمتوقع بسبب البطر زوال النعمة إما بأن يرسل الله عليها ما يدمرها ﴿فَتَصْبِحُ صَعِيدًا﴾ قاعاً ليس فيه شجر ﴿زَلَقًا﴾ تزل فيه الأقدام، لعله تصور النازل عليها مطراً شديداً تجحفها سيوله وتبقى بعده أثراً بعد عين وطيناً خالصاً تزل فيه الأقدام.

﴿أَوْ يُصْبِحَ مَاوَهَا غُورًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا﴾ ﴿غُورًا﴾ أي يصبح غائراً قد غار في الأرض وذهب وفات ﴿فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ﴾ أي لما نها ﴿طَلَبًا﴾ لأن الله غالب على أمره، فإذا أغوره عقوبة وسلباً للنعمة لم تستطع طلبه لبعده وعجز العبد عن إدراكه.

﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفِّهِ عَلَى مَا أُنْفِقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَلِيلَتِي لِمَ أَشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ﴾ حيل بينه وبين ثمره وفات عليه، ويظهر من هذا: أن مصيبيته عجلت قبل قطف الثمر ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفِّهِ﴾ نادماً ﴿عَلَى مَا أُنْفِقَ فِيهَا﴾ فقلوه: ﴿يُقَلِّبُ﴾ كفيه إما كناية عن كونه نادماً، وإما مجاز عنه ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ﴾ أي جنته ساقطة فاقدة حيوتها، فالمصيبة قد عمت الثمر والجنة ﴿وَيَقُولُ يَلِيلَتِي لِمَ أَشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ ندم على جنته فندم من الشرك لما علم أنه سبب هلاكها.

﴿وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾ ﴿وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ﴾ لم يكن أعز نفراً عند أمر الله. قال الراغب: «والفئة: الجماعة المتظاهرة التي يرجع بعضهم إلى بعض في التعاضد» انتهى، فلم تتدخل فئة بينه وبين الله لنصره ﴿وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾ بنفسه ليدفع عن نفسه المصيبة ولا ليسترجع شيئاً مما فات.

خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿١١﴾ وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنْزِلَتْهُ مِنَ السَّمَاءِ فَأَخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿١٢﴾ أَلَمْ آتِ الْبَنُونَ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

﴿هُنَالِكَ الْآلَوِيَّةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ ﴿هُنَالِكَ﴾ حين تلفت جنته وتحققت مصيبتها تبين وتحقق له ولغيره أن ﴿الْآلَوِيَّةُ لِلَّهِ الْحَقِّ﴾ فمن تولاه الله فهو الذي يصلح شأنه وتطيب حاله وتحسن عاقبته ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦] يحسن رعايتهم ويلطف بهم ويدبر لهم ما فيه الخير، فأما المشركون فما لهم من دونه من ولي؛ لأن الله هو الحق رب العالمين، وإلههم الواحد الذي لا إله إلا هو، أما معبودات المشركين فهي الباطل، لا تنفع ولا تدفع ولا تسمع.

﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا﴾ أي الله خير ثواباً لمن آمن وعمل صالحاً ﴿وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ وخير عاقبة لمن آمن به واتقاه، فقد تبين بهذه القصة أن الإيمان والعمل الصالح أفضل ما يؤمل فيه حسن العاقبة، وأن الدنيا لا يوثق بها، وأن الركون إليها اغترار وجهل ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ [طه: ١٣٣].

﴿وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنْزِلَتْهُ مِنَ السَّمَاءِ فَأَخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ ﴿وَأَضْرَبَ لَهُمْ﴾ لأولئك المتكبرين ﴿مَثَلُ الْحَيَاةِ﴾ ضرب المثل إنشاؤه وصياغته، و﴿الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ هذه الحياة العاجلة التي يغتر بها الإنسان.

وقوله تعالى: ﴿كَمَاءٍ أُنْزِلَتْهُ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿تَذْرُوهُ الرِّيحُ﴾ هو المثل، أي وصف الحياة الدنيا بهذا التشبيه لها نبات الأرض الأخضر الذي أنبتته الماء ويسرع إليه أن ييبس ويتهشم أي يتكسر وتطير به الرياح وينتهي، كذلك الدنيا تنتهي بعدما تزينت لأهلها.

وَالْبَقِيَّةُ الصَّلَاحُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمْلاً ﴿٤١﴾ وَيَوْمَ نُسِيرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَعَرْضُوا

وقوله تعالى: ﴿فَاحْتَطَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾ نبت النبات متنوعاً مختلطة أنواعه كما يشاهد بعد الأمطار حين ينبت النبات، وقوله تعالى ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا﴾ كناية عن كونه قد ييس فهو يتكسر بالأسباب المختلفة من الرياح وغيرها، ومعنى ﴿تَذَرُوهُ الرِّيحُ﴾ تطيره.

قال الشريفي في (المصاييح): «قال المرتضى عليه السلام، وكان هذا مثلاً عظيماً منبهاً موقظاً من الغفلة، فأخبر الله [عز وجل] سبحانه أن حال الدنيا وأهلها في تزئینها لهم وزيتها لهم كالماء النازل من السماء ﴿فَاحْتَطَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾ يقول: خضرة الأرض وحشيشها حتى يرى مخضراً ناضراً حسناً ويصبح من بعد ذلك ﴿هَشِيمًا تَذَرُوهُ الرِّيحُ﴾ يابساً مغيراً فكذلك الدنيا وما فيها زائل كزوال هذه الخضرة، فنهاهم الله عن الإغترار بها والركون إليها» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ يفيد أنه قادر على الإبداء وإنشاء الحياة والإفناء لها والإعادة لها بعد الموت وجعل الآخرة باقية وعلى كل شيء.

﴿٤٣﴾ ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَقِيَّةُ الصَّلَاحُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمْلاً﴾ ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وهما للإنسان معرضان للفناء أو لأن يموت فيفارق المال والبنين، فهي فائدة تنتهي إلا أن البنين من شأنهم أن يجهزوا أباهم بالغسل والتكفين والدفن وبعد ذلك لا ينفعونه في قبره ولا يوم حشره، والأعمال الصالحات مع الإيمان هي الباقيات لصاحبها تنفعه عند الموت وبعده ويوم الحساب.

فلذلك قال تعالى: ﴿وَالْبَقِيَّةُ﴾ أي ليوم القيامة ﴿الصَّلَاحَتُ﴾ المقبولات الصالحات ﴿خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾ عند ربك في حكمه هي خير ﴿ثَوَابًا﴾ جزاء يثوب إليه الإنسان ويرجع إليه في الآخرة ﴿وَحَيْرٌ أَمَلًا﴾ وهي خير أملًا، فالأمل في المال والبنين نفع ينتهي وهو قليل في جنب المؤمل في الباقيات الصالحات؛ لأن المؤمل فيها النجاة من النار والفوز بالنعيم الدائم والملك الكبير الباقي فالأمل فيها خير من الأمل في المال والبنين؛ لأن الأمل في فائدة المال والبنين قد يكون اغتراراً والمؤمل بهما حقير.

وقد ورد عن النبي ﷺ: «أَنَّ ﴿الْبَقِيَّةُ الصَّلَاحَتُ﴾ سُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ» وفي بعض الروايات هذه وزيادة... «ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم».

والراجح عندي: أنه لم يرد على وجه تفسير للآية، وإنما هو ترغيب في هذه الأذكار، والحصص في الحديث إضافي أي بالإضافة إلى أعمال الدنيا وأغراضها، فمعنى الحديث: إن هذه الأذكار هي التي تبقى لصاحبها فتنتفعه في الآخرة، ولا إشكال أن الإيمان والعمل الصالح كله يبقى للمؤمن وينفعه في الآخرة.

قال الشرفي في (المصاييح): «قال المرتضى عليه السلام: وقد قيل: إن الباقيات الصالحات: التسبيح وهو عندي - والله أعلم - التسبيح وغيره من الأعمال الصالحة التي تبقى للعبد عند فوائده وتنفعه في يوم بعثه» انتهى.

﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ واذكر ﴿يَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ﴾ أي يوم القيامة حين تدك الجبال فتطير غباراً وتسير في الهواء كالغمام ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ﴾ عند ذلك ﴿بَارِزَةً﴾

عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿١٨﴾ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ

ظاهرة مكشوفة قد ذهب ما كان يغطي بعضها من الجبال والأبنية والشجر ونحو ذلك ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ﴾ الضمير إما للظالمين السابق ذكرهم في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِيع مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ﴾ الآية وإما لهم ولسائر الكافرين ﴿فَلَمْ تُغَادِرْ مِنْهُمْ﴾ لم نترك منهم ﴿أَحَدًا﴾ ميتاً لم نحشره، بل نبعث ونحشر كل نفس وكل واحد.

﴿وَعَرَضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾ قال الشريفي في (المصابيح): «قال الحسين بن القاسم عليه السلام: معناه ظهروا له صفوفاً ترى جماعتهم كما ترى كل واحد منهم لا يجب أحد أحداً شَبَّهوا بالجند المعروضين على السلطان، قال المرتضى عليه السلام: والصف فهو اصطفاؤهم في يوم حشرهم ووقوفهم في آخرتهم أي أحضروا للحساب والعقاب والثواب، ويقال لهم: ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ لأن الإنسان يخلق فرداً لا يملك مالا ولا ولداً وكذلك يأتي يوم القيامة واحداً مفرداً» انتهى.

وقوله تعالى لهم يوم القيامة: ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ اعتقد والله أعلم أنه تذكير لهم بصدق وعد الله لهم بأنه سيلقونه وأنه يعيدهم كما خلقهم أول مرة فقد صدق وعده سبحانه وتعالى؛ ولذلك قال تعالى: ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ﴾ أي في الدنيا ﴿أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾ أي ما وعدناكم به من البعث والنشور والوقوف والسؤال والفصل بين العباد بالحق والعقاب والنار كل ذلك زعمتم أن لن نجعله لكم، وقوله تعالى ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ﴾ خطاب للكفار.

وَيَقُولُونَ يَنْوِيلَتْنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ۖ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ۚ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ قُلْنَا

﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَنْوِيلَتْنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ۖ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ۚ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ عطف هذه الآية على التي قبلها، فهي من تفصيل ما يلاقي المجرمين في القيامة.

﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ﴾ ووضع عند المجرمين الكتاب الذي هو كتاب أعمالهم الذي ذكره الله تعالى في قوله - عز وجل - : ﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الحاقة: ٢٩].

﴿فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ مشفقين ظاهر في وجوههم وحركاتهم أو سكونهم أنهم قد خافوا مما في الكتاب من جرائمهم، ولعل من معنى الإشفاق محاولتهم النجاة منه بأي وسيلة ﴿وَيَقُولُونَ يَنْوِيلَتْنَا﴾ يا هلاكنا ويا ورطتنا ﴿مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً﴾ من سيئاتنا ﴿وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ هل يريد أن نجزي على كل واحدة ألا يغفر لنا صغير ولا ينسى من أعمالنا قليل ولا كثير لماذا هذا التدقيق، نعم إنه لأمر عظيم لا تدعو اليوم ثبوراً واحداً وادعوا ثبوراً كثيراً.

﴿وَوَجَدُوا﴾ جزاء ﴿مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾ قريباً منهم وجعلوا كأنهم عملوا الجزاء لأنفسهم بأنفسهم تحقيقاً لتسبيحهم له ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ بل هو الحق الذي استحقوه بأعمالهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ [الزخرف: ٧٦] وبالكتاب نفسه ومشاهدتهم لأعمالهم وتذكرهم لها كلها يعرفون أنهم إنما يجزون ما كانوا يعملون.

لِلْمَلٰٓئِكَةِ اَسْجُدُوْا لِاٰدَمَ فَسَجَدُوْا اِلَّاۤ اِبٰلِیْسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ اَمْرِ رَبِّهٖۤ ۚ اَفَتَتَّخِذُوْنَهُ وَاٰلِهٖٔهُۥ اَوْلِیَآءَ مِنْ دُوْنِیْ وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۭ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِیْنَ بَدَلًا ﴿٢٠٠﴾ مَاۤ اَشْهَدُہُمْ خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضَ وَلَا خَلَقَ اَنْفُسِہُمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّیْنَ عَضٰدًا ﴿٢٠١﴾ وَیَوْمَ یَقُوْلُ نَادُوْا شُرَکَآءَیَّ الَّذِیْنَ

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلٰٓئِكَةِ اَسْجُدُوْا لِاٰدَمَ فَسَجَدُوْا اِلَّاۤ اِبٰلِیْسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ اَمْرِ رَبِّهٖۤ ۚ اَفَتَتَّخِذُوْنَهُ وَاٰلِهٖٔهُۥ اَوْلِیَآءَ مِنْ دُوْنِیْ وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۭ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِیْنَ بَدَلًا﴾ ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ المخلوقين من نار فاستكبروا لذلك؛ لأن أصله من نار ﴿فَفَسَقَ﴾ حمله الكبر والافتخار بأصله على أن فسق ﴿عَنْ اَمْرِ رَبِّهٖۤ﴾ خرج عن أمره فسق فجور وخبائة، أي عصى أمر ربه.

﴿اَفَتَتَّخِذُوْنَهُ﴾ تتخذون هذا المستكبر الفاسق ﴿وَاٰلِهٖٔهُۥ﴾ يحتمل أنهم تفرعوا منه فكانوا ذريته لذلك وإن لم يكن تفرعهم كتفرع البشر، والمراد بهم الشياطين الذين هم مع إبليس أعداء لبني آدم؛ لأن العاصي من بني آدم يتولاه الشياطين بمعنى أنهم يسلطون عليه لا أنهم يتولونه لإصلاح شأنه بما يستطيعون فأنكر الله عليهم اتخاذ إبليس وذريته ﴿أَوْلِیَآءَ﴾ من دون الله؛ لأن ولاية الله هي الخير والحفظ وحسن الرعاية ففاتهم ولاية الله واستبدلوا بها ولاية الشياطين، فهذا معنى ﴿مِنْ دُوْنِیْ﴾ كأن اتخاذهم الشياطين أولياء حال بينهم وبين ولاية الله لهم ﴿بِئْسَ لِلظَّٰلِمِیْنَ بَدَلًا﴾ ذم لاتخاذهم الشياطين أولياء من حيث هو بدل ولاية الله لهم التي هي حسن الرعاية لهم؛ لأن ولاية الشياطين شر وقيادة إلى عذاب السعير وولاية الله خير وهداية إلى الجنة.

﴿مَاۤ اَشْهَدُہُمْ خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضَ وَلَا خَلَقَ اَنْفُسِہُمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّیْنَ عَضٰدًا﴾ ﴿مَاۤ اَشْهَدُہُمْ﴾ ما أشهدت الشياطين ﴿خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضَ﴾ كأنه تعالى يعنى ما أطلعهم على الغيب؛ لأنني ما أشهدتهم خلق هذه

زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَأَى
الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾ وَلَقَدْ

المشاهدات ﴿وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ﴾ أقرب المخلوقات إليهم فكيف أطلعهم على
الغيب، ويظهر أن أهل الجاهلية كانوا يعتقدون أن الجن يعلمون الغيب ويتوصلون
إليه منهم بالكهنة فيسألونهم عن بعض المغيبات، فلعل هذا رد عليهم.

وقوله تعالى ﴿وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَصُدًا﴾ فالشياطين مضلون
ويظهر أن هذا رد على الكفار، كقوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ يَقُولُ شَيْطَانٌ رَجِيمٌ﴾
[التكوير: ٢٥] حيث جعلوا القرآن من الكهانة، وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَنْزَّلَتْ بِهِ
الشَّيَاطِينُ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿.. إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٠-٢١٢]
وقوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ يَقُولُ شَاعِرٌ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ * وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَّا
تَذْكُرُونَ﴾ [الحاقة: ٤١-٤٢] فالمعنى إني ما كنت جاعلاً الشياطين المضلين مبلغين
عني هذا القرآن مرسلين به، والعصد المعين وهو سبحانه القادر على كل
شيء الذي لا يستعين بأحد ولكن المخلوق إذا أرسل رسولا كان قد استعان
به فجرى الكلام في النفي على هذا لبيان أنه ليس يليق بالله جل جلاله أن
يرسل الشياطين بالقرآن - والله أعلم.

﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ
يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا﴾ واذكر يوم يقول الله للمشركين
﴿نَادُوا شُرَكَاءِيَ﴾ ادعوهم بصوت رفيع ليسمعوكم ﴿الَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾
أنهم شركائي، ولعل هذا في العرب الذين كانوا يجعلون الملائكة آلهة لهم
أو فيهم وفي النصراني.

صَرَفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿١٠٦﴾ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ

وقوله تعالى: ﴿فَدَعَوْهُمْ﴾ وهل استطاعوا رفع الصوت بهذا الدعاء أم ضعفوا في حال أنهم قد ضلوا عنهم ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ لأنهم عباد أمثالهم لا يملكون من الأمر شيئاً ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مریم: ٩٣] فسواء سمعوه أم لم يسمعوه لا يستجيبون لهم بل هم رافضون لشركهم متبرئون منه.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا﴾ أي بين المشركين ومن زعموا أنهم شركاء الله سبحانه ﴿مَوْبِقًا﴾ أي مهلكاً، ولعل هذا كقوله تعالى: ﴿فَضْرِبَ بَيْنَهُمْ يَسُورَ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ [الحديد: ١٣].

﴿وَرَاءَ الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ ﴿وَرَاءَ الْمُجْرِمُونَ النَّارَ﴾ وهم في موقف الحساب أو قبل أن يدخلوها ﴿فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا﴾ أنها واقعة عليهم حين تأتيتهم وهم واقعون فيها، وهذا الظن لا ينافي علمهم أنهم يصيرون إليها لأن هذا الظن سببه رؤيتها فهو ظن قرب وقوعهم فيها ووقوعها عليهم في القريب العاجل ﴿وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ يصرفها عنهم ويصرفهم عنها لا شركاء ولا شفعاء ولا غير ذلك.

﴿وَلَقَدْ صَرَفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ أول هذه الآية قد مر مثله في (سورة الإسراء) وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ المجادلة مغالبة في القول فيما اختلف فيه أو نوزع فيه وكثرة جدال الإنسان إما لهواه وإما لجهله وتردده بين الحق والباطل ولو بالدعوى أنه على الحق أو يريد الحق ولعل الجن كانوا دون الإنسان في الجدل لمخالفتهم للإنسان في بعض الأسباب.

إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَنُجَدِّلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا ءَايَتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا ﴿٥٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ

﴿٥٥﴾ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وهذا من جلدكم بعد وضوح الحق ما منعهم ﴿٥٦﴾ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ ﴿٥٦﴾ بالقرآن والرسول فالقرآن المعجز دليل واضح وهدى يدعو إلى الإيمان بالله وباليوم الآخر وبالرسول، فلم يمنعهم عدم الدليل الذي يهدي إلى الإيمان، وإنما هو الجدل وانتظارهم أن تأتيهم سنة الأولين أي عذاب مثل عذاب الأولين الذي هو سنة الله في الذين خلوا؛ لأنه إذا أتاهم آمنوا لكن لا ينفعهم الإيمان حينئذ.

وقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ﴾ يبين أنهم في حاجة إلى الإيمان؛ لأن ذنوبهم قد أوجبت لهم العذاب إن لم يؤمنوا فامتناعهم من الإيمان ﴿إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ﴾ إذا جاءتهم ﴿سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ أو أتاهم عذاب النار امتناع من الاستغفار مع أن عذاب النار هو العذاب فكان سنة الأولين في جنبه ليست عذاباً وإنما هي هلاك، أما عذاب النار فهو الشديد الباقي، وقوله تعالى: ﴿قُبُلًا﴾ أي مقابلاً لهم يروونه مواجهاً لهم فعند ذلك يؤمنون ولكن لا ينفعهم يومئذ إيمانهم.

﴿٥٦﴾ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَنُجَدِّلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا ءَايَتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا ﴿٥٦﴾ هذا رد عليهم؛ لأنهم علّقوا إيمانهم على مجيء العذاب، والإيمان بالرسول يجب أن يكون قبل لينفع المؤمن لأن الله تعالى ما يرسل ﴿الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ﴾ لمن آمن

فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾

﴿وَمُنْذِرِينَ﴾ لمن أبى فمثلهم مثل قوم جاءهم نذير بهجوم عدوهم فقالوا: ننتظر حتى يأتي إن كنت صادقاً، أو لا يأتي إن كنت كاذباً، فقد فوتوا على أنفسهم فائدة الإنذار، حيث توقفوا عن قبول الإنذار فلم يستعدوا لدفع العدو ﴿وَيُجَنِّدُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ وهذا من سوء اختيارهم لأنفسهم وتعرضهم للعذاب، والإدحاض أصله الإزلاق في الزلق الذي تزل فيه القدم ويسقط فيه من زلق، فالمعنى ليسقطوا الحق ويبطلوه بجدهم بالباطل.

وقوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا﴾ أي جعلوها للهزو أهلاً وموضعاً، وليس مجرد استهزائهم بها مرة عارضة فهم يسخرون منها ويضحكون مبالغة منهم في التكذيب بآيات الله.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال المرتضى عليه السلام: معنى ﴿آيَاتِي﴾ فهو ما جاءت به الأنبياء - (عليهم السلام) - من المعجزات والآيات الباهرات هزواً ولعباً وينسبونها إلى السحر والحيل فلم يعتبروا بعظيم ما فيها من الرشد والهدى، وما أبان الله فيها من الدلائل لمن آمن واتقى، وما أُنذروا من العقاب والعذاب الشديد، وكان كل ذلك عندهم هزواً يهزؤون به ولا يتفكرون بشيء منه» انتهى.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ أي لا أظلم ممن أعرض عن

وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَّنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْيلاً ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ الْقُرَى

آيات ربه بعد أن ذكر بها فتبين له الحق فأبى أن يؤمن به وأصر على الإعراض عنه، وآيات ربه: القرآن المعجز وكل دليل يهدي إلى الحق تركها ﴿وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ من الجرائم التي يحتاج إلى أن يتوب منها لينجو من عقوبتها التي هي النار، وقد أنذر فلم يسمع.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ أي قلوب المعرضين عن آيات ربه المالك لهم الذي هو أولى بهم وأحق أن يشكروه ويعبدوه ويتقوه ﴿أَكِنَّةً﴾ قال في (الصحيح): «والأكِنَّة: الأغطية»، قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ [الأنعام: ٢٥] الواحد كنان» انتهى، ومثله في (مصابيح الشرفي).

وقوله تعالى: ﴿أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ أي أن يفهموه أي القرآن الذي أفاده قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا رَبُّوهُ﴾ ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ قال الراغب في (المفردات): «الوقر: الثقل في الأذن» انتهى.

وهذا من المتشابه، وهو نظير قول الله تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾ [البقرة: ٧] وقد مر تفسيره، ولو كان على معنى الحقيقة لكان قد سقط التكليف عنهم بتعذر الفهم، لقول الله تعالى: ﴿لَا يَكْلَفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ لخذلانهم وإرسال الشياطين عليهم ﴿أَبَدًا﴾ تأكيد للنفي ودلالة على دوام الخذلان. ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ﴾ ﴿بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَّنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْيلاً﴾ ﴿وَرَبُّكَ﴾ الذي أرسلك إليهم فكذبوك هو ﴿الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ﴾.

أَهْلَكْنَهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا ﴿٥٥﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتْنِهِ
لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٥٦﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ

ثم فسر هذا الغفران وهذه الرحمة، فقال تعالى: ﴿لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا
لَعَجَلْ لَهُمُ الْعَذَابُ﴾ لأنهم قد استحقوه فهنا مغفرة تشمل إمهالهم ورحمة
كذلك، وإنها لمن النعم الكبرى؛ لأنهم في مدة الإمهال تقبل منهم التوبة إن
تابوا، فتغفر ذنوبهم مغفرة في الدنيا ويوم يقوم الحساب، ويصرف عنهم عذاب
يومئذ، و﴿مَنْ يُصِرْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ [الأنعام: ١٦].

وقوله تعالى: ﴿بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ﴾ وهو يوم الحساب والجزاء ﴿لَنْ يَجِدُوا مِنْ
دُونِهِ﴾ بينهم وبينه ﴿مَوْيلًا﴾ منجأ يلجأون إليه فينجيهم منه، وفي كلام أمير
المؤمنين عليه السلام: إذا فررت فلا وألت، قال في (الصحيح): «الموئل: الملجأ» انتهى.

﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ ۖ أَهْلَكْنَهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا﴾
﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ﴾ عطف على ذكر الإمهال، فالإمهال إما إلى الموت وإما
إلى نزول عذاب عاجل كما نزل على الأمم المكذبين والإشارة إليهم بقوله
تعالى: ﴿تِلْكَ الْقُرَىٰ﴾ تفيد: أنهم معلومون للسامعين كالمشاهدين،
والقرى تفسير للإشارة، والمراد مثل: قوم نوح، وعاد، وثمود، وقوم
إبراهيم، وقوم لوط، ونظير هذه الإشارة قول أمير المؤمنين عليه السلام، فيما رواه
(صاحب القاموس):

تلكم قرىش تمناني لتقتلني فلا وربك ما بروا ولا ظفروا

وقوله تعالى: ﴿أَهْلَكْنَهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾ أي بسبب ظلمهم ففيه إنذار
للمكذبين بمحمد ﷺ وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا﴾ يفيد أن
التأجيل لا يجب أن يكون إلى الموت بل قد يكون إلى العذاب المهلك.

بَيْنَهُمَا نِسِيًا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴿١١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتْنِهِ ءَاتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ﴿١٢﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ

﴿١١﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتْنِهِ لَا أُبْرَحُ حَتَّىٰ ٢ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ هذه الآيات في قصة موسى وطلبه للعلم وقعت بعد إنذار المكذبين دلالة على صدق الرسول ﷺ لإخباره بما هو مطابق لما عند أهل الكتاب، واذكر يا رسول الله هذه القصة ﴿إِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتْنِهِ﴾ مملوكة أو خادمه ﴿لَا أُبْرَحُ﴾ سائراً ﴿حَتَّىٰ ٢ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ﴾ أي لا أزال فهي من أخوات (كان) حذف خبرها للدلالة قوله: ﴿حَتَّىٰ ٢ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ﴾ ومجمع البحرين: ملتقاهما بإزاء البلد المسمى البحرين.

وفي (تفسير الشريفي) عن الإمام الهادي عليه السلام، عند قول الله تعالى: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾ [الرحمن: ١٩] نحو هذا في إفادة أن البحرين ملتقيان كل واحد منها متصل بالآخر ممنوع عن مخالطة، وهذا قد أخبرني به رجل من البحرين ووعدني بإيصال وثائق تفيده، وغرض موسى كما روي، وكما يفيد قوله: ﴿ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغُ﴾ أن يحصل عبداً من عباد الله الصالحين يفيد علماً.

وقوله: ﴿أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ أي سنين كثيرة لأبلغ مجمع البحرين، قال في (الصحيح): «والحُقُب: الدهر، والأحقاب: الدهور» انتهى.

﴿١٢﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾ ﴿بَلَغَا﴾ أي موسى وفتاه بلغا ﴿مَجْمَعَ﴾ بين البحرين محل الاجتماع ﴿بَيْنَهُمَا نِسِيَا حُوتَهُمَا﴾ هنالك وذهبا ﴿فَاتَّخَذَ﴾ الحوت ﴿سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾ لأنه عاد حياً فرجع في البحر في سبيله الذي أتى منه اتخذه سرباً أي طريقاً.

أَوْيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحَوْتَ وَمَا أَنَسِينِي إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ ﴿٢٧﴾
وَأَتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٢٨﴾ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «يعني مسلماً ومذهباً» انتهى،
وهنا بديع تتابع الثنية في ضمنها ثنية ﴿الْبَحْرَيْنِ﴾ واتفاق تتابع السينات في
شان الحوت.

﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتْنِهِ ءَاتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا
نَصَبًا﴾ ﴿جَاوَزَا﴾ مكانهما الذي كانا فيها حول مجمع البحرين وتجاوزاه إلى
غيره ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿لِفَتْنِهِ ءَاتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا
نَصَبًا﴾ آتانا غداءنا لنأكله لقد لقينا من سفرنا هذا تعباً وشدة، أراد أن يأكلا
ويستريحاً قليلاً من ذلك النصب.

﴿قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحَوْتَ وَمَا أَنَسِينِي إِلَّا
الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾ وَأَتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴿قَالَ﴾ الفتى لموسى
﴿أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ﴾ حيث كنا عند مجمع البحرين ﴿فَإِنِّي نَسِيتُ
الْحَوْتَ﴾ هناك يذكره المكان الذي نسي فيه الحوت؛ لأنه مكان حادثة عجيبة
﴿وَأَتَّخَذَ﴾ الحوت ﴿سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ أي أمراً عجباً.

وقوله: ﴿وَمَا أَنَسِينِي إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾ يقول الفتى وما أنساني
الحوت وما فيه من الآية العجيبة إلا الشيطان أن أذكره لعله أراد أن أذكره
لك، أي أنساني الشيطان كراهة أن أذكره لك أو لثلاث أذكره لك، ولعل
الفتى قد علم سابقاً أن الآية التي تكون وتحدث هي علامة للغرض الذي
يطلبه النبي موسى عليه السلام فأراد أن الشيطان أنساه لئلا يذكر هذه الآية لني
الله موسى ليبقى في سفر ونصب والله أعلم، فهنا نسيان أول أتاح الفرصة
للحوت ليرجع إلى البحر، ونسيان ثان سبب تأخير الفتى لذكر هذه الآية
لموسى عليه السلام حتى قال: ﴿آتِنَا غَدَاءَنَا﴾ و﴿الصَّخْرَةَ﴾ حجر عظيم.

ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿١٦﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا ءَاتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِمَّا لَدُنَّا عِلْمًا ﴿١٧﴾ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿١٩﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ

﴿١٦﴾ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۖ فَارْتَدَّ عَلَىٰ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿١٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ ﴿ذَلِكَ﴾ الأمر الذي هو إحياء الحوت ورجوعه في البحر هو الذي ﴿كُنَّا نَبْغِ﴾ أي نبغي أي نطلب؛ لأن فيه الدليل على العبد الذي نريد أن نأخذ منه علماً، فنحن نطلب هذا الدليل لأجل المدلول ﴿فَارْتَدَّ﴾ أي رجعا ﴿عَلَىٰ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ يقصّانها ليرجعا حيث كانا لا يغلطا، فرجعا من حيث أتيا يقصان آثارهما قصصاً.

﴿١٨﴾ ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا ءَاتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِمَّا لَدُنَّا عِلْمًا﴾ ﴿فَوَجَدَا﴾ حين رجعا عند مجمع البحرين ﴿عَبْدًا﴾ من عباد الله ليس مملوكاً للبشر ﴿ءَاتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ هدى يوصله الجنة وينجيه من النار ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِمَّا لَدُنَّا عِلْمًا﴾ من لدنا إما بوحى وإما بوراثة من نبي قبل موسى ومع ذلك علم العقليات وما يستفاد من الحكمة بالعقل والتجربة، وكل ذلك من عند الله، وعلمه هو الذي بعث موسى على طلبه، ولعله سافر إليه من بعيد بحيث تعب في طلب العلم من عند هذا العالم، وفي هذا رد على من يحتج بحديث: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة...» على منع السفر إلى غير الثلاثة المساجد.

﴿١٩﴾ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٢٠﴾ فال المطلوب: أن ترشدني بتعليمك لي ليس لي غرض في التعلم مخالف لطلب الرشد الذي هو إصابة الحق الذي ينال به الخير.

﴿٧٨﴾ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴿٧٩﴾ قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٨٠﴾ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٨١﴾ فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتُهَا لِتُفْرِقَ أَهْلَهَا ﴿٨٢﴾

﴿٧٨﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٩﴾ وهذا اعتذار إلى موسى من مصاحبته له، ولكن موسى عليه السلام لم يكن يدري لماذا لن يستطيع معه صبراً، ولعله ظن أن في صحبته مشاقاً معتادة مثل طول السفر وتحمل الجوع والسهر، وهو عليه السلام يرى أنه يستطيع الصبر على ذلك.

﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴿٨١﴾ إفادة أنه مظنة أن لا يصبر من حيث أنه سيواجه مشاكل لا يدري ما حلها وكيف كانت فقد أشار له إلى ما سيلاقي، ولكن رغبة نبي الله موسى في علمه حملته على الوعد بالصبر كما يلي:

﴿٨٢﴾ قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٨٣﴾ هو عليه السلام يجد من نفسه الجلد ويرجو أنه يصبر فهو عازم على الصبر، وعلق قوله: ﴿سَتَجِدُنِي﴾ على قوله: ﴿إِن شَاءَ اللَّهُ﴾ لأن هذا أمر مستقبل لا يدري ما الله قاض فيه، وقوله: ﴿وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ يفيد عزمه على الصبر حتى على ما أمره به لا مجرد الصبر على مشاق الصعبة وذلك ليأذن له في صحبته.

﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٥﴾ قَالَ ﴿الْعَالَمُ لِمُوسَى﴾ ﴿فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي﴾ على هذا الأساس ﴿فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ يفيد: أنه سيلاقي أشياء مشكلة وأنه سوف يحدث له منها ذكراً يحل الإشكال وينهاه أن يسأل عن شيء منها بل ينتظر حتى يبين له، وعلى هذا تم الاتفاق بينهما.

لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴿٧٦﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٨﴾ فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ

﴿٧٦﴾ فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ أَخَرَقْتُهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَ السَّفِينَةَ ﴿لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾؟! إنكاراً منه لخرقها؛ لأنه في الظاهر منكر وتعريض لمن في السفينة للغرق ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ أي أن خرق السفينة إمر [بكسر الهمزة].

قال الشرفي في (المصابيح): «أي عجباً مبتدعاً منكر [كذا] مأخوذ من الإمر وهو الفاسد الذي يحتاج إلى إصلاح، وقيل: الإمر الداهية العظيمة، عن أبي عبيدة، وأنشد:

لقد لقي الأقران منه نكراً داهية دهياء إذا إمرأ

انتهى، وفي (الصحيح): «قال الأخفش: يقال أيضاً أمر امرأة يَأْمُرُ أَمْرًا أي اشتدَّ والإسم الإمر - بكسر الهمزة - قال الراجز:

لقد لقي الأقران مني نكراً داهية دهياء إذا إمرأ

ومنه: قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ ويقال: عَجَبًا، انتهى.

وفي (لسان العرب) مثل هذا إلى قوله.. عجباً، إلا أنه لم يذكر الآية، ثم قال: وأمرٌ إمرٌ عجب منكر، وفي (التنزيل العزيز): ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ قال أبو إسحاق: أي جئت شيئاً عظيماً من المنكر، وقيل: الإمر بالكسر الأمر العظيم الشنيع، وقيل: العجيب، انتهى المراد.

ويظهر من التفاسير: أنه أراد ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ تصرفاً غريباً شديداً والله أعلم.

إِذَا لَقِيََا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ﴿٧٤﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِنْ

﴿٧٤﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ ذكره ما سبق إليه منه ليعرف أنه لن يستطيع معه صبراً فيعذره عن مصاحبته.

﴿٧٦﴾ قَالَ لَا تَأْخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٧﴾ فقد نسي موسى - صلوات الله عليه - حين شاهد العالم خرق السفينة لم يذكر قوله: ﴿إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ ويكفي نسيانه في تلك اللحظة في صحة قوله: ﴿بِمَا نَسِيتُ﴾ ولا حاجة إلى جعله من الأعاريض، ولذلك فهو اعتذار بالنسيان صحيح.

وقوله: ﴿وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾ يريد لا تمنعني أن أصحبك إلا بتحمل أمر عسر، أي عاملني بالرفق والتيسير وهذا لرغبة النبي موسى عليه السلام في علم هذا العالم. قال الراغب في تفسيره لـ (مفردات القرآن): «رهقه الأمر: غشيه بقهر» انتهى.

﴿٧٨﴾ فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيََا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتَ زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ﴿٧٩﴾ في (المصابيح): «قال المرتضى عليه السلام: وقد قيل إن الغلام كان صبياً صغيراً وليس ذلك عندنا بشيء بل كان الغلام كبيراً بالغاً، والعرب تسمي ابن العشرين والثلاثين السنة غلاماً» انتهى. ومثله حكى في (المصابيح) عن الإمام الهادي عليه السلام والحسين بن القاسم عليه السلام.

وقد يشكل عليه أن العالم جعل سبب قتله غير استحقاقه، فعدوله عنه يوهم أنه لم يكن منه موجب لاستحقاقه القتل.

سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَحِّبْنِي ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾
فَإِنْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعَمَا أَهْلُهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا
فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ ۚ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ
أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ

وأجواب: أنه عدل عنه إلى ذكر الغرض الباعث على قتله وأنه لم يقتله عن أمر نفسه، أي بل عن أمر الله وذلك كافٍ في حل الإشكال لأنه إذا كان عن أمر الله فهو حق؛ لأنه إن كان كبيراً مستحقاً للعقوبة بالقتل فظاهر، وإن كان صغيراً فقتله بأمر الله كذب الأنعام بأمر الله تعالى، ولا جور فيه؛ لأنه تعالى يوفيهما يوم القيامة عوض ما لحقها في الدنيا من الضرر، وكذلك ذبح الغلام، والنفس الزاكية: السليمة من الذنوب الموجبة للقتل، والنكر ما تنكر النفس.

﴿٧٦﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٧﴾ ذكره مرة ثانية ما سبق منه إليه ليعذره عن ترك صحبته، وزاد قوله: ﴿لَكَ﴾ عناية في الإعتذار إليه من صحبته. ﴿٧٦﴾ قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَحِّبْنِي ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٧﴾ قال في (لسان العرب): «وعذره يعذره فيما صنع عُذْرًا» انتهى، فأفاد أنه يستعمل مصدر عَذَرَ، وعليه يكون المعنى: قد بلغت من لدني أن عذرتك أي بصحبتك لي بعد أن خالفت شرطك عليّ مرتين وحتى خالفته المرة الثالثة، وهذا من موسى عليه السلام، إسعاد للعالم، أعني قوله: ﴿فَلَا تُصَحِّبْنِي﴾ ولذلك قال: ﴿قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا﴾ فلم يكره موسى صحبته ولكن لم يجد إليها سبيلاً لا يخالف المروءة والحياء.

﴿٧٧﴾ فَإِنْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعَمَا أَهْلُهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ ۚ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٨﴾ فَإِنْطَلَقَا ﴿٧٩﴾ سارا في الأرض حتى حصلت لهما أمور إتيان أهل قرية صفتها

صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ

أن أهلها أبو ﴿أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا﴾ مع أنهم قد ﴿أَسْتَطَعَمَا أَهْلَهَا﴾ فلم يتركوا إطعامهما غفلة عنهما بل لؤماً مع أنهما جائعان، فمقتضى حالهما أن يطلبوا الطعام بالثمن أو نحوه؛ لأنهم إنما أبوا أن يضيّفوهما لا أن يطعموهما بالثمن، وهذا الأمر الثاني، وفي هذه الحالة وجدا ﴿فِيهَا جِدَارًا﴾ مشرفاً على الإنقضاض والانهدام والسقوط ﴿فَأَقَامَهُ﴾ العالم بلا أجر وهذا الأمر الثالث، فكانت صورة هذا العمل مخالفة للرأي ول مقتضى حاجتهما إلى الطعام.

﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ لنشتري به طعاماً، وهذه المخالفة الثالثة لأن معناها: لماذا بنيت الجدار بدون أجر؛ لأنه اعتراض يطلب به بيان السبب كالأول، والثاني.

﴿قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنْتِكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ ﴿قَالَ﴾ العالم لموسى: ﴿هَذَا﴾ السؤال الثالث أو هذا الذي قد أن وحضر وقته ﴿فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ سأخبرك بتأويل الأمور التي لم تستطع عليها ﴿صَبْرًا﴾ وتأويلها هو ما تؤول إليه الذي هو السبب الذي لأجله حسنت ولأجله آلت إلى أنها حق وصواب، أو لكونها تؤول إليه كانت حقاً وصواباً.

﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ ﴿يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾ لينالوا رزقاً مثل أن ينقلوا فيها بضاعة أو ركاباً من الفلك الكبير إلى الشاطئ أو من الشاطئ إلى الفلك ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ في حال أنه ﴿كَانَ وَرَاءَهُمْ﴾ مقبلاً إليهم ﴿مَلِكٌ﴾ ظالم ﴿يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ أي لتنجو من الملك خرقتها فكان خرقتها أهون عليهم وأصلح لهم من أن يأخذها الملك الظالم غصباً.

أَبَوَاهُ مُؤْمِنِينَ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨﴾ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزُ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿١٠﴾ وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي

﴿٨﴾ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنِينَ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٩﴾ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا ﴿١٠﴾ يَغْشِيهِمَا وَيُلْحِقُهُمَا ﴿١١﴾ طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿١٢﴾ أَي خَشِينَا أَنْ يَصِيرَهُمَا طَاغِينَ كَافِرِينَ فَكَانَتْ مَصْلَحَتُهُمَا فِي قَتْلِهِ لِيَنْجُوا مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ.

﴿٨﴾ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٩﴾ ﴿زَكَاةً﴾ أَي طَيِّبًا وَصَالِحًا يَنْاسِبُ إِيمَانَ وَالِدَيْهِ ﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ فِي (تَفْسِيرِ الشَّرْفِيِّ) رَحْمَةً: «عَنِ الْحُسَيْنِ بْنِ الْقَاسِمِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ أَي رَحْمَةً وَعُظْفًا» انْتَهَى. وَفِي (تَفْسِيرِ الْإِمَامِ زَيْدِ بْنِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ): «﴿خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً﴾ دِينًا ﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ مَوَدَّةً» انْتَهَى. قَالَ الشَّرْفِيُّ: «وَالْمُرَادُ: بَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَأَوْصَلَ لِلرَّحِمِ» انْتَهَى.

وقد يقال: كيف توقف وجود الولد الصالح على هلاك الأول حتى يكون الثاني بدلاً من الأول؟

والجواب والله أعلم: أنه لولا هلاك الأول ما صلح الثاني؛ لأن الصغير من الأولاد يقتدي بأخيه الكبير، أما إذا هلك الأول لم يكن للثاني قدوة إلا والديه.

﴿٨﴾ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزُ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٩﴾ فَأَرَادَ رَبُّكَ ﴿١٠﴾ لِّصَلاحِ ابْنَيْهِمَا ﴿١١﴾ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا ﴿١٢﴾ قُوَّتَهُمَا وَقَدَرَتَهُمَا عَلَى حِفْظِ مَا لُهُمَا ﴿١٣﴾ وَيَسْتَخْرِجَا ﴿١٤﴾ عِنْدَ ذَٰلِكَ ﴿١٥﴾ كَنْزَهُمَا ﴿١٦﴾.

﴿وَمَا فَعَلْتُهُ﴾ ما فعلت الذي سألت عنه إلا عن أمر الله لا ﴿عَنْ أَمْرِي﴾ وفي قوله: ﴿عَنْ أَمْرِي﴾ مشاكلة تقديرية، لأن المراد ما فعلته عن رأيي، وقوله: ﴿ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ﴾ أي قوله: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ﴾ إلى قوله: ﴿عَنْ أَمْرِي﴾ ذلك كله تأويل ما لم تستطع عليه صبراً، ولعل في قوله ﴿صَبْرًا﴾ إفادة أنه لم يستطع قليلاً من الصبر وحذفت (التاء) من تستطع للتخفيف، ونظيره قول طرفة:

فإن كنت لا تستطيع دفع مني فدعني أبادرها بما ملكت يدي

وهنا سؤال: كيف قال في قتل الغلام: ﴿فَارَدْنَا﴾ وفي إقامة الجدار: ﴿فَارَادَ رَبُّكَ﴾ وفي خرق السفينة: ﴿فَارَدْتُ﴾؟

وأجواب - والله أعلم - : أن قوله: ﴿فِي السَّفِينَةِ﴾ بيان لغرضه في خرقها وهو أنه أراد أن يعيها لا أن يغرق أهلها، فأما فائدة أن يعيها فلم يصرح بإرادة فيها وهي بقاء السفينة لأهلها، وقد فهمت من قوله: ﴿وَكَانَ رَأَاهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ وأما قوله: ﴿فَارَدْنَا أَنْ يَبْدِلَهُمَا﴾ ففيه إرادة لهذا العالم الباعثة على القتل وإرادة الله تعالى، فقال: ﴿فَارَدْنَا﴾.

وأيضاً: فإنه في خرق السفينة فهمت الإرادة فيه للغرض بذكر الملك الذي يتوقع أن يأخذها غصباً إن لم يجدها معية، فأغنى ذلك عن ذكر الإرادة.

وأما قوله: ﴿فَارَادَ رَبُّكَ﴾ فذكر إرادة الله تعالى لتوقف ما بعدها عليها لا على مجرد إقامة الجدار ليفيد رحمة الله باليتيمين بسبب صلاح أبيهما وتيسير رزقهما عند كبرهما، وقد أفاد حسن رعاية الله لأبوي القتيل بقوله: ﴿يَبْدِلُهُمَا رَبَّهُمَا﴾ - والله أعلم.

وهنا سؤال آخر: كيف طلب موسى هذا العالم ولقي من سفره نصيباً في البحث عنه ثم لم تنهياً له صحبته التي أرادها، وهلا جاءه الوحي بذلك قبل أن يتعب في طلبه؟!

والجواب والله أعلم: أنه ينال أجراً كبيراً لتعبه في طلب العلم وبحشه عنه، وقد روي عن علي عليه السلام أنه قال في العلم: «والبحث عنه جهاد» فلم تبطل فائدة السفر، وأيضاً قد حصلت له فائدة علمية وهي التثبت في المشكلات إذا تذكر تلك القصة التي تفيده أنه قد يغلط إذا عجل ولم يتثبت.

وهنا سؤال: كيف كرر ذكر أهل القرية ولم يقل: حتى إذا أتيا قرية، أو حتى إذا أتيا أهل قرية استطعموهم؟

فالجواب والله أعلم: أما ذكرهم أول مرة فليتوجه الذهن إليهم من أول الكلام لقوة علاقتهم بالمشكلة وذلك أوضح لدلالة الكلام وسهولة فهمه، وإما ذكرهم ثانياً فليصرح بتعليق الكلام على كونهم أهل القرية؛ لأن الضيافة كانت حقاً عليهم من حيث أنهم أهل القرية الذين هم كانوا مظنة أن يضيفوهما لولا لؤمهم لأن ضيافة ابن السبيل تكون على أهل البلد الذين جاءهم من حيث أنهم أهل البلد لا غرباء مثله - والله أعلم.

وهنا سؤال: كيف قيل: ﴿اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا﴾ ولم يقل: استضافا، أو قيل: استطعما فأبوا أن يطعموهما؟

والجواب والله أعلم: لعلهما مع شدة حالهما وجواز السؤال لهما في تلك الحالة لم يصرحا بطلب الضيافة إنما عرضا بالسؤال هل عندكم طعام فجاء الكلام على الواقع، وأما قوله: ﴿فَأَبَوْا أَنْ يُضَيَّفُوهُمَا﴾ فقد مرّ بيانه.

الْقَرْنَيْنِ ﴿٤٢٢﴾ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٤٢٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ
وَعَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٤٢٤﴾ فَاتَّبَعَ سَبَبًا ﴿٤٢٥﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ
الشَّمْسِ وَجدهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَبْدَأُ

﴿٤٢٦﴾ وَتَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٤٢٧﴾ قال
الشرفي في (المصابيح): «قال في (البرهان): روي عن أمير المؤمنين علي
عليه السلام أن (ذا القرنين) لم يكن نبياً، ولكنه كان عبداً صالحاً أحب الله وأحبه
الله وناصر الله فنصره الله، فضربوه على قرنه فمكث ما شاء الله ثم دعاهم
إلى الهدى فضربوه على قرنه الآخر، وإنما سمي ذو [كذا] القرنين لأنه
المضروب على جانب رأسه، على ما روي عن أمير المؤمنين» انتهى.

وقال الشرفي: «قال المرتضى عليه السلام: وذو القرنين: هو رجل من الروم كان
عبداً صالحاً، واسمه: الإسكندر» انتهى.

﴿٤٢٨﴾ وَتَسْأَلُونَكَ ﴿٤٢٩﴾ يَا رَسُولَ اللَّهِ ﴿٤٣٠﴾ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ ﴿٤٣١﴾ مَا قِصَّتُهُ، أَوْ مَنْ هُوَ
﴿٤٣٢﴾ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ ﴿٤٣٣﴾ سَأَقْرَأُ عَلَيْكُمْ مَتَبَعاً لِمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَتْلُو عَلَيْكُمْ ﴿٤٣٤﴾ مِنْهُ
ذِكْرًا ﴿٤٣٥﴾ عَلَيْكُمْ أَيُّهَا السَّائِلُونَ ذِكْرًا مِنْهُ أَيُّ مَنْ شَأْنُهُ، وَمَعْنَى ﴿ذِكْرًا﴾
شيئاً من القرآن وهو ما يأتي:

﴿٤٣٦﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٤٣٧﴾ ﴿٤٣٨﴾ مَكَّنَّا لَهُ فِي
الْأَرْضِ ﴿٤٣٩﴾ جَعَلْنَا لَهُ فِي الْأَرْضِ سُلْطَانًا وَوَلَايَةً وَأَمْرًا ﴿٤٤٠﴾ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ
سَبَبًا ﴿٤٤١﴾ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مِنْ أَدْوَاتِ التَّمْكِينِ ﴿٤٤٢﴾ وَسَبَبًا ﴿٤٤٣﴾ وَسَبَبًا ﴿٤٤٤﴾ وَسَبَبًا ﴿٤٤٥﴾ وَسَبَبًا ﴿٤٤٦﴾ وَسَبَبًا ﴿٤٤٧﴾ وَسَبَبًا ﴿٤٤٨﴾ وَسَبَبًا ﴿٤٤٩﴾ وَسَبَبًا ﴿٤٥٠﴾
نصراً وهيبة أم غير ذلك مما يتوصل به إلى أغراضه.

﴿٤٥١﴾ فَاتَّبَعَ سَبَبًا ﴿٤٥٢﴾ اتبعه واعتمده في سفره لقطع المسافات.

الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨١﴾ قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا ﴿٨٢﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ

﴿٨١﴾ ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا﴾ سافر في الأرض بوسيلة اتباعها ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ﴾ وهو الذي تغرب عنه ويقع شعاعها عليه عند غروبها عن الأرض المسكونة في عصره. قال سيد قطب في (تفسيره): «والظاهر من النص: أن ذا القرنين غرّب حتى وصل إلى نقطة على شاطئ المحيط الأطلسي، وكان يسمى بحر الظلمات، ويظن أن اليابسة تنتهي عنده فرأى الشمس تغرب فيه» انتهى المراد.

وقوله تعالى: ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ والحمة ممزوجة بالحماء كدرة، والحماء قد مر تفسيره في (سورة الحجر) وهو خلّب غيره المكث في أسفل الماء، ولعل هذه العين كانت واسعة تمتزج بالحماء لنزول بعض الأنهار إليها بقوة، وكانت متصلة بالبحر ولذلك غربت الشمس فيها، وقيل: البحر نفسه هو العين.

وقوله تعالى: ﴿وَوَجَدَ عِنْدَهَا﴾ أي عند العين ﴿قَوْمًا﴾ يذكر شأنهم في قوله تعالى: ﴿قُلْنَا يَذَّابِقُ الْفَيْسُ أَفْأَنْتَ أَنْتَ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ ﴿إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ﴾ القوم لكفرهم ﴿وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ حسن معاملة، ليؤمنوا إن أفاد الإحسان.

﴿٨٢﴾ ﴿قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا﴾ ﴿ظَلَمَ﴾ أبى الإسلام ﴿فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ﴾ زجراً له ولغيره ﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ﴾ في الآخرة ﴿فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا﴾ لا تعرفه النفوس ولا تالف نوعه لشدته وخرقه للعادة.

وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءٌ الْحَسَنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُ مِن أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ يَجْعَلْ لَهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ

﴿٨٨﴾ ﴿وَأَمَّا مَن ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءٌ الْحَسَنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِن أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ ﴿فَلَهُ جَزَاءٌ الْحَسَنَىٰ﴾ على قراءة نافع ﴿جَزَاءُ﴾ وإضافته إلى الحسنى فالحسنى المثوبة الحسنى وهى الجنة أضيفت الصفة إلى الموصوف، وأما على نصب ﴿جَزَاءُ﴾ وتنوينه فكذلك، والمعنى: فله الحسنى جزاءً على إيمانه وعمله الصالح وقدم ذكر هذا الجزاء لأنه الذى يهم المؤمن طلبه، وقوله: ﴿وَسَنَقُولُ لَهُ مِن أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ أى نقول له قولاً يسراً أى تيسيراً لا نشدد عليه.

﴿٩٠﴾ ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا * حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ يَجْعَلْ لَهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾ ﴿بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ﴾ أول الأرض المسكونة من جهة المشرق فهو يرى منها الشمس عند طلوعها على أول المسكونة ﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ﴾ حالتهم غريبة؛ لأنهم تطلع الشمس عليهم وليس ﴿لَهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾ يظلمهم أو يقيهم شعاعها، ولعلمهم كانوا أهل شعر كثير كالذباب فأغناهم مع تخلفهم.

قال الشرفى فى (المصابيح): «قال الهادى عليه السلام: يقول: ﴿لَّمْ يَجْعَلْ لَهُم﴾ ما نجعل لغيرهم من الأكنان والبيوت واللباس، وهؤلاء قوم فى مطلع الشمس فى طرف الأرض» انتهى.

فلا بد أن اليابسة هناك انتهت فى اعتقاد الأولين واعتبروا طرف الأرض حيث انتهت وليس بعدها إلا بحر مثل الذى فى مغرب الشمس، فالحاصل: أن مطلع الشمس أول ما تطلع عليه من المسكونة فى ذلك العصر.

سَبَبًا ﴿١٢﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونَهُمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿١٣﴾ قَالُوا يَنْذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿١٤﴾ قَالَ مَا

﴿١١﴾ كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿١٢﴾ كَذَلِكَ الَّذِي التَّمَكِينِ الَّذِي مَكَّنَا لَهُ حَتَّىٰ بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ مَكَّنَا لَهُ حَتَّىٰ بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ لَيْسَ تَمَكِينُهُ خَاصًّا بِجَهَةٍ ﴿١٣﴾ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ ﴿١٤﴾ مِنَ الْقُوَّةِ وَالْعُدَّةِ ﴿خُبْرًا﴾ عِلْمًا بِهَا ظَاهِرُهَا وَبَاطِنُهَا؛ لِأَنَّا نَحْنُ جَعَلْنَاهَا لِيَتِمَّ بِهَا مِنْ قِطْعِ الْمَسَافَاتِ وَالتَّمْلِكِ عَلَى الْبُلْدَانِ.

﴿١٥﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا * حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونَهُمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿١٦﴾ السَّدَّيْنِ ﴿١٧﴾ يَحْتَمِلُ: أَنَّهُمَا سَدَانِ يَحْفَظَانِ الْمَاءَ لِلْقَوْمِ، إِمَّا خَلِقَتَانِ حَفَرْتَهُمَا السِّيُولُ، وَإِمَّا بِنَاءَ عَلَى قَوْلٍ مِنْ جَعَلَ السُّدَّ [بِالضَّمِّ لِلْسَيْنِ] فِي الْخَلْقَةِ وَالْمَصْنُوعِ، وَيَحْتَمِلُ أَنَّهُمَا جَبَلَانِ يَعْسُرُ عَلَى مَنْ خَلْفَهُمَا صُعُودَهُمَا.

وقوله تعالى ﴿وَجَدَ مِنْ دُونَهُمَا﴾ أَي بَيْنَ ذِي الْقَرْنَيْنِ وَالسَّدَّيْنِ ﴿قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ إِمَّا لَغَبَائِهِمْ وَغَفْلَتِهِمْ لِقَلَّةِ مَخَالِطَتِهِمْ لِلنَّاسِ وَاشْتِغَالِهِمْ بِالْحَرْثِ مَثَلًا فَلَمْ يَتَعَوَّدُوا مِنَ الْحَاوِرَةِ إِلَّا قَلِيلًا، وَإِمَّا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ مِنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قَوْلًا لِمَخَالَفَةِ اللُّغَةِ، وَالْأَوَّلُ أَقْرَبُ لِأَنَّ ﴿قَوْلًا﴾ نَكْرَةً فِي سِيَاقِ النَّفْيِ وَلَمْ يَقُلْ: يَفْقَهُونَ مِنْهُ قَوْلًا.

﴿١٨﴾ قَالُوا يَنْذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿١٩﴾ قَالَ الشَّرِيفُ فِي (المصابيح): «قَالَ الْمُرْتَضَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ﴾ اسْمَانِ لِقَبِيلَتَيْنِ كَمَا يَقَالُ هَمْدَانُ وَخَوْلَانُ» انتهى المراد.

مَكَّنِي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿١٥﴾ ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ أَنفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا

وقوله: ﴿مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ يفيد أنهم كانوا يهجمون عليهم فيظلموهم إما بنهب ثمرتهم وإما بغير ذلك، ورغبوا ذا القرنين في أن يعينهم بقولهم: ﴿مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ وقولهم: ﴿فَهَلْ تَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا﴾ أي مالا مقابل ﴿أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ فخرجه لك ولعل المراد في كل ثمرة جزء حتى يستوفي بمقابل السد.

قال الشرفي في (المصاييح): «قال المرتضى عليه السلام: معنى ﴿خَرْجًا﴾ أي مالا نسلمه إليك وعطاء نجزله لك على أن ترفع عنا ضررهم وتكفينا ما قد أحاط بنا من شرهم» انتهى.

فأرادوا أن يبني سداً يمنع ياجوج ماجوج من الخروج إليهم؛ لأن هناك جبلين سادين بينهم وبين ياجوج وماجوج وبينهما فتحة إذا سدت لم يبق لهم طريق إليهم من تلك الجهة وغيرها بعيد عليهم جداً.

﴿قَالَ مَا مَكَّنِي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ ﴿قَالَ﴾ ذو القرنين لا حاجة لي في مالكم ﴿مَا مَكَّنِي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ منه، ويحتمل: ما مكني فيه ربي من القوة خير من أن أبني لكم سداً فقط لأنني أستطيع بناء ردم ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ أبدانكم وأيدي العاملين ﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ أَعْدَائِكُمْ رَدْمًا﴾.

قال الشرفي: «قال في (البرهان): الردم: الحجاب الشديد» انتهى، وحكى مثله عن الحسين بن القاسم عليه السلام، وفي (لسان العرب): «وقيل: الردم: أكثر من السد» انتهى.

قَالَ ءَاتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٢٦﴾ فَمَا اسْطَبَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَبَعُوا لَهُ نَقْبًا ﴿٢٧﴾ قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ

﴿٢٦﴾ ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ أَنْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ ءَاتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٢٧﴾ زُبَرَ الْحَدِيدِ ﴿٢٨﴾ قطع كبار من الحديد ﴿حَتَّى إِذَا سَاوَى﴾ أي الردم من الزبر حتى إذا ساوى ﴿بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ﴾ في (مصاييح الشرفي): «أي جانبي الجبلين؛ لأنهما يتصادفان أي يتقابلان، قال المرتضى عليه السلام: والصدفان فهما الجبلان فردم رحمة الله عليه الحديد بعضه على بعض حتى سد ما بين الجبلين وبلغ بناؤه بالحديد رؤوس الصدفين.

ثم ﴿قَالَ أَنْفُخُوا﴾ والنفخ: فهو إلهاب النار فيه ونفخهم عليه ﴿حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا﴾ يقول حتى إذا صار ناراً يتوقد ﴿قَالَ ءَاتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ والقطر: النحاس المذاب، فلما أن سكبوا النحاس فيه انسبك هو والحديد معاً وصار الردم قطعة واحدة لا يتزحزح من مكانه ولا يطبق أحد طلوعه» انتهى.

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «﴿بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ﴾ يعني: بين الجبلين» انتهى، قال (صاحب لسان العرب): «وقال الله - عز وجل - : ﴿حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ﴾ أي سوى بينهما حين رفع السد بينهما، ويقال ساوى الشيء الشيء إذا عادله» انتهى المراد.

ويحتمل - ولعله الأقرب - : أن المعنى حتى ساوى الردم الصدفين بينهما فحذف الصدفين وجعل الفاعل بين الصدفين كما جعل بين فاعلاً في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ لأن الذي بين الصدفين هو الردم، فلما كان المعنى ساوى بين الصدفين حذف المفعول لإغناء المضاف إليه عنه هنا؛ لأن معنى مساواة بين الصدفين مساواته لهما إذا جعل فاعلاً.

وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿١٨﴾ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿١٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿٢٠﴾

ويحتمل: سوى ذو القرنين بين الصدفين في السد، بأن جعلهما فيه سواء باتصاله بكل منهما، ولكن المعنى هنا خلاف الأول، مع أنه مستغنى عنه باسم السد، ويحتمل أن الفاعل ضمير الردم المفهوم من السياق والمفعول محذوف أي ساواهما حال كونه بينهما.

فأما تفسير (ساوى) بـ(سوى) من غير إضافة إلى شيء أي سوى الردم فلا يصح؛ لأن ساوى يستعمل بمعنى سوى بين الشيئين لا بمعنى سوى جعله سوىًا، وقوله تعالى: ﴿قَالَ أَنْفِخُوا﴾ حذف المنفوخ فيه اختصارًا، لدلالة قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا﴾ فالمعنى انفخوا في الفحم أو في الحطب لتنتشر النار فيه، وقوله: ﴿ءَاتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ أي آتوني قطراً حذف لدلالة الثاني عليه.

﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ فما استطاعوا أي لتمام الردم وقوته وارتفاعه ما استطاعوا أي ياجوج وماجوج ﴿أَنْ يَظْهَرُوهُ﴾ أي يعلوا فوقه ﴿وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ في ذلك العصر وإن نقب بعد عصرهم، فالكلام لا يدل على أنه لن يفتح بعد ذلك العصر ولا أنه سيفتح إلا إذا جاء وعد ربي.

وأما قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾ فهو فتح بلدهم والإستيلاء عليها، ويمكن أن يفتح باب في السد أو قد فتح أو عند سقوط الردم تفتح ياجوج وماجوج.

﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّيٰ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّيٰ جَعَلَهُ دَكَّاءَ ۚ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّيٰ حَقًّا﴾ ﴿قَالَ﴾ ذو القرنين ﴿هَذَا﴾ الردم ﴿رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّيٰ﴾ لأنه هو

يَسِّرْ بِنَاؤه وخلق المادة من الحديد وغيره فهو رحمة من ربي لأهل هذه البلدة لأنه نجاة لهم من ياجوج وماجوج.

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ دكاً أي مذكوكاً تذكير بأوائل أمور الآخرة وتعليم للسامعين أن الله وعد بخراب ما على الأرض من الجبال وغيرها، وهكذا يكون المصلحون ينشرون المعارف الدينية حيث كانوا.

﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ۖ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ۖ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾ ﴿وَتَرَكْنَا﴾ عند أوائل أهوال الآخرة قبل هلاك العالم تركنا بعض الناس ﴿يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ يختلطون الجموع بالجموع كأمواج البحر.

قال الشريفي في (المصابيح): «قال الحسين بن القاسم عليه السلام: معناه: تركنا ياجوج وماجوج وغيرهم من جميع الناس يموجون في الفتن والمصائب والمحن والجور وسفك الدماء وذلك عند نزول اقتراب النفخة الأولى، ثم قال: وإن لا يكن ذلك فالتفسير أنه يفتح عليهم السد يوم القيامة حتى يختلط الناس ويموج بعضهم في بعض» انتهى.

قلت: الأرجح الأول، فالسد ينهدم وياجوج وماجوج يختلط بهم الناس في حروب لا حد لها ولا وازع منها؛ لأنه يشكل على القول الثاني عطف ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ على قوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ أي يوم إذ يندك الردم، ويناسب هذا الراجح قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ۖ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ ۖ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ هذ النفخة الثانية أي الصيحة التي عندها يخرجون من الأجداث بدليل قوله تعالى: ﴿فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾ وهو جمعهم ليوم الجمع.

الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١١﴾
 أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا

﴿١١﴾ ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «يعني: أبرزت حتى رأوها» انتهى.

وفي (المصابيح): «عن المرتضى عليه السلام قال عليه السلام: وعرضها لهم هو معايتهم لها ومحاضرتهم إياها وإيقانهم بها، فذلك يجري مجرى عقاب الكفار لما يداخلهم من الغم العظيم» انتهى المراد.

﴿١١﴾ ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ ﴿الَّذِينَ﴾ صفة للكافرين ﴿كَانَتْ﴾ أي في الدنيا ﴿أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ﴾ عليها غشاوة ﴿عَنْ ذِكْرِي﴾ عن آياتي سماها ذكراً كما سمي القرآن ذكراً؛ لأنها تعبر بدلالاتها على الله كأنها ناطقة ذاكرة لله، أو المراد عن آياتي الموصلة إلى ذكري ﴿وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ لما جاءت به الرسل والمبلغون عنهم لبغضهم لذلك وشدة نفورهم عنه، كانهم لا يستطيعون.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال المرتضى عليه السلام: يعني أنهم كانوا لا يقدرون من البغض للحق والتكذيب له استماعاً وكانوا يبغضون استماعه للذي كانوا عليه من الصدود عن الحق وقلة استماعهم له وكان يفعلون من ذلك كفعل من لا يستطيع أن يسمع والسمع هاهنا فهو الطاعة لله ولرسوله، وهذا في لغة العرب موجود يقول الرجل للرجل اذهب معي إلا فلان فيقول لست أستطيع انظر إليه من بغضه وهو يستطيع أن ينظر إليه، فلما كان مبغضاً له شائناً لأمره، جاز أن يقول: لا أستطيع» انتهى المراد.

جَهَنَّمَ لِلْكَافِّرِينَ نَزْلًا ﴿١٢﴾ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٤﴾ أُولَئِكَ

وهذه الآية من المتشابه في ذكر الغطاء، وفي قوله: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ والغطاء كراهيتهم للنظر في آيات الله والقول فيه كالقول في عدم استطاعة السمع، وقد فسر السمع بالطاعة وهو محمول على أن ذلك كناية لتوقف الطاعة على السمع.

﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نَزْلًا﴾ هذه الآية من أولها وعيد للذين كفروا (والهمزة) في أولها للسؤال التوبيخي، وقوله تعالى: ﴿أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ﴾ هو ساد مسد مفعولين لحسب والمعنى أن يتخذوا ولا يعاقبوا، بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نَزْلًا﴾ أي أحسبوا شركهم لا عقاب عليه، وقوله تعالى: ﴿عِبَادِي﴾ احتجاج عليهم وتقييح لشركهم، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَلُكُمْ﴾ [الأعراف: ١٩٤].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ﴾ يفيد: أنها موجودة معدة لهم أو كالموجودة سواء؛ لأن تحضيرها في وقتها لا يصعب على من هو على كل شيء قدير، وقوله ﴿نَزْلًا﴾ أي جزاء ومصيراً ولعله سمي نزلاً كقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ﴾ [آل عمران: ٢١] إذا كان أصل النزول ما يُقَرَّبُ للنازل.

قال الراغب: «والتَّزِيلُ: ما يُعَدُّ للنَّزَلِ مِنَ الزَّادِ، ثُمَّ قَالَ: وَأَنْزَلْتُ فَلَانًا أَضْفَتْهُ» انتهى. ونظير هذا التهكم قول الشاعر: -

نزلتم منزل الأضياف منا فعجلنا القرا أن تشتمونا

وأراد بالقرا: القتال لهم.

الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِمْ فَحَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ فَلَا تُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا ﴿١٥﴾ ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي

﴿١٥﴾ ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ * الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُحْسِنُونَ صُنْعًا * أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِمْ فَحَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ فَلَا تُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا. قال الراغب في تفسيره (لمفردات القرآن): «النبأ: خبر ذو فائدة عظيمة يحصل به علم، أو غلبة ظن، ولا يقال للخبر: نبأ، حتى يتضمن هذه الأشياء الثلاثة» انتهى.

﴿بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ بالذين هم أشد خسراناً لأعمالهم ثم فسر الخسران هذا، فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي ضاع سعيهم في الحياة الدنيا أي ما عملوا وجدوا فيه في حياتهم أي حال كونهم في الحياة الدنيا أو سعيهم في أمور الحياة الدنيا وأغراضها، والأول أرجح وأعم، ووجه رجحانه أنه لا يحوج لتقدير مضاف إلى الحياة ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ لجهلهم.

ثم نبأهم من هم الأخسرون المذكورون، فقال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِمْ﴾ فالكفر بالآيات جحد كونها أو جحد كونها آيات، والكفر بلقاء الله فهو كفرهم بالآخرة وما فيها من العرض على الله تعالى والوقوف ليسأله عما كانوا يعملون.

وقوله تعالى: ﴿فَحَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ﴾ أي بطلت ولم تنفعهم في الآخرة أي نفع، وقوله تعالى: ﴿فَلَا تُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا﴾ لأن الذي يوزن هو الأعمال الصالحة التي لم تحبط وهؤلاء ليس لهم عمل صالح غير حابط وذلك الخسران المبين، والوزن قد مر الكلام في معناه في تفسير (سورة الأعراف).

هَزُوءًا ﴿١٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٨﴾ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا

﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا ءَايَتِي وَرُسُلِي هُزُوءًا ﴿١٧﴾ ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ ﴿١٨﴾ المذكور في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا﴾ وقوله تعالى: ﴿جَزَاؤُهُمْ﴾ أي جزاء هؤلاء الذين ضل سعيهم، ثم بين المشار إليه بقوله: ﴿جَهَنَّمُ﴾ أو هو بدل للبيان.

ويحتمل: أن الإشارة إلى كفرهم بآيات الله ولقائه أي ذلك الكفر جزاؤهم جهنم عليه، وأغنى عن ذكر الرابط قوله تعالى: ﴿بِمَا كَفَرُوا﴾ فهو كإعادة المبتدأ بضميره أو لفظه أو هو دليل تقدير الضمير، مثل قوله تعالى: ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣] ولعله ذكره لئلا يتوهم أن جزاءهم حبوط أعمالهم فقط - والله أعلم.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال المرتضى عليه السلام: والهزوا [كذا] فهو الإستخفاف والإطراح والتكذيب» انتهى المراد، يعني: أن هزؤهم كان على معنى التكذيب والترك لآيات الله ورسله.

﴿١٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٨﴾ قال الشرفي في (المصابيح): «قال المرتضى عليه السلام: الفردوس فهو اسم لفاخر الجنان وعظيم منازلها وأكرم محلها، والنزل فهي العطية والكرامة التي ينزلهم الله بها ويحلهم فيها، ثم قال: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ والخالدون فهو الدائم الباقي الذي لا يزول عنها أبداً، ومعنى ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ فهو لا يطلبون بها بدلاً قد عظم سرورهم فيها» انتهى المراد.

لِكَلِمَتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿١٦﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ فَمَنْ

قال في (الصحيح): «والتحول: التنقل من موضع إلى موضع، والإسم الحول، ومنه قوله تعالى: ﴿خَلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْتَغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ انتهى.

فأصل المعنى لا يبتغون عنها تحوُّلاً، وهو لازم كونهم لا يطلبون بها بدلاً، وهو صحيح لأنه لا يتصور طلب التحول إلا إلى بدل.

﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ ﴿مِدَادًا لِكَلِمَتِ رَبِّي﴾ فكتبت به ﴿لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَتُ رَبِّي﴾ بحيث تكون كلها قد كتبت، وذكر سبحانه وتعالى في (سورة لقمان) أكثر من هذا، فقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾ فهذه الكلمات إما أنها من جنس ما ينطق به الناس ويفيد معنى سواء كانت حرفاً واحداً مثل ق في الأمر، أو حرفين أو أكثر، وإما أنها الجمل لا مفردات الكلم التي يتألف منها الكلام وحدها، وإما أن الكلمات كل آيات الله؛ لأنها ناطقة بدلالاتها على ما تفيده بلسان الحال، وإما أن الكلمات قوله سبحانه ﴿كُنْ﴾ كما سمى عيسى عليه السلام كلمة، يرجع الأول أنه الحقيقي ولكنه مستبعد، ومثله الثاني وهو أبعد.

وأما الثالث - فهو الأقرب - لحصول فائدة تكثير آيات الله، وأما الرابع فهو راجع إلى الثالث؛ لأن المخلوقات كلها آيات لله تدل عليه، وقوله سبحانه: ﴿كُنْ﴾ تعبير عن إيجاد المخلوق، وقد يرجع الثاني بأن الجملة الواحدة تفيد كلمات كثيرة، وبذلك تكثر الكلمات بالتسلسل.

كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ
أَحَدًا ﴿١١﴾

ولعل هذا مراد الإمام القاسم عليه السلام في تفسيره لهذه الآية حيث قال: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي﴾ والكلمات فقد تكون المحكمات، وكلمات الله سبحانه لا ينفدها منفذ ولا يقدر على إحصائها كلها واحد..» إلخ حكاه الشرفي في (المصابيح) والله أعلم، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ أي لو جئنا بمثل البحر مدداً له يزيد فيه مثله.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ ﴿قُلْ﴾ يا رسول الله ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ في البشرية لا أقول لكم إني ملك ولا أعلم الغيب ولا أملك خزائن الله ولكنه ﴿يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ يوحى ربي إلي ﴿أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ﴾ فأبلغ عن الله ما يوحى إلي.

﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ في (تفسير الإمام زيد عليه السلام): «معناه: ثواب ربه» انتهى، فالمعنى: يرجو لقاء ربه وهو راض عنه أو نحو هذا من تخصيص اللقاء باللقاء المحبوب الذي يسند إليه الرجا.

وقوله تعالى: ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ فليعمل عملاً سليماً من المفسدات والمحبطات، ويخلص عبادة ربه لربه لا يشرك فيها أحداً من الناس ولا غيرهم، والإشراك بالعبادة جعلها لله ولغيره من المخلوقين المعبر عنهم بقوله: ﴿أَحَدًا﴾.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال عليه السلام - يعني المرتضى عليه السلام - يقول سبحانه: لا يشرك في طاعة ربه أحداً من خلقه، وقد يكون ذلك بالطاعة والرياء» انتهى.

قال الشرفي رحمه الله: قال الإمام الناصر الحسن بن علي الأطروش عليه السلام في كتابه (البساط): أخبرنا محمد بن منصور، قال: حدثني سفيان بن وكيع يرفعه عن سمع مجاهد [أ] يقول: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله أتصدق بالصدقة ألتمس بها وجه الله وأحب أن يقال في خير، فنزلت: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ وقال ﷺ: «اتقوا الشرك الأصغر». انتهى.

وله شواهد في (أمالى المرشد بالله عليه السلام) فظهر: أنها تشمل الشرك في العبادة بالرياء، ولو فرض أن مشركاً قرّب قرباناً لله ولمعبوده لكان أيضاً من شرك العبادة ولكنه من الشرك الأكبر - وبالله التوفيق.

تم تفسير (سورة الكهف) والحمد لله



التفسير في التفسير



سورة مريم



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كَهَيْعَصَ ﴿١﴾ ذِكْرٌ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكِرِيَّا ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ

تفسير (سورة مريم) عليها السلام، وهي (مكية)

﴿١﴾ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ كَهَيْعَصَ ﴿١﴾ مرّ الكلام في الحروف وهي باقية على معانيها المعروفة عند العرب فمن ادعى فيها النقل فعليه الدليل، ولكن مع ذلك هل هي مقسم بها، أو هي رموز مع بقائها على معناها، أو هي تعجيز للعرب، أو هي تنبيه على أن القرآن أوحى كلاماً مؤلفاً من الحروف لا مجرد معناه.

أو هي تحريك لهمم الأميين لتعلمها حتى يتعلموا الكتابة والقراءة؛ لعظم فائدة ذلك، كما قال تعالى: ﴿عَلَّمَ يَالْقَلَمَ﴾ [العلق:٤] الأولى الجزم بأنها ذكرت لحكمة فأما تعيين الفوائد بغير قطع بأنها مقصودة في ذكرها بعينها فيتعين فيه التعبير بعبارة عدم القطع مثل لعل ويحتمل - والله أعلم - ولا بأس بذلك لدفع توهم أنه لا فائدة فيها، أو توهم أنها إلغاز وخطاب للمكلف بما لا يفهم.

﴿٢﴾ ذِكْرٌ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكِرِيَّا ﴿٢﴾ هذا عنوان لذكر قصته عليه السلام، كما يأتي في السورة من العناوين، حيث يقول: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ﴾ ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ﴾ وهكذا في ذكر عدد من الأنبياء (عليه السلام).

﴿٣﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ اذكر ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ ﴿٢﴾ أو ذكُرْ إِذْ نَادَىٰ على أن تكون القصة بدلاً من العنوان، وأصل النداء الدعاء بصوت رفيع.

قال الراغب: «النداء: رفع الصوت وظهوره» انتهى المراد، وقال (صاحب الصحاح): «وناداه، مناداة، ونداء: أي صاح به، ويناسب هذا قول الشاعر:

بِدُعَايِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿١٠﴾ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَأْيِى وَكَانَتِ امْرَأَتِي
عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ﴿١١﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ عَالِ يَعْقُوبَ وَأَجْعَلْهُ

أجمعوا أمرهم عشاء فلما أصبحوا أصبحت لهم ضوضاء
من مناد ومن مجيب ومن تصد — هال خيل وبين ذاك رغاء

وعلى هذا: فاستعمال النداء في دعاء زكريا، لعله لجده فيه وعنايته،
ليستجاب له، ولأن الله سميع الدعاء كله: ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ
جَهَرَ بِهِ﴾ [الرعد: ١٠] فشبّه دعاؤه بالنداء والجامع الجذ والعناية.

ثم قال تعالى ﴿نِدَاءٌ خَفِيًّا﴾ فدل على إسراره ومثل ذلك يسر فيه الدعاء
لكبر السن مع أن الأصل الغالب في الدعاء هو الإسرار؛ لأنه سبحانه يعلم
السر وأخفى فلا فائدة في الجهر إلا حيث يشرع.

﴿١٠﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ
بِدُعَايِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿١١﴾ وَهْنُ الْعَظْمِ ضِدُّ صِلَابَتِهِ، فهو قد ضعف بذهاب صلابته
التي كانت فيه مع الشباب وإن بقي قليل من الصلابة لا ينافي نسبة الوهن إليه.

وقوله: ﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ أي أسرع فيه الشيب، كما قال الشاعر:

واشتعل المبيض في مسوده مثل اشتعال النار في جزل الغضى

فهي في الآية استعارة مكنية، شبّه فيها إسرار الشيب باشتعال النار، ودل
عليه بذكر الإشتعال، وفائدة ذكر الحالتين: أنه متوقع لوفاته.

وقوله ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَايِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ يعني قد جربت الدعاء فيما
مضى ينفعني الله به ولم يكن شقاوة لا يفيد شيئا، فهذه مقدمة للدعاء
شكوى خوفه من اقتراب الأجل مع أنه مهتم بأمر أمته وذكر رجائه إجابة
دعائه لرحمة أمته من بعده.

﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَأْيِي وَكَانَتْ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا﴾ الموالي: عصبته من الأعمام أو بني العم، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «الموالي: العصابة من بني العم» انتهى، ومثله في (مفردات الراغب) و(الصحاح) لم يذكر العم، وذكر في (الكشاف) إخوته وبني عمه.

وفي (مصاييح الشرفي): «والموالي: هم الأقارب، والموالي بني [كذا] العم» انتهى، وفيه عن الإمام الهادي عليه السلام: «الموالي: فهم العصابة الوارثون» انتهى، وفي (لسان العرب): «والمولى: العصابة، وذكر فيه عن بعضهم أنه جعل الموالي العصابات كلهم حتى الإبن» انتهى، هذا بالنسبة إلى اللغة، فأما موالى زكريا عليه السلام فلعلهم لم يكونوا إلا بني عمه أو إخوته وبني عمه.

وقوله: ﴿مِنْ وَرَأْيِي﴾ أي من بعدي إذا مت، وكان خوفه منهم دينياً ليس راجعاً إلى تركته، فالراجع: أنه خاف أن يتولوا التوراة وسائر كتبه ويتمكنوا بذلك من التحكم على الناس والتغريب عليهم بدعوى أنهم ورثة زكريا عليه السلام وعندهم كتبه؛ ولذلك يرغب في ابن رضي يحيى الدين ويحميه.

وقوله: ﴿وَكَانَتْ امْرَأَتِي عَاقِرًا﴾ أي لا تلد ولذلك فليس لي ولد، وقوله: ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا﴾ هذا هو المقصود من المقدمات المذكورة قبله، وقوله: ﴿مِنْ لَدُنْكَ﴾ أي من عندك، كأنه يقول: إن الولد لمثلي في الكبر مستبعد لكنه من عندك غير مستبعد؛ لأنك الخلاق العليم.

وقوله: ﴿وَلِيًّا﴾ يعني ابناً أو ابناً طيباً، وقد أفاد صلاحه كونه هبة من الله لنبيه زكريا لينال به غرضه الذي لأجله طلب الولد، كما دل عليه السياق، وقول الله - عز وجل -: ﴿قَالَ رَبُّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ [آل عمران: ٣٨].

رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ يَزَكِّرِيَا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ

﴿٦﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ۖ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ هذه من صفات الولد تبين أن من الغرض فيه أن يرثه ﴿وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ لأنه إذا ورث زكريا تعذر على الموالي الإفساد بدعوى أنهم ورثة زكريا، فالتوراة وما كان عند زكريا من كتب الله قد صار عند ابنه، وقوله: ﴿وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ لعل أمه منهم فأراد في ميراثها مثل الذي أراد في ميراثه، وقوله: ﴿وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ أي اجعله مرضياً صالحاً بعلمه وعمله ورجاحة عقله وطهارته حتى يقوم مقام أبيه وحتى يكون معه في الجنة.

﴿٧﴾ يَزَكِّرِيَا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ إجابة لدعاء نبي الله زكريا ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ﴾ قال في (مفردات الراغب): «الغلام: الطائر الشارب» وعلى هذا: فالتبشير به تبشير بأنه يدرك أباه حتى يكون غلاماً لا يموت أبوه إلا وهو غلام يثق به لقيامه مقامه.

﴿اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ سماه الله كما سمي نبيه عيسى (عليه السلام)، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي (عليه السلام)): «﴿لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ يعني: مثلاً وشبهاً» انتهى.

قال الشرفي في (المصاييح): «أي لم يُسمَّ به أحد قبله، أو لم يكن له مثل في أنه لم يعص الله ولم يهجم بمعصية» انتهى، وقال (صاحب الصحاح): «وتقول هذا سمي فلان: إذا وافق اسمه اسمه» انتهى. قلت: إذا كان اسم يحيى أعجيباً فلعل معناه وصف ليحيى يستحقه بطهارته فيصح تفسير ﴿سَمِيًّا﴾ بالمثل، وقد رجح صاحب [الكشاف] في تفسير (سورة آل عمران) أن اسم يحيى أعجبي.

بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ ءَايَتُكَ

﴿٨﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٩﴾ لم يعتقد نبي الله حين بشر بسلام أنه يخلق له من غير ولادة كما خلق آدم عليه السلام ولذلك فمن أين يولد له غلام وامراته عاقر لا تلد أصلاً وهو في حالة الهرم لا يتوقع أن يكون منه نسل، فقلوه عليه السلام: ﴿أَنَّى يَكُونُ﴾ سؤال من أن يكون لا إنكار ولا استبعاد بل يريد أن يعلمه الله كيف يكون له ولد ومن أين مثلاً هل يتزوج امرأة أخرى ليولد له منها؟ وهل يوجد له وسيلة لإزاحة الهرم حتى يصلح للإنجاب؛ لأنه قد بلغ من الكبر عتياً أي شديداً مستمراً في نكسه في خلقه وإضعاف بدنه.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال محمد بن القاسم: العتي: القديم الذي قد بلغ صاحبه غاية ما يكون من قسوته ويبسه وشدته عند الهرم» انتهى.

﴿٩﴾ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴿١٠﴾ قَالَ كَذَلِكَ ﴿١١﴾ يكون لك غلام وكانت امرأتك عقيماً وقد بلغت من الكبر عتياً يكون الولد منك وأنت هكذا ويكون من امرأتك وكانت من قبل عاقراً ﴿١٢﴾ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ ﴿١٣﴾ سهل ليس فيه أي صعوبة ﴿١٤﴾ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴿١٥﴾ فكما أن الغذاء يصير مئياً ثم إنساناً مع أن ذلك مستبعد عند التأمل فكذلك هذا.

ويمحتمل: أن قوله تعالى: ﴿وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ راجع إلى خلق الروح فيه لا من شيء تحوال روحاً، وعلى الأول يكون المعنى: ولم تك شيئاً يذكر لحقارة أصله وقلته سواء أريد به المني أم مادة الغذاء من الماء والتراب.

أَلَا تُكَلِّمُ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١﴾ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٢﴾ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿٣﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿٤﴾ وَبَرًّا

﴿١﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِّي آيَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿٢﴾ لَا يَتَصَوَّرُ أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ لَمْ يَطْمئنْ قَلْبُهُ بِوَعْدِ اللَّهِ الْمُؤَكَّدِ الْمُقَرَّرِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُن شَيْئًا﴾ فالراجح: أَنَّهُ طَلَبَ آيَةً يَعْرِفُ بِهَا أَنَّهُ قَدْ صُلِحَ لِلْجَمَاعِ الَّذِي يَكُونُ مِنْهُ النِّسْلُ عِنْدَهُ وَتَعَلَّقَ أَمْرَاتُهُ؛ لِأَنَّ الْمَفْرُوضَ أَنَّهُ يَكُونُ مِنْهُمَا الْوَلَدُ وَهُوَ بِجَالِهِ فِي الْهَرَمِ وَهِيَ الَّتِي كَانَتْ عَاقِرًا فَهُوَ يَرِيدُ آيَةً يَعْرِفُ بِهَا أَنَّ قَدْ صُلِحَ لِذَلِكَ ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ﴾ أَيُّ تَذَهَبُ مِنْكَ قُدْرَةُ تَكْلِيمِ النَّاسِ ﴿ثَلَاثَ لَيَالٍ﴾ فِي حَالِ أَنَّكَ ﴿سَوِيًّا﴾ لَمْ تَذَهَبْ مِنْكَ قُدْرَةُ الْكَلَامِ بِذِكْرِ اللَّهِ وَنَحْوِهِ، وَهَذِهِ آيَةٌ يَعْرِفُهَا مِنْ نَفْسِهِ حِينَ لَا يَسْتَطِيعُ التَّكْلِيمَ لِلنَّاسِ.

﴿٢﴾ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٣﴾ الْمِحْرَابُ الْمَكَانُ الَّذِي كَانَ يَخْلُو فِيهِ لِلْعِبَادَةِ وَجَدَ الْآيَةَ مِنْ نَفْسِهِ قَدْ وَقَعَتْ لَهُ ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ﴾ أَيُّ أَشَارَ لَهُمْ أَوْ كَتَبَ لَتَعْذِرَ النَّطْقَ إِذَا كَانَتْ الْكِتَابَةُ رَمْزًا عِنْدَ الْأَمِينِ كَمَا هِيَ عِنْدَهُمْ وَحْيٌ؛ لِأَنَّ الْمَعْنَى الدَّلَالَةَ بِطَرِيقَةٍ خَفِيَّةٍ ﴿أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ لَوْ قُوعَ هَذِهِ الْآيَةِ الْعَظِيمَةِ وَالْبَشْرَى بِالنِّعْمَةِ الْكُبْرَى وَبُكْرَةَ الصَّبَاحِ، وَعَشِيًّا مِنَ الظَّهْرِ إِلَى الْمَغْرَبِ، وَالنِّعْمَةُ وَجُودُ الْخَلْفِ الصَّالِحِ لِنَبِيِّ اللَّهِ زَكَرِيَّا.

﴿٤﴾ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿٥﴾ فَقَدْ وَلَدَ يَحْيَى وَعَظَّمَتْ بِهِ النِّعْمَةُ عَلَى أَبِيهِ وَقَوْمِهِ وَوَهَبَهُ اللَّهُ قُوَّةً لِأَخْذِ كِتَابِ اللَّهِ بِقُوَّةٍ عَلَى فَهْمِهِ وَالْعَمَلِ بِهِ كُلِّهِ أَيُّ بِمُحْكَمِهِ كُلِّهِ.

بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَّمْ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾ وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا

ولعل الأمر هنا كناية عن إيجاده وجعله آخذاً للكتاب ﴿بِقُوَّةٍ﴾ قوة فهم وحفظ وعمل، ويحتمل: أن الله أمره أن يأخذ الكتاب بقوة؛ لأنه قد جعل له القوة ﴿وَأَتَيْنَهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ الحكم العلم بأحكام الله تعالى بحيث يعلم كيف يحكم بين الناس بحكم الله وهو صبي.

قال الراغب: «الصبي: من لم يبلغ الحلم» انتهى، ولعل هذا حده باعتبار غايته، فأما ابتدأه فقال الشرفي في (المصابيح): «وهو ابن سبع سنين، وقيل: ثلاث سنين» انتهى، ويقوي أنه الصغير قوله تعالى: ﴿فَأَنْتَ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿قَالُوا كَيْفَ نَكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ وذلك يفيد: أنه صبي قبل أن يبلغ سن التكلم، وقال الشاعر:
يا ليتني كنت صبياً مرضعاً تحملني الذلفاء حولاً أكتعاً

وفي (لسان العرب): «والصبي: من لدن يولد إلى أن يفطم» انتهى.
﴿وَحَنَانًا مِّنْ لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا﴾ ﴿وَحَنَانًا﴾ وآتيناه حناناً من عندنا رحمة يرحم الضعيف وكل من شأنه أن يُرحم، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «﴿وَحَنَانًا مِّنْ لَّدُنَّا﴾ معناه: رحمة» انتهى.

وفي (لسان العرب): «الحنان: الرحمة، والحنان: الرزق، والحنان: البركة، والحنان: الهيبة، والحنان: الوقار» انتهى، وفي (الصحاح): «الحنان: الرحمة» ولم يذكر الرزق وما بعده.

وقوله تعالى: ﴿وَزَكَاةً﴾ جعلناه زاكياً طيباً صالحاً ﴿وَكَانَ تَقِيًّا﴾ أي وكان يحیی تقياً من المتقين مؤمناً مطيعاً لربه فيما أمره وفيما نهاه.

﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ﴾ محسناً إليهما ولعله ضمن معنى اللطف فلذلك عدي بـ(الباء).

وقال الشرفي في (المصاييح): ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ﴾ أي لطيف بهما رحيمًا شفيقًا عليهما كثير المراعاة في جانبهما» انتهى.

﴿وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ فلم يُطغِه سعة علمه مع صغر سنّه لأنه راجح العقل شديد الورع، قال في (لسان العرب): «والجبار: المتكبر الذي لا يرى لأحد عليه حقًا» انتهى، يعني في وصف المخلوق، وفي (مفردات الراغب) معناه - ثم قال: «ويقال للقاهر غيره: جبار، نحو: ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾ [ق: ٤٥]» انتهى.

قلت: ومثله: ﴿إِنْ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ [المائدة: ٢٢] ومن هذا المعنى قول (صاحب الصحاح): «الجبار: الذي يقتل على الغضب» انتهى.

ويناسب هذا المعنى قوله تعالى: ﴿قَالَ يَأْمُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ نَقْتُلَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص: ١٩]. وقول الشاعر:

ملكه ملك رحمة ليس فيه جبروت منه ولا كبرياء

ففرق بين الجبروت وبين الكبرياء.

و﴿عَصِيًّا﴾ مثال مبالغة من (عصى) فلعله الذي عادته العصيان، قال الشرفي في (المصاييح): «والعصي: المتكبر عن طاعة الله، الذي عصى أمره، ولم يطع خالقه، ولم يتب من ذنبه، وقال - أيضاً - : ﴿عَصِيًّا﴾ أي بليغ العصيان وهو الذي يفعل ما يشاء من الظلم ولا ينظر في العواقب، قال: وقيل: الجبار القتال، والعصي: كثير المعصية لله تعالى» انتهى.

ولعل ﴿عَصِيًّا﴾ صفة لـ ﴿جَبَّارًا﴾ لأن من شأن الجبار أن يكون عصياً فذكر ليفيد: أن اجتناب يحیی للجبروت سببه اجتنابه لمعصية الله، أو أنه يجتنب الجبروت؛ لأنه يجتنب معصية الله بالجبروت وبغيره - والله أعلم.

﴿١٧﴾ فَأَتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ

﴿٢٠﴾ ﴿وَسَلَّمَ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ ﴿وَسَلَّمَ عَلَيْهِ﴾ وسلم الله عليه سلاماً ﴿يَوْمَ وُلِدَ﴾ لأنه مولود زكي رضي، ولعل هذا السلام أبلغ إلى والديه بشرى لهم بصلاحه ﴿وَيَوْمَ يَمُوتُ﴾ دلالة على أمنه من عذاب الله ﴿وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ كذلك ولعل هذا التسليم كله كان عند ولادته بدليل أنه قيل: ﴿وُلِدَ﴾ بالفعل الماضي ﴿وَيَوْمَ يَمُوتُ﴾ بالمضارع ﴿وَيَوْمَ يُبْعَثُ﴾ كذلك فكله بشرى.

﴿٢١﴾ ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ اتَّخَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ ﴿وَأَذْكُرْ﴾ يا رسول الله فيما تتلوه من الكتاب ﴿مَرْيَمَ﴾ حين ﴿اتَّخَذَتْ﴾ قال الراغب: «وانتبه فلان: اعتزل اعتزال من لا يقل مبالاته بنفسه فيما بين الناس، قال: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَئَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا﴾ انتهى.

قلت: لأن الأصل في نبذ الشيء: إلقاؤه وطرحه، فهو يشير إلى أن المكان الذي طرحت نفسها فيه غير مرغوب من الناحية النفسية ولكن لم تبال بنفسها لأن مهمتها الاعتزال، فقله: من لا يقل مبالاته، صوابه: من تقل مبالاته، بدون (لا) ولعلها زيدت غلطاً.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ أَهْلِهَا﴾ في معنى اعتزلت من أهلها، إما على التضمنين، وإما على أنها تكفي (من) الإبتدائية في إفادة الاعتزال لهم، وقوله تعالى: ﴿مَكَانًا﴾ ظرف وهو المكان الذي صارت فيه، و﴿شَرْقِيًّا﴾ تعيين لجهته لخصوصية في كونه شرقياً بالنسبة إلى أهلها تناسب اعتزالها فيه، واعتزالها من أهلها لا يعني اعتزالها من الناس، فيمكن أنها اعتزلت في

رَبِّكَ لِأَهَبَ لِكَ غُلَمًا زَكِيًّا ﴿١٦﴾ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَمٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي
بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٌ وَلَنَجْعَلَنَّ آيَةً

مسجد لا تخلو فيه بإنسان بل يجمع الناس في كل وقت أو نحو ذلك، وهذا
الاعتزال من أهلها إما للعبادة لتتفرغ لها فراغاً تاماً، وإما بوحي من الله
إعداداً لها للحمل والولادة.

﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا
سَوِيًّا﴾ ﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ﴾ أي بينها وبين أهلها ﴿حِجَابًا﴾ فسرهُ الإمام
الهادي عليه السلام في (المنتخب) ببعدها عنهم، فالحجاب هنا: البعد المانع لهم من
مجالستها ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا﴾ في حال احتجابها من أهلها ﴿رُوحَنَا﴾ جبريل
عليه السلام ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ تمثل لها جبريل عليه السلام بشراً سوي الخلق، وفي
ذلك فائدتان:

الإبتلاء لها لتحقيق عفتها وشدة إباتها من معصية الله فهو حين ذكر الله
قصته وعفتها عنه من جملة الرد على اليهود الذين اتهموها.

الثاني: أن جبريل عليه السلام لو جاء إليها في صورته الأصلية لفزعت منه إذا
رأته، فكان جعله في صورة بشر إيناساً لها من هذه الناحية.

﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا﴾ ﴿أَعُوذُ﴾ أستجير
فهي تدعو الله أن يجيرها وتخاطب هذا الشخص في ظنها زجراً له عنها،
وقولها: ﴿إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا﴾ إن كنت متقياً لله فشأنك أن تردعك الإستعاذة
بالله، وهذا تأكيد لزجرها له، وعلقت العياذ باسم الرحمن عناية في الدعاء
ليرحمها الله بدفعه عنها.

﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لِكَ غُلَمًا زَكِيًّا﴾ فهذا تبلغ
المصيبة بها مبلغاً عظيماً حين يذكر أنه رسول ربها ليهب لها غلاماً وهي لا
تعلم أنه جبريل، وذلك تمام البلوى.

لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿١١﴾ فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿١٢﴾ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَّنْسِيًّا ﴿١٣﴾ فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ

﴿١١﴾ ﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكْ بَغِيًّا﴾ ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾ من أين يكون لي غلام ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ فيكون الغلام منه ﴿وَلَمْ أَكْ بَغِيًّا﴾ لم أك زانية، ألهمها الله السؤال والثاني في تحقق المقصود. ﴿١٢﴾ ﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٌ وَلَنَجْعَلَنَّهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ ﴿قَالَ﴾ جبريل عليه السلام ﴿كَذَلِكَ﴾ يكون لك غلام من دون أن يمسك بشر في الماضي ولست بغياً بل بطريقة خارقة وليكون آية للناس مع كونه هبة لك من الله فهو دليل على قدرة الله تعالى وعلمه، وفيه آية للناس بكلامه في المهد يتجلى بكلامه في المهد أنه ولد من غير أب، وقوله: ﴿وَرَحْمَةً مِنَّا﴾ لأنه يكون رسولاً يهدي إلى الله وينقذ بهداه كثيراً من الناس من النار، وقوله: ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ أي هذا المولود منك ﴿أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ قضاه الله وحكم به فلا بد منه.

﴿١٣﴾ ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا﴾ فحملت مريم في بطنها الولد المبشر به ﴿فَانْتَبَذَتْ بِهِ﴾ عن الناس لتسلم جداهم في حال الحمل والولادة ﴿مَكَانًا قَصِيًّا﴾ أي بعيداً منهم لتأمن اطلاعهم عليها.

﴿١٤﴾ ﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَّنْسِيًّا﴾ ﴿الْمَخَاضُ﴾ حالة إعداد الحمل للخروج من بطنها حركة في أسفل البطن ووجع فيه وفي أسفل الظهر وأجاءها: ألجأها ﴿إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ جذع النخلة: ساقها، ولعلها أرادت أن تعتمد بظهرها عليه.

رَبُّكَ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٤٥٠﴾ وَهَزَىٰ إِلَيْكَ بِجِدْعِ النَّخْلَةِ تُسْقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا ﴿٤٥١﴾ فَكُلْ وَاشْرَبْ وَقَرِّ عَيْنًا فَإِمَّا تَرِينَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنَّي

وقوله تعالى: ﴿قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا﴾ اشتد عليها الهم لما سيقول الناس فيها مع براءتها، أي مت قبل هذا الأمر الذي هو الحمل والولادة. وقولها: ﴿وَكُنْتُ نَسِيًّا مَّنْسِيًّا﴾ قال في (الصحيح): «والنسي - أيضاً - ما نسي وما سقط في منازل المرتحلين من رذال أمتعتهم» انتهى. وفي (مفردات الراغب): «فالنسي: أصله ما يُنسى كالنقض لما ينقض، وصار في التعارف اسماً لما يقل الاعتداد به» انتهى. وفي (مصابيح الشرفي): «والنسي [بكسر النون] عام في كل حقير يستحق أن يطرح وينسى لحقارته» انتهى.

قلت: الأرجح أنه هنا على معناه الأصلي، وأنها أرادت بالتمني أنها قد ماتت منذ دهر بحيث أنها قد صارت منسية، وعلى هذا فقولها: ﴿مَّنْسِيًّا﴾ تأكيد، ويحتمل: أنها تمنى أنها كانت سقطاً مبالغة في إظهارها للخوف مما سيقال فيها، وهذا أرجح على معنى أنه شكوى إلى الله وطلب للفرج منه.

﴿فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكَ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ ﴿فَنَادَاهَا﴾ المولود ﴿مِن تَحْتِهَا﴾ يا أماء ﴿أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكَ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ وقوله: ﴿أَلَّا تَحْزَنِي﴾ (أن) هي المفسرة تدل على أن ما بعدها هو معنى كلام ابنها، ومعنى ﴿سَرِيًّا﴾ سيداً شريفاً يسود الناس.

قال الشرفي في (المصابيح): «فقال محمد بن القاسم عليه السلام: هاهنا الولد الذي وهبه الله لها البر التقي، ومن أسر وأنبل وأتقى من عيسى عليه السلام؟!» انتهى المراد، وقال الشاعر:

نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ﴿٦٧﴾ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَمْرُؤٌ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿٦٨﴾ يَتَأَخَتِ هُرُونَ مَا كَانَ

لا يصلح القوم فوضى لا سراة لهم ولا سراة إذا جهالهم سادوا

وفي (الصحيح): «(السرو: سخاء في مروءة...)» إلى قوله: «...وسرو يسرو سراوة، صار سريًا، وقال:

وترى السري من الرجال بنفسه وابن السري إذا سرا أسراهما»

انتهى.

وقد قيل: السري ها هنا: النهر، وإذا نظرنا أن سياق الكلام لرفع حزنها ورفعه بالبشارة بالسيد من الرجال أوضح من البشارة بالماء؛ لأن السيد يشرف ويبطل بشرفه دعاية اليهود عليها وعليه، أما الماء فلا دخل له في ذلك، والرافع للحزن هو ما يبطل دعاية اليهود؛ لأن حزنها سببه خوفها لما يقال فيها، وإظهار النهر وإن كان آية فهو آية لها تدل على كرامتها عند الله وكذلك السيد آية لها يدل على كرامتها عند الله؛ لأنه سيدافع عنها في حال سيادته، وليس في كون النهر آية لها تسلية باعتبار سبب الحزن؛ لأنه خاص بها وهي عارفة ببراءة نفسها، وبأن ابنها خلقه الله في بطنها من غير أب، والحاصل: أن تسليتها بما ترجو به نصرها وإظهار براءتها أقوى.

﴿وَهَزَىٰ إِلَيْكَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسْقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا﴾ ﴿٦٩﴾ قَالَ لَهَا ابْنُهَا مِنْ تَحْتِهَا ﴿هَزَىٰ إِلَيْكَ﴾ أَي هَزَى ﴿بِجِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ بِجَرِّهِ إِلَيْكَ، أَي هَزَى النَّخْلَةَ بِجَرِّ جَذْعِهَا إِلَيْكَ ﴿تُسْقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا﴾ وَالرَّطْبُ: ثَمَرُ النَّخْلَةِ الَّذِي طَابَ وَلَانَ وَلَمْ يَجِفْ، وَالْجَنِي حَدِيثُ الْعَهْدِ بِجَنِيهِ أَي أَخَذَهُ مِنَ النَّخْلَةِ.

﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيَنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنَّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ ﴿٧٠﴾ ﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي﴾ كُلِّي مِنَ الرَّطْبِ الْجَنِيِّ

ودعي الحزن واشربي وطبي نفسي، ولعلها كانت قد كرهت الأكل كما هي عادة الحزين، والأكل مع الحزن لعله يضره، فأمرها بالأكل والشرب كناية عن أمرها بطيبة النفس ثقة بنصر الله لها وتحقيق براءتها بما لا مجال عنده للشك فيها ﴿وَقَرَىٰ عَيْنًا﴾ أمر لها بالسرور فضلاً عن إزالة الحزن؛ لأن الله رفع قدرها وشرفها وأنعم عليها بالولد العظيم الذي قد وعدت فيه بأن الله يعلمه التوراة والإنجيل ويرسله إلى بني إسرائيل ويكلم الناس في المهد وكهلاً ومن الصالحين.

وقوله: ﴿تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ لا تحيي أحداً يسألك عن عيسى أو يقول فيك باطلاً، واعتذري بالنذر للرحمن بالصوم المانع لك عن تكليم كل إنسي، أي كل فرد من الناس.

﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ﴾ قَالَُوا يَمْرَيْمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿فَأَتَتْ﴾ يابنها ﴿تَحْمِلُهُ﴾ لا تتبرا منه بل تحمله حمل الأم لابنها ﴿قَالُوا﴾ مبادرين بالقذف ﴿يَمْرَيْمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا﴾ ولعلهم كانوا يحسدونها من قبل فكانت هذه الحالة عندهم فرصة، ولذلك لم يبدؤوا بسؤال أنى لك هذا الولد؟ متى تزوجت؟ لا نعلم أنك قد تزوجت في الماضي، بل بادروا إلى القطع بأنها قد أتت فاحشة وأكدوا ذلك بـ(اللام) و(قد).

أما تعبيرهم بالفري، فأرادوا أنها ابتدعت ما لم يكن من شأنها ولا من شأن أهلها، فهو منها عجيب.

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «﴿شَيْئًا فَرِيًّا﴾ معناه: عجب» انتهى، وقال في (مصابيح الشرفي): «الفري: البديع» انتهى المراد.

أَبُوكِ أَمْرًا سَوْءَ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ
مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي إِلِكْتَبَ وَجَعَلَنِي

وفي (الصحيح): «أي مصنوعاً مختلفاً» وقال الراغب في (المفردات):
«قيل: معناه: عظيماً، وقيل: عجيماً، وقيل: مصنوعاً، وكل ذلك إشارة إلى
معنى واحد» انتهى، يعني إلى ارتكاب الفاحشة.

﴿يَتَأَخَّتَ هُرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ أَمْرًا سَوْءَ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ زادوا
في توبيخها بتزويه قرابتها ﴿يَتَأَخَّتَ هُرُونَ﴾ الرجل الصالح ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ
أَمْرًا سَوْءَ﴾ فتكوني اقتديت بأبيك، وكذلك قولهم: ﴿وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾
والبغي الزانية، قال في (الصحيح): «وبغيت المرأة بغاءً [بالكسر والمد] أي
زنت فهي بغيٌّ، والجمع: بغايا» انتهى.

﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ لم
يستفزها توبيخهم لها؛ لأنها كانت واثقة بنصر الله لها فسكت وأشارت إلى
ابنها ليكلموه فالجواب عنده ﴿قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾
أرادوا أنه لا يفهم إن كلموه لصغره، والمهد الفراش الذي يمهد للصبي
ويوطأ وهو تعبير عن صغره بحاجته إلى المهد ﴿صَبِيًّا﴾.

وكانهم أرادوا بقولهم: ﴿مَنْ كَانَ﴾ العموم أي كيف نكلم الصبيان
الذين هم في المهد كأنهم قد رابهم ثبات مريم وقلة مبالاتها وخطر ببالهم أن
أمرها لهم بأن يكلموه لأمر يوضح براءتها فتجاهلوا خصوصية هذا الصبي
وجعلوه صبيّاً كسائر الصبيان، فلذلك عدلوا إلى تعميم الصبيان، فكانهم
قالوا: أنكلم كل من كان في المهد صبيّاً.

نَبِيًّا ﴿٢﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ

وبهذا يظهر السرّ في ﴿كَانَ﴾ وأنها صلة موصول مضمن معنى الشرط، كما في: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ يَتْنٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَنْ زَيْنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ﴾ [محمد: ١٤] وقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ﴾ * أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا. ﴿الآية [السجدة: ١٨-١٩].

﴿٢﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ تكلم الصبي فظهرت براءتها فهذا الفضل العظيم لا يكون لابن زناء كما لا يخفى عليهم، وقوله: ﴿عَبْدُ اللَّهِ﴾ آية عظيمة تبطل قول الغلاة فيه فكانت أول ما كلم قومها به، وقوله: ﴿ءَاتَنِي الْكِتَابَ﴾ يتناول التوراة وغيرها، وقوله: ﴿وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ يدل على أنه في تلك الحال قد أوحى إليه بما سيكلف به هو وأُمته، كما أن قوله: ﴿ءَاتَنِي الْكِتَابَ﴾ يدل على أن الله تعالى قد آتاه الكتاب والله على كل شيء قدير.

﴿٣﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي ؑ): «أي هادياً مهدياً» انتهى، فهي البركات الدينية؛ لأنه طيب القلوب بحكمته وبأمثاله العجيبة التي تؤثر في النفوس، وقد اشتمل كتاب (الاعتبار وسلوة العارفين) على كثير من الحكم المؤثرة المنسوبة إلى عيسى عليه السلام، ولا يبعد صحتها كلها أو أكثرها.

وقوله تعالى: ﴿وَأَوْصَنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ الصلاة هي ذات السجود لله، والزكاة هي الإنفاق لله للفقراء ونحوهم.

وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٦﴾ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَكَ
الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٧﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَنَهُ إِذَا

وقوله: ﴿مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ يعني أنه أمر بالدوام عليهما ما دام حياً، والمراد بذلك مع القدرة وعدم المانع كالنوم والإعسار، ولعل فائدة التعبير بقوله: ﴿أَوْصَنِي﴾ أنه أمر لحين القدرة على ذلك ليس لحالته تلك كما أن فيه تأكيداً للتكليف بهما.

﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ وجعلني ﴿بَرًّا بِوَالِدَتِي﴾ وفي إعلانه لقومه أن الله جعله برًّا بوالدته إشارة إلى براءتها مما رموها به؛ لأن ذلك لا يتعلق بهم بل هو خاص به وبها، فذكره لهم دلالة على براءتها وإلا كان ذكره لهم غير مهم بحيث يتكلم به في المهد.

ولا بد أنه قد صرح لهم ببراءتها؛ لأن المقام لا تكفي فيه الإشارة بل هم محتاجون إلى التصريح، وإنما لم يذكر تصريحه في هذا السياق لأن الكلام هذا مسوق لبيان أن عيسى عبد من عباد الله تَعَبَّدَهُ الله بالصلاة والزكاة كما تعبد غيره فترك ذكر تصريحه ببراءتها - والله أعلم - كما في سائر القصص في القرآن يذكر بعض القصة ويترك بعضها؛ لأن الكلام مسوق لما ذكر في القصة لا لكل نواحي القصة وأول القصة دليل واضح على براءتها، فكيفنا ذلك.

وقوله: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ وعد للناس بحسن السيرة فيهم وترك الجور، وقد مر ذكر معنى الجبار، والشقي صفة للجبار، كأنه قال: ولم يجعلني جباراً فأكون شقياً، فأفاد أن الله عصمه من الجبروت لئلا يكون شقياً؛ لأن الشقاوة لازمة للجبار فذكرها هنا، كقوله في يحيى: ﴿جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ يذكر الوصف للدلالة على أن السلامة منه هي الغرض بذكر الجبار.

﴿وَالسَّلَامُ عَلَى يَوْمٍ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ ﴿وَالسَّلَامُ عَلَى﴾ إما أنه يسلم على نفسه، وإما أنه يحكي ذلك عن الله، فإن كان حكاية

قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٢٥٠﴾ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٢٥١﴾ فَأَخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ

عن الله تعالى، فهو كالسلام على يحيى وقد مر قريباً، وإن كان هو سلم على نفسه فهو الحق؛ لأن الله أنطقه بذلك فكانه من الله لأن إنطاقه في المهد من الله ﴿يَوْمَ وُلِدْتُ﴾ لأنه يبشر بولادة النور والهدى ﴿وَيَوْمَ أُمُوتُ﴾ لأنه يوم يموت مختوم له بالسعادة بتقوى الله وعبادته ويوم يبعث كذلك.

﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ ﴿ذَلِكَ﴾ الموصوف في الآيات الماضية هو ﴿عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ فهو عبد الله متعبد أنعم الله عليه آتاه الكتاب إلى آخر الآيات المفيدة لكماله في عبادته لله وطهارته وشرفه بذلك، هذه حقيقة عيسى بن مريم لا ما يدعيه الغلاة، وهذا ﴿قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ أي يشكون لجهلهم بالله وبعيسى عليه السلام.

﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَنَهُ﴾ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٢٥٠﴾ ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ﴾ ليس من شأنه ولا يصلح منه ولا يليق بعظمته وجلاله وغناه عن كل شيء أن يتخذ ولداً أي ولد، وهذا نفى مؤكد كما أن من لتأكيد العموم؛ لأن (ولداً) نكرة في سياق النفي، فهو نفى لكل ولد، ثم أكد العموم بـ(من) ﴿سُبْحَنَهُ﴾ تنزيه له تعالى من اتخاذ الولد ومن كل نقص؛ لأن اتخاذ الولد لازم الضعف والحاجة ﴿إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ لا يعسر عليه خلق مولود من غير أب ولا غيره فلا حجة للغلاة في زعمهم أنه ابن الله لثلا يكون ابناً بلا أب؛ لأن آدم خلق من غير أب، وعيسى إنما هو ابن لمريم، وكان في قدرة الله أن يخلقه من غير أم.

كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُوتُنَا لَكِنِ
الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢٨﴾ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ

﴿٢٧﴾ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٢٨﴾ رجوع كلام
عيسى وهو حجة على المشركين به و ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ أي عبادة الله
وحده؛ لأنه ربنا كلنا ﴿صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ طريق واسع قويم لا ينقطع بسالكه
دون بلوغ الجنة ولا عوج فيه؛ لأنه الحق.

﴿٢٧﴾ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ ﴿٢٨﴾ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ
عَظِيمٍ ﴿٢٩﴾ فَاخْتَلَفَ ﴿٣٠﴾ تفريع على كلام عيسى عليه السلام وهو في المهد، فمن
الأحزاب من آمن بأن الله خلق عيسى من غير أب وأنه عبد الله ونبيه، ومنهم
من كفر بعد الآية البينة.

وقوله تعالى: ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ يدل على أن قوم مريم
انقسموا إلى أحزاب وغير أحزاب، فالأحزاب يجمعهم قول يعتمدونه
وينصرونه لكل حزب طريقة، وغير الأحزاب لم يذكر رأيهم، ولعلمهم سكتوا
عن قضية عيسى، أو آمن بعضهم وسكت بعضهم - والله أعلم.

﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ اليوم العظيم ومشهده مجمع
العالم فيه ومشاهدتهم لما يكون فيه وحضورهم فيه، كما قال تعالى: ﴿وَذَلِكَ
يَوْمٌ مَشْهُودٌ﴾ [هود: ١٠٣] فويل لهم من مشاهدتهم لما يكون في ذلك اليوم من
فصل القضاء، والحكم بين العباد فيما فيه يختلفون.

﴿٢٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُوتُنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢٨﴾ ما
أسمعهم وما أبصرهم بعد عنادهم اليوم فسوف يخضعون وينقادون حين لا
ينفعهم ذلك: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢].

وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦٠﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٦١﴾ وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٦٢﴾ إِذْ قَالَ

﴿يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ يحضرون موقف السؤال والحساب عند رب الأرباب
﴿لَكِنَّ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ الظالمون إما عام لكل ظالم، وإما خاص
هنا بالذين كفروا بعمسى، أي لكنهم اليوم في ضلال أي من إقامة الظاهر مقام
المضمر ليفيد أن سبب ضلالهم عن الحق أنهم ظالمون وهذا أرجح.

﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾
﴿وَأَنْذِرْهُمْ﴾ يا رسول الله أنذرهم ﴿يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾ يوم القيامة ﴿إِذْ قُضِيَ
الْأَمْرُ﴾ بدل من يوم الحسرة قضي الأمر بحكم الله على أهل النار بالخلود في
النار ولأهل الجنة بالخلود في الجنة فهناك الحسرة العظمى للظالمين، في
(مفردات الراغب): «الحسرة: الغم على ما فاته والندم عليه» انتهى، وفي
(الصحاح): «الحسرة: أشد التلّهُف على الشيء الفائت» انتهى.

﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ عن مصيرهم الرهيب، وهم في غفلة أي وهم اليوم في
غفلة ﴿وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لإعراضهم عن الحق وخذلانهم.

﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ ﴿إِنَّا﴾ أي الله ذو
العظمة والجلال ﴿نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ فهو تعالى هو الباقي بعد
فناء أهل الأرض والمالك للأرض بعدهم كما هو المالك لها من قبل ﴿وَإِلَيْنَا
يُرْجَعُونَ﴾ إلى الله وحده يرجعون يوم القيامة، وفي موقف السؤال والحساب
فلا عيسى ولا غيره من أهل السموات والأرض يشارك يوم القيامة في
الملك، أو يتدخل في الحكم: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي
الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾.

لَأَبِيهِ يَتَّابِتْ لَمْ تَعْبُدْ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴿١٧﴾
يَتَّابِتْ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا

﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ ﴿وَأَذْكُرْ﴾ يارسول الله اذكر ﴿فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ﴾ وذكره لإبراهيم بتلاوة ما أنزل الله فيه، فهو كقوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الشعراء: ٦٩].

﴿إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ ﴿صِدِّيقًا﴾ كثير الصدق قوال بالحق، وقد جاء في الحديث: «إن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقاً» ولكن وصف الأنبياء والأوصياء ومريم بنت عمران يفيد درجة عالية؛ لاختصاصهم بهذا الوصف من بين المؤمنين، مع أن كل مؤمن تقي صديق، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصُّدِّيقُونَ﴾ [الحديد: ١٩].

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَتَّابِتْ لَمْ تَعْبُدْ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ اذكر ﴿إِذْ قَالَ﴾ إبراهيم ﴿لَأَبِيهِ﴾ ناصحاً له داعياً إلى عبادة الله وحده: ﴿يَتَّابِتْ لَمْ تَعْبُدْ﴾ بهذا الرفق وبهذا الأدب لم تعبد ﴿مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ لا يسمع فهو لا يسمعك حين تعبد بدعائه، ولا يبصرك حين تعبد ﴿وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ لا يكفيك شراً من الشرور أي لا يدفع عنك شيئاً.

قوله: ﴿شَيْئًا﴾ إما مفعول به بمعنى لا يدفع عنك شيئاً تحذره، أو قائم مقام مفعول مطلق أي شيئاً من العناء أي لا يدفع عنك شيئاً من الدفع، والمعنى متفق، وهذه حجة عظيمة، وقوله: ﴿لَمْ﴾ مطالبة بحجة لا وجود لها، فأول الكلام مطالبة بالحجة وبقيته احتجاج على أبيه.

﴿يَتَأْتِي لَّا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾^(١٢)
 ﴿يَتَأْتِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾^(١٣)

﴿يَتَأْتِي إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾^(١٤) ﴿يَتَأْتِي﴾ عناية بالأدب والاستعطف ﴿إِنِّي قَدْ جَاءَنِي﴾ كلام مؤكد ليلفت إليه ويطلب منه الحجة إن أراد الحق ﴿قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ﴾ بهداية الله للنظر وبوحيه للرسالة ﴿مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ وهذا تأدب لم يصف أباه بالجهل المطلق ولكن أفاده أن عنده من العلم ما لم يأت أباه ليطلبه إن أراد الرشد ﴿فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ﴾ فالغرض من طلب اتباعه أن يهديه ﴿صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ طريقاً واضحاً لا عيب فيه ولا عوج لينقذه من الضلال وعواقب الضلال.

﴿يَتَأْتِي لَّا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾^(١٥)
 ﴿يَتَأْتِي لَّا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ﴾ أي إن الشرك عبادة للشيطان؛ لأن الشيطان يدعو إلى الشرك ويزينه ليضل الناس فلا تشرك ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾ مستمراً على معصيته للرحمن فكيف تعبد عدو الرحمن وتترك عبادة الرحمن الذي منه الخير.

﴿يَتَأْتِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾^(١٦) ﴿أَخَافُ﴾ أن تموت على الشرك ف﴿يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ﴾ فهو يخاف على أبيه من قليل العذاب، فضلاً عن كثيره ﴿فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ قريباً في جهنم مجاوراً له فيها، أو أخاف أن يمسه عذاب من الرحمن عاجل فيغلق عنك باب التوبة وتموت وأنت من أولياء الشيطان وتحشر وأنت ولي للشيطان يلحقك خزي أولياء الشيطان وعذابهم.

قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَتَابَرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلِّمْ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾

وفي قوله: ﴿عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ﴾ من البديع، احتراس أن يوهم أن الله تعالى مصدر شر فأفاد أنه الرحمن، ولكنه يجزي كل نفس بما كسبت؛ لأنه عزيز حكيم.

﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَتَابَرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ ﴿قَالَ﴾ أبو إبراهيم.

والراجع: أن أزر إنما هو عمه سمي أباه كما سمي العم أباً في قول الله تعالى حاكياً: ﴿قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ [البقرة: ١٣٣] ألا ترى رفق إبراهيم بأبيه هنا وهناك قال: ﴿إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٧٤] قال أبوه: ﴿أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ ءَالِهَتِي﴾.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال الحسين بن القاسم عليه السلام: يريد ءأنت زاهد في آلهتي يا إبراهيم، والرغبة عن الشيء: هو الزهد فيه» انتهى.

وظاهره: أن الرغبة عن الشيء عدم الحب له أو قلة الحب له، وعبرة (الصحيح): «ورغبت عن الشيء: إذا لم ترده وزهدت فيه» انتهى، والسؤال في قوله: ﴿أَرَاغِبٌ﴾ سؤال إنكار وفيه مبالغة إذا كان الرغوب عنها هو الزهد فيها فهو ينكر عليه الزهد فيها فضلاً عن عداوته لها.

وقوله: ﴿يَتَابَرَاهِيمُ﴾ ترك فيه التعطف فلم يقل يا بني كما قال إبراهيم: ﴿يَا أَبَتِ﴾ لأنه قد غضب على إبراهيم ولذلك توعدته ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ وقوله: ﴿تَنْتَهِ﴾ إما عن الكلام في آلهته أو عن الزهد فيها، والظاهر أنه توعدته بالرجم بالحجارة إما ليقنته وإما ليجرحه.

وقوله: ﴿وَأَهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ أي ابتعد مني ولا تقربني بعد كلامك هذا، وقوله ﴿مَلِيًّا﴾ قال الشرفي في (المصاييح): «قال الحسين بن القاسم عليه السلام: ومن الناس من يذهب إلى أن الملي مشتق من الإملاء والترك زماناً وهو حسن - والله أعلم» انتهى.

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «معناه دهر، وقيل: حين» وقال في (الصحيح): «الملي: الهوي من الدهر، يقال: أقام ملياً من الدهر، قال تعالى: ﴿وَأَهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ أي طويلاً» انتهى، وهو في لسان العرب) كذلك.

﴿٤٧﴾ قَالَ سَلَّمَ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا قَالَ الشرفي في (المصاييح): «أظهر الإنقياد لذلك الأمر بقوله: ﴿سَلَّمَ عَلَيْكَ﴾ سلام توديع ومتاركة» انتهى.

وقوله: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾ الراجح عندي: أن استغفاره طلب أن لا يعاجله الله بعذاب لاحتمال أن يبدو له في المستقبل أن يسلم ولم يعده بأن يستغفر له من عذاب الآخرة؛ لأن هذا تشجيع له على الإستمرار في الشرك.

وقد مر في (سورة الكهف): ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ [الكهف: ٥٨]. فهي تدل على أن الإمهال مغفرة ورحمة، ويحتمل ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ﴾ سَأَدْعُو لَكَ بالهداية إلى الإسلام ليغفر لك الشرك، وهذا صحيح على معنى سأطلب لك المغفرة كائنة بواسطة الإسلام أي بالهداية له.

وقوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «الحفي: اللطيف» انتهى، وفي (مفردات الراغب): «والحفي: البر اللطيف» قوله - عز وجل - : ﴿إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ انتهى.

وَأَعْتَزِّلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا آعَزَّهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ

وقال في (الصحيح): «والحفاوة - بالفتح - المبالغة في السؤال عن الرجل والعناية في أمره وفي المثل: مأربة لا حفاوة تقول منه: حفيت به [بالكسر] حفاوة وتحفيت به أي بالغت في إكرامه وإطافه» انتهى.

فحاصل المعنى: أنه عليه السلام يرجوا إجابة دعائه، لأن ربه كان به حفيماً، وفي هذا تذكير لأبيه بالفرق بين دعاء إبراهيم لربه ودعاء أبيه لما لا يسمع.

﴿وَأَعْتَزِّلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ ﴿وَأَعْتَزِّلُكُمْ﴾ اعتزلك وقومك واعتزل ﴿مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ فهجرته هجرة للمشركين وللشركاء وللشرك ﴿وَأَدْعُوا رَبِّي﴾ أطلب منه حاجاتي فلا أحتاج إلى غيره ﴿عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ أتوقع أن لا أكون بدعاء ربي شقياً، وذلك قريب منه.

وهذا أيضاً تعريض بالمشركين ودعائهم لشركائهم الذي هو سبب لشقوتهم ولعله استعمل عبارة الرجاء لأنه يجوز أن يكون بعض ما طلبه لا تقتضيه الحكمة ولكنه قاطع بأنه لا يشقى بالدعاء، فالأولى أن هذا الكلام لمجرد التعريض بالمشركين مع الرفق في التعبير بذكر أقل أحواله أنه يرجو أن لا يشقى بدعاء ربه والله أعلم، وهو قريب من الاحتجاج عليهم بالأمن في قوله: ﴿فَلْيُفْرِقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ﴾ [الأنعام: ٨١].

﴿فَلَمَّا آعَزَّهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ ﴿فَلَمَّا﴾ اعتزل أباه وقومه واعتزل ﴿مَا يَعْبُدُونَ﴾ لأنهم كانوا يعبدون أصنامهم بالدعاء لها وبغيره فجادل أباه في الدعاء وغيره ثم

صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥١﴾ وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٥٢﴾ وَنَذِيرًا مِّنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴿٥٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ

اعتزلهم وما يدعون وما يعبدون بغير الدعاء فقد كانوا يعبدونها بالعكوف لها، ولعلمهم كانوا يعبدونها بغير ذلك، ولعله تعالى ذكر إسحاق ويعقوب دون إسماعيل؛ لأن الخطاب من أول السورة احتجاج على بني إسرائيل في غلوهم في عيسى ومريم وفي تكذيب اليهود بعيسى فكان ذكر أبويهم أنسب لبيان النعمة عليهم، وفي ترتيب النعمة على الهجرة دلالة على فضلها وأن الله تعالى يسر أمر من هاجر إليه ويعينه.

وقوله تعالى: ﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ أي وكلاً منهم أو منهما جعلنا أي وكل واحد جعلناه ﴿نَبِيًّا﴾.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ وهبنا لهم لإبراهيم وابنيه ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ﴾ ذكراً حسناً صدقاً ﴿عَلِيًّا﴾ رفيع القدر ومن هذا الذكر ذكرهم في القرآن والذكر الحسن لهم صدق كل ما جعل الله لهم فائدة وصفة بالصدق أن ينزه ذكرهم عن كونه كذباً؛ لأن غيرهم من الملوك ونحوهم يمدحون بالكذب وهذا موافق لدعوة إبراهيم عليه السلام: ﴿وَاجْعَلْ لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤].

﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ ﴿مُخْلَصًا﴾ بكسر (اللام) عمله خالص لله تعالى و﴿مُخْلَصًا﴾ بفتح (اللام) أخلصه الله بعصمته من الذنوب المتعمدة، وقوله تعالى: ﴿رَسُولًا نَبِيًّا﴾ جمع بين الوصفين لأنهما مختلفين فهو رسول من حيث أن الله أرسله كغيره من الرسل ونبي أنباه الله بما أوحى إليه من الرسالة وأوحى إليه من الشريعة.

رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٧﴾ وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ ۖ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٥٨﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ

﴿٥٧﴾ ﴿وَنَدَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ ﴿وَنَدَيْنَاهُ﴾ بإنشاء النداء ﴿مِنْ جَانِبِ الطُّورِ﴾ في ميقات ربه الذي كان أربعين ليلة و﴿الْأَيْمَنِ﴾ صفة من اليمين: وهو ضد الشؤم، والأيمن صفة لجانب، بدليل قوله تعالى: ﴿وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾ [طه: ٨٠] وفي هذا دلالة على تفضيل بعض البقاع كما فضل بعض الزمان، وهو يبطل قول من قال: لا تفضيل إلا بالعمل، قال الشرفي: «والطور: جبل بالشام بين مصر ومدين».

وقوله تعالى: ﴿وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ تقريب اصطفاء الله له لكلامه، وقوله تعالى: ﴿نَجِيًّا﴾ حال أي قربناه في حال أنه نجي، والنجي هنا: الذي ناجاه الله والمناجاة كلام خفي عن غير المخاطب به، فجمع له المناداة والمناجاة، ولعل الله تعالى ناداه أولاً ثم ناجاه لحكمة فيهما.

﴿٥٨﴾ ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَرُونَ نَبِيًّا﴾ وهبنا له أخاه كما طلب، حيث قال: ﴿وَجَعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي﴾ هَارُونَ أَخِي * اشدُّ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي ﴿طه: ٢٩-٣٢﴾ وقوله تعالى: ﴿مِنْ رَحْمَتِنَا﴾ يفيد: أن الله تعالى أعطاه أخاه هارون رحمة له؛ لأنه يعينه ويصدقه وينصح له في المعاونة فهو رحمة لموسى من رحمة الله، وفي هذه الآية ذكر لهارون أغنانا عن ذكره لنا مستقلاً.

﴿٥٩﴾ ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ ۖ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ ﴿صَادِقَ الْوَعْدِ﴾ يعم وعده مع ربه ووعدته لأبيه وغير ذلك إن كان له وعد غير ذلك فما أخلف وعداً.

رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾ وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٥٦﴾
وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ

قال الشريفي في (المصابيح): ويمكن أن يكون المراد [الوعد] فيما بينه وبين الناس؛ لأنه المشهور من خصاله، عن ابن عباس أنه وعد صاحباً له إلى مكان فانتظره فيه سنة، وناهيك وعده من نفسه الصبر على الذبح فوفى به» انتهى.

قلت: إن صحت الرواية عن ابن عباس فالمكان واسع فيه مرافقه مثل بلد انتظر فيه سنة، وقوله: فوفى به، يعني بتسليم نفسه للذبح، وإن لم يذبح.

﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ ﴿يَأْمُرُ أَهْلَهُ﴾ ليقبهم العذاب، كما قال الله تعالى: ﴿قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ الآية [التحريم: ٦] ولعله جمع بين الصلاة والزكاة ليفيد: أمرهم بالعبادة البدنية والعبادة المالية؛ لأن ذلك أبلغ في العبادة؛ لأن الإنسان قد تثقل عليه الصلاة لكسله ولا تثقل عليه الزكاة لسلامته من البخل، ومن الناس من تسهل عليه الصلاة وتشق عليه الزكاة لشح نفسه، فإذا جمع بين العبادتين كان أبلغ في العبادة.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ دليل على كماله في التعبد لربه؛ لأن الإنسان خلق للعبادة فإذا كان كاملاً فيها كان عبداً مرضياً عند ربه رضي به فجعله رسولاً نبياً؛ لأنه عبد كما يحب ربه ويرضى، وقد ذكره هنا مستقلاً؛ لأنه لم يذكره مع إسحاق مع أن الله تعالى وهب لإبراهيم إسماعيل قبل إسحاق، كما يفيد الترتيب في قوله تعالى حاكياً عنه: ﴿رَبُّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصافات: ١٠٠] ثم قال تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ * فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَابُنِي إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ.. إلى قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرْهُ بِإِسْحَاقَ﴾ [الصافات: ١٠١-١١٢].

ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا
وَأَجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ ءَايَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴿٥٨﴾ ﴿٥٩﴾

﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ ؑ إِنَّهُ كَانَ صَدِيقًا نَّبِيًّا﴾ * وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا
عَلِيًّا ﴿صَدِيقًا﴾ كثير الصدق فاضلاً في ذلك، وقال الشرفي في
(المصابيح): «أي كثير التصديق بكتب الله ورسله» انتهى، والتصديق: هو
من الصدق فإذا امتنع بناء صديق من الرباعي صح من صدق بتخفيف
البدال، وقوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ قالوا: رفعه الله في إحدى
السموات، وهو ظاهر المكان العلي أنه في السماء، فلا مانع من ذلك.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ
حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى
عَلَيْهِمْ ءَايَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ ﴿أُولَئِكَ﴾ المذكورون وهم
زكرياء ويحيى وعيسى وإبراهيم وإسحاق وموسى وهارون وإسماعيل
وإدريس ﴿أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ بالهدى الفائق ومن هداهم النبوة.

وقوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَمَلْنَا﴾ أي من ذريتهم ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ
وَإِسْرَءِيلَ﴾ يحتمل ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ﴾ أي إسماعيل وإسحاق ويعقوب
وهو إسرائيل ومن ذرية إسرائيل وهو زكريا ويحيى، وإن أريد ومن ذرية كل
من إبراهيم وإسرائيل لم يدخل فيه إسماعيل وإسحاق، فالأول أرجح.

وقوله تعالى ﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا﴾ (من) للتبويض وفي مدح
المذكورين بانتسابهم إلى من ذكر دلالة على شرف النسب إلى الأخيار،
ويوافقه حديث الاصطفاء لنبينا محمد ﷺ من بني هاشم، ثم من قريش، ثم
من كنانة، الذي أخرجه: أحمد، ومسلم، والترمذي، وغيرهم.

خَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا ﴿٥١﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا

وقوله تعالى: ﴿إِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ﴾ إذا سمعوا آيات الرحمن حين تتلى عليهم وآيات الرحمن ما أنزل من آياته على الأنبياء ﴿خَرُّوا﴾ هووا في أمكتهم ﴿سُجَّدًا﴾ لله خاضعين ﴿وَبِكِيًّا﴾ من خشيته، وأضاف الآيات إلى الرحمن لأنها من رحمته؛ ولأن عذابه لمن عصاه وتمرد عليه لا ينافي وصفه بالرحمة؛ لأنها قد سبقت لهم الرحمة في الدنيا فلم يقبلوها.

﴿خَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا﴾ قال في (الصحيح): «والخلف: القرن من بعد القرن، يقال: هؤلاء خلف سوء لناس لاحقين بناس أكثر منهم، قال لبيد: ذهب الذين يعاش في أكنافهم وبقيت في خلف كجلد الأجر»

انتهى. وقوله تعالى ﴿خَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ قال الراغب: «يقال لمن خلف آخر فسد مسدده: خلف» انتهى.

وعلى هذا: فمعنى خلفه: قام مقامه، وعليه يحمل الحديث: «لا نالت شفاعتي من لم يخلفني في عترتي» وعلى هذا يكون معنى خلف من بعدهم خلف أنهم قاموا مقام أولئك في أمر مثل قيادة الأمة وإحراز ما بعد الأولين من الكتب، فهم مذمومون بتصدرهم لأمر ليسوا أهلاً لها، ويحتمل ﴿خَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ جاءوا من بعدهم وزيادة ﴿مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ ليفيد: أنهم بعد ذهابهم بالموت أو الرفع في السماء، وفيه تذكير بالفرق بين السلف والخلف.

وقوله: ﴿أَضَاعُوا الصَّلَاةَ﴾ يحتمل تركوها، ويحتمل: أمارتوها وتركوها أو أمارتوها فقط، وقوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ﴾ يفيد: أن شهواتهم تقودهم في سلوكهم، ولذلك فهم يقعون في الحرام.

يُظْلَمُونَ شَيْئًا ﴿٦﴾ جَنَّتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا ﴿٧﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا

وقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ وعيد لهم بسوء العاقبة وبجزاء غوايتهم، قال الراغب: «وقوله: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ أي عذاباً، فسماه الغي لما كان الغي هو سببه، وذلك كتسمية الشيء بما هو سببه، كقولهم للنبات: ندى» انتهى.

قلت: وفي جعل الغي جزاءهم لطيفة تشير إلى أن انقيادهم للشهوات أغواهم عن سبيل الله فسوف يلقون غوايتهم أي جزاءها.

﴿٦﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾ استثناء من عموم المتوعدين بجزاء الغي لـ ﴿مَنْ تَابَ﴾ منه إلى ربه ﴿وَأَمَنَ﴾ بما وجب الإيمان به ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ عملاً حسناً صحيحاً غير فاسد مقبولاً غير حابط ﴿فَأُولَئِكَ﴾ تفسير للاستثناء فهم ناجون من الغي ومع ذلك يدخلون الجنة، وأغنى ذكر دخولهم الجنة عن ذكر نجاتهم من النار لتلازمهما.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾ أي لا ينقصون شيئاً من ثواب الإيمان والعمل الصالح، ولعله دفع لتوهم النقص مقابلاً لما سلف منهم من الغي فهو كان لم يكن منهم.

﴿٧﴾ جَنَّتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا﴾ ﴿جَنَّتٍ﴾ بدل من الجنة؛ لأنها تشتمل على جنات كثيرة، وقوله: ﴿عَدْنٍ﴾ استقرار وأمن، وقوله: ﴿بِالْغَيْبِ﴾ أي في حال غيابهم عنها حين كانوا في الدنيا ﴿إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا﴾ إنه أصدق القائلين فوعده لا يزال مأتياً يأتيه من وعده الله ويبلغه ويصل إليه لا يتخلف.

بُكَرَّةً وَعَشِيًّا ﴿٢٦﴾ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا ﴿٢٧﴾ وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا

﴿٢٦﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا ۖ وَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٢٧﴾

اللغو: الكلام الذي ينبغي أن يلغى ويترك فيعم فضول الكلام وما لا طائل تحته ويعم قبيح الكلام، فالجنة منزهة عن ذلك كله، وقوله: ﴿إِلَّا سَلَامًا﴾ استثناء منقطع لبيان أن السلام ليس من فضول القول؛ لأنه إحسان وتكريم إذا كان من الله جل جلاله أو من الملائكة أو من الأنبياء والصديقين وهو إحسان إذا كان من أهل درجة واحدة من بعضهم لبعض.

﴿وَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً﴾ في الصباح ﴿وَعَشِيًّا﴾ من بعد زوال الشمس إلى الغروب، وفي هذا دلالة في قوله تعالى: ﴿وَهُمْ﴾ على أنهم يملكون ذلك أو يصير حقاً لهم، وفي قوله تعالى: ﴿بُكَرَةً وَعَشِيًّا﴾ دلالة على أن الجنة لها ليل ونهار وإن فرض أنهم لا ينامون ففي اختلاف الحالات تجديد للذات إذا اختص النهار بشيء واختص الليل بشيء ولا يلزم أن تكون مظلمة لأن الأنوار تكفي في الليل كما يكفي اليوم ضوء الكهرباء فلا موجب لتأويل هذه الآية.

﴿٢٦﴾ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا ﴿٢٧﴾ تِلْكَ الْمَوْصُوفَةُ ﴿٢٨﴾ هِيَ ﴿الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ﴾ أو تلك الجنة الموصوفة بالصفات المذكورة هي التي نورث ﴿مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾ والفرق: أن الأول تعظيم للجنة، والثاني وعد للمتقين سيق له الكلام، كقوله تعالى: ﴿تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ [الرعد: ٣٥] وهو أرجح لأنه قد جمع مدح الجنة بالإشارة إلى صفاتها وتجديد الوعد بها للمتقين تأكيداً للوعد السابق؛ لأن الإنسان في غفلته يحتاج إلى التأكيد وتجديد التذكير، وجعل الجنة ميراثاً لهم إشارة إلى أنهم نالوها بسبب أعمالهم.

كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿١٤﴾ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴿١٥﴾ وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِثُّ لَسُوفَ

وقوله تعالى: ﴿الَّتِي نُورِثُ﴾ أي نورثها، ظاهره: أنها كلها للمتقين فليس لغيرهم فيها نصيب وليس للفجار إلا النار، كما قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ﴾ [هود: ١٦].

﴿وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ﴾ ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ هذه من الله تعالى حكاية عن الملائكة (عليه السلام)، وهي تبين أنهم عباد الله متعبدون له مطيعون لأمره واقفون عند حدوده، فهم لا ينتزلون إلى الأرض إلا بأمره، وفيه دفع لتوهم المشركين أن محمداً إن كان رسولاً، فلماذا لا تصحبه الملائكة أو تنزل متى شاء، كما أنه رد على المشركين في زعمهم أنهم ولد للرحمن سبحانه.

وقوله: ﴿لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ﴾ أي له وحده لا شريك له ما بين أيدينا ما قدامنا من السموات وما خلفنا منها وكذلك من غيرهما، وقوله تعالى: ﴿وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ﴾ الأمكنة التي نحن فيها ونحن أيضاً فهو المالك لنا ولأمكتتنا ولكل السموات والأرض، ويحتمل له ما بين أيدينا من أحوالنا التي نستقبلها وما خلفنا من أحوالنا الماضية وما بين ذلك أحوالنا التي نحن فيها أي هو المالك المدبر لأحوالنا كلها ونحن تحت تصرفه وأمره، فهو مثل الأول تعليل لكونهم لا ينتزلون إلا بأمر ربهم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ قال في (لسان العرب): «والنسي: الكثير النسيان يكون فعلاً وفعولاً وفعل أكثر - ثم قال - : وفي التنزيل العزيز: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ أي لا ينسى شيئاً انتهى.

وهو سبحانه لا يجوز عليه النسيان، ولعل هذا مرتبط بقول الملائكة ﴿وَمَا نَنْتَظِرُ﴾ أي أن تخلفنا سببه أنا واقفون تحت أمر الله وليس سببه نسياناً من ربنا، وهذا على ما يروى أن سبب نزول الآية تأخر نزول الوحي، وإذا لم يكن سببها فلا يتعين ذلك - والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا﴾ فسرَه الإمام زيد بن علي عليه السلام: «بِالْآخِرَةِ ﴿وَمَا خَلَفْنَا﴾ بِالدُّنْيَا ﴿وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ﴾ النَّفْخَتَانِ» انتهى.

وقال الشرفي في (المصابيح): «وقال الحسين بن القاسم عليه السلام: ﴿لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا﴾ مِنَ الْقِيَامَةِ ﴿وَمَا خَلَفْنَا﴾ مِنَ الدُّنْيَا وَزَوَالِهَا ﴿وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ﴾ مِنْ خُرُوجِ الْأَرْوَاحِ وَانْتِقَالِهَا» انتهى.

قال الشرفي: «وفي (البرهان): ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِينَا﴾ وَهُوَ الدُّنْيَا ﴿وَمَا خَلَفْنَا﴾ هُوَ الْآخِرَةُ ﴿وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ﴾ هُوَ إِحْيَاءُ الْمَوْتَى وَنَفْخُ الصُّورِ، وقال الهادي عليه السلام: أما قوله: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِينَا﴾ فهو أماننا وقدأمننا من يوم الحشر وما ذكر من الثواب والعقاب.

وأما قوله: ﴿وَمَا خَلَفْنَا﴾ فهو ما تركنا وراء ظهورنا وما يحدث من بعد مماتنا من أحداث الدنيا، وأما قوله: ﴿وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ﴾ فمعناه سوى ذلك مما كان قبل خلقهم وخلق آبائهم وما كان في وقت إحيائهم وما يكون بعد مفترهم [كذا ولعله تصحيف حشرهم] من دار بؤس أو دار سرور ونعمة للنفوس» انتهى.

ويشكل قوله: وخلق آبائهم، وقوله: من دار بؤس فإنه لا يناسب جعل الآية حكاية عن الملائكة؛ لأن الإمام الهادي عليه السلام ينفي التوالد بين الجن، وقد قيل: إن بعض المفسرين يجعلها حكاية عن أهل الجنة، ويشكل قوله: ﴿نَنْتَظِرُ﴾ ولا يناسبه كلام الإمام الهادي عليه السلام في قوله: أو بؤس - والله أعلم.

أُخْرِجُ حَيًّا ﴿١١﴾ أَوْ لَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴿١٢﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا

﴿١١﴾ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴿١٢﴾ إن كان هذا من حكاية كلام الملائكة أو الحكاية عنهم، فهو كالتعليل لقولهم: ﴿لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ﴾ وإن لم يكن من الحكاية بل هو ابتداء، فالمعنى هو أي ربك رب السموات والأرض وما بينهما أي أنه المستحق للعبادة؛ لأنه المالك للسموات والأرض وما بينهما وحده ﴿فَاعْبُدْهُ﴾ أي أخلص عبادتك له؛ لأن العبادة مع الشرك لا تقبل فهي كلا عبادة ولأن ترتيب الأمر بعبادته على كونه المالك وحده يفيد ذلك، وقد تكرر الأمر بالعبادة بمعنى عبادته وحده في قصص الرسل (عليه السلام).

وقوله تعالى: ﴿وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾ أي احتبس أي احبس نفسك لعبادته واثبت عليها، ولعل الأصل أن يقال: على عبادته، فلعله قيل: ﴿لِعِبَادَتِهِ﴾ لإفادة أن يكون الصبر لإرادة العبادة.

وقوله تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ فيه تفاسير ولعل أقربها ﴿سَمِيًّا﴾ أي مشاركاً لله في اسمه، أو في اسم الربوبية؛ لأنه رب كل شيء وحده لا شريك له في الربوبية، وهذا مناسب لأول الآية ومناسب للأمر بالعبادة؛ لأنها تعبير عن العبودية.

﴿١١﴾ وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرِجُ حَيًّا ﴿١٢﴾ وَيَقُولُ ﴿عُطْفَ عَلَى رَبِّ السَّمَاوَاتِ﴾ من حيث إفادته؛ لأنه خالق كل شيء وذلك يفيد أن قدرته لا تقاس بها قدرة مخلوق ومع هذا يقول الإنسان.. الآية أي يستبعد البعث والحياة بعد الموت، وقوله: ﴿أُخْرِجُ﴾ أي من بطن الأرض يُعَدُّ القدرة على ذلك بأنه يكون قد مات وبأنه يكون في القبر فكيف يكون ذلك البعث محققاً.

﴿ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا﴾ ٣٨ ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا﴾ ٣٩ ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ

﴿أَوَّلًا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾ أيقول ذلك ولا يذكر أي لا يتذكر ﴿أَنَا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾ أي أقدم نسي فهو لم ينس ولكنه يعرض عن النظر الصحيح، وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾ يحتمل شيئاً يذكر، ويحتمل خلق روحه أنه اختراع وهذا قريب لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ [المؤمنون: ١٤].

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾ ٤٠ ﴿فَوَرَبِّكَ﴾ أي إن زعموا ذلك ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ﴾ أقسم الله أصدق الصادقين أن البعث والحياة حق، ودل على ذلك بقوله تعالى: ﴿لَنَحْشُرَنَّهُمْ﴾ أي لنحشرن الكافرين بالآخرة ﴿وَالشَّيَاطِينَ﴾ المضلين لهم ﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾ فهم حولها يرونها ويسمعون صوتها جثياً على ركبهم ولعلمهم من شدة الخوف ضعفوا عن القيام فجثوا على الركب.

﴿ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا﴾ ٤١ ﴿لَنَنْزِعَنَّ﴾ لعله عبر بالنزع لأن أخذه من بينهم نزع لكونهم مزدحمين متراكمين ﴿مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ﴾ من كل جماعة متشايعين يجمعهم أمر من الباطل يتعاونون عليه ﴿أَيُّهُمْ أَشَدُّ﴾ أيهم هو أشد ﴿عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا﴾ أي تمرداً وإصراراً على الباطل، قال في (لسان العرب): «عتا يعتوا عتواً وعتياً استكبر وجاوز الحد» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿عَلَى الرَّحْمَنِ﴾ تنبيه على شناعة العتي عليه؛ لأن الرحمن دعاهم في الدنيا إلى رحمته وفضله إلى النجاة من الشقوة الدائمة وإلى الفوز

رَبِّكَ حَتَّمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا
﴿٧٢﴾ وَإِذَا تَتَلَّى عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَيُّ

بالسعادة الدائمة وأبلغ في الدعوة، وجعلها مع الحجج والآيات الدالة على صدقها، فأبى عدو الله إلا طاعة الشيطان والإعراض عن دعوة الرحمن والمبالغة في ذلك فاستحق أن يقدم إلى جهنم قبل أصحابه الذين نزع من بينهم تعجيلاً لعذابه قبلهم.

﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا﴾ ﴿٧١﴾ ﴿أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ﴾ أن يصلوها، والراجع: أن الضمير لكل أي للكافرين والشياطين، وعلمه تعالى بهم علمه بتفاصيل عصيانهم ومقاديره ومقادير عتوهم، فهو سبحانه لا يغلط في نزع من ينزع من بينهم، أو نحن أعلم بالذين هم أحق بالمسارعة إلى جهنم لأنهم أحق بالعذاب من غيرهم مع اشتراكهم في استحقاق العذاب.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ﴾ للترقي من بيان إلى بيان لا لتراخي كونه أعلم سبحانه وتعالى، وصلي جهنم مباشرة النار بأجسادهم.

﴿وَإِنْ مِّنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ خطاب للذين أحضرهم حول جهنم، وبقوا هناك بعد الذين نزعهم من بينهم ﴿وَإِنْ مِّنْكُمْ﴾ وما منكم أحد ﴿إِلَّا وَارِدُهَا﴾ وارد جهنم، أو خطاب للناس كلهم ﴿كَانَ﴾ الورد ﴿عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ على ربك يا رسول حتماً محتوماً حتمه على نفسه أي أوجبه ﴿مَّقْضِيًّا﴾ واقعاً مفعولاً، فإن كان الخطاب للذين أحضروا في أولها فخطاب الرسول ﷺ بآخرها مناسب؛ لأنهم كفروا به وبما أنذروهم، وإن كان الخطاب للناس كافة فخطاب الرسول ﷺ لأنه المبلغ والرسول بذلك.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال الحسين بن القاسم عليه السلام: يريد عز وجل أنا إذا نزعنا من كل شيعة أشدهم عتياً لم نذر منكم يا من بقي من الأدناس والسفل أحداً ﴿إِلَّا وَارِدُهَا﴾ فلا تحسبوا أنا إذا عذبنا المتكبرين تركنا الهمج من النار وعذابها فلا تطمعوا أيها الضعفاء أن تسلموا من جهنم ولهبها بل نعذبكم جميعاً ونخلدكم فيها وتكونون لكفركم من حطبها، ثم قال ﴿كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾ أي أمراً واجباً مفروغاً منه؛ لأن الحكيم - عز وجل - إذا وعد بشيء كان واجباً عليه لأنه صادق لا ينسب الإخلاف إليه.

ثم قال عليه السلام: وقيل - أيضاً - إن تفسير الآية ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ إن الورود ورودان: ورود بالإبدان، وورود بالأعيان، فأما الفاسقون فيردون بأبدانهم، وأما المؤمنون فيردون بأعيانهم لينظروا ما نزل بأعدائهم، وليشكروا الله على السلامة من الهول الذي نجوا به منه بأعمالهم، والقول الأول أحسنهما وكلاهما حسن والله أعلم» انتهى.

قلت: استعمل الورود في القرب من الماء للشرب مثل: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ﴾ [القصص: ٢٣] وقول الشاعر زهير:

وَلَمَّا وَرَدَنَ الْمَاءَ زُرْقًا جِمَامُهُ وَضَعْنَ عَصِيَّ الْحَاضِرِ الْمُتَخَيِّمِ

واستعمل لدخول النار في قوله تعالى: ﴿فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَيَتَسَّ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ [هود: ٩٨] واستعمل لوقوع الموت، قالت:

اخوتي لا تبعدوا أبداً وبلى واللّه قد بعدوا
كل ما حي وإن أمروا واردوا الحوض الذي وردوا

قال الراغب: «الورود: أصله قصد الماء، ثم يستعمل في غيره» انتهى.

الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٢﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثْنًا وَرِئًا ﴿٧١﴾ قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا

﴿٧٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٣﴾ ثُمَّ للترتيب في الوقوع أو في الترقى من حال إلى حال فإن كانت للترتيب في الوقوع كما هو الأصل فيها، فالمعنى على الأول: لنفعلن بالكافرين والسياطين ما ذكر ﴿٧٣﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ بإدخالهم الجنة أو ضرب سور بينهم وبين أهل النار، وعلى القول بورود الكل من المؤمنين والكافرين بعد نزع الأشدّين عتياً ننجي الذين اتقوا ونصير الظالمين كلهم فيها جثياً، وعلى هذا لا يستقيم جعل نذر إلا بمعنى نترك التي هي بمعنى نصير لا بمعنى نترك ندعهم لا ننجيهم منها لأنه لم يسبق ذكر لإدخال النار بقية الظالمين، ومن هنا يبطل التمسك لدعوى أنهم قد حضروا حولها كلهم المؤمنون والكافرون بقوله تعالى: ﴿نَذَرُ﴾ و﴿جِثِيًّا﴾ جمع جاث والجاثي المعتمد على ركبته بين الانتصاب والقعود، أما من قال واردها داخلها فلا حجة لهم لأن الورود قصد الماء والوصول حوله لا الشروع فيه، هذا الحقيقة وخلافه كناية.

﴿٧٢﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ﴿٧٤﴾ أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٥﴾ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴿٧٦﴾ بآياتنا ﴿٧٧﴾ أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ ﴿٧٨﴾ نحن أم أنتم يعنون الكفار أم المهتدون بآيات الله المؤمنون بكتابه ورسوله ﴿٧٩﴾ أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا ﴿٨٠﴾ محلاً ولعلمهم عبروا عن المحل بالمقام لأنهم أهل قيام بسبب أعمالهم الدنيوية وتحركهم لدنياهم بخلاف الفقراء الذي لا يجدون شغلاً فهم قاعدون، كما قدمت في قول الله تعالى: ﴿فَتَقَعْدُوا﴾.

وقولهم: ﴿وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ الراجع: أن الندي هنا محل اجتماعهم للمشاركة يريدون أنهم فيه أهل ثياب جديدة أو جيدة وزينة تناسب حالهم في الثروة بخلاف المؤمنين لأن أكثرهم فقراء، فهم يريدون أن يحتجوا بأنهم أحسن حالاً في دنياهم مع أنهم كافرون بآيات الله، يعنون أنهم لو كانوا على باطل ما حسنت حالهم، أو يعنون أن إنذار الرسول ﷺ لهم بالنار غير صحيح؛ لأن الله لو كان غاضباً عليهم ما وسع لهم الرزق وقد ردَّ الله عليهم فقال تعالى:

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثْنًا وَرِئَاءَ﴾ الأثاث، قال في (الصحيح): «متاع البيت» انتهى، وقال الراغب: «الأثاث: متاع البيت الكثير، من أث أي كثر وتكاثر» انتهى.

فقولهم: متاع البيت يعم ما ينتفع به ويتمتع به من الفراش ونحوه من الحاجات التي تعدّ في البيوت لاستعمالها فيها، فقوله تعالى: ﴿هُمْ أَحْسَنُ أَثْنًا﴾ أي أجود وأجل متاعاً في البيوت، وذلك دليل الثروة وسعة الحال.

وقوله: ﴿وَرِئَاءَ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): «والري إن هُمَزَ فمن الرؤية وهو المنظر الحسن والهيئة، وإن لم يُهْمَزَ فكذلك إلا أنها خففت الهمزة أو من الري بمعنى الترفه والتعمة من قولهم: رِيَّان من النعيم» انتهى.

ومثله في (الصحيح) ولفظه: «وقوله تعالى: ﴿هُمْ أَحْسَنُ أَثْنًا وَرِئَاءَ﴾ مَنْ هَمَزَهُ جعله من المنظر من رأيت وهو ما رآته العين من حال حسنة وكسوة ظاهرة سنّية - ثم قال - : وَمَنْ لم يهْمَزْ فلما أن يكون على تخفيف الهمز أو يكون من رَوِيَتْ ألوانهم وجلودهم رِيًّا أي امتلأت وحسنت» انتهى.

حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا ﴿٥٥﴾ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى^{٥٦}

وهذا دليل على أن سعة الرزق وكثرة المال لا تدل على رضوان الله تعالى عمن أعطاه، ولا على أن حاله في الآخرة ستكون مثل حاله في الدنيا؛ لأن القرون الماضية عذبهم الله وغير حالهم من الخير إلى الشر بما كفروا.

﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا﴾ ﴿مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ﴾ عن سبيل الله والغواية عنها ﴿فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا﴾ فليمد له في الحياة الدنيا مدًّا ويُملي له أي يمهل ولا يعاجله بالعقاب فهو أهل لذلك؛ لأنه زيادة في الحجة عليه، وإذا كان يتوب في المستقبل فإمهاله رحمة له والله أهل لأن يرحم، كما مر في قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ [الكهف: ٥٨].

والسراجح: أن إخراج الكلام مخرج الطلب للدلالة على أنه أهل لا وعد عام إلا بما تقوم به الحجة من العمر ﴿حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا﴾ أي الضلال ﴿رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ﴾ عاجلاً ﴿وَإِمَّا السَّاعَةَ﴾ أي القيامة ﴿فَسَيَعْلَمُونَ﴾ عند معاينة العذاب أو الساعة ﴿مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ هم أم المؤمنون ومن هو ﴿وَأَضْعَفُ جُنْدًا﴾ هم أم الله الذي له جنود السموات والأرض، وحيث تنكشف الحقيقة ويتبين لهم أنهم كانوا هم الخاسرين.

قال (صاحب الكشاف): «فإن قلت: ﴿حَتَّىٰ﴾ هذه ما هي؟

قلت: هي التي تُحكى بعدها الجمل، ألا ترى الجملة الشرطية واقعة بعدها» انتهى.

وَالْبَقِيَّةُ الصَّالِحَةُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا ﴿٧٦﴾ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِينَ مَالًا وَّوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ

قلت: فهي مثلها في قوله تعالى: ﴿وَابْتَغُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ﴾ الآية [النساء: ٦] وهي ﴿حَتَّىٰ﴾ الابتدائية، وهنا يمكن تقدير: يؤخر عنهم العذاب حتى إذا رأوا ما يوعدون فسيعلمون، وقد بسط (صاحب مغني اللبيب) في ﴿حَتَّىٰ﴾ هذه.

﴿٧٦﴾ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَقِيَّةُ الصَّالِحَةُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا ﴿٧٧﴾ وَيَزِيدُ اللَّهُ أَيَّ إِذَا تَتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا ﴿يَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ لأنهم يزدادون علماً وإيماناً وذلك خير مما يجمع الكافرون من المتاع.

وقوله تعالى: ﴿وَالْبَقِيَّةُ الصَّالِحَةُ خَيْرٌ﴾ أي الأعمال الصالحات التي تبقى فائدتها لأهلها فتنفعهم في الآخرة ﴿خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ يا رسول الله ﴿ثَوَابًا﴾ أي جزاء ﴿وَخَيْرٌ مَرَدًّا﴾ أي مرجعاً يردون إليه في الآخرة فذلك خير مما افتخر به الذين كفروا من حسن الندي والمقام.

وقوله: ﴿عِنْدَ رَبِّكَ﴾ أي في حكمه أو ثواباً عند ربك، كقوله تعالى: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٥٥] ومن الباقيات الصالحات للمؤمن «سبحان الله، والحمد لله ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم».

﴿٧٧﴾ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِينَ مَالًا وَّوَلَدًا ﴿٧٨﴾ أَفَرَأَيْتَ﴾ تفريع على ﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ﴾ إلى آخر الآيتين، والهمزة للسؤال عن رؤيته تعجيب منه في كفره ودعواه الكاذبة أنه يؤتى في الآخرة ﴿مَالًا وَّوَلَدًا﴾ يعني كما أوتي في الدنيا.

الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَزَّلْنَاهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً

﴿٧٨﴾ أَطْلَعَ الْغَيْبَ أَمْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿٧٩﴾ الهمة للسؤال لأنه أخبر عن مغيب بلا حجة من الله فلماذا أخبر به؟! ﴿٨٠﴾

﴿٧٨﴾ أَطْلَعَ الْغَيْبَ ﴿٧٩﴾ أعلم الغيب بعد جهله به! ﴿٨٠﴾ أَمْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿٨١﴾ بأنه سيؤتيه مالا وولدا؟!

﴿٧٨﴾ كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ كَلَّا ﴿٨٠﴾ زجر وردع عن الكذب والتكذيب ﴿٨١﴾ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُهُ مِنْ هَذَا الْقَوْلِ وَغَيْرِهِ مِنْ بَاطِلِهِ ﴿٨٢﴾ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ ﴿٨٣﴾ بدل المد من المال ﴿٨٤﴾ مَدًّا ﴿٨٥﴾ فعذابه متواصل كلما خبت زدنهم سعيًا.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال الحسين بن القاسم عليه السلام: والمَدُّ من العذاب: هو طول الإقامة الذي لا ينقطع أبدًا» انتهى.

﴿٨٠﴾ وَنَزَّلْنَاهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨١﴾ وَنَزَّلْنَاهُ مَا يَقُولُ ﴿٨٢﴾ السراج: أن معناه ونزله ما يفتخر به؛ لأن قوله: ﴿لَاؤْتَيْنُ مَا لَا وَلَدًا﴾ فرع على أن له مالا في الدنيا وولداً، فهو امتداد لقولهم: ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ لأنه يعني: ﴿لَاؤْتَيْنُ مَا لَا وَلَدًا﴾ كما أوتيت في الدنيا مالا وولداً، فلما كان مرجع تمنيه إلى افتخاره بالمال والولد صح أن يقال ونزله ما يفتخر به ويتمنى مثله في الآخرة.

والمعنى: سيموت تاركاً لماله وولده ﴿٨٣﴾ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٤﴾ كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فِرَاقًا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرْكُكُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾

لَيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٤١﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٤٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْزُهُمْ أَزًّا ﴿٤٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ

وعلى هذا: فقله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَاهُ﴾ كقله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ ويؤيد أن المراد في قوله: ﴿وَنَزَّلْنَاهُ مَا يَقُولُ﴾ ما يفتخر به من المال والولد أنه حكى عنه كلمة واحدة في قوله تعالى: ﴿وَقُلْ لَاؤْتِيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ بصيغة الفعل الماضي، أما قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَاهُ مَا يَقُولُ﴾ فهو يشير إلى قول مكرر، لأنه مضارع يعبر به عن ما يعتاد ويتكرر، فظهر: أنه غير راجع إلى تلك الكلمة الواحدة بعينها، وقوله تعالى: ﴿وَيَأْتِيَنَا فَرْدًا﴾ ليس له ناصر من ولد ولا غيره.

﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾ واتخذ الذين كفروا ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً﴾ عبدوهم من دون الله ليكون شركاؤهم ﴿لَهُمْ عِزًّا﴾ إما لينصروهم وهم يعنون، كقله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحَضَّرُونَ﴾ [يس: ٧٤-٧٥] ولا مانع أن يرد قولهم هذا بنفي نصرهم لهم في الآخرة، كقله تعالى: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَلَهُ﴾ كَلَّا لَيَنْبِتَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ﴿[الهمزة: ٣-٤]﴾ لأن رجاءهم لعزهم غير مقيد بكونه في الدنيا، بل هم لا يؤمنون بالآخرة، فلا يصح أن نقول: أرادوا في الدنيا لا في الآخرة بل هو مطلق، وإما ﴿لَيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾ ليكونوا لهم شفعاء عند الله فيكون لهم بشفاعتهم عز.

﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ ﴿كَلَّا﴾ زجر وردع عن اتخاذهم آلهة وعن تمنيه أن يكونوا لهم عزاً ﴿سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾ يوم القيامة يتبرؤون منها ولا يشكرونها عليها، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقُلْ شُرَكَائُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِبَانًا تَعْبُدُونَ * فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾ [نونس: ٢٨-٢٩].

عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا ﴿٤٨﴾ يَوْمَ نَخْشِرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا ﴿٤٩﴾ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرِثًا ﴿٥٠﴾ لَا يَمْلِكُونَ الشَّفْعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ

وقوله تعالى: ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ إما خصماء لهم، وإما مضادين معارضين لهم مخالفين لهم، قال الراغب: «وقوله تعالى ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ أي منافين لهم» انتهى.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَوْزُهُمْ أَرْأَى﴾ ﴿أَرْسَلْنَا﴾ الإرسال ضد الإمساك، فالمعنى: خلينا الشياطين وهذا معنى تسليطهم عليهم؛ لأن الشياطين أعداء لهم، فتخليتهم لإضلالهم وإزعاجهم إرسال وتسليط، وقوله تعالى: ﴿تَوْزُهُمْ أَرْأَى﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): معناه: «ترزعجهم إزعاجاً» انتهى.

وفي (المصاييح): «عن الحسين بن القاسم عليه السلام: أي تحثهم وتعجلهم إعجالاً» انتهى المراد، وقال (صاحب الكشاف): «الأز، والهز، والإستفزاز أخوات، ومعناها: التهيج وشدة الإزعاج» انتهى، فظهر: أن معنى ﴿تَوْزُهُمْ﴾ تستفزهم وتحثهم على الشرك وغيره من الباطل والإعجال عليه.

﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا﴾ ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ﴾ أي على هلاكهم لتمردهم وطاعتهم للشياطين ومعارضتهم بالكفر والتكذيب والجدال بالباطل لإدحاض الحق ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا﴾ فأياهم محصورة تنتهي، قال الشرفي في (المصاييح): «قال محمد بن القاسم عليه السلام: المعنى: أن ليس بينك وبين هلاكهم إلا أياماً محصورة وأنفاساً معدودة تُعدُّ لقلتها» انتهى.

﴿يَوْمَ نَخْشِرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا * وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرِثًا﴾ اذكر يوم غميز بين المتقين والمجرمين.

عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿٤٧﴾ وَقَالُوا آتِخْذِ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴿٤٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا ﴿٤٩﴾ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا

ولعل هذا متصل بقوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ﴾ ﴿نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ﴾ هذا الحشر لعله عند صدور الناس عن موقف الحساب فيحشر منه المتقون إلى الجنة عند الرحمن ﴿وَفَدًّا﴾ يفدون إليه تعالى.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة عليه السلام: الوافد الضيف والزائر المكرم، وأصل الوفد والوفادة: الهدية لا فرق عندهم بين قولك: أوفدت إليه وقولك: أهديت إليه، فلما كان الضيف عند العرب يشرف نفوسهم ينزل منزلة الهدية في السرور به سَمُوهُ وافدًا معناه هدية أهديت إلينا» انتهى.

قلت: من سمى الهدية وفدًا لعله سماها وفدًا باعتبارها دفعاً لها إلى المهدى إليه.

وقوله تعالى: ﴿وَسُوقَ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرْدًا﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «يعني: عطاشى» انتهى.

فهو على التشبيه بالواردين لأن من شأنهم أن يكونوا عطشى، ولعل في العبارة تهكم بهم؛ لأن الوارد يرد إلى الماء ليروي به عطشه، وورود المجرمين إلى ضده، فهو كقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١].

﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفْعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾ إما راجع إلى كل المحشورين بمعنى لا يملكون ﴿الشَّفْعَةَ﴾ من المتقين أي لا يملكون أن يشفع أحد ﴿إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ والاستثناء منقطع لأن ملك الشفاعة لله وحده، قال تعالى: ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٤٤] وقال تعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْمُرَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ [النجم: ٢٦] فأمر الشفاعة إلى الله وحده.

﴿١﴾ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴿٢﴾ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٣﴾ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴿٤﴾ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ يحتمل: الفرض والتقدير، أي إن كان أحد اتخذ عند الرحمن عهداً بأن يشفع شفع، كقوله: ﴿قُلْ أَأَتَّخِذُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يَخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ﴾ [البقرة: ٨٠] وهذا على فرض أن اتخاذ العهد هو يكون في الدنيا فأما الشفاعة للأبرار بإذنه تعالى فلا إشكال فيها ولكن الإذن بالشفاعة لفلان إنما هو يوم القيامة ولو وقعت لما نفعت؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبا: ٢٣].

وإما الضمير في ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾ للمجرمين أي لا يملكون أن يأتوا بشفاعة شافع فيكون رداً على جعلهم أصناماً شفعاء واعتقادهم أن لهم أن يتخذوا آلهة غير الله فجعلوا لأنفسهم اختيار شفعاء لهم، وعلى هذا فالإستثناء كالأول، وفائدته بيان أن أمر الشفاعة إلى الرحمن، فأما التعليق على اسم الرحمن، فهو كقوله تعالى: ﴿اطَّلَعَ الْغَيْبِ أَمْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ وفائدة ذلك: بيان أن المانع من رحمته هو من ظلم العبد نفسه، لا لأن الرحمة ليست من شأن ربه سبحانه وتعالى.

﴿٨٨﴾ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴿٨٩﴾ أَضَافُوا بَاطِلًا إِلَى اتِّخَاذِهِمْ آلِهَةً مِنْ دُونِ اللَّهِ لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا، وَهُمْ يَعْنُونَ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ (عَلَيْهِمُ السَّلَامُ) وَلَدٌ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَمَعْنَى اتِّخَاذِ التَّبْنِيِّ وَقَدْ رَدَّ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ:

﴿٨٩﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٩٠﴾ جِئْتُمْ التَّفَافَ لِلتَّشْنِيعِ عَلَيْهِمْ وَالْإِهَانَةَ لَهُمْ بِخَطَابِهِمْ وَهُوَ زَجَرٌ مَعِ مَا يَأْتِي، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِدًّا﴾ أَي مَنكَرًا عَظِيمًا.

﴿٩٠﴾ تَكَاذُ السَّمَوَاتِ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩١﴾ خَلَقَتْ هَذِهِ الْأَجْرَامَ لِيُعْبَدَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَقَوْلُ الْمُشْرِكِينَ هَذَا وَعِبَادَتُهُمْ غَيْرَ اللَّهِ مَعَارِضَةٌ مِنْهُمْ لِلْمَقْصُودِ مِنْ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ وَأَهْلُهَا فَيَحِقُّ لَهُ أَنْ يَتَهْدَمَ الْعَالَمُ وَيَهْلِكَ مَنْ فِيهِ لَوْلَا حِكْمَةُ اللَّهِ فِي التَّاجِيلِ.

فقوله تعالى: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ﴾ إلى آخر الآية دليل على أنه يحق لشرك المشركين وما قالوا في الله من ذلك أن يقع الأمر العظيم غضباً من الله سبحانه وإنكاراً لتلك الجرائم التي يستحق أهلها تعجيل القيامة أو أن يقع ذلك الأمر العظيم ضعفاً من السموات والأرض والجبال عن تحمل ذلك القول والشرك، لكونها إنما خلقت لعبادة الله، فهو كقوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ﴾ الآية [الأحزاب: ٧٢] وهذا عندي أقرب.

﴿١١﴾ ﴿أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾ أي لأن دعوا للرحمن ولداً أي قالوا له ولد وسموا الملائكة ولداً، وهذا يدل على أن الضمير في منه راجع إلى قولهم: ﴿اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ وحده لا إليه وإلى اتخاذ المشركين آلهة، وفيه دلالة على قبح القول فيه سبحانه بما لا يليق به ولا ينبغي له لمنافاته الحكمة والغنى وكمال العزة ومثل هذا قول المجبرة إن الله تعالى يخلق المعاصي في العباد ويوجدوها فيهم دون أن يوجدوها ثم يعذبهم عليها في أنه منافٍ للحكمة وللغنى، فهو قريب من قول المشركين.

﴿١٢﴾ ﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ ﴿وَمَا يَنْبَغِي﴾ أي لا يتأتى له؛ لأنه كاره له لا يريده أبداً؛ لمنافاته الحكمة فهو كالمستحيل، فأما الولادة فمستحيلة، لكن السياق في الإتيان الذي هو التنبؤ.

﴿١٣﴾ ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ معنى ﴿إِنْ﴾ النفي أي ما ﴿كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي ما فرد منهم ﴿إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ مملوكاً لله يحكم فيه بما شاء، وهذا يبطل دعوى المشركين أنهم يشفعون لهم، ويبطل قولهم: إنهم ولد للرحمن، وكذلك دعوى النصاري في عيسى عليه السلام، ودعوى اليهود في عزيز.

وَعَدَّهْمَ عَذَابًا ﴿١١﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا ﴿١٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴿١٣﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ

﴿١١﴾ ﴿لَقَدْ أَحْصَيْنَاهُمْ وَعَدَّهْمَ عَذَابًا﴾ ﴿أَحْصَيْنَاهُمْ﴾ أحاط بهم علماً.

قال في (لسان العرب): «وأحصى الشيء: أحاط به» انتهى المراد.

فالإحصاء: حصر مجموعهم فلا يفوته منهم أحد ﴿وَعَدَّهْمَ﴾ عد كل فرد أي علم به ونسبته في العدد أي كونه واحداً من الجملة المعلومة ونسبته من كل بعض من أبعاد الجملة، وقوله تعالى: ﴿عَذَابًا﴾ تحقيق لعهده إياهم وتأكيد فكل فرد منهم معدود لله تعالى راجع إليه عبداً.

﴿١٢﴾ ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا﴾ ﴿ءَاتِيهِ﴾ يحضر في موقف السؤال والحساب ليسأله ربه ويحاسبه ﴿يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ يوم الهول العظيم وفي مواقف الهول يحتاج العبد إلى من يعينه أو ينصره أو يؤنسه، ولكن ذاك يوم تنقطع فيه العلاقات بين المخلوقين إلا روابط الإيمان والتقوى التي يأذن الله بها، وإنما تكون بعد الموقف بدليل هذه الآية.

﴿١٣﴾ ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ ﴿وُدًّا﴾ حباً، قال الراغب: «الود: محبة الشيء وتمني كونه ويستعمل في كل واحد من المعنيين» انتهى، ومثله أفاده (صاحب الصحاح) أي يحببهم ويجعل لهم حباً في قلوب بعض عباده، كما لأمر المؤمنين علي عليه السلام حب في قلوب المؤمنين.

وقد قيل: إن هذه الآية نزلت فيه عليه السلام، ولا يقصر العام على سببه. وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «محبة في قلوب المؤمنين».

لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا ﴿١٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنْ قَرْنٍ هَلْ نُحِصُّ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْرًا ﴿١٨﴾

﴿١٧﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا ﴿يَسَّرْنَاهُ﴾ الضمير للقرآن؛ لأن هذا الكلام منه، ولأن الله تعالى يقول: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ﴾ [الفر: ١٧] والتيسير التسهيل فهو سهل التلاوة سهل البيان يفهمه العربي بسهولة؛ لسلامته من التعقيد، وكمال فصاحته، وقوله: ﴿بِلِسَانِكَ﴾ أي بلغتك التي هي لغة العرب، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤].

﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ﴾ يا محمد ﴿الْمُتَّقِينَ﴾ بإعلامهم وعنده، وفي قوله تعالى ﴿بِهِ﴾ تنبيه على لزوم الحجة، من حيث أن التبشير بالقرآن الذي هو كلام الله تعالى، وكذا قوله تعالى: ﴿وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾ فهو إنذار قامت به الحجة عليهم لوضوح أن القرآن كلام الله أصدق القائلين قد تبين لهم أنه كلام الله بعجزهم عن الإتيان بمثله، وقوله: ﴿لُدًّا﴾ جمع اللد.

قال الراغب في (المفردات): «اللد: الخصيم الشديد التأبي، وجمعه: لد» انتهى، وفي (الصحاح): «ورجل اللد بين اللدد وهو الشديد الخصومة، وقوم لد» انتهى. فالإنذار دواء اللدد؛ لأن العاقل ينظر لنفسه فيترك اللدد.

﴿١٨﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنْ قَرْنٍ هَلْ نُحِصُّ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْرًا ﴿١٩﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ ﴿٢٠﴾ قبل القوم اللد المذكورين ﴿مِّنْ قَرْنٍ﴾ أي قروناً كثيراً.

قال الراغب: «والقرن: القوم المقترنون في زمن واحد، وجمعه: قرون» انتهى. فالقرن مثل عاد، ومثل ثمود، أهلكهم الله تعالى بذنوبهم، وهذا تخويف للقوم اللد.

وقوله تعالى: ﴿هَلْ نَحْسُ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْرًا﴾ بعد هلاكهم وقد صاروا جثثاً هامدة قد ضاعت في التراب ولم يبق إلا آثارها، فلا تحس أجسادها بشيء من الحواس الخمس؛ لأنها قد ضاعت، وقوله تعالى: ﴿أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْرًا﴾ أي صوتاً خفياً فضلاً عن الصوت الظاهر، فالصوت الظاهر يكون من الإنسان القوي وكلما ضعف خفي صوته بقدر ضعفه، أما الميت فلا يبقى له أي صوت.

قال الشرفي في (المصابيح): «المعنى: هل تبصر منهم أحداً، أو تسمع لهم صوتاً أو حساً - ثم قال - : والركز: الصوت الخفي» ومثله في (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام).

انتهى بحمد الله تفسير (سورة مريم)
وصلّى الله على محمد وآله وسلم



التَّيْسِيرُ فِي التَّفْسِيرِ



سُورَةُ طه



سُورَةُ طه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طه ﴿١﴾ مَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿٢﴾ إِلَّا تَذَكُّرَةً لِّمَن تَخْشَى ﴿٣﴾
تَنْزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى ﴿٤﴾ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ

ابتداء تفسير (سورة طه)

قال الشرفي في (المصاييح): «مكية» انتهى. قلت: هو الظاهر من مواضع السورة

﴿١﴾ ﴿٢﴾ ﴿٣﴾ ﴿٤﴾ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ طه * مَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿١﴾
﴿طه﴾ الظاهر: أن (الطا) و(الهاء) في هذا الموضع مثل الحروف في أوائل
السور التي بدئت بحروف مثلها.

وفي قول للإمام زيد بن علي عليه السلام: «أنه فاتحة للسورة، وعلامة لها»
انتهى، ومعناه: اسم للسورة.

ونقلت من (البرهان) في هامش مصحفي قبل سنين كثيرة نسيت عددها،
وذلك على (سورة يس) قال: وروينا عنه عليه السلام أنه قال: «إن الله سبحانه
سماني في القرآن بسبعة أسماء: محمد، وأحمد، وطه، ويس، والمزمل،
والمدرثر، وعبد الله» انتهى.

وعلى هذا: يكون المعنى: يا ﴿طه﴾ * مَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿١﴾
والشقاء ضد السعادة، وذلك لو كان تحميله مشقة الرسالة لا ثواب فيه ولا
مصلحة، ولكن الأمر الواقع أنه يسعد به ويتذكر ويذكر غيره لمصلحتهم.

﴿٢﴾ ﴿٣﴾ ﴿٤﴾ إِلَّا تَذَكُّرَةً لِّمَن تَخْشَى ﴿١﴾ تَذَكُّرَةً ﴿٢﴾ من الغفلة وإيقاظاً لأفكار
الذين يخشون صدق الإنذار، فينظرون فيؤمنون به، ذكر الله المصلحة وأحوال
معرفة الثواب على ذلك على غير هذا الموضع، وعلى العقل.

﴿تَنْزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى﴾ قال في (الكشاف): «في نصب ﴿تَنْزِيلًا﴾ وجوه: أن يكون بدلاً من ﴿تَذْكِرَةً﴾ إذا جعل حالاً لا إذا كان مفعولاً له، لأن الشيء لا يعمل بنفسه، وأن ينصب بنزل مضمراً...» الخ، وذكر من الوجوه نصب تنزيلاً على المدح والإختصاص، وأرى هذا الوجه أحسن الوجوه.

وقوله تعالى ﴿مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى﴾ فيه دلالة على قدرته تعالى التي لا تقاس بها قدرة، وعلمه المحيط بكل شيء، وفي ذلك إيظاظ وتنبيه للناس لثلا يعرضوا عن القرآن؛ لأنه كتاب الله - جلّ جلاله - القادر على كل شيء العالم بكل شيء.

وفيه براءة استهلال للسورة؛ لأنه تعالى يرد في هذه السورة على المشركين الذين اتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون، ويخوف بالحشر وموقف السؤال، وخشوع الأصوات للرحمن، واستسلام العباد، وهذا اليوم كانت الجاهلية أكثرهم لا يؤمنون به ويستبعدون ذلك اليوم، قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَاتَ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ [مريم: ٦٦] ففي ذكر خلق الله تعالى للسموات والأرض رد عليهم، قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧].

وفي قوله تعالى: ﴿الْعُلَى﴾ مزيد دلالة على القدرة التي لا تقاس بها قدرة لتباعد ما بين الأرض والسموات العلى سواء أريد بها السموات كلهن لارتفاعهن كلهن بالنسبة إلى الأرض في عرف البشر، أو أريد بقوله: ﴿الْعُلَى﴾ العلا من السموات السبع فضلاً عن السماء الدنيا.

﴿١﴾ أَسْتَوِي ﴿٢﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ﴿٣﴾ وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٤﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ

﴿٥﴾ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ أَسْتَوِي ﴿٦﴾ تعبير عن ملكوته، لا إخبار بقعود على سرير، فهو يتعالى عن مشابهة المخلوقين سبحانه، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «معناه: علا وقهر و﴿الْعَرْشِ﴾ العزة والسلطان» انتهى، وقد مر مزيد بيان في مثل هذه الآية.

﴿٧﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ﴿٨﴾ هذا كالاحتجاج على أن له ملكوت كل شيء؛ لأنه إذا كان هو المالك فأمر ممالكه إليه، فله الأمر والنهي والتصرف فيما هو مالكة وحده لا شريك له، فهي دليل على أنه تعالى ذو العرش أي: له المُلْك بضم الميم.

قال في (الصحيح): «الثرى: التراب الندي - ثم قال - : ويقال: إلتقى الثريان، وذلك أن يجيء المطر فيرسخ في الأرض حتى يلتقي هو وندى الأرض» انتهى؛ ولعل ذكر الثرى تنبيه على ملك الأرض بتخومها وبكل جرمها، لأنه لو قيل والأرض ما توجه الذهن إلا إلى ملك ظاهر الأرض، أوللتنبية على ما في باطن الأرض من الكنوز والبترول والماء وغيرها أنه المالك لذلك كله.

﴿٩﴾ وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴿١٠﴾ هذه متصلة بما قبلها تقرر أن الله لا إله إلا هو، فإن تجهر بالقول سواء في الدعاء أو في غيره فهو الله سميع الدعاء، والرقيب على كل قول وكل سر ﴿فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ﴾ من القول كما يعلم الجهر، ويعلم ما هو ﴿أَخْفَى﴾ من السر إما ما أضمر، وإما ما لم يخطر بالبال من أحوال الإنسان وأعماله وأقواله المستقبلية وغير ذلك، والآية تعمهما.

الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴿٨﴾ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴿٩﴾ إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدٍ عَلَى النَّارِ هُدًى فَلَمَّا أَتَتْهَا نُودِيَ يَمُوسَى ﴿١٠﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ

﴿٨﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴿٩﴾ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴿١٠﴾ لا معبود عداة حقاً إلا هو ﴿٨﴾ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى التي تدل على أنه الإله الذي لا ند له ولا ضد ولا شريك، والأسماء الحسنى: الله، الرحمن، الرحيم.. إلى آخرها، وهي في القرآن مفرقة وبعضها في آخر (سورة الحشر) و (سورة الإخلاص) وأول (سورة الحديد) و (آية الكرسي) ومنها: القدير على كل شيء، العليم بكل شيء، الغني، الحميد، السميع، البصير، العزيز، الحكيم، الحي، القيوم، وقد جُمِعَتْ في كتاب سبعة وسبعين اسماً وفسرتها، وينبغي معرفتها بمعانيها؛ لأن ذلك من تمام الإيمان بالله تعالى.

﴿٩﴾ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴿٩﴾ وهل أتاك حديث موسى كالعنوان لذكره، وفيه التوحيد والرسالة والقدوة في الصبر لنبتنا محمد ﷺ.

﴿٩﴾ إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدٍ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴿٩﴾ اذكر ﴿٩﴾ إِذْ رَأَى نَارًا ﴿٩﴾ في سفره راجعاً من مدين إلى بلده بتقدير من الله، فإن من العجيب أنه فرّ خوفاً من آل فرعون حين ائتمروا به ليقتلوه، ثم هو من بعد هذا يسافر راجعاً إليهم كأنه غلبه الشوق، وأمله أن سيخفى على فرعون وهو لا يدري ما قدر له، ففي الليل ﴿٩﴾ رَأَى نَارًا ﴿٩﴾ وكأنه قدر الله له أن يقف بأهله هنا حيث رأى النار، قد ضلت عليه الطريق واحتاج أهله إلى النار لبرد أصابهم ﴿٩﴾ فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا ﴿٩﴾ أي ابقوا هاهنا، وأذهب أنا إلى النار ﴿٩﴾ لَّعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا ﴿٩﴾ أي من النار ﴿٩﴾ بِقَبَسٍ ﴿٩﴾ بجمرة توقدون بها حطباً، والقبس بعض من النار يؤخذ لتحصل نارا ﴿٩﴾ أَوْ ﴿٩﴾ لعلني ﴿٩﴾ أَجْدٌ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴿٩﴾ إلى الطريق، بأن يدلني أهل النار أو أرى الطريق هناك في ضوء تلك النار.

﴿١٧﴾ أَلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٨﴾ وَأَنَا أَخَذْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى ﴿١٩﴾ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿٢٠﴾ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿٢١﴾ فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ

﴿٢٢﴾ ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَمُوسَىٰ﴾ ولعله خطر بباله حين أتى النار وسمع النداء ﴿يَمُوسَىٰ﴾ من هذا المنادي الذي قد عرف موسى؟

﴿٢٣﴾ ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ ﴿إِنِّي أَنَا﴾ المكلم لك، المنادي لك باسمك ﴿رَبُّكَ﴾ الله ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾ بناء على البقى لتبقي لتستمع لما يوحى ﴿إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ﴾ المطهر من العيوب المسمى ﴿طُوًى﴾ ولكونك فيه فلا تعجل إلى الرجوع منه، فاخلع نعليك.

﴿٢٤﴾ ﴿وَأَنَا أَخَذْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ﴾ ﴿وَأَنَا أَخَذْتُكَ﴾ لأمرٍ أوحى إليك بيانه ﴿فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ﴾ إليك.

﴿٢٥﴾ ﴿إِننِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ أعلمه أول الدين توحيده تعالى، وأمره بعبادته وحده أمراً مفرعاً على أنه لا إله إلا هو، فلا يستحق العبادة إلا هو، وهو المستحق لها ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ لتذكرني في الصلاة القيمة، وهي من العبادة خصها بالذكر لعظمها.

﴿٢٦﴾ ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ﴾ في المستقبل ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ فهي لا تأتي إلا بغتة، فهي آتية ﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ بما تعمل، وأصل السعي المشي السريع، فبين له من أصول الدين أن الساعة آتية، وأن الجزاء لكل نفس آت يوم القيامة، فدل على الثواب والعقاب.

بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرَدَّى ﴿١١﴾ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَمْوَسَىٰ ﴿١٢﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَمْوَسَىٰ ﴿١٤﴾ فَالْقَلْبُهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا

﴿١٦﴾ ﴿فَلَا يَصُدُّنَكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرَدَّى﴾ ﴿فَلَا يَصُدُّنَكَ﴾ لا يصرفنك ولا يحولنك ﴿عَنْهَا﴾ عن ذكرها والإشفاق منها والاستعداد لها ﴿فَتَرَدَّى﴾ لو صدك أي فتهلك أي تعذب.

وقوله تعالى: ﴿مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا﴾ يعم الكفار الجاحدين والفساق الذين ليس في قلوبهم من التصديق بها والإقرار بها ما يبعثهم على الاستعداد لها والحذر من النار، والعمل للجنة؛ لأنهم لو كانوا مؤمنين بها لبعثهم الإيمان على الاستعداد خوفاً من النار ورغبة في الجنة، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ [الشورى: ١٨].

﴿١٧﴾ ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَمْوَسَىٰ﴾ سؤال يلفت نظره إلى العصى ليقون حين تكون حية أنها هي عصاه تحولت حية - والله أعلم.

﴿١٨﴾ ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾ ذكر جواباً مفصلاً عن العصى، فقد تحققها، وقوله ﴿أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا﴾ أي اعتمد عليها مع المشي ﴿وَأَهشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي﴾ أضرب ورق الشجر لتسقط أوراقها لتأكلها غنمي ﴿وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ﴾ حاجات أبهمها تأديباً، ومنها: إذا عرضت له حية أن يقتلها أو كلب أو نحو ذلك دفعه بها.

﴿١٩﴾ ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَمْوَسَىٰ﴾ ﴿أَلْقِهَا﴾ اطرحها أي اطرح العصى من يدك.

تَخَفَ سُنْعِيذُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى ﴿١٦﴾ وَأَضْمَمَ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ءَايَةً أُخْرَى ﴿١٧﴾ لِنُرْيِكَ مِنْ ءَايَتِنَا الْكُبْرَى ﴿١٨﴾ أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿١٩﴾ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٠﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي

﴿١٦﴾ فَأَلْقَنَهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى ﴿١٧﴾ فإذا العصى حية تمشي بسرعة بقدرة الله تعالى، فكانت تلك معجزة يعلم بها أن الله تعالى هو الذي يكلمه، فقد فقد العصى التي كان يعدها لمثل هذه الحالة، وصارت هي المخوف.

﴿١٨﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سُنْعِيذُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى ﴿١٩﴾ ﴿خُذْهَا﴾ إيماناً بأنها لا تضررك، وأني أعيدها عصى، قال في (المصاييح): ﴿سِيرَتَهَا﴾ طريقتهَا، فهي تعود نافعة منافعها الأولى، أو صالحة لها كما كانت قبل أن يلقيها.

﴿٢٠﴾ وَأَضْمَمَ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ءَايَةً أُخْرَى ﴿٢١﴾ إِلَى جَنَاحِكَ ﴿٢٢﴾ إلى ضلوعك تشبيه لها بالجنح جناح الطائر، لكون الجنين في الإنسان مكان الجناحين من الطائر، وذلك أن يدخل يده في جيبه متجهة إلى جنبه.

وقوله تعالى: ﴿تَخْرُجُ﴾ أي من جيبك ﴿بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ من غير برص، بل بيضاء جميلة ﴿ءَايَةً أُخْرَى﴾ مع الآية الأولى التي هي جعل العصى حية حقيقية.

﴿٢٣﴾ لِنُرْيِكَ مِنْ ءَايَتِنَا الْكُبْرَى ﴿٢٤﴾ لتزداد إيماناً، وثق بقوة حجتك.

﴿٢٥﴾ أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿٢٦﴾ ﴿أَذْهَبَ﴾ رسولاً من ربك إلى فرعون، إن فرعون طغى، فكان من الحكمة إنذاره، فإما تاب وإما لم يكن له حجة يوم القيامة، وهذا تكليف شاق؛ لأنه أرسله إلى من قد فر منه أولاً، وهو طاغية لا يتحرج من القتل ظلماً، مع أن موسى قد قتل منهم نفساً، ولكنه عزم على طاعة ربه واستعانه.

﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي﴾ ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَأَجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ أَشَدُّ بِمَنَ أَزْرَى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ

﴿٢٧-٢٩﴾ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَبَيِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٣٠﴾ ﴿٣١﴾ أَشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٣٢﴾ اجعله واسعاً لأحتمل ما كلفت، ويكون شرحه عوناً لي على احتمال الرسالة وتكاليدها.

وقوله: ﴿وَبَيِّرْ لِي أَمْرِي﴾ أمره طاعته لربه، وصبره على الشدائد، وفي قوله: ﴿لِي﴾ تأدب يعبر فيه عن كمال الإمثال، وأن قيامه بالتبليغ وتكاليه الرسالة قد جعلها حاجة له، وهي حاجة له من حيث أنه عبد مطيع يريد تسهيل طاعته لربه.

﴿٢٧-٢٩﴾ ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي﴾ * يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾ ﴿عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي﴾ شَبَّ عَسِر النطق ببعض الحروف بالعقدة في اللسان، والمراد: سهل لي النطق بحيث يفهمون كلامي حين أبلغهم رسالة ربي.

﴿٢٩-٣١﴾ ﴿وَأَجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي﴾ * هَرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ﴿وَزِيرًا﴾ معيناً على تبليغ الرسالة، وتحمل مشاقها، قال في (الصحيح): «والوزير الموزر، كالأكيل المواكل؛ لأنه يحمل عنه وزره، أي ثقله» انتهى.

﴿٣١-٣٢﴾ ﴿أَشَدُّ بِمَنَ أَزْرَى﴾ * وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾ قال في (الصحيح) و(الكشاف): «الأزر: القوة» وفي (مفردات الراغب): «والأزر: القوة الشديدة» انتهى.

فالمعنى: أشدد به قوتي، ولعل المراد احفظ به قوتي وثبتها، أو قوّ به قوتي ليكون قوة إلى قوة ﴿وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي﴾ فيما كلفتني من التبليغ للرسالة وتوابعه ولوازمه.

نُسَبِّحُكَ كَثِيرًا ﴿٦٤﴾ وَنَذْكُرُكَ كَثِيرًا ﴿٦٥﴾ إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٦٦﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمُوسَى ﴿٦٧﴾ وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى ﴿٦٨﴾ إِذْ أَوْحَيْنَا

وقد احتج بهذه الآية الإمام الهادي إلى الحق عليه السلام، على ثبوت ولاية أمير المؤمنين علي عليه السلام؛ لأن من توابع الرسالة ولوازمها وجوب طاعة موسى على من أرسل إليهم، بدليل قول الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٦٤] ومن وجبت طاعته على العموم فهو إمام لهم، فكل رسول إمام، فالإمامة من أمر موسى الذي سأل ربه أن يشرك هارون فيه، وقد قال رسول الله ﷺ لعلي عليه السلام: «أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي» انظر أول كتاب (الأحكام) للإمام الهادي عليه السلام.

﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا * وَنَذْكُرُكَ كَثِيرًا﴾ لعله طلب ذلك لعلمه عليه السلام أن تكليف الرسالة يشغل القلب لما يلاقي الرسول من التكذيب والتخويف والأذى، فإذا شرح الله صدره ويسر أمره وأعانه بأخيه سهلت عليه التكاليف وتفرغ قلبه ولسانه للتسبيح والذكر لله، فطلب عليه السلام ذلك الشرح لصدره وما ذكر معه ليذكر الله كثيراً.

وخص التسبيح لله بكونه غرضاً مستقلاً وصدوره في التعليل، فقال: ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا﴾ مع أن التسبيح قد دخل في الذكر في قوله: ﴿وَنَذْكُرُكَ كَثِيرًا﴾ والتسبيح لله نطق معناه: التنزيه من كل ضعف ومن كل نقص ومن كل عيب، والتباعد من ذلك لله العزيز الحميد، ولعله اهتم للتسبيح، لما سوف يلاقي من المشركين من العناد والجهل بالله والشرك به والله أعلم؛ ولأنه ينبغي للمؤمن ذلك في كل حال، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤١-٤٢] لأنه من العبادة ومن شكر النعمة، ومن الباقيات الصالحات.

إِلَى أَمِكَ مَا يُوحَى ﴿٣٨﴾ أَنْ أَقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَآقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ
بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ ۚ وَالْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةٌ مِنِّي وَلِتُصْنَعَ
عَلَى عَيْنِي ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ ۚ

﴿٣٨﴾ إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٩﴾ فلا تعي بإجابة دعائي وحسن التدبير
لأمري وأمر أخي.

﴿٣٨﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمُوسَى ﴿٣٩﴾ سؤلك ما سألت في هذه الآيات
أي أجيب دعاؤك وأعطيت مطلوبك.

﴿٣٨﴾ وَلَقَدْ مَنَّا عَلَىٰكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ ﴿٣٩﴾ ولقد أنعمنا عليك مرة أخرى قبل
هذه المرة فتدبرها لتعلم أنك في رعاية الله تعالى منذ صغرك، وأنك أعددت
لهذا التكليف بالرسالة منذ صغرك.

﴿٣٨﴾ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أَمِكَ مَا يُوحَى ﴿٣٩﴾ هذا أول تفسير المنة المذكورة، ولا
مانع من الوحي إليها بما أوحى إليها لأنه ليس شريعة تعم العبادات
والمعاملات أو تبلغها قومها، إنما هي كلمات قليلة، كما كلمت مريم عليها
السلام أمر وخبر ووعد تعرف به سبيلاً لنجاة مولودها من الطاغية الجبار
العنيد الذي يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم، فأوحى إليها ما يوحى؛ لأنه
أمر عظيم إعداد لرسول إلى فرعون وملائته، وإعداد لإنقاذ بني إسرائيل من
ظلم ذلك الجبار العنيد، وإعداد لإزهاق الباطل ونصر الحق.

﴿٣٨﴾ أَنْ أَقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَآقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ
عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ ۚ وَالْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةٌ مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴿٣٩﴾ ﴿٣٨﴾ أَنْ أَقْذِفِيهِ فِي
التَّابُوتِ ﴿٣٩﴾ المصنوع من الخشب إعداداً لإلقائه في البحر ونجاته من الغرق.

فَرَجَعْنَكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَكَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَمْؤُوسٍ ﴿١٤﴾ وَأَصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴿١٥﴾ أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا

﴿فَاقْذِفِيهِ﴾ فاطرحيه ﴿فِي الْيَمِّ﴾ البحر العظيم، ﴿فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ﴾ فهو مأمور بذلك أمراً تكوينياً: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠] فالأمر للبحر خبر عن امتثاله، وإلقائه موسى بالساحل أي في طرف البر الذي يلي البحر المجاور له.

﴿يَأْخُذْهُ﴾ جواب الأوامر كلها، أو جواب الأمر الآخر؛ لأنه نزل منزلة الأمر القولي، فأعطي حكمه ﴿عَدُوِّي وَعَدُوُّ لَهٗ﴾ صفتان لموصوف واحد هو عدو الله فرعون الذي هو عدو لصبيان بني إسرائيل، إلا أنه يأخذه وهو لا يعلم من أين أتى ولا ممن هو ﴿وَالْقَيْتُ عَلَيْكَ﴾ يا موسى ﴿مَحَبَّةً مِنِّي﴾ كانت سبباً لنجاتك ولعودتك إلى أمك بإذن الله تعالى، فهذه المنة الأخرى منّا عليك بها.

﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ كأنه قيل: لننقذك من ذبح فرعون، ونردك إلى أمك ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ ولتغذى وتربى تربية كاملة صالحة، تكون إعداداً لطهارة منشئك وطيب سلوكك، وصلاح ضميرك، وقوة بدنك وغرائذك، ورباطة جأشك ﴿عَلَى عَيْنِي﴾ على حسن رعايتي، مطابقاً لمراقبتي لأحوالك وتدبيري لأمرك.

﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ ۖ فَرَجَعْنَكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَكَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَمْؤُوسٍ﴾ ﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ﴾ لتبحث عنك فوجدتك في حضانة امرأة فرعون، لا تقبل ثدياً ترضع منه،

وقد أعيأها وأعيا فرعون أمرك؛ لأنه مع حبهم لك ورغبتهم أن تنفعهم أو يتخذوك ولدأ قد خافوا عليك الموت من الجوع والعطش، وشق عليهم صياحك الذي لا يسكته عرض الرضاع له؛ لأنه لا يقبل رضاعاً، ففي حال رغبتهم في التخلص من هذه المشكلة جاءت أختك فقالت: ﴿هَلْ أَذْلَكُمُ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ﴾ فيكفيكم مؤنته، فوافقوا على ذلك، وكان ذلك سبباً رددناك به إلى أمك وهم لا يشعرون أنها أمك.

﴿فَرَجَعْتَنكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ بعودتك إليها في سلامة وأمن عليك أي كي تسر بذلك، فكانت هذه نعمة على أمك وعلبك؛ لأن النعمة عليها نعمة عليك؛ ولأن تربيتك عند المرأة المؤمنة التي تربيك على الطهارة والصلاح نعمة عليك من ربك ﴿وَلَا تَحْزَنْ﴾ أي ولكي لا تحزن أمك لو هلكت أو لو لم ترجع إليها.

﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا﴾ كما هو مذكور في (سورة القصص) ﴿فَتَجْنَبْكَ مِّنَ الْغَمِّ﴾ إذ نجيناك من آل فرعون بالخروج من المدينة إلى مدين ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾ ابتليناك ابتلاءً شديداً محصك وزادك استعداداً لتحمل الشدائد عند تحمل أعباء الرسالة وقيامك بما كلفت فيها، فخوف بعد قتل القتل، ثم سفر بلا مركوب ولا معرفة بالسبيل حيث صرت مفرداً عن أهل وعن مسكن وعن طعام وعن فراش، فقلت: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤] فلبثت سنين ثمانياً أو عشرأ في أهل مدين، قال الشرفي في (المصابيح): «و﴿مَدِينٌ﴾ قرية شعيب عليه السلام على عشر مراحل من مصر» انتهى.

وقوله تعالى ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ﴾ على تهيئة وإعداد لك للرسالة، وتهيئة وإعداد للمجيء من مدين إلى هنا ليس مجرد صدفة، بل على ما

فِي ذِكْرِي ﴿٢٢﴾ أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لِّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَىٰ ﴿٢٥﴾

اقتضته الحكمة وتقدير العزيز العليم ﴿يَمُوسَىٰ﴾ تكريم لموسى وتقوية لإيمانه بالوحي من الله علام الغيوب، فقد ناداه باسمه وذكر له جملة من تاريخه وإنعام الله عليه وإعداده للرسالة، وكل ذلك مع المعجزة انقلاب العصى حية والأخرى بياض يده، فكل ذلك سبب لإيمان قوي لا ترعزعه الشدائد، ولا توهنه المخاوف التي يستقبلها في رسالته.

﴿وَأَصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ صنعتك صنعة خاصة إعداداً لنفسي أي لي، وذلك بإكماله له وجعله صالحاً للرسالة قوياً على مقاومة الشدائد، شجاعاً حريصاً على هداية عباد الله، صبوراً واسع الصدر، رحيماً بالمؤمنين، شكوراً زاهداً في الدنيا أميناً على تبليغ الرسالة، كريماً كما وصفه الله تعالى في (سورة الدخان).

﴿أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي﴾ آياتي دلائلي التي تدل على أنني أرسلتكما إلى فرعون وملائه، وهي التسع الآيات، أي مصحوباً بآياتي أنت وأخوك ﴿وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾ الوني: الضعف.

قال في (الصحيح): «الوني: الضعف والفتور والكلال والإعياء» انتهى والمعاني متقاربة إلا أن من الضعف ما يزول بتذكر المرغب للمؤمن في العمل، فهذا الضعف يسمى فتوراً أو كلالاً، وما يستطيع أن يتخلص منه هو المنهي عنه، ولاختلاف الضعف في هذا قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾ [المارج: ١٩-٢٢] فكان الهلع مذموماً؛ لأن المؤمن يتخلص منه بإيمانه وبواعث العمل.

قَالَ لَا تَخَافُ إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى ﴿١٦﴾ فَأَتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ

﴿١٦﴾ ﴿أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ * فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ لِيَتْرَكَ الطَّغْيَانَ، ويرسل معكما بني إسرائيل فيتخلصوا من طغيانه ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ القول اللين يعين الخصم على قبول الحجة، ويقربه إلى الإنصاف في كثير من الحالات، بخلاف القول القاسي والخطاب الغليظ الجافي، فإنه يبعث على إصرار الخصم ﴿لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ﴾ أي قولاً له قولاً ليناً رجاء أن يذكر ﴿أَوْ يَخْشَىٰ﴾ أي راجين بالرفق واللين أن يتذكر أن له خالقاً هو ربه، أو يخشى عذاب الله عند سماعه للإنذار فيحمله ذلك على النظر والإنصاف.

﴿قَالَ رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَىٰ﴾ هذه شكوى مشكلة يريدان حلها ﴿إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا﴾ يسبق تبليغ الرسالة علينا بقتلنا أو نحو القتل مما يحول بيننا وبين تبليغ الرسالة، أو أن يطغى بعد إبلاغ الرسالة بأن يغضب منها فيطغى علينا بالقتل أو التعذيب.

﴿قَالَ لَا تَخَافُ إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ ﴿قَالَ﴾ الله لموسى وهارون ﴿لَا تَخَافَا﴾ أي لا بأس عليكم من فرعون ﴿إِنِّي مَعَكُمْ﴾ أحفظكما وأراقب ما يكون منكما ومنه، من كلام وغيره ﴿أَسْمَعُ﴾ ما يقول ﴿وَأَرَىٰ﴾ ما يصنع، وما تقولان وما تصنعان، وليست معية مقارنة؛ لأن معية المقارنة تكون بين الأجسام أو الأعراض وفي كلام أمير المؤمنين عليه السلام: «ومع كل شيء لا بمقارنة».

وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عَلِمَهَا

﴿٤٧﴾ ﴿فَاتَّبَعَهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَا تَعْذِيبِهِمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ﴾ ﴿رَسُولَا رَبِّكَ﴾ تذكير له بأنه عبد مملوك أرسلهما إليه مالكة الذي له أمره ونهيهِ وتعبده ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا﴾ دعهم يذهبون معنا لنحررهم من عذابك ﴿وَلَا تَعْذِيبِهِمْ﴾ فإن ذلك منك ظلم لعباد ربك ﴿قَدْ جِئْنَاكَ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾ المالك لك الذي أنت عبد من عباده، والآية تبين لك صدقنا أنا رسوله ﴿وَالسَّلَامُ﴾ أي الأمان والسلامة ﴿عَلَىٰ مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ﴾ فاتبع الهدى تسلم.

﴿٤٨﴾ ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ فكما أن ﴿السَّلَامُ عَلَىٰ مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ﴾ فالعذاب ﴿عَلَىٰ مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ وقولهما: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا﴾ تحقيق لصدق هذا الوعيد ببيان أنه من عند الله لم يقوله من أنفسهما، فالمعجزة المصدقة لهما فيما بلغاه من كلام المرسل لهما، ومعنى ﴿مَنْ كَذَّبَ﴾ من كذب بالصدق إذ جاءه، وكذب بآيات الله، ومعنى ﴿وَتَوَلَّى﴾ تولى عن طاعة ربه وأدبر عنها، كناية عن ترك الطاعة. ﴿٤٩﴾ ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمُوسَى﴾ كان عدو الله مُعَبِّدًا لِبَنِي إِسْرَءِيلَ فلعله حين قال: ﴿رَسُولَا رَبِّكَ﴾ ولم يقولوا: ربنا طمع في أن يقولوا: أنت ربنا أي مالكننا، ليقول لهما: فاتركا ما تدعوان إليه، ولكنه خاب أمله.

﴿٥٠﴾ ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ ﴿رَبُّنَا﴾ الله الذي صور كل شيء فأعطاه صورته الخاصة به المميزة له عن غيره على اختلاف الأشياء وكثرتها.

عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى ﴿٥٢﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا

﴿ثُمَّ هَدَى﴾ عباده أنواع الهدى، هداهم إلى معرفة أنه ربهم الذي خلقهم، وهداهم بإرسال الرسل إلى ما جاءت به الرسل، وهدى الحيوانات إلى أسباب معيشتها، وبهذا البيان عرف أنه يريد أن ربهما وربّه هو الله.

وقال الشرفي في (المصاييح): «فقال محمد بن القاسم عليه السلام: يعني بكل شيء: جميع ما أنعم الله به عليهم وأعطاهم من عطايا النعم... الخ، يعني: ربنا الذي أعطى خلقه كل شيء، وخص موسى بالخطاب إما لعلمه أن في لسانه ثقله فأراد أن تظهر للسامعين ليحتج بها بقوله: ﴿وَلَا يَكْذُوبِينَ﴾ [الزخرف: ٥٢] وإما ليسهل عليه الجدل لكونه مع واحد فقط، والأول أظهر.

﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى﴾ قد فهم من قولهما: ﴿أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ أو منه ومن زيادة طويت على عادة القرآن في الاختصار، فهم أنهما ينذرانه عذاب الآخرة ﴿فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى﴾ ما زالت في بطن الأرض لم يحياها، وقد مرت عليها مئات السنين فلم تبعث، فكيف تدعيان أنا سنبعث بعد الموت.

﴿قَالَ عَلِمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾ ﴿عَلِمُهَا﴾ أي علم القرون الأولى ﴿عِنْدَ رَبِّي﴾ أي هو عالم بها لا تخفى عليه، وعلمه بها باق كما لو كانت ﴿فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي﴾ لا يغلط ربي في بعث أمة يبعث غيرها ﴿وَلَا يَنْسَى﴾ أمة من الأمم، ولا فرداً من أمة، فلم يترك بعثها نسياناً لها، وإنما أخرها لأجلها، أو علمها عند ربي جعل علمها في كتاب؛ لأن أعمالها مكتوبة فضلاً عن كتابتها هي.

مِّنْ نَّبَاتٍ شَتَّى ﴿٥٠٧﴾ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَمَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٥٠٨﴾ وَمِنهَا خَلَقْنَكُمْ فِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴿٥٠٩﴾ وَلَقَدْ

﴿٥٠٧﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْ نَّبَاتٍ شَتَّى ﴿٥٠٨﴾ لما أُنْذِرُهُ عَذَابَ الْآخِرَةِ بَيْنَ لَهُ دَلِيلًا مِنْ دَلَائِلِ قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَعِلْمِهِ بِكُلِّ شَيْءٍ؛ لثَلَا يَظُنُّ أَنَّ الْحَيَاةَ الْآخِرَةَ بَعْدَ الْمَوْتِ مُتَعَذِّرَةٌ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى، فَقَالَ: الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ نِعْمَةً مِنْهُ عَلَيْكُمْ، الْأَرْضَ مَمْهَدَةً مَعْدَةً لِعَيْشَتِكُمْ فِيهَا، فَجَعَلَ تَرْبَتَهَا مُنَاسِبَةً لَكُمْ، مِنْ حَيْثُ صَلَاحُهَا لِلْبَذْرِ فِيهَا وَالْإِنْبَاتِ لَطْعَامِكُمْ وَطَعَامِ أَنْعَامِكُمْ، وَمِنْ حَيْثُ جَعَلَهَا بِالنِّسْبَةِ لَكُمْ مُسَطَّحَةً يُمْكِنُكُمْ الْمَشْيَ عَلَيْهَا، وَالْحَرْثَ وَالْبِنَاءَ، وَمِنْ حَيْثُ جَعَلَهَا لَا تَوَلَّمُ الْإِنْسَانُ مُبَاشَرَتَهَا لِقُدْمِيهِ إِذَا مَشَى عَلَيْهَا وَنَحْوَ ذَلِكَ فَهِيَ مَهَادٌ لِلْإِنْسَانِ.

وقوله تعالى: ﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ يجعلها صالحة للسفر فيها من أرض إلى أرض، سليمة من الحواجز الجبلية أو الخنادق أو غيرها، فأمكنك التجارة بنقل البضائع في البر والبحر، فالحبوب والكسوة وغيرها من حاجات الإنسان تنقل من أرض إلى أرض، وذلك دليل على أن الله تعالى قادر عالم؛ لأنه لو لم يكن قادراً ما مهد الأرض وسلك فيها سبلاً، ولو لم يكن عالماً لما علم كيف يجعلها مهاداً، وكيف يجعلها سليمة من الحواجز.

وقوله: ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْ نَّبَاتٍ شَتَّى﴾ فيه ذكر آية عظيمة؛ لأن الماء يكون في السحاب بأي طريقة يجتمع، ثم ينزل بقدر ماء عذباً صالحاً للحيوان والنبات، فهذا لا يكون إلا من قدير عليم مدبر لحاجات عباده.

وقوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِمِزَاجٍ مِّنْ نَّبَاتٍ شَتَّى﴾ بيان لأدلة قدرته وعلمه وإنعامه، فلو لم يكن قادراً لما خلق النبات، ولو لم يكن فاعلاً مختاراً ما نوع النبات وجعله ﴿أَزْوَاجًا﴾ أي أصنافاً من النبات ﴿شَتَّى﴾ مختلفة؛ لأن الطبيعة الواحدة أو أي شيء من أسباب الوجود المفروضة فرضاً لو كان لما كان أثره إلا واحداً ما لم يصرفه فاعل مختار يخالف بين الأنواع، فأمّا الطبائع المتعددة التي تختلف منتجاتها باختلافها فهي دليل على خالق قادر عالم، أعني الطبائع دليل على فاعل مختار أوجدها ونوعها ليتنوع ما تنتجه.

وفي تحويل الضمير من السياق الذي يسمى التفتاتاً في قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾ فائدة جلية؛ لأنه لو قال: فأنبت لاحتل عود الضمير إلى الماء، فلما قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾ كان أوضح فيما سيق له الكلام من الدلالة على قدرته تعالى وعلمه، ليعلم بذلك قدرته على البعث بعد الموت، وأنه لا يضل ولا ينسى.

﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى﴾ تمام الدليل فأنزل الماء، وأنبت بالماء أزواجاً من نبات لفائدة معروفة، هي تحصيل طعام الإنسان والأنعام، فالتفكير في هذا يؤدي إلى معرفة خالق قادر عالم منعم على عباده مدبر لمعيشتهم في هذه الحياة.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ﴾ تنبيه على تعدد الأدلة فيما ذكره سبحانه، ومن أوضحها أن صنعة النوع الواحد من النبات دليل على الخالق القادر العالم، انظر صنعة الورقة الواحدة ومجاري الماء فيها ثم انظر كيف يحصل ثمرها بعد أن كانت لا تنمو إلا أغصاناً وأوراقاً ثم في النهاية تبدو ثمرتها، وكيف تغذى ثمرها حتى كمل وأبنع.

وهذا مثل واحد لتعدد الآيات ﴿لَأُولَىٰ النُّهَىٰ﴾ أي لأهل العقول الذين يستعملون عقولهم، فينظرون في آيات الله، وتحصل لهم العلوم بواسطة التفكير في آيات الله.

قال في (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «﴿لَأُولَىٰ النُّهَىٰ﴾ يعني لأولي العقول واحدها نُهْيَةٌ» انتهى.

﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ ﴿مِنْهَا﴾ أي من الأرض ﴿خَلَقْنَاكُمْ﴾ إما بخلق أصل الناس الذي هو آدم المخلوق من الطين، وإما كل واحد خلقه الله من الطين، لأن أصله المني، وأصل المني الغذاء، وأصل الغذاء النبات، وأصل النبات من الماء وما يمازجه من الأرض والله أعلم.

﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ عند الموت، وهي نعمة على الإنسان ستره في بطن الأرض، والمراد أن هذه عادة للجنس البشري، ولا ينافيه أن بعض الأفراد لا يدفن في الأرض؛ لأن ذلك معلوم للسامع فهو خارج من العموم بعلم السامع، وكذلك لو هلك إنسان في الفضاء فهل يكون خارجاً من العموم على فرض العموم، أم لا بد أن يعيده الله إلى الأرض؟ لا بد من أحد الأمرين، أو أنه لا عموم؛ لأن الضمير في ﴿نُعِيدُكُمْ﴾ للمخاطبين ويمكن تخلف العادة في المستقبل بعد هذا الخطاب.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ﴾ دليل على إعادة الإنسان بتجديد جسمه الذي كان في قبره، ويؤكد هذا قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾ [الإنشطار: ٤] وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٨٤] وقوله تعالى: ﴿تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ يقوي أن كل فرد أخرجه الله منها في النشأة الأولى.

أَرَيْنَهُ ءَايَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَمُوسَى ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلَفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ

﴿٥٦﴾ وَلَقَدْ أَرَيْنَهُ ءَايَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى ﴿٥٧﴾ ءَايَاتِنَا كُلَّهَا ﴿٥٨﴾ بعموم كل الآيات وليس المراد خصوص كل آية إلا في جملة العموم، مثلاً خلق الأرض آية، إنزال المطر آية، إنبات النبات آية، حتى عم المخلوقات، أراه الله أي أرى فرعون، ويحتمل: ﴿ءَايَاتِنَا﴾ التي أرسلنا بها موسى أي العصى، وضم يده إلى جناحه من الرهب، وخروج يده من جيبه بيضاء من غير سوء.. الخ ﴿فَكَذَّبَ﴾ بكونها آيات وكذب موسى وهارون ﴿وَأَبَى﴾ أن يؤمن امتنع.

وقوله تعالى: ﴿أَرَيْنَهُ﴾ يحتمل أظهرناها له فرآها بعينه، كما في قوله تعالى: ﴿فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى﴾ [النازعات: ٢٠] ويحتمل: أريناه عرفناه حتى عرف أنها آيات ﴿قُلْ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرٍ﴾ [الإسراء: ١٠٢] ﴿فَكَذَّبَ﴾ الرسول، وكذب بالآيات ﴿وَأَبَى﴾ أن يطيع الله ورسوله.

﴿٥٧﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَمُوسَى ﴿٥٨﴾ قَالَ فرعون تكذيباً لموسى: ﴿أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا﴾ وفي هذا تحريك لتعصب أصحابه للوطن، وقوله: ﴿بِسِحْرِكَ﴾ يعنى الآيات التي أراه، وقد علم أنها آيات صحيحة سماها سحراً تمهيداً لمعارضته لها بالسحر الحقيقي توصلاً إلى تضليل قومه وتطويل النزاع.

﴿٥٨﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلَفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٩﴾ لنحضر السحر وتحضر الآيات ليُعلم أنها سحر بزعمه مثل الذي نأتي به.

تُحْشَرُ النَّاسُ ضُحًى ﴿٥١﴾ فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى ﴿٥٢﴾ قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى ﴿٥٣﴾ فَتَنَزَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى ﴿٥٤﴾ قَالُوا إِنَّ

وقوله: ﴿مَوْعِدًا﴾ يصلح مصدراً واسم زمان واسم مكان، وقوله: ﴿لَا تُخْلَفُهُ﴾ ينظر إلى أنه مصدر، وقوله: ﴿مَكَانًا﴾ ينظر إلى أنه اسم مكان، والمراد تعيين المحل للموعد، وفي هذا دليل على استعمال المشترك في معنييه ﴿سِوَى﴾ مكاناً معتاداً يستوي الناس في استحقاقه.

﴿٥١﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَن تُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴿٥٢﴾ ﴿يَوْمَ الزَّيْنَةِ﴾ يوم عيد لهم فقد وافق على الموعد، وزاد تعيين الزمان باليوم والساعة، ولعلمهم كانوا في عيدهم يجتمعون في مكان معين؛ فلذلك استغنى بذكر يوم الزينة، والضحى من بعد شروق الشمس وانبساط شعاعها، وجعل في الموعد أن يحشر الناس ليروا الحقيقة، ويتعسر أو يتعذر على فرعون التغيرير عليهم.

﴿٥٢﴾ فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى ﴿٥٣﴾ تولى: انصرف من عند موسى ﴿فَجَمَعَ كَيْدَهُ﴾ بجمعه للسحرة من المدائن ﴿ثُمَّ أَتَى﴾ فرعون بما قد جمع من كيده، أي بالسحرة فأحضرهم في الموعد يوم الزينة، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتَى﴾ يشعر بأن موسى سبقه إلى المكان، فجاء فرعون فكان مجيئه لمكان الموعد إتياناً لموسى وهارون، ويحتمل ثم أتى الموعد.

﴿٥٣﴾ قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى ﴿٥٤﴾ أنذرهم بقوله: ﴿وَيْلَكُمْ﴾ وفسره بقوله: ﴿لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ﴾ كأنه توقع من السحرة أنهم يتبعون سحرهم: دعوى أن الله أرسلهم ليضللوا على الناس بأمر فرعون، فحذرهم أنهم إن افتروا على الله كذباً أهلكهم الله.

هَذَانِ لَسَجِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ تُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى ﴿١٢﴾ فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ آتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى ﴿١٣﴾ قَالُوا يَمُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى

قال الشرفي في (المصابيح): «قال في (البرهان): يعني لا تكذبوا عليه ﴿فَيْسُحِّتْكُمْ بِعَذَابٍ﴾ أي يستأصلكم ويهلككم» انتهى المراد.
وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «معناه: يستأصلكم» انتهى، واستأصلهم إهلاكهم كلهم.

وقوله تعالى: ﴿بِعَذَابٍ﴾ أي يهلككم بعذاب، فأنذرهم مجموع الأمرين هلاكاً وعذاباً، وقوله: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى﴾ قال الراغب: «الخبية: فوت الطلب» انتهى، يعني: فوت المطلوب، ولعله يعني أن ذلك الموقف يفوت فيه مطلوب المفترى؛ لأنه موقف تنكشف فيه الحقيقة.

﴿فَتَنَزَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى﴾ كأنهم كانوا مصممين على دعوى الرسالة لهم ليعارضوا بذلك دعوى موسى، وقد علم فرعون ومن شاهد آيات موسى أنه رسول من الله؛ فلذلك اضطربوا لما أنذرهم وتنازعوا بينهم، وقوله تعالى: ﴿وَأَسْرُوا النَّجْوَى﴾ أخفوها من موسى ومن معه، لعلهم أخفوها لئلا يعرف أن السحرة قد خافوا، واحتاجوا إلى تقوية عزمهم على الإتيان بسحرمهم.

﴿قَالُوا إِنَّ هَذَانِ لَسَجِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ تُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى * فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ آتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى﴾ ﴿قَالُوا﴾ في نجواهم ﴿إِنَّ هَذَانِ لَسَجِرَانِ﴾ وهذا من تشجيع السحرة، أي ليسا رسولين من الله.

﴿١٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا^ط فَإِذَا حِبَاهُمْ وَعَصِيَّهُمْ تُخِيلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى ﴿١٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى ﴿١٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى

وقولهم: ﴿يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكَ مِنْ أَرْضِكُمْ﴾ تخميس لهم وتحريك لحميتهم، وكانهم قد كرهوا الإتيان بالسحر لولا أن فرعون أكرههم وشجعهم وحسبهم.

وقولهم: ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى﴾ أي يبدلا دينكم، ووصفوا دينهم بأنه أمثل أي حق وصواب، وقولهم: ﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ﴾ أي اجمعوا سحركم ليقوي بعضه بعضاً، ويكون باجتماعه سحراً عظيماً.

قال الراغب: «وأجمعت كذا أكثر ما يقال فيما يكون جمعاً يتوصل إليه بالفكرة» انتهى، وقولهم: ﴿ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا﴾ لعله لإظهار كثرتهم وليلقوا سحرهم في دفعة واحدة ولا يتخلف أحد، وقولهم: ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ اسْتَعْلَى﴾ إطماع للسحرة في أن يفلحوا ويصيروا من المقربين عند فرعون.

﴿١٥﴾ ﴿قَالُوا يَمُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى﴾ ﴿١٦﴾ ﴿قَالُوا يَمُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَى﴾ سحرك بزعمهم أي تطرحه أمام الناس ليشاهدوه، وإما أن نلقي سحرنا أولاً قبلك، وفي هذا التخيير احتيال ليبدأ هو ليكون أول من ألقى، ولذلك قدموه فقالوا: ﴿إِمَّا أَنْ تُلْقَى﴾ لأنهم يظنون أنه يلقي شيئاً خفيفاً لعدم علمه بعظم سحرهم، ليغلبوه إذا ألقوا ما لم يكن في احتسابه.

﴿١٦﴾ ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا^ط فَإِذَا حِبَاهُمْ وَعَصِيَّهُمْ تُخِيلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾ ﴿١٧﴾ ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا﴾ ثقة بالله وبمجته الصادقة، واستعمل طريق التكرم؛ لأنه قابل تخييرهم له باختيار أن يبدؤوا.

﴿وَأَلْقَ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا﴾ إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سِحْرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ﴿١٦﴾ فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ

ولا يشكل أنه أي السحر منكر؛ لأن من الجائز في تلك الحال أن الله تعالى أذن به ليبطل كيدهم بإبطال سحرهم، وقوله تعالى: ﴿تُحِيلُ إِلَيْهِ﴾ أي إلى موسى أنها أي الحبال والعصى تسعى تسير بسرعة، وذلك خيال لا حقيقة.

﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى﴾ * قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى ﴿١٧﴾ أوجس في نفسه: أضمر في نفسه خوفاً من أن تقوى شبهتهم ويخفى الحق على بعض الناس بتضليل فرعون ومن معه، وفي (مصابيح الشرفي): «عن الحسين بن القاسم عليه السلام: ومعنى أوجس وجد وأدرك في نفسه خوفاً» انتهى المراد ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ﴾ ذلك ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى﴾ الغالب.

﴿وَأَلْقَ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا﴾ إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سِحْرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ﴿١٨﴾ ﴿وَأَلْقَ مَا فِي يَمِينِكَ﴾ أي واطرح ما في يمينك أي العصي ﴿تَلْقَفْ﴾ تأخذ ﴿مَا صَنَعُوا﴾ فيبطل وهو السحر.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا﴾ كتب في المصحف ﴿إِنَّمَا﴾ مغلوطة (إن) و(ما) والقياس فصل (ما)؛ لأنها الموصولة أي إن الذي صنعوه ﴿كَيْدٌ سِحْرٍ﴾ والدليل على ذلك رفع كيد، والكيد الاحتيال لمضرة الغير أو نحوها ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ﴾ لا يظفر بخير باق.

قال في (أساس البلاغة): «وهب الله لك الفلاح والفلاح وهو البقاء في الخير» وفي (مفردات الراغب): «والفلاح الظفر وإدراك بغية، وذلك ضربان: دنيوي، وأخروي، فالدنيوي الظفر بالسعادات التي تطيب بها حياة الدنيا وهو البقاء والغنى والعز...» الخ.

وَمُوسَى ﴿٧﴾ قَالَ ءَامَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خَلْفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمَنَّ أَيْنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى ﴿٨﴾ قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا

وقوله تعالى: ﴿حَيْثُ أَتَى﴾ دليل على أنه لا يفلح لا في تلك الحالة ولا في غيرها أينما صار، ولعله يشير إلى أن الإنسان قد يفلح في بعض الأماكن إذا أتاه، لكن الساحر لا يفلح حيث أتى.

﴿٧﴾ فَأَلْقَى السَّحْرَةَ سَجْدًا قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ هَرُونَ وَمُوسَى ﴿٨﴾ فَأَلْقَى السَّحْرَةَ ﴿٩﴾ هُوَا بوجوههم ساجدين على الأرض؛ ولسرعة ذلك الهوي جعل التسبيب له إلقاء كأنهم شيء واحد ألقى ﴿٩﴾ قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ هَرُونَ وَمُوسَى ﴿١٠﴾ لَأَن تَلْقَفَ الْعَصَى لِلْسَّحَرِ كَانَ آيَةً عَرَفُوا بِهَا صَدَقَ مُوسَى وَهَارُونَ فَأَمَنُوا بِاللَّهِ، وقولهم: ﴿بِرَبِّ هَرُونَ وَمُوسَى﴾ لَأَن الْآيَةَ كَانَتْ عَلَى أَيْدِيهِمَا؛ وَلَأَن فِرْعَوْنَ كَانَ يَدْعِي الرَّبُّوبِيَّةَ، فلو قالوا آمنا بربنا ما فهم أنهم أرادوا آمنا بالله.

﴿٧﴾ قَالَ ءَامَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ﴿٨﴾ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خَلْفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمَنَّ أَيْنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى ﴿٩﴾ قَالَ ءَامَنْتُمْ ﴿١٠﴾ قَالَ فِرْعَوْنَ لِلْسَّحَرَةِ حِينَ آمَنُوا: ﴿ءَامَنْتُمْ لَهُ﴾ أي لموسى؛ لَأَنَّهُ أَلْقَى الْعَصَى فَتَلْقَفَتْ سَحَرَهُمْ ﴿١١﴾ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ﴿١٢﴾ يَعْتَبِرُ نَفْسَهُ مَالِكًا لَهُمْ؛ وَلِذَلِكَ لَا يَرَى لَهُمْ حُرِيَّةَ الْفِكْرِ وَالْعَقِيدَةِ إِذَا تَبَيَّنَ الْحَقُّ لَهُمْ، وَتَجَنَّبَ أَنْ يَقُولَ: ءَامَنْتُمْ لَهُ مِنْ دُونِ تَعْلِيْقِ الْإِنْكَارِ عَلَى أَنَّهُ قَبْلَ أَنْ يَأْذَنَ لَهُمْ؛ لِأَنَ إِيمَانَهُمْ قَدْ قَامَتْ لَهُمْ بِهِ الْحُجَّةُ الْوَاضِحَةُ، فلو أنكره لمجرد أنهم اتبعوا الحجة الواضحة كان في مقام ضعف.

مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾ إِنَّا ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِنَغْفِرَ لَنَا خَطِيئَتَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنْ

وأحصل: أنه لجأ إلى المغالطة بإيهام أنهم قد أساءوا بمبادرتهم إلى الإيمان قبل إذنه، واستحقوا بزعمه أن يعاقبهم، فهو قد تشاغل بالتهديد لهم، وفي الواقع أنه قد غلب وانقلب صاغراً.

وقوله: ﴿فَلَا قُطْعَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلُكُمْ مِّنْ خَلْفٍ﴾ أي اليد اليمين والرجل اليسرى، أو اليد اليسرى والرجل اليمين، وقوله: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ يريد أنه سيجعلهم مربوطين إلى جذوع النخل ربطاً شديداً، وذلك في عرض الجذوع ليس فوقها، فقامت في مقام إلى أو مقام على، باعتبار أن الجذوع حاملة لهم، وقوله تعالى: ﴿وَلَتَعْلَمَنَّ أَئِنَّا أَشَدُّ عَذَابًا﴾ أينا يعني نفسه وموسى، وهنا يشير عدو الله إلى أنهم خافوا من موسى لما غلب سحرهم فآمنوا له خوفاً منه لا لأن الحق معه فهو يهددهم بأنه يعذبهم، ولأجل عذابه يعلمون أنه أشد من موسى عذاباً ﴿وَأَبْقَى﴾ عذاباً.

﴿قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ ﴿قَالُوا﴾ جواباً عن قوله: ﴿قَبْلَ أَنْ آتَنَّا لَكُمْ﴾ ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ﴾ ونقدمك ﴿عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ﴾ الآيات ﴿الْبَيِّنَاتِ﴾ أي لن نجعل طاعتك أثر وأقدم من البينات التي جاءتنا من الله ربنا، ومن ربنا ﴿الَّذِي فَطَرَنَا﴾ أي الذي خلقنا، فهو ربنا لا أنت ﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ﴾ مما توعدنا به، فلن يردنا ذلك عن الإيمان؛ لأنه وعيد بما غايته إنهاء الحياة الدنيا وقضاؤها، وليس كعذاب الله، فقد قابلوا بين عذاب فرعون وعذاب الله، كما قابلوا بين طاعة فرعون واتباع آيات الله طاعة الله.

السَّحَرُ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿٧٦﴾ إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ﴿٧٧﴾ وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى ﴿٧٨﴾ جَنَّاتٌ عَذْنٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا

﴿٧٦﴾ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطِئِينَ وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السَّحَرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿٧٧﴾ إِنَّمَا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِنَنْجُوا مِنْ عِقَابِهِ لَنَا عَلَى خَطَايَانَا الَّتِي فَرَطْتَ مِنَّا، وعلى السحر الذي أكرهتنا عليه، وجعلوه جريمة؛ لأنه محاربة للحق، أو لذلك ولأنه طاعة لمخلوق في معصية الخالق؛ أو لذلك ولأن السحر نفسه إثم كبير. وقولهم: ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ أرادوا به أنه خير لهم من طاعة فرعون، وأبقى لهم؛ لأنه الحي الذي لا يموت، وخيره لهم في الدنيا والآخرة، وخير الآخرة عظيم دائم.

﴿٧٨﴾ إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ﴿٧٩﴾ هذا من حكاية جوابهم على فرعون، بينوا فيه أن عذاب الله أشد من عذاب فرعون، وأن عذاب الله لكل من يأتي ربه مجرمًا أي يوم الحساب يحضر موقف سؤال الله له، وهو مجرم أي مذنب ﴿فَإِنَّ لَهُ﴾ جزاء على إجرامه ﴿جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ﴾ فيستريح من العذاب ﴿وَلَا يَحْيَى﴾ حياة سليمة من الأسباب المميتة لو كانت في هذه الحياة، فالمعذب فيها بين الحياة والموت يعاني شدة الموت ولا يموت، ومع ذلك لا نهاية لهذا العذاب، فأين منه عذاب فرعون لو وقع بهم.

﴿٨٠﴾ وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى ﴿٨١﴾ وَمَنْ يَأْتِهِ يَأْتِ رَبَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ﴾ في الدنيا ﴿فَأُولَئِكَ﴾ الذين هم أهل الصفة المذكورة ﴿لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى﴾ الدرجات الرفيعة، ثواب لإيمانهم وعملهم الصالح.

وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى ﴿٧٦﴾ وَلَقَدْ أُوحِيَآ إِلَى مُوسَى أَنَّ أَسْرَ بَعَادَى
فَاضْرَبْ هُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى ﴿٧٧﴾ فَاتَّبَعَهُمْ

﴿٧٦﴾ جَنَّتُ عَدْنٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ
تَزَكَّى ﴿٧٧﴾ جَنَّتُ عَدْنٍ بدل بيان للدرجات العلى، والعدن قيل: هو الإقامة
والبقاء، وفي (تفسير الإمام القاسم عليه السلام): هو الاستقرار والأمن، ولعله
تطبيق لمفهوم العدن؛ لأن البقاء في الحل لا يكون إلا مع الأمن؛ لأن الخوف
في الحل يزعج الخائف عنه، ويبعثه على الرحيل منه، وذلك الدرجات العلى
التي هي ﴿جَنَّتُ عَدْنٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ باقین فيها لا يموتون ﴿جَزَاءُ
مَنْ تَزَكَّى﴾ أصلح نفسه وطيبها بالإيمان والتقوى، وفي هذا إشارة إلى التمييز في
الآخرة بين الخبيث والطيب، وفي جوابهم هذا غاية الرد على فرعون، وهل
فعل بهم ما توعدهم به؟ قيل ذلك.

والراجع: أنهم لما آمنوا صاروا من قوم موسى، وفي أمل فرعون أنه
يهلكهم كلهم، ولكن نجوا منه.

﴿٧٧﴾ وَلَقَدْ أُوحِيَآ إِلَى مُوسَى أَنَّ أَسْرَ بَعَادَى فَاضْرَبْ هُمْ طَرِيقًا فِي
الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى ﴿٧٨﴾ أَنَّ أَسْرَ بَعَادَى ﴿٧٩﴾ ارحل بهم في
الليل، وقوله تعالى: ﴿بَعَادَى﴾ أي بالمؤمنين معك فدخل فيهم السحرة إن
كانوا باقین حين الوحي ﴿فَاضْرَبْ هُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ﴾ أي فاجعل لهم
طريقاً في البحر بواسطة الضرب ﴿يَبَسًا﴾ جافاً سليماً من الوحل والبلل،
وذلك أن فرعون سيتبعهم عند شروق الشمس، فبادر موسى بالسرى لئلا
يدركهم فرعون وقومه قبل بلوغهم عند البحر ﴿لَا تَخَفُ﴾ أي حال كونك
آمناً ﴿لَا تَخَفُ دَرَكًا﴾ أن يدركك فرعون وقومه ﴿وَلَا تَخْشَى﴾ من المرور في
الطريق شيئاً مثلاً لا تخشى أن تغرق برجوع البحر بعضه إلى بعض.

فِرْعَوْنَ بِجُنُودِهِ ۖ فَغَشِيَهُمْ مِّنَ اللَّيْمِ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ ۚ قَدْ أَجْجَيْنَاكُمْ مِّنْ عَذُوبِكُمْ ۖ وَوَعَدْنَاكُمْ جَانِبَ

وفي هذا الموضع يظهر الفرق بين الخوف والخشية، والراجع: أن الفارق أن الخشية خوف مع محاذرة، فهو يمر في البحر لا يخاف ولا يحاذر شيئاً من مروره في هذا الخط الغريب الذي لم يسبق له نظير فالبحر عن يمينه ويساره، كل فرق منه كالطود العظيم، وهو يسير في الخط آمناً مطمئناً، لا يحتاج إلى محاذرة من شيء.

وأما الخوف فلا يعتبر في مفهومه المحاذرة فهو أعم من الخشية، فناسب ذكر الخوف ذكر الدرك أي إدراك فرعون لموسى وقومه؛ لأنه لم يتف عن موسى المحاذرة منه بالفرار، وضرب البحر بالعصى، فهو في تلك الحال محاذر وإن ذهب عنه الخوف - والله أعلم - وظاهر هذه الآية أن الله تعالى أوحى إلى موسى بضرب طريق في البحر، أوحى ذلك عند أمره له بالسُرى وهو في الليل أو قبله، ولا ينافي ذلك ما في (سورة الشعراء) لإمكان أن الله أوحى إليه مرتين، مرة في الليل ومرة عند وصوله شاطئ البحر، ولعل الأول مجمل والثاني مفصل أي أن الله تعالى أمره أولاً بضرب طريق في البحر، ولم يخبره كيف يصنع، وفي المرة الثانية أوحى إليه أن اضرب بعصاك البحر.

﴿فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ ۖ فَغَشِيَهُمْ مِّنَ اللَّيْمِ مَا غَشِيَهُمْ * وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ﴾ ﴿فَاتَّبَعَهُمْ﴾ سار في أثرهم طالباً لإدراكهم ﴿فَغَشِيَهُمْ﴾ أي فرعون وقومه غشيهم من اليم شيء عظيم، ومن العجيب سيرهم في قرار البحر الذي سار فيه موسى وقومه، لم يمنعهم خوف البحر، لعله ظن أن البحر لا ينطبق عليه وعلى قومه إلا وينطبق على موسى وقومه، فهو كقوله: اقتلونني ومالكاً، أو أنهم لم يشعروا أنهم سائرون في قرار البحر؛ لأنه يبس.

الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى ﴿٨٤﴾ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ

وما بين الفرقين مسافة بعيدة، أو أن خيل السابقين منهم تشمست بإذن الله تعالى، فلم تدعهم يفكرون أين هم، ومن بعدهم تابعون لهم لا يفكرون كما تبعوهم في دينهم.

وقوله تعالى: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ﴾ اغواهم عن طريق رشدكم ﴿وَمَا هَدَى﴾ كما زعم في قوله: ﴿وَمَا أَهْدِيَكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرُّشْدِ﴾ [غافر: ٢٩] أو وما هدى لشيء من الحق.

﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ قَدْ أَخْجَيْنَكُمْ مِّنْ عَذُوبِكُمْ وَوَعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى﴾ هذه دعوة لبني إسرائيل إلى الإيمان بالقرآن والرسول كما في أوائل (سورة البقرة) من تذكيرهم بنعم الله عليهم ليذكروا نعمته ويتقوه ﴿قَدْ أَخْجَيْنَكُمْ مِّنْ عَذُوبِكُمْ﴾ فرعون وكانوا له مستعبدين ﴿وَوَعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ﴾ بمواعدة نبيكم ومعه سبعون رجلاً منكم جانب الطور الجبل المبارك وجانبه ﴿الْأَيْمَنَ﴾ الميمون المبارك المفضل على بقية الجبل في بركته، فهذا شرف عظيم ونعمة كبرى، يجب عليكم شكرها ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى﴾ وهي نعمة خصصتم بها.

قال الشرفي في (المصابيح): ﴿الْمَنَّ﴾ الترنجبين كالمالح، وقيل كالسكر، وكذا طعمه، ينزل لهم على الشجر من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، والسلوى طائر كالحمام، [يسمى] السمانى انتهى.

وفي (مفردات الراغب): «وأما المن في قوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى﴾ فقد قيل: المن شيء كالطل، فيه حلاوة، يسقط على الشجر، والسلوى طائر» انتهى المراد.

هَوَىٰ ﴿١١﴾ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ ﴿١٢﴾ *
وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَمُوسَىٰ ﴿١٣﴾ قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ

وقال في (القاموس): «والمن: كل ظل ينزل من السماء على شجر أو حجر، ويحلو وينعقد عسلاً، ويحف جفاف الصمغ، كالشِيرَخْت، والترنجين، والمعروف بالمن ما وقع على شجر البلوط» انتهى.

﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحِلَّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ﴾ ﴿كُلُوا﴾ إما أمر إباحة أو تعبير عن الحال في إعطائهم، كأنه يقول لهم كلوا، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ﴾ أي لا تحملكم النعمة على الطغيان؛ لأن الواجب شكرها، والطغيان فيها كفر نعمة.

والضمير في قوله: ﴿فِيهِ﴾ أي فيما رزقناكم؛ وذلك لأنه كان واسعاً فطغوا فيه كما هو مذكور أنهم سيفسدون في الأرض مرتين ويعلون علواً كبيراً، وقوله تعالى: ﴿فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي﴾ أي إن طغيتم فيما رزقناكم حلٌ عليكم غضبي.

قال الشريفي في (المصابيح): «قال الحسين بن القاسم رحمته الله ويحل بكسر الحاء هو يجب ولا يحرم، وإنما يحرم عذاب الله - كذا - بأعدائه ولا يحل له أن يعذب أحداً من أوليائه، وليس هذا من الحلول الذي هو المقام بالموضع والنزول، ولو كان كذلك لكان الحاء مرفوعاً» انتهى.

قلت: أراد أنه من الحل ضد الحرمة، فالمعنى: فتستحقوا غضبي، وقوله تعالى: ﴿فَقَدْ هَوَىٰ﴾ كناية عن هلاكه وتورطه في العذاب، وأصل الهوي: السقوط في مهواة من جبل أو غيره.

﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ ﴿لَغَفَّارٌ﴾ كثير المغفرة بكثرة المعاصي التي يغفرها كلما تاب عبد من عباده ﴿لَمَن

إِلَيْكَ رَبِّ لِرِضَايَ ﴿٥٢﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ
السَّامِرِيُّ ﴿٥٣﴾ فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَنْقَوْمِ أَلَمْ

تَابَ ﴿٥٤﴾ رجع من إباقه من سيده ﴿وَأَمَّنَ﴾ بما وجب عليه الإيمان به، فهو من
تمام التوبة، ولا يغفر لمن تاب من كل عصيانه إلا الكفر بمحمد ﷺ والقرآن
فلم يتب منهما.

فأما قول من قال: بجواز التوبة من بعض الذنوب دون بعض فلعله عنى
أنه يخرج بالتوبة من الإصرار على ما تاب منه، فأما الغفران فهذه الآية
دليل على أنها لا تغفر له؛ لأنه لم يؤمن ولم يهتد.

وقوله تعالى: ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ أي عمل ما أوجب الله عليه، لم يصحبه
بفسد له ولا محبط يمنع من قبوله؛ وذلك لأن التوبة هي الرجوع والعمل
الصالح منه، وإنما الندم والعزم على الطاعة أول الرجوع، فإذا لم يصدق
عزمه على الطاعة بفعلها خرج من التوبة والمغفرة، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ
أَهْتَدَى﴾ إلى الحق في دينه وفي هذا وعد بالمغفرة لمن تاب، وأتم الأربع
الخصال لبني إسرائيل وغيرهم.

﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَمُوسَى﴾ * قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي
وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِرِضَايَ ﴿٥٥﴾ ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ﴾ وهذا يفيد أن
المواعدة كانت لموسى وقومه جملة، فاختار منهم سبعين رجلاً وسبق هو وهم
إلى جبل الطور، وهو يظن أن بقية قومه لاحقون بعده ﴿قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَى
أَثَرِي﴾ أي تابعين لي، والأثر أثر قدميه، وليس المراد إلا أنهم تابعون له في
سرعة، كما قال الشاعر:

القوم في أثري ظننت فإن يكن ما قد ظننت فقد ظفرت وخابوا

يَعِدُّكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ نَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي ﴿٨٦﴾ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ

﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾ أي لأن المسارعة إلى الفضيلة قربة كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ [الأنبياء: ٩٠] وسؤال الله تعالى لموسى ليجيب بما أجاب به، وهو تعالى عالم بذلك قبل أن يسأله، ولعله - أيضاً - مقدمة لإخباره بأن قومه قد ﴿أَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾.

﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ ﴿فَتَنَّا قَوْمَكَ﴾ خذلناهم وتركناهم وشأنهم، وهذا من شرف القرآن، لا يخرج الخبر مخرج الشكوى، بل مخرج أنه وقع الباطل؛ لأنه أراد تخلية أهله وشأنهم ليدل على أنه غير مبال بهم، ولا نقص عليه بمعصيتهم ﴿وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ بالعجل الذي صنعه فعبدوه، وهم كانوا يحبون أن يكون لهم إله مشاهد، ولذلك قالوا: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨] ولعل ذلك سبب خذلانهم، والراجع: أن الله أطلع موسى على فتنة قومه في آخر مدة المناجاة؛ ولذلك قال تعالى:

﴿فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضَبَيْنِ أَسْفًا قَالَ يَقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ نَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي﴾ ﴿فَرَجَعَ مُوسَى﴾ من الطور إلى قومه الذين عبدوا العجل ﴿غَضَبَيْنِ أَسْفًا﴾ قال الشرفي في (المصابيح): «قال في (البرهان): والأسف: أشد الغضب والندامة والحزن...» الخ، وقال الراغب في تفسيره (مفردات القرآن): «الأسف: الحزن والغضب معاً، وقد يقال لكل واحد منهما على الإنفراد» انتهى.

وفي هذه الآية الراجح: إما الجمع بين الحزن والغضب، وإما الحزن وحده؛ لأن الغضب قد ذكر، وأسفه على قومه لحرصه على إيمانهم وصلاح شأنهم؛ ولأنه قد تحمل العناء الشديد في إنقاذهم من ظلم فرعون وتحريرهم من استعباده؛ لحسن ظنه أنهم يؤمنون، فإذا خاب ظنه فيهم كان ذلك مؤسفاً؛ لأنه لا يهمه إنقاذ مشركين: ﴿قَالَ يَاقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا﴾ ولعله استخلافهم في الأرض، لقوله تعالى: ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٢٩] وهذا يفيد: أن تمكينهم في الأرض بناءً على أنهم مسلمون، فالشرك يفوت عليهم هذا الوعد ما داموا مشركين، فهو بهذا يذكرهم الوعد الحسن ليسلموا.

وقوله: ﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ﴾ أي بعد بياني لكم أن من الجهالة عبادة غير الله، وأن لا إله إلا الله، فهل طال عليكم العهد حتى نسيتم ذلك؟ أي لم تطل المدة، بل العهد قريب، وقوله: ﴿أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يُحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ بأن أخلفتم موعدي؛ لأن إرادتكم لسبب حل الغضب عليكم كالإرادة للغضب، وهذا سوء اختيار.

وقوله: ﴿فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي﴾ أي باشتغالكم بعبادة العجل أخلفتم موعدي عن أن تتبعوا أثري إلى الطور فتحضروا معي ميقاتي من ربي، ولعلمهم أخلفوا مواعده قبل عكوفهم على العجل؛ لأنهم لو سارعوا في السفر ولم يتوقفوا لما كانت للسامري فرصة أن يصنع العجل ويعرضه عليهم ليعبدوه، فإخلافهم لموعد موسى كان هو السبب، أو لازم إرادة العجل، وبالتالي عبادته، فالمعصية تجر إلى المعصية، والحاصل: أن إخلافهم الوعد معصية ذكرهم بها ودلهم على كبرها بقوله: ﴿أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يُحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي﴾.

بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حُمِلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴿٤٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ

﴿٤٨﴾ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حُمِلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴿٤٩﴾ بِمَلِكِنَا ﴿٥٠﴾ أَرَادُوا لَمْ نَمَلِكْ أَنْفُسَنَا بَلْ غَلَبْنَا، فَأَخْلَفْنَاهُ لضعفنا؛ ولهذا قالوا: ﴿٥١﴾ وَلَكِنَّا حُمِلْنَا أَوْزَارًا ﴿٥٢﴾ أي أحمالاً من زينة القوم أي من زينة آل فرعون، وهذا مما يؤكد أن السحرة لم يقتلوا بل كانوا من جملة قوم موسى؛ لأنهم هم مظنة أنه كان عندهم الحلية ليتجملوا بها يوم عيدهم، وليعظم أمرهم عند ملاقاتهم لموسى.

فأما موسى والذرية من بني إسرائيل الذين آمنوا به على خوف من فرعون وملأهم أن يفتنهم فهم بعيد عن آل فرعون منعزلون مع موسى، فيبعد أن يكون عندهم شيء من زينتهم قبل اختلاطهم بالسحرة المؤمنين وجعلوها أوزاراً ليعتذروا بثقلها في السفر أنه حملهم على إلقائها، فقالوا: ﴿٥٣﴾ حُمِلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا ﴿٥٤﴾ لتخفف عنها ﴿٥٥﴾ فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴿٥٦﴾ ما حمل من زينة القوم، فعند ذلك بدا له أن يصوغها عجلًا لبصره بالصياغة، وبدا لهم أن ينتظروه لينظروا العجل حين يتم السامري صنعه أو ليعبدوه، فهو يحتمل: أنه وهم اتفقوا على أن يصوغه عجلًا ليعبدوه فانتظروه لذلك.

ويحتمل أنه بعد ما أتم صنعه بدا لهم أن يعبدوه؛ لأنهم قد حصلوا على غرضهم الذي كان في أنفسهم من قبل، حين قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة، وحاصل اعتذارهم: أن الحلية ثقلت عليهم فطرحوها وانتظروا موسى عندها.

وَاللَّهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ إِلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا تَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَتَّقُوا اللَّهَ إِنَّمَا قُتِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّ

﴿٨٨﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٩﴾ فَأَخْرَجَ السامري من مكانه الذي صاغ فيه العجل، أو ﴿فَأَخْرَجَ﴾ أي أظهر لهم بصياغته وصنعه في الحلية، وهذا أظهر، وقوله ﴿لَهُمْ﴾ يظهر منه: أنه صنعه لهم عن تراض بينه وبينهم، فلم يقذفوا الزينة رفضاً لها ورغوباً عنها، بل بزعمهم ليتخلصوا من ثقلها فقط، وفي الواقع أرادوا أن يصنعها لهم عجلاً؛ ولذلك قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ﴾ والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿عِجْلًا﴾ أي صورة عجل؛ لأن الصورة تسمى باسم ما هي صورة له، وقوله تعالى: ﴿جَسَدًا﴾ أي أنها لا روح فيها ولا حياة، وإنما هو جسد، كقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ﴾ [الأنبياء: ٨].

وقوله تعالى: ﴿لَهُ خُورٌ﴾ أي صوت كصوت البقر عند حاجتها للطعام أو الشراب أو نحو ذلك، وذلك أنه احتال لصوت فيه بواسطة نافخ فيه ينفخ الهوى بتصويت كما في لعبة الصبيان التي توجد في هذا الوقت ينفخون فيمتلئ هواء، ثم يرسلونه فتصوت، وأعانه على ذلك رنين العجل؛ لأنه فضة أو ذهب.

وقال الشرفي في (المصابيح): «عن الحسين بن القاسم عليه السلام: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا﴾ أي صاغ لهم عجلاً ﴿جَسَدًا﴾ والجسد في اللغة: هو الجسم وهو الشخص وهو الجرم وهو الشبح، وله أسماء كثيرة، والمعنى واحد، ثم قال: ﴿لَهُ خُورٌ﴾ كما تحور العجاجيل أي له صوت مثل صوت التبع من البقر، وهو على صورته، وذلك أنه جعله أجوف مخرقاً، ثم أقبلت الرياح فتولد منه صوت مثل الخوار، انتهى.

رَبِّكُمْ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿١٠﴾ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ
حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿١١﴾ قَالَ يَبْهَرُونَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿١٢﴾

﴿فَقَالُوا﴾ أي قوم موسى ﴿هَذَا﴾ أي العجل ﴿إِلَهُكُمْ﴾ وإله موسى ﴿فَنَسِيَ﴾ أي موسى أن هذا إلهه، وهذا من سفه القوم وتلعبهم، وإلا فهم يعلمون أن الميقات لموسى من ربه خالق السموات والأرض، وهم يعلمون أن العجل لم يخلق السموات والأرض، ولم يخلقهم ولا خلق موسى، لكن مثل هذا السفه يصدر من السفهاء على طريق اللعب والمبالغة في المجون.

﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ هذا رد على قولهم: ﴿هَذَا إِلَهُكُمْ﴾ ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ﴾ أنه ضعيف جماد ﴿أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا﴾ لأنه جماد لا يقدر على الكلام ﴿وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ وذلك من أوضح الواضحات؛ لأنه جماد لم يمنع عن نفسه صياغة السامري له ولا إذابته في النار، فليس له قدرة على نفع فيعبد طمعاً في نفعه، ولا على ضرر فيعبد خوفاً من ضرره، فباطلهم واضح البطلان لا شبهة لهم فيه، وإنما اتبعوا أهواءهم.

﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَنْقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ ﴿يَنْقَوْمِ﴾ استعطاف لهم ﴿إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ﴾ بمحصله مطابقاً لأهوائكم وغرضكم الذي طلبتم سابقاً؛ ولذلك خذلتكم به ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ﴾ الذي يستحق العبادة هو ﴿الرَّحْمَنُ﴾ وحده لا شريك له؛ لأنه الذي خلقكم ورزقكم وحرركم برحمته ﴿فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ لتركوا عبادة العجل ولتعبدوا الله وحده.

﴿١٧﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿١٧﴾ قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي ۖ إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿١٨﴾ قَالَ فَمَا

﴿١٧﴾ ﴿١٨﴾ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَنكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى ﴿١٩﴾ فتنوا بحبه وهم يعلمون أن موسى لا يتركهم يعبدونه، فأصروا على أن يعكفوا عليه حتى يرجع إليهم موسى، وهذا العكوف عبادة منهم له؛ لأنهم حبسوا أنفسهم عليه خضوعاً له واعترافاً بإلهيته، فقد جعلوه مالكا لهم يستحق منهم العكوف عليه والتذلل له، وعبادة الأصنام كلها أمر عجيب من العقلاء، لكن قوم موسى كانوا في بيئة عبادة الأصنام.

﴿١٩﴾ قَالِ يَهْرُؤُونَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا * أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٢٠﴾ هذا إختصار حسن؛ لأنه ربطه بقولهم: ﴿حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى﴾ ليرتب عليه قوله لهم حين رجع اكتفي به عن أن يقول فرجع إليهم موسى فقال هارون: ﴿مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا﴾ بالشرك أن ترفضهم وتتبعني إلى الميقات ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ حين لم تفعل.

﴿٢٠﴾ قَالِ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي ۖ إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٢١﴾ وهنا إختصار لم يقل: أخذ برأس أخيه وأفاده في الجواب من هارون، فقد غضب موسى وأظهر غضبه حين بدأ بأخيه، واستعطفه هارون بالجواب والإعتذار: بأنه إنما بقي عندهم عملاً بوصية موسى؛ لأن الرأي والإصلاح انتظار رجوع موسى حتى يجتمع بنوا إسرائيل تحت أمره، وقد خشي هارون لو تركهم أن لا يبقى عليهم يد لموسى، وهذا معنى تفريقهم إذا كانت فرقة مع السامري، وفرقة مع موسى، وهم السبعون الذين كانوا معه في (الطور).

خَطْبُكَ يَسْمَرِي ﴿١٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿١٦﴾ قَالَ فَادْهَبْ

أما مع بقاء هارون فهم لم يرفضوا طاعة موسى متى رجع، وهارون عندهم ممثل لموسى، فاحتفظ هارون بالبقية من العلاقة بموسى، وقوله: ﴿وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ من مقول قول موسى الذي خشي هارون أن يقوله موسى أنه لم يراقب قوله: ﴿اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٢].

﴿١٥﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَسْمَرِي ﴿١٦﴾ قَالَ ﴿مَوْسَى لِلْسَامِرِيِّ: ﴿فَمَا خَطْبُكَ﴾ أَي مَا شَأْنُكَ؟ وما الباعث لك على ما عملت؟﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿بَصُرْتُ﴾ حصلت لي بصيرة بالصياغة والصناعة ليس للقوم مثلها، فكانت سبباً للصياغة لإظهار المهارة والقدرة الفائقة ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ﴾ الذي علّمناه، وتعليمه لنا في الدين قبضة ﴿فَنَبَذْتُهَا﴾ ولم أنبذه كله ﴿وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ سهلت لي نفسي هذا الصنيع وطوعته وزينته.

قال الشرفي في (المصابيح): «وفي (البرهان) ﴿سَوَّلَتْ﴾ أي حدثت وزينت» انتهى، وفي (أساس البلاغة): «سول له الشيطان ونفسه أمراً: سهّل له وزين» انتهى.

وقال الشرفي في (المصابيح): «عن الحسين بن القاسم رحمته الله المعنى فيه: بصرت بما لم يبصروا به من الإحتيال وعمل الصنعة والإعتمال ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ﴾ أي من علمه وخبره: ﴿فَنَبَذْتُهَا﴾ أي طرحتها ولم أعمل بها» انتهى المراد، فهو كقوله تعالى: ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠١].

فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَوةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ^ط وَانْظُرْ إِلَى إِلْهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴿١٧﴾ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا

﴿١٧﴾ قَالَ فَادْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَوةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ^ط وَانْظُرْ إِلَى إِلْهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴿١٧﴾ قَالَ فَادْهَبْ ﴿١٧﴾ تعبير عن تركه على الحالة التي يصير إليها ﴿فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَوةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ عقوبة عاجلة في الحياة الدنيا.

قال الشريفي: «أي لا تخالط أحداً، ولا يخالطك، فلا يماسه أحد إلا حمماً معاً فتحاموه وصار في الناس أوحش من القاتل» انتهى باختصار، وقوله: حما، أي أصابتها الحمى اللامس والملموس معاً، وهذا باعث للسامري على أن يقول لمن لقيه لا مساس أي لا تمسني ولا أمسك خوفاً من الحمى وتحذيراً منها، والآية الكريمة لم تذكر الحمى، ولكن قد أفادت حذر السامري من المساس، وذلك يدل على ضرر سواء كان الحمى أم غيرها.

﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا﴾ هلاكك موعداً أو لعذابك في الآخرة، والأول أظهر عندي، فهو لا يؤمنه من العقوبة العاجلة بل دل على هلاكه في موعد محدود، فأما الآخرة فلعله غير مؤمن بها، وقد بلغه موسى ما بلغ غيره من إنذار الكافرين عذاب النار.

وقوله: ﴿وَانْظُرْ إِلَى إِلْهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾ أي ستعرف أنه عاجز لا يملك لنفسه نفعا ولا ضراً ﴿لَنُحَرِّقَنَّهُ﴾ حتى تذهب صورته ويذوب ﴿ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْبَحْرِ نَسْفًا﴾ وذلك دليل واضح على أنه ليس إلهاً.

﴿١٨﴾ كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا ﴿١٩﴾ مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا ﴿٢٠﴾ خَلِيدٍ فِيهِ

قال الشرفي في (المصاييح): «قال الحسين بن القاسم عليه السلام: لما استبكت من التحريق أمر به عليه السلام فبرد بالمبارد وهي المساحل حتى صار تراباً، ثم طرح في البحر» انتهى المراد، وقوله: استبكت، أي صار سبيكة بواسطة ذوبانه.

﴿١٨﴾ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿١٩﴾ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ ﴿٢٠﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، تمام كلام موسى لقومه ليكفروا بالعجل لا يطمعوا مرة أخرى في إله مصنوع ﴿٢١﴾ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٢٢﴾ فراقبوه واعبدوه؛ لأنه هو الذي يعلم عبادة من عبده ولا يفوت علمه شيء من المعلومات.

﴿٢٣﴾ كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا ﴿٢٤﴾ كَذَلِكَ ﴿٢٥﴾ القصص في بني إسرائيل المفصل الدال على أن الله تعالى أوحاه إليك يا محمد؛ لأنه يحكي ما هو غائب عنك، ولم تقرأ كتاباً قبله ﴿٢٦﴾ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ ﴿٢٧﴾ كما في (سورة الشعراء) و (سورة الكهف) و (سورة الأنبياء) ﴿٢٨﴾ وَقَدْ آتَيْنَاكَ ﴿٢٩﴾ يا محمد ﴿٣٠﴾ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا ﴿٣١﴾ مع القصص يذكر من الغفلة، فقد آتيناك القرآن الذي يدل على صدقك ويهدي للتي هي أقوم.

﴿٣٢﴾ مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا ﴿٣٣﴾ مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ ﴿٣٤﴾ يعم الكفار وكل من لم يتبع القرآن واشتغل عنه بغيره ﴿٣٥﴾ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا ﴿٣٦﴾ ذنباً ثقیلاً، كقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ﴾ [الأنعام: ٣١] لأن المعرض عن القرآن يجتمع عليه إثم الإعراض وإثم المخالفة، فيحضر موقف الحساب حاملاً لذنوب ثقیل.

وَسَاءَ هُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ جَمَلًا ﴿١١﴾ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٢﴾ يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٣﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا

﴿١١﴾ خَلِيدِينَ فِيهِ وَسَاءَ هُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ جَمَلًا ﴿١٢﴾ خَلِيدِينَ ﴿١٣﴾ باقين ﴿فِيهِ﴾ لا يموتون ولا يفارقهم بل لا يزالون حاملين له، فالعذاب لا يطهرهم منه ﴿وَسَاءَ هُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ جَمَلًا﴾ ما أسوأه جملاً ﴿يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ يوم الجزاء؛ لأنه يجر عليهم عذاباً دائماً يواقعونه ذلك اليوم.

﴿١٢﴾ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ يُنْفَخُ ﴿١٢﴾ ابتداء تفسير ليوم القيامة، ووصف لبعض هوله ﴿يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ الراجح: أنه عبارة عن صوت شديد يسمعون، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾ [ق: ٤٢] والصور في الأصل: آلة تولد وتكبر الصوت فيبلغ بعيداً.

قال في (الصحيح): «الصور: القرن، قال الشاعر:

لقد نطحناهم غداة الجمعين نطحاً شديداً لا كنطح الصورين

ومنه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ قال الكلبي لا أدري ما الصور، ويقال هو جمع صورة مثل: بسرة وبسر، أي يوم ينفخ في الصور أرواح الموتى، وقرأ الحسن: {يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ} انتهى المراد.

﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي من قبورهم إلى موقف الحساب ﴿زُرْقًا﴾ لعله كقوله تعالى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ * تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ [عبس: ٤٠-٤١] فاجتماع الغبرة والسواد لعله الزرقة، والله أعلم.

وقيل: معنى ﴿زُرْقًا﴾ زرق العيون.

يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَبِئْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٤﴾ وَتَسْأَلُونَكَ عَنِ
الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٦﴾ لَا تَرَى فِيهَا
عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ

﴿١٣﴾ يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَبِئْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٤﴾ يَتَخَفَتُونَ يَقُولُونَ
سِرًّا ﴿١٥﴾ يَتَّبِعُونَ إِن لَبِئْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٦﴾ ما لبثتم في القبور إلا عشر ليال بأيامها.

﴿١٤﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَبِئْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٥﴾
فاختلفت أقوالهم، والله أعلم بما يقولون حين يقول أشفهم طريقة وأقربهم
للصواب في طريقته لا في قوله: ﴿إِن لَبِئْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ أي ما لبثتم إلا يومًا؛
ولمّا كان أمثلهم طريقة لأنه أثبت المحقق عنده ولم يزد عليه ما لا يعلم، وهذا
يدل على أن النزاع كان في مدة لبثهم في الأرض بعد موتهم حتى بعثوا.

﴿١٥﴾ وَتَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٦﴾ فِي (أَسَاسِ
البلاغة): نسف الحبّ بالمنسف وهو الغربال الكبير عند الفامين [العل
الأصل في أساس البلاغة عند الفوميين، أي عند عمال البرّ تمت منه] ومن
المجاز نسفت الريح التراب الخ، فنسف الجبال دكها بالزلزال الشديد
وإطارتها عن مواقعها إما بالزلزلة وإما بالرياح - والله أعلم.

﴿١٦﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٧﴾ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿١٨﴾
﴿١٩﴾ فَيَذَرُهَا ﴿٢٠﴾ أي فيتركها أي يترك الأرض بنسف الجبال ﴿٢١﴾ قَاعًا صَفْصَفًا ﴿٢٢﴾ في
(معلقة امرئ القيس):

ترى بحر الآرام في عرصاتها وقيعانها كأنه حبٌ فلفل

قال شارحها: «قيعان جمع قاع وهو المستوي من الأرض» انتهى المراد.

الْأَصَوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ إِلَّا
مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴿١٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ

وقال في (الصحيح): «والقاع: المستوي من الأرض» انتهى، وفي (أساس
البلاغة): «وقاع صفصف: أملس» انتهى، أي أنه بليغ الاستواء لا ينبو منه
شيء، وقد فسر بعضهم الصفصف: بالقاع المستوية، وعلى قولهم: فصفصفاً
تأكيد ليفيد استواءها البليغ.

﴿لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ هذا توضيح لاستواء الأرض، قال
الشرفي في (المصاييح): «قال محمد بن القاسم عليه السلام: العوج في الأرض
الإلتواء والارتفاع والانخفاض الفاحش، والأمت القليل..» الخ، يعني
القليل من الاختلاف بالارتفاع والانخفاض، فقد نفى تعالى القليل من
الاختلاف مع نفي الكثير، وأفاد أنها تصير يومئذ مستوية استواء كاملاً.

﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصَوَاتُ لِلرَّحْمَنِ
فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي نفس الجبال يتبعون إما الناس جملة،
وإما السائلون عن الجبال كفراً بالبعث، أي هم وغيرهم مثلهم يتبعون
﴿الدَّاعِيَ﴾ الذي يدعوهم إلى موقف الحساب، أو يدعوهم من قبورهم إلى
المحشر ﴿لَا عِوَجَ لَهُ﴾ كما هم في الدنيا متمردون فهم في الآخرة منقادون،
قد ذهب العوج لهيبة الموقف ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصَوَاتُ لِلرَّحْمَنِ﴾ ذلت وضعفت
﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾.

قال الراغب: «الهمس: الصوت الخفي، وهمس الأقدام: أخفى ما يكون
من صوتها، قال تعالى: ﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾» انتهى، ومثله في (أساس
البلاغة) إلا أنه قال: همس الكلام - ثم قال - : «وسمعت همس الأقدام»
انتهى، وقد فسروه بهمس الأقدام، والراجح: أنه الكلام الخفي، وصوت
الأقدام لقوله تعالى: ﴿يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ﴾.

﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾
 ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ بالشفاعة، هي إما مثل قوله تعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي
 السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذِنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾
 [النجم: ٢٦] فمعناها: أن الملك لله وحده فلو شفع شافع قبل أن يأذن الله
 ويرضى بشفاعته لما نفعت، وفي هذا رد على المشركين لقولهم: ﴿هَؤُلَاءِ
 شَفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] وفي بعض القرآن ينفي الشفاعة إلا بإذنه، فلا
 تكون أصلاً فضلاً عن أن تقع ثم لا تنفع، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ
 وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبا: ٢٨].

وعلى هذا فالمعنى: لكن من أذن له الرحمن ورضي له قولاً تنفع
 شفاعته، والقول هنا الشفاعة فلا بد من اجتماع الأمرين في الشافع: الأذن
 له والرضى بما يقول، وفي هذا تحقيق أن الملك يومئذ لله وحده ليس لأحد
 أن يتدخل في الحكم يومئذ، ونظائر هذا السياق كثير في القرآن يظهر: أنه رد
 على المشركين، وحملها على هذا المعنى أظهر لكثرة نظائره، ومطابقته لمقتضى
 تلك الظروف التي نزلت فيها السور (المكية) و (المدينة) وإما أن تكون بمعنى
 إلا من أذن للشافع بالشفاعة له ورضي للمشفوع له قولاً، أو ورضي
 للشافع له قولاً وعاد الضمير إليه لإفهام ذكر الشفاعة فاعلها؛ ولم يترجح
 عندي هذا الاحتمال؛ لأن ظاهر قوله: ﴿مَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ أن المعنى: أذن للشافع،
 وجعله للمشفوع له يحوج إلى تقدير: بعد أذن للشافع، وتقدير أن يشفع له
 ليتعلق قوله ﴿لَهُ﴾ بالشفاعة.

وقد يجاب: عن هذا بأنه يصح تعليق له بأذن، ويكون الضمير للمشفوع
 له، والجواب لا إشكال في الصحة مع القرينة، أما مع عدمها فلا نسلم إذ
 ظاهر الأذن للفاعل فظاهر إتياعه بقوله: ﴿لَهُ﴾ أنها للفاعل المأذون له، وأن
 الضمير له في الغالب.

وَلَا تُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴿١١﴾ وَعَنْتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١٢﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ

ولهذا فالراجح: المعنى الأول لكثرتة في القرآن، واقتضاء وقت نزول القرآن له كما مر؛ ولأن الظاهر اشتراط اجتماع الأذن والرضى للشافع ليدل على أنه لا مكانة لعبد توجب له الأذن فيما ليس مرضياً عند الله، أما على التفسير وعلى قولهم أن المعنى ورضي للمشفوع قولاً يكون قوله ورضي له قولاً كالفضلة؛ لأن قوله: ﴿أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾ كاف في المقصود؛ لأنه لا يأذن لمن لم يرض له قولاً؛ ولأن القول هنا يكون مبهماً صالحاً لأي قول، ولو لم يكن واجباً فيكون التعبير ضعيفاً إن أريد قولاً مخصوصاً؛ لأن العبارة قاصرة عن إفادته.

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ تكرر مثل هذه الآية بعد نفى الشفاعة لمن لا يأذن له الله، ففي (آية الكرسي): ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وفي (سورة الأنبياء): ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى﴾ [آية: ٢٨] فالراجح في هذه الآية: أن الضمير راجع إلى من نفى شفاعتهم، و﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ المستقبل من أمورهم ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ الماضي من أعمالهم وأمورهم إن عني به الملائكة ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ لا يعلمون إلا ما علمهم بآياته الدالة على عظمته وجلاله.

﴿وَعَنْتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ العاني: الأسير، جعلوا كالأسرى لذلتهم وانقيادهم وخضوعهم، أو هو حقيقة.

ظُلُمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١٢٢﴾ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١٢٣﴾ فَتَعَلَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ

قال الشرفي في (المصابيح): «ومعنى ﴿وَعَنْتِ الْوُجُوهُ﴾ أي صارت عانية أي ذليلة خاشعة من عني يعنو إذا خضع...» الخ، وفي (الصحيح): «عني يعنو: خضع وذلل - ثم قال - : والعاني: الأسير».

وقوله تعالى: ﴿لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾ دلالة على أنه القائم بأمور الآخرة كما هو القائم بأمور العالمين في الدنيا، فهو في الآخرة يسألهم ويحكم فيهم، ويعاقب من شاء، لا راد لأمره ولا معقب لحكمه ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ تحققت خيبته من ملك الملوك الذي لا يرد أمره، وخيبته تحقق عذابه وبطلان رجائه السلامة.

وقوله تعالى ﴿مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ أي كان ظلمه على ظهره لم يفارقه كقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ﴾ [الأنعام: ٣١] وليس يحمل وزره من تاب في الدنيا؛ لأنه قد فارقه وتخلص منه بالتوبة، فإن كان المراد من حمل في الدنيا، فالتائب مخرج منه كسائر الوعيد.

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ ﴿ظُلْمًا﴾ نقصاً من ثوابه ﴿وَلَا هَضْمًا﴾ تصغيراً لقدره وهتكاً لعرضه، بل يوفى أجره وكرامته التي استحقها بإيمانه وعمله الصالح، وتشريفه هو من ثوابه، واستعمال الهضم في هتك العرض هو من المجاز، ومن فوائده أن المؤمن لا تظهر معاصيه التي كان في الدنيا قد تاب منها، بل تستر عليه، ولعل أقرب من هذا أن الظلم النقص من الثواب، والهضم: الظلم الذي هو الجور في الحكم.

بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾ وَلَقَدْ
وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسَىٰ وَلَمْ يُجِدْ لَهُ عِزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا

فالمعنى: أنه يوفى أجره ولا يخاف أن يظلم بعذاب أو نحوه، بل هو آمن،
ويدخل في هذا أمنه من هتك عرضه وإظهار سيئاته بغير حق، فكأنه قيل لا
يخاف نقصاً من ثوابه ولا جوراً عليه، وهذا هو الراجح.

﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ
تُحَدِّثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ ﴿وَكَذَلِكَ﴾ الذي مر في هذه السورة ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾ أنزلنا هذا
الكتاب ﴿قُرْآنًا﴾ يقرؤه الناس ﴿عَرَبِيًّا﴾ بلسان العرب ﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ
الْوَعِيدِ﴾ أتينا به أنواعاً نصرفه من نوع إلى نوع، كالذكر بهول يوم القيامة تارة
وبعذاب النار تارة ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ يخافون فيتقون ذلك المتوعد به بالإيمان والطاعة
﴿أَوْ تُحَدِّثُ لَهُمْ﴾ الوعيد ﴿ذِكْرًا﴾ تذكرأ فنظراً في صدق الرسول فإيماناً.

﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ۖ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ
إِلَيْكَ وَحْيُهُ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ ﴿فَتَعَالَى﴾ من العلو تعالى بإنزال
الكتب وإرسال الرسل وإقامة الحجة على العباد وهدايتهم إلى الرشاد
والسعادة الدائمة، والنجاة من العذاب إن آمنوا، فتعالى عن كل نقص
وعن كل خلاف للحكمة والتفضل والرحمة.

﴿وَلَا تَعْجَلْ﴾ يا محمد ﴿بِالْقُرْآنِ﴾ بقراءة القرآن ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ
إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ فكلما نزل عليك منه قرآن فانتظر تمام الوحي ﴿وَقُل رَّبِّ
زِدْنِي عِلْمًا﴾ فاحرص على زيادة الوحي، واطلب زيادته، قال الشرفي في
(المصابيح): «قال في (البرهان): يعني لا تعجل بتلاوته من قبل أن يفرغ
جبريل عليه السلام من إبلاغه» انتهى المراد.

لِلْمَلٰٓئِكَةِ اَسْجُدُوْا لِاٰدَمَ فَسَجَدُوْا اِلَّاۤ اِبْلِیْسَۙ اَبٰی ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا یٰۤاٰدَمُ اِنَّ هٰذَا عَدُوُّكَ وَلَزَوْجُكَ فَلَا یُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقٰی ﴿١١٧﴾ اِنَّ لَكَ اَلًا تَجُوْعَ فِیْهَا وَلَا تَعْرِیٰ ﴿١١٨﴾ وَاَنَّكَ لَا تَظْمُؤُا فِیْهَا وَلَا تَضْحٰی ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ

﴿١١٥﴾ وَلَقَدْ عٰهَدْنَاۤ اِلٰیۤ اٰدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسٰی وَلَمْ یُحَدِّ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٦﴾ عٰهَدْنَا اِلٰی اٰدَمَ الْاِنْذَارَ وَالتَّحْذِیْرَ اِنْ اَطَاعَ الشَّیْطَانَ، وَاَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّهِ وَلِزَوْجِهِ ﴿فَنَسٰی﴾ نَسِيَ التَّحْذِیْرَ هٰذَا ﴿وَلَمْ یُحَدِّ لَهُۥ عَزْمًا﴾ قِیْلَ: لَمْ یُحَدِّ لَهُۥ عَزْمًا عَلٰی الْمَعْصِیَةِ، وَالاَقْرَبُ عِنْدِي: لَمْ یُحَدِّ لَهُۥ قُوَّةَ اِرَادَةٍ وَثَبَاتِ عَزْمٍ، اٰی اَنَّهُۥ ضَعْفَتْ اِرَادَتُهُ عِنْدَ تَغْرِیْرِ الشَّیْطَانَ، فَالْعَزْمُ هُنَا مِثْلُهُۥ فِی قَوْلِهِ تَعَالٰی: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ اٰوْلُوْا الْعَزْمُ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الاحقاف: ٣٥] وَاللّٰهُ اَعْلَمُ، وَنَحْوُ هٰذَا حَكَاهُ الشَّرْفِیُّ عَنِ (الْبَرْهَانِ).

﴿١١٦﴾ وَاِذْ قُلْنَا لِلْمَلٰٓئِكَةِ اَسْجُدُوْا لِاٰدَمَ فَسَجَدُوْا اِلَّاۤ اِبْلِیْسَۙ اَبٰی ﴿١١٧﴾ وَاذْكَرْ ﴿اِذْ قُلْنَا لِلْمَلٰٓئِكَةِ اَسْجُدُوْا لِاٰدَمَ﴾ وَهٰذَا یَدُلُّ عَلٰی اَنَّ هٰذِهِ الصَّیْغَةُ تَفِیْدُ الْوُجُوْبَ، اِذَا كَانَتْ مِنَ اللّٰهِ اَوْ مِنْ رَّسُوْلِهِ ﴿فَسَجَدُوْا﴾ كَمَا اَمَرُوْا ﴿اِلَّاۤ اِبْلِیْسَۙ اَبٰی﴾ اٰی اَمْتَنَعَ اَنْ یَسْجُدَ.

﴿١١٧﴾ فَقُلْنَا یٰۤاٰدَمُ اِنَّ هٰذَا عَدُوُّكَ وَلَزَوْجُكَ فَلَا یُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقٰی ﴿١١٨﴾ اِنَّ لَكَ اَلًا تَجُوْعَ فِیْهَا وَلَا تَعْرِیٰ ﴿١١٩﴾ مَا دَمْتَ فِی الْجَنَّةِ بِسَبَبِ اِغْوَاۤءِ اِبْلِیْسَ ﴿فَتَشْقٰی﴾ اِنْ خَرَجْتَ مِنْهَا، لِحَاجَتِكَ اِلَى الْحَرِّثِ وَصِنَاعَةِ اللِّبَاسِ وَبِنَاءِ الْمَسْكَنِ.

﴿١١٨﴾ اِنَّ لَكَ اَلًا تَجُوْعَ فِیْهَا وَلَا تَعْرِیٰ ﴿١١٩﴾ اِنَّ لَكَ ﴿مَا دَمْتَ فِی الْجَنَّةِ﴾ اَلًا تَجُوْعَ فِیْهَا ﴿لَتَوْفَّرَ الطَّعَامُ فِیْهَا﴾ وَلَا تَعْرِیٰ ﴿لَوْجُودُ اللِّبَاسِ فِیْهَا، اَوْ مَا یَقُوْمُ فِی السِّرِّ مَقَامَهُ.

إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَتَّادُمُ هَلْ أَذْلُكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى ﴿١٦﴾
فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَتُهُمَا وَطَفِقَا مَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ
الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴿١٧﴾ ثُمَّ أَجْتَبَنُ رَبُّهُ فِتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى

﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى﴾ ﴿لَا تَظْمَأُ فِيهَا﴾ لتوفر الماء فيها
﴿وَلَا تَصْحَى﴾ تبرز للشمس للحاجة إلى العمل فيها، ففي هذه الجنة أكل
بغير تعب وشرب وظلال لا يحتاج إلى الخروج منه والتعرض للشمس، أما إذا
خرج منها فاتته هذه الأشياء فقد يجوع وقد يعطش وقد يعرى، كل ذلك
لتأخر حصول هذه الحاجات، ويضحي للحاجة إلى العمل في الشمس،
والعري لعله كان حتى حصل له كسوة من عمله من ورق الجنة، وليس
بعيداً مع تحمله لذلك وقوته، ومع أنه خال من الناس لا يراه منهم إلا زوجه.

﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَتَّادُمُ هَلْ أَذْلُكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ
وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى﴾ ﴿الْخُلْدِ﴾ البقاء فلا تموت إذا أكلتها ﴿وَمُلْكٍ﴾ تصير ملكاً
لذريتك حيث تعيش أبداً ﴿لَّا يَبْلَى﴾ ملكك أي يبقى جديداً لا يملك قومك
ملالا ولا تمله أنت فتبقى أمراً ناهياً مطاعاً أبداً.

﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَتُهُمَا وَطَفِقَا مَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ
وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا﴾ فأكلا من الشجرة
بعد التحذير، وظاهر السياق أنهما أكلا منها بسبب وسوسة الشيطان، فأقل
أحوال آدم عليه السلام أنها عرضت له شبهة في تعيين الشجرة المنهي عنها فعجل
على الأكل منها ولم يتثبت ويعدل عن المشتبه إلى غيره، لأنه نسي تحذير الله
له من إبليس، ورغب في الشجرة فلم يبالغ في الحذر من الشجرة فأكل منها
على سبيل الغلط.

﴿١٢٢﴾ قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنِّ

﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ﴾ تحققت منه المعصية ﴿فَغَوَى﴾ الغواية ضد الرشد، وهي هنا سوء الحال وما صار فيه من الخروج من الجنة والشقوة بمصيره، حيث يحتاج إلى الكد والتعرض للشمس والصبر على حرها، فالشقوة لما كانت بسبب غوايته صح تسميتها غواية، كقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا﴾ [مريم: ٥٩].

﴿ثُمَّ أَجْتَبَنُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾ قال في (الصحيح): «واجتبه: أي اصطفاه» انتهى، ولعل معناه: أنه وفقه وأرشده للتوبة بتذكيره له بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَنهَكُمَا عَنْ تِلْكَمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [الأعراف: ٢٢] ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾ إما قبل توبته وهو أظهر، وإما تاب عليه ليتوب وهدى لطاعته.

﴿١٢٤﴾ قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴿١٢٥﴾ ﴿أَهْبِطَا مِنْهَا﴾ من الجنة ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ قال الشريفي في (المصابيح): «فالمراد به: آدم وذريته، وإبليس وذريته» انتهى، ونظيره في خطاب المفرد والمراد هو وغيره قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ﴾ [يوسف: ٢٨] وهذا بعد وجود الذرية، أما قبله فإبليس عدو لآدم وحواء، وآدم عدو لإبليس؛ لأنه يبغضه، ولعله يدعو عليه باللعنة، وحواء مثله.

وقوله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ﴾ إما هي إن الشرطية، أو أدغمت نونها في الميم، والمعنى: إن يأتكم ﴿مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ﴾ بكتب الله ورسله ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ﴾ عن طريق الحق ﴿وَلَا يَشْقَى﴾ في الآخرة.

ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى ﴿١٧٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿١٧٥﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا

ويحتمل لا يشقى في الدنيا ولا في الآخرة؛ لأن ما ناله في الدنيا من عنائها وبأسها وبؤسها كله خير له؛ لأنه يعوض على المصائب والأوجاع، ويشاب على الصبر، فما ناله خير له من السلامة منه، فليس شقاوة، وهذا أرجح.

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ ﴿ذِكْرِي﴾ هداي، وهو وحيه النازل على الرسل وآياته الدالة على صدقهم وعلى البعث وغيره من الأصول ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً﴾ في الدنيا ﴿ضَنْكًا﴾.

قال في (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «ضنك: معناه: ضيق» وقال الشرفي في (المصابيح): «الضنك: وصف يستوي في الوصف به المذكر والمؤنث، ومعناه: الضيق والشدة، والمعيشة: ما يعاش به، والمعنى حياة ضيقة في الدنيا» انتهى.

قلت: لا يشكل كثرة أموال بعضهم؛ فإن الله تعالى يقول: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٥٥] وكم من غني يصاب بمرض يحتاج معه إلى ترك كثير من اللذات، فمنهم من يصاب بالسكر، ومنهم من يصاب بارتفاع الضغط، ومنهم من يشتد الخلاف بينه وبين أولاده فيتجرع الغيظ، ومنهم من يخاف عدواً يغرم في مقاومته، ولا يدعه الخوف يستريح، ومنهم من اشتد عليه الحرص فلا يزال في عناء السعي والطلب، ومنهم من يصاب بمرض أهله، وعلى الجملة قد أخبر الله أن له معيشة ضنكاً وهو أصدق القائلين، ولا ينافي ذلك كثرة المال والولد ﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ أي أعمى البصيرة.

فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى ﴿١٦٦﴾ وَكَذَلِكَ نُجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ ۚ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى ﴿١٦٧﴾ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى

﴿١٦٦-١٦٧﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى ﴿١٦٦﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى ﴿١٦٧﴾ لا أجد لنفسي طريقة للنجاة ولا وسيلة للتخلص من العذاب، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «معناه: عمى عن الحجة» انتهى.

﴿١٦٦﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا ﴿١٦٧﴾ أَعْرَضْتَ عَنْهَا وَتَرَكْتَهَا ﴿١٦٨﴾ وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى ﴿١٦٩﴾ تترك في العمى وإِظلام الحال كما عميت في الدنيا عن آياتنا. قال الشريفي في (المصابيح): «عن الناصر الأطروش عليه السلام أنه قال لأنه لما أعرض عن ذكر ربه فضل في الحياة الدنيا وعمي عن أمر ربه وعن التقوى، حشر يوم القيامة على ضلاله الذي هو أعمى [كذا] عن الهدى، ثم بين ذلك - جل ذكره - فقال: ﴿رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا﴾ معنى ذلك: قد كنت أعطيتك بصرًا تبصر به وعقلًا تعقل به أمري وتعرف به آياتي وأمري، ومعنى نسيت تركت ذلك فعاقبتك بأن تركتك من لطفي ورحمتي، وحشرتك على ضلالك وكفرك لنعمتي» انتهى. ومراده: ونحشره يوم القيامة أعمى، أي ضالاً عن الحق لا يبصر ببصيرته كما كان في الدنيا، والمعنى متقارب.

﴿١٦٦﴾ وَكَذَلِكَ نُجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ ۚ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى ﴿١٦٧﴾ وَكَذَلِكَ الْجُزْءُ الَّذِي هُوَ حَشَرُهُ أَعْمَى وَنَسِيَانُهُ ﴿١٦٨﴾ نُجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ ۚ أَسْرَفَ فِي الْعَصْيَانِ بِالْغَيْرِ أَوْ أَكْثَرَ مِنَ الْكِبَائِرِ ﴿١٦٩﴾ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ لَهُ ﴿١٧٠﴾ أَشَدُّ مِنْ حَشَرِهِ أَعْمَى وَنَسِيَانُهُ.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ ﴿١٢١﴾ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا

﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ قال في (الكشاف): «فاعل لم يهد الجملة بعده، يريد ألم يهد لهم هذا بمعناه ومضمونه، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ * سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات: ٧٨-٧٩] أي تركنا عليه هذا الكلام، ويجوز أن يكون فيه ضمير الله أو الرسول، ويدل عليه القراءة بالنون» انتهى.

فأما تعدية (يهد) باللام فلتضمينه معنى: (يبين) وقوله تعالى: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ﴾ أي أمّا كثيراً، وقوله: ﴿يَمْشُونَ﴾ أي قريش يمشون ﴿فِي مَسْجِدِهِمْ﴾ فيرون آثارهم المذكرة بهم، ففيهم عبرة لهم ليحذروا الهلاك فيؤمنوا بالله ورسوله.

قال بعض المفسرين: «وهم يمشون في مساكنهم كما كانت تمر أهل مكة في أسفارهم بمساكن عاد بـ (أحقاف اليمن) ومساكن ثمود وأصحاب الأيكة بالشام، ومساكن قوم لوط بفلسطين» انتهى.

وقوله تعالى ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ أي إهلاكنا للأمم الكثيرة التي ﴿يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ﴾ ﴿لَآيَةً لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ أي لأهل العقول الذين يستعملونها ويفكرون، قال في (الصحيح): «والنّهية - بالضم - واحدة النهي، وهي العقول؛ لأنها تنهى عن القبيح» انتهى، وفي إهلاك الأمم بالعذاب النازل بهم آيات، منها: أنها تدل على قدرة الله تعالى وعلمه، وأنه غير غافل عما يعمل الظالمون ولا مهمل لهم، بل يعاقبهم عقاباً شديداً.

وَمِنْ ءَانَايَ أَلَيْلٍ فَسَبَّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى ﴿١٢﴾ وَلَا تُمَدِّنْ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ

﴿١٢﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ ﴿الراجع: أن الكلمة قوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [مرد: ١١٩] وهي مؤجلة إلى أجل مسمى عنده أي مدلولها، فهي كافية في تعذيب الكفار، وهي سبب إمهالهم في الدنيا؛ ليكون الإمهال في الدنيا حجة عليهم في يوم القيامة ﴿لَكَانَ لِزَامًا﴾ أي عذاب هؤلاء كما عذبنا القرون الأولى ملازماً لهم كلما كفر كافر عذب في العاجل.

وقوله تعالى: ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ أي وأجل هؤلاء الكفار مسمى أي لولا كلمة سبقت من ربك يا محمد وأجل مسمى لهم لكان عذاب هؤلاء الكافرين بك لازماً لهم أي ملازماً عاجلاً لا يفارقهم، فقوله تعالى: ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ أنهم لا يتركون في العاجلة بل يهلكون بعد أجل لهم مسمى كما لكل أمة أجل من الأمم المهلكة قبلهم.

﴿١٣﴾ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ ءَانَايَ أَلَيْلٍ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى ﴿١٤﴾ فَاصْبِرْ ﴿يا رسول الله﴾ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴿من التكذيب والباطل المؤذي واثبت على أمرك فلهم نهاية محدودة وأجل مسمى﴾ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴿.

قال الشرفي في (المصابيح): «وأما قوله: ﴿وَسَبِّحْ﴾ فهو كقوله: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: ٤٥] قلت: هذا غير بعيد، ومثله في آخر (سورة الحجر): ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ * وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿[آية: ٩٧-٩٩].

والأرجح: أنه أمر له بالعبادة التي تخصه غير الإشتغال بهم تعبداً له ﷺ لينال أجر ذلك في الآخرة؛ ولذلك قال: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ ومثله ما نحن فيه.

قال الشرفي رحمه الله: «وقوله: ﴿يَحْمَدُ رَبَّكَ﴾ في موضع الحال أي فسبح - في (نسخة المصابيح) سبح - وأنت حامد ربك على أن وفقك للتسبيح وأعانك عليه» انتهى.

قال: «والمراد بقوله: ﴿قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ﴾ يعني صلاة الفجر ﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ الظهر والعصر ﴿وَمِنْ عَائِيِ اللَّيْلِ﴾ ساعاته أي ومن ساعات الليل فسبح أي فصل المغرب والعشاء الآخرة» انتهى، والأولى أن التسبيح على حقيقته، وأن المراد به في الصلوات المذكورة؛ لأنه في غيرها تطوع وهنا مأمور به، وجعل الظهر من الصلوات المذكورة في هذه الآية محل النظر، ولعل صلاة الظهر لم تجب إلا بعد نزول هذه الآية، وإن كانت متقدمة في الإسلام قبل الهجرة.

وقوله تعالى: ﴿وَأَطْرَافَ النَّهَارِ﴾ أوائله وأواخره، وليس هذا تكراراً فالأمر الأول ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ وقته محدود، والثاني ﴿وَمِنْ عَائِيِ اللَّيْلِ﴾ فسبح وقته غير محدود؛ ولعل هذا من التطوع لأن فرض صلاة الليل كان قد سبق في (سورة المزمل) فيحمل التسبيح هنا: على أنه من بعد صلاة الفجر، وأواخر النهار فوقته أطراف النهار ﴿وَمِنْ عَائِيِ اللَّيْلِ﴾ فسبح في أوله وآخره وأثنائه عند القيام للتهجد ﴿لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾ أي رجاء الثواب الذي يرضيك في الآخرة، كقوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾

وَرَزَقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿١٦﴾ وَأَمْرٌ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَأَصْطَبِرَ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعِيقَابُ لِلتَّقْوَى ﴿١٧﴾ وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ ۚ

وقد يقال: إن وقت التسبيح محدود بقوله تعالى: ﴿وَأَطْرَافَ النَّهَارِ﴾.

قلت: الأطراف وقت ممتد يختلف اعتباره طرفاً باعتبار أوله أو باعتباره آخره، وذلك يناسب التطوع، بخلاف التحديد بطلوع الشمس وغروبها فهو معين يناسب الفرض، وقوله تعالى: ﴿وَأَطْرَافَ النَّهَارِ﴾ كقولنا أوائله وأواخره، وفائدة ذلك أن لا يتوهم أول جزء وآخر جزء فقط ليكثر التسبيح.

ولا يقال: إن قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ﴾ [مرد: ١١٤] في الفريضة وليس المراد به آخر جزء؛ لأننا نقول: إن الطرف الأول قد فهم من غيرها وكذا الطرف الثاني، والفريضة محدودة، فلا يفهم من هذه الآية إلا توسيع وقت صلاة الفجر وصلاة العصر لا تكثير الفريضتين، نعم وقول الشرفي: «أي سبّح وأنت حامد ربك» مستقيم، والحمد على كل نعمة غير خاص بنعمة إلهام التسبيح والتوفيق له.

﴿وَلَا تُمَدِّنْ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ ﴿وَلَا تُمَدِّنْ عَيْنَيْكَ﴾ لا تنظر نظر استحسان وإعجاب ﴿إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ﴾ أصنافاً من الكفار؛ ولعل تنويعهم باعتبار تنويع نعمتهم، أو باعتبار تنوع كفرهم، وقوله تعالى: ﴿زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي ما متعناهم به زهرة الحياة الدنيا فهو متاع قليل، فالآية هذه كقوله تعالى: ﴿لَا يَغُرُّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ * مَتَاعٌ قَلِيلٌ﴾

فأما نصب ﴿زَهْرَةَ﴾ فقال في (مغني اللبيب) [ص ٥٢٢- ٥٢٣ طبعة دار الفكر]:
«والصواب: إن ﴿زَهْرَةَ﴾ مفعول بتقدير جعلنا لهم أو آتيناهم، ودليل ذلك
التمتع، أو بتقدير أذم؛ لأن المقام يقتضيه، أو بتقدير أعني بياناً لما أو
للمضمير...» الخ، وإذا كان زهرة الحياة الدنيا فهو فتنة.

وقوله تعالى ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ أي لنبتليهم فيه، وهذا المعنى غير معنى قوله
تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥] ففي هذه الآية الإبتلاء فيه،
وفي الثانية الإبتلاء به، فالفتنة هنا الأمر بالإيمان والطاعة لله ورسوله في
ثروتهم المطغية لهم التي هي سبب كبرهم وامتناعهم من الإيمان والطاعة،
والله أعلم، وفيها مأخذ أن المال الذي بأيديهم من الله، وقد حكى عن
المطرفة الخلاف في ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَرَزَقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ أي رزق ربك لك خير؛ لأنه لا
يشغلك عن ذكر الله ﴿وَأَبْقَى﴾ لأنه في الدنيا والآخرة.

﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعِيقَابُ لِلتَّقْوَى﴾ ﴿أَهْلَكَ﴾ قرابتك ونساءك، كما قال تعالى: ﴿قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحریم: ٦] وقد جاء في (حديث الكساء) تفسير أهل البيت
بأهل الكساء، وعندي أن الأهل وأهل البيت يختلف.

وأما تفسير ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ﴾ أي قومك، فلعله من التطبيق بناء
على أنه يفهم منه أمر القوم بطريق الأولى - والله أعلم - ومن البعيد أمر
القوم بالصلاة في حال نزول هذه السورة؛ لأنها مكية، وكان أكثر قومه عليه السلام
مكذبين، قال تعالى: ﴿وَكَلَّبَ بِهِ قَوْمَكَ وَهُوَ الْحَقُّ﴾ [الأنعام: ٦٦].

أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى ﴿٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَنْ نُنْذَلَ

وقد جاء في الروايات: عن أنس أن رسول الله ﷺ كان يمر بباب فاطمة ستة أشهر إذا خرج إلى صلاة الفجر يقول: «الصلاة يا أهل البيت ﴿٣٣﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾» [الأحزاب: ٣٣] انظر (الإعتصام) [الجزء الأول ص ٦٩] وما بعدها.

وقوله تعالى: ﴿وَأَصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ أي صبر نفسك عليها، وكأنه أبلغ من اصبر لزيادة تاء الإفتعال المقلوبة طاء، فهو مطاوع صبر فهو مشعر بانقياد النفس للصلاة والله أعلم ﴿لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا﴾ كقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ﴾ [الذاريات: ٥٦-٥٧] ﴿لَا نَحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ فلم نخلقك إلا للعبادة ﴿وَالْعِيقَبَةُ لِلِتَّقَوِي﴾ فهي خير من متاع الكفار الذاهب.

﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى ﴿وَقَالُوا﴾ تكرر في هذه السورة ذكر إنزال القرآن وإفادته مرات، فالوها: ﴿طه * مَا أُنْزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى * إِلَّا تَذْكِرَةٌ لِّمَن يَخْشَى﴾ وفي أثناء السورة: ﴿وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾ وفي أواخرها ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي﴾ ومع كون السورة كلها قرآنًا، وتأكيداً لكونه من الله: فالراجع: أن قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا﴾ عطف على معنى ذلك، أي أنزلنا عليك الذكر ﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ أي هلا يأتينا محمد بآية من ربه تدل على أنه رسول، فأجاب الله عن قولهم بقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ فهم يعلمون أن قد جاءت الآيات التي تبين ما في الصحف الأولى كقصص إبليس وآدم،

وَنَحْزَى ﴿١٧٤﴾ قُلْ كُلُّ مُتَرَبِّصٍ فَتَرَبُّوْا ۖ فَسَتَعْلَمُوْنَ مِّنْ أَصْحَابِ الصِّرَاطِ
السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى ﴿١٧٥﴾

وقصة موسى وفرعون، وهم يعلمون أن محمداً أمي لا يقرأ الخط ولم يدرس؛
لأنه في بلد الأميين نشأ حتى نزل الوحي، فدل إتيان ما في الصحف الأولى
على أنه من الله أوحاه إلى عبده محمد ﷺ.

﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا
رَسُولًا فَتَتَّبِعَ ءَايَاتِكَ مِن قَبْلِ أَنْ نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾ ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ أي
قومك الجاحدون فهم كانوا في ضلال مبين، في حروب وأنواع من الظلم
والفساد والشرك، فهم في أمس الحاجة إلى نذير من الله ينقذهم من الضلالة
﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ﴾ أي من قبل القرآن ﴿لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا
أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَتَتَّبِعَ ءَايَاتِكَ﴾ الدالة على صدق الرسول، وجميع
آياتك ﴿مِن قَبْلِ أَنْ نَّذِلَّ﴾ بالعذاب ﴿وَنَخْزَىٰ﴾ به أي نفتضح بنزول
العذاب علينا، العاجل الذي يعلمه الناس كما علموا بعذاب الأمم الأولى،
فقد زالت علتهم وانقطعت حجتهم بهذا القرآن.

﴿قُلْ كُلُّ مُتَرَبِّصٍ فَتَرَبُّوْا ۖ فَسَتَعْلَمُوْنَ مِّنْ أَصْحَابِ الصِّرَاطِ
السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَىٰ﴾ ﴿قُلْ﴾ يا رسول الله ﴿كُلُّ﴾ مني ومنكم ﴿مُتَرَبِّصٌ﴾
لموتي ﴿فَتَرَبُّوْا﴾ تهديد، مثل: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤٠] لأنهم يتربصون
أن يموت الرسول ﷺ فتنتهي دعوته، كما قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ
بِهِ رَبِّ الْمُنُونِ * قُلْ تَرَبُّوْا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ﴾ [الطور: ٣٠-٣١].

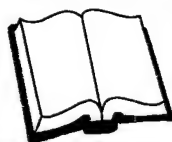
﴿فَسَتَعْلَمُوْنَ مِّنْ أَصْحَابِ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَىٰ﴾ فستعلمون
حين ترون العذاب ﴿مِّنْ أَصْحَابِ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ﴾ الذي لا عوج فيه

وهو دين الله، نحن أم أنتم في كفركم وشرككم، أي فسوف تعلمون أن ديننا هو الصراط السوي، ونحن أصحابه ﴿وَمَنْ أَهْتَدَى﴾ نحن أم أنتم، أي ومن اهتدى للصراط السوي نحن أم أنتم أي سوف تعلمون أنا نحن الذين اهتدينا للصراط السوي، والحمد لله رب العالمين.

تم تفسير (سورة طه) والحمد لله



التيسير في التفسير



سورة الأنبياء



سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِمْ مِّن ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٍ إِلَّا أَسْتَمِعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَا هِيَ قُلُوبُهُمْ وَأَسْرُوا

بدء تفسیر (سورة الانبياء) (عليه السلام)

وهي (مكية) كما يظهر من مواضعها

﴿١﴾ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ قال الشرفي في (المصاييح): «يعني مشركي قريش أطلق اسم الجنس على بعضه للدليل القائم، وهو ما يتلوه من صفات المشركين» انتهى.

قوله تعالى: ﴿أَقْتَرَبَ لِلنَّاسِ﴾ الراجح: أنه مثل تقرب إليهم، يفيد: إقباله إليهم، وأنه في تقدمه إليهم قد قرب، وهذا من أجل (الناء) فأما تعديته بـ (اللام) حيث قال: ﴿لِلنَّاسِ﴾ ولم يقل: (إلى الناس) فلعله مثل: ﴿بَشِّرِ الْمُتَافِقِينَ﴾ [النساء: ١٣٨] ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١] كما لو قيل: اقبل له مكان اقبل عليه.

فهو تهكم بالمعرضين الذين هم خطر عظيم، والأقرب: أنها (لام التعدية) أتى بها لأنه طالب لهم ﴿حِسَابُهُمْ﴾ الذي يترتب عليه جزاؤهم فأضيف إليهم وهو حساب أعمالهم، فقد اقترب منهم الخطر العظيم ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ عنه ﴿مُّعْرِضُونَ﴾ عن المذكر لهم يأبون إلا البقاء على الغفلة، وهذا سوء اختيارهم لأنفسهم.

﴿٢﴾ مَا يَأْتِيهِمْ مِّن ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٍ إِلَّا أَسْتَمِعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ ﴿مِّن رَبِّهِمْ﴾ الذي يدعوهم إلى رحمته والنجاة من عذابه، وكفاهم أنه من ربهم المالك لهم ليصغوا إلى تذكيره ولا يعرضوا عنه، فما أبعدهم من التعقل ومن النظر لأنفسهم، كلما أتاهم ذكر من ربهم استمعوه بدون تفهم وبدون إقبال عليه بقلوبهم، بل مع اشتغال باللعب.

الْجَوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ وَأَنْتُمْ تَبْصِرُونَ ﴿٢﴾ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣﴾ بَلْ قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَمَ بَلْ أَفْتَرَنَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا

﴿٢﴾ ﴿لَا هِيَ قُلُوبُهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ وَأَنْتُمْ تَبْصِرُونَ﴾ ﴿لَا هِيَ قُلُوبُهُمْ﴾ لأنها متوجهة إلى اللعب أو الأغراض الدنيوية، أو النظر في حيلة يردون بها الحجة الواضحة، فهي لا هية بذلك أي منشغلة به، وكأن المراد باللعب: ما هو أعم من المعنى الحقيقي من كل أمر شاغل لا فائدة له تطلب، وإنما يدعو إليه هوى النفس.

﴿وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي وأسر الناس الذين ظلموا، فهو بدل بعض من كل؛ لأن المجادل في آيات الله والمكذب للرسول ظالم أظلم من الغافل الذي لم يجادل ولم يكذب، وإسراهم للنجوى دليل على أنهم قد عرفوا الحجة وعجزوا عن دفعها فأسروا التكذيب لعل إسراهم محاذرة لأن يواجههم الرسول بحجة أخرى أو نحو هذا الغرض، وقولهم ﴿هَلْ هَذَا﴾ أي ما هذا ﴿إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ واستعمال هل لوضوح المنفي وعلم السامع به، وجعلوا ذلك حجة على أنه غير رسول ولا حجة لهم به.

وقولهم: ﴿أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ﴾ تذهبون لسماع القرآن وقبوله، وهو ترتيب بد (الفاء) والاستفهام الإنكاري على ما زعموه حجة وأضافوا دعوى أنه سحر لقوة أثر القرآن في القلوب لما فيه من الإعجاز.

وقولهم: ﴿وَأَنْتُمْ تَبْصِرُونَ﴾ مبالغة في العناد يدعون أنهم يشاهدون الحقيقة التي يخيل السحر خلافها.

﴿٣﴾ ﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [قرأ نافع ﴿قل﴾] يا رسول الله هؤلاء المكذبين: ﴿رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ

بِغَايَةِ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ ﴿٥٥﴾ مَا ءَامَنْتَ قَبْلَهُمْ مِّنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٦﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَسَئَلُوا أَهْلَ

وَالْأَرْضِ ﴿٥٧﴾ أَحَاطَ عِلْمُهُ بِأَقْوَالِ أَهْلِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَهُوَ يَعْلَمُ مَا تَقُولُونَ ﴿٥٨﴾ وَهُوَ السَّمِيعُ ﴿٥٩﴾ الَّذِي مِنْ شَأْنِهِ أَنْ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ صَوْتُ ﴿الْعَلِيمِ﴾ ﴿٦٠﴾ بِمَا يَخْفَى وَمَا يُعْلَنُ وَبِكُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يَحْكُمُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَيَجْزِيكُمْ بِظُلْمِكُمْ.

﴿٥٥﴾ بَلْ قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَمُ بَلْ أَفْتَرَنَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِغَايَةِ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ ﴿٥٦﴾ تَرْقُوا فِي الْبَاطِلِ إِلَى الْقَوْلِ بِلَا مُسْتَنَدٍ وَلَا شَبْهَةٍ حَيْثُ جَعَلُوا الْإِنذَارَ وَالتَّبَشِيرَ وَنَحْوَهُ اسْتِنَاداً إِلَى أَحْلَامٍ كَثِيرَةٍ لَا حُكْمَ لَهَا وَلَا تَأْوِيلَ، ثُمَّ تَرْقُوا إِلَى دَعْوَى أَنَّهُ ﴿شَاعِرٌ﴾ مَعَ أَنَّهُمْ يَعْرِفُونَ الشَّعْرَ لَهُ أَوْزَانٌ مَخْصُوصَةٌ مُتَعَارَفٌ عَلَيْهَا بَيْنَهُمْ، وَلَيْسَ الْقُرْآنُ عَلَيْهَا بَلْ هُوَ - أَيِ الْقُرْآنِ - مُخَالَفٌ لِلشَّعْرِ فِي أَسْلُوبِهِ وَفِي حِكْمَتِهِ وَإِحْكَامِهِ، وَنَزَاهَتِهِ عَنْ خِرَافَاتِ شُعْرَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ، فَدَعَاوَاهُمْ أَنَّهُ شَاعِرٌ مُجْرَدٌ عِنَادٍ وَتَغْرِيرٍ عَلَى الْبَلَاءِ.

وقولهم: ﴿فَلْيَأْتِنَا بِغَايَةِ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾ تجاهل للآية التي أتاهم بها، ودعوى أن القرآن الذي أعجزهم ليس بآية، وقولهم: ﴿كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾ أي أن الرسل الأولين أتوا قومهم بآيات فليأت محمد بآية كما أتوا بآيات إن كان صادقاً.

﴿٥٦﴾ مَا ءَامَنْتَ قَبْلَهُمْ مِّنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٧﴾ جواب عظيم يشتمل على وعيد، نعم أرسل الأولون بآيات ولكن الآيات لم تمنع المتمردين من الكفر ولم تبعثهم على الإيمان، ما آمنوا وقد أتتهم الآيات أفأنتم تؤمنون وأنتم مثلهم، بل أنتم متعرضون للهلاك مثلهم، فكيف تؤمنون وأنتم مثلهم متعرضون للعذاب.

الذِّكْرَ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ
الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ

فقوله: ﴿أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ أي أفهؤلاء المكذبون لك يا محمد يؤمنون
دون الأولين وهؤلاء معاندون مجادلون في آيات الله بالباطل لا يريدون الحق
ولا ينصفون؛ لأنهم لو كانوا منصفين لآمنوا بالقرآن، وفي هذا الجواب شبه
قلب الدليل.

﴿٧﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رَجَالًا يُوحَىٰ إِلَيْهِمْ فَسَأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ
كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ قد أقر هؤلاء المكذبون أن الرسل الأولين قد أرسلوا
فكان هذا حجة عليهم يبطل تعلقهم بأن محمداً ما هو إلا بشر مثلهم فقد
أرسل الأولون وهم بشر رجال يوحى إليهم ربهم، بل لم يرسل إلى الأمم إلا
رجالاً يوحى إليهم، فبطل تعلقهم في تكذيبهم لمحمد بأنه بشر مثلهم،
وكونهم رجالاً معلوم عند أهل الكتب السابقة فاسألوهم عن هذا، فإنهم
يخبرونكم به ﴿إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أنهم كانوا رجالاً.

وليس المراد: أن يقتلوا أهل الكتاب، ولا أن يقبلوا خبرهم في غير هذا،
ولكن المراد: أن يقبلوا خبرهم في أن الرسل كانوا رجالاً وهو الحق ليقطع
ذلك جدالهم، وفيه مأخذ لسؤال أهل العلم عند الجهل، وجعل هذه في أهل
البيت (عليهم السلام) من التطبيق أي بالنظر إلى دلالتها على وجوب السؤال على
الجاهل، وبالنظر إلى أنهم أهل الذكر من حيث أنهم قرناء القرآن بدليل
(حديث الثقلين) وغيره.

وعلى هذا: يحمل ما رواه الحاكم الحسكاني بإسناده عن الحارث، قال:
سألت علياً (عليه السلام) في هذه الآية: ﴿فَسَأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾؟

وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴿١﴾ لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا

قال: والله إنا لنحن أهل الذكر، ونحن معدن التأويل والتنزيل، ولقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أنا مدينة العلم وعلي بابها، فمن أراد العلم فليأتها من بابها» انتهى المراد.

﴿١﴾ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴿٢﴾ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ ﴿٣﴾ وما جعلنا الرسل ﴿٤﴾ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ ﴿٥﴾ بل جعلناهم بشرًا يأكلون الطعام، وهذا رد على قولهم: ﴿٦﴾ هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ﴿٧﴾ باعتبار أنه يأكل كما يأكلون، كما قال بعضهم: ﴿٨﴾ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ ﴿٩﴾ [المؤمنون: ٣٣] لتحقيق المماثلة، فرد الله عليهم أنهم امتازوا بالوحي لا بأنهم ليسوا بشرًا ولا بأنهم لا يأكلون الطعام، قال في (الصحيح): «الجسد: البدن» انتهى المراد.

فالرسل بشر يأكلون الطعام كلهم، وليس ذلك مانعاً من رسالتهم ﴿١٠﴾ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴿١١﴾ فهم يموتون كما يموت سائر البشر، ورسالتهم لا تنافي ذلك ولا ينافيها.

﴿١٢﴾ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴿١٣﴾ ثم بعد إرسال الرسل بالوحي والآيات وبعد تكذيب قومهم لهم، صدقنا الرسل الوعد الذي وعدناهم بنجاتهم ومن آمن معهم، وهلاك أعدائهم المسرفين فأنجيناهم من العذاب الذي أهلكنا به قومهم وأنجيناهم من نساء أن ننجيه ﴿١٤﴾ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥﴾ الذين كذبوهم وجادلوا في آيات الله وعادوا رسلهم، وفيهم عبرة لكم أيها المكذبون لمحمد ﷺ.

ءَاخِرِينَ ﴿١٦﴾ فَلَمَّا أَحْسَوْا بِأَسَنَّا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٧﴾ لَا تَرْكُضُوا
وَأَرْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسْكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَسْأَلُونَ ﴿١٨﴾ قَالُوا يَنْوِيلُنَا إِنَّا

﴿١٦﴾ ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا
إِلَيْكُمْ﴾ أيها المكذبون بالقرآن ﴿كِتَابًا﴾ يبقى مع الأجيال لهدايتهم ﴿فِيهِ
ذِكْرُكُمْ﴾ يبقى لكم مع الأجيال المستقبلية إن آمتم به واتبعتموه تذكرون في كل
جيل فيبقى لكم الشرف إلى يوم القيامة ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ حين خالفتم ما
هو الخير لكم وجادلتهم فيه وحاولتم إبطاله ما هذا بشأن أهل العقول لو
استعملتم عقولكم لآمتم به، فقلوه تعالى: ﴿فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ أي تذكرون بسببه
أي فيه شرفكم ورفع قدركم، كما ذَكَرَ علي عليه السلام، وأبو ذر، وعمار..
وغيرهم.

﴿١٧﴾ ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخِرِينَ﴾
قال الشرفي في (المصاييح): «قال الحسين بن القاسم عليه السلام: القصم في اللغة:
هو الكسر والحطم» انتهى المراد، وفي (الصحيح): «قصمت الشيء قصماً:
إذا كسرتة حتى يبين» انتهى.

فالمراد في الآية كم دمرنا من قرية تدميراً كاملاً، وقوله تعالى: ﴿كَانَتْ
ظَالِمَةً﴾ يبين أن المراد القرية مع أهلها أو الأهل مع القرية كما في (سورة
الإسراء) ﴿فَلَمَّزْنَاهَا تَلْمِيزًا﴾ [آية: ١٦] وقوله تعالى: ﴿وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا
ءَاخِرِينَ﴾ أي خلائف لنبلوهم.

﴿١٨﴾ ﴿فَلَمَّا أَحْسَوْا بِأَسَنَّا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ ﴿أَحْسَوْا﴾ رآوه أو
سمعوه، أي أهل القرية الظالمة ﴿إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ يهربون فراراً من
العذاب الذي هو بأس الله.

قال الشرفي رحمه الله: «قال الحسين بن القاسم عليه السلام: ومعنى الركض الإنكاص والهرب، وأصل الركض تحريك الرجل على الدابة أو على الأرض معروف ذلك في لغة العرب» انتهى المراد.

قلت: التعبير عن الفرار بالركض هو ركض الدابة بعقب القدم لتسرع في سيرها، فأهل القرية حين أحسوا العذاب يركضون وهم ركبان هاربين من العذاب، فأما قول الله تعالى: ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ [ص:٤٢] فهو ركض في مكانه ليس سيراً، لأنه مريض، ضرب برجله فظهر ماء عذب كما قال تعالى: ﴿هَذَا مِغْتَسِلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ [ص:٤٢].

وفي تفسير (الإمام زيد بن علي عليه السلام): «﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا﴾ وَجَدُوا ﴿يَرْكُضُونَ﴾ معناه: يسرعون» انتهى.

﴿لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسْكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَسْأَلُونَ﴾
﴿لَا تَرْكُضُوا﴾ خطاب لهم ليتركوا الفرار، ولعله تهكم بهم كقوله تعالى: ﴿وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ﴾ من الدور وما فيها من الأثاث والنعم المتوفرة ﴿لَعَلَّكُمْ تَسْأَلُونَ﴾ راجين أن تسألوا أي ارجعوا لعلكم تسألون، أما ما هو السؤال عن أي أمر؟ فيحتمل لعلكم تسألون كما كنتم تسألون ما هو رأيكم في كذا؟ والخدم ما نعمل؟ والمحتاجون هل تفضلون علينا؟ وكل ذلك لا يكون وإنما هو تهكم بهم لاشتغالهم بطلب النجاة وفرار الكل من أهل القرية.

ويحتمل: لعلكم تسألون كيف صارت؟ وماذا نزل بها؟ وهو أيضاً تهكم بهم؛ لأنهم مشغولون بأنفسهم يريدون نجاتها، والخطاب هنا والله أعلم إنما هو بلسان الحال كما في نظائر هذا الموضوع من القرآن.

كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوُهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَمِيدِينَ ﴿١٥﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْنٍ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَا

﴿١٤﴾ ﴿١٥﴾ ﴿١٦﴾ قَالُوا يَوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٧﴾ يَوَيْلَنَا ﴿١٨﴾ قد حضر هلاكنا ﴿١٩﴾ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٠﴾ فهو سبب نزول العذاب.

﴿١٤﴾ ﴿١٥﴾ ﴿١٦﴾ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوُهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَمِيدِينَ ﴿١٧﴾ ﴿١٨﴾ ﴿١٩﴾ ﴿٢٠﴾ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ ﴿٢١﴾ أي تلك الكلمة وهي قولهم: ﴿يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ ما زالت ﴿دَعْوُهُمْ﴾ يكررونها ويرددونها ﴿حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا﴾ كالزراع المحصود ﴿خَمِيدِينَ﴾ وسميت دعوى لأنها قامت مقام الدعوى؛ لأن من واجه العقوبة يدعي ما يخلصه منها كمن يدعي الخطأ أو السهو أو الغلط أو الإكراه أو الاضطرار، وهؤلاء لم يجدوا دعوى إلا الإقرار على أنفسهم أنهم كانوا ظالمين وأن ذلك سبب العذاب حتى هلكوا، ويؤكد هذا قوله تعالى في (سورة الأعراف): ﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ * فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [آية ٤-٥] وهذا أحد معنيين رواهما الشرفي عن الحسين بن القاسم، حيث حكى عنه أنه قال: «معنى ﴿دَعْوُهُمْ﴾ أي علتهم وما يدعون من ركافة حجتهم» انتهى المراد.

قال الشرفي: «والخمود الهمود كخمود النار إذا طفئت» انتهى، وقال الراغب: «جعلناهم حصيداً خامدين كناية عن موتهم من قولهم: خمدت النار خموداً طفى لهبها» انتهى.

﴿٢١﴾ ﴿٢٢﴾ ﴿٢٣﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْنٍ ﴿٢٤﴾ هذا من الرد على الكفار الجاحدين للآخرة المكذبين للرسل الذين يقولون: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ [المؤمنون: ٣٧] فلو كان الأمر كما زعموا لما كان في خلق

أَنْ تَتَّخِذَ لَهُوَ لَا تَخَذْنَهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُ

السموات والأرض فائدة، حيث يترك من فيهما لا أمر من الله ولا نهى، ولا اختبار، ولا وعد ولا وعيد، ولا فرق بين المحسن والمسيء، ولا إنصاف للمظلوم من الظالم، لكان خلق العالم لعباً؛ لأنه عار عن الحكمة حينئذ.

تفكر كيف يهلك جيل فيخلفه جيل، ثم يهلك هذا فيخلفه جيل وهكذا تهلك الأجيال وتخلفها أجيال لا تبقى بل لتموت، فلولا الجزاء في الآخرة والفرق فيها بين المحسن والمسيء ولولا إرسال الرسل وأمر المكلفين ونهيهم ولولا الإنذار والتبشير لكان خلق العالم وإهلاكه لا لفائدة ولا لحكمة ولكان ذلك لعباً - تعالى الله عن ذلك - بل هو أحكم الحاكمين.

﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهُوَ لَا تَخَذْنَهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَعِلِينَ﴾ قال الراغب: «اللهو: ما يشغل الإنسان عما يعنيه - ثم قال - : ويعبر عن كل ما به استمتاع باللهو» انتهى المراد.

وفي (الصباح): «ولهوت بالشيء أهو لهواً، إذا لعبت به، وتلهيت به مثله» انتهى، وفي (لسان العرب): «اللهو ما لهوت به ولعبت به وشغلك من هوى وطرب ونحوهما» انتهى، وهاهنا اللهو بمعنى اللعب، أو شامل له؛ لأن السياق يقتضي ذلك. قال الشرفي في هذا الموضع: «واللهو واللعب بمعنى» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿لَا تَخَذْنَهُ مِنْ لَدُنَّا﴾ أي غير خلق السماء والأرض وما بينهما؛ لأن اللعب يكون مما يشتهي الناظرون أو يلتذ به السامعون أو نحو ذلك، وقدرته تعالى وعلمه لو صدر اللعب واللهو من عنده يناسبهما أن يكون ما يتخذه سبحانه وتعالى في غاية الإتقان يفوق في لذته كل لهو؛ لأنه قادر على كل شيء، وعليم كيف يتقن الصنع.

مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١١﴾ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿١٢﴾ أَمْ اتَّخَذُوا إِلَهًا مِّنْ

فحاصل المعنى: أن السموات والأرض وما بينهما لا بد أن يكون خلقها لحكمة؛ لأنه سبحانه حكيم، ولم يخلق هذه الدار للهو؛ لأنه لو أراد أن يتخذ هوأً لأتقن صنعه ليكون هوأً فائقاً لكل هو لا كصنع السموات والأرض وما بينهما الذي ليس من اللهو، فلا بد أن هذا العالم خلق لحكمة وعلى الكفار أن لا يجحدوا الحكمة ولا يعتبروه هوأً ولعباً ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١].

وقوله تعالى: ﴿إِنْ كُنَّا فَعَلِينَ﴾ تأكيد للشرط الذي هو ﴿لَوْ أَرَدْنَا﴾ للدلالة على أن هذا مجرد فرض وتقدير لا يكون أبداً؛ لأنه لا يليق بحكمته وغناه عن كل شيء.

﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ﴾ أي نرمي به الباطل فيبطله، شبه بإلقاء الحجر أو نحوه في رأس إنسان أو غيره ﴿فَيَدْمَغُهُ﴾ يصيب دماغه ﴿فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ هالك ميت كذلك ينزل الحق فيظهره ويبطل الباطل، وقوله: ﴿بَلْ﴾ إضراب عن فرض اتخاذ اللهو، أي سبحانه بل يحق الحق ويبطل الباطل ﴿وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ وعيد للكفار لجحدهم البعث وإرسال الرسول.

﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ * يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ..﴾ فهو المستحق لأن يعبدوه، والملائكة المقربون ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ لأنهم يؤمنون به ويعلمون أنه ربهم المستحق للعبادة ﴿وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ لا يقطع عبادتهم تعباً، بل ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾.

الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ ﴿٦﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَهِةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَنَ اللَّهُ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٧﴾ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴿٨﴾ أَمْرٌ

قال في (الصحيح): «وحسر البعير يحسر حُسُوراً: أعى، واستحسر وتحسر مثله» انتهى، قال في (لسان العرب): «الإعياء: الكلال» انتهى، وعبرة الراغب: «الإعياء: عجز يلحق البدن من المشي» انتهى.

ولعل زيادة (السين) لأنهم لا يطلبون الانقطاع لو تعبوا ولا يريدونه؛ لأنهم يسبحون برغبة دائمة، فأما (صاحب الكشف) فقد جعل زيادة الحروف تدل على زيادة المعنى، قال: «فإن قلت: الاستحسار مبالغة في الحسور، فكان الأبلغ في وصفهم أن ينفي عنهم أدنى الحسور قلت: في الاستحسار بيان أن ما هم فيه يوجب غاية الحسور وأقصاه وأنهم أحقّاء لتلك العبادات الباهظة بأن يستحسروا فيما يفعلون» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ﴾ أي الليل كله ﴿وَالنَّهَارَ﴾ أي كله، وهذه فائدة إسناد الفعل إلى الليل والنهار بدون (في) ولو قال: (في) ما أفاد ذلك العموم ليل كله والنهار كله وكأن العموم جاء من التعريف بال؛ لأن المنكر لا يفيد نحو: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١] وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَّاتًا أَوْ نَهَارًا﴾ [يونس: ٥٠].

﴿أَمْرٍ آتَّخَذُوا إِلَهًا مِّنْ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ﴾ هذا كقوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا﴾ إلى قوله ﴿وَلَا نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٣] فالمعنى: أن المشركين اتخذوا آلهة لا تنشر أي لا يحيون ميتاً ﴿أَمْرٍ آتَّخَذُوا﴾ بل اتخذوا ﴿إِلَهَةً﴾ مصنوعة ﴿مِّنْ الْأَرْضِ﴾ هم يحيون الموتى فتكون لهم شبهة في عبادتهم؟!

أَتَّخِذُوا مِن دُونِي ^طءَالِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ^طهَذَا ذِكْرٌ مِّن مَّعِيَ وَذِكْرٌ مِّن قَبْلِي ^طبَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن

﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَا ^طءَالِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ^طفَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَا ^طءَالِهَةٌ ﴿٢٣﴾ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ كَمَا يَزْعُمُ الْمُشْرِكُونَ ﴿٢٤﴾ لَفَسَدَتَا ﴿٢٥﴾ أَي لَفَسَدَتِ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ لَمَا يَكُونُ بَيْنَهُمُ مِنَ التَّنَازُعِ وَالْاِخْتِلَافِ عَلَى الْعَبِيدِ الَّذِينَ لَمْ يَخْلُقُوهُمْ وَلَا رَزَقُوهُمْ، وَشَأْنُ كُلِّ مُتَعَدِّدٍ يَدْعُوْنَ الْوَلَايَةَ عَلَى مَا لَيْسَ لَهُمْ وَلَيْسَ لَهُمْ فِيهِ حَقٌّ أَنْ يَخْتَلِفُوا؛ لِأَنَّ اسْتِيلَاءَهُمْ عَلَى مَا لَيْسَ لَهُمْ يَدْعُوهُمْ الدَّاعِي إِلَيْهِ إِلَى مُحَاوَلَةِ الْاسْتِيلَاءِ عَلَى غَيْرِهِ فَيُؤْذِيهِمْ ذَلِكَ إِلَى الْاِخْتِلَافِ وَالتَّنَازُعِ وَالتَّهَابِ لَمَا تَحْتَ أَيْدِيهِمْ مِمَّا يَسَبِّبُ لِفَسَادِ التَّنَازُعِ فِيهِ وَاِخْتِلَالِ نِظَامِهِ.

وقوله تعالى: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ فسبحان الله أي بعد وتزهد عما يصفون في جعلهم له شركاء فهو منزعه عنهم من حيث ادَّعَوْهُمُ وَلَدًا لِلرَّحْمَنِ، ومنزعه عنهم من حيث ادَّعَوْا أَنَّ اللَّهَ شَاءَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ عِبَادَةَ شُرَكَائِهِمْ، ومنزعه عن أن يقرن في إلهيته بخرافة شرك شركائهم، ومنزعه أن يكون له ند كما زعموا له أنداداً، و﴿الْعَرْشِ﴾ الملك، فمعناه: مالك الملك سبحانه عن أن يجعل له عباده شركاء، وهو مالكهم ومالك الملك كله.

﴿٢١﴾ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْأَلُ ﴿٢٣﴾ لِأَنَّهُ مَالِكُ الْمَلِكِ، وَكُلٌّ مِّنْ سِوَاهِ عَبْدٍ مُّرَبُوبٍ ﴿٢٤﴾ وَهُمْ ﴿٢٥﴾ أَي الْعِبَادُ أَوِ الَّذِينَ اتَّخَذَهُمُ الْمُشْرِكُونَ آلِهَةً مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَغَيْرِهِمْ ﴿٢٦﴾ يُسْأَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا قَدَّمُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا؛ لِأَنَّهُمْ عِبَادُ اللَّهِ مُرَبُوبُونَ.

﴿٢٨﴾ أَمَّا اتَّخَذُوا مِن دُونِي ^طءَالِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ^طهَذَا ذِكْرٌ مِّن مَّعِيَ وَذِكْرٌ مِّن قَبْلِي ^طبَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٢٩﴾ أَمَّا إِضْرَابُ

قَبْلَكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٦٥﴾ وَقَالُوا
أَتَأْخُذُ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۚ سُبْحَنَهُ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ

عن إثباتهم آلهة أهو إثبات لألهة ينشرون؟ إلى سؤال آخر. بل ﴿أَتَأْخُذُوا مِنْ دُونِهِ﴾ أي من دون الله رب العرش ﴿ءَالِهَةً﴾ ومعنى ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ وسائط بينهم وبين الله يعتبرونهم أقرب إليهم من الله ليكونوا لهم وسيلة إلى الله أو لينفعوهم وينصروهم، لا بمعنى أنهم أنداد لله - عز وجل - .
﴿قُلْ﴾ يا رسول الله ﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ إن كنتم صادقين؛ لأنه منكم اتباع هوى الأنفس بلا دليل وهاتوا برهانكم على زعمكم أن الله شاء منكم عبادتهم ﴿هَذَا ذِكْرٌ مِّنْ مَّعِي وَذِكْرٌ مِّنْ قَبْلِي﴾ هذا القرآن ذكر من معي تذكير من معي يهتدون به إلى توحيد الله ونفي الشركاء ﴿وَذِكْرٌ مِّنْ قَبْلِي﴾ من الأمم ذكرتهم به أنبيأؤهم، أي معنى هذا القرآن ذكر من قبلي، فالإشارة إلى القرآن باعتبار معانيه ودلالاته.

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ﴾ أي أكثر المشركين ﴿لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ﴾ لإهمالهم عقولهم ﴿فَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ عن هذا القرآن لا يلتفتون إليه ليعلموا الحق ويتذكروا للنظر، ولو استعملوا عقولهم فنظروا في الآيات الكونية، لعرفوا الله وعدله وأنه حكيم، وأنه ليس من شأنه إهمال عباده، وتركهم بلا رسول ولا إرشاد ينظم مجتمعهم وكيف يتعاملون ويتخلصون من التناهب والتظالم وفساد المعيشة، ولو عرفوا ذلك لما أعرضوا عن الرسول حين جاءهم بالقرآن الحكيم، وفي هذه الآية أن علم الحق هو بالنظر واستعمال العقول حتى لا يعرضوا عن الوحي عند نزوله.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ ﴿نُوحِي إِلَيْهِ﴾ يوحى الله إليه ﴿أَنَّهُ﴾ أي الشأن ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ وحدي لا تشركوا، فالتوحيد دين الله ورسله كلهم أجمعين.

بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٤٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٨﴾ وَمَنْ يَقُلْ

وقوله: ﴿فَاعْبُدُونِ﴾ يفيد: أنه لا عبادة لله إلا عبادة من أخلص عبادته لله لم يشرك معه غيره؛ لأنه تعالى فرع الأمر بالعبادة له على توحيده، فدل على أن المراد عبادة الإخلاص وأنها هي عبادته.

﴿٤٨﴾ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالُوا أَيُّ الْمَشْرُوكِ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ وَمَنْ حَوْلَهَا الَّذِينَ يَعْبُدُونَ الْمَلَائِكَةَ زَعَمُوا أَنَّهُمْ أَوْلَادُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، وقوله: ﴿سُبْحَنَهُ﴾ أي تنزيهاً وتبعيداً له عن اتخاذ الولد؛ لأنه الغني، وقوله تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ﴾ أي بل هم أي الملائكة عباد الله مملوكون ﴿مُكْرَمُونَ﴾ بالهداية لتقوى الله وعبادته والعصمة من معصيته.

﴿٤٩﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٥٠﴾ لَا يَسْبِقُونَ الرَّحْمَنَ بِالْقَوْلِ لَا يبادرون قوله بقول، بل لا يقولون إلا ما علمهم ﴿وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ لا يعصون الله ما أمرهم كائناً ما كان، ولو كان تعذيب من يعبدهم.

﴿٥٠﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٥١﴾ يَعْلَمُ أَيُّ اللَّهِ يَعْلَمُ ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ ما يستقبلونه من أعمالهم وأحوالهم ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ الماضي من أعمالهم وأحوالهم، فخبّره عنهم أنهم لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون، خبر عن علم؛ لأنه علام الغيوب.

﴿٥١﴾ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ ﴿٥٢﴾ رَدَّ عَلَى الْمَشْرِكِينَ الَّذِينَ يَعْبُدُونَهُمْ وَيَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ شُفَعَاؤُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَهُمْ لَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَاهُ اللَّهُ وَهُمْ الْمُؤْمِنُونَ.

مِنْهُمْ إِنَّ إِلَهَ مَنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٢١﴾ أُولَئِكَ يَرَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا

كما قال تعالى في بعض الأنبياء: ﴿وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ [مريم: ٥٥] وهو إسماعيل عليه السلام، وقال تعالى حاكياً عن زكريا: ﴿وَاجْعَلْهُ رَبُّ رَضِيًّا﴾ [مريم: ٦] والمرضي عند الله هو المتقي، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿.. رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ [البينة: ٧-٨].

والشفاعة للمؤمنين، من الملائكة لحبهم لهم، قال تعالى: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ * رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَذْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [غافر: ٧-٨].

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ قال الراغب: «الخشية: خوف يشوبه تعظيم» انتهى، ومن حيث أن الخشية خوف والإشفاق مسبب عنها فلا بد أن الإشفاق، المحاذرة ومحاولة النجاة لا مجرد الخوف، قال الراغب: «الإشفاق: عناية مختلطة بخوف» انتهى، وقال في (الصحاح): «وإذا قلت أشفقت منه فإنما تعني حذرته» انتهى.

قال الشرفي: «﴿وَهُمْ مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ خائفون حذرون من أن يفرط منهم فرطه» انتهى المراد.

﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ ﴿وَمَنْ يَقُلْ﴾ أي لو قال ﴿مِنْهُمْ﴾ أحد؛ لأن مَنْ حرف شرط لا يدل على وقوع شرطه في المستقبل ولا في الحال.

وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦٠﴾ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٦١﴾ وَجَعَلْنَا

وقوله تعالى: ﴿مِنْهُمْ﴾ أي من الملائكة ﴿إِنِّي إِلَهُ مَنْ دُونِهِ﴾ أي من دون الله ﴿فَذَلِكَ﴾ القائل ﴿نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾ يعذب فيها ﴿كَيْذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ سماه ظالماً لأن الشرك ظلم عظيم، ومن قال ﴿إِنِّي إِلَهُ﴾ قد أشرك بجعل نفسه شريكاً لله سبحانه في الإلهية.

﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿أَوَلَمْ يَرَ﴾ مقدمة لذكر آية عجيبة لا لإثبات الرؤية ولا للتوبيخ على عدم الرؤية ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالآخرة استبعاداً لإحياء الجسد بعد موته ﴿أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا﴾ مخلوطتين كالشيء الواحد، أو كانتا شيئاً واحداً.

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «معناه: كانت السموات والأرض واحدة فتتق من الأرض سبع أرضين، ويقال: فتق السماء بالمطر والأرض بالنبات» انتهى.

ويمكن على ما روي من قول الإمام زيد عليه السلام: كانت واحدة، أن السموات والأرض كانت شيئاً واحداً هو الماء، كما روي عن الإمام علي عليه السلام في (نهج البلاغة): «فأحرق الله بالنار زبده بعد مخضه بالرياح، فخلق السماء من دخانه والأرض من حراقة الباقية» وهذا يناسبه قوله تعالى في الآية هذه عطفاً عليه: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ فالسماء من الماء والأرض من الماء، وكل حي من الماء، ويناسب كون السماء والأرض مخلوقتين من الماء قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ [مود: ٧].

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «معناه: العز والسلطان» انتهى، فعزه وسلطانه تعالى على الماء، بولايته عليه ونفوذ أمره فيه.

وقد حكى الشرفي في (المصاييح): «عن الهادي يحيى بن الحسين عليه السلام تفسيراً لقول الله تعالى: ﴿كَانَتْ رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ وحكى فيه عن أمير المؤمنين علي عليه السلام أنه قال: فلما خلق الله تبارك الله وتعالى الماء والرياح أوحى [إلى] الرياح بأن [تقصف] [تقصف] [كذا] وتهيج غوارب الماء وأمواجه فهبجت أمواجه وزعزعت ساكنه فارتعدت غواربه فتراكم زبده وعظم أمره، ثم أوحى الله إلى النار فأحرقت ذلك الزبد فثار منه دخان فصعد في الهواء وبقي حراقة الزبد على ظهر الماء حفا [لعل الصواب: جفاء بجيم وفاء وهمزة - تمت منه] فخلق الله تبارك وتعالى الأرض من تلك الحراقة حراقة الزبد وخلق السموات من ذلك الدخان كما قال سبحانه: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [نصبت: ١١].

فقد يمكن أن يكون معنى قوله: ﴿فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ هو ميزناهما من أصل واحد وخلقناهما فجعلنا السماء من دخان ذلك الشيء والأرض من حثالته، وهذا عندي من أحسن ما أرى فيه من القول والله سبحانه [أعلم] وبذلك أحكم ولا أتوهم أنه يصح قول خلاف هذا يثبت [في نسخة (المصاييح) خالية من النقط، والراجح: أنه غلط، وأن الصواب: يثبت] على المطالبة ويمكن في المناظرة» انتهى.

قلت: لعله نظر إلى قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ [نصبت: ١١] فرأى أن هذا التفسير هو الذي يوافقها، فأما قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ أي خلقنا من الماء كل شيء حي، أي كل دابة، وكل طائر، وكل سمك، ويحتمل: عموم الآية للشجر أو جعل أصل كل شيء حي الماء.

قال الشرفي: قال في (البرهان): «يعني كل حيوان يدب على الأرض أو يتحرك بشيء من الأشجار من الماء، وجعل حياته منه وحفظ صحته» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي أفلا يؤمنون بالله وقدرته على كل شيء وعلمه بكل شيء، وهذه آياته الكونية تدل عليه وآياته القرآنية تدل عقولهم عليها، أبعد هذا لا يؤمنون ينكر عليهم ترك الإيمان به بعد وضوح الدلائل عليه.

﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِي أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ ﴿رَوَاسِي﴾ أي جبالاً رواسي ثابتة في أماكنها، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «فالرواسي: الجبال الثابتة» انتهى.

وقوله: ﴿أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ﴾ أي لتحفظها الجبال الرواسي من الميدان أي من التحرك حركة اضطراب وتزلزل، قال في (لسان العرب): «وقال أبو العباس في قوله: ﴿أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: ١٥] فقال: تَحَرُّكُ بِكُمْ وَتَزَلْزَلُ» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «معناه مسالك، واحدها: فج» انتهى، والضمير هنا للجبال تتخللها الفجاج لتكون ﴿سُبُلًا﴾ قال في (الصحاح): «الفج: الطريق الواسع بين الجبلين» انتهى.

والفج قد يكون في الجبل إذا كان فيه منخفض منه متسع بين مرتفعين فلذا جوزت أن الضمير للجبال؛ لأن الفج فيها أو بينها إذا كان بين جبلين، وكلام الإمام زيد عليه السلام، يعمهما، ويحتمل: أن الضمير للأرض كقوله تعالى: ﴿لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ [نوح: ٢٠] والراجع هنا: هو الأول، ليدل على الآية في خلق الجبال تتخللها الفجاج التي تصير سبلاً؛ لأن الجبال لو اتصل بعضها ببعض وكانت أعاليها مرتفعة كلها على شكل واحد لتعسر الخروج

السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٦﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۚ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿١٧﴾ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ

من أرض إلى أرض خلف الجبل، ولم تتعين جهة منه للسالك، فكانت كل ناحية منه يمكن الصعود فيها والنزول منها تصلح أن تجعل سبيلاً، وبذلك تصعب معرفة السبيل في الجبل، فقال تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ يعرفون من أين يسلكون لوجود الفج الذين يتعين الخروج منه لسهولة، ويحتمل: لعلمهم يهتدون لمعرفة الله تعالى بما يرون من آياته ونعمه في الجبال.

﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ ﴿١٦﴾ ﴿سَقْفًا﴾ للأرض كسقف البيت في أنه سقف، أما السماء فهي سقف للأرض من كل جهاتها، فأينما صار الإنسان من الأرض فالسما فوقه، فهي محيطة بالأرض وبما بينهما، وقوله تعالى: ﴿مَحْفُوظًا﴾ الراجع أن معناه محفوظاً من كل شيطان رجيم ﴿وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ لا يتفكرون فيها لأنهم مهملون لعقولهم، والراجع: أن من آياتها البروج التي هي منازل الشمس والقمر؛ لأن الإنسان يعتبرها في السماء فهي مضافة إلى السماء في اعتبار الإنسان.

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۚ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ ﴿١٧﴾ ﴿خَلَقَ اللَّيْلَ﴾ قدره بما يناسب الإنسان والحيوان والشجر فجعله لا يطول حتى يضر ذلك طوله، ولا يقصر حتى تقل فائدته أو تعدم، وكذا تقدير النهار والشمس جعلها بمقدار ما يحتاجها لشعاعها وضياؤها، والقمر بمقدار يصلح انقسامه أهلة فما فوقها حتى يتم، ثم ينقص حتى يغيب فيكون ذلك لمدة شهر، وبالقمر وسيره يتحدد الشهر، وبالشهور تتحدد السنة.

مِّن قَبْلِكَ ^طالْخُلْدَ أَفَإِنَّ مِتَّ فَهُمْ ^{١٦}الْخُلْدُونَ ﴿١٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ ^طوَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِذَا رَأَوْا كُفْرًا

وقوله تعالى: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ فالشمس تسبح أي تجري في منازلها، وكذا القمر، والليل والنهار يتخالفان على جهات الأرض، فيكون النهار في جهة يسبح، والليل في جهة أخرى يسبح، ثم يخلف الليل النهار، وهكذا كل منهما يطلب الآخر طلباً حثيثاً، وكل منهما يعقب الآخر حيث كان، ولا حاجة لجعل الضمير للشمس والقمر دون الليل والنهار، ولا لتقدير النجوم مع الشمس والقمر بل كل الأربعة تسبح.

قال (صاحب الكشف): «وإنما جعل الضمير واو العقلاء للوصف بفعلهم وهو السباحة» انتهى.

وجملة ﴿يَسْبَحُونَ﴾ إما خبر للمبتدأ الذي هو ﴿كُلٌّ﴾ فقوله: ﴿فِي فَلَكٍ﴾ متعلق بـ ﴿يَسْبَحُونَ﴾ وإما حال من ﴿فِي فَلَكٍ﴾ والخبر: ﴿فِي فَلَكٍ﴾ أي كل في فلک حال كونه يسبح، وإما خبر بعد خبر، والراجع الأول، والأفلاك مجاريها التي قدرها الله لها فللشمس فلک وللقمر فلک وللليل فلک وللنهار فلک، وكل واحد يسبح في فلک.

﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ^طالْخُلْدَ أَفَإِنَّ مِتَّ فَهُمْ ^{١٦}الْخُلْدُونَ * كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ ^طوَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ يا رسول الله ﴿الْخُلْدَ﴾ أي البقاء في الحياة ﴿أَفَإِنَّ مِتَّ فَهُمْ ^طالْخُلْدُونَ﴾ لعل هذا رد على الكافرين في قولهم: ﴿نَتَرَبَّصُّ بِكَ يَا رَبَّ الْمُنُونِ﴾ [الطور: ٢٠] كأنهم لا يموتون ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ منك ومنهم ومن غيركم ﴿ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ﴾ تجذ ألمه، شبه وجدان ألمه بذوق الشيء المر.

إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوءًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُمْ يَذْكُرِ
الرَّحْمَنَ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٥٧٧﴾ خُلِقَ الْإِنْسَنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُورِيكُمْ ءَايَتِي

﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ﴾ في هذه الحياة من الخوف والجوع ونقص من الأموال
والأنفس والثمرات وسائر الشر كالوباء والفيضان في البحر وشدة الحر التي
تضر بعض الناس وشدة البرد كذلك، وخلق الأشياء السامة والضارة
لبعض الناس، فكل هذا ﴿فِتْنَةٌ﴾ أي اختبار أيصبر العقلاء أي شبه
الاختبار؛ لأن الله تعالى عالم في الأزل بمن يصبر ومن لا يصبر، وكذلك الخير
بأنواعه وهو اختبار أيشكرون؟ أم يكفرون؟

وقوله تعالى: ﴿وَالْيَنَّا تُرْجَعُونَ﴾ راجع إلى الآية كلها فيرجع العباد إلى الله
وحده لتجزى كل نفس بما تسعى من ثواب أو عقاب، وكذلك ليجزي
الصابر وغير الصابر والشاكر والكافر ففي ذلك تسلية لرسول الله ﷺ من
أجل ما يلاقي من شدائد بسبب النبوة وما قام به من أمر الله، فله أجره
عند الله، وللكافرين جزاؤهم.

ولعل في قوله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ رد على الكفار الذين
يزعمون أن الله تعالى وسع لهم الرزق، لأنه يحبهم كما يفيد قَوْلُهُمْ: ﴿أَيُّ
الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ [مريم: ٧٣] فبين الله تعالى: أن الخير الذي هم
فيه فتنه لهم.

﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوءًا أَهَذَا الَّذِي
يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُمْ يَذْكُرِ الرَّحْمَنَ هُمْ كَافِرُونَ﴾ ﴿وَإِذَا رَأَىكَ﴾ يا
رسول الله ﴿إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوءًا﴾ ما يتخذونك إلا مهزوءاً به
استخفوا بك واتخذوك مستخفاً به أي جعلوك محلاً لاستخفافهم المتتابع

فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٦٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُورُونَ عَنْ وُجُوهِهِمْ

﴿أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ الْهَتَكُم﴾ يصغرونه ويعظمون ذكره لأهتهم ويعدونهم تكلم بما لا يناسب حقارته بزعمهم.

﴿وَهُمْ يَذْكُرُ الرَّحْمَنَ هُمْ كَافِرُونَ﴾ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ﴾ [الفرقان: ٦٠] جحداً لاسم الرحمن ورفضاً لتسميته الرحمن وهو كفر انفردوا به عن كفار أهل الكتاب لجهلهم، مع أن الله جل جلاله واسع الرحمة هو أهل أن يسمى الرحمن، وإنما عاندوا في ذلك وكابروا ولم ينظروا إلى أنه ربهم الذي خلقهم ورزقهم ولا يحصون أنعمه عليهم، وهذه غاية السخافة أن يعيبوا الكلام في آلهتهم التي لا تنفع ولا تضر ولا يعيرون على أنفسهم كفرهم بالرحمن الذي بيده الخير وهو على كل شيء قدير، وهم مع ذلك يستحقرون من هو منتهى الكمال البشري ﷺ ويسخرون منه.

﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ قال الشرفي: قال في (البرهان): «والفرق بين العجلة والسرعة، أن العجلة تقديم الشيء قبل وقته، والسرعة تقديم الشيء في أول أوقاته» انتهى.

قلت: العجلة التسرع في الأمور أو الميل إليه، ولكن الميعب ما خالف مقتضى العقل، والإنسان أي الأكثر كالمطبوع على العجلة حتى كأنه خلق منها إلا أن جعل الإنسان خلق من عجل مجاز عن كونه طبعه أو عن كثرة منه، قال في (مغني اللبيب) في (من) اتصلت بها (ما) الكافة، كقول أبي حية:

وإنما لما نضرب الكباش ضربة ...

ثم قال: والظاهر أن (ما) مصدرية، وأن المعنى مثله في ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾. وضنت علينا والضنين من البخل ...

فجعل الإنسان والبخل مخلوقين من العجل والبخل مبالغة» انتهى. ويظهر: أن قوله تعالى: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ تهكم بالكفار الذين يستعجلون بالعذاب؛ لأن العذاب ليس مما يميل إليه الطبع ويستعجله العجول، وإنما هم يستعجلونه كفراً به وإظهاراً للثقة بأنه لن يكون، هذا إذا كان السياق في استعجالهم بالعذاب، وكذا إذا كان استعجالاً بالأمر الخارق الذي يترتب عليه العذاب إذا لم يؤمنوا فهو كالاستعجال بالعذاب، لأنهم لا يؤمنون، فمعناه الاستعجال بالعذاب.

وقوله تعالى: ﴿سَأُورِيكُمْ آيَاتِي﴾ يدل على هذا الأخير، ولعل المراد بالآيات ما أصيبوا به فهلكوا، فهي آيات ومصائب عجلت عليهم لاستهزائهم، قال تعالى: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ [الحجر: ٩٥] فهو تهكم بهم أيضاً، كقول الشاعر:

نزلتم منزل الأضياف منا فعجلنا القرى أن تشتمونا

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ أي لا تستعجلوني أي لا تطلبوني تعجيل العذاب أو الآيات، وهذا لأن طلبهم الآيات كفر بما قد جاءهم به الرسول ﷺ فاستحقوا العذاب.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ أي القيامة التي وعد الله بها ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في قولكم: أنها ستكون، أي مالها لا تقوم؟.

النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ﴿٦٠﴾ بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئُ بِرُسُلٍ مِّنْ

فقولهم: ﴿مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ﴾ تعبير عن كونهم قد استبطؤوها، فكان معناها الاستعجال بها إن كانوا صادقين، وقد أجاب عليهم بقوله تعالى:

﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُوتُ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ فلا يحسن الاستعجال بها من أناس يعذبون فيها، وهذا الجواب مثله في (سورة يونس) ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنِ اتَّكُمُ عَذَابُهُ بَيِّنَاتًا أَوْ نَهَارًا مَلَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس: ٥٠] والجواب لقوله تعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ﴾ محذوف أي لما قالوا: ﴿مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ﴾ أو لما استعجلوه أو نحو ذلك، وقوله تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ أي ولا يدفع عنهم العذاب غيرهم ﴿فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ [الطارق: ١٠] لا آلتهم ولا غيرها.

﴿بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ ﴿بَلْ﴾ إضراب من قوله تعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ﴾ أي لا يعلمون حين تأتيتهم ﴿بَلْ﴾ تأتيتهم بَغْتَةً وهم لا يتوقعونها في تلك اللحظة ﴿فَتَبْهَتُهُمْ﴾ توقعهم في حيرة لا يدرون ما يقولون.

قال في (لسان العرب): «وقال الزجاج في قوله [عز وجل]: ﴿بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ﴾ قال: تحيرهم حين تفجأهم بغتة» انتهى.

ونحو هذا في (مصاييح الشرفي) إلا أن في النسخة غلطاً من الناسخ، وعندى أن أصل نصه هكذا: فتبتهتهم أي تغلبهم، يقال للمغلوب في الحاجة: مبهوت، ومنه ﴿فَبْهَتَ الَّذِي كَفَرَ﴾ [البقرة: ٢٥٨] أو لبغته الفجاءة.. انقطع كلامهم بالرعب.. إلخ.

قَبْلَكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٦﴾ قُلْ مَنْ يَكْلُؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ

وقوله تعالى: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا﴾ أي لا يستطيعون دفعها جملة عن أنفسهم، وهو غير معنى: ﴿لَا يَكْفُونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ﴾ لأن هذا يشير إلى أنهم مغلولة أيديهم فتلفح وجوههم النار، ولا يدفعونها عن ظهورهم كما يدفع الحر والبرد عن الظهر بما يقيه من لباس أو نحوه ﴿وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ عند إتيانها لهم أي لا يمهلون، ولو كان لطلب الإمهال مجال لطلبوه، فأين صاروا بعد استعجالهم بالعذاب.

﴿وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ الاستهزاء والسخرية واحد، وهو كلام أو إشارة يراد به الاستخفاف والاحتقار، ولعل منه قولهم: ﴿أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ﴾ والدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ [البقرة: ٦٧] فلا يشترط فيه أن يكون تهكماً، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ تحذير للمستهزئين برسول الله ﷺ من أن يحيق بهم ما يستهزئون به، وتسلية له؛ لأن الرسل أسوة له.

وقوله تعالى: ﴿فَحَاقَ﴾ قال في (الصحيح): «حاق به الشيء يحيق، أي أحاط به، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٣] وحاق بهم العذاب أي أحاط بهم ونزل» انتهى، ومعنى أحاط بهم الرسل الذين كانوا بهم يستهزئون أو الحق الذي ﴿كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أنه أحاط بهم عذاب الاستهزاء به، كأنه هو عذبهم وغلبهم وقهرهم.

﴿١٧﴾ أَمْ هُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِّنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ ﴿١٨﴾ بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ

﴿١٧﴾ ﴿قُلْ مَنْ يَكْلُؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُّعْرِضُونَ ﴿يَكْلُؤُكُمْ﴾ قال في (مفردات الراغب): «الكلاءة حفظ الشيء وتبقيته» انتهى، أي من يحفظكم من الرحمن الغالب على أمره، وقوله تعالى: ﴿مِنَ الرَّحْمَنِ﴾ تنبيه على أن تعرضهم لبأسه ليس لأن شأنه البأس، وإنما هو عملهم يعذبون بسببه، ولولا عملهم لكانوا في رحمة الله حتى يأتيهم الموت.

وقوله تعالى: ﴿بِاللَّيْلِ﴾ تخويف من نزول العذاب عليهم ليلاً، وقوله ﴿وَالنَّهَارِ﴾ كذلك فهو تعالى قادر على إنزال عذابهم وهم نائمون، وقادر على إنزاله نهاراً وهم يلعبون ﴿بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُّعْرِضُونَ﴾ لا يذكرون الله بقلوبهم، فلا يتذكرون بأسه ولا يخافون بطشه لغفلتهم عنه.

﴿١٧﴾ ﴿أَمْ هُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِّنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ﴾ ﴿أَمْ هُمْ ءَالِهَةٌ﴾ بل ألهم آلهة؟ انتقال من السؤال الأول ﴿مَنْ يَكْلُؤُكُمْ﴾ إلى سؤال آخر يبطل شركهم بهم ﴿أَمْ هُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ﴾؟ تحميهم من عذاب الله وتقيهم بطشه العاجل بقوتها؟! وجواب هذا السؤال ظاهر لأن شركاءهم ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ﴾ فضلاً عن نصر من يعبدهم.

قال الراغب في (منع): «ويقال في الحماية، ومنه مكان منيع، وقد منع، وفلان ذو منعة أي عزيز» انتهى، ومثله في (لسان العرب): «وظاهر أن كلمة منع مشتركة بين المنع بمعنى الحماية والمنع ضد الإعطاء».

الْعُمْرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ؕ أَفَهُمُ
الْغَالِبُونَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ ؕ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا

أما الزمخشري في (أساس البلاغة) فقال: «ومن المجاز: فلان يمنع الجار يحمية من أن يضام...» إلخ، وسواء كان مشتركاً أم مجازاً في الحماية فالسياق في الآية يدل على أنه بمعنى الحماية، وقوله تعالى: ﴿مِنْ دُونِنَا﴾ أي مستقلة بحمايتهم دون أن تحميهم بحماية الله، والسياق في الحماية من عذاب الله فلا يتصور حماية من حماية الله.

﴿وَلَا هُمْ مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): «أي لا يصحبهم الله بنصر وتأيد، قال: قال في (البرهان): يعني لا يجارون يقال: إن لك من فلان صاحباً أي مجيراً أي لا صاحب من الله يمنع من عذابه» انتهى.

ويجتمل: ﴿وَلَا هُمْ مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾ لا يجيرهم من الله مجير، فآلهتهم لا تنصر نفسها، ولا يجيرها من الله مجير إن كان الضمير راجعاً إليها في قوله تعالى: ﴿وَلَا هُمْ﴾ وإن كان الضمير راجعاً إلى المشركين فالمعنى: ولا هم أي المشركون يجارون من الله كقوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ﴾ [مود: ٦٣].

وفي (أساس البلاغة): «وصحبك الله تعالى وصاحبك وأحسن الله تعالى صحابتك وامض مصحوباً ومصاحباً بمعنى مسلماً معافى، ومنه: ﴿وَلَا هُمْ مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾ أي يعافون ويحفظون...» إلخ، وسواء كان الضمير في ﴿وَلَا هُمْ﴾ راجعاً إلى ﴿إِلَهِةٍ﴾ أم إلى المشركين، فالمعنى راجع إلى أن آلهتهم لا تحميهم، إما لأنها لا تستطيع أن تنصر نفسها ولا لها مجير من الله يحميها منه؛ وإما لأنها لا تستطيع نصر أنفسها ولا المشركون يجارون من الله كائناً من كان المجير.

﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمْرُ ؕ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا
نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ؕ أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ ﴿بَلْ مَتَّعْنَا﴾ إضراب

عن سؤال المشركين إلى ذكر السبب في إعراضهم عن الله وغفلتهم عنه وعدم خشيتهم منه ﴿بَلْ مَتَّعْنَا﴾ أنعمنا عليهم في هذه الحياة القصيرة وعلى آبائهم ﴿حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ﴾ طال عليهم مدة حياتهم في التمتع وهي حياة جماعتهم، فغلب عليهم الاشتغال بالدنيا وما متعوا فيه من الأرزاق ونسوا الله.

وقوله تعالى: ﴿طَالَ عَلَيْهِمُ﴾ يشير إلى أن طول الحياة في النعمة والتمتع بها فتنة يحتاج صاحبها إلى استعمال عقله حتى لا تغلبه الغفلة والاشتغال بالدنيا، وقوله تعالى: ﴿هَؤُلَاءِ﴾ أي قريشاً أو إياهم ومن حولهم.

قال بعض المفسرين: «وكذلك كان مجتمع قريش فإنهم كانوا بعد أبيهم إسماعيل قاطنين في حرم آمن متمتعين بأنواع النعم التي تُحْمَلُ إليهم، حتى تسلطوا على مكة وأخرجوا جرهماً منها فنسوا ما هم عليه من دين أبيهم إبراهيم وعبدوا الأصنام» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ الراجع في معناه: أنهم قد شاهدوا ما ينزل من المصائب التي تنقص منها الأشجار والثمرات ومع ذلك لا يستطيع أهلها دفع المصيبة ﴿أَفَهُمْ أَغْلِبُونَ﴾ إن أراد الله إهلاكهم بكفرهم. وما ينزل بالأشجار ينسب إلى الأرض، قال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازِيدَتْ وَطْنَ أَهْلِهَا أَنَّهُمْ قَالُوا عَلَيْهَا أَثَرًا أَمْ رَأَى لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنِ بِالْأَمْسِ﴾ [يونس: ٢٤] فقلوه تعالى: ﴿نَأْتِي الْأَرْضَ﴾ كقلوه تعالى: ﴿أَثَرًا أَمْ رَأَى﴾ [يونس: ٢٤].

وقوله تعالى ﴿نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ يناسب أن المراد به الشجر والزروع التي تنزل عليها المصائب مثل البرد الذي تظهر إصابته في الأطراف من الشجر والزروع.

مَا يُنذِرُونَ ﴿١٥﴾ وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَنْوِيلُنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٦﴾ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تَظْلَمُ

وقوله تعالى: ﴿أَفَهُمْ أَغْلِبُونَ﴾ أي أنهم لا يستطيعون دفع ما ينزل على الأرض من المصائب أفهم مع عجزهم عن دفعه هم الغالبون لله؟ كلا. ﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذِرُونَ﴾ ﴿إِنَّمَا أُنذِرُكُم﴾ يا قومي ﴿بِالْوَحْيِ﴾ من الله الذي لا يبذل إنذاره ﴿وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذِرُونَ﴾ فلا زلتم معرضين عن الإنذار؛ لأنكم صرتم كالصم الذين لا يسمعون دعاء من ينذرهم أي خوف؛ لأنكم خذلتم بسبب تكذيبكم بآيات الله بعد سماعكم لها، فصرتم لا تسمعون الإنذار، أي كمن لا يسمع لأنكم صرتم تكرهون سماعها وتعرضون عن استماعها.

﴿وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَنْوِيلُنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ لأنهم قد عرفوا الحق وتركوه عناداً ولا يعترفون إلا إن مستهم نفحة من عذاب الله فعند ذلك يقولون: ﴿يَنْوِيلُنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ ومعنى ﴿نَفْحَةٌ﴾ قليل من عذاب الله.

قال في (الكشاف): «وفي المس والنفحة ثلاث مبالغات [أي في تقليل العذاب] لأن النفح في معنى القلة والنزارة يقال نفحته الدابة وهو رمح [أي ركض] يسير» انتهى المراد.

فإن قيل: فأين الثالثة؟ قلت: أراد أن (التاء) تفيد: التقليل، من حيث أنها للمرة مثل ضربة فهي الثالثة، فهؤلاء الكفار إن مسهم قليل من عذاب سارعوا إلى الإعراف بأنهم كانوا ظالمين أي بالتكذيب بآيات الله والإعراض عنها.. وغير ذلك.

نَفْسٌ شَيْئًا ۖ وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۖ وَكَفَىٰ بِنَا حَسِيبِينَ ﴿٤٧﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا

﴿٤٧﴾ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ۖ وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۖ وَكَفَىٰ بِنَا حَسِيبِينَ ﴿٤٨﴾ أعمال العباد تحسب يوم القيامة وتحقق مقاديرها لتجزى كل نفسي بقدر عملها ﴿٤٩﴾ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ ﴿٥٠﴾ وضع الشيء طرحه في الأرض مثلاً، ووضع الموازين إعدادها للوزن يوم القيامة، والتعبير بالوضع يفيد أنها ثقيلة وطريقة الوزن بها لا تتوقف على تعليقها ولا حملها في اليد، ولا مانع أن تكون هذه الموازين آلات يعرف بها مقادير الأعمال كما قد وجد في هذا العصر من ميزان الحرارة ونحوه.

فإن قيل: إن الأعمال قد فنيت في الدنيا ولا تعاد بعينها إنما يعاد ذكرها أو صورتها أو نحو ذلك ؟

قلت: يمكن أن توزن باعتبار حالة وجودها، والله على كل شيء قدير، مثاله: أن يكون في ذمة الإنسان درهم وقد عرف وزن الدرهم فانت تستطيع أن تبين وزن الدرهم وإن كان قد عدم بوضع ما يوافقه في الثقل، ويعرف به مقدار ثقله باعتبار مفصل له ومحقق بالمشاهدة، فكما يمكن وزن الدرهم فكذلك ما يمكن وزنه بطريقة أخرى لا نعلمها، ولا إشكال أن الوزن يكون باعتبار حسن الحسن وقبح القبيح إن كان القبيح يوزن.

والحاصل: أن المراد التمثيل لتحقيق مقادير الأعمال، فإن كان اسم الوزن يشمل حقيقة فظاها، وإن كان مجازاً فهو أقرب للحقيقة وأرجح، وأئمتنا يقطعون بأنه تعبير عن العدل بناء على أن الوزن الحقيقي مستحيل؛ لأن الوزن إنما يكون للأجسام الثقيلة نوعاً من الثقل والأعمال حركات ونحوها لا يتصور فيها الوزن، والذي رجحته احتمال وزن غير هذا الوزن المعهود، بل بيان مقدار العمل بطريقة لا نعلمها، وهذا المعنى غير الذي نفاه أئمتنا (عليهم السلام).

لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٨﴾ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِّنَ السَّاعَةِ
مُشْفِقُونَ ﴿١٩﴾ وَهَذَا ذِكْرُ مُبَارَكٍ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَقَدْ

ووصف الموازين بأنها ﴿الْقِسْطُ﴾ مبالغة في أنها تحقق القسط، و(اللام) في ﴿لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ إما (لام التوقيت) مثل: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ﴾ [الإسراء: ٧٨] وإما (لام الاختصاص) بمعنى: أن يوم القيامة يستدعي وضع الموازين، من حيث أنه يوم الجزاء بالعدل والحق فتوضع له الموازين.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تُظَلِّمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ تفريع على الوزن الذي يفهم من وضع الموازين، وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَتْ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ أي إن كان العمل قليلاً لا يوازن إلا حبة خردل من قلته وحبة الخردل صغيرة وخفيفة.

وقوله تعالى: ﴿أَتَيْنَا بِهَا﴾ أي لم نضيعها بل نثبتها، فيشابهها صاحبها بقدرها أو يعاقب بقدرها إن كانت القبائح توزن، وقد فهمت من هذه الآية أنها توزن، أي يحقق مقدارها ليجزى صاحبها بقدرها، ولكن هذا لا يفيد الموازنة بين الحسنات والسيئات فلي تأمل.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ * الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿الْفُرْقَانَ﴾ عبارة عن (التوراة) باعتبار أنها تفرق بين الحق والباطل كما وصف القرآن بهذا الوصف، وكذا قوله تعالى: ﴿وَضِيَآءٌ﴾ أي نوراً للبصائر كالضياء للبصر.

وقوله تعالى: ﴿وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ موعظة وتذكيراً من الغفلة، فهذه الآية في التوراة، كقوله تعالى: ﴿وَكُتِبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةٌ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٤٥].

وقوله تعالى: ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ بمعنى المتقين بالفعل ليزدادوا تقىً، وليثبتوا على التقوى، وهذه الآية تذكر قريشاً أن سنة الله إنزال الكتب، وأن إنزال القرآن ليس بدعاً من إنزال الكتب.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ تَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ تفسير ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ وبيان لأساس التقوى الذي هو الخشية من الله والإشفاق من القيامة بسبب صحة إيمانهم بالله واليوم الآخر، والخشية من الله تعم الخشية من خذلانه وعذابه في الآخرة والعقوبة العاجلة وتفيد المراقبة له، والإشفاق من الآخرة محاولة السلامة من هولها وعذابها، ومعناه الحذر منها والاستعداد لها، وتفيد: محاسبة النفس، وملازمة التوبة، والحذر من المعاصي ومنه اجتناب الشبهات.

﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ ﴿وَهَذَا﴾ القرآن ﴿ذِكْرٌ﴾ تذكير من الغفلة أو ذكر للدين وتعليم، كقوله تعالى: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾ [النحل: ٤٣] وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ إلى قوله: ﴿..أَتُنْكِرُ آيَاتِنَا فَتْسِيئُهَا﴾ [طه: ١٢٤-١٢٦] وقوله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ مُّحَدَّثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ وهذا المعنى أعم من الموعظة والتذكير من الغفلة وهو أرجح؛ لأن سياق هذه الآية وما قبلها كسياق الآيات من (سورة الأنعام): ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمْلِكُ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آية: ١٥٤-١٥٥] فهو كتاب هدى وتعليم ودلائل، يعم أصول الدين والجمل من فروعه وتفصيل كثيرة.

وقوله تعالى: ﴿مُبَارَكٌ﴾ يفيد: كثرة فوائده وعظم منافعه وغزارة علومه ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾ الآية [المائدة: ٢٦] وغيرها.

ءَاتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا

وقد أجاد الإمام القاسم عليه السلام في وصفه فراجعه في مجموعه وفي مقدمة (المصاييح) تفسير القرآن للشرفي. وقوله تعالى ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾ تعظيم للقرآن بأن الله العلي العظيم العزيز الحكيم رب العالمين أنزله على رسوله، وقوله تعالى: ﴿أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ سؤال إنكار عليهم؛ لأن إنزال الكتب من الله هدى لعباده ليس أمراً ينكر، قد أنزل الكتب على الأولين وأنزل (التوراة) على موسى، فكيف ينكرون نزول (القرآن) على محمد ﷺ هدى ورحمة للمتقين.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ وهذه الآية هي من تقرير أن رسالة محمد ﷺ وإنزال القرآن عليه ليس أمراً لم يسبق له نظير، وتبين مع ما سبق قبلها وما يأتي في السورة أن سنة الله في الأولين إرسال الرسل وإنزال الوحي عليهم ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ آتيناه هداية الذي حصل له وامتاز به من بين الأمم واستحق به أن اتخذ الله خليلاً، والرشد إصابة الصواب ضد الغواية، وذلك بهداية الله تعالى له، وما آتاه من الدلائل العقلية والسمعية حتى صار في الدرجة القصوى في عبادته لله وإخلاصه ومقاومة الشرك والنصح لله تعالى في تبليغ رسالته والصبر العجيب. وقوله تعالى: ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ أي من قبل ما أتى موسى وهارون ما مر ذكره، وقوله تعالى: ﴿وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ إما بصبره وعنايته في مقاومة الشرك كما تفيده الآيات التي بعد هذه، وإما بشكره على نعمة إيتائه رشده، كقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣] وإما بالمعنيين، وكلما تحويه كلمة ﴿رُشْدَهُ﴾ ويحتمل: عود الضمير في ﴿بِهِ﴾ إلى ﴿رُشْدَهُ﴾ مقدمة لذكر قصته مع المشركين.

عَبِيدِينَ ﴿٥٩﴾ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِينَ ﴿٦١﴾ قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٦٢﴾ وَتَاللَّهِ

﴿٥٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَيُّهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٦٠﴾ إِذْ أَي اذكر قصته التي فيها دلالة على رشد من رشده ﴿٦١﴾ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ ﴿٦٢﴾ ما حقيقتها حتى أنكم تعبدونها؟ والتماثيل جمع تمثال وهي ما يصنع على شكل إنسان أو حيوان ﴿الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ أنتم لها عابدون بعكوفكم لها وحبسكم أنفسكم عليها خضوعاً لها وتقرباً إليها بالعكوف لها.

﴿٥٩﴾ قَالُوا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا لَهَا عِبَادِينَ ﴿٦٠﴾ لم يجدوا لها صفة توجب عبادتها؛ لأنها مجرد تماثيل مصنوعة، فلم يجيبوا بجواب مطابق لسؤاله حيث قال: ﴿مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ﴾؟ وعدلوا إلى التقليد لأبائهم، وكان الشيطان وسوس لهم بها حتى تصير قضية تعصب لأبائهم وغضب من تحطئة آبائهم، ولم يكن بد من تحطئة آبائهم لبيان ضلالهم في تقليدهم لأبائهم.

﴿٥٩﴾ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ جواب قاطع لاحتجاجهم بأبائهم؛ لأنهم إنما يتبعونهم تقليداً بلا حجة، وعنده عليه السلام الحجة على ضلال المقلد والمقلد.

﴿٥٩﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِينَ ﴿٦٠﴾ سؤال معناه طلب الحجة على أن ما جاءهم به هو الحق؛ ولذلك أجابهم ببيان الحجة:

﴿٥٩﴾ قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٦٠﴾ ﴿بَلْ رَبُّكُمْ﴾ الله الذي هو ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ هو المالك لكم كما هو المالك للسموات والأرض.

فأنتم عباده وحده لا شريك له فيكم، وأنتم تجعلون أنفسكم عباداً للتماثيل وليسوا أربابكم؛ لأنهم لم يخلقوكم كما لم يخلقوا السموات والأرض، وهذه حجة من أوضح الواضحات في إبطال الشرك؛ لأن قومه لم يدعوا لتماثيلهم أنها تخلقهم، وذلك لو ادعوه واضح البطلان، فالمالك لهم إنما هو خالقهم، وأبهم الجواب لم يقل: (ربكم الله) في قوله: ﴿بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ لأن الاحتجاج عليهم بالربوبية فاكفى بذكر رب السموات والأرض؛ لأنه أوضح في الاستدلال بربوبية الله لهم دون خلقه.

وقوله: ﴿وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ أي على أن ربهم رب السموات والأرض أي أنني أعلم ذلك يقيناً، فأقول لكم ذلك عن يقين، فهذا هو الحق جاءهم به، ووقع في القرآن الاحتجاج على المشركين بمثل هذا الاحتجاج في مواضع؛ لأنهم يعبدون مخلوقاً لا يملك منهم شيئاً، ومعنى عبادتهم للمخلوق أنهم جعلوا أنفسهم عباداً له، فلذلك تكرر الاحتجاج عليهم بأن من عبده ليس رباً لهم، كما صرح بنفي ملكهم في (سورة فاطر) في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣] وصرح بالاحتجاج عليهم بالخلق الذي يترتب عليه الملك ﴿هَلْ مِن خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ﴾ [فاطر: ٢] ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَا يَخْلُقُ﴾ [النحل: ١٧].

أما أنهم يجعلون أنفسهم عباداً لهم، فالدليل عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾ [الأنعام: ٩٤] وقوله تعالى: ﴿لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَن عِبَادَتِهِ﴾ [النساء: ١٧٢] فدل على أن العبادة معناها: أن يجعل العابد نفسه عبداً للمعبود، وبذلك اتضح الاحتجاج عليهم بأن الله ربهم وحده، وهم لا ينازعون في ذلك، وإنما غفلوا وأعماهم التعصب لأبائهم، واتكلوا على تقليدهم.

لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَاً إِلَّا كَبِيراً هُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِإِلَهِنَا إِنَّهُ

وقد مضى مثل هذا الكلام في تفسير العبادة، الاحتجاج عليهم بالربوبية، ولكن دعا إلى إعادة ذلك قصد بيان صحة احتجاج إبراهيم عليه السلام، ووضوحه وقربه للأفهام.

﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدْبِرِينَ﴾ وهذا يؤكد أنه على يقين في إنكاره عليهم، ونفي شركائهم، وفيه احتجاج جديد؛ لأنه يتوعدها فلا تضره، وقوله ﴿لَأَكِيدَنَّ﴾ أي لأمحقن ﴿أَصْنَامَكُمْ﴾ أو لأبطلنها بطريقة خفية، وقوله: ﴿بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدْبِرِينَ﴾ دليل ثالث على بطلان إلهية أصنامهم؛ لأنها لا تحمي نفسها، وإنما المشركون يحمونها، فإذا ولوا عنها مدبرين استطاع كيدها؛ وذلك لأنها جمادات لا تنفع ولا تضر فضلاً عن أن تخلق وترزق.

وقوله: ﴿وَتَاللَّهِ﴾ قسم صدقه بالفعل، قال الشرفي في (المصابيح): «﴿وَتَاللَّهِ﴾ قسم، واختار (التاء) لمعنى التعجب من تسهيل الكيد على يده» انتهى، ومعنى هذا: أن القسم بـ (التاء) يكون في موضع التعجب من المقسم عليه، والمراد: أنه اختار ما ترجمته التاء في قسمه.

﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاً إِلَّا كَبِيراً هُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ ﴿فَجَعَلَهُمْ﴾ أي جعل أصنامهم ﴿جُذَاً﴾ أي قطعاً مجذوزة أي مقطوعة، ومنه قوله تعالى: ﴿عَظْلُهُ غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [مرد: ١٠٨] أي غير مقطوع بل دائم، وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ أي لعل قومه وأباه يرجعون إلى الذي لم يقطعه فينكرون عليه تكسير أصنامهم إن كانوا يعتقدونه قادراً على ذلك، ولكن انكشف أنهم يعلمون

لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتَى يَدْعُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٥٢﴾ قَالُوا فَاتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٥٣﴾ قَالُوا ءَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٥٤﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا

أنه عاجز عنه فلم يرجعوا إليه، أو لعلهم إليه يرجعون فيسألونه: من الذي حطم الأصنام؟ فإذا لم يجيبهم عرفوا أنه لا ينفع ولا يضر - والله أعلم.

﴿٥١﴾ قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٢﴾ قال المشركون حين رأوا أصنامهم مكسرة ﴿مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا﴾؟ استمروا على جهالتهم وشركهم، وقد كان تكسيرهم دليلاً على عجزهم حيث لم يدفعوا عن أنفسهم، فهم أعجز عن نفع غيرهم أو الدفع عنهم، ولكنهم أصروا فسألوا: من فعل هذا التكسير بآلهتنا؟ جعلوه ظلماً؛ لأنه بآلهتهم دلالة على هوانها وعجزها أي هتك لحرمتها؛ ولأنها آلهتهم مضافة إليهم فكان الواقعة بأصنام المشركين عدوان على المشركين فقالوا: ﴿إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

﴿٥٣﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتَى يَدْعُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٥٤﴾ أي يذكر الأصنام حين عاب عليهم عبادتها، وقال لهم: ﴿مَا هَذِهِ التَّمَائِيلُ﴾؟

﴿٥٥﴾ قَالُوا فَاتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٥٦﴾ فَاتُوا بِهِ ﴿٥٧﴾ أي بإبراهيم لتسألوه ﴿عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ﴾ وتعاقبوه على ما صنع ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ أي لعل الناس يشهدون ذلك فيكون ذلك تحذيراً لغيره أو ليروا تعظيمكم لأصنامكم ويعرفوا غضبكم لها.

﴿٥٨﴾ قَالُوا ءَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٥٩﴾ أرادوا أن يقر بذلك أو يشهد عليه الشهود بما قال سابقاً لينتقموا منه.

يَنْطِقُونَ ﴿٣٢﴾ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٣٣﴾ ثُمَّ نَكْسُوهُ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴿٣٤﴾ قَالَ

﴿٣٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَسَلُّوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴿٣٣﴾ قَالَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ﴾ أَي كَبِير الْأَصْنَامِ ﴿فَسَلُّوهُمْ﴾ عَنْ ذَلِكَ ﴿إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾ فِيهَا وَجْهَانِ: إِمَّا أَنْ الْكَلَامَ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ﴾ مُشْرُوطٌ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾ فَهُوَ مُعَلَّقٌ عَلَىٰ مَحَالٍ فَانْتَفَى، وَإِمَّا أَنَّهُ تَهَكُّمٌ بِكَبِيرِهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ عَجْزَهُ عَنْ ذَلِكَ، وَفَائِدَةُ الْاِحْتِجَاجِ عَلَيْهِمْ بِمَعْرِفَتِهِمْ عَجْزَهُ.

﴿٣٣﴾ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٣٤﴾ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنْفُسِهِمْ سَأَلُوهَا كَيْفَ عَبْدُوا جُمَادَاتٍ لَا تَنْطِقُ وَلَا تَدْفَعُ عَنْ نَفْسِهَا ﴿فَقَالُوا﴾ لِأَنْفُسِهِمْ ﴿إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ﴾ بِعِبَادَةِ الْأَصْنَامِ أَوْ الظَّالِمُونَ بِتَظْلِيمِ إِبْرَاهِيمَ مَعَ أَنَّ الصَّوَابَ مَعَهُ، وَهَذَا أَقْرَبُ لِأَنَّهُ فِي مُقَابَلَةِ قَوْلِهِمْ: ﴿مَنْ فَعَلَ هَذَا بِالْهَيْئَةِ إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ وَلِأَن تَظْلِيمَهُمْ أَنْفُسَهُمْ بِعِبَادَةِ الْأَصْنَامِ يَتَوَقَّفُ عَلَىٰ مَعْرِفَتِهِمْ لِلَّهِ وَمَعْرِفَتِهِمْ أَنَّ الْوَاجِبَ عَلَيْهِمْ عِبَادَتَهُ وَحْدَهُ لَا عَلَىٰ مَجْرَدِ بَطْلَانِ إِلَهِيَةِ أَصْنَامِهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ فِي حَالَةِ جَهْلِهِمْ يَعْرِفُونَ بَطْلَانَ عِبَادَتِهِمْ؛ لَا أَنَّهَا ظَلَمٌ.

﴿٣٤﴾ ثُمَّ نَكْسُوهُ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴿٣٥﴾ نَكْسُوهُ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ مَجَازاً عَنْ إِضْلَالِهِمْ وَإِرْجَاعِهِمْ إِلَى الْبَاطِلِ كَانَ الشَّيْطَانُ نَكْسَهُمْ فَجَعَلَ أَعْلَاهُمْ الْأَسْفَلَ، وَأَبْلَغُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ طَرَحَهُمْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ قَائِلِينَ: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ﴾ تَجَاهِلاً مِنْهُمْ لَكُونَ عَجْزَهُمْ عَنِ الْكَلَامِ وَعَنِ الدَّفْعِ عَنْ أَنْفُسِهِمْ، دَلِيلاً وَاضِحاً أَنَّهُمْ لَيْسُوا قَادِرِينَ عَلَى نَفْعٍ وَلَا ضَرٍّ، وَأَنَّهُمْ إِذَا كَانُوا كَذَلِكَ لَا يُعْبَدُونَ لَطَلَبِ نَفْعٍ مِنْهُمْ وَلَا لِدَفْعِ ضَرٍّ، وَقَدْ قَدَّمَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَوْلَهُ: ﴿بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فَمَا بَقِيَ لَهُمْ عِذْرٌ فِي عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ.

أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿١١﴾ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿١٤﴾ قُلْنَا يَنْتَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴿١٥﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿١٦﴾ وَنَجَّيْنَاهُ

﴿١١﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ * أَفَلَا لَكُمْ وَلَمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ ﴿أَفَتَعْبُدُونَ﴾ أتعرفون عجزها؟ فتعبدونها وتجعلونها أقرب للعبادة من الله أو وسائط بينكم وبين الله وهي لا تنفعكم شيئاً ولا تضركم ﴿أَفَلَا لَكُمْ﴾ كلمة تضجر منهم لإهمالهم عقولهم وعنادهم بعد وضوح الحق ﴿وَلَمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ تحقيراً وإعلاناً لبغضها من حيث أنهم يعبدونها من دون الله ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ حيث تفعلون فعل من لا يعقل، وهذا توبيخ وتقريع لهم لعنادهم.

﴿١٣﴾ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿١٤﴾ انقطع جدالهم؛ لأنه عليه قهرهم بالحجة فرجعوا إلى طلب أن يحرقوه، ومحاولة تحريقه ليتخلصوا منه ولينصروا أصنامهم تعصباً لباطلهم، وقولهم: ﴿إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ حث على ذلك وتهيج.

﴿١٥﴾ قُلْنَا يَنْتَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴿١٦﴾ أبطل الله كيدهم ونجى خليله إبراهيم عليه السلام، بأن حول النار برداً وسلاماً، فهي برد غير ضار لإبراهيم، فكان ذلك نصراً لإبراهيم عليه السلام، وجعل قومه الأخسرين والأسفلين والتعبير بقوله تعالى: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا﴾ دلالة على سهولة ذلك التحويل، وأنه ليس فيه أي مشقة، كما لو أمرها فكانت امثالاً لأمره برداً وسلاماً.

وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ

﴿٧١﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٢﴾ أرادوا بإبراهيم كيداً لإبطال دعوته بأن يحرقوه فيزعموا أنه أصيب من قبل آلهتهم وأنها عاقبتهم على كسرهما، أو يزعموا أنه لو كان صادقاً لأنجاه الله منهم ولما مكنهم من إحراقه، هذا لأن الكيد محاولة ضرر الغير بطريقة خفية، ونفس الإحراق أمر واضح، فظهر: أن الكيد غير الإحراق كان غرضهم بالإحراق.

﴿فَجَعَلْنَاهُمْ الْأَخْسَرِينَ﴾ خاب أملهم في إحراقهم له وأملهم في إبطال دعوته، وبطلت حجتهم واستحقوا العذاب العاجل والآجل، ولعل الله عز وجل أهلكهم بعد هجرة إبراهيم عليه السلام، ويقال: إنهم المراد بقول الله تعالى: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النحل: ٢٦] والله أعلم، وقد جرت سنة الله بإهلاك الأمم إذا بلغتهم الحجة وتمردوا وهموا برسولهم ليأخذوه، كما قال تعالى: ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَدَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْنَاهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [غافر: ٥].

﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ ﴿وَنَجَّيْنَاهُ﴾ أي إبراهيم من شر قومه ﴿وَلُوطًا﴾ بأن هاجرا ﴿إِلَى الْأَرْضِ﴾ المباركة، أو نجيناهما حتى بلغا الأرض المقدسة، وقوله تعالى: ﴿الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ الراجع: أنها البركات الدينية، بإرسال الرسل فيها صار فيها الهدى للعالمين؛ لأن البركات الدنيوية لا تعم العالمين وهي في بلد مخصوص، والراجع: أن هذه الأرض المباركة هي (فلسطين) وقد غلبت عليها إسرائيل بجبل من أمريكا وتخليه وتمكين من الله، نسأل الله أن يعجل لها يوشعاً من هذه الأمة وجنداً صالحين.

بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَبِيدِينَ ﴿٧٦﴾ وَلُوطًا ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي

ولوط إنما صار إلى الأرض التي أرسل إلى أهلها بعد أن بلغ مع إبراهيم عليه السلام الأرض المقدسة؛ لأنه مدلول الآية، أعني أن لوطاً بلغ الأرض المباركة، قال الشرفي في (المصابيح): «ولوط هو ابن أخت إبراهيم، وهو أول من آمن له حين رأى النار لم تحرقه، وقيل: هو ابن أخيه - قال الشرفي - : وهذا قول محمد بن القاسم عليه السلام».

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۚ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾
 ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ﴾ أي لإبراهيم ﴿إِسْحَاقَ﴾ ابناً ﴿وَيَعْقُوبَ﴾ بن إسحاق وهبناه لجدّه ﴿نَافِلَةً﴾ وقد دعا إبراهيم: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصافات: ١٠٠] فوهب له إسماعيل وإسحاق ووهب له يعقوب زائداً على المطلوب ﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾ أي كلاً منهم جعلنا صالحين إبراهيم وإسحاق ويعقوب، فهي نعمٌ ترادفت لإبراهيم عليه السلام بما صبر.

قال سيد قطب: «لقد ترادفت لإبراهيم عليه السلام وطناً وأهلاً وقوماً فعوضه الله الأرض المباركة وطناً خيراً من وطنه، وعوضه ابنه إسحاق وحفيده يعقوب أهلاً خيراً من أهله، وعوض من ذريته أمة عظيمة العدد قوماً خيراً من قومه..» إلخ.

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَبِيدِينَ﴾ ﴿أَيْمَةً﴾ جمع إمام فكل واحد إمام أما إبراهيم فإمام للناس كافة، وأما إسحاق ويعقوب فالله أعلم كانت إمامتها كإمامة أبيهما أم لأهل عصرهما، والإمام القدوة المتبوع.

وقوله تعالى: ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ يحتمل: بأمرنا لهم أن يهدوا الناس ويعلموهم دين الله؛ لأنهم رسل يهدون الناس بأمر الله الذي أرسلهم وأمرهم بتبليغ الرسالة، ويحتمل ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾: أي يبلغونهم أمرنا ويعلمونهم أمرنا حتى يهتدي من اهتدى بما بلغه من أمر الله، وعلى هذا فجعلهم أئمة وإرسالهم شيء واحد، اختلف اسمه باختلاف الاعتبار، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٦٤].

وإذا فرض أن إمامتهم أفضل من النبوة فلا يلزم في كل إمامة أن تكون كذلك وإن لم تكن رسالة مع أنا لا نسلم أن إمامتهم أفضل من حيث هي إمامة، وإنما تكون أفضل من حيث هي رسالة، وكونها لم تكن لإبراهيم عليه السلام إلا بعد النبوة قلنا: إن صح فالرسالة بعد النبوة، فيوحى إلى النبي شريعة لتعليمه الدين الذي يوحى إليه ليعمل به ثم يرسل إلى من أمر بتبليغهم فيكون إماماً لهم.

وقوله تعالى: ﴿بِأَمْرِنَا﴾ ظاهر في الأمر الحقيقي الذي يقتضي الوجوب وتفسير بعضهم له بالأمر التكويني خلاف الظاهر؛ لأنه مجاز، وقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فَعَلِ الْخَيْرَاتِ﴾ يترجح: أن هذا الوحي هو هدايتهم لذلك وإلهامهم وتحبيبه إليهم، كقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ [النحل: ٦٨] وفعل الخيرات فعل أنواع الخير وأصناف البر عموماً هداهم الله لذلك كله.

وقوله: ﴿وَكَاثُرًا لَنَا عِبْدِينَ﴾ يفعلون الخيرات تعبداً لله واعترافاً بالعبودية له جل جلاله، وتقديم ﴿لَنَا﴾ يفيد الاختصاص بمعونة السياق فيفيد إخلاصهم لله وبراءتهم من الشرك وهو مناسب لما في السورة من إبطال الشرك.

كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبِيثَاتُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ

﴿٧٤﴾ ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبِيثَاتُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَسِقِينَ﴾ ﴿وَلُوطًا﴾ يحتمل أنه معطوف على إبراهيم، وهكذا من يأتي ذكره آتاهم رشدهم، وفسر رشد لوط بقوله: ﴿ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ فالحكم أن يحكم بين الناس بالحق، كما قال تعالى في داود وسليمان بعد ذكر حكمهما في الحرث: ﴿وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ والعلم معرفة الله ومعرفة ما يجب العلم به ومعرفة الدين والشرعة التي أوحيت إليه.

وقوله تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ﴾ الراجح أن فائدة الإسناد إلى القرية أن يعم نجاته من بطشهم ونجاته من أذاهم ونجاته من جوارهم ونجاته من عذابهم الذي عذبوا به بسبب عملهم للخبائث حين أمره الله أن يسري بأهله، فالحاصل نجاه الله من شرهم ومن الشر الذي نزل بهم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَسِقِينَ﴾ تعليل لما يفهم من إنجائهم من تعذيبهم أو تعليل لإنجائهم من قريتهم بأنهم كانوا قوم سوء فاسقين لو لم ننجاه لهلك معهم، فقام قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَسِقِينَ﴾ مقام أنهم عذبوا، والخبائث التي كانوا يعملونها ذكر بعضها في القرآن وجاء في الحديث الشريف ذكر عشر من عمل قوم لوط رواه في (مجموع الإمام زيد بن علي عليه السلام).

وقوله تعالى: ﴿قَوْمَ سَوْءٍ﴾ قوم قبيح، والإضافة تشعر بأصالتهم في القبيح كأنه صفة لازمة، كما قال حاكياً: ﴿مَا كَانَ أَبُوكَ امْرَأَ سَوْءٍ﴾ [مريم: ٢٨].

فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِعَايَتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ وَدَاوُدَ

﴿فَسِقِينَ﴾ أهل خبث وفجور، ففي هذه عبر عن قوم لوط بقوله: ﴿الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ﴾ كأنه صفة مميزة لهم من بين الأمم، ثم سماهم قوم سوء، كأن السوء صفة لهم، ثم وصفهم بأنهم كانوا ﴿فَسِقِينَ﴾ وهي كلمة ذم شديد، كما لو قيل: فجرة خبيثة.

﴿وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ﴿فِي رَحْمَتِنَا﴾ لعلها هنا الفوز بالجنة والنجاة من النار بتوفيقه لحسن الخاتمة وتوفيه مرضياً، فكان ذلك إدخالاً له في رحمة الله بعد إنجائه من عذاب قومه، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ تعليل لما قبله.

﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ ﴿وَنُوحًا﴾ عطف على ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾ مثل قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا﴾ اذكر ﴿إِذْ نَادَىٰ﴾ أي نادى ربه، ونداؤه مفسر في (سورة نوح): ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ ذِيَارًا﴾ [آية: ٢٦] وقوله تعالى: ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ أي من قبل إبراهيم ولوط وموسى وهارون ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾ بإغراق قومه ونجينا من الكرب العظيم الذي أصاب قومه وهو غم الغرق عند الإشراف عليه وحاله، وقد مرت قصته مفصلة في (سورة هود).

﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِعَايَتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿وَنَصَرْنَاهُ﴾ على قومه بإنجائه منهم في السفينة ونزول الغرق على قومه بسبب تكذيبهم له وتكذيبهم بآيات الله ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ﴾ قبيح. تمرّد على نبيهم وإصرار على الشرك والعدوان وهم بأخذ نبيهم ﴿فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ وقصة الإغراق لهم مفصلة في (سورة هود) وقوله تعالى: ﴿فَأَغْرَقْنَاهُمْ﴾ كال تفسير لنصر نبيهم.

وَسُلَيْمَنَ إِذْ تَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَنَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا

﴿٧٨﴾ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَنَ إِذْ تَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٩﴾ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَنَ ﴿٨٠﴾ عَظَفَ عَلَى ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾ فَالْمَعْنَى آتَيْنَاهُمَا رَشْدَهُمَا ﴿إِذْ تَحْكُمَانِ﴾ اذْكَرَ قِصَّتَهُمَا إِذْ يَحْكُمَانِ ﴿فِي الْحَرْثِ﴾ ظَاهِرُهُ أَنَّ الْحَكْمَ فِي الْحَرْثِ نَفْسُهُ وَهُوَ الْأَرْضُ الْحَرْثُ، وَالْمُفَسَّرُونَ يَذْكُرُونَ: أَنَّ الْحَكْمَ كَانَ فِي ثَمَرٍ وَزَرْعٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ وَقَرِينَةُ ذَلِكَ. قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ﴾ لِأَنَّ الْغَنَمَ لَا تَطْمَعُ فِي الْحَرْثِ الْخَالِي مِنَ النَّبَاتِ.

وَفِي (تَفْسِيرِ) الْإِمَامِ زَيْدِ بْنِ عَلِيٍّ (عَلَيْهِ السَّلَامُ): «فَالنَّفْسُ: أَنْ تَدْخُلَ فِي الزَّرْعِ لَيْلاً فَتَأْكُلَهُ، وَلَا يَكُونُ إِلَّا بِاللَّيْلِ» انْتَهَى، وَمِثْلُهُ حَكَى الشَّرْفِيُّ عَنِ الْحُسَيْنِ بْنِ الْقَاسِمِ (عَلَيْهِ السَّلَامُ)، وَقَالَ الشَّرْفِيُّ - أَيْضاً - : «فَالنَّفْسُ: انْتِشَارُ الْغَنَمِ بِاللَّيْلِ تَرَعًا [١] بَلَا رَاعٍ، قَالَهُ ابْنُ السَّكَيْتِ وَابْنُ قَتَيْبَةَ» انْتَهَى.

فَأَمَّا الزُّنْخَشَرِيُّ فِي (أَسَاسِ الْبَلَاغَةِ) فَقَالَ: نَفَشَتْ الْغَنَمُ بِاللَّيْلِ: انْتَشَرَتْ وَلَمْ يَذْكُرِ الرَّعِي، وَلَكِنَّهُ ذَكَرَ الرَّجْزَ:

أَجْرَسَ لَهَا يَا ابْنَ أَبِي كَبَاشٍ فَمَا لَهَا اللَّيْلَةُ مِنْ إِنْفَاشٍ

غَيْرِ السَّرَى وَسَائِقِ نَجَّاشٍ

وَلَعَلَّ سَبَبَ التَّعْبِيرِ بِالْحَرْثِ؛ لِأَنَّ دَعْوَى صَاحِبِهِ أَنَّ أَهْلَ الْغَنَمِ أَهْمَلُوهَا فَدَخَلَتْ الْحَرْثَ وَفِيهِ الزَّرْعَ فَأَكَلَتْهُ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ أَيُّ حَاضِرِينَ لَمْ نَغِبْ عَنْهُ، قَالَ الشَّرْفِيُّ فِي (الْمَصَابِيحِ): «أَيُّ عَالِمِينَ لَمْ يَغِبْ عَنْ عَلَمِنَا» اهـ.

وَهُوَ تَأْوِيلُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا تَحْوِيهِ الْأَمْكَنَةُ، وَجَمَعَ الضَّمِيرَ فِي ﴿لِحُكْمِهِمْ﴾ لِأَنَّهُ مُتَنَاوِلٌ لِلْخَصْمَيْنِ مَعَ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى:

وَسَخَرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٧٦﴾ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِيُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴿٧٧﴾

﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَنَ﴾ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٧٦﴾ تفريع على قوله تعالى: ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ ﴿فَفَهَّمْنَاهَا﴾ أي القضية ﴿سُلَيْمَنَ﴾ أعلمناه ولعل الفهم يختص بما فيه غموض، وفيه تفضيل لحكم سليمان كأنه هو الحكم، قالوا: وسبب ذلك أن حكم سليمان كان فيه مع العدل الرفق بالخصمين، ولم يخطئ داود عليه السلام، بل كان حكمه عدلاً.

﴿وَكُلًّا﴾ من داود وسليمان ﴿ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ ﴿حُكْمًا﴾ بين المتنازعين بالحق ﴿وَعِلْمًا﴾ بالله تعالى وما شرع علمه ﴿وَسَخَرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ﴾ لعله كان إذا سبح الله كان صدى صوته في الجبال فسمع التسبيح منها، وقوله تعالى ﴿وَالطَّيْرَ﴾ أي سخرننا معه الطير، ولعل الواو هي واو المعية كما في (سورة سبأ) فيفيد: أنه كان إذا سبح سبحت الجبال معه ومع الطير في وقت واحد، وقوله تعالى: ﴿وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ أي نفعل ما نشاء.

﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِيُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾ ﴿صَنْعَةَ﴾ علمناه عمل الدروع بمهارة، قال الراغب: الصنع إجادة الفعل، فكل صنع فعل وليس كل فعل صنعاً، واللبوس هنا: الدروع كما في (سورة سبأ): ﴿أَنْ أَعْمَلَ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرَ فِي السُّرْدِ﴾ [آية: ١١].

وقوله تعالى: ﴿لِيُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ﴾ أي ليحصنكم بالدروع على قراءة نافع، ولتحصنكم الدروع على قراءة حفص أي تحفظكم وتقيكم ﴿مِنْ بَأْسِكُمْ﴾ من السلاح في الحرب أو غيره.

وَلَسُلَيْمَنَّ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ ﴿٦١﴾ وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ

والدروع التي يصنعها داود من الحديد: حلق مسرودة كالسلوس، بمقدار متوسط بين أن تكون غليظة أو رقيقة لتحفظ لابسها ولا تثقل عليه أكثر من ثقل هذه الدروع.

قال الشرفي في (المصابيح): «كانت صفائح فهو [أي داود] أول من سردها» انتهى المراد، وقوله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾ أي نعم الله عليكم، ومنها هذه الدروع أو نعمة الله عليكم بهذه الدروع.

﴿وَلَسُلَيْمَنَّ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ﴾ ﴿وَلَسُلَيْمَنَّ الرِّيحَ﴾ أي وسخرنا لسليمان الريح فهو عطف على قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ﴾ وقوله تعالى ﴿عَاصِفَةً﴾ أي قوية بحيث تحمل سليمان وجنده.

وقوله: ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِ﴾ أي بأمر سليمان ﴿إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا﴾ أرض (فلسطين) ويقال: (الشام) وهو اسم جامع: لـ (سوريا) و(الأردن) و(فلسطين). وقال الشرفي في (المصابيح): ﴿إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا﴾ وهي أرض بيت المقدس وغيره من البلاد المباركة بكثرة الأنبياء والخصب والسعة» انتهى المراد.

وقوله تعالى: ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ﴾ علمه تعالى بكل شيء يدل عليه حسن تدبيره للأنبياء (عليهم السلام) بما مر ذكره كما هو دليل على قدرته تعالى، فقال تعالى: ﴿وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ وهنا قال: ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ﴾ لدلالة تدبيره على علمه تعالى بكل شيء.

عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَفِظِينَ ﴿١٣٠﴾ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٣١﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَذَكَرْنَاهُ

﴿١٣٠﴾ وَمِنَ الشَّيْطَانِ مَن يَغُصُّونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَفِظِينَ ﴿١٣١﴾ وسخرنا لسليمان ﴿١٣٠﴾ مِنَ الشَّيْطَانِ مَن يَغُصُّونَ لَهُ ﴿١٣١﴾ فِي الْمَاءِ الْعَمِيقِ، وَلَعَلَّ ذَلِكَ لِيَجْلِبُوا لَهُ الدَّرَّ وَالْمَرْجَانَ وَالْعَنْبَرَ مِنَ الْبَحْرِ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ﴾ لَعَلَّهُ يَفْسِرُهُ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَّحَارِبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ﴾ [سبا: ١٣] فِهَذَا عَمَلٌ دُونَهُ، حَوْلَ سُلَيْمَانَ أَقْرَبُ مِنَ الْغِيَاصَةِ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَفِظِينَ﴾ إِذَا كَانَ الضَّمِيرُ لِلشَّيَاطِينِ الْمَذْكُورِينَ فَحَفِظَهُمْ بِمَعْنَى قَهَرَهُمْ وَإِبْقَائِهِمْ فِي سُلْطَةِ سُلَيْمَانَ لَا يَسْتَطِيعُونَ الْفِرَارَ مِنْهَا أَوْ يَغْلِبُهُمُ الْخَوْفُ مِنْ سُلَيْمَانَ فَيَمْنَعُهُمْ مِنَ الْفِرَارِ.

﴿١٣٠﴾ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَيُّوبَ ﴿١٣٠﴾ أَتَيْنَاهُ رَشْدَهُ، أَذَكَرَ ﴿١٣١﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ ﴿١٣٠﴾ دَعَاهُ دَعَاءَ كَالنِّدَاءِ، وَلَعَلَّهُ شَبَّهَ بِالنِّدَاءِ لِأَنَّ الْمُنَادِيَ يَرْفَعُ صَوْتَهُ لِيَسْمَعَ الْمَدْعُوُّ فَيَجِيبُ، وَهَذَا الدُّعَاءُ فِيهِ عَنَاءٌ لِإِجَابَتِهِ، وَقَوْلُهُ: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾ تَفْسِيرُ الدُّعَاءِ شَكْوَى مِنَ الضَّرِّ الَّذِي مَسَّهُ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ طَلَبُ لِرَحْمَةِ اللَّهِ لَهُ بِالشِّفَاءِ مِنْ مَرَضِهِ.

وَمَعْنَى ﴿أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ أَنَّ رَحْمَتَهُ أَفْضَلُ رَحْمَةٍ وَأَبْلَغُ رَحْمَةٍ؛ لِأَنَّهُ يَرْحَمُ عَبْدَهُ الْمُؤْمِنَ فَيُنْجِيهِ مِنَ النَّارِ وَيُدْخِلُهُ الْجَنَّةَ فَيَسْعِدُ أَبَدًا وَيَرْحَمُ عَبْدَهُ فِي الدُّنْيَا بِمَا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إِلَّا هُوَ وَرَحْمَتُهُ وَسَعَتْ كُلَّ شَيْءٍ.

لِلْعَبِيدِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٧﴾ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ

﴿٨٥﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَبِيدِينَ ﴿٨٦﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ ﴿٨٧﴾ دَعَاة ﴿٨٨﴾ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ ﴿٨٩﴾ وَهَذَا شِفَاءُ عَامٍ وَعَافِيَةٌ تَامَةٌ ﴿٩٠﴾ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ ﴿٩١﴾ يَفِيدُ: أَنَّهُمْ كَانُوا قَدْ فَارَقُوهُ فَإِذَا أَنَّهُمْ كَانُوا قَدْ مَاتُوا فَأَحْيَاهُمْ كَمَا يَرَوْنَ، وَإِذَا أَنَّهُمْ كَانُوا قَدْ هَجَرُوهُ بِسَبَبِ مَرَضِهِ، فَلَمَّا عَوِيَ رَجَعُوا لَهُ ﴿٩٢﴾ وَمِثْلَهُمْ ﴿٩٣﴾ فِي عِدَّتِهِمْ وَصَفَتُهُمْ مِثْلًا زَوْجَاتٍ وَبَنِينَ ﴿٩٤﴾ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا ﴿٩٥﴾ كَشَفَ الضَّرَّ وَإِعَادَةَ الْأَهْلِ وَإِتْيَانَهُ مِثْلَهُمْ مَعَهُمْ كُلَّ ذَلِكَ رَحْمَةٌ لِّسَ فِتْنَةٍ كَمَا يَكُونُ لِلْفَجَارِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِيهِمْ: ﴿٩٦﴾ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا. ﴿٩٧﴾ [التوبة: ٥٥].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿٩٨﴾ أَيْحَسِبُونَ أَنَّمَا نُطْعِمُهُمْ بِشَيْءٍ مِّنْ مَّلٍّ وَنَبِينٍ. ﴿٩٩﴾ [المؤمنون: ٥٥-٥٦].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿١٠٠﴾ وَذِكْرَىٰ لِلْعَبِيدِينَ ﴿١٠١﴾ تَذَكُّرُهُمْ بِرَحْمَةِ اللَّهِ وَتَبْعَتْ فِي قُلُوبِهِم الْأَمَلُ فِي رَحْمَةِ اللَّهِ إِذَا صَبَرُوا وَتَذَكُّرُهُمْ بِفَضْلِ الصَّبْرِ كَمَا صَبَرَ أَيُّوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَكَانَتْ عَاقِبَةُ صَبْرِهِ رَحْمَةً عَاجِلَةً وَرَحْمَةً آجِلَةً.

﴿٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِسْمَاعِيلَ ﴿٨٧﴾ آتَيْنَاهُ رَشَدَهُ ﴿٨٨﴾ وَذَا الْكِفْلِ ﴿٨٩﴾ كَذَلِكَ ﴿٩٠﴾ كَانَ نَبِيًّا مِّنْ أَنْبِيََاءِ اللَّهِ ﴿٩١﴾ كُلٌّ ﴿٩٢﴾ مِنْهُمْ ﴿٩٣﴾ مِّنَ الصَّابِرِينَ ﴿٩٤﴾ وَمَنْ صَبَرَ إِسْمَاعِيلُ اسْتِعْدَادَهُ لَذَبْحِهِ ﴿٩٥﴾ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنِ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿٩٦﴾ [الصافات: ١٠٢] وَيَكْفِينَا خَبَرَ اللَّهِ تَعَالَى ﴿٩٧﴾ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ ﴿٩٨﴾.

قَالَ الشَّرْفِيُّ فِي (المصابيح): «وَأَمَّا ذُو الْكِفْلِ فَكَانَ نَبِيًّا كَفَلَ بِأَمْرِ وَفَى بِهِ فَضْعُ ثَوَابِهِ، قَالَ فِي (البرهان) وَلَعَلَّ اللَّهَ تَعَالَى وَصَفَهُم بِالصَّبْرِ لِنَقْتَدِي بِهِمْ، كَمَا قَالَ فِي أَيُّوبَ: ﴿٩٩﴾ وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ ﴿١٠٠﴾».

مُغَضِّبًا فَظَنَّ أَنَّ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٧٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ

﴿٧٧﴾ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٨﴾ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا ﴿٧٩﴾ لعلها الرحمة الكبرى في الآخرة أدخلناهم فيها بالعصمة وحسن الخاتمة فصاروا من أهل الدرجات الرفيعة في الجنة، وذلك بسبب صلاحهم السابق.

﴿٧٨﴾ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَضِّبًا فَظَنَّ أَنَّ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٧٩﴾ وَذَا النُّونِ ﴿٨٠﴾ آتَيْنَاهُ رَشَدَهُ، اذكر قصته ﴿إِذْ ذَهَبَ﴾ من عند قومه مهاجراً لهم ﴿مُغَضِّبًا﴾ لهم، وهو يونس عليه السلام، ومغاضباً صيغة مفاعلة، فالغضب منه على قومه إذ عصوه ومنهم عليه إذ دعاهم إلى الخروج من الكفر الذي ألفوه.

﴿فَظَنَّ أَنَّ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ هو عليه السلام لا يخفى عليه أن الله على كل شيء قدير ولكن ظن أن قد أدى ما عليه حين بلغ قومه الرسالة وأنذرهم وأقام عليهم الحجة وحذرهم من عذاب الله فظن أن ذلك غاية ما كلفه الله فهاجر من بينهم ظاناً أن الله لا يؤاخذهم؛ لأنه هاجر غضباً لله، فكانه ظن أن الله لا يقدر على عقابه حين ظن أنه لا حجة لله عليه؛ لأنه قد قام بما كلف في ظنه، وقيل في تفسير ﴿لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ لن نضيق عليه عيشه كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ قُدِّرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ﴾ [الطلاق: ٧] والله أعلم.

﴿فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ نادى ربه في ظلمات بطن الحوت وهو النون، وبه سمي يونس ذا النون؛ لأنه التقمه حين ألقي في البحر ﴿سُبْحَانَكَ﴾ أن يكون لك شريك أو سبحانه من ذلك ومن كل نقص.

الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُشَجِّي الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَزَكَّرِيَا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ

وفي هذا مع قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَّيْتُ فِي بَطْنِهِ﴾ الآية [الصفات: ١٤٣-١٤٤] مأخذان: التهليل من التسييح؛ لأنه تنزيه لله تعالى من أن يكون له شريك، والتسييح تنزيه من حيث أنه تباعد من كل نقص ومن كل عيب.

وقوله: ﴿إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ اعتراف بالخطيئة تذكّر أنه غالط في ظنه، وأنه كان يجب عليه البقاء في قومه حتى يأذن الله له بالتولي عنهم، فكان توليه عنهم قبل الأذن معصية، ومعصية المالك المنعم ظلم أي حيف مخالف للعدل.

﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُشَجِّي الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾ دعاءه ذلك ﴿وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ﴾ يشمل الغم في بطن الحوت وغيره، مثلاً الغم من المعصية بإبلاغه أن الله قد غفر له ﴿وَكَذَلِكَ نُشَجِّي الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي سنة الله أن ينجي المؤمنين إذا وقعوا في غم ورجعوا إلى الله وسألوه الفرج، وذلك حيث تقتضي الحكمة تعجيل الفرج بسبب الدعاء منهم، فإن اقتضت الحكمة إجابة الدعاء وتأخير الفرج فلا بد منه لو لم يكن إلا بالشهادة أو الموت إلى رحمة الله.

﴿وَزَكَّرِيَا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ ﴿وَزَكَّرِيَا﴾ آتيناه رشده، وإيتاء الرشد في هذا السياق هو مثل الهدى في (سورة الأنعام) من قوله تعالى في إبراهيم عليه السلام: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ﴾ الآيات، إلى قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمُ اقْتَدِ﴾ [٨٤-٩٠].

وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ ﴿٨٧﴾ وَالَّتِي أَحْصَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا

﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ﴾ دعا ربه قائلا: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ لا تذرني لا تتركني فرداً بلا ولد ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ أي وأنا أعلم أنك خير الوارثين لكني أحب أن يكون لي ولد يرثني ويرث من آل يعقوب، ومعنى ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ أنك تخلفني بأحسن الخلافة، وكذلك كل مؤمن، ومن أمثلة ذلك ما حكاه الله تعالى في (سورة الكهف): ﴿وَأُمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا﴾ [الكهف: ٨٢].

﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ﴾ ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾ لذكرياً لم نذره فرداً ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى﴾ يحتمل عطفه؛ لأنه المطلوب على أكمل وجه فكانه زيادة على المطلوب أو هو كالتفسير لاستجابة دعائه، ولعل هذا الارتباط بقوله: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾ هو سبب تأخير قوله تعالى: ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾ لأنه غرض غير متعين في دعاء زكريا، فكان نعمة زائدة مترتبة على دعائه.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا﴾ أي زكريا ويحيى وأم يحيى ﴿يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ في الأعمال الصالحات، فكان لهم فضيلة المسارعة وفضيلة الخيرات، فاستحقوا النعمة المذكورة ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا﴾ رغبة في فضل الله ورحمته ﴿وَرَهَبًا﴾ رهبة من عذابه ومن أسباب عذابه، وكذلك رغباً في نصر دينه ورهباً من غلبة المفسدين ﴿وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ﴾ متذللين متقادين مسلمين تسليمًا.

فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَهَا وَأَبْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿٦٠٩﴾ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴿٦١٠﴾ وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلُّ

﴿٦٠٩﴾ وَالَّتِي أَحْصَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَهَا وَأَبْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿٦١٠﴾ وَالَّتِي أَحْصَتْ فَرْجَهَا ﴿٦١١﴾ أَي مَرِيَمَ حَفِظَتْ فَرْجَهَا مِنَ الْعَصْيَانِ، وَفِي الْإِحْصَانِ دَلَالَةٌ عَلَى صِيَانَتِهَا لِنَفْسِهَا وَابْتِعَادِهَا عَنْ مِطَازِ الْعَصْيَانِ، آتَيْنَاهَا رَشْدَهَا ﴿٦١٢﴾ فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا ﴿٦١٣﴾ لِتَحْمِلَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَتُرْتَبِيبَ ذَلِكَ عَلَى إِحْصَانِهَا فَرْجَهَا؛ لِأَنَّ ذَلِكَ مِنْ أَسْبَابِ شَرَفِهَا بِالنَّفْخِ وَجَعَلَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ابْنًا لَهَا بِدُونِ أَبِي، وَفِيهِ رَدٌّ عَلَى الْيَهُودِ الَّذِينَ يَهْتَوُّهَا ه ﴿٦١٤﴾ وَجَعَلْنَهَا وَأَبْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿٦١٥﴾ لِأَنَّ ذَلِكَ دَلِيلٌ مِنْ دَلَائِلِ قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى فِيهَا وَفِي ابْنِهَا.

والراجع في النفخ المذكور: أنه كان سبباً لوجود جسد عيسى عليه السلام، ثم نفخ الروح في الجسد لأن النفخ فيها أسند إليها لا إلى الحمل، وفي بعض الآيات أسند إلى فرجها فهو نفخ غير النفخ في جسد عيسى عليه السلام، أو أن النفخ في جسده امتداد للنفخ السابق قبل العلوق به، وأضافه الله تعالى إليه حيث قال: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا﴾ لأنه جعله أمراً خارقاً للعادة في كونها علقت بعيسى عليه السلام، وتم خلقه في بطنها من غير أب، بل لذلك الروح المنفوخ فيها، فأضافه تعالى إليه كما أضاف روح آدم عليه السلام إليه في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ [الحجر: ٢٩] لأنه كان خارقاً تحول الطين إلى بشر يسمع ويبصر بسبب أمر من عند الله كانت به حياته، وعلى هذا فتسميته روحاً من حيث أنه في بطنها سبب بركة ووجود حمل ثم حي فسمي روحاً كما سمي القرآن روحاً، وكما قال تعالى: ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢].

إِلَيْنَا رَاجِعُونَ ﴿١٣﴾ فَمَنْ يَعْمَلْ مِنْ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ ﴿١٤﴾ وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا

ولعله - أيضاً - معنى تسمية روح آدم إلا أنه صار اسماً للروح الخاص الذي به حياة البدن والفرق بين المعنيين أن أحدهما أعم من الآخر.
وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ أي دليلاً من دلائل قدرة الله تعالى وعلمه، فعيسى عليه السلام ولد من غير أب، وتكلم في المهد بكلام حق وصواب، وخاطب بخطاب حكيم مر ذكره في (سورة مريم) وأمه حملت من غير نكاح، فكانا آيتين خارقتين للعادة، تدلان على قدرة جاعلهما كذلك وعلمه.

﴿١٣﴾ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴿١٤﴾ إِنَّ هَذِهِ الْأُمَّةُ الَّتِي مَرَّ ذِكْرُهَا مِنْ مُوسَى وَهَارُونَ وَإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَخَتَمَ ذِكْرُهَا بِمَرْيَمَ وَابْنِهَا كُلُّهَا أُمَّةً وَاحِدَةً تَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ وَتَدْعُو إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ، فَعَلَيْكُمْ أَنْ تَتَّبِعُوهُمْ وَتَقْتَدُوا بِهِدَاهُمْ فَهُمْ قُدُوتُكُمْ؛ لِأَنَّهُمْ رَسُلُ اللَّهِ مَا خَلَا مَرْيَمَ، دَعْوَتُهُمْ وَاحِدَةٌ وَمَرْيَمَ صَدِيقَةٌ هِيَ مَعَهُمْ أَوْتَيْتَ رَشْدَهَا، وَكُلُّهُمْ قُدُوةٌ لِلْبَشَرِ الْمَوْجُودِينَ وَالْمَاضِينَ فِي عَصْرِهِمْ وَبَعْدِهِمْ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ﴾ أَي مَالِكُكُمْ ﴿فَاعْبُدُونِ﴾ وَلَا تَشْرِكُوا بِي مَا لَا يَمْلِكُ مِنْكُمْ شَيْئاً.

﴿١٣﴾ وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلُّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ ﴿١٤﴾ وَتَقَطَّعُوا عَظْفَ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ﴾ فَمَقْتَضَى ذَلِكَ لَوْ اسْتَعْمَلَ النَّاسُ عَقْلَهُمْ أَنْ يَتَوَحَّدُوا فِي دِينِهِمْ عَلَى مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ وَعَلَى مَقْتَضَى عِبَادَتِهِمْ لِلَّهِ، وَلَكِنْهُمْ تَقَطَّعُوا ﴿أَمْرَهُمْ﴾ الَّذِي جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ وَدَعَتْهُمْ إِلَيْهِ، فَاخْذَتْ كُلُّ فِرْقَةٍ قِطْعَةً مِنْهُ وَتَرَكَتْ غَيْرَهَا مِنْ أَمْرِهِمُ الَّذِي كَانَ يَنْبَغِي أَنْ تَأْخُذَ بِهِ كُلُّهُمْ، وَقَوْلُهُ: ﴿بَيْنَهُمْ﴾ دَلَالَةٌ عَلَى تَفْرِقِهِمْ فِيمَا هُوَ فِي الْأَصْلِ مَشْتَرِكٌ بَيْنَهُمْ.

أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٥﴾ حَتَّىٰ ٢ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴿١٦﴾ وَأَقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَخِصَةٌ

قال بعض المفسرين: «فقوله: ﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾ استعارة بالكنية والمراد به أنهم جعلوا هذا الأمر الواحد وهو دين التوحيد المندوب إليه من طريق النبوة وهو أمر وحداني، قطعاً متقطعة وزعوه فيما بينهم أخذ كل منهم شيئاً وترك شيئاً...» الخ.

وقوله تعالى: ﴿كُلُّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ﴾ كل المتفرقين إلينا إلى ملك الملوك راجعون وسيحكم بينهم، وجملة ﴿كُلُّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ﴾ حالية فيما يترجح عندي، أي تفرقوا في حال أنهم إلينا راجعون كلهم.

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْرَ آَلِصٍّ لِّحَتِّ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾ ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ﴾ تفریع على ذکر التفرق ورجوع الكل إلى الله، أو على ذکر الرجوع إلى الله ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْرَ آَلِصٍّ لِّحَتِّ﴾ ما أوجب الله عليه ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ يبعثه إيمانه على اجتناب الإصرار على المعاصي ﴿فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ﴾ لا يلغى بلا ثواب، والكفران هنا مقابل الشكر فنفيه إثبات للشكر؛ لأن العامل هذا مؤمن تقى ﴿وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾ فلا يضيع، يحتمل ﴿كَاتِبُونَ﴾ معنى: أنا نحفظه ولا ننساه كما لا ينسى المكتوب، ومعنى أنا نأمر الحفظة أن يكتبوه.

﴿وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ لا يصح لهم أن هلاکهم في الدنيا وعذابهم العاجل يكفي من عذابهم ويغني عن رجوعهم في الآخرة للحساب والجزاء، حرام عليهم ﴿أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ بل رجوعهم محتوم لا بد منه ﴿كُلُّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ﴾ من عجل عذابه، ومن لم يعجل.

هذا المعنى هو ظاهر التركيب بدون تأويل، وقيل في تفسير هذه الآية: حرام عليهم أنهم يرجعون إلى الدنيا، وتحتمل بالنظر إلى السياق: وحرام ذلك أي الشكر على السعي الحسن وكتابته بل عملهم حابط ولكن في هذا تقدير ضمير: وهو حرام أو وحرام هو، والأصل عدم التقدير.

وأما قوله تعالى: ﴿أَنْهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ فيصح على هذا المعنى الأخير أنه تعليل لقوله تعالى: ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾ أي لأنهم لا يرجعون إلى الله من كفرهم.

﴿حَتَّىٰ ٢ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِّنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾ قال بعض المفسرين: «(يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ) قبيلتان همجيتان كانتا تسكنان شمال شرقي قارة آسيا» انتهى.

﴿حَتَّىٰ ٢﴾ يترجح أنها غاية أي ما بعدها غاية لهلاك القرى المحرم عليها، حرام على قرية أهلكتها حتى فتح ياجوج وماجوج واقترب الوعد الحق ﴿إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾ فتحت بلدهم قهراً ودخلها قوم غيرهم، وقد فسر بفتح السد وهو خلاف الظاهر؛ لأن السد إنما وضع لمنعهم عن الخروج إلى من طلب ذا القرنين أن يبني السد ففتحه لا يعتبر فتحاً على ياجوج وماجوج بل هم الفاتحون له، فكان مقتضى ذلك أن يقال: إذا فتحت ياجوج بالبناء للفاعل، وأيضاً فتحه لا يعتبر فتحاً لبلد ياجوج وماجوج ودخولاً عليهم؛ لأنه يمكن أن يفتح وهم في منعة من عدوهم، فمن البعيد جعل فتح السد فتحاً لياجوج وماجوج جملة، وأيضاً يمكن فتح ياجوج وماجوج في هذا العصر لو كان السد لم يفتح بواسطة الطائرات وجند المظلات، مع أنه يقال: إنه قد فتح اليوم ولكن ياجوج وماجوج كانوا قبيلتين.

أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَتَوَلَّيْنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ

وفي هذا العصر يمكن أن قد صاروا شعبين ولا يحتاجون إلى الخروج على زرع من حولهم وصاروا قبائل متعددة بأسماء مختلفة غير اسمي ياجوج وماجوج، وقد نسي هذان الاسمان لطول المدة وكثرة الذراري.

فظهر أن المراد: فتح بلاد ياجوج وماجوج وأن ذلك من علامات قرب الساعة، وأنه عند ذلك تهلك قرى، وحرام عليهم أنهم لا يرجعون، فهي حروب عالمية مدمرة يكون هلاك القرى فيها هو نهاية الهلاك للقرى وغايته وليس بعده بناء قرى أي مدن بل تقوم القيامة قبل أن يتها ذلك - والله أعلم. وأما قوله تعالى: ﴿وَهُمْ مِّنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾ فالحدب المرتفع من الأرض، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام): «معناه: من كل نشز وارتفاع و﴿يَنْسِلُونَ﴾ معناه: يعجلون في مسيرهم» انتهى، ونسولهم من كل مرتفع يناسب ذلتهم بعد فتح بلادهم وخوفهم لأجل قوله تعالى: ﴿مِّنْ كُلِّ حَدَبٍ﴾ ولم يقل: في كل حدب، فهم إذا صاروا في مرتفع خافوا أن يراهم أعداؤهم فنسلوا - والله أعلم.

﴿وَأَقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَتَوَلَّيْنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ ﴿وَأَقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ﴾ الذي هو القيامة عند فتح ياجوج وماجوج وهلاك القرى ﴿فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ففاجأتهم القيامة وأهوالها فشخصت أبصارهم صارت متجهة إلى جهة كالمحتظر قائلين: ﴿يَتَوَلَّيْنَا﴾ حين رأوا أنهم قد صاروا في الآخرة، وأنهم صائرون إلى العذاب: ﴿قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا﴾ ولكن ليست غفلتهم لعدم الإنذار، فقالوا: ﴿بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ لأنه قد جاءهم النذير، فكذبوا وقالوا: ﴿مَا نَزَلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ [الملك: ٩].

أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴿١٨﴾ لَوْ كَانَتْ هَتُولَاءِ ۚ إِلَهَةٌ مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ

﴿١٨﴾ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ * لَوْ كَانَتْ هَتُولَاءِ ۚ إِلَهَةٌ مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّكُمْ ﴿٢٠﴾ أيها المشركون ﴿٢١﴾ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴿٢٢﴾ كلكم حصب جهنم، وقوله تعالى: ﴿٢٣﴾ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٤﴾ ظاهره في الجمادات وفيما يلحق بها من العقلاء الراضين بعبادتهم مثل فرعون.

وقوله تعالى: ﴿٢٥﴾ حَصْبُ جَهَنَّمَ ﴿٢٦﴾ قال في (الصحيح): «والحصب: ما يحصب به في النار أي يرمى، قال أبو عبيدة في قوله تبارك وتعالى: ﴿٢٧﴾ حَصْبُ جَهَنَّمَ ﴿٢٨﴾ كل ما ألقيته في النار فقد حصبتها به» انتهى.

وقال الشرفي في (المصابيح): «قال الحسين بن القاسم عليه السلام، معنى: ﴿٢٩﴾ حَصْبُ جَهَنَّمَ ﴿٣٠﴾ أي بمنزلة حصبها وحجارتها والحصب هو الحصى، قال الشاعر:

حلّقوا [الرؤوس] وحصّبوا كل الجمر بالسبع والسبع [بـ]السبع الآخر»

انتهى، وحكى الشرفي بعد هذا: أنه قال الإمام الهادي في تفسير هذه الآية ﴿٣١﴾ حَصْبُ جَهَنَّمَ ﴿٣٢﴾: «فهو حطبها ووقودها» انتهى.

وفي (لسان العرب): والحصب: كل ما ألقته في النار من حطب وغيره، وفي التنزيل: ﴿٣٣﴾ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ ﴿٣٤﴾ قال الفراء: ذكر أن الحصب في لغة أهل اليمن: الحطب، وروي عن علي كرم الله وجهه أنه قرأ: {حطب جهنم} وكل ما ألقته في النار فقد حصبتها به، ولا يكون الحصب حصباً حتى يسجر به، وقيل: الحصب: الحطب عامة» انتهى، وهذه الأقوال كلها ترجع إلى أنهم في جهنم.

وقوله تعالى: ﴿أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ صائرون إليها وداخلون فيها كقوله تعالى: ﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرِثًا﴾ [مريم: ٨٦] قال الراغب: «الورود: أصله قصد الماء - ثم قال - : واستعمل في النار على سبيل الفضاة» انتهى، لعله يعني على سبيل التهكم بأهلها.

﴿لَوْ كَانَتْ هَتُولَاءَ إِلَهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ﴿لَوْ كَانَتْ هَتُولَاءَ﴾ خطاب لأهل النار المشركين، والإشارة إلى أصنامهم ونحوها لو كانوا آلهة ما وردوا جهنم ﴿وَكُلٌّ فِيهَا﴾ أي في جهنم ﴿خَالِدُونَ﴾ أي باقون العابدون والمعبودون، ويحتمل: أن الإشارة إلى من اتخذوهم آلهة من الأحياء بل هو الراجح، لقوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ﴾ [هود: ١٠٦].

قال الشرفي في (المصابيح): «قال الهادي عليه السلام: أولئك المتجبرون على الله الفراعنة والطواغيت والكفرة العفاريت، الذين أضلوا عباد الله واتخذوهم خولاً، واستمالوهم إلى عبادتهم بزخرف الدنيا، والعبادة هاهنا: هي الطاعة، فأخبر الله أنه من مات من أولئك فإنهم خالدون في جهنم لهم فيها زفير، والزفير: فهو إلقاؤه والتوجع والكرب والتألم للعذاب» انتهى.

وقد بسط لتحقيق هذا المعنى الذي ذكره الإمام الهادي عليه السلام، الناصر في (البساط) واحتج له، أعني لإثبات أن الطاعة للشيطان ولأعداء الله شرك غير شرك العدل بالله تعالى.

﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ قال في (الصحيح): «والزفير: اغتراق النفس للشدة، والزفير: أول صوت الحمار، والشهيق: آخره» انتهى المراد.

سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ فالراجح: أنه عبارة عن شدة صوت النار؛ لأن الله تعالى قال: ﴿إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيْطًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان: ١٢] فكيف إذا صاروا فيها، فإن صوتها يشغل أسماعهم حتى لا يسمعوها إلا ما شاء الله أن يسمعه في بعض الحالات بأمر خارق كسماعهم لنداء أصحاب الجنة لهم، المذكور في (سورة الأعراف) فهو خارق للعادة، ولذلك قال في الذين سبقت لهم من الله الحسنى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ لبعدهم عنها.

﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ * لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾ ﴿سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ﴾ سبقت لهم منا الكلمة الحسنى أو العدة الحسنى أو نحو هذا، كقوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾ وقوله تعالى في (سورة النجم): ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَىٰ﴾ [آية: ٣١] وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ [القارعة: ٦-٧] وسبق الوعد لهم عند خروج آدم من الجنة: ﴿فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨].

وقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ أي عن جهنم ﴿مُبْعَدُونَ﴾ في مكان بعيد عن جهنم، وقوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾ لا يسمعون حسيسها لبعدهم عنها، وحسيسها صوتها الذي يكون من اشتعالها.

الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّيْنَهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ

قال الشرفي: «أي صوتها الذي يحس بالسمع» انتهى، فجعله (فعيلاً) بمعنى (مفعول) فأما صاحب (الصحيح) فجعله اسماً للصوت الخفي - ثم قال :- «وقال الله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ كأنه يعني أنه استعمل في مطلق الصوت». وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِي مَا أَشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾ باقون لا يموتون ولا يفنى ما اشتتهت أنفسهم، لأن ما أتلّفوه أبدل فالجنس باق أبداً.

﴿لَا تَحْزَنُهُمُ الْفَرَغُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّيْنَهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ قال الشرفي في (المصاييح) في تفسير ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى﴾ [الأنبياء: ١٠١]: «قال الهادي عليه السلام: يعني وجب لهم منا الحكم بالحسنى في دار الدنيا، وتقدم منا في حياتهم الدنيا وجوب [في نسخة (المصاييح): وجواب وهو غلط - تمت] الوعد بالحسنى والحسنى فهي الثواب والرحمة ووجوب المغفرة ورفع الدرجة».

ثم قال الشرفي: «قال عليه السلام - يعني الإمام الهادي عليه السلام - : يخبر أن هؤلاء الذين قد وجب لهم من الله في الدنيا ما وجب من الحسنى عنها مبعدون فهي النار نعوذ بالله من النار، والذين سبق لهم من الله الحسنى هذا في الدنيا والآخرة، فهم المؤمنون بالله العارفون به المثبتون لعدله وتوحيده القائلون [في نسخة (المصاييح): القائمون، والراجع أنه غلط - تمت] بصدق وعده ووعيده والعارفون بفضل الجهاد في سبيله، الموالون لأوليائه والمعادون لأعدائه والمؤدّون لجميع فرائضه، القائمون بطاعته التاركون لمعصيته المستقيمون على واضح سبيله رحمة الله عليهم، ونسأل الله أن يجعلنا في حكمه كذلك، وأن يرزقنا برحمته ذلك، وأن يفعل بنا ما يفعل بأولئك، إنه ولي حميد» انتهى.

نُعِيدُهُ ﴿١٤﴾ وَعَدَّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّ فِي هَذَا

وقوله تعالى: ﴿لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾ أي أهوال القيامة لا يحزنون من أجلها لو ثوقهم بالسلامة وتبشير الملائكة لهم بالجنة، وقوله تعالى: ﴿وَتَتَلَقَّوْنَهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ لعلها تلقاهم عند خروجهم من قبورهم وعند سوقهم إلى الموقف وعند بلوغهم الموقف فلاجل تكرار اللقاء قال تعالى: ﴿تَتَلَقَّوْنَهُمْ﴾ ولم يقل: تلقاهم - والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ أي تتلقاهم الملائكة قائلة لهم: هذا يومكم الذي كنتم توعدون وهو نصركم ويوم عزكم ويوم سعادتكم الذي كنتم توعدون؛ لأنه اليوم الآخر الذي قال الله تعالى فيه: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُادُ﴾ [غافر: ٥١] وقال تعالى: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [يونس: ٦٤] وغير ذلك.

﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكِتَابِ﴾ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ ﴿١٧﴾ وَعَدَّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٨﴾ ﴿يَوْمَ﴾ إما ظرف منصوب بقوله تعالى: ﴿لَا يَحْزَنُهُمْ﴾ أو ﴿تَتَلَقَّوْنَهُمْ﴾ وإما مفعول به محذوف أي: اذكر ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ﴾ وهذا كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ﴾ [التكوير: ١١].

وقوله تعالى: ﴿كَطَيِّ السِّجِلِّ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): «قال الحسين بن القاسم عليه السلام: ﴿كَطَيِّ السِّجِلِّ﴾ أي كطي الورق من القراطيس للكتاب المسطور» انتهى.

ولعل أصله المسطور فيه، ومعناه: أن السجل هو الورق المكتوب فيه، والكتاب هو المكتوب في الورق، ومعنى ذلك: أن طي السموات سهل عليه كطي الورق لما فيه من المكتوب، فـ(السجل) فاعل (طي) أضيف المصدر إلى فاعله، و(اللام) في ﴿لِلْكِتَابِ﴾ (لام التعدية) فالمعنى: أن الورق يطوي ما فيه بانطوائه عليه، قال الراغب: «والسجل، قيل: حجر كان يكتب فيه، ثم سمي كل ما يكتب فيه سجلاً» انتهى.

﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ﴾ حجة لوقوع ذلك اليوم؛ لأن طي السماء أوله فالمعنى أنا قادرون على الإعادة كما نحن قادرون على الإبداء، ثم قال تعالى: ﴿وَعَدًا عَلَيْنَا﴾ تأكيداً للخبر بوقوعه أي موعوداً علينا الوفاء به، ثم قال تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا فَعِلِينَ﴾ أي من شأننا وعادتنا أن نفعل ما نشاء.

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ ﴿الزُّبُورِ﴾ هو الكتاب الذي آتاه الله نبيه داود عليه السلام، وقوله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ﴾ أي كتبنا الذكر أولاً ثم كتبنا: ﴿أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ فما هو الذكر الذي كتب من بعده؟

السراج: أنه ذكر الله - والله أعلم - كتبه في الزبور كما كتب في القرآن (سورة الإخلاص) وغيرها من ذكر الله، وقوله تعالى: ﴿يَرِثُهَا﴾ إن كان فعل العادة الذي يفيد التكرار، فالأرض هي هذه التي نحن فيها، فكثيراً أهلك الله الأمم الظالمة وأورث بعدهم الأنبياء ومن آمن معهم، مثل: قوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم إبراهيم، وقوم لوط، وأهلك فرعون وقومه.

ثم قال تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا﴾ الآية [الأعراف: ١٣٧] وقال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص: ٥-٦].

لَبَلَّغًا لِّقَوْمٍ عَبِيدِينَ ﴿١٦﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٧﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُهُ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُمْ مُّسْلِمُونَ ﴿١٨﴾

وقال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ﴾ الآية [النور: ٥٥] وقال تعالى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١].

فعلى هذا: تكون هذه بشرى لداود عليه السلام، ولنبينا محمد ﷺ، بالتمكين في الأرض في حال أنه بمكة ومن معه مستضعفون، وهذه السورة (مكية) وإن كان فعل (يرث) بمعنى الإستقبال احتملت معنيين: البشارة بالتمكين في هذه الأرض لداود عليه السلام، ولمن بعده من الصالحين، وذكرت لشموها نبينا ﷺ وشموها للصالحين من أمته، واحتملت: البشارة بالجنة بأرض الجنة، والأول عندي أقوى أي أن يرث هو فعل العادة - والله أعلم.

﴿إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَّغًا لِّقَوْمٍ عَبِيدِينَ﴾ ﴿إِنَّ فِي هَٰذَا﴾ البيان للحق من أول السورة ﴿لَبَلَّغًا﴾ إما بلاغاً للحجة على المشركين وإما كفاية في إبطال الشرك وإثبات الرسالة وسائر فوائد السورة، وقوله تعالى: ﴿لِّقَوْمٍ عَبِيدِينَ﴾ أي عابدين لله وحده، فهم الذين ينفعهم هذا البلاغ، أو فهم الذين نفعهم هذا البلاغ، وهذا أرجح لأن بعضهم كانوا مشركين فآمنوا حين سمعوا كلام الله وانتفعوا بما فيه من الحجج.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ لتدعوهم إلى النجاة من النار والفوز بالجنة وتخرجهم من الظلمات إلى النور لتعلمهم الكتاب والحكمة وتزكيهم، فمن اهتدى فلنفسه، ومن ضل فمن عند نفسه أتى؛ لأنه جاءته الرحمة فلم يقبلها.

فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ ءَاذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ۖ وَإِنْ أُدْرِيَ أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدُ ۚ مَا تُوعَدُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١٥﴾ وَإِنْ أُدْرِيَ لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتْنَعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٦﴾ قُلْ رَبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ ۚ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٧﴾

﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَىٰ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ ﴿قُلْ﴾ يَا رَسُولَ اللَّهِ لِلْمُشْرِكِينَ ﴿إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَىٰ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ﴾ لا غير هذا مما يخالفه ﴿فَهَلْ أَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾
 فهل أنتم مسلمون وجوهكم لله تعبدونه وحده، فإنه لا دين لله خلاف هذا.

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ ءَاذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ۖ وَإِنْ أُدْرِيَ أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدُ ۚ مَا تُوعَدُونَ﴾ ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ عن دعوتك لهم إلى إسلام أنفسهم لله ﴿فَقُلْ﴾ لهم: ﴿ءَاذَنْتُكُمْ﴾ أي أعلمتكم، كما قال الشاعر:

أذنتنا بينها أسماء رُبُّ ثَاوِيْمَلٍ مِنْهُ الثَّوَاءُ

يعني: أعلمتكم ﴿عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ أي كلكم قويكم وضعيفكم، وغنيكم وفقيركم، فقد أعلمتكم ما توعدون، ولم يبق لكم عذر ﴿وَإِنْ أُدْرِيَ﴾ أي لا أدري ﴿أَقْرَبُ﴾ ما توعدون من العذاب ﴿أَمْ بَعِيدُ﴾؟ وهذا لأن القرب والبعد إضافي، ولعل المراد: إن أدري أقرب يعجل في الدنيا أم بعيد يؤجل في الآخرة فهو بعيد بالنسبة إلى الدنيا.

﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾ ﴿إِنَّهُ﴾ أي الله ﴿يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ﴾ ومنه جهركم بالكفر والتكذيب بآيات الله أيها الكافرون ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾ سواء في صدوركم أو عن الرسول ﷺ والمسلمين فهو مجازيكم عليه كله.

﴿وَأِنْ أَدْرَىٰ لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَّعَ إِلَىٰ حِينٍ﴾ ﴿لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ﴾ لعل تأخير ما توعدون، وهذا التأخير قد فهم من قوله: ﴿أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدُ مَا تُوعَدُونَ﴾ ﴿لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ﴾ اختبار لكم أو إمهال تزدادون فيه إثمًا ﴿وَمَتَّعَ﴾ لكم ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي إلى أجل محدود، ثم يأتي ما أنذرتكم أو ينقطع المتاع إلى غير رجعه.

﴿قُلْ رَبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ ﴿قُلْ﴾ يا رسول الله على قراءة: ﴿قُلْ﴾ بضم (القاف) أمر بالقول، وعلى قراءة ﴿قُلْ﴾ أي قال الرسول: ﴿رَبِّ أَحْكُم﴾ بيني وبين قومي ﴿بِالْحَقِّ﴾ أو احكم بيني وبين من كذبنى من قومي أو من غيرهم، وحكمه سبحانه حق، وإنما هو وصف لحكم الله أنه بالحق، أي قيد واقعي فكأنه قال: احكم بحكمك الذي هو حق، وكان هذا الدعاء يُسمع به قومه، ولذلك عطف عليه خطابهم بقوله: ﴿وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ فقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم فأبيتم إلا التكذيب والإستهزاء.

﴿وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ﴾ هو الذي نستعينه ﴿عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ من أقاويلكم الباطلة، فرحمته لنا بإعانتنا على الصبر، وبالتعجيل للنصر هي التي نرجوها؛ لأنه قريب مجيب لدعوة الداعي، كيف لا وهو الذي أمره بهذا الدعاء؟! وبالله التوفيق.

تمت (سورة الأنبياء) وتفسيرها بعون الله تعالى

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وعلى آله وسلم.

فهرس تقریبي لأهم المسائل والمواضيع التي تضمنها هذا المجلد

م	الموضوع	اسم السورة	رقم الآية
١	العلاقات وأنواعها ووجوب الحفاظ عليها	الرعد	٢١
٢	تفسير «يمحو الله ما يشاء ويثبت»	الرعد	٣٩
٣	الجن معمرين	الحجر	٣٦
٤	تفسير «تبياناً لكل شيء»	النحل	٨٩
٥	عاقبة من يتخذ العهد وسيلة للمكر	النحل	٩٤
٦	معنى «فاستعذ بالله»	النحل	٩٨ - ١٠٠
٧	معنى النسخ في القرآن	النحل	١٠١
٨	معنى «سميع عليم»	الإسراء	١
٩	في تفسير التنبذير ومعنى «إخوان الشياطين»	الإسراء	٢٦
١٠	«ولا تقف ما ليس لك به علم»	الإسراء	٣٦
١١	الدليل على إثبات الحكم	الإسراء	٤٠
١٢	ترجيح كون الشجرة الملعونة في القرآن بني أمية	الإسراء	٦٠
١٣	دليل على تحريم الغناء والملاهي	الإسراء	٦٤
١٤	تأويل «لا تشد الرحال»	الإسراء	٦٦
١٥	اسم «إمام» غير خاص بأمام الهدى	الإسراء	٧١
١٦	لفتة رائعة في الدلالة على أهمية التسبيح ومعناه	طه	٣٣ - ٣٤
١٧	تفسير الوحي لأم موسى «ع»	طه	٢٨
١٨	من يشفع يوم القيامة؟	طه	١٠٩
١٩	كيف نتأول لأدم في أكله من الشجرة	طه	١٢١

محتويات الجزء الرابع

الصفحات		السورة المفسرة	رقم السورة
من	إلى		
٥	٦٤	سورة الرعد	١٣
٦٥	١٢٢	سورة إبراهيم	١٤
١٢٣	١٦٦	سورة الحجر	١٥
١٦٧	٢٦٤	سورة النحل	١٦
٢٦٥	٣٦٠	سورة الإسراء	١٧
٣٦١	٤٣٦	سورة الكهف	١٨
٤٣٧	٤٩٠	سورة مريم	١٩
٤٩١	٥٥٤	سورة طه	٢٠
٥٥٥	٦٢٢	سورة الأنبياء	٢١
٦٢٣		فهرس بأهم المواضيع والمسائل	
٦٢٤		فهرس بمحتويات المجلد	

مجمع التفسير